

شفاية الأهل

في الترد على الشبهات

للمصنف العلامة أبي العباس محمد بن أحمد بن محمد بن أبي

والمتمم في عام 1342 هـ

المجلد الأول

استوبيلية

المطبعة كعبة الفتوة بمكة

عام 1342 هـ : الطبع في مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نَيْلُ الْبَهَائِ

فِي الرَّدِّ عَلَى النَّبَهَائِيِّ

لِلْمَوْلَانَا الْعَلَمَاءِ وَالْمُؤَلَّفِينَ لَهُمْ

الْمَوْلَانَا الْعَلَمَاءِ وَالْمُؤَلَّفِينَ لَهُمْ

الجزء الأول

اهتمود طبعه

المحقق: السيد محمد اسماعيل

الطبع: مطبعة العلوم والآداب ٨ جلم نباكستان

اهتم بطبعه :

الحافظ عبدالغفور محمد اسماعيل

الرئيس العام لجامعة العلوم الاثرية

بمدينة جهلم باكستان

طبع : المطبعة العربية : للاهور

تاريخ : ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أحمدته سبحانه فهو المتوحد في الجلال والكمال ، والمستحق للحمد في كل حال من الاحوال ، تعالى وتقدس عما لا يليق بجلاله من الاقوال والافعال ، (له ما في السموات وما في الارض ، من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) فهو الكبير المتعال ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ولا ند ولا مثال ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أظهر الله به الدين بعد الافول والاضمحلال ، فحمل راية التوحيد وحمل حماه حتى زال الشرك والضلال ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه واتبع سنته الى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد فقد اقتضت مشيئة الله تعالى أن يكون الحق في صراع مع الباطل ويكون للحق أهل وأنصار ، وللباطل أهل وأنصار ، ولكن العاقبة الحميدة للحق وأهله ، ولو ظهر الباطل وشاع في زمن من الازمان فانه لا بد أن يزهد ويندحض في مقابلة الحق ، فانا اذا نظرنا الى الرسل والانبياء من أولهم الى آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وجدنا أنهم قد تعرضوا لصراع عنيف مع أممهم ، فقوتلوا وأوذوا وهم صابرون ، يدعون الى دين الله ويجاهدون في سبيله ، حتى أتاهم نصر الله ، فظهر الحق وزهد الباطل (قل جاء الحق وزهد الباطل ان الباطل كان زهوقا) واذا تبعنا أمة محمد صلى الله عليه وسلم رأينا الكثير من أئمة الاسلام الاعلام الذائدين عنه والحامين لحماه قد تعرضوا لكثير من الاذى بالاقوال والافعال ، وصاروا في صراع مع دعاة البدع والضلال ، فلم يهن ذلك عزمهم ، ولم يفت في عضدهم أن ييطلوا الباطل ويزهقوه ويدمغوه بالحق ، ويردوا كيد أولئك المتدعة والضلال في نحورهم ،

ويسكتوا حججهم الواهية بأدلة الكتاب والسنة ، ومن بين أولئك المتسدعة
النبهاني صاحب كتاب (شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق) الذي ذكر
فيه الكثير من الاباطيل والبدع وسب فيه بعض أئمة المسلمين وشنع بهم ، فقام
عليه أنصار الحق وردوا عليه ، وأدحضوا ما أورده في كتابه هذا من الاباطيل
والبدع ، ومن جملة من تصدى للرد عليه العلامة أبو المعالي محمود شكري
الألوسي في هذا الكتاب (غاية الاماني في الرد على النبهاني) الذي يخرج
على الامة الاسلامية اليوم وهي أشد ماتكون تعطشا لمثله .

وهو كتاب جليل القدر ، جيد جدا في موضوعه وهدفه العام : لأن
مؤلفه قد قام برد ما أورده النبهاني في كتابه (شواهد الحق في الاستغاثة بسيد
الخلق) من بدع وآقوال مخالفة للشرع ، وما شنع به على بعض الائمة الاعلام
الذين قاموا بالدعوة الى توحيد الله ، والنهي عن كل ما يصاد هذا التوحيد أو
ينافي كماله الواجب - كشيخ الاسلام ابن تيمية ، وشيخ الاسلام محمد بن
عبد الوهاب ، وغيرهما - فأجاد وأفاد رحمه الله وجزاه خيرا .

وهذا الكتاب لم يطبع سوى مرة واحدة في حياة المؤلف وبصورة سرية
لظروف اقتضت ذلك أشير لها في الترجمة . كما يظهر أن توزيعه لم يكن بكمية
كبيرة ولم تتداوله الايدي بكثرة ، ونظرا لذلك ولقد تم طبعته الاولى كان
قد اختفى زمنا طويلا وكاد أن ينعدم ، ولكن المخلصين من العلماء لم تظمن
ضمائرتهم ، ولم تتركهم غيرتهم الدينية أن يسكتوا حتى ينعدم أو يصعب
وجوده ، فقد قام صاحب الفضيلة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رئيس
الاشراف الديني بالمسجد الحرام بعرض فكرة إعادة طبع هذا الكتاب ، فما أن
علم أصحاب الوجاهة والذكر الطيب (محمد بن عبد الله الجميع ، وأبناء أخيه
عبد العزيز : محمد ، وعبد الرحمن ، وحمد) حتى أسرعوا في تلبية هذه الفكرة ،
واستعدوا بإعادة طبعه على نفقتهم الخاصة ، وتوزيعه على العلماء والمتعلمين ،
طلبا للأجر والثوبة عند الله ، وليكون لهم ذلك لسان صدق في الآخرين ،
فيقتني آثارهم من بعدهم من المحسنين ، ويصنع مثل صنيعهم ، وتلهج الألسن
بالدعاء بالرحمة والمغفرة لهم .

وهم بهذا انما يهدون مكرمة عظيمة للعلم وطلابه ، وليست الاولى من

نوعها فقد قاموا بطبع كتب ورسائل قيمة غير هذا منها (الجامع الفرط)
يحتوي على عدة كتب ورسائل لأئمة الدعوة الاسلامية ، طبعوه أولا فلما نفذت
الطبعة الاولى طبعوه مرة ثانية ، ومنها كتاب (دواء القلوب والابدان من
وساوس الشيطان) للشيخ عبد الله الخليلي امام وخطيب المسجد الحرام ،
ومنها رسالة (السلف بين القديم والجديد) للاستاذ فالح المهدي المدرس
في كلية الشريعة بالرياض ، وقد وزعت تلك الكتب على المشائخ وطلاب العلم
كما أنهم كثيرا ما يقومون بشراء كميات من الكتب الدينية النافعة ويوزعونها
ولم يقتصروا على الاسهام في نشر العلم بطبع الكتب والرسائل وشرائها ، بل
قد ساهموا في كثير من المشاريع الخيرية الاخرى ، كبناء المساجد وتأثيثها ،
واعانة المتكويين والمحتاجين وغير ذلك ، وبالجملة فهم ممن لهم حظ وافر في
وجوه البر والاحسان ، ومثل يحتذى في المسارعة لفعل الخير ، فسأل الله أن
يزيدهم خيرا الى خيرهم وأن يكثر من أمثالهم من أثرياء بلادنا فيحذوا حذوهم
ويصنعوا مثل صنيعهم في المساهمة في نشر العلم والقيام بالكثير من المشاريع
الخيرية الاخرى •

وحين عرض علي القيام بتصحيح طبع هذا الكتاب رأيت من واجبي تلبية
ذلك - وان كنت مشغولا - لأن فيه مساهمة في فعل الخير ، ورجاء أن
أشترك مع المحسنين في الأجر ، وبعد اطلاعي عليه رأيت فيه من الاخطاء
المطبعة الشيء الكثير ، خصوصا في الآيات القرآنية ، فاجتهدت في تصحيح
تلك الاخطاء حسب قوائم الخطأ والصواب المطبوعة مع الكتاب ، أما الآيات
القرآنية فقد قابلتها على ما في المصحف ، وعزوت كل آية الى سورتها تنميما
للفائدة ، ولتسهيل الرجوع اليها عند الحاجة ، وقد أضع بعض تعليقات قليلة
أرى من الافضل وضعها ، والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب ، ويجزي فاشره
والمسبب في نشره أحسن الجزاء ، وأن يجزيني معهم وسائر اخواني المسلمين
بعفوه ورحمته ، ويوفق أثرياء المسلمين وعلماءهم الى احياء كتب السلف
ونشرها كلما نفذت انه سميع مجيب ، وصلى الله على محمد وآله وسلم •

غيب بن محمد الغيب
أحد قضاة محكمة الرياض الكبرى

يكتبون لنا في الشرق والغرب يسألوننا أن نرد على النبهاني ، وكذا من اغتروا بقوله ونقوله ، وظنوا أن قولنا في الاعتذار عن عدم قراءة كنبه والرد عليها أنه لا يوثق بعمله ولا ناله هو من قبيل السب ، وحاشا لله ما هو الا مانعته فيه وفي كنبه بعد النظر في بعضها ، ورؤية ما فيها من الاحاديث الموضوعة والنقول المكذوبة ، والاستنباطات الباطلة من جعل نفسه بالاستنباط مجتهدا وهو ينكر الاجتهاد ، ويعترف بأنه ليس أهلا له ، انتهى كلام صاحب المنار .

(وفاته رحمه الله)

ولما كان عام ١٣٣٧ هـ ابتلي برمل بثانته ، فلم يهتم به ، وظن أنه عرض زائل ، فكان كما ظن ، فارقه الألم ، الا أنه لم يزل كامنا والرمل يتراكم شيئا فشيئا حتى سد المجرى فازداد عليه الألم - وذلك بعد عامين من أول حدوثه به - واتصل ببعض الاطباء ، ولم ينفذ فيه العلاج الا أنه خفف بعض الألم ، ونصحه الاطباء عن كثرة المطالعة والتدريس وإتباع الفكر ، ولما دخلت العشر الاخيرة من رمضان من سنة ١٣٤٢ هـ أصيب بذات الرئة ، وأيقن بلقاء ربه ، فنهى أهله وذويه أن يؤذوه بالاطباء وعقاقيرهم ، ولبت ثلاثة عشر يوما يعالج أمراضه ، فتوفاه الله أذان ظهر اليوم الرابع من شوال ، وحضر جنازته جمع غفير ، ولما وصلت جنازته الى جبانة معروف الكرخي في الكرخ صلى عليها جمع كثير ، وكان فيهم عدد ينقلون تكبيرات الامام ، ثم حملت جنازته الى جبانة الجنيد البغدادي ، حيث كان أوصى أن يدفن هناك ، وصلى عليه عدة جماعات ، ووري في ملحدته قبيل الغروب ، طيب الله ثراه وأحسن مثواه ورحمه رحمة واسعة .

(من مآثره وفضائله)

احياء الكتب الدينية ، ونشر مذهب السلف ، وله اليد الطولى في اذاعتها ونشرها ، وكان يرى أن مذهب السلف هو الوسطة الوحيدة لتحرير العقول من رق التعصب الذميمة ، وعدم مراعاة الدليل ، ولم يكن يحب الفخر

البلد التي فيها المطبعة ، وكذلك الشيخ عبد القادر التلمساني والشيخ نصيف خافا على أنفسهما من نفس العلة ، لأن السلطان عبد الحميد في ذلك الوقت له النفوذ في بغداد ومصر والحجاز وهي البلدان التي فيها المؤلف والطابع والمنبعة ، ولهذه المضايقات والخوف عندما تم طبع الكتاب لم يتمكنوا من توزيعه الا عندما أخذت حكومة اسطنبول بالقوانين الوضعية الاوربية وأعلنت الدستور وكان الدستور يقضي بحرية العقائد والاديان ، فعند ذلك أرسلت حصة الشيخ محمد نصيف من الكتاب اليه في الحجاز ، ووزعها ، ووضع على كل نسخة وزعها اسم المؤلف بخط يده ، وكذلك الشيخ عبد القادر وزع نسخه في مصر وغيرها ، ثم ان الشيخ محمد نصيف عندما لم يخف من جراء اظهار الكتاب أعلن في جرائد بيروت في ذلك الحين أن لديه كتابا في الرد على النبهاني للشيخ الألوسي اسمه (غاية الاماني في الرد على النبهاني) ، ثم انبرى بعض تلامذة النبهاني وأعلن عن الرد ، وحاول أن يحط من قدر الكتاب ولكن كما قيل : -
وقل للعيون الرمد للشمس أعين سواك تراها في مغيب ومطلع

(التعريف بالكتساب)

الكتاب في الواقع هو بين يديك أيها القارئ ، ولا يحتاج الى تعريف ، فبعد قراءتك له ستعرف مكاتته ، ولكن سننقل لك ماكتبه فيه العالم السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار فيها ، قال العلامة المصلح الشهير السيد محمد رشيد رضا في تقريره : (المنار ١٢ ص ٧٨٥) غاية الاماني في الرد على النبهاني ، كتاب مؤلف من سفرين كبيرين ، لأحد علماء العراق الاعلام ، المكنى بأبي المعالي الحسيني السلامي الشافعي ، رد فيها ما جاء به النبهاني في كتابه شواهد الحق من الجهالات والنقول الكاذبة ، والآراء السخيفة ، والدلائل المنقلوبة ، في جواز الاستغاثة بغير الله تعالى ، وما تعدى به طوره في سب أئمة العلم وانصار السنة ، كشيخ الاسلام بن تيمية ، الى أن قال : وفي هذا الكتاب ما لا أحصيه من الفوائد العلمية ، في التوحيد ، والحديث ، والتفسير ، والفقه ، والتاريخ ، والادب ، وما انفرد به بعض المشاهير فأنكره العلماء عليه ، كالانكار على الغزالي وابن عربي الحاتمي وغيرهما . . فعلى هذا الكتاب نحيل السذنين

والتحقيق النادر ، والرأي الصائب ، وتصدر للتدريس في داره ، وفي جامع عادل خاتون ، وعين مدرسا رسميا في جامع الحيدريه ، ثم في جامع السيد سلطان علي ، ثم عين مدرسا في مدرسة مرجان ، وجعل رئيس المدرسين ، ونفع الله به ، وتخرج منها خلق كثير .

(سبب تأليفه للكتاب وعدم التصريح باسمه عليه)

عندما عزمت على كتابة هذه الترجمة اتصلت بالعالم السلفي ، الشيخ محمد نصيف بجدة ، والذي كان له مساهمة فعالة في سبب تأليف الكتاب وطبعته الاولى ، فأفاد بما ملخصه : أنه عندما ظهر كتاب النبهاني المسمى (شواهد الحق) وقرأه الشيخ محمد نصيف ، ورأى ما فيه من التلفيق والتحريف ، والاستدلال السخيف ، وذكر الاحاديث الباطلة الموضوعية ، والضعيفة الواهية ، وتهجمه على المحققين من علماء السلف ، وتجويزه دعاء الاموات والاستغاثة بهم ، وغير ذلك ما يخالف صريح الكتاب وصحيح السنة ، عندما قرأه كتب للعالم العلامة الشيخ محمود شكري الالوسي ، يطلب منه أن يقوم بالرد على النبهاني ، ويدحض أباطيله ، وينتصر للحق وأهله ، فلم يمض سنة الا وقد جاء الرد المسمى (غاية الاماني في الرد على النبهاني) للشيخ محمود الالوسي ، واتفق الشيخ محمد نصيف والشيخ عبد القادر التلمساني - من تجار جدة المحسنين ، والعلماء السلفيين - على أن يقوموا بطبعه وتكاليف الطبع بينهما نصفين . وكان الشيخ التلمساني آنذاك في مصر ، فاتفقا أن يقوم بطبعه فرج زكي الكردي بمطبعته في مصر ، فقام بطبعته الاولى وقد وضع المؤلف على طرة الكتاب : تأليف أبي المعالي الحسيني ، اشارة الى كنيته ونسبه الحسيني ، وزاد عليها السلامي الشافعي لتلا يتضح اسمه خوفا على نفسه ، وذلك أن العلماء السلفيين في ذلك العصر يخافون على أنفسهم في معارضة أهل البدع والخرافيين - كالنبهاني وغيره - والسبب في ذلك أن السلطان عبد الحميد سلطان الدولة العثمانية قد قرب المشائخ من أهل الطرق ، من الصوفية أنصار البدع ، فلذلك خاف السيد محمود شكري الالوسي من اظهار اسمه على طرة الكتاب ، وكذلك صاحب المطبعة فرج الله زكي خاف على نفسه ، ولم يذكر اسمه الا رمزا (ف ، ج ، ز) ولا اسم مطبعته ، ولا

(نسب المؤلف ومولده)

هو أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بهاء الدين بن محمد أبي الثناء شهاب الدين بن عبد الله صلاح الدين بن محمود الخطيب الالوسي ، ينتهي نسبه الى الحسين بن علي رضي الله عنهما ، والالوسي نسبة الى أوس ، وهي قرية على الفرات قرب عانات ، يقال أن سابور ذا الاكتاف كان بناها .
ولد في اليوم التاسع عشر من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف من الهجرة ، في الرصافة ببغداد ، في بيت من بيوتات العلم والمجد ، سماه أبوه محموداً وكناه أبا المعالي ، ولقبه شكري حين ولادته .
أما أبوه عبد الله فهو العالم الاديب ، والكاتب البار ، له مؤلفات : منها التعطف على التعرف في الاصلين والتصوف وغيرها .
وأما جده فهو الامام محمود شهاب الدين ، العالم العلامة ، صاحب التصانيف الشهيرة ، من أشهرها روح المعاني في التفسير ، وله من المؤلفات ما يقرب من اثنين وعشرين مؤلفاً متنوعة .

(تعلمه)

أخذ أبو المعالي شكري مبادئ العلوم العربية والدينية عن أبيه ، وجود عليه الخط بأنواعه المستعملة بالعراق في ذلك الحين ، وتأثر بأبيه في حسن السمات وصفاء الطوية ، وحب الأدب والعلم ، ثم توفي أبوه في شعبان عام ١٢٩١ هـ ، ثم كفله عنه العلامة نعمان خير الدين ، مؤلف كتاب جلا العينين في محاكمة الاحمدين ، وغالية المواعظ ، وغيرها من المؤلفات ، ما يبلغ تقريباً من ثلاثة عشر مؤلفاً ، ويقول بهجت الاثري في كتاب أعلام العراق عن الشيخ نعمان : كان عقله أكبر من علمه ، وعلمه أبلغ من انشائه ، وانشاؤه أمتن من نظمه رحمه الله .

ثم أخذ العلم عن مشائخ بغداد ، منهم الشيخ اسماعيل بن مصطفى ، مدرس جامع الصاغة ، وغيره من العلماء ولم يكنف بما تحصل من العلم لدى المشائخ ، بل جد واجتهد في مواصلة الدرس ومتابعة البحث ، وكلف بالتاريخ والسيرة واللغة ، وزاول الكتابة ، له الاطلاع الواسع ، والمادة الغزيرة ،

ترجمة المؤلف

الحمد لله ناصر الحق ومعلية ، ومدحض الباطل وذويه ، والصلاة والسلام على خير خلقه ورسله محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان .

أما بعد ، فهذه اشارة مختصرة الى ترجمة الشيخ العالم العلامة ، محمود شكري الالوسي ، مؤلف كتاب : (غاية الاماني ، في الرد على النبهاني) كتقدمة بين يدي اعادة طبع الكتاب الذي سبق أن طبع في حياة المؤلف رحمه الله ، ولم يذكر عليه صريح اسمه ، ولا تاريخ الطبعة ، ولا المطبعة ، ولا الناشر ، وستعرف السبب في ذلك من هذه الترجمة المختصرة ، وهذه الترجمة أخذت من الكتب الآتية :

- ١ - أعلام العراق لمحمد بهجت الاثري تلميذ المصنف .
- ٢ - الاعلام للزركلي
- ٣ - الموسوعة العربية الميسرة .
- ٤ - مجلة المنار
- ٥ - معجم المؤلفين
- ٦ - فهرس الخزانة التيمورية
- ٧ - معلومات أخرى من فضيلة الشيخ محمد نصيف العالم السلفي بجدة مشافهة والذي جرى بينه وبين المؤلف عدة مكاتبات في خدمة العلم وأهله .

والظهور - عكس ما عله الكثير من الناس - وانما يرمي الى حصول الغرض من أي طريق ، مباشر أو غير مباشر ، وكان رحمه الله يحمل على أهل البدع في درسه في داره وفي المسجد ، ويرد عليهم برسائل ، فعاداه كثير من الناس ، وسعوا به لدى والي بغداد عبد الوهاب باشا ، فكتب عبد الوهاب الى مرجعه السلطان عبد الحميد الثاني العثماني ، فصدر الامر بنفيه الى بلاد الاناضول فلما وصل الى الموصل في سنة ١٣٣٠ هـ قام أعيانها فمنعوه من تجاوزها ، وكتبوا للسلطان يحتجون ، فسح له بالعودة الى بغداد فعاد اليها .

وقد اتصل بالملك عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية في نجد في عام ١٣٣٣ هـ وبحث مع الملك بعض الشؤون ، ثم عاد مكرما محترما .

قال عنه مؤلفوا الموسوعة العربية الميسرة أنه تزعم حركة الاصلاح الاسلامي على مذهب ابن حنبل ، وكتب عدة مقالات في مهاجمة بعض المذاهب الاسلامية ، في كتابه (غاية الاماني في الرد على النبهاني) الذي نشره باسم مستعار ، وهو من أعلام حركة السلفية المحاررين للبدع قولاً وعسلاً .

(مؤلفاته)

له مؤلفات كثيرة تربو على الخمسين مؤلفا في شتى المواضيع ، منها هذا الكتاب الذي بين يديك (غاية الاماني في الرد على النبهاني) ومنها الآية أو الراية الكبرى عن ضلال النبهاني ، ألفه ردا على النبهاني لما شن الغارة في سب شيخ الاسلام بن تيمية ، والسيد رشيد رضا ، وشيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب ، كما رد على النبهاني أيضا الشيخ سليمان بن سحمان ، والشيخ محمد بن حسن المرزوقي القطري ، والشيخ علي بن سليمان اليوسف التميمي ، والشيخ محمد بهجت البيطار الدمشقي وغيرهم ومنها (فتح المنان) تنمة منهاج التأسيس للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن ، ومنها (بلوغ الارب في أحوال العرب) في ثلاثة مجلدات ، ومنها (شرح منظومة عمود النسب) . و (تجريد السنان في الذب عن أبي حنيفة النعمان) و (تاريخ نجد) وغيرها من المؤلفات المفيدة ، ومنها (فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبد الوهاب) وأكثرها مطبوع متداول .

(أثر وفاته في المجتمع الاسلامي)

لقد كان لوفاته أثر كبير في المجتمع الاسلامي ، وكتبت عنه الصحف والمجلات الاسلامية في رثائه والثناء عليه نثرا ونظما ، من كبار العلماء السلفين وغيرهم ممن أعجبوا بكتاباتهِ وتآليفه ، فهم العالم السلفي الشيخ بهجت البيطار ، أثنى عليه ثناء عظما ، وذكر شدة ما ألم به لنبا وفاته ، وذكر فيه أنه لما وصل نعيه الى رجال المجتمع العلمي بدمشق علاهم الحزن والاضطراب ، وأبدوا الاسف والتوجع على الفقيد ، وكتب أحد أعضاء المجتمع العربي عيسى اسكندر تعزية به ، ووصفه بأنه المحقق الخطير ، والمدقق الشهير ، وكفى باسمه شهرة لأبناء العروبة الناطقين بضادها ، وكتب من دمشق الشيخ العالم ، والاستاذ الفاضل : أبو هشام محمد سعدي ياسين بالثناء والترحم عليه ، وكتابات أخرى من الكويت ، ومن مصر ، ومن حلب ، ومن دمشق ، والحجاز ، وغيرها من الاقطار الاسلامية ، وذكر له من المراثي الشعرية ما يزيد على اثنتين وعشرين قصيدة ، ذكرها في أعلام العراق ، منها قصيدة لمعروف الرصافي جاء فيها : -

أزمت عنا الى مولاك ترحالا
رأيتنا في ظلام ليس يعقبه
وفيها :

محمودشكري فقدنا منك جبرهدى
قد كنت للعلم في أوطاننا جبلا
وبحر علم اذا جاشت غواربه
يا من بشوال قد سالت عامته
وفيها : -

شكرا لاقلامك، اللاتي كشفت بها
كنتن في العلم أسفارا سيدرسها
أمددتها بمسداد ليس يعقبه
وكنت أنت نظامي العلوم بها
عن أوجه العلم أستارا وأسدا لا
أهل البسيطة أجيالا فأجيالا
دمع الانام وان ييكوك أحوالا
وكن في سبر جرح الجهل أميالا
والقصيدة تبلغ قريبا من أربعين بيتا تركناها اختصارا ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم .

محمد بن عبد الله بن سبيل

النائب للشؤون الدينية بالمسجد الحرام بمكة المكرمة وامامه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على ما عرفنا من نفسه ، وألهمنا من شكره ، وفتح لنا من أبواب العلم بربوبيته ودلنا عليه من الاخلاص في توحيده ، وجنبنا من الالحاد والشك في أمره ، وهو رب العالمين وقيوم السموات والأرضين نحمده حمداً يضيء لنا به ظلمات البرزخ ، ويسهل علينا به سبيل المبعث ، ويشرف به منازلنا عند مواقف الاشهاد ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون ، ونشهد أن لا اله الا الله العظيم السلطان ، والملك الديان ، الذي لا شريك له ولا ند ، لا وزير ولا معين وهو الرب المستعان ، فسبحانه من اله وقتت سيارات العقول حيارى في مواقف عظمته ، وتاهت ثوابت أبقار الافكار سكارى في فيافي قدرته ، واقام أدله وحدانيته على زؤوس عرائس الكائنات ، ونظم براهين تفرده بربوبيته في سلك متناع تسلسل الموجودات .

ونرفع اليه جل شأنه أكف التضرع والابتهال ، ونبسط له - تعالى سلطانه - أيدي انتدال والسؤال ، أن يديم ديم صلاته وسلامه هاطلة على أجل من نشر رايات التوحيد ، وعقد خنصر قلبه على تقديس ربه المجيد ، وتمسك بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، سيدنا ومولانا محمد أمينك على وحيك ، ونجيبك من خلقك ، وصفيك من عبادك ، امام الرحمة ، وقائد الخير ومفتاح البركة ، الذي نصب لأمرك نفسه ، وعرض فيك للبلاء بدنه ، وكاشف اليك في الدعاء خاصته ، وحارب في رضاك أسرته ، وقطع في احياء دينك رحمه . وأدأب نفسه في تبليغ رسالتك ، وأتعبها بالدعاء الى ملكك ، وشغلها بالنصح لأهل دعوتك ارادة منه لاعزاز دينك ، واستنصارا على أهل الكفر بك ، حتى استتب له ما حاول في أعدائك ، واستتم له ما دبر في أوليائك ، فنهذ (١) اليهم مستفتحا بعونك ، ومتقويا على ضعفه بنصرك ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، الذين أخلصوا في أعمالهم فخلصوا عن

(١) نهذ الرجل : بمعنى نهض وصمد لعدوه .

كل نقص حتى لم يبق فيهم كلام ، ولخصوا زبدة أعمارهم بالتجرد عن شوائب الغفلة فلم يشبههم شيء من دواعي الملام ، شنوا غارات عزائمهم حتى بددوا كئآب الزمغ والضلالة ، ودمغوا بأسنة حججهم رؤوس أهل الشرك والجهالة ، الذين أسرعوا الى وفادته ، وسابقوا الى دعوته ، واستجابوا له حيث أسعهم حجة رسالته ، وعلى من تبعهم باحسان ، ولم يكن لهم غير الله ملجأ ولا مستعان •

أما بعد : فقد وصل الي - في أواخر رجب الفرد سنة خمس وعشرين وثلثمائة وألف ، من هجرة من تقصر دون كعب علاه بردة المدح والوصف - كتاب قد اشتمل على بهتان عظيم ، وعدول عن الصراط المستقيم ، ألفه بعض الجهلة لمصادمة الحق ، ومعارضة الصواب بالخطأ المطلق ، ومناقضة ما جاءت به رسل الله ، وصدحت به الكتب المنزلة ، ودلت عليه الدلائل القطعية ، وهو توحيد الله وافراده بخصائص الربوبية ، وتخصيصه بالالتجاء اليه ، والتوكل عليه ، والاستعانة به في كل كلية وجزئية ، فجاء هذا العبي الجاهل المكابر ، وأعرض عن الحق الصريح الظاهر ، وجمع كتابا سماه (شواهد الحق ، في الاستغاثة بسيد الخلق) وحشاه من الكذب والافتراء والظلم والعدوان ، وشم أهل الحق ونصرة التوحيد ، والحكايات الكاذبة ، وكان الحري به أن يسمى كتابه هذا شبه الباطل والضلال ، ولما تصفحته وجدته كتابا لا يروج ما فيه حتى على ضعفاء العقول ، فضلا عن تضلع من فنون المنقول والمعقول ، لما اشتمل عليه من واهي الاسانيد وأكاذيب النقول ، مباحثه متناقضة ، ومطالبه متعارضة ، جهل بها مؤلفه ، وغفل عنها مصنفه ، وبقيت أقدم رجلا وأؤخر أخرى في الاقدام على ابطاله ، وتزييف أقواله ، حيث تكلم بالجزاف ، وأبان عن قلة معرفة وعدم انصاف ، وكان الرأي عندي أن يعرض عن جهله المستأصل لشافته (٢) ولا يتعرض لعثائه وسخافته ، ولا يلتفت الى تخليطه وخرافته ، غير أن بعض الاخوان لما علم مقصدي ووقف على ماتقرر عندي التمس مني ذلك ، وطلب ابطال ما هنالك ، وذكر لي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما قال أبو سفيان يوم أحد : أفيكم محمدا ؟ أفيكم أبو بكر ، أفيكم ابن الخطاب ؟ قال لأصحابه : (لاتجيبوه) تهاونا به وتحقيرا لشأنه ، فلما قال أعل هبل ، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قولوا لله أعلى وأجل) ولما قال لنا العزى ولا عزى لكم ، قال لهم : (قولوا لله مولانا ولا مولى لكم) فحينئذ جردت أسنة العزائم والرد ، واستعنت على رد أباطيله بالواحد

(١) اي لفساده ولهابه .

الفرد ، وليت مصنف ذلك الهديان تنكب عن ميدان الفرسان ، ليسلم من أسنة ألسنتهم عرضه ، وينطوي من بساط المشاجرة طوله وعرضه ، ولم يسمع ما يضييق به صدره ، ولم ينهتك بين أفاضل الامة ستره ، واذا أبى الا المهارشة والمناقشة ، والمواحشة والمفاحشة ، فليصبر على حز الحلاقم ، ونكز الارقم ، ونهش الضراغم ، والبلاء المتراكم المتلاطم ، ومتون الصوارم • فوالذي نفسي بيده ما بارز أهل الحق قط قرن الا كسروا قرنه ، ففرع من ندم سنه ، ولا فاحرهم خصم الا بشروه بسوء منقلبه ، وسدوا عليه طريق مذهبه لمهربه ، ولا فاصحهم أحد - ولو كان مثل خطباء أياد - الا فصحوه وفصحوه ، ولا كافحهم مقاتل - ولو كان من بقية قوم عاد - الا كبوه على وجهه وبطحوه ، هذا فعلهم مع الكمأة الذين وردوا المنيا تبرعا ، وشربوا كؤوسها تطوعا ، وسعوا الى الموت الزؤام سعيا ، وحسبوا طعم الحمام أريا ، والكفاة الذين استحقروا الاقران فلم يهلمهم أمر مخوف ، وجالوا في ميادين المناضلة واخترقوا الصفوف ، وتجادلوا لدى المجادلة بقواطع السيوف •

وقد حان أن نشرع بالمقصود ، والذب عن شريعة صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود ، اللهم اجعلني أصول بك عند الضرورة - وأسألك عند الحاجة ، وأتضرع اليك عند المسكنة ، ولا تفتني بالاستعانة بغيرك اذا اضطررت ، ولا بالخضوع لسؤال غيرك اذا افتقرت ، ولا بالتضرع الى من هو دونك اذا رهبت ، فاستحق بذلك خذلانك ومنعك واعراضك يا أرحم الراحمين ، اللهم اجعل ما يلقي الشيطان في روعي من التمني والتظني والحسد ذكرا لعظمتك ، وتفكرا في قدرتك ، وتديبرا على عدوك ، وما أجزى على لساني من لفظه فحش أو انتهاك عرض أو شهادة باطل أو اغتياب مؤمن غائب أو سب حاضر وما أشبه ذلك نطقا بالحمد لك ، واعترافا في الثناء عليك ، وذهابا في تمجيدك ، وشكرا لعظمتك ، واعترافا باحسانك ، واحصاء لمنك ، انك مجيب الدعاء •

ولا يد قبل الخوض في ابطال الباطل ، ورد الكلام العاقل ، من معرفة أمور تزيد من علمها بصيرة في التمييز بين الخطأ والصواب ، وتعين على الوقوف على الحق من طرق هذا الباب ، ومن الله نستمد التوفيق ، ويده أزمة التدقيق والتحقيق •

(الأمور التي يجب التنبيه عليها ، والاشارة ييسر العبارة اليها)

الامر الاول : ان الكتب المصنفة في حقائق الدين وما جاء به الرسول صلى الله

عليه وسلم لاتحصى كثرة في كل عصر من الاعصار ، ولا سيما في هذه الازمان الاخيرة ، فقد انتشرت الكتب الاسلامية - بواسطة صناعة الطبع - انتشارا لم يعهد مثله في الاعصر الخالية ، ومع ذلك لم تؤثر في القلوب القاسية شيئا .

فان أمثال النبهاني المعرضين عن الحق المتبعين لأهوائهم كثيرون في الاقطار والبلاد ، ودلائل الحق واضحة جلية ، ولم يلتفتوا اليها ، ولا عرجوا عليها ، وهذا وان اغتر به العوام ، والجهلة الضغام ، فهو لا يضر الحق ولا يمس شرف أهله ، فان الاسباب المانعة من قبول الحق كثيرة جدا ، كما ذكر ذلك الحافظ ابن التميم في الهداية .

فمنها الجهل به ، وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس ، فان من جهل شيئا عاداه وعادى أهله ، فان انضاف الى هذا السبب بغض من أمره بالحق ومعاداته له وحسده كان المانع من قبول الحق أقوى ، فان انضاف الى ذلك ألفه وعاداته ومرباه على ما كان عليه آباؤه ومن يحبه ويعظمه قوي المانع ، فان انضاف الى ذلك توهمه أن الحق الذي دعي اليه يحول بينه وبين جاهه وعن شهواته واغراضه قوى المانع من القبول جدا ، فان انضاف الى ذلك خوفه من أصحابه وعشيرته وقومه على نفسه وماله وجاهه كما وقع لهرقل ملك انصارى بالشام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما نرى كثيرا ممن ينتسب الى العلم من أهل المناصب والجرایات ينتسبون الى الطرائق المتبدعة ، ويظهرون ما يروج من العقائد لدى حكومتهم ودولتهم ، ويتجنبون من العقائد السلفية ، واظهار السنن النبوية مع علمهم بحقيقة حقائقها ، ووقوفهم على دقائقها محافظة على الزخارف الدنيوية ، والسفاسف الدنية ، وأعرف من هؤلاء عددا كثيرا : (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَأَرَبَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) (١) .

فاذا كان الامر على ما ذكر ازداد المانع من قبول الحق قوة ، فان هرقل عرف الحق وهم بالدخول في الاسلام فلم يطاوعه قومه ، وخافهم على نفسه ، واختار الكفر على الاسلام بعدما تبين له الهدى ، وقصته مشهوره .

ومن أعظم هذه الاسباب : الحسد : فانه داء كامن في النفس ، ويرى الحاسد المحسود قد فضل عليه ، وأوتي ما لم يؤت نظيره ، فلا يدعه الحسد أن ينقاد له ويكون من اتباعه ، وهل منع ابليس من السجود لآدم الا الحسد؟! فانه لما رآه قد فضل عليه

ورفع فوفه : غص بريقه واختار الكفر على الايمان بعد أن كان بين الملائكة .
وهذا الداء هو الذي منع اليهود من الايمان بعيسى ابن مريم ، وقد علموا علما
لاشك فيه أنه رسول الله جاء بالبينات والهدى ، فحملهم الحسد على أن اختاروا
الكفر على الايمان ، وأطبقوا عليه ، وهم أمة فيهم الاحبار والعلماء والزهاد ، والقضاة
والملوک والامراء ، هذا وقد جاء المسيح بحكم التوراة ولم يأت بشريعة تخالفها ولم
يقاتلهم وانما أتى بتحليل بعض ما حرم عليهم تخفيفا ورحمة واحسانا ، وجاء مكسلا
لشريعة التوراة ، ومع هذا فاختاروا كلهم الكفر على الايمان .

فكيف يكون حالهم مع نبي جاء بشريعة مستقلة ناسخة لجميع الشرائع ، مبكتا
لهم بقبائحهم ومناذيا على فضائحهم ، ومخرجا لهم من ديارهم ، وقد قاتلوه وحاربوه
وهو في ذلك كله ينصر عليهم ويظفر بهم ، ويعلو هو وأصحابه ، وهم معه دائما في
سفاك ؟ فكيف لا يملك الحسد والبغي قلوبهم ؟ وأين تقع حالهم معه من حالهم مع
المسيح ، وقد أطبقوا على الكفر به من بعد ما تبين لهم الهدى ، وهذا السبب وحده
كاف في رد الحق ، فكيف اذا انضاف اليه زوال الراسات والمآكل كما تقدم؟! وقد
أظن ابن القيم الكلام ، وأتى بما تعشقه الاسماع والافهام ، وله كلام مفصل يتعلق
بهذا الباب ذكره في كتاب (مفتاح دار السعادة) ولعلنا نذكر منه شيئا فيما سيأتي
ان شاء الله .

والمقصود : أن لعدم قبول الحق والاذعان له أسبابا كثيرة كلها موجودة في
الغلات ، والغالب منها قسوة قلوبهم ، كما أخبر الله تعالى عن اليهود بقوله :

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنْ مِنَ
الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَشَّقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَاءٌ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (١) .

وفي (باب فضل من علم وعلم) من كتاب (صحيح الامام البخاري) حدثنا
محمد بن العلاء ، قال : حدثنا حماد بن أسامة ، عن بُريد بن عبد الله ، عن أبي بردة ،
عن أبي موسى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى
وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ ، أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَةٌ قَبْلَتْ الْمَاءَ فَأَبْتَتِ الْكَلَاءُ

والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفةٌ أخرى إنما هي قيعان لا تمشك ماءً ولا تثبت كلاً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلتُ به) •

قال شارحه الامام الحافظ ابن حجر العسقلاني - بعد كلام له ناقلاً عن الامام القرطبي وغيره - ضرب النبي صلى الله عليه وسلم ما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم اليه ، وكذا كان حال الناس قبل بعثته ، فكما أن الغيث يحيي البلد الميت فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت ، ثم شبه السامعين له بالارض المختلفة التي ينزل بها الغيث (فمنهم) العالم العامل المعلم فهو بمنزلة الارض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها وأبنتت فنفعت غيرها (ومنهم) الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله ولم يتفقه فيما جمع لكنه أداه لغيره فهو بمنزلة الارض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به وهو المشار اليه بقوله : (نضر الله امرأً سمع مقالتي فآداهما كما سمعها) (ومنهم) من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره فهو بمنزلة الارض السبخة أو الملساء التي لاتقبل الماء أو تصده على غيرها ، وإنما جمع في المثل بين الطائفتين الاولين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما ، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها والله أعلم •

قال : ثم ظهر لي أن في كل مثل طائفتين ، فالأول قد أوضحناه ، والثاني : الاولی منه من دخل في الدين ولم يسمع العلم ، أو سمعه فلم يعمل به ولم يعلمه ، ومثالها من الارض السباخ وأشير اليها بقوله صلى الله عليه وسلم : (من لم يرفع بذلك رأساً) أي أعرض عنه فلم ينتفع به ولا نفع ، والثانية منه من لم يدخل في الدين أصلاً بل بلغه فكفر به ، ومثالها من الارض الصماء الملساء المستوية التي يمر عليها الماء فلا تنتفع به ، وأشير اليها بقوله صلى الله عليه وسلم : (ولم يقبل هدى الله الذي جئت به) • وقال الطيبي : بقي من أقسام الناس قسمان : (أحدهما) الذي انتفع بالعلم ولم يعلمه غيره (والثاني) من لم ينتفع به في نفسه وعلمه غيره ، (قلت) والاول داخل في الاول ، لأن النفع حصل في الجملة وإن تفاوتت مراتبه ، وكذلك ماتبت الارض فمنه ما ينتفع الناس به ومنه ما يصير هشيماً ، (وأما الثاني) فإن كان عمل الفرائض وأهمل النوافل فقد دخل في الثاني كما قررناه ، وإن ترك الفرائض أيضاً فهو فاسق لا يجوز الاخذ عنه ، ولعله يدخل في عموم من لم يرفع بذلك رأساً

والله أعلم ، انتهى كلام الامام العسقلاني •
والمقصود : أن الحديث قد دل على أن بعض القلوب كالأرض النقية التي قبلت
الماء ، فأنبتت الكأ والعشب الكثير ، كقلوب الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومن
تبعهم باحسان •

وبعضها : كالاجادب التي أمسكت الماء ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، زيؤيده
قوله صلى الله عليه وسلم : (رب مبلغ أوعى من سامع) •

وبعضها : كالقيعان التي لاتمسك ماء ، ولا تنبت كأ ، كقلوب كثير من الغلاة
وأهل البدع والضلالات ، فانها لا يؤثر فيها الهدى والعلم كما أن الارض السبخة
لاتمسك ماء ولا تنبت كأ •

(الأمر الثاني) انه ورد في الحديث المتفق على صحته (انكم لتتبعن سنن من
كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلكم) أخبر صلى
الله عليه وسلم أنه سيكون في أمته من يحذو حذو الامم السابقة ، وهم جاهلية
الكتابين وغيرهم ، كما فسر في الحديث ، ولا شك أن ما أخبر به صلى الله عليه
وسلم كائن لامحالة ، فانه الصادق المصدوق ، وما ينطق عن الهوى ، ومن اليقين أن
من استمسك بهديه ، واتبع ما ثبت من سنته غير مقصودين بالحديث ، لما ثبت في
حديث الفرق أنهم الفرقة الناجية ، وهم من كان على ما عليه النبي صلى الله عليه
وسلم وأصحابه كما هو الوارد ، فلا بد أن يكون الذين يحذون حذوهم هم من بدل
وغير ، وابتدع وحرف ، وحاكى الذاهبين الاولين في أفعالهم وأعمالهم ، من بناء
المشاهد والمساجد على قبور صالحهم ، وندائهم في المهمات والملمات ، وغير ذلك مما
كان يفعله اليهود والنصارى والمشركون ، مما دلت عليه الاحاديث الصحيحة ، وفي
الغلاة ومبتدعة أهل القبور من خصال الجاهلين من الكتابين والمشركين ما يصدق به
عليهم اتباع سننهم حذو القذة بالقذة ، ونحن نذكر بعض ذلك ليكون كالمثال
الموضح لما نحن بصدده •

(فمن خصالهم) أنهم كانوا يتبعون باشرأك الصالحين في عبادة الله تعالى ،
ويرون ذلك من تعظيمهم الذي يجب الله ، ويقصدون به أيضا التقرب والزلفى والفوز
بشفاعتهم ، لظنهم أن الصالحين يجبون ذلك منهم ، وقد أخبر القرآن عن هذه الخصلة

قال تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۗ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۗ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيَتَرَبَّصُوا بِإِلَهِ اللَّهِ زُلْفَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)^(١) وعبادة المشركين لهم كانت بدعاتهم لهم وطلب حاجاتهم منهم و الذبح والنذر لهم و الحلف بهم وقال تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هُوَ أَوْلَاؤُنَا فَسُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)^(٢).

وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى بالاخلاص وأخبرهم أنه دين الله الذي لا يقبل من أحد سواه ، وان من فعل ما استحسنته حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وهذه المسألة هي الدين كله ولأجلها تفرق الناس بين مسلم وكافر ، وعندها وقعت العداوة ، ولأجلها شرع الجهاد ، قال تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ)^(٣) ، ومن المعلوم أن للغة الحظ الوافر من خصلة أسلافهم هذه كما هو المشاهد .

(ومن خصالهم) أن دينهم كان مبنيًا على أصول أعظمها التقليد فهو القاعدة الكبرى لجميع من كان قبل ظهور الإسلام من الأمم الأولى قال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ . قَالَ أُولَئِمَّا هُمْ بَأْهَدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)^(٤) فأمرهم الله تعالى ان يتبعوا الحق فقال: (اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مِمَّا تَذَكَّرُونَ)^(٥) وقال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلَىٰ تَتَّبِعُوا مَا لَفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ)^(٦)

(١) الزمر : ٢ ، ٣ (٢) يونس : ١٨ (٣) الانفال : ٢٩
(٤) الزخرف : ٢٣ ، ٢٤ (٥) الاعراف : ٢ (٦) البقرة : ١٧ .

الى غير ذلك مما يدل على أن أهل الجاهلية كانوا مقيدين بربقة التقليد لا يحكمون لهم رأيا ، ولا يستعملون نظرا ، ولا يشغلون فكرا ، فلذلك تاهوا في أودية الجهالة ، وقضوا أعمارهم في الضلالة ، وهكذا الغلاة وعبدة الاموات قلدوا آباءهم في تلك العادات ، فلا يمكن نقلهم عنها ولو ظهرت الآيات البينات ، ولكم بحثت مع عقلائهم فما زادهم ذلك الا نفورا ، وعتوا على الحق وغرورا ، فطابق بين الفريقين تجد الموافقة ظاهرة لكل ذي عينين .

(ومن خصالهم) الاقتداء بفسقة أهل العلم وجهالهم وعبادهم ، قال تعالى مجذرا للمؤمنين أن يحذوا حذوهم : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ)^(١) وقال : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ)^(٢) الى آيات أخر تنادي ببطلان الاقتداء بالفسقة والغواة الضالين المظلمين .

ومن نظر الى حال النبهاني وأضرابه الصادين عن سبيل الله تجده على ما كان عليه القرون الاولى الجاهليون .

(ومن خصالهم) الاحتجاج بما كان عليه القرون السالفة من غير تحكيم للعقل ولا أخذ بالدليل الصحيح كما دل على ذلك قوله تعالى : (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ . قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ . قَالَ عَمَّا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَآنَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ . كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ)^(٣) وقال تعالى : (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَُّفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ . وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ

(١) التوبة : ٢٤ (٢) المائدة : ٧٧ (٣) طه : ٤٩ - ٥٤

الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ،^(١) وقال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ
فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . فَقَالَ الْمَلَأُ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ
بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ)^(٢) . وقال تعالى : (وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ
أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ
الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ)^(٣) .

فهؤلاء الأمم كلهم جعلوا مدار احتجاجهم على عدم قبول ما جاءت به الرسل
انه لم يكن عليه أسلافهم ، ولا عرفوه منهم ، فانظر الى سوء مداركهم ، وجمود
قرائنهم ، ولو كانت لهم قلوب يفقهون بها وآذان يسمعون بها وأعين يبصرون بها
لعرفوا الحق بدليله ، وانقادوا لليقين من غير تزييفه ولا تعليله ، وهكذا أخلافهم
وورائهم ، هذا النبهاني لم يفد فيه ما ألف من الكتب المفصلة لاثبات الحق وابطال
الباطل ، ولم يلتفت اليها بسبب مخالفتها لما كان عليه السبكي ، وابن حجر المكي .

(ومن خصائصهم) الاعتماد على الكثرة والاحتجاج بالسواد الاعظم وابطال
الشيء بسبب قلة أهله فأبطل الله تعالى ذلك بقوله : (وَإِنْ تَطَعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي
الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . إِنْ
رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)^(٤) فالكثرة على
خلاف الحق لا تستوجب العدول عن اتباعه لمن كان له بصيرة وقلب ، فالحق أحق
بالاتباع وان قل أنصاره ، كما قال تعالى : (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نِعْجَتِكَ إِلَى
نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)^(٥) فأخبر الله سبحانه عن أهل الحق أنهم قليلون

(٣) ص : ٦ ، ٧

(١) القصص : ٢٦ ، ٢٧ (٢) المؤمنون : ٢٣ - ٢٥

(٤) الانعام : ١١٦ ، ١١٧ (٥) ص : ٢٤

غير أن القلة لا تضرمهم وما أحسن قول القائل :

تعرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها ان الكرام قليل

(والمقصود) أن من له بصيرة ينظر الى الدليل ، يأخذ بما يستنتجه البرهان وان قل العارفون به والمتقادون له ، ومن أخذ ما عليه الاكثر وما ألقته العامة - كما هو ديدن الغلاة وعاداتهم من غير نظر لدليل - فهو مخطيء سالك غير سبيل المؤمنين ، متبع سنن الجاهلية ، مقدوح عند أهل البصائر ، وهذه مكيدة عظيمة للغلاة ، ولذلك ترى النبهاني لم يزل يردد في كتابه هذا القول في تصحيح عقائده ، ويقول : مانحن عليه مذهب الجمهور ، ومقصوده جمهور العوام الذين هم كالانعام .

(ومن خصائصهم) الاستدلال على بطلان الشيء بكونه غريبا ، فرد الله تعالى ذلك بقوله : (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) (١)

ومعنى الآية (فلولا كان) تحضيض فيه معنى التفجع ، أي فهلا كان (من القرون) أي الاقوام المقترنة في زمان واحد (من قبلكم ألو بقية) أي ذرو خصلة باقية من الرأي والعقل ، أو ذوو فضل على أن يكون البقية اسما للفضل والهاء للنقل ، ومن هنا يقال : فلان من بقية القوم أي من خيارهم ، ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا .

(ينهون عن الفساد في الارض) الواقع فيما بينهم حسبما ذكر في قصصهم ، وفسر الفساد بالكفر وما اقترن به من المعاصي .

(الا قليلا ممن أنجينا منهم) استثناء منقطع أي ولكن قليلا منهم أنجيناهم لكونهم كانوا ينهون .

والغلاة يقولون : ان كثيرا من الصلحاء وأهل الطرائق يستغيثون بغير الله ، ويندبون الصالحين ، وأرواحهم تتصرف في هذا العالم ، والقول بعدم جواز ذلك غريب جدا لانتلفت اليه ، وأرواح الصالحين تتصرف وتدبر ، والقول المخالف له أيضا نادر شاذ لا يلتفت اليه ، وهذا كثيرا ما يكرره النبهاني ، ويقول : ان أقوال ابن تيمية

شاذة ونحو ذلك ، فانظر تشابه قلوبهم ، واحمد الله تعالى على السلامة في الدين
والدين •

(ومن خصالهم) الغلو في الصالحين من العلماء والاولياء ، قال تعالى : (وَقَالَتِ
الْيَهُودُ عِزِّيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيْحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا
أَخْبَارَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيْحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا
لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا
نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) (١)
فاتخاذ اخبار الناس اربابا يخللون ويحرمون ويتصرفون في الكون
وينادون في رفع ضرر أو جلب نفع من جاهلية الكتابيين ، ثم
سرت الى غيرهم من جاهلية العرب ، ولهم اليوم بقايا في مشارق الارض ومغاربها وهم
الغلاة في أهل القبور ، فانك ترى غالب الناس اليوم معرضين عن الله ، وعن دينه
الذي ارتضاه ، متوغلين في البدع ، تائهين في أودية الضلال الاشنع ، معادين لكتاب
الله والسنة ومن قام بهما ، فأصبح الدين منهم في أنين ، والاسلام في بلاء مبين ،
والنهباني له من ذلك الحظ الوافر ، كما أخبر عنه بذلك من يعرفه وأيدته كتبه •
والله المستعان •

(ومن خصالهم) الاعتياض عن شرع الله ووجهه بالخوارق الكاذبة وكتب
السحر ، قال تعالى : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ
فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهِمْ لَا يَعْلَمُونَ
وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ
الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا) (٢) الآية . والكلام عليها في كتب التفسير مشهور •

(٢) البقرة : ١٠١ ، ١٠٢

(١) التوبة : ٢٠ - ٢٢

وعلى هذه الخصلة اليوم كثير من الناس ، لاسيما بعض الغلاة المنتسبين الى بعض المشايخ والصالحين -- وهم بريئون منهم -- فانهم قد تعاطوا بعض الاعمال السحرية من امسك الحيات وضرب السلاح والدخول في النيران وغير ذلك مما وردت الشريعة بابطاله ، ولم يلتفتوا اليه ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، واتبعوا ما ألقته اليهم شياطينهم وادعوا أن ذلك من الكرامات وخوارق العادات ، ومن المعلوم أن الكرامة لا تصدر عن فاسق ومخالف للشريعة ، ومن يتعاطى تلك الاعمال فسقه ظاهر للعيان ، وقد اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ، وليت شعري لم اختصت الكرامة بمسك بعض الحياة والعقارب ، والضرب بسلاح مخصوص ، والضرب بأيديهم؟! فهلا وقفوا أمام مدفع من المدافع فدلح لسانه عليهم وقرأ سورة المدخان وأطلق كراته على وجوههم لنرى كراماتهم حينئذ أين تبقى؟! ومن مشايخ النبهاني -- على ما سمعت -- من هو أبو هذه الخبائث وأمها ، وسنلم ان شاء الله تعالى على هؤلاء الزائعين مرة بعد أخرى .

(ومن خصالهم) التحريف لكتب الدين، قال تعالى: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) (١) .

ومن نظر الى متصوفة زماننا وغلاته وما صرفوه من النصوص الى ماتقتضيه شهواتهم وبدعهم رأى أمراً منكراً ، وهكذا كثير من التضاة والحكام ، وما تلاعبوا به من الأحكام .

(ومن خصالهم) معادات الدين الذي دانوا به ، وموالاتهم للزائعين ، كما فعل اليهود مع النبي صلى الله عليه وسلم لما آتاهم بما أتى به موسى أعرضوا عنه واتبعوا كتب السحر ، وهو من دين آل فرعون ، والغلاة هجروا السنة وعادوها ، ونصروا أقوال شيوخ القرامطة والباطنية وأمثالهم .

(ومن خصالهم) التعصب لباطلهم ، فانهم لما افترقوا خطأ كل فريق منهم

(١) البقرة : ٧٨ ، ٧٩ .

الآخرين قال تعالى : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَإِنَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)^(١) . وهكذا تجد الغلاة من أهل الطرائق المتبدعة ، فالرفاعي يقول ليس القادري على شيء ، والقادري يقول ليس الرفاعي على شيء ، وهذا يقول شيخي أخذ زبيل الأرواح من عزرائيل وأعاد كل روح الى جسدها ، وهذا يقول مر شيخي على جهنم فأراد أن يطفئها بيزاقه فحالت الملائكة بينها وبينه !! ومن اتبع العبد روسي يقول :

العبد روسي كان يصيى من الاموات من قدمات دهرها

وهكذا تجدهم يتضاربون بالأقوال ، ولم يزلوا قائمين على ساق المخاصمة والجدال ، والحازم ينظر الى الدليل فما أداه اليه نظره من الحق أخذ به وترك ما سواه .

(ومن خصالهم) التبعد بما لم يذن به الله ، قال تعالى : (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنْ لَمْ يَأْمُرِ بِالْفَحْشَاءِ أَسْرُلُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)^(٢) .

المراد بالفاحشة في الآية عبادة الاصنام ، وكشف العورة في الطواف ونحو ذلك مما كان عليه مشركوا العرب في الجاهلية ، وفي الآية حذف ، أي واذا فعلوا فاحشة فنهوا عنها قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، محتجين بأمرين : تقليد الآباء ، والافتراء على الله .

وكان من سنة الحمس أنهم لا يخرجون أيام الموسم الى عرفات انما يتقفون بالمزدلفة ، وكانوا لا يسلطون ولا يأتقون ، ولا يربطون عنزا ولا بقرة ، ولا يغزلون

(١) البقرة : ١١٣ (٢) الاعراف : ٢٨ ، ٢٩

صوفا ولا وبراء ، ولا يدخلون بيتا من الشعر والمدبر ، وانما يكتنون في القباب الحمر في الاشهر الحرم ، ثم فرضوا على العرب قاطبة أن يطرخوا أزواد الحل اذا دخلوا الحرم ، وأن يتركوا ثياب الحل ويستبدلوها بثياب الحرم ، اما شراء واما عارية ، واما هبة ، فان وجدوا ذلك فيها والاباطافوا بالبيت عرايا ، وفرضوا على نساء العرب مثل ذلك ، غير أن المرأة كانت تطوف في درج مفرج القوائم والمآخير ، قالت امرأة وهي تطوف بالبيت :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله
أحتم مثل الغضب باد ظله كان حمى خبير لاتمله

وكلفوا العرب أن يفيضوا من مزدلفة وقد كانوا يفيضون من عرفة ، الى غير ذلك من الامور التي ابتدعوها وشرعوها مما لم يأذن به الله ، وقد فصلت في كتب أحوالهم ، ومع ذلك كانوا يدعون أنهم على شريعة ابراهيم عليه السلام .

وقد حذا حذوهم حذو القذة بالتذة غلاة هذه الامة ومتصوفتها ، ترى طائفة منهم قد اتخذوا ضرب المعازف وآلات اللهب عبادة يتبدون بها في بيوت الله ومساجده ، وطائفة اتخذوا الطواف على قبور السالحين أعظم طاعة وعبادة وقصدوها في طلب الحاجات ونذروا لها ، ومنهم من ابتدع الرهبانية والحيل الشيطانية ، والمكائد التي لم تهتد اليها النفوس الانسانية ، وزعم أنه سلك سبيل الزهاد ، وطريق العباد ، ومقصده الاعلى نيل شهواته الحيوانية ، والفوز بزخارف هذه الدنيا الدنية ، الى غير ذلك منا يطول ، ولا يعلم الموحد ماذا يقول .

الى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

ولبعض أكابر أهل العلم رسالة جمع فيها المسائل التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية ، وهي ما يزيد على مائة مسألة ، ولنا عليها شرح مفصل ، وخصالهم كلها صادقة على الغلاة ولا سيما (النبهاني منهم) . وما ذكرناه كاف في التمثيل ، ويتبين منه أنه حذا حذو أسلافه الجاهلين ، نسأله تعالى العافية في الدنيا والدين .

(الامر الثالث) من الامور التي يجب التنبيه عليها والاشارة بصريح العبارة اليها : أن من مكابذ الغلاة التشيع على أهل الحق ودعاة التوحيد من المؤمنين انهم

يكفرون المسلمين ، ومقصودهم من ذلك تنفير القلوب عنهم ، ولذلك يلقبونهم بألقاب مشعرة بالذم ، كالمجسمة والحشوية ، وفي هذه الازمنة يلقبونهم بالوهابية وبالمنكرين ونحو ذلك ، وقد برأهم الله تعالى من كل مالا يرضيه سبحانه ، ومعلوم أن المسلمين من يعتقد عقيدة الاسلام ، وقد فسرت في حديث جبريل المشهور ، فمن كان معتقدا تلك العقيدة كان مسلما ، ولا يخرج عن الاسلام الا اذا اخل بتلك العقيدة ، كأن يعتقد أن مع الله الها آخر يعبد به بأي عبادة كانت ، فانها أنواع مختلفة ، فحينئذ يخرج عن الاسلام ، ولا يقال لمن عبد غيره تعالى مسلما ، ولا لمن كفره انه كفر مسلما ، ومنه يعلم أمر الغلاة ، وأما أهل البدع فلم يكفرهم أهل الحق .

وقد سئل شيخ الاسلام عن المسائل التي وقع فيها خلاف ونزاع بين أهل السنة والخوارج والروافض فهل يستوجب ذلك التكفير ؟ فانهم كفروا المسلمين وأهل السنة بمخالفتهم فيما ابتدعوه ، وأصلوه ، ووضعوه ، وذهبوا اليه واتحلوه ، فأجاب الشيخ بقوله : أصل التكفير للمسلمين من الخوارج والروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين بما يعتقدون أنهم أخطئوا فيه من الدين ، وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض ، بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس كل من يترك قوله لخطأ أخطأه يكفر ولا يفسق ولا يأنثم ، فان الله قال في دعاء المؤمنين : (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)^(١) . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم (أن الله قال قد فعلت) الخ .

وقال رحمه الله في أثناء كلام له في النهي عن التفرق والاختلاف وترك التعصب لمذهب أو قبيلة أو طريقة ، قال : فليس كل من أخطأ يكون كافرا ولا فاسقا ولا عاصيا ، بل قد عفا الله لهذه الامة عن الخطأ والنسيان ، وقد قال تعالى في كتابه في دعاء المؤمنين : (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) وثبت في الصحيح (أن الله قال قد فعلت) لاسيما وقد يكون من يوافقكم في أخص من الاسلام ، مثل أن يكون مثلكم على مذهب الشافعي ، أو منتسبا الى الشيخ عدى ، ثم بعد هذا قد يخالف في شيء وربما كان الصواب معه ، فكيف يستحل عرضه أو دمه أو ماله مع ما قد ذكر الله من حقوق المسلم والمؤمن ، وكيف يجوز التفريق بين الامة بأسماء مبتدعة لأصل

لها في كتاب الله ولا سنة رسوله ، وهذا التفرق الذي حصل بين الامة — علمائها ومشاغخها وأمرائها وكبرائها — هو الذي أوجب تسلط الاعداء عليهم ، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله ، كما قال تعالى : (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ)^(١) وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا ، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا ، فان الجماعة رحمة ، وأن الفرقة عذاب ، وجماع ذلك : الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ) الى قوله : (وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)^(٢) فمن الامر بالمعروف الامر بالائتلاف والاجتماع ، والنهي عن الاختلاف والفرقة ، ومن النهي عن المنكر اقامة الحدود على من خرج عن شريعة الله تعالى ، فمن اعتقد في بشر أنه اله أو دعا ميتا أو تلبس منه الرزق والنصر والهداية وتوكل عليه وسجد له فانه يستتاب فان تاب والا ضربت عنقه انتهى ، فعلم منه حكم من ابتدع وحكم الغلاة ، فان من اعتقد في بشر أنه اله أو دعا ميتا أو تلبس منه الرزق وغير ذلك ليس حكمه حكم المبتدع كما قال ، ولا يشترط في الخروج عن الدين والعياذ بالله أن يكفر المكلف بجميع ماجاء به الرسول ، بل يكفي في الكفر والردة أن يأتي بما يوجب ذلك ولو في بعض الاصول ، وهذا ذكره الفقهاء من أهل كل مذهب ، ومن أراد الوقوف على جزئيات وفروع في الكفر والردة فعليه بما صنف في ذلك (كالاعلام بقواطع الاسلام) وما عقده الفقهاء من أهل كل مذهب في باب حكم المرتد ، فمن نطق بالشهادتين ثم أتى بما يعارضهما فلا تنجيانه •

قال شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية في الرسالة السنية — لما ذكر حديث الخوارج ومروقهم من الدين وأمره صلى الله عليه وسلم بقتالهم قال — فاذا كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه ممن انتسب الى الاسلام من مرق منه — مع عبادته العظيمة حتى أمر صلى الله عليه وسلم بقتالهم — فليعلم أن المنتسب الى الاسلام والسنة في هذه الازمان قد يمرق أيضا من الاسلام وذلك بأسباب : منها الغلو

الذي ذمه الله في كتابه حيث قال: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق) ^(١) ، وعلي بن أبي طالب حرق الغالية من الرافضة فأمر بأخايد خدت لهم عند باب كندة فقتلوا فيها ، وانفق الصحابة على قتلهم ، لكن ابن عباس كان مذهبه أن يقتلوا بالسيف بلا تحريق ، وهو قول أكثر الصحابة ، وقصتهم معروفة عند العلماء ، وكذلك الغلو في بعض المشايخ ، بل الغلو في علي بن أبي طالب ، بل الغلو في المسيح ونحوه ، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعا من الالهية مثل أن يقول ياسيدي فلان انصرتي أو أغثني أو ارزقني أو أجبرني أو أنا في حسبك ونحو هذه الاقوال فكل هذا شرك وضلال ، يستتاب صاحبه فإن تاب والا قتل ، فإن الله انما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده لا يجعل معه اله آخر ، والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والاصنام لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق وتنزل المطر وتنبت النبات ، انما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم أو صورهم ، ويقولون : مانعدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فبعث الله رسوله ينهى أن يدعي أحد من دونه ، لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة ، وقال تعالى : (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) ^(٢) قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون

المسيح وعزيراء والملائكة فأنزل الله هذه الآية ثم ذكر آيات في المعنى انتهى . والمقصود منه : أنه جعل عباد القبور من شر الخوارج المارقين ، فهم شر أصناف الخوارج ، وقد توقف بعض السلف في تكفير الخوارج ، قيل لعلي ، أكفارهم ؟ قال : من الكفر فروا ، وعباد القبور لم يتوقف أحد من أهل العلم — الذين يرجع اليهم — في كفرهم . غاية ما قالوا : لا يقتل حتى يستتاب ، أو لا يكفر حتى تقوم عليه الحجة أو نحو هذا الكلام ، والمسلمون لم يكفرهم أحد من أهل العلم ، ولشيخ الاسلام نصوص آخر في هذا المعنى نقلها تسميا للفائدة : —

قال رحمه الله في كتاب الاستغاثة الذي رد به على ابن البكري : ان أهل العلم والسنة لا يكفرون من خالفهم وان كان ذلك المخالف يكفرهم ، لأن الكفر حكم

شرعي ، فليس للانسان أن يعاقب بمثله ، كمن كذب عليك وزنى بأهلك ليس لك أن تكذب عليه وتزني بأهله ، لأن الكذب والزنا حرام لحق الله تعالى ، وكذلك التكفير حق الله تعالى فلا يكفر الا من كفره الله ورسوله . وأيضا فان تكفير الشخص المعين وجواز قتله موقوف على أن تبلغه الحجة النبوية التي يكفر من خالفها ، والا فليس كل من جهل شيئا من الدين يكفر .

ولما استحل طائفة من الصحابة والتابعين كقدامة بن مظعون وأصحابه شرب الخمر - وظنوا أنها تباح لمن عمل صالحا على ما فهموه من آية المائدة - اتفق علماء الصحابة كعمر وعلي وغيرهما على أنهم يستتابون ، فان أصروا على الاستحلال كفروا ، وان أقروا به جلدوا ، فلم يكفروهم بالاستحلال ابتداء لأجل الشبهة التي عرضت لهم حتى يتبين لهم الحق ، فاذا أصروا على الجحود كفروا ، وقد ثبت في الصحيحين حديث الذي قال لأهله : (اذا أنا مت فاسحقوني ثم ذروني في اليم ، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا من العالمين) فأمر الله سبحانه البر فرد مأخذا منه ، وأمر البحر فرد مأخذا منه ، وقال مصعبك على ما فعلت ؟ قال خشيتك يارب ، فغفر له) فهذا اعتقد أنه اذا فعل ذلك لا يقدر الله على اعادته وأنه لا يعيده أو جوز ذلك ، وكلاهما كفر ، لكن كان جاهلا لم يتبين له الحق بيانا يكفر بمخالفته فغفر الله له ، ولهذا كت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن الله تعالى فوق العرش - لما وقعت محتتهم - أنا لو وافقتكم كنت كافرا لأنني أعلم أن قولكم كفر ، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال ، وكان هذا خطابا لعلمائهم وفضلائهم ، وشيوخهم وأمرائهم ، وأعمل جهلهم شبها عقلية حصلت لرؤوسهم من قصور في معرفة المنقول الصحيح والمعتول الصريح الموافق له ، وكان هذا خطابا ، فلذا لم تقابل جهله وافتراءه بالتكفير بمثله ، كما لو شهد شخص بالزور على شخص ، أو قذفه بالفاحشة كذبا عليه لم يكن له أن يشهد عليه بالزور ، ولا أن يقذفه بالفاحشة انتهى المقصود منه .

وقال في موضع آخر من هذا الكتاب : اذا خاض هذا - يعنى ابن البكري - في مسألة لم يسبقه اليها عالم ، ولا معه فيها نقل عن أحد ، ولا هي من مسائل النزاع بين العلماء فيختار أحد القولين ، بل هجم فيها على ما يخالفه ، دين الاسلام المعلوم بالضرورة عن الرسول ، فأنا بعد معرفة ما جاء به الرسول نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته أن يدعوا أحدا من الاموات ، لا الانبياء ولا الصالحين ولا غيرهم ، لا بلفظ-

الاستغائة ولا بغيرها ، ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها ، كما أنه لم يشرع لأئمة
السجود لأحد لا لحي ولا الى ميت ونحو ذلك ، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الامور ،
وان ذلك من الشرك الذي حرمه الله ورسوله •

لكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن
تكفيرهم بذلك حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول منا يخالفه ، ولهذا ما بينت هذه
المسألة قط لمن يعرف أصل الاسلام ألا تفتن وقال هذا أصل دين الاسلام •
وكان بعض الاكابر من الشيوخ العارفين من أصحابنا يقول : هذا أعظم ما بينته
لنا ، لعلمه بأن هذا أصل الدين ، وكان هذا وأمثاله في ناحية أخرى يدعون الاموات
ويسألونهم ، ويستجيرون بهم ويتضرعون اليهم ، وربما كان ما يفعلونه بالاموات
أعظم ، لأنهم انما يقصدون الميت في ضرورة نزلت بهم فيدعونه دعاء المضطر ، راجين
قضاء حاجتهم بدعائه أو الدعاء به أو الدعاء عند قبره ، بخلاف عبادتهم لله ودعائهم
اياه فانهم يفعلونه في كثير من الاوقات على وجه العادة والتكلف انتهى •

(مذكره شيخ الاسلام في الرسالة الماردنية مما يتعلق بالمقصود)

قد ذكر رحمه الله في فصل حكم الصلاة خلف أهل الاهواء كلاما مفصلا يوضح
هذه المسألة ويكشف حجاب تلك المعضلة ، فأجبت نقله حرصا على اقتناء فوائده
وان طال الكلام •

(قال رحمه الله) وأما الصلاة خلف أهل الاهواء والبدع وخلف أهل الفجور :
ففيه نزاع مشهور ، وتفصيل ليس هذا موضع بسطه ، لكن أوسط الاقوال في هؤلاء
أن تقديم الواحد من هؤلاء في الامامة لا يجوز مع القدرة على ذلك ، فان كان مظهرا
للفجور أو البدع وجب الانكار عليه ونهيه عن ذلك ، وأقل مراتب الانكار هجره
لينتهي عن فجوره وبدعته •

ولهذا فرق جمهور الأئمة بين الداعية وغير الداعية ، فان الداعية أظهر المنكر
فاستحق الافكار عليه ، بخلاف الساكت فانه بمنزلة من أسر الذنب ، فهذا لا ينكر
عليه في الظاهر ، فان الخطيئة اذا خفيت لم تضر الا صاحبها ، ولكن اذا أعلنت فلم
تنكر ضرت العامة ، ولهذا كان المنافقون يقبل منهم علانيتهم وتوكل سرائرهم الى
الله بخلاف من أظهر الكفر ، فاذا كان داعية منح من ولايته وامامته وشهادته وروايته
لما في ذلك من النهي عن المنكر لا لأجل فساد الصلاة أو اتهامه في شهادته وروايته ،

فاذا أمكن الانسان أن لا يقدم مظهرها للمسكر في الإمامة وجب ذلك ، لكن اذا ولاة غيره ولم يمكنه صرفه أو كان هو لا يتمكن من صرفه الا بشر أعظم ضررا من ضرر ما أظهره من المنكر فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظم الضررين ، فان الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الامكان ، ومطلوبها بترجيح خير الخيرين اذا لم يجتسعا جميعا ، ودفع شر الشرين اذا لم يندفعا جميعا ، فاذا لم يكن منع المظهر للبدعة والفجور الا بضرر زائد على ضرر امامته لم يجوز ذلك ، بل يصلى خلفه مالا يمكن فعله الا خلفه كالجمعة والاعياد والجماعة اذا لم يكن هناك امام غيره .

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يصلون خلف الحجاج والمختار ابن أبي عبيد وغيرهما الجمعة والجماعة ، فان تفويت الجمعة والجماعة أعظم فسادا من الاقضاء بامام فاجر ، لاسيما اذا كان التخلف عنها لا يرفع فجوره فيبقى ترك المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة ، ولهذا كان التاركون للجماعات والجمعات خاف أئمة الجور مطلقا معدودين عند السلف والائمة من أهل البدع ، وأما اذا أمكن فعل الجمعة والجماعات خلف البر فهو أولى من فعلها خلف الفاجر .

وحينئذ فاذا صلى خلف الفاجر من غير عذر فهو موضع اجتهاد للعلماء ، منهم من قال يعيد لأنه فعل مالا يشرع له بحيث ترك ما يجب عليه من الانكار بصلاته خلف هذا ، فكانت صلاته منهيها عنها فيعيدها ، ومنهم من قال لا يعيد ، قال لأن الصلاة في نفسها صحيحة ، وما ذكر من ترك الانكار هو أمر منفصل عن الصلاة وهو يشبه البيع بعد نداء الجمعة ، وأما اذا لم يمكنه الصلاة الا خلفه كالجمعة فهنا لا تعاد الصلاة ، واعادتها من فعل أهل البدع ، وقد ظن طائفة من الفقهاء أنه اذا قيل إن الصلاة خلف الفاسق لا تصح أعيدت الجمعة خلفه والا لم تعد وليس كذلك ، بل النزاع في الاعادة حيث نهى الرجل عن الصلاة ، فاما اذا أمر بالصلاة خلفه فالصحيح هنا أنه لا اعادة عليه لما تقدم من أن العبد لم يؤمر بالصلاة مرتين ، وأما الصلاة خلف من يكفر ببدعته من أهل الاهواء فهناك قد تنازعوا في نفس صلاة الجمعة خلفه ، ومن قال إنه يكفر أمر بالاعادة ، لأنها صلاة خلف كافر ، لكن هذه المسألة متعلقة بتكفير أهل الاهواء ، والناس مضطربون في هذه المسألة ، وقد حكى عن مالك فيها روايتان ، وعن الشافعي فيها قولان ، وعن الامام أحمد أيضا فيها روايتان . وكذلك أهل الكلام قد ذكروا للشرعي فيها قولين ، وغالب مذاهب الأئمة فيها تفصيل .

وحقيقة الامر في ذلك : أن القول قد يكون كفرا فيطلق القول بتكفير صاحبه ، ويقال من قال كذا فهو كافر ، لكن الشخص المعين الذي قال لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها ، وهذا كما في نصوص الوعيد ، فإن الله تعالى يقول : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ ظَالِمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا)^(١) . فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق ، لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد ، فلا يشهد على معين من أهل القبلة بالنار ، لجواز أن لا يلحظه الوعيد لقوات شرط أو ثبوت مانع ، فقد لا يكون التحريم بلغه ، وقد يتوب من فعل المحرم ، وقد تكون له حسنات عظيمة تسحو عقوبة ذلك المحرم ، وقد يتلى بمصائب تكفر عنه ، وقد يشفع فيه شفيع مطاع ، وهكذا الاقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق ، وقد يكون بلغته ولم تثبت عنده أو لم يتمكن من فهمها ، وقد يكون عرضت له شبهات يعذر الله بها فمن كان من المؤمنين مجتهدا في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كأنما ما كان ، سواء كان في المسائل النظرية والعلمية ، أو المسائل الفروعية العملية ، هذا الذي عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وجماهير أئمة الاسلام .

وأما التفريق بين نوع وتسمية مسائل الأصول ، ونوع آخر وتسميته مسائل الفروع : فهذا الفرق ليس له أصل لا عن الصحابة ولا عن التابعين لهم باحسان ولا أئمة الاسلام ، وانما هو مأخوذ من المعتزلة وأمثالهم من أهل البدع ، وعنهم تلقاه من ذكره من الفقهاء في كتبهم وهو تفريق متناقض . فانه يقال لمن فرق بين النوعين ما حد مسائل الاصول التي يكفر المخطيء فيها ؟ وما الفاصل بينها وبين مسائل الفروع ؟ فان قال : مسائل الاصول هي مسائل الاعتقاد والفروع مسائل العمل ، قيل له : فتنازع الناس في محمد صلى الله عليه وسلم هل رأى ربه أم لا ، وفي أن عثمان أفضل من علي أم علي أفضل ، وفي كثير من معاني القرآن ، وتصحيح بعض الاحاديث : هي من المسائل الاعتقادية لا العملية ولا كفر فيها بالاتفاق ، ووجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وتحريم الفواحش والخمر : هي مسائل علمية والمنكر لها يكفر بالاتفاق ، وان قال : الاصول هي الاصول القطعية ، قيل له : كثير من مسائل العمل قطعية ، وكثير من مسائل النظر ليست قطعية ، وكون المسألة قطعية أو ظنية هو من

الامور الاضافية ، وقد تكون المسألة عند رجل قطعية لظهور الدليل القاطع له ، كمن يسمع النص من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتيقن مراده منه — وعند غيره لا تكون ظنية فضلا عن أن تكون قطعية ، لعدم بلوغ النص اياه ، أو لعدم ثبوته عنده ، أو لعدم تمكنه من العلم بدلالته (١) ثم ذكر حديث الذي قال لأهله اذا أنا مت فأحرقوني الخ . . . الى أن قال : وهذه المسائل مبسوطه في غير هذا الموضع ، لكن المقصود هنا : أن مذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل بين النوع والعين ، ولهذا حكى طائفة عنهم الخلاف في ذلك ولم يفهسوا غور قولهم ، فطائفة تحكى عن أحمد في تكفير أهل البدع روايتين مطلقا حتى تجعل الخلاف في تكفير المرجئة والشيعة المفضلة لعلي ، وربما رجحت التكفير والتخليد ، وليس هذا مذهب أحمد ولا غيره من أئمة الاسلام ، بل لا يختلف قوله انه لا يكفر المرجئة الذين يقولون الايمان قول بلا عمل ، ولا يكفر من يفضل عليا على عثمان ، بل ونصوصه صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج والقدرية وغيرهم ، وانما كان يكفر الجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته ، لأن مناقضة أقوالهم لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهرة بيينة ، ولأن حقيقة قولهم تعطيل الخالق ، وقد ابتلى بهم حتى عرف حقيقة أمرهم وأنه يدور على التعطيل ، وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة ، لكن ما كان يكفر أعيانهم ، فان الذي يدعو الى القول أعظم من الذي يقوله. والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يعاقبه (٢) ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الامور يقولون بقول الجهمية أن القرآن مخلوق وأن الله لا يرى في الآخرة وغير ذلك . ويدعون الناس الى ذلك ، ويستخفونهم ويعاقبونهم اذا لم يجيبوهم ، ويكفرون من لم يجيبهم ، حتى أنهم كانوا اذا افتكوا الاسير لا يطلقونه حتى يقر بقول الجهمية أن القرآن مخلوق وغير ذلك ، ولا يولون متوليا ولا يعطون رزقا من بيت المال الا لمن يقول ذلك ، ومع هذا فالامام أحمد رضي الله عنه ترحم عليهم واستغفر لهم ، لعلمه بأنه لم يتبين لهم أنهم مكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم ولا جاحدون لما جاء به . لكن تأولوا فأخطأوا وقلدوا من قال لهم ذلك . وكذلك

(١) نص ماقاله : وقد ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم (حديث الذي قال لأهله اذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم اذروني في اليم ، فوالله لئن قدر الله علي لبعذبني عذابا ما عذب به أحدا من العالمين ، فامر الله البر برد مأخذ منه ، والبحر برد مأخذ منه ، وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال خشيتك يارب ، فففر الله له) فهذا ظاهره شك في قدرة الله تعالى في المعاد ، بل ظن أنه لا يعود ، وأنه (٢) نص هذه الجملة في بعض نسخ الماردينية هو : والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يدعو فقط ، لا يقدر الله تعالى عليه اذا فعل ذلك وغفر الله له ، وهذه المسائل الخ . . . والذي يكفر مخالفه أعظم من الذي يعاقبه .

الشافعي لما قال لحفص الفرد حين قال القرآن مخلوق كفرت بالله العظيم بين أن هذا القول كفر ولم يحكم بردة حفص بسجرد ذلك ، لأنه لم يتبين له بعد الحجة التي يكفر بها ، ولو اعتقد أنه مرتد لسعى في قتله ، وقد صرح في كتبه بقبول شهادة أهل الأهواء والصلاة خلفهم ، وكذلك قال مالك والشافعي وأحمد في القدري أن جحد علم الله كفر ، ولفظ بعضهم ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خصسوا وإن جحدوا كفروا . وسئل أحمد رحمه الله عن القدري هل يكفر ؟ قال : إن جحد العلم كفر ، وحينئذ فجاحد العلم هو من جنس الجهمية ، وأما قتل الداعية إلى البدع فقد يقتل لكف ضرره عن الناس كما يقتل المحارب وإن لم يكن في نفس الأمر كافرا ، فليس كل من أمر بقتله يكون قتله لردته ، وعلى هذا قتل غيلان القدري وغيره قد يكون على هذا الوجه ، وهذه المسائل مسوئنة في غير هذا الموضع وإنما نبهنا عليها تنبيها ، انتهى كلام شيخ الإسلام رحمه الله .

والذي تحصل مما سقناه من النصوص : أن الغلاة ودعاة غير الله وعبدة القبور إذا كانوا جهلة بحكم ما هم عليه ولم يكن أحد من أهل العلم قد نبههم على خطئهم فليس لأحد أن يكفرهم .

وأما من قام عليه الحجة وأسر على ما عنده واستكبر استكبارا أو تسكن من العلم فلم يتعلم فسندكر حكمه في الآتي .

(والمقصود) أن من تسك من المسلمين بما كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المعتد والدين الذي خالفوا به أهل البدع وباينوهم فلم يذعوا إلى ما ذهبت إليه الجهمية المعطلة ولا إلى ما ذهبت إليه القدرية النفاة والقدرية المجرة ولا إلى ما ذهبت إليه الخوارج والمعتزلة ولا إلى ما ذهبت إليه الرافضة والمرجئة ولم يذهبوا إلى ما افتراه الغلاة في الأولياء والصالحين من عباد القبور ونحوهم فإن هؤلاء لا يسون عند أهل السنة والجماعة غالية كما سنوا به من غلا في علي وزعم أنه الإله الحق فاستتابهم علي فأبوا فخذلهم الأخاديد وأوفد فيها النيران وقذفهم فيها ، وقال :
 اني اذا رأيت أمرا منكرا أجت ناري ودعوت قنبرا

وفي رواية لما رأيت الأمر أمرا منكرا الخ . . فهؤلاء هم المسلمون الذين لا يكفرون ، وتسبية من عبد غير الله مسلما فهو إلى أن يعالج عقله أحوج منه إلى أن يقام عليه الدليل .

(الامر الرابع) من الامور التي يجب التنبيه عليها : ان من مكاييد الغلاة التي كادوا بها العوام أنهم يقولون : ان الاستغاثة بالاموات وندائهم في المهيات وشدة الرحال لزيارة قبورهم وتقديم قرابينها ونذورهم (١) هو من علامات محبتهم ، والتقرب بقربتهم ، ومن أنكر ذلك وأبى ما هنالك ونهى عن زخرفتها وايقاد السرح عليها وبناء المساجد عليها وقصد أهلها في طلب الحاجات والالتجاء اليها في المهيات فهو من المبغضين للصالحين ، والمنكرين لكرامات الاولياء والصديقين ، الى غير ذلك من أقوالهم المناسبة لضلالتهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، فان من أنكر مثل تلك البدع والضلالات هم المحبون لهم . والمحافظون على هديهم وطريقتهم ، وأما هؤلاء الغلاة وأعداء الهداة فقد أفسدوا الدين ، وسدوا طريق الموحدين ، يعرف ذلك من وقف على أحوالهم ، وما قالوه في الاسلام وما بدلوه من الدين ، وما عليه أهل البوادي اليوم والاعراب من الكفر بآيات الله ورد أحكام القرآن والاستهزاء بذلك ، والرجوع الى سواف البادية وما كانت عليه من العادات والاحكام الجاهلية ، وأمثلهم حالا من عرف أن كتاب الله وأحاديث رسوله عند أهل البلاد فلم يرفع يده عن رأسه ، ونم يبال بشيء مما هنالك أو هو جاهل بما جاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب .
لاشعور له بشيء من ذلك ، ولا يدري ما الناس من أمر دينهم .
وغالب أهل المدن منهسكون في اللذائذ والشهوات ، قد عرضوا عن الشريعة وما ورد فيها من الاوامر والنواهي ، ولم يلتفتوا الى ما في كتب الفقه من الاحكام ، وفضوا أن سيئاتهم تغفر بنذورهم الى القبور ونداء أهلها والاستغاثة بهم ، وان من منعهم من دعاء الانبياء والصالحين ، والاستغاثة بهم . والاستغاثة في الشدائد والمهيات وأنهم لا يدعون مع الله في الحاجات والملمات ولا يذبح لهم تقربا ، ولا يضاف بقبورهم ولا يتوكل عليهم . فقد استخف بهم وتفخضهم وهضمهم حقهم .
وأصل هذا أنهم لا يفرقون بين حق الله وحق عباده . ولا تميز عندهم في ذلك ، بل يرون استحقاقهم كثيرا من العبادات المختصة بالله . وهذا يشبه غلو النصارى في المسيح وغيره . وقد قالوا لمن أنكر عنهم عبادة المسيح قد تنقصت المسيح وقلت فيه قولاً عظيماً : كما قال عمرو ابن العاص وأصحابه للنجاشي - لما قدموا عليه بعد الهجرة الاولى الى الحبشة وسألوه أن يخلي بينهم وبين المهاجرين عنده جعفر بن أبي طالب وأصحابه وأبى ذلك النجاشي فقال عمرو - أنهم يقولون في المسيح قولاً عظيماً

(١) كذا في الاصل ولعل المراد : وتقديم القرابين اليها والندور لها . الخ

يعني يقولون هو عبد ليس بإله . فأرسل النجاشي لجعفر وأصحابه وسألهم عن ذلك . فقالوا : نقول فيه ما قال الله تعالى . وتلا جعفر مسد سورة مريم حتى أتى على ذكر المسيح وشأنه . فقال النجاشي : والله ما زاد المسيح على هذا .

وبالجملة فمن عرف ما جاءت به الرسل من وجوب توحيد الله وافراده بالعبادة وتبين له أن المنع من دعائهم وقصدتهم من دون الله في الحاجات والملمات هو عين تعظيهم . وتوقيرهم . وتعزيرهم . والايان بهم وتصديقتهم ، وقبول ما جاؤا به ، ومنايذة أعدائهم وأضدادهم من المشركين على اختلاف أجناسهم وتباين مللهم ، فإن أصل النزاع بينهم وبين أعدائهم في عبادة الله وحده والبراءة من عبادة ماسواه ، ولا يحصل ولا يتصور الايمان بهم الا باعتقاد هذا وهو اذقتهم عليه ، وأما مخالفتهم فيه ومعصيتهم فهي عين التنقص والاستخفاف بهم . ومن عرف هذا عرف أن أهل الحق والايان من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قيام الساعة هم المعطسون للرسول ، الموقرون لهم ، العارفون بحقوقهم ، التائبون بسا يجب لله ، وما يجب لعباده من الحقوق ، لا أهل الشرك بهم والمعصية لهم ، ونيد أوامرهم وترك ما جاءوا به وهجره وعزله عن الحكم به ، وتقديم منطق اليونان في باب معرفة الله وصفاته ، وتقديم آراء الرجال وحديثهم على النصوص والاحاديث الصريحة ، وتقديم غلو النصراني ورأيهم في عبادة الاحبار والرهبان على ما جاء به من تجريد التوحيد واخلاص الدين لله ، هذا هو حقيقة الاستخفاف عند كافة العقلاء ، وأما طاعة الرسول في اخلاص الدين لله ، وترك دعاء الانبياء والصالحين فهو عين التعظيم والتوقير ، ولذلك قال عز من قائل : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) (١) فظهر أن كيدهم جعله الله في نحرهم ، وتبين أنهم قوم لا يعقلون .

فنسألك اللهم أن تخلع من أعداء الحق وثائق قلوبهم وأفئدتهم ، وأن تباعد بينهم وبين أزودتهم ، وأن تحيرهم في سبلهم ، وأن تضللهم عن وجههم ، وأن تقطع المدد عنهم ، وأن تنقص منهم العدد . وأن تسلب أفئدتهم بالرعب ، وتقبض أيديهم عن البسط ، وتحرم ألسنتهم عن النطق ، وتشرد بهم من خلفهم ، وتنكل بهم من وراءهم ، وتقطع بحربهم أطماع من بعدهم ، اللهم عقم أرحام نساءهم ، وبيس أصلاب رجالهم واقطع نسل دوابهم وأنعامهم ، اللهم لا تأذن لسائهم في قطر ولا لأرضهم في نبات .

(١) آل عمران : ٣١

(الأمر الخامس) ان كثيرا من يظهر عقيدة الغلاة وينتصر لهم ويصوب رأيهم
 - في جواز نداء الصالحين ودعائهم ، والاتجاء اليهم والاستغاثة بهم ، وقصدتهم
 بالندور وبكل زور ، مسا استباحوه من الاعمال والاقوال المناقضة لما جاءت به الاديان
 التي شرعها ذو الجلال والملك المتعال - هم زنادقة لا يعترفون بأن للعالم إليها خالقا
 مدبرا للكائنات علويها وسفليها منكرين للكتب الالهية وما اشتملت عليه من الاحكام
 نافين للمعاد وليوم التناد ، ويقولون لا حساب ولا كتاب ولا جنة ولا نار ، ولا آخرة
 ولا دار قرار ، ومقصودهم من الانتصار للغلاة وأهل الطرائق المبتدعة وما اشتملت
 عليه من المنكرات وما لم يأذن به الله من العبادات : ستر عوارهم بباطل انتصارهم ،
 والتوصل الى شتم أهل الحق وحياة الدين ، واغاطة من خاصمهم على باطلهم من
 الموحدين ، وقد سعت أن بعض الاوغاد من زنادقة بغداد ألفوا كتابا سواه الفجر
 الصادق ، وكان الحري أن يسموه بأقوال المارق ، قد اشتمل على تصحيح أقوال
 المبتدعة وضلالات الغلاة ، ومخازي آراء الغواة ، معادة للرايين على أقوالهم ،
 والمظهرين لأحوالهم والكاشفين حجب جهلهم وضلالهم ، وتوصلا الى شتم من عاداهم
 من أهل الحق لزيغهم ، ومراغة لمن جرد عليهم صوارم براهين رد باطلهم ، وهم من
 مشاهير زنادقة بغداد ، مربع (١) الزور والفساد . قد أنكروا المعبود واليوم الموعود
 وجحدوا ارسال الرسل والانبياء ، وما اشتملت عليه الكتب الالهية من الاحكام ،
 والانبياء ، فليس لهم من الاسلام الا اسمه ، ولا من الدين الا زي متحلله ورسمه ،
 وكيدهم لا يفيدهم ، وحالهم معلوم لدى العنوم .

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

وقد ذكر المفسرون عند الكلام على قوله تعالى : (إذا جاءك المنافقون
 قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين
 لكاذبون) (٢) . ان المنافق اسم اسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به ، وهو
 الذي يستر كفره ويظهر ايسانه ، وان كان أصله في اللغة معروفا . يقال : نافق ينافق
 منافقة ونفاقا ، وهو مأخوذ من النافقاء ، وهي احدى حجر اليربوع وهي التي يدخل
 منها ، وليس مأخوذا من النفق وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره ، وكان
 المنافقون يأتون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشهدون شهادة مؤكدة أنه

(١) أي : مكان ومقر .

(٢) المنافقون : ١

رسول الله ، فشهد الله عليهم أنهم كاذبون . ومن أصدق من الله قليلا ؟ أفلا ينبغي أن يصدق بأقوالهم . وقد عدد الله تعالى قبائحهم ، وهي موجودة في منافقي بغداد وزنادقة العراق ، فمنها أن من عادتهم الاستجنان بالايان الكاذبة كما استجنوا بالشهادة الكاذبة ، أي اتخذوا حلفهم بالله أنهم لمنكم جنة عن القتل أو السبي أو نحوها مما يعامل به الكفار . ومن هنا أخذ الشاعر قوله : -

وما اتسبوا الى الاسلام الا لصون دماهم أن لا تسلا

وقد أخبر سبحانه عن صفتهم وشأنهم فقال : (وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَعَجَّبْتَ أَجْسَامَهُمْ) ^(١)

لصباحتها وتناسب أعضائها (وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ) ^(١) انصاحتهم وذلاقة ألسنتهم ، وهكذا أولئك المنافقون يعجب الناس من هياكلهم ويسعون لكلامهم ، أي ماهم الا أجرام خالية من الايمان والخير ، كالخشب منصوبة مسندة الى الحائط في كونها أشباحا خالية عن الفائدة ، أو كأنهم أصنام منحوتة من خشب مسندة الى الحيطان ، شهبوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم ، وفي مثلهم قال الشاعر : -

لا يخدعك اللحي ولا الصور تسعة أعشار من ترى بقر
تراهم كالسحاب منتشرا وليس فيها لطلب مضر
في شجر السرو منهم شبه له رواء وماله ثمر

ثم ان الله تعالى زادهم ايضاحا فقال : (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ) ^(١) أي متى سمعوا صياحا بأي وجه كان طارت عقولهم ، وظنوا ذلك ايقاعا بهم ، كما قال جرير يخاطب الاخطل :

مازلت تحسب كل شيء بعدهم خيلا تكرر عليهم ورجالا
وقال المتنبى :

وضاقت الارض حتى ظن هاربهم اذا رأى غير شيء ظنه رجلا
ثم استأنف سبحانه الكلام عنهم لبيان مايجب من معاملتهم فقال : (هم العدو) أي هم الكاملون في العداوة والراسخون فيها ، فان أعدى الاعادي العدو المداجي ، الذي يشاركه وتحت ضلوعه الداء الدوي ، ككثير من أبناء الزمان (فاحذرهم)

لكونهم أعدى الأعداء ولا تغترن بظواهرهم •

فأول طالع فجر كذب فلا تقنع بأول ماتراه

(قاتلهم الله) أي لعنهم وطردهم فإن القتل قصارى شدائد الدنيا وفضائعها ، وكذلك الطرد عن رحمة الله تعالى والبعد عن جنبه الأقدس منتهى عذابه عز وجل ، وغاية نكاله جل وعلا ، والسورة من أولها إلى آخرها في بيان أحوال المنافقين وذكر أحكامهم ، والمقصود : أن كثيرا من الزنادقة والمنافقين — ومنهم من سبق ذكرهم — يظهرون ما يظهره الغلاة ، وأولئك الزائغون العواة ، لمزيد حبهم للدنيا وخوفهم على مناصبهم ومراتبهم ، وهم لا دين لهم ولا إيمان ، ولا صلاة ولا زكاة ، ولا حج ولا صيام ، وهم كل وقت على وجل يحسبون كل صيحة عليهم ، فلا يلتفت إلى هديانهم ، وضلالهم وبطلانهم ، فما أشبه كلامهم بطنين ذباب ، أو صرير باب ، أو نجح كلاب ، (قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)^(١)

وقد تسلب الأيام حالات أهلها وتعدو على أسد الرجال الثعالب

(الأمر السادس من تلك الأمور) أن الغلاة وعبدة القبور وسالكي الطرق المبتدعة يكيدون الجهلة والعوام بمكائد كثيرة : منها ماسبق ، ومنها : أنهم يقولون لهم أن المخالفين لنا لم تزل تصيهم نكبات الدنيا ومصائبها بخلاف من سلك مسلكنا ، فانا مستعون منعون بنعم الدنيا ومناصبها الرفيعة ، ومراتبها العالية ، والقرب من أولياء الأمور ، انظروا إلى فلان وفلان وفلان ويعددون لهم كثيرا من كلاب الدنيا الدنية ، ويقولون لهم : ثم انظروا إلى مخالفينا كابن تيمية وأضرابه ، ويذكرون لهم ما حل بهم من المخالفين ، ومثل هذا الكيد كثيرا ما يكرره النبهاني في كتابه شواهد الحق الذي تصدينا لرده ، ويقول مرة بعد أخرى أن ابن تيمية شق العصا ، وشوش عقائد المسلمين بسبب ما اختاره من عدم جواز دعاء غير الله والالتجاء إلى ما سواه ونحو ذلك ، وإن الله لم يبارك في كتبه فلم ينتفع بها أحد من المسلمين لقوله بذلك ، وإن العلماء اتفقوا على حبسه الحبس الطويل . فحبسه حاكم مصر يومئذ ومنعه من الكتابة في الحبس ، وإن لا يدخل عليه بدوات ، ومات في الحبس ، ونحو من ذلك الهذيان ، وهكذا قال ابن حجر في الجوهر المنظم وفي فتاواه ، وهكذا السبكي في بعض كتبه •

واعلم أن من له نظر وبصيرة لا يلتفت الى مثل هذا الهذيان من هذا الكلام الذي يشبه كلام الصبيان ، بل ينظر الى الدليل والبرهان . وما أصاب ابن تيمية وأضرابه من أهل الحق فله أسوة بسادات أهل الدين والانبيا والمرسلين : سلوات الله عليهم أجمعين ، ولو بسطنا الكلام على ماجرى عليهم وما جرى على أكابر المجتهدين وأهل العلم لما وسعه سفر كبير ، ولم يختص بذلك عصر ، بل هكذا جميع الاعصار .

ان الرياح اذا اشتدت عواصفها فليس ترمي سوى العالي من الشجر
قال العلامة الشيخ شهاب الدين أحمد بن علي الدلجي - وكان من أكابر حفاظ عصره ومحدثيهم ، وأعلمهم بعقائد السلف وعلومهم - في كتاب الفلاكة والمفلوكين قلنا خلا عالم أو نبيل من نكبة ، وأنا أذكر هنا طرفالائقا بقصودي من ذوي النكبات من الاعيان الذين عرضت لهم : -

(مالك بن أنس) ابن أبي عامر بن الحرث ابن غيسان - بالغين المعجزة - أبو عبد الله الامام المدني أحد أئمة الاسلام ، سعى به الى جعفر بن سليمان بن علي ابن عم أبي جعفر المنصور ، فدعا به وجرده ، وضربه سبعين سوطا ، ومدت يده حتى انخلع كنفاه ، وسبب ضربه أنهم سألوه عن مبايعة محمد ابن عبد الله بن حسن ، وقالوا له ان في أعناقنا مبايعة أبي جعفر ، فقال : انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين ، فأسرع الناس الى محمد فسعى به فضرب لذلك ، ثم لم يزل بعده في علو ورفعة كأنما كانت تلك الشياطين حليا تحلى بها ، توفي سنة أربع وسبعين ومائة .

(أبو حنيفة النعمان بن ثابت) الفقيه الكوفي أحد الأئمة المتبوعين ، كان يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقيين فأراد له قضاء الكوفة أيام مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية فأبى ، فضربه مائة سوط وعشرة أسواط كل يوم عشرة أسواط ، وبقي على الامتناع ، وسجنه فتوفي بالسجن في أحد القولين سنة خمسين ومائة ببغداد .

(الامام أحمد بن محمد بن حنبل) بن هلال الشيباني المروزي ثم البغدادي استحوذ على المأمون جماعة من المعتزلة وقولوه بخلق القرآن ، فعن له بطرسوس أن يكتب الى نائب بغداد اسحق بن ابراهيم بن مصعب يأمره أن يدعوا الناس الى القول بخلق القرآن ، فكان ذلك أول الفتنة ، وكان ذلك آخر عمر المأمون قبل موته بشهور سنة ثمانية عشر ومئتين ، فلما وصل الكتاب استدعى جماعة من العلماء فامتنعوا ، فهددهم بالضرب وقطع الارزاق ، فأجاب أكثرهم مكرهين ، واستتر على

الامتناع أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح الجند سابوري ، فحسلا على بعير متعادلين مقيدين الى الخليفة عن أمره بذلك ، ثم جاء الصريخ بسوت المأمون في الثلث الاخير ، ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولي الخلافة وأن الامر شديد ، فردا الى بغداد في سفينة مع بعض الاساري ، ومات محمد بن نوح في الطريق ، وأودع الامام أحمد السجن ببغداد نحو من ثمانية وعشرين شهرا ، ثم أحضره المعتصم في قيوده وأجلسه ، فجلس ودعا الى القول بخلق القرآن ، فامتنع وقال فما قال ذلك ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الى شهادة أن لا اله الا الله وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن القرآن علم الله ، ومن علم أن علم الله مخلوق فقد كفر ، أعطوني شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به ، وناظره أحمد ابن أبي دواد وغيره وأنكروا الآثار التي أوردها ، وقالوا للمعتصم هذا أكفرك وأكفرنا ، وقال له اسحاق ابن ابراهيم نائب بغداد ، يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفته ، فعند ذلك حسى واشتد غضبه ، فأخذ وجيء باعتنايين والسياط ، وضربه ضربا مبرحا شديدا ، حتى أعغمي عليه وغاب عقله ، وأمر باطلاقه الى أهله فقتل وهو لا يشعر ، ولما شفي من الضرب بقي مدة وابهاماه يؤذيهما البرد ، وكان الضرب في الخامس والعشرين من رمضان سنة احدى وعشرين ومائتين ، وتوفي سنة احدى وأربعين ومائتين •

(يوسف بن يحيى البويطي) صاحب الامام الشافعي ، كان الشافعي يسأل عن الشيء فيحيل عليه فاذا أجاب قال هو كما أجاب ، وقال عنه الشافعي هو لساني ، حمل الى بغداد في أيام الواثق بالله من مصر - وفي عنقه غل وفي رجله قيد وبين الغل والقيد سلسلة حديد فيها طوق وزنتها أربعون رطلا - وأرادوه على القول بخلق القرآن فامتنع ومات بالسجن في فيودد سنة احدى وثلاثين ومائتين •

(الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري) أراد منه خالد بن أحمد الذهلي أن يأتيه في بيته ليسع أولاده فأبى ، وقال في بيته يؤتى الحكم ، فاتفق أن جاءه كتاب من محمد بن يحيى الذهلي من نيسابور بأن البخاري يقول بأن لفظه بالقرآن مخلوق ، وكان قد وقع بين محمد بن يحيى الذهلي وبين البخاري في ذلك كلام ، وصنف البخاري في ذلك كتابه (خلق أفعال العباد) فأراد الامير أن يصرف الناس عن السماع من البخاري فلم يقبلوا ، فأمر عند ذلك بنفيه من البلاد ، فخرج منها ، ودعا على خالد بن أحمد ، فلم يمض شهر حتى أمر ابن طاهر بأن ينادى على

خالد بن أحمد على أتان . وزال ملكه وسجن ببغداد حتى مات ، فبرح البخاري الى بلد يقال لها (خزتك) فبات سنة ستين وثلاثمائة نقلته بلفظه من تاريخ ابن كثير .
 (أحمد بن علي بن شعيب النسائي) صاحب السنن امام عصره . والمقدم على أضرابه ، رحل الآفاق وأخذ عن الحدائق . وكان ينسب الى شيء من التشيع ، قالوا دخل دمشق فسأله أهلها أن يحدثهم بشيء من فضائل معاوية . فقال : ما يكفي معاوية أن يذهب رأسا برأس حتى يروى له فضائل . فجعلوا يضعفون فيه حتى أخرج من الجامع ، فسار الى مكة فسر بالرملة ، فسئل عن فضائل معاوية فأمسك عنه ، فضربوه في الجامع ، فقال : أخرجوني الى مكة . فأخرجوه وهو غليل ، فتوفي بسكة مقتولا شهيدا سنة ثلاث وثلاثمائة .

(أبو عيسى الثقفي النحوي) شيخ سيويه - صاحب كتاب الجامع الذي قيل أن سيويه أخذه وزاد عليه ما استفاده من الخليل ونسبه اليه - أودعه شخص ودیعة ، ففسى الخبر الى يوسف بن عمر أمير العراقيين ، فكتب الى نائبه بالبصرة يأمره أن يحبل عيسى بن عمرو مقيدا ، فدعا به ، ودعا حدادا وأمره بتقييده ، فلما قيده قال له لا بأس عليك انما أردك لتعليم ولده ، قال فما بال القيد اذا . فلما وصل اليه سأله فأنكر ، فأمر بضربه فضرب بالسياط ، توفي سنة تسع وأربعين ومائة ، كان كثير الاستعمال للغريب والتعريف في كلامه ، وهو القائل : افر تقفوا عني ، قال يوما لأبي عمرو بن العلاء أنا أفصح من معد بن عدنان ، فاستشده أبو عمرو بيئا فيه بدا بمعنى ظهر ، وقال له : كيف تسنده الى جباة الاناث أتقول بدين أو بدان ؟ فقال : بدين ، فقال : أخطأت ، ولو قال بدان لاخطأ أيضا . وانما أراد أبو عمر تغليظه ، وانما الصواب بدون من بدا يبدوا اذا ظهر ، وبدأ يبدأ اذا شرع في الشيء معنى آخر ذكرت هذا استطراد لاشتغاله على فائدة .

(أبو جعفر محمد بن الزيات بن عبد الملك) وزير المعتصم ، ثم ابنه هارون الواثق ، ثم لما مات الواثق أشار هو بتولية ولده ، وأشار القاضي أحمد بتولية أخيه المتوكل ، وتم أمر المتوكل ، فحقد ذلك عليه مضموما الى حقدده عليه القديم ، لأنه كان يغلظ عليه في حياة الواثق تقربا اليه ، وكان ابن الزيات قد صنع تنورا من حديد في أيام وزارته وله مسامير محدودة الى داخله يعذب فيه الناس ، وكان يقول اذا استرحم ، الرحمة خور في الطبيعة ، فلما اعتقله المتوكل أدخله التنور وقيده بخمسة عشر رطلا من الحديد ومات في التنور ، فوجد قد كتب في التنور بفحمة :

من له عهد بنور يرشد الصب اليه
سهرت عيني ونامت عين من هنت عليه
رحم الله رحيمًا دلست عيني عليه

توفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة •

(ناصح الدين أبو محمد سعيد المعروف بابن الدهان) النحوي البغدادي شارح كتاب الايضاح والتكملة وكتاب السمع لابن جنبي ، وكان يفضل على ابن أبي محمد الجواليقي وابن الخشاب وابن الشجري المعاصرين له ، انتقل الى الموصل قاصدا جناب الوزير جمال الدين الاصفهاني المعروف بالجواد ، وكانت كتبه ببغداد واستولى العرق في تلك السنة على البلد ، فغرقت كتبه ، وكان خلف داره مدبغة ففاضت بالعرق الى بيته فتلفت كتبه بهذا السبب زيادة على تلف العرق ، فأرسل من أحضرها له - وكان قد أفنى عمره فيها - فأشاروا عليه أن يطيبها بالبخور ويصلح ما أمكنه فيها ، فبخرها بالكلاذن ولازمها بالبخور الى أن بخرها بأكثر من ثلاثين رطلا لاذنا ، فطلع ذلك الى رأسه وعينيه فأحدث له العمى ، توفي سنة تسع وستين وخسائة •

(أبو العباس أحمد بن محمد بن عطاء) أحد أئمة الصوفية ، حدث عن يوسف بن موسى القطان والمفضل وغيرهما كانت له ختمة يتلوها سبع عشرة سنة يتدبرها ، مات ولم يكملها ، أحضر في أمر الحلاج - وقد كتب الحلاج اعتقاده - فسأله الوزير حامد بن العباس عما قاله الحلاج ، فقال : من لا يقول بهذا فهو بلا اعتقاد ، فقال له الوزير : ويحك تصوب مثل هذا الاعتقاد ؟ فقال : مالك ولهذا ؟ عليك بنا نصبت له من أخذ أموال الناس وظلمهم ، مالك والكلام مع هؤلاء السادة ، فأمر الوزير بضرب شذقيه ونزع خفيه وأن يضرب بهما رأسه ، فما زال يفعل به كذلك حتى سال الدم من منخرية ، وأمر بسجنه . فقيل له أيها الوزير ان العامة تتشوش بهذا فحمل الى منزله ، قال ابن عطاء اللهم اقتله أبحث قتلة واقطع يديه ورجليه فمات ابن عطاء بعد سبعة أيام سنة تسع وثلاثمائة ، ثم مات الوزير مثل ما دعا عليه ابن عطاء مقطوع اليدين والرجلين مقتولا •

(المقرئ محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت) أبو الحسين المقرئ المعروف بابن سنبود ، روى عن أبي مسلم وبشر بن موسى وخلف ، وكان يختار حروفا أنكرها أهل زمانه عليه ، وصنف أبو بكر بن الانباري محمد بن القاسم الحافظ - الذي

كان يحفظ في كل جمعة عشرة آلاف ورقة - كتابا في الرد عليه ، كان أبو بكر المذكور من أعلم الناس بالنحو والأدب ، وكان لا يأكل الا البقالي ، ولا يشرب ماء الا قريب العصر مراعاة لحفظه ، عقد لابن شنبود مجلس في دار الوزير أبي علي محمد بن مقله ، وادعى عليه بالحروف النبي كان يقرأها فأقر بالبعض ، فضربه الوزير أبو علي بالدرية على رأسه واستتيب ، فدعا على ابن مقله فلم يفلح بعد ذلك . توفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة .

(الوزير ابن مقله) أحد المشاهير الكتاب محمد بن علي بن الحسين بن عبد الله بن علي المعروف بابن مقله الوزير ، كان له بستان كبير جدا ، وعليه - جمعيه - شبكة من أبريسم ، وفيه من الطيور والقناري والهازار والطواويس شيء كثير ، وفيه من الغزلان وبقر الوحش وحميره والنعام والاييل شيء كثير أيضا ، وولي الوزارة لثلاثة من الخلفاء المقتدر والقاهر والراضي ، وبنى له دارا فجمع عند بنائها خلقا كثيرا من المنجمين ، فاتفقوا على أن تبني في الوقت الفلاني ، فأسس جدرانها بين العشاءين كما أشاروا فما لبث بعد استتمامها الا يسيرا ، وقد أنشد فيه بعض الشعراء :

قل لابن مقله لاتكن عجلا	واصبر فانك في أضغاث أحلام
تبني بانقراض دور الناس مجتهدا	دارا ستنقض أيضا بعد أيام
مازلت تختار سعدا تطلبن لها	فلم يوف بها من نحس بهرام
ان القران وبطليموس مااجتمعا	في حال نقض ولا في حال ابرام

ثم عزل عن وزارته ، وأحرقت داره ، وانقلعت أشجاره ، وقطعت يده ، ثم قطع لسانه ، وأغرم ألف ألف دينار ، ثم سجن وحده مع الكبر والضعف والضرورة ، وكان يستقي الماء بنفسه من بئر عميق يدلى الجبل بيده اليسرى ويمسكه بفيه ، وقاسى جهدا جهيدا حتى مات في الحبس سنة ثلث وعشرين وثلاثمائة ومن نظمه وهو يبكي على يده :

اذا مامات بعضك فابك بعضا فان البعض من بعض قريب

قال : والنكبات كثيرة لانحصى ، وفيما ذكرناه مقنع ، فان الكتاب كله انموذج ومسودة في بابه والله تعالى أعلم ، انتهى ما قصدنا نقله من كتاب الفلاكة للامام الحافظ الشيخ شهاب الدين . وقد ذكر عددا كثيرا من الأئمة المفلوكين الذين أصيبوا بأنواع المصائب وأبلايا ، وهذا الكتاب فريد في بابه .

ولصاحب الاغانى ابي الفرج الاصفهاني كتاب سماه (مقاتل الطالبين) ذكر فيه
ملاقاه أهل البيت النبوي من المصائب والنوائب من القتل والحبس وغير
ذلك من الخطوب التي جرت عليهم ، ويكتفيك منها الطامة الكبرى ، والمصيبة التي لم
تزل عين الدين المحمدي منها عبرى ، وهى ما فعلوه بريحانة الرسول وقره عين فاطمة
البتول وهو من أكبر سادات الامة ، وأعز ابناء نبى الرحمة ، فبأي وجه يلاقي من
تجرأ على هذه الجريمة جد أولئك الأئمة •

. ويل لمن شفعناؤه خصمناؤه . والصور في نشر الخلائق ينفخ
لابد أن ترد القيامة فاطم . وقصيصها بدم الحسين ملطخ
فيقال للنبهاني : هل كان ما أصاب أولئك الاكابر الاماجد لفساد في الدين ؟ أم
لخلل في العقائد ؟! كلا بل ذلك فضل من الله تعالى عليهم ، واعلاء لشأنهم ، ابتلوا
فصبروا ، والدرجات الرفيعة لا تتال الا بالثبات على الأهواء ، وهيهات أن تحصل
راحة بلا تعب وهيهات ، وفي الخبر : (حنت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات)
والعيش الرغد والانتكاء على الارائك واقبل الدنيا انما يكون مثل النباني وأضرابه
لا مثل شيخ الاسلام وأحزابه •

في النفس أشياء لا أستطيع أذكرها لو قلتها قامت الدنيا على ساق
(والمقصود) أن ما أصاب الشيخ ابن تيمية وأصحابه هو ما يريد ذوي الأناب
بصيرة على علو قدره ، ورفعة ذكره ، ولكن الجهول الحسود لما نظر بعين السخط
رأى الحسنات سيئات ، والمدائح فبائح •

بليت به جهولا جاهلييا ثقيل الروح مذموما بغيضا
ولم يك أكثر الطلاب علميا ولكن كان أسرعهم نهوضا

وستقف ان شاء الله تعالى على حاله ، ومبلغ علمه ، وسيكون لنا المام على هذه
المسألة مرة بعد أخرى كلما عاد اليها الخصم ، فهناك ترى ما تشرح له الصدور •
(الامر السابع) من تلك الامور : أن من علم حال النباني - وما هو عليه من
المعرفة وما يعتقده من العقائد ويراها من الآراء - لم يلتفت الى ما ذكره في كتابه الذي
سماه (شواهد الحق) ولا غيره من هذيانه الصريح ، فان الرجل جاهل كما ستعلمه
من رد كتابه هذا ، سقيم الفهم بأخبار العدول الثقات ورواية الصادقين من الرواة ، وما
نشره من هذيانه أعدل شاهد على ذلك ، وأصح دليل على ما هنالك ، فضلا عما ذكره
فيه جهابذة العصر الذين رأوه وخالطوه ، وعرفوا حاله وشاهدوا أعماله ، ومع ذلك

نذكر كلام بعضهم فيه ليحمد الله من عوفي من شقائه وعضال دائه .
(قال الفاضل العلامة) السيد بدر الدين الحلبي - متع الله المسلمين بحياته -

في كتابه (الارشاد والتعليم) - عند ذكره مقالات الامم - ما نصه : -
ومن شنيع مقالاتهم في الاسلام قولهم : ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يخلو منه زمان ولا مكان ، يريدون بذلك أنه ما من زمان الا وهو فيه موجود .
ولا من مكان الا وهو فيه موجود . قال حفظه الله - وهذه المقالة الشنيعة لم نرها لأحد من المتكلمين المتقدمين منهم والمتأخرين ، ولا رأيناها في كتب العقائد ، ولا كنا نظن أحدا يقول هذه المقالة الشنيعة ، وانما ذكرها الشيخ يوسف بن اساعيل النبهاني البيروتي ، صاحب الكتب الكثيرة في الادعية والصلوات في منظومة له سماها طيبة الغراء ناقلا لها عن البرهان الحلبي ، قال : ذكر يوسف النبهاني أنه اطلع على رسالة ألفها البرهان الحلبي في هذا الموضوع فطالعها وانتفع بها .

قال : وهذه مقالة شنيعة في الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم ، وانزال له فوق منزلته التي أنزله الله بها ، فان هذا اشرار للنبي صلى الله عليه وسلم في أخص أوصاف الباري جل شأنه (١) ومهما يأوي الناس لاصلاح هذه المقالة الشنيعة فلن يجدوا الى الخروج عن قبيحها سبيلا ، والامر لله ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

وياليت شعري أي دليل قام عند هذا الذي قال هذه المقالة حتى قال بها ، هل تلا في ذلك آية منزلة أو حديثا صحيحا ؟ ان قال ذلك فقد كذب وشهد على نفسه بالكذب ، أو ساق الدليل الذي أورد المتكلمون على أن الباري جل شأنه لا يحويه زمان ولا مكان في النبي صلى الله عليه وسلم فحكم له بما حكم به للباري جل وعلا فهو عين الشرك الصريح ، ومثل هذه العقائد الفاسدة الباطلة الكاذبة يلقيها أهل الغفلة من المنتمين للعلم في آذان العامة ، فتصادف منهم قبولا وتجتمع عليها قلوبهم حتى يصير من المتعذر نزعها من أذهانهم ، وربما كفروا من أنكراها عليهم ، ورأوا أن انكار ذلك نوع من الالحاد في الدين ، واستخفاف بصاحب الشريعة المطهرة صلى الله عليه وسلم .

(١) الإشارة في هذا ترجع الى ما تقدم من قوله : لا يخلو منه زمان ولا مكان .. الخ ، وما ذكر من أن ذلك أخص أوصاف الباري قد يفهم منه أن الباري موجود في كل مكان بذاته ، وهو سبحانه ليس كذلك ، بل هو فوق عرشه بان من خلقه كما هو معتقد أهل السنة والجماعة .

وقال أيده الله تعالى : ومثل هذه العقيدة في الشر أو أقل منها فسادا دعوى بعض المغفلين ممن ينتمون الى العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم جميع ما كان وما يكون ، ولأهل هذه العقيدة دلائل على هذه المقالة الشنيعة كلها مبنية على مقدمات فاسدة أوقعها في قلوبهم المبالغة في اطراء النبي صلى الله عليه وسلم المنهي عنه بقوله : (لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى) وأحاديث موضوعة كاذبة وقعت اليهم فاعتقدوا صحتها ، وهي مفتراة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكفي لمن ينكر هذه العقيدة أنه لم يقم دليل من كتاب أو سنة صحيحة عليها ، مع الجزم باتفاق الكل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض له الامر فيتوقف فيه الى أن يأتيه الوحي من الله به ، وحديث الافك على الصديقة الطاهرة شاهد ، ومن ادعى أنه أفيضت عليه بعد ذلك العيون فليأت بآية أو حديث ، ولا طريق لاثبات مثل هذا الا الخبر الصادق ، وهذه العقيدة هي الفرقان بين أهل السنة وبين المبتدعة عند أكثر مسلمي الهند ، فمن كان يعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم جميع ما كان وما يكون فهو من أهل السنة والخير ، وان لم يكن يعتقد ذلك فهو من أهل البدعة والفساد ، ولعلمائهم في ذلك رسائل لاتكاد تحصى ، شحنوها بالدلائل الفاسدة على هذه المقالة الشنيعة والرد على مخالفيهم فيها .

قال : وقد سئلت عن هذه المسألة وأنا بالهند سنة تسع عشر وثلاثمائة بعد الالف ، وكان قصد السائل تعرف عقيدتي بما أعرف من الحق الذي لامرية فيه ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم أطلعه الله تعالى على كثير من المغيبات لمصالح يقتضيها التشريع ، ولم يطلعه على كل ما كان ويكون ، وبينت له أن هذا لا يحط من على مرتبته عليه السلام ، بل من الادب مع الله ومعه أن لانصفه بما لم يصف نفسه به ولا أن تثبت له ما لم يخبر هو بثبوت له لنفسه .

فانكر علينا ذلك ، وتحركت نفسه للمحاجة ، فقلنا له : أترى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم عدد الشعرات التي في لحيتك ؟ فقال : لا ، فقلنا : أترى أن لحيتك ليست من المكونات ؟ فانقطع في ميدان المناظرة قبل أن ينقل فيه قدما ، الا أن هذا الشيخ الهندي مازال بعد أن فارقني يذكر من فساد عقيدتي بين العامة ، وتطاولي على الدين ، واحتقاري للشرع ما وأسوس له به شيطانه ، وسولته له نفسه الخبيثة ، حتى ألهب قلوبهم حقدا علي وغيظا مني ، وتحركت نفوسهم الشريرة لا يذائي على حق

أذعته فيهم ونشرته بينهم وبدعة أنكرتها عليهم ، وبينت لهم فسادها وأنها ليست من الدين •

وذكر قصة جرت له بسبب ذلك في أحد مساجد الجامعة في الهند ، ثم قال : هكذا بذر علماء السوء بذور الخرافات والبدع والعقائد الفاسدة في قلوب العامة ، فتمكنت في قلوبهم ، حتى تعذر على أحذق الناس بأمراض القلوب علاجها ، واختيار دواء نافع لها ، وليس هذا محل بسط الكلام على هذا الموضوع ، وموعدا ان شاء الله القسم الثاني من هذا الكتاب وهو قسم الارشاد ، فانه به أمس وأشد ارتباطا انتهى كلامه ، وقد شفى به صدور المؤمنين جزاه الله خير الجزاء ، ومقصودنا منه مايتعلق بمقالة النبهاني وخرافته ، وسقنا الكلام كله حرصا على ما فيه من الفوائد •

ثم ان النبهاني هذا أخذ مقالاته هذه من أهل الاتحاد والحلول ، قال عبد الكريم الجيلي ان هو من قوله : (قل هو الله أحد) راجع الى ضمير الخطاب المستتر في قل المقدر بآئت مرادا به الانسان الكامل وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ضرب من الهذيان تفرع على قول محي الدين ، سبحان من أظهر الاشياء وهو عينها ، وقال الجيلي أيضا ان النصارى لم يكفروا بأصل الحلول وانما كفروا بالحصر الذي تضمنه كلامهم : إن الله هو المسيح لا غيره من الاشياء ، ولو عسموا لم يكفروا ، وهذا الكلام مما تقشعر منه جلود المؤمنين ، فقول النبهاني : أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يخلو منه زمان ولا مكان — ناقلا عن البرهان الحلبي — هو من شعب ذلك الوادي ، وللقوم غلو في هذا المقام يأباه المتشرعون ، ومنه قولهم : أن الشرائع المتقدمة على ظهوره صلى الله عليه وسلم شريعته ، والانبياء من قبله نوابه في التبليغ ، ووقوع النسخ في هاتيك الشرائع كوقوعه في شريعته التي ظهر بها ، وعلى هذا قول قائلهم :

كل النبيين والرسل الكرام أتوا نياحة عنه في تبليغ دعواه
فهو الرسول الى كل الخلائق في كل الدهور ونابت عنه أفواه

وقال ابن الفارض على لسان الحقيقة المحمدية :

واني وان كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

ومن ذلك دعواهم لرؤياه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، فقد ادعاها غير واحد منهم ، وادعوا أيضا الاخذ منه يقظة ، قال الشيخ سراج الدين بن الملقن في طبقات الاولياء في ترجمة الشيخ خليفة بن موسى النهر ملكي : كان كثير الرؤية

لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقظة ومناما ، فكان يقال أن أكثر أفعاله يتلقاه منه صلى الله عليه وسلم يقظة ومناما ، وراه في ليلة واحدة سبع عشرة مرة ، قال له في احداهن : يا خليفة لاتضجر مني فكثير من الاولياء مات بحسرة رؤيتي ، وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن : قال رجل للشيخ أبي العباس المرسي ياسيدي صافحني بكفك هذه فانك لقيت رجالا وبلادا : فقال : والله ما صافحت بكفي هذه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وقال الشيخ لو حجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عدت نفسي من المسلمين ، ومثل هذه النقول كثير في كتب القوم جدا ، وفي تنوير الحلك لجلال الدين السيوطي الذي رده على منكري رؤيته صلى الله عليه وسلم بعد وفاته في اليقظة طرف من ذلك ، وكل ما أتى به لادليل فيه ، وأطال الكلام في ذلك ثم قال : وقد ذكر عن السلف والخلف وهلم جرا ممن كانوا رأوه في اليوم فرأوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا منها متشوشين فأخبرهم بتفريجها ، ونص لهم على الوجوه التي منها فرجها ، فجاء الامر كذلك بلا زيادة ولا نقص ، انتهى المراد منه • وليت شعري لم كان عثمان يطلب شاهدين من كل من أتاه بآية يشهدان على أنها من القرآن ، وهلا رأى النبي صلى الله عليه وسلم يقظة وسأله عن تلك الآية وهو وسائر الصحابة أحق ممن ذكر بهذه الفضيلة ، وقد وقع بينهم ما وقع من الاختلاف لم يره أحد منهم ويدفع إشكاله؟! والسيوطي رحمه الله كان فيما ألفه من الكتب حاطب ليل في كل كتاب له مذهب ومشرب ، وما أتى به في كتابه هذا لا يعول عليه كما سيرد عليك مردودا •

ثم ان رؤيته صلى الله عليه وسلم عند القائلين بها يقظة أكثر ما تقع بالقلب نسيم يترقى الحال الى أن يرى بالبصر على ما زعموا ، واختلفوا في حقيقة المرئي : فقال بعضهم المرئي ذات المصطفى بجسمه وروحه ، وأكثر أرباب الاحوال على أنه مثاله ، وبه صرح الغزالي فقال : ليس المراد أنه يرى جسمه وبدنه ، بل مثالا له ، صار ذلك المثال آلة يتأدى بها المعنى الذي في نفسه ، قال : والآلة تارة تكون حقيقة وتارة تكون خيالية ، والنفس غير المثال المتخيل ، فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى صلى الله عليه وسلم ولا شخصه ، بل هو مثال له على التحقيق ، وفصل القاضي أبو بكر بن العربي فقال : رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بصفته المعلومة ادراك على الحقيقة ، ورؤيته على غير صفته ادراك للمثال ، واستحسنه السيوطي ، وقال - بعد نقل أحاديث وآثار - مانصه : فحصل من مجموع هذا الكلام - النقول والاحاديث

— أن النبي صلى الله عليه وسلم حي بجسده وروحه ، وأنه يتصرف ويسير حيث شاء في أقطار الارض وفي الملكوت ، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شيء ، وأنه مغيب عن الابصار كما غيبت الملائكة — مع كونهم أحياء بأجسادهم — فاذا أراد الله تعالى رفع الحجاب عن أراد اكرامه برؤيته رآه على هيئته التي هو عليها ، لا مانع من ذلك ، ولا داعي الى التخصيص برؤية المثال ، انتهى ، وذهب الى نحو هذا في سائر الانبياء عليهم السلام ، فقال : انهم أحياء ردت اليهم ارواحهم بعد ما قبضوا ، وأذن لهم في الخروج من قبورهم ، والتصرف في الملكوت العلوي والسفلي وأتى بأخبار كثيرة تشهد له وكلها لأصل لها ، ولا متصرف في الكون الا الله تعالى ، كما سنبرهن على ذلك ان شاء الله ، ويكفي في ابطال هذا القول قوله تعالى : (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى)^(١) فاذا أمسك التي قضى عليها فمن أين لها التمكن من التصرف ؟ ومن أين لأحد أن يراها ؟ .

وأعجب من ذلك كله : ما نقله الشيخ صفي الدين ابن أبي المنصور ، والشيخ عبد الغفار ، عن الشيخ أبي العباس الطنجي ، من أنه رأى السماء والأرض والعرش والكرسي مملوءة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزعم من زعم أن السؤال عن كيفية رؤية المتعددين له عليه الصلاة والسلام في زمان واحد في أقطار متباعدة ينحل به ، ولا يحتاج معه الى ما أشار اليه بعضهم ، وقد سئل عن ذلك فأثمد :

كالشمس في كبد السماء وضوءها
يفشى البلاد مشارقا ومغاربا
اللهم انا نعوذ بك من أن نقول ما لا نرضاه ، وأن تعصنا من الزين والزلل والاشتباه
والمقصود أن قول النبهي — الذي سبق بيانه في كلام العلامة السيد بدر الدين الحلبي — وما وافقه من أقوال الذين ذكرناهم كلها من واد واحد ، وأنها متفرعة على القول بالحلول والاتحاد ، غير أن كلامهم ليس صريحا في ذلك ، ولكن الامر كما قيل : رب كناية أبلغ من تصريح ، فعلى المسلم التجنب عن مثل هذه الأقاويل ، والأخذ بالكتاب والسنة ، وبما كان عليه سلف الامة .

فخير أمور الدين ما كان سنة وشر الامور المحدثات البدائع

هذا حال النبهاني في عقائده ، وجهله في العلوم العقلية والعقلية أشهر من أن ينه عليه ، كما ستعلمه ان شاء الله تعالى •

لكن بقي علينا بيان حاله ، وما هو عليه الى اليوم من أفعاله وأعماله ، وحيث أنني لم أقف على حقيقة أمره - وان كان مانثره من الكتب تطلعنا على حلوه ومره - سألت عنه بعض الافاضل من الاصحاب ، ممن رآه واجتمع به ، وعرف ما عنده من الفصول والابواب ، فكتب كلاما طويلا فيه ، وعرفني بظاهره وخافيه ، فمن ذلك قوله : ان النبهاني قد قضى شطرا من عمره في المحاكم النظامية ، وتسمى أيضا بالمحاكم القانونية ، ثم ذكر كلاما طويلا في بيان حال تلك القوانين ، وما فيها من المخالفة لقواعد الدين ، ثم قال : ان النبهاني تولى رئاسة الجزاء في بيت الله المقدس عددا كثيرا من الاعوام ، وبين حقيقة هذا المنصب وما يتعاطاه الرئيس من الاحكام ، قال : ثم تحول الى رئاسة محكمة البداية في بيروت ، وبين ما يرى في هذا المحل من الوظائف والمواد ، ثم قال : وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت ، قلت : ان كان صادقا عليه ذلك المقال يكون تائها في أودية الجهل والضلال ، فكيف يدعي الايمان فضلا عن دعواه المحبة لسيد ولد عدنان ، وهو معرض عن هديه وسنته : ناء عن العمل بشريعته ، فهلا قرأ قوله تعالى : (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)^(١) (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)^(١) (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)^(١) وسنذكر ان شاء الله تعالى فيما سيأتي تفصيل هذه المسألة وبيان حكمها بما ينشرح لها خاطر ، ثم ذكر شيئا كثيرا من بيان أحواله مما يطون ذكره • وظن يوسف النبهاني المسكين أنه قد خلا له الجو ففسر ، وطاول العلماء الاعلام بما ذكر في كتابه الذي وسمه بدلائل الحق ما ذكر ، وصال وجال وقال ما قال •

وإذا ما خلا الجبان بأرضه طلب الطعن وحده والنزالا

وتصدى مثله لما تصدى له دليل على جهله ، ومزيد غباوته وخفة عقله ، بل هو

كما قيل :

لو أن خفة عقله في رجله سبق الغزال ولم يفته الارنب

(١) المائدة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧

ولولا الترفع عن مكافأة أمثاله ، والاتفه من مخاطبة أشكاله ، لعرفناه قدرة ،
وأوضحنا له شأنه وأمره ، ولكن مثله لا يخاطب ولا يعاتب ، ولا يؤاخذ بالهذيان ولا
يعاقب ، وإن الظفر بثله شر من الهزيمة ، والتلطخ بذكره قريب من محاوراة بهيمة .
إذا ما أتيت الأمر من غير بابِه ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتد

(والمقصود) من ذكر هذه النبذة من أحوال النبهاي أن الذي خاصم أهل
الحق كلهم على هذا المنوال ، وقد تشابهوا كأسنان الحمار في الاتفاق على الضلال ،
وباطل الأقوال ، فلا يغتر بما زخرفوه وزوروه فانهم ليسوا من رجال العلم والكمال
والله أعلم بحقيقة الحال .

(الأمر الثامن من تلك الامور) لا بد للمتناظرين من مرجع يكون مهينا على
الحق الذي يدعيه كل منهما ، والا فالمنظرة لاتتم ، قال الامام العلامة الشيخ عبد
العزیز : كل متناظرين على غير أصل - يكون بينهما يرجعان اليه اذا اختلفا في شيء
من الفروع - فهما كالسائر على غير طريق ، وهو لا يعرف المحجة فيتبعها ، ولا يعرف
الموضع الذي يريده فيقصده ، وهو لا يدري من أين جاء فيرجع ، فيطلب الطريق
وهو على ضلال ، قال : ولكننا نؤصل بيننا أصلا ، فاذا اختلفنا في شيء من الفروع
رددناه الى الاصل ، فان وجدناه فيه والا رميناه به ولم نلتفت اليه ، ثم قال : الاصل
بيني وبين خصمي ما أمرنا الله عز وجل واختاره لنا ، وعلماؤه وأدبنا به في التنازع
والاختلاف ولم يكلنا الى غيره ، ولا الى أنفسنا واختيارنا فنعجز ، ثم بينه بقوله ،
قال الله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)^(١) فهذا تعليم من الله وتأديبه
واختياره لعباده المؤمنين ما أصله المتنازعون بينهم ، قال : وقد تنازعت أنا وبشر وبيننا
كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم كما أمر الله عز وجل ، فاذا اختلفنا
في شيء من الفروع رددناه الى كتاب الله عز وجل ، فان وجدناه فيه والا فالى سنة
نبيه صلى الله عليه وسلم ، فان وجدناه فيها والا ضربناه في الحائط ولم نلتفت اليه ،
الى آخر ما قاله في حضرة الخليفة العباسي عند مناظرته مع بشر .

وقال الامام العلامة الشيخ عبد اللطيف في موضع من كتبه : أعلم أن مستند المسلمين في العقائد ومرجعهم في أصول الدين وفروعه الى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واجماع من سلف من علماء الأمة ، والتقليد في باب أصول الدين ومعنى شهادة أن لا اله الا الله وشهادة أن محمداً رسول الله لا ينفيد ولا يجدي عندهم ، وان كان المقلد - بفتح اللام مع التشديد - فاضلاً عالماً في نفسه الى آخر مقال •

(وقال في موضع آخر) ان الاصل المعتمد في هذا الباب وغيره من أصول الدين وفروعه : هو ما دل عليه الكتاب والسنة ، واجماع علماء الأمة ، هذه هي الادلة الشرعية بالاجماع ، والقياس مختلف فيه ، والجهور على قبوله بشروط ، وليس المعول على كلام الآحاد من أهل العلم والدين وان علت درجاتهم وارتفعت رتبهم ، ولا تصلح المعارضة بقول فلان وفلان من أهل العلم والدين ، ولا ينتقض الدليل بمخالفة أحد كائناً من كان ، انتهى •

(وقال في موضع آخر) ان العمدة عند المسلمين في مسائل أصول الدين وفروعه : على كتاب الله وسنة رسوله واجماع أهل العلم ، ولا تذكر أقوال أهل العلم الا تبعا وبيانا ، لا أنها المقصودة بالذات والاصالة ، ثم المسائل التي لا يلزم بها المجتهد غيره هي ما كان للاجتهاد فيه مساع ، ولم تخالف كتابا ولا سنة صريحة ولا اجماعا ، وما خالف ذلك فهو مردود على قائله ، ويلزمه أهل العلم بصريح الكتاب والسنة واجماع الامة ، قال امام الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى : ما منا الا راد ومردود عليه الا صاحب هذا القبريعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحسن منه قول الله تعالى : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) الآية وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا الفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري فيقول بيننا وبينكم كتاب الله ألا وانني أوتيت الكتاب ومثله معه) فاذا كان رد السنة محرما لا يجوز - ولو ردها ظانا أن القرآن لا يدل عليها - فكيف رد الكتاب والسنة وعدم الالزام بهما لخلاف أحد من الناس كائناً من كان ، ومسائل معرفة الله ووجوب توحيده ، واسلام الوجه له وحده لا شريك له ، ومسائل ربوبيته ، واختصاصه بالخلق والايجاد والتدبير ، ونحو ذلك مما يعلم بالضرورة من دين الاسلام ، كصديقه تعالى ، ونفى الكفو والصاحبة والولد ، وغناه بذاته ، ومباينته

لمخلوقاته ، وعموم قدرته ، واحاطة سعه وبصره ، وعلمه بجميع المعلومات والمبصرات والمسوعات ونحو ذلك من أصول الدين ، فكل الرسل متفقة عليه ، وجميع الكتب داعية اليه ، والعقول الصحيحة حاكسة به ، فكل اجتهاد خالفه فباطل مردود ، لا يسوغ العسل به في شريعة من الشرائع ولا عند عالم من العلماء ، ولا فقيه من الفقهاء •

ثم قال : قال شمس الدين في هدايته : بل جميع النبوات من أولها الى آخرها متفقة على أصول : —

(أحدها) أن الله تعالى قديم واحد لا شريك له في ملكه ، ولا ند ولا ضد ، ولا وزير ولا مشير ولا ظهير ، ولا شافع الا من بعد اذنه •

(الثاني) أنه لا والد له ولا ولد ، ولا كفو ولا نسب بوجه من الوجوه ، ولا زوجة •

(الثالث) أنه غني بذاته ، فلا يأكل ولا يشرب ، ولا يحتاج الى شيء مما يحتاج اليه خلقه بوجه من الوجوه •

(الرابع) أنه لا يتغير ، ولا تعرض له الآفات ، من الهرم والمرض ، والسنة والنوم ، والنسيان ، والندم والخوف ، والهجم والحزن ، ونحو ذلك •

(الخامس) أنه لا يماثله شيء من مخلوقاته ، بل ليس كمثل شيء ، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله •

(السادس) انه لا يحل بشيء من مخلوقاته ولا يحل في ذاته شيء منها ، بل هو بائن عن خلقه بذاته والخلق بائون عنه •

(السابع) أنه أعظم من كل شيء ، وأكبر من كل شيء ، وفوق كل شيء ، وعال على كل شيء ، وليس فوقه شيء البتة •

(الثامن) انه قادر على كل شيء ، ولا يعجزه شيء يريد ، بل هو فعال لما يريد •

(التاسع) انه عالم بكل شيء ، يعلم السر وأخفى ، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الارض ، ولا رطب ولا يابس ، ولا متحرك ولا ساكن الا وهو يعلمه على حقيقته •

(العاشر) انه سميع بصير ، يسمع ضجيج الاصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات ، ويرى ديبب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء قد أحاط سمعه بجميع المسوعات ، وبصره بجميع المبصرات ، وعلمه بجميع المعلومات وقدرته بجميع المقدورات ، ونفذت مشيئته في جميع البريات ، وعمت رحمته جميع المخلوقات ، وسع كرسيه الارض والسماوات •

(الحادي عشر) انه الشاهد الذي لا يغيب ، ولا يستخلف أحدا على ملكه ، ولا يحتاج الى من يرفع اليه حوائج عباده ، أو يعاونه أو يستعطفه عليهم ويسترحمه لهم •
(الثاني عشر) انه الأبدي الباقي ، الذي لا يضمحل ولا يتلاشى ، ولا يعدم ولا يسوت •

(الثالث عشر) انه المتكلم المكلم ، الأمر الناهي ، قائل الحق ، وهادي السبيل مرسل الرسل ، ومنزل الكتب ، قائم على كل نفس بما كسبت من الخير والشر ، ومجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته •

(الرابع عشر) انه الصادق في وعده وخبره ، فلا أصدق منه قيلا ، ولا أصدق منه حديثا ، وهو لا يخلف الميعاد •

(الخامس عشر) انه تعالى صمد بجميع معاني الصمدية ، يستحيل عليه ما يناقض صمديته •

(السادس عشر) انه قدوس سلام ، فهو المبرأ من كل عيب وآفة ونقص •

(السابع عشر) انه الكامل ، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه •

(الثامن عشر) انه العدل ، الذي لا يجور ولا يظلم ، ولا يخاف عباده منه ظلما ، وهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل ، وهو من المحكم الذي لا يجوز أن تأتي شريعة بخلافه ، ولا يخبر شيء بخلافه • فترك المثلثة عباد الصليب هذا كله ، وتسكوا بالمتشابه من المعاني ، والمجمل من الالفاظ ، وأقوال من قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ، وأصول المثلثة ومقالاتهم في رب العالمين تخالف هذا كله وتباينه أشد المخالفة والمبينة ، انتهى •

قال : فقف وتأمل هذه الاصول وأولها — وهو انه تعالى لا شريك له ولا ند ولا شافع الا من بعد اذنه — ووازن بينه وبين قول الغلاة الى آخر ما قال •

فعلم من جبيع ما نقلناه أن الدلائل انما تكون من الكتاب والسنة والاجماع ،
وعليه كتب الاصول ، وأما القياس : فقد اختلف فيه الاصوليون ، ومن أراد تفصيل
الكلام في هذا المقام فعليه بتلك الكتب . وقد جمع العلامة والفاضل الفهامة : الشيخ
جمال الدين القاسمي الدمشقي - حفظه الله تعالى وتمتع المسلمين بحياته - عادة
رسائل في أصول الفقه : ترشد الناظر اليها الى الحق : وتغنيه عن كثير من المطولات ،
فهذه هي الدلائل لا ما ذكره النبهاني من استدلاله على مطالبه بكلام السبكي أو ولده ،
أو ابن حجر المكي واضرابهم ، وكما استدل على مشروعية الاستغاثة بغير الله - في
الصحيفة الخامسة والستين ومائة - بسا نقل عن أحمد الرفاعي أنه قال من كانت له
حاجة فليستقبل عبّادان نحو قبيري . ويشي سبع خطوات ويستغث بي . فان
حاجته تقضى الخ . فمثل هؤلاء اذا قالوا أقوالا تخالف الكتاب والسنة يضرب بها
على وجوه قائليها كل من كان ، ومن ابن حجر والسبكي والرفاعي ونحوهم حتى
نعارض بكلامهم وحى الرسول صلى الله عليه وسلم ! ولا سيما في مثل هذه المطالب
العالية ، فكلام النبهاني من أوله الى آخره على هذا المنهج لا يستدل على مطلوبه الا
بحديث موضوع ، أو قول أحد الغلاة ، أو قول من لا يؤخذ بقوله ، على أنه مع
بطلانه مقلد فيه تقليد الخوارج أبا امامة ، وهكذا شأن أسلافه ، فلا ينبغي أن يلتفت
الى أقواله ، ولولا خوف التطويل : لأننا في هذا المقام بسا يشفي العليل ، ويروي
الغليل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وقد آن للقلم أن يجري في ميدان المناظرة ، ويشير غبار البحث على وجه
الخصم الألد الذي ركب متن المكاربة ، وأسأل الله تعالى أن لا يذيق فم قلبي صاب
الافتراء ، وأن يعصمني من الخطأ والزلل في الأقوال والأفعال ، فيؤ الملاذ والملجأ من
كل بلاء ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت واليه أئيب .

(قال النبهاني) القسم الاول من المقدمة في الكلام على انقطاع الاجتهاد المطلق ،
الذي تدعيه - بالباطل - فرقة الوهابية ، ومن أعجبه شأنهم من جهلة المتبعين شذاه
المذاهب الاسلامية ، وجعلت ذلك رسالة سميتها (السهام الصائبة ، لأصحاب
الدعاوي الكاذبة) ثم ذكر خطبة هذه الرسالة ، الى أن قال : فأقول ان دعوى
الاجتهاد في هذا الزمان - منهم ومن غيرهم مطلقا مهما كان عالما هي - دعوى كاذبة ،
لا يلتفت اليها ، ولا يعول عليها ، قال : وقد ذكرت في كتابي (حجة الله على العالمين)

الرد على من يدعي الاجتهاد في هذا الزمان ، ونقلت عبارات العلماء في ذلك ، كالامام الشعراي ، والامام بن حجر الهيتمي ، والامام المناوي وغيرهم ، بما يقنع كل ذي طبع سليم ، وفهم مستقيم ، الى أن قال : أما الاجتهاد فلا يدعيه اليوم الا مخسل العقل والدين ، الا من طريق الولاية ، كما قاله الشيخ الاكبر محي الدين بن العربي ، ثم نقل ما نقله المناوي في أول شرحه الكبير على الجامع الصغير عن ابن حجر المكي ، أنه قال : لما ادعى الجلال السيوطي الاجتهاد قام عليه معاصروه ورموه عن قوس واحدة ، وكتبوا له سؤالا فيه مسائل أطلق الاصحاب فيها وجهين ، وطلبوا منه ان كان عنده أدنى مراتب الاجتهاد وهو اجتهاد الفتوى فليتكلم على الراجح من تلك الاوجه ، وعلى الدليل على قواعد المجتهدين ، فرد السؤال من غير كتابة ، واعتذر بأن له أشغالا تمنعه من النظر في ذلك ، قال الشهاب : فتأمل صعوبة هذه المرتبة ، أعني اجتهاد الفتوى الذي هو أدنى مراتب الاجتهاد ، ويظهر لك أن مدعيها - فضلا عن مدعى الاجتهاد المطلق - في حيرة من أمره ، وفساد فكره ، وانه ممن ركب متن عيياء ، وخطب خطب عشواء ، قال : ومن تصور مرتبة الاجتهاد المطلق استحى من الله أن ينسبها لأحد من أهل هذه الازمنة ، بل قال ابن الصلاح ومن تبعه : انها انقطعت من نحو ثلاثمائة سنة ، ولابن الصلاح نحو الثلاثمائة سنة ، أي لأنه من أهل القرن السادس ، فتكون اليوم قد انقطعت من ستمائة سنة ، أي بالنظر الى عصر ابن حجر وهو من أهل القرن العاشر ، فيكون لها الآن منقطعة نحو ألف سنة ، اذ نحن في العام السابع عشر من القرن الرابع عشر ، وهو عام تأليني لكتاب (حجة الله على العالمين) قال : بل نقل ابن الصلاح عن بعض الاصوليين أنه لم يوجد بعد عصر الشافعي مجتهد منقل ، قال : ثم قال الشهاب ابن حجر : واذا كان بين الأئمة نزاع طويل في أن امام الحرمين وحجة الاسلام الغزالي - وناهيك بهما - هل هما من أصحاب الوجوه أو لا فسا ظنك بغيرهما ؟ بل قال الأئمة في الروياني صاحب البحر انه لم يكن من أصحاب الوجوه ، هذا مع قوله لو ضاعت نصوص الشافعي لامليتها من سدري ، فاذا لم يتأهل الاكابر لمرتبة الاجتهاد المذهبي فكيف يسوغ لمن لم يفهم أكثر عباراتهم على وجهها أن يدعي ما هو أعلى من ذلك وهو الاجتهاد المطلق ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ، ثم نقل جملة من اقوال العلماء تشهد له بأن الاجتهاد قد انقطع الى آخر ما هدى به في هذا الباب ، مما يدل على جهله وافلاسه من كل علم ، وعلى دعواه الكاذبة ، والكلام على ما اشتمل عليه كلامه من الباطل يطول غير أنا نتكلم على

مقاصده على سبيل الاجمال دون التفصيل ، فأقول : -

الكلام على مقالته هذه من وجود : -

(الوجه الاول) ان نسبة دعوى الاجتهاد الى الوهابية - وهم على زعمه من كان موافقا للشيخ محمد بن عبد الوهاب في الاعتقاد - افتراء وكذب وبهتان عليهم ، فان أهل نجد كلهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه ، مقلدون له في فروع الاحكام ، وموافقون له في أصول الدين وعقائده ، وقد صرح الشيخ محمد بذلك في كثير من رسائله ، وهو لم يدع الاجتهاد ، ولا دعا أحدا من الناس الى تقليده ، بل أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، فنسبة أهل نجد ومن يتبع السنن النبوية الى الشيخ وعدهم فرقة من فرق المسلمين غير فرقة أهل السنة : ظلم وعدوان وزور وبهتان ، وأعجب من ذلك أن النسبة الى الشيخ ينبغي أن تكون المحمدية ، وأما عبد الوهاب فهو أبو الشيخ محمد ، والموافقة في العقائد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر انما كان للشيخ نفسه لا لأبيه ، فاطلاق الوهابية على تلامذة الشيخ وموافقيه اما جهل ظاهر ، وأما تناز بالالقاب ، وكلا الوجهين لا يخفي حاله .

(الوجه الثاني) الكلام على باب الاجتهاد - شروع منه ، فقد أُنْبِئَ الكلام عليه الاصوليون لاسيما في كتاب الموافقات ، ومع ذلك فلا بد من ذكر شيء مما يتعلق به على سبيل الاختصار ، قالوا : الاجتهاد استفراغ الوسع لتحصيل ظن الحكم من فقيه وهو المجتهد المطلق ، وشرطه تكليف ، لا عدالة الا لقبول قوله . ومملكة : وهي العقل يدرك بها المطلوب مطلقا أو في تلك الواقعة لتجزئ الاجتهاد وفقه النفس أي شدة الفهم بالطبع لمقاصد الكلام ، حتى يكون له قدرة على استخراج أحكام الفقه من أدلتها ، وقوة يقتدر بها على التصرف بالجمع والتفريق ، والترتيب والتصحيح والافساد ، فان ذلك ملاك صنعة الفقه ، ومن اتصف بالبلادة والعجز عن التصرف لم يكن من أهل الاجتهاد ، ويشترط أيضا توسط درجته عريية وأصولا ، وعلمه بآيات الاحكام وأحاديثها ، وخبرته بمواقع الاجماع ، والناسخ والمنسوخ ، والمتواتر والآحاد ، وأسباب النزول ، وحال الرواة والمتون ، ويكفيه تقليد الحفاظ وأئمة علم الكلام ، وندب له البحث عن المعارض ، ودون المجتهد المطلق مجتهد المذهب بأن يخرج ما يبيده على نصوص امامه ، ودونه مجتهد الفتيا بأن يتبحر ويتمكن من

الترجيح ، ثم ذكروا مسائل كثيرة في هذا الباب لاغرض لنا بنقلها ، ثم اختلف الاصوليون هل يجوز خلو الزمان عن مجتهد أم لا ، منهم من قال : يجوز ، بل يقع ، ومنهم من قال : لا يجوز ، استدلالا بقوله صلى الله عليه وسلم : (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله) أي الساعة ، وسيأتي الكلام على هذه المسألة ان شاء الله .

هذا خلاصة ما ذكره الاصوليون في هذا الباب ، وقد علمت منه أن شروط الاجتهاد التي اشترطوها ليس وجودها من المحال ، بل هي ممكنة الوجود في كل عصر ، وعلمت أيضا منا ذكرناه من كلامهم أنهم لم يقولوا بسد باب الاجتهاد ، ولا اقتضاه كلامهم ، ولا دل عليه كتاب ولا سنة ، وهما المرجع في النزاع ، قال الله تعالى : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)^(١) . فقول من قال بانقطاع الاجتهاد قول بلا دليل ، فلا يلتفت اليه ، بل يرمى به على وجه قائله ، ويرد على صاحبه .

(الوجه الثالث) قال الحافظ ابن القيم في رد هذا القول : ان المقلدين حكّموا على الله قدرا وشرعا بالحكم الباطل جهارا المخالف لما أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فأخلوا الارض من القائمين لله بحججه ، وقالوا لم يبق في الارض عالم منذ الاعصار المتقدمة ، فقالت طائفة : ليس لأحد أن يختار بعد أبي حنيفة ، وأبي يوسف وزفر بن الهذيل ، ومحمد بن الحسن ، والحسن ابن زياد اللؤلؤي ، وهذا قول كثير من الحنفية ، وقال بكر بن العلاء القشيري المالكي : ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة ، وقال آخرون ليس لأحد أن يختار بعد الازاعي ، وسفيان الثوري ، ووكيع بن الجراح ، وعبد الله بن المبارك ، وقالت طائفة : ليس لأحد أن يختار بعد الشافعي ، واختلف المقلدون من أتباعه فيمن يؤخذ بقوله من المنتسبين اليه ويكون له وجه يفتى ويحكم به من ليس كذلك وجعلوه ثلاث مراتب : طائفة أصحاب وجوه كابن شريح والفقهاء وأبي حامد ، وطائفة أصحاب احتمالات لا أصحاب وجوه ، كأبي المعالي ، وطائفة ليسوا أصحاب وجوه ولا احتمالات ، كابن حامد وغيره ، واختلفوا

متى انسد باب الاجتهاد على أقوال كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان ، وعند هؤلاء أن الارض قد خلت من قائم لله بحججه ، ولم يبق فيها من يتكلم بالعلم ، ولم يحل لأحد بعد أن ينظر في كتاب الله تعالى ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم لأخذ الاحكام منها ، ولا يقضي ولا يفتي بما فيها حتى يعرضه على قول مقلده ومتبوعه ، فان وافقه حكم به وأفتي به والا رده ولم يقبله ، وهذه أقوال كما ترى قد بلغت من الفساد والبطلان والتناقض والقول على الله بلا علم وإبطال حججه والزهد في كتابه وسنة رسوله وتلقي الاحكام منهما مبلغها ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ، ويصدق قول رسوله انه لا تخلو الارض من قائم لله بحجته ، ولن تزال طائفة من أمتة على محض الحق الذي بعثه به ، وانه لا يزال يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الامة من يجدد لها دينها •

ويكفي في فساد هذه الاقوال أن يقال لاربابها : فاذا لم يكن لأحد أن يختار بعد من ذكرتم فمن أين وقع لكم اختيار تقليدهم دون غيرهم ؟ وكيف حرمتهم على الرجل أن يختار ما يؤديه اليه اجتهاده من القول الموافق لكتاب الله وسنة رسوله ، وأبجتم لأنفسكم اختيار قول من قلدموه ، وأوجبتم على الامة تقليده ، وحرمتهم تقليد من سواه ، ورجحتموه على تقليد من سواه ، فما الذي سوغ لكم هذا الاختيار الذي لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ، ولا اجماع ولا قياس ، ولا قول صاحب ، وحرمتهم اختيار ما عليه الدليل من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة •

ويقال لكم : فاذا كان لا يجوز الاختيار بعد المائتين عندك ولا عند غيرك فمن أين ساغ لك وأنت لم تولد الا بعد المائتين بنحو ستين سنة — أن تختار قول مالك دون من هو أفضل منه من الصحابة أجمعين ، أو من هو مثله من فقهاء الامصار ، أو ممن جاء بعده ، وموجب هذا القول : ان أشهب وابن الماجشون ومطرف ابن عبد الله واصبغ بن الفرج وسحنون بن سعيد وأحمد ابن المعدل ومن في طبقتهم من الفقهاء كان لهم أن يختاروا الى انسلاخ ذي الحجة من سنة مائتين ، فلما استهل هلال المحرم من سنة احدى ومائتين وغابت الشمس من تلك الليلة حرم عليهم في الوقت — بلا مهلة — ما كان مطلقا لهم من الاختيار •

ويقال للآخرين : أليس من المصائب وعجائب الدنيا تجوزكم الاختيار والاجتهاد

والقول في دين الله بالرأي والقياس لمن ذكرتم من أئمتكم ؟ ثم لاتبينون الاختيار والاجتهاد لحفاظ الاسلام ، وأعلم الامة بكتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة وفناوهم ، كأحمد بن حنبل ، والشافعي ، وإسحق بن راهويه ، ومحمد بن اسمعيل البخاري ، وداد بن علي ، ونظرأئهم ، على سعة علمهم بالسنة ، ووقوفهم على الصحيح منها والسقيم ، وتحرسهم في معرفة أقوال الصحابة والتابعين ، ودقة نظرهم ولطف استخراجهم للدلائل ، ومن قال منهم بالقياس فقياسه من أقرب القياس الى الصواب ، وأبعده عن الفساد ، وأقربه الى النصوص ، مع شدة ورعهم وما منحهم الله من محبة المؤمنين لهم ، وتعظيم المسلمين علماءهم وعامتهم لهم •

فان احتج كل فريق منهم بترجيح متبوعه بوجه من وجوه التراجيح - في تقدم زمان أو زهد أو ورع ، أو لقاء شيوخ وأئمة لم يلقهم من بعده ، أو كثرة اتباع لم يكونوا لغيره - أمكن الفريق الآخر أن يبدوا لمتبوعهم من الترجيح بذلك أو غيره ناهو مثل هذا أو فوqe ، وأمکن غير هؤلاء كلهم أن يقولوا لهم جميعا : نفوذ قولكم هذا - ان لم تأنفوا من التناقض - يوجب عليكم أن تتركوا قول متبوعكم لقول من هو أقدم منه من الصحابة والتابعين ، وأعلم وأورع وأزهد ، وأكثر اتباعا وأجل ، فأين أتباع ابن عباس وابن مسعود وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل ، بل اتباع عمر وعلي من أتباع الأئمة المتأخرين في الكثرة والجلالة ؟ وهذا أبو هريرة قال البخاري : حمل العلم عنه ثمانمائة رجل ما بين صاحب وتابع ، وهذا زيد بن ثابت من جملة أصحاب عبد الله ابن عباس : وأين في اتباع الأئمة مثل عطاء وطاوس ومجاهد وعكرمة وعبيد الله ابن عبد الله بن عتبة وجابر بن زيد ؟ وأين في اتباعهم مثل السعيد بن جبير والشعبي ومسروق وعلقمة والاسود وشريح ؟ وأين في اتباعهم مثل نافع وسالم والقاسم وعروة وخارجة بن زيد وسليمان ابن يسار وأبي بكر ابن عبد الرحمن ؟ فما الذي جعل الأئمة باتباعهم أسعد من هؤلاء باتباعهم ولكن أولئك واتباعهم على قدر عصرهم ، فعظمهم وجلالتهم وكبرهم منع المتأخرين من الاقتداء بهم ، وقالوا بلسان قائلهم وحالهم هؤلاء كبار علينا لسنا من زبونهم ، كما صرحوا وشهدوا على أنفسهم ، فان أقدارهم تتقاصر عن تلقي العلم من القرآن والسنة ، وقالوا لسنا أهلا لذلك ، لا لقصور الكتاب والسنة ، ولكن لعجزنا نحن وقصورنا ، فاكفينا بمن هو أعلم بهما •

فيقال لهم : فلم تنكرون على من اقتدى بهما ، وحكماهما ، وتحاكم اليهما ،
وعرض أقوال العلماء عليهما فما وافقهما قبله وما خالفهما رده ؟ فهب أنكم لم تصلوا
الى هذا العقود فلم تنكرون على من وصل اليه وذاق حلاوته ؟ وكيف تحجرتهم
الواسع من فضل الله الذي ليس على قياس عقول العالمين ولا اقتراحاتهم ؟ وهم وان
كانوا في عصركم ونشأوا معكم وبينكم وبينهم نسب قريب فالله يمن على من يشاء
من عباده ، وقد أنكر الله سبحانه على من رد النبوة : بأن الله صرفها عن عظماء
القرى وعن رؤسائها وأعطاها لمن ليس كذلك بقوله : (أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟
نَحْنُ قَدْ صَمَّمْنَا بَيْنَهُمْ مَعَشَّتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ،
لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (١) .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل أمتي كالمطر ، لا يدري أوله خير أم
آخره » وقد أخبر الله سبحانه عن السابقين بأنهم (ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِنَ
الْآخِرِينَ) (٢) وأخبر سبحانه أنه : (بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ) (٣) . وقال : (وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (٣)
ثم اخبر ان (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (٣) انتهى
ما ذكره الحافظ بن القيم في كتابه أعلام الموقعين .

وقد تبين منه أن ما ذكره النبهاني - تبعا لاسلافه الزائعين - دليلا على جهله
وافلاسه من فنون العلم فروعها وأصولها ، اذ لا يقول بمقالته الا من هو أجهل من
ابن بوم ممن هو على شاكلته .

(الوجه الرابع من الوجوه الدالة على فساد قول الغبي النبهاني) أن كل ما ليس
عليه اثاره من علم ليس بمقبول ، وأن الاجتهاد ليس بنبوة حتى يقال أنه ختم بفلان

(١) الزخرف : ٢٢ - (٢) الواقعة : ١٢ ، ١٤

(٣) الجمعة : ٢ ، ٣ ، ٤

وفلان ، أما النبوة فقد دل نص الكتاب والسنة على ختمها قال تعالى :

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)^(١)

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة مرفوعا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : (مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويمجسون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين) بل ان الدليل العقلي قام على ذلك أيضا ، وهو كسأل الشريعة وشمولها للاحكام على اختلاف الاعصر والازمان ، وصياتها من تطرق التغيير والتبديل بسبب اعجازها ، مع كونها أوسط الشرائع ، اذ لا غلو فيها ولا تقصير .

وهذا كله قد دل على أن النبوة ختمت بالخاتم صلى الله عليه وسلم ، أما الاجتهاد فلم نر على ختمه دليلا لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل ولا من أقوال الصحابة ، بل رأينا ما يدل على أن علم الشريعة وعلمائها باقون الى قيام الساعة ، روى كميل بن زياد النخعي ، قال : أخذ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه بيدي فأخرجني ناحية الجبانة ، فلما أصحرج جعل يتنفس ، ثم قال : يا كميل بن زياد القلوب أوعى ، فخبرها أوعاها ، احفظ عني ما أقول لك ، الناس ثلاثة : فعالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع اتباع كل ناعق ، يسلون مع كل ريح ، ولم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجؤا الى ركن وثيق ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم يزكوا على الاتفاق ، وفي رواية على العمل ، والمال تنقصه النفقة ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، ومحبة المعلم دين يدان بها ، العلم يكسب العالم الطاعة في حياته ، وجميل الاحدوثة بعد وفاته ، وصناعة المال تزول بزواله ، مات خزان الاموال وهم أحياء ، ان ههنا علما ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة ، هاه هاه ، ان ههنا علما وأشار بيده الى صدره لو أصبت له حملة بلى أصبته لقنا غير مأمون عليه ، يستعمل آلة الدين للدنيا ، يستظهر بحجج الله على كتابه ، وبنعمه على عباده ، أو متقادا لاهل الحق لا بصيرة له في أحنائه ، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا ذا ولا ذاك ، أو منهوما للذات ، سلس القياد للشهوات ، أو مغررى بجسع

الاموال والادخار ، ليسا من دعاة الدين ، أقرب شبيها بهم الانعام السائمة ، لذلك يموت العلم بموت حامله ، اللهم بلى لن تخلو الارض من قائم لله بحجته ، كيلا تبطل حجج الله وبياناته . أولئك الاقلون عددا . الاعظمون عند الله قيلا ، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤديها الى نظرائهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم . هجم بهم العلم على حقيقة الامر ، فاستلناوا ما استوعر منه المترفون . وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الاعلى . أولئك خلفاء الله في أرضه ودعاته الى دينه ، هاه هاه شوقا الى رؤيتهم . وأستغفر الله ني ولك اذا شئت فقم) . ذكره أبو نعيم في الحلية وغيره ، قال أبو بكر الخطيب : هذا حديث حسن من أحسن الاحاديث معنى وأشرفها لنظا .

وقد شرح هذا الحديث شرحا مفصلا الامام بن قيم الجوزية في كتابه (مفتاح دار السعادة) ومما قال في شرحه - عند الكلام على قوله اللهم بلى لن تخلو الارض من قائم لله بحجج الله - ويدل عليه الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم (لاتزال طائفة من أمتي على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك) ويدل عليه أيضا مارواه الترمذي ، عن قتبية ، حدثنا حماد بن يحيى الابيح ، عن ثابت عن أنس ، قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : (مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره) قال هذا حديث حسن غريب ، ويروى عن عبد الرحمن بن مهدي أنه كان يثبت حماد بن يحيى الابيح ، وكان يقول هو من شيوخنا ، وفي الباب عن عمار وعبد الله بن عمرو ، فلو لم يكن في أواخر الامة قائم بحجج الله مجتهد لم يكونوا موصوفين بهذه الخيرية .

وأیضا : فان هذه الامة أكمل الامم ، وخير أمة أخرجت للناس ، ونبيها خاتم النبيين ، لا نبي بعده ، فجعل الله العلماء فيها كلما هلك عالم خلفه عالم ، لثلا تطمس معالم الدين وتخفى أعلامه ، وكان بنو اسرائيل كلما هلك نبي خلفه نبي ، فكانت تسوسهم الانبياء ، والعلماء لهذه الامة كالانبياء في بني اسرائيل ، وأيضا ففي الحديث الآخر (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله) ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وهذا يدل على أنه لايزال محمولا في القرون قرنا بعد قرن ، وفي صحيح أبي حاتم من حديث الخولاني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لايزال الله بغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم في طاعته) وغرس

الله هم أهل العلم والعمل : فلو خلت الارض من عالم خلت من غرس الله ، انتهى
المقصود من نقله .

فعلم من هذا الوجه : بطلان ما ذكره العبي النبهاني في مقدمة كتابه من الهديان ،
وانه بعيد عن العلم والمعرفة لا فكر له ولا ذوق والامر لله .

(الوجه الخامس) قوله : أما الاجتهاد فلا يدعيه اليوم الا مختل العقل والدين .
الا من طريق الولاية ، كما قاله الشيخ الاكبر الخ . . لامعنى له ولا محصل ، وقد
أسلفنا لك أنه لايسكن أن يخلو الزمان من مجتهد : كما ذكره الاصوليون من مذهب
الحنابلة وأهل الحديث ، ولم كان الجامع لشروط الاجتهاد المتأهل لأخذ دينه من
الكتاب والسنة مختل العقل والدين ؛ فهل هذا الا كلام جاهل قد تخبطه الشيطان من
المس ؟ ثم مامعنى قوله : الا من طريق الولاية الخ . . فهل رأى أحد من علماء الفروع
والاصول هذه العبارة في باب الاجتهاد ؛ ولكن لا بدع أن يصدر مثل هذا الهديان
عن مثل هذا المبتدع الجاهل . والجاهل يعمل بنفسه مالا يعمل العدو بعدوه . والشيخ
محيي الدين ممن كان يدعي الاجتهاد المطلق ، كما دلت عليه نصوص كتبه وقال في
شعر له :

نسبوني الى ابن حزم وأني لست ممن يقول قال ابن حزم
بل ولا غيره فان كلامي قال نص الكتاب ذلك حكمي
أو يقول الرسول أو أجمع الخلق على ما أقول ذلك علمي

أشار رحمه الله في هذه الايات الى أنه يأخذ الاحكام الدينية من الكتاب
والسنة والاجماع وهذه عنده هي الدلائل دون القياس والكلام مستوفى في محله .

(الوجه السادس) قال : نقل عن ابن حجر المكي أنه قال : لما ادعى الجلال
السيوطي الاجتهاد قام عليه معاصروه ، ورموه عن قوس واحدة : وكتبوا له سؤالاً
فيه مسائل أطلق الاصحاب فيها وجهين : وطلبوا منه ان كان عنده أدنى مراتب
الاجتهاد وهو اجتهاد الفتوى فليتكلم على الراجح من تلك الاوجه ، وعلى الدليل
على قواعد المجتهدين ، فرد السؤال من غير كتابة . واعتذر أن له أشغالا تسعه من
النظر في ذلك الخ . .

(أقول) إن صدق ابن حجر في نقله فانه لا يوثق به ، فقد افترى على شيخ الاسلام أعظم من ذلك ، وتبين كذبه عليه كما سيجيء ، كان (١) الجواب عن الامام السيوطي عليه الرحمة أنه لا يلزم المجتهد أن يكون عالماً بما حواه النوح المحفوظ من العلوم .

وقد نقل أن الامام مالك سئل عن أربعين مسألة ، فقال في جواب ست وثلاثين مسألة منها لا أدري . وهكذا نقل عن الامام أبي حنيفة وغيره (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)^(٢) .

(الوجه السابع) قول ابن حجر بل قال ابن الصلاح ومن تبعه أنها انقطعت من نحو ثلاثمائة سنة ، ولابن الصلاح نحو ثلاثمائة سنة ، أي لأنه من أهل القرن السادس ، فتكون اليوم قد انقطعت من ستمائة سنة ، أي بالنظر الى عصر ابن حجر الخ ...

أقول : هذا كلام ساقط عن درجة الاعتبار ، لما قدمناه في الوجه الثالث من كلام الحافظ ابن القيم ، ولما أوردناه من النصوص والدلائل على بطلان هذا القول ، وابن حجر مضطرب الكلام لا يثبت على قول ، فانه ذكر هنا أن الاجتهاد قد انقطع من ستمائة سنة بالنظر الى عصره ، مع أنه ذكر في كتابه الجوهر المنظم عند شتمه لشيخ الاسلام ابن تيمية مانصه :

ولقد تصدى شيخ الاسلام ، وعالم الانام ، المجمع على جلالته واجتهاده ، وصلاحه وامامته ، التقي السبكي - قدس الله روحه ونور ضريحه - للرد في تصنيف مستقل ، أفاد فيه وأجاد ، وأصاب وأوضح بياهر حججه لطريق الصواب ، فشكر الله مسعاه ، وأدام عليه شآبيب رحمته ورضاه اه

فانظر الى ابن حجر كيف ادعى الاجماع على اجتهاد السبكي لكونه على منهجه ومسلكه في الابتداع واتباع الهوى ، ثم انه لم تسمح نفسه في الاقرار باجتهاد من لم يبلغ هو ولا أشياخه الى كعب علاه ، أعني أبا العباس تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى ، فقد قال في الجوهر المنظم - بعد عبارته السابقة - هذا ما وقع من ابن

(١) هكذا في الاصل ولعل المراد ولو صح ذلك كان الجواب .. الخ (٢) البقرة : ٢٥٥

نمية مما ذكر - وان كان عثرة لانقال أبدا ، ومصيبة يستمر عليه شؤمها دواما
وسرمدا - ليس بمعجب ، فانه سولت له نفسه وهواه وشيطانه أن ضرب مع المجتهدين
بسهم صائب ، وما درى المحروم أنه أتى بأقبح المعائب ، الى آخر ما قال مما تبين
منه لدى كل منصف اتباع ابن حجر لهواه ، واختياره سبيل الضلال ، عامله الله
بعدله .

(والمقصود) أن كلام من هؤلاء الغلاة لا يجوز أن يحتج به ، فهم يتكلمون
على حسب أهوائهم : لا أنهم يتبعون انديين ، ويسلكون سواء السبيل ، فسقط
كلام الغافل النبهاني ، ولا يجوز الالتفات اليه بوجه من الوجوه .

(الوجه الثامن) من الوجوه الدالة على سقوط مقالة الغبي النبهاني : أن كل
واحد من الأئمة صرح بأنه اذا صح الحديث يجب اتباعه والأخذ به ، ولذلك صرح
كثير من الأئمة بوجوب الاخذ بالحديث والاضراب عن كل ما يخالفه من أقوال
المجتهدين ، وفي كتاب (أعلام الموقعين) وقد نهى الأئمة الاربعة عن تقليدهم ، وذموا
من أخذ أقوالهم بغير حجة ، فقال الشافعي : مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل
حاطب ليل ، يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري ، ذكره البيهقي ، وقال
اسماعيل بن يحيى المزني في أول مختصره : اختصرت هذا من علم الشافعي ومن معنى
قوله ، لاقربه على من أراده ، مع اعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره : لينظر فيه لديه
ويحتاط لنفسه ، وقال أبو داود قلت لأحد الاوزاعي هو اتبع أو مالك ؟ قال لا تقلد
دينك أحدا من هؤلاء ، ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فخذ به ، ثم
التابعي بعد الرجل فيه مخير ، وقد فرق أحمد بين التقليد والاتباع ، فقال أبو داود :
سمعت يقول الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعن
أصحابه ، ثم هو من بعد في التابعين مخير ، وقال أيضا : لا تقلدني ، ولا تقلد مالكا ،
ولا الثوري ، ولا الاوزاعي ، وخذ من حيث أخذوا ، وقال : من قلة فقه الرجل أن
يقلد دينه الرجل ، وقال بشر بن الوليد : قال أبو يوسف لا يحل لأحد أن يقول مقاتلتا
حتى يعلم من أين قلنا ، وقد صرح مالك بأن من ترك قول عمر ابن الخطاب لقول
ابراهيم النخعي أنه يستتاب ، فكيف بمن ترك قول الله ورسوله لقول من هو دون
ابراهيم أو مثله ؟! وقال جعفر الفريابي : حدثني أحمد بن ابراهيم الدورقي ، حدثني
الهيثم بن جميل ، قال : قلت لمالك ابن أنس يا أبا عبد الله ان عندنا فوما وضعوا كتبنا

يقول أحدهم حدثنا فلان عن فلان عن عسر بن الخطاب بكذا وكذا . وفلان عن ابراهيم بكذا . وياخذ بقول ابراهيم . قال مالك : وصح عندهم قول عسر ؟ قلت : انما هي رواية كما صح عندهم قول ابراهيم . فقال مالك : هؤلاء يستتابون انتهى .

(الوجه التاسع) ان قول التبهاني البليد يقتضي أن يقدم كلام من يقصد اليوم على ما صح من الاحاديث النبوية المخالفة لقول المجتهد وذلك هو عين الخطأ . وقد سمعت من بعض قضاة الاتراك أنه قال اذا رأيت نصا في منية المصلي ورأيت حديثا في صحيح الامام البخاري يخالف ذلك النص آخذ بما في المنية واتسرك الحديث الصحيح ولا أعمل به . فانظر الى هذه العباوة والجهل العظيم .

(وقد سئل) أبو العباس تقي الدين شيخ الاسلام ابن تيمية - قدس الله روحه الزكية - عن رجل تفقه على مذهب من المذاهب ، وتبصر فيه ، واشتغل بعده بالحديث ، فوجد أحاديث صحيحة لا يعلم لها ناسخا ولا مخصصا ولا معارضا ، وذلك المذهب فيه ما يخالف تلك الاحاديث ، فهل له العمل بالمذهب أو يجب عليه الرجوع الى العمل بالحديث ومخالفة مذهبه ؟ .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . قد ثبت في الكتاب والسنة والاجماع ان الله تعالى افترض على العباد طاعته واطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يوجب على هذه الامة طاعة أحد بعينه في كل ما أمر به ونهى عنه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى كان صديق الامة وأفضلها بعد نبيا عليه الصلاة والسلام ورضي الله عنه يقول : أطيعوني ما أطعت الله تعالى ، فاذا عصيت الله عز وجل فلا طاعة لي عليكم . واتفقوا كلهم على أنه ليس أحد معصوما في كل ما أمر به وينهى عنه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال غير واحد من الأئمة : كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء الأئمة الاربعة - رحمهم الله تعالى أجمعين - قد نهوا الناس عن تقليدهم في كل ما يقولونه ، وذلك هو الواجب ، قال الامام أبو حنيفة : هذا رأيي ، وهذا أحسن ما رأيت ، فمن جاء برأي خير منه قبلناه ، ولهذا لما اجتمع أفضل أصحابه أبو يوسف بامام دار الهجرة مالك بن أنس ، وسأله عن مسألة الصاع وصدقة الخضر اوات ، ومسألة الاجناس ، فأخبره مالك رحمه الله تعالى بما دلت عليه السنة في ذلك ، فقال : رجعت لقولك يا أبا عبد الله ، ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت ، ومالك رحمه الله تعالى كان يقول : انما

أنا بشر أصيب وأخطي . فاعرضوا قولبي على الكتاب والسنة أو كلاما هذا معناه .
والشافعي رحمه الله تعالى كان يقول : من ضيق علم الرجل أن يقلد دينه الرجال ،
وقد قال : لا تقلد دينك الرجال فانهم لم يسلموا من أن يغلطوا (١) وقد ثبت عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) ولازم ذلك أن
من لم يفقهه الله عز وجل في الدين لم يرد به خيرا ، فيكون التفقه في الدين فرضا ،
والتفقه في الدين معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها السعية . فمن لم يعرف ذلك لم يكن
متفقا في الدين .

لكن من الناس من قد يعجز عنها فيلزمه ما يقدر عليه ، ومن كان قادرا على الاستدلال
فقليل يحرم عليه التقليد مطلقا ، وقيل يجوز مطلقا ، وقيل يجوز عند الحاجة كما اذا
ضاق الوقت عن الاستدلال ، وهذا القول أعدل الأقوال ان شاء الله تعالى ،
والاجتهاد ليس هو أمرا واحدا لا يقبل التجزي والانقسام ، بل يكون الرجل مجتهدا
في فن أو باب أو مسألة دون فن وباب ومسألة ، وكل فاجتهاده بحسب وسعه ، فمن
نظر في مسألة قد تنازع العلماء فيها فرأى مع أحد القولين نصوصا لم يعلم لها معرض
بعد نظر مثله فهو بين أمرين : اما أن يتبع قول القائل الاخير لمجرد كونه الامام الذي
اشتغل على مذهبه - ومثل هذا ليس بحجة شرعية . بل مجرد عادة تعارضها عادة
غيره واشتغاله بمذهب امام آخر - واما أن يتبع القول الذي ترجح في نظره
بالنصوص الدالة عليه ، فحينئذ موافقته لامام يقاوم ذلك الامام ، وتبقى النصوص
النبوية سالمة في حقه عن المعارض بالعمل ، فهذا هو الذي يصلح ، وانما تنزلنا هذا
التنزل لأنه قد يقال : ان نظر هذا قاصر . وليس اجتهاده تاما في هذه المسألة لضعف
آلة الاجتهاد في حقه . اما اذا قدر على الاجتهاد التام الذي يعتقد معه أن القول
الآخر ليس معه ما يدفع النص فهذا يجب عليه اتباع النصوص ، وان لم يفعل كان
متبعا للظن وما تهوى الانفس ، وكان من أكبر العصاة لله تعالى ورسوله ، بخلاف
من يقول للقول الآخر حجة راجحة على هذا النص ، ويقول أنا لا أعلمها ، فهذا يقال
له قد قال الله تعالى (فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) الذي تستطيعه من العلم والفقه في هذه

(١) نص كلام شيخ الاسلام حسبا في المجموع جلد ٢٠ ص ٢١١ هو : والشافعي كان يقول : اذا صح
الحديث فاضربوا بقولبي الحائط واذا رايت الحجة موضوعة على الطريق فبي قولبي ، وو مختصر الزيني لما
ذكر انه اختصره من مذهب الشافعي لمن أراد معرفة مذهبه قال : مع اعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره .
العلماء والامام احمد كان يقول لابن قتيبة ولا تقلد مالك ولا الشافعي ولا الثوري ، وتعلموا كما تعلمنا ، وكان
يقول من قللة علم الرجل ان يقلد دينه الرجال وقال لا تقلد دينك الرجال فانهم لن يسلموا من ان يغلطوا وقد
ثبت .. الخ

المسألة قد دل على أن هذا القول هو الراجح ، فعليك أن تتبع ذلك ، ثم أن تبين لك فيما بعد أن للنص معارضا راجحا كان حكمك في ذلك حكم المجتهد المستقل اذا تغير اجتهاده وانتقال الانسان من قول الى قول لأجل ما تبين له من الحق هو محمود عليه ، بخلاف اصراره على قول لاحجة معه عليه ، وترك القول الذي وضحت حجته ، أو الانتقال من قول الى قول بسجرد عادة واتباع هوى ، فهذا مذموم ، واذا كان المقلد قد سبح حديثا وتركه - لاسيما اذا كان قد رواه أيضا عدل - فمثل هذا اذا وجد لا يكون عذرا في ترك النص ، وقد بينا فيما كتبناه في الدفع عن الأئمة الاعلام نحو عشرين عذرا في ترك العمل ببعض الاحاديث . وبيننا أنهم معذورون في الترك لتلك الاعذار ، وأما نحن فمعذورون في تركها لهذا القول ، فمن ترك الحديث لاعتقاده أنه لم يصح أو رواية مجهول أو نحو ذلك ويكون غيره قد علم صحته وثقة راويه فقد زال عذر ذلك في حق هذا ، ومن ترك الحديث لاعتقاده أن ظاهر القرآن يخالفه أو القياس أو عمل لبعض الانصار ، وقد تبين لآخر أن ظاهر القرآن لا يخالفه ، وأن نص الحديث الصحيح مقدم على الظواهر ، ومقدم على القياس والعمل ، ثم يكن عذر ذلك الرجل عذرا في حقه ، فإن ظهور المدارك الشرعية للاذهان وخفائها عنها أمر لا يضبط طرفاه ، لاسيما اذا كان التارك للحديث معتقدا أنه قد ترك العمل به المهاجرون والانصار - أهل المدينة النبوية وغيرها - الذين يقال لهم لا يتركون الحديث الا لاعتقادهم أنه منسوخ ، أو معارض براجح ، وقد بلغ من بعدهم أن المهاجرين والانصار لم يتركوه ، بل قد عمل به بعضهم أو من سعه منهم أو نحو ذلك مما يقدح في هذا المعارض للنص ، واذا قيل لهذا المستفتي المسترشد أنت أعلم أم الامام الفلاني كانت هذه معارضة فاسدة ، لأن الامام الفلاني قد خالفه في هذه المسألة من هو نظيره من الأئمة ، ولست أعلم من هذا ولا هذا ، ولكن نسبة هؤلاء الأئمة الى هؤلاء كنسبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي ومعاذ ونحوهم من الأئمة وغيرهم ، فكما أن هؤلاء الصحابة بعضهم لبعض أكفاء في موارد النزاع ، فاذا تنازعوا في شيء ردوه الى الله ورسوله ، وان كان بعضهم قد يكون أعلم في مواضع أخر ، وكذلك موارد النزاع بين الأئمة ، وقد ترك الناس قول عمر وابن مسعود رضي الله عنهما في مسألة تيسم الجنب ، وأخذوا بقول أبي موسى الاشعري وغيره لما احتج بالكتاب والسنة ، وتركوا قول عمر رضي الله تعالى عنه في دية الاصابع وأخذوا بقول معاوية ابن أبي سفيان ، لما كان روى من لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :

(هذه وهذه سواء) وقد كان بعض الناس يناظر ابن عباس في المتعة ، فقال له : قال أبو بكر قال عمر ، فقال ابن عباس : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون قال أبو بكر قال عمر — لما سئل عنها فأمر بها فعارضوه بقول عمر فيين أن عمر لم يرد ما يقولونه ، فألحوا عليه ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق أن يتبع أم عمر ؟ مع علم الناس أن أبا بكر وعمر أعلم من ابن عمر وابن عباس رضي الله تعالى عنهما • ولو فتح هذا الباب لوجب أن يعرض عن أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ويبقى كل امام في اتباعه بمنزلة النبي في أمته ، وهذا تبديل للدين ، وشيبه بسا عاب الله تعالى به النصارى في قوله : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُ الْإِسْلَامِ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)^(١) والله سبحانه أعلم انتهى •

(الوجه العاشر) انه يفهم من كلام النبهاني البليد : أنه يجب على المسلمين منذ نحو ألف سنة في مشارق الارض ومغاربها أن يقلدوا أحد المجتهدين الأربعة ، ومن أخذ دينه من الكتاب والسنة ، أو قلد غير هؤلاء — من صحابي أو غيره — خرج عن جادة الصواب ، وسلك غير سبيل المؤمنين ، هذا لازم من لوازم كلامه الباطل ، وفوله العاقل ، وهو مردود لم يقل به عالم يعتد بعلمه •

وفي كتاب (أعلام الموقعين) للحافظ بن القيم عليه الرحمة : هل يلزم المستفتي أن يجتهد في أعيان المفتين ويسأل الا علم والا دين أم لا يلزمه ذلك ؟ فيه مذهبان كما سبق وبيننا مأخذها — والصحيح أنه يلزمه ، لأنه المستطاع من تقوى الله تعالى المأمور بها كل أحد ، قال : وتقدم أنه اذا اختلف عليه مفتيان أحدهما أورع والآخر أعلم فأيهما يجب تقليده ؟ فيه ثلاثة مذاهب سبق توجيهها ، وهل يلزم العمامي أن يتمذهب ببعض المذاهب المعروفة أم لا ؟ فيه مذهبان : أحدهما لا يلزمه ، وهو الصواب المقطوع به ، اذ لا واجب الا ما أوجهه الله ورسوله ، ولم يوجب الله ورسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بذهب رجل من الامة فيقلده دينه دون غيره ، وقد انطوت القرون الفاضلة مبرأة مبرأ أهلها من هذه النسبة ، بل لا يصح

للعامي مذهب ، ولو تمذهب به فالعامي لا مذهب له ، لأن المذهب انما يكون لمن له نوع نظر واستدلال ، ويكون بصيرا بالمذاهب على حسبه ، أو لمن قرأ كتابا في فروع ذلك المذهب وعرف فتاوى امامه وأقواله ، وأما من لم يتأهل لذلك البتة ، بل قال أنا شافعي أو حنبلي أو غير ذلك لم يصير كذلك بمجرد القول ، كما لو قال أنا فقيه أو نحوي أو كاتب لم يصير كذلك بمجرد قوله ، يوضحه أن القائل أنه شافعي أو مالكي أو حنفي يزعم أنه متبع لذلك الامام سالك طريقته ، وهذا انما يصح اذا سلك سبيله في العلم والمعرفة والاستدلال ، فاما مع جيله وبعده جدا عن سيرة الامام وعلمه وطريقته فكيف يصح له الانتساب اليه ، الا بالدعوى المجردة ، والقول الفارغ من كل معنى والعامي لا يتصور أن يصح له مذهب ، ولو تصور له ذلك لم يلزمه ولا لغيره ، ولا يلزم أحدا قط أن يتمذهب بمذهب رجل من الامة ، بحيث يأخذ أقواله كلها ويدع أقوال غيره ، وهذه بدعة قبيحة حدثت في الامة لم يقل بها أحد من أئمة الاسلام ، وهم أعلى رتبة ، وأجل قدرا وأعلم بالله ورسوله من أن يلزموا الناس بذلك ، وأبعد منه قول من قال يلزمه أن يتمذهب بمذهب عالم من العلماء ، وأبعد منه قول من قال يلزمه أن يتمذهب بأحد المذاهب الاربعة .

فيالله العجب ماتت مذاهب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومذاهب التابعين وتابعيهم وسائر أئمة الاسلام وبطلت جملة الا مذاهب أربعة أنفس فقط من بين سائر الأئمة والفقهاء ، وهل قال ذلك أحد من الأئمة أودعا اليه أو دلت عليه لفظة واحدة من كلامه !؟ .

والذي أوجبه الله تعالى ورسوله على الصحابة والتابعين وتابعيهم هو الذي أوجبه على من بعدهم الى يوم القيامة ، لا يختلف الواجب ولا يتبدل ، وان اختلفت كفيته أو قدره باختلاف القدرة والعجز ، والزمان والمكان والحال ، فذلك أيضا تابع لما أوجبه الله تعالى ورسوله ، ومن سحج للعامي مذهبا قال هو اعتقد أن هذا المذهب الذي انتسب اليه هو الحق فعليه الوفاء بموجب اعتقاده ، وهذا الذي قاله هؤلاء لو صح للزم منه تحريم استفتاء أهل غير المذهب الذي انتسب اليه ، وتحريم تمذهبه بمذهب نظير امامه ، أو أرجح منه ، أو غير ذلك من اللوازم التي يدل فسادها على فساد ملزوماتها ، بل يلزم منه أنه اذا رأى نص رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قول خلفائه الاربعة مع غير امامه أن يترك النص وأقوال الصحابة ويقدم عليها قول

من انتسب اليه ، وعلى هذا فله أن يستفتي من شاء من اتباع الأئمة وغيرهم ، ولا يجب عليه ولا على المفتي أن يتقيد بأحد من الأئمة الأربعة باجماع الأمة كما لا يجب على العالم أن يتقيد بحديث أهل بلده أو غيره من البلاد ، فإذا صح الحديث وجب عليه العمل به ، حجازيا كان أو عراقيا أو شاميا أو مصريا أو سنيا . وكذلك لا يجب على الانسان التقيد بقراءة السبعة المشهورين باتفاق المسلمين ، بل اذا وافقت القراءة رسم المصحف الامام وصحت في العربية وصح سندها جازت القراءة بها ، وصحت الصلاة بها اتفاقا ، بل لو قرأ بقراءة تخرج عن مصحف عثمان وقد قرأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة بعده جازت القراءة بها ، ولم تبطل الصلاة بها على أصح الأقوال ، والثاني تبطل الصلاة بها ، وهاتان الروايتان منصوصتان عن الامام أحمد ، والثالث : إن قرأ بها في الركن لم يكن مؤديا لفرضه ، وإن قرأ بها في غيره لم تكن مبطله . وهذا اختيار أبي البركات ابن تيسية . لأنه لم يتحقق الاتيان بالركن في الاول ، ولا الاتيان بالمبطل في الثاني ، ولكن ليس له أن يتبع رخص المذاهب ، وأخذ غرضه من أي مذهب وجدده فيه ، بل عليه اتباع الحق بحسب الامكان انتهى .

(فظهر لك) مما فررناه في الوجوه العشرة : أن ما ذكره النبهاني المسكين من القول بانسداد باب الاجتهاد قول باطل مبتدع ، فانا نعلم بالضرورة أنه لم يكن في عصر الصحابة رجل واحد اتخذ رجلا منهم يقلده في جميع أقواله ، فلم يسقط منها شيئا وأسقط أقوال غيره فلم يأخذ منها شيئا . ونعلم بالضرورة أن هذا لم يكن في التابعين ، ولا تابعي التابعين ، فليكذبنا المقلدون برجل واحد سلك سبيلهم الوخيمة في القرون الفضية على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم على لسانه صلى الله عليه وسلم ، فالمقلدون لم يتبعوا في جميع مآلوه - يبيحون به الفروج ، والدماء ، والاموال ، ويحرمونها ، ولا يدرون أذلك صواب أم خطأ - على خطر عظيم ، ولهم بين يدي الله موقف شديد ، يعلم فيه من قال على الله ما لا يعلم أنه لم يكن على شيء .

وقد أظن الحافظ ابن القيم عليه الرحمة في كتابه (أعلام الموقعين) الكلام في ذم المقلدين ، وأبطل فيه قول الجهلة بانقطاع الاجتهاد ، وألف جسع من الأفاضل في ذلك كتبا مفيدة ، ولولا تعرض هذا الجاهل لهذه المسألة وان لم يكن لها مناسبة لموضوع كتابه مافتحنا فيها فما ، ولا حركنا قلما ، ولكن أبي الله تعالى إلا أن يفصح

من تنقص العلماء الاخير ، وسادات هذه الامة ، وأن يرى الناس عورته ويفريه
بكشفها ، ونعوذ بالله من الخذلان ، وقد أصابته سهامه الصائبة ، وتبين أنه من
أصحاب الدعاوي الكاذبة ، وكان هو الحري بما أنشده :

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

(ثم ان النباني العبي) عقب مسألة الاجتهاد بسالة أخرى لا مناسبة لها أيضا
بموضوع كتابه ، لكنه أراد أن يظهر عجبه ودعاويه الكاذبة في العلم ، فقال - بعد
أن هذى وتكلم بكلمات ساقطة تناسب جهله - اني سمعت مرارا من بعضهم لزوم
تأليف تفسير للقرآن على مقتضى الأذواق العصرية ، وسعت من رجل منهم أنه
سينعل ذلك ، ويؤلف تفسيراً بهذه الصفة التي توافق هذا العصر ، وهو في نفسه
لا يقدر على فهم متن الاجرومية ، وقال لي بعض من يجتمع عليهم ويسمع كلامهم -
وقد ثبت في ذهنه بعض نزغاتهم هذه وظنّها حقاً - قد نعت بتأليفك المسلمين نفعاً
عظيماً ، ولكن بقي عليك شيء واحد ، فقلت له : ما هو ؟ قال : أن تؤلف تفسيراً
للقرآن على مقتضى الأذواق العصرية ، فإن هذه التفسيرات الموجودة قد ألفوها على
مقتضى أذواق أهل العصور السالفة ، وقد تغير الحال الآن ، واختلفت أذواق الناس
ومشاربهم ، فيلزم تأليف تفسير يوافقهم ، قال : فأجبت أني لست أهلاً لذلك وبينني
وبين مرتبة التفسير درجات كثيرة ، لا يمكنني الوصول إليها ، وتألفني كلها جمع
فوائد ، وأكثرها في شؤون النبي صلى الله عليه وسلم من فضائله ومعجزاته ومدائحه
ونحو ذلك مما لا رأي لي فيه ، وانما هو نقل صرف ، وتفسير القرآن قد فرغ منه
العلماء ، ونقلوه عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ومن بعدهم من أئمة الدين
ودونوه في تفاسيرهم هذه الموجودة ، وهي كافية وافية ، وهي كما وافقت أهل
العصور السابقة توافق أهل هذا العصر ، فإن الاحكام الشرعية التي اشتمل عليها
القرآن هي صالحة لكل انسان ، وقد استوت فيها العصور والازمان ، وليس للقرآن
معان خاصة بأهل العصور السابقة ومعان أخرى خاصة بأهل العصور اللاحقة ، وأما
الأذواق والمشارب فهي ان كانت موافقة للشرع فمطلوبها يوجد في هذه التفسيرات ،
وان كانت مخالفة للشرع فكيف يمكن أن يفسر القرآن بمعان توافق هذه الأذواق
الفاصلة ، والمشارب الكاسدة ، ونحن لا يجوز لنا أن نفسر القرآن بمقولنا ، ونطبقه
على الأذواق العصرية كما يقوله السفهاء المخذولون ، ويتجاسرون على دعوى
اقتدارهم على تفسير كلام الله تعالى بافهامهم السقيمة ، وعقولهم الناقصة ، فان

تفسير القرآن بالرأي ممنوع شرعا ، ثم انه نقل بعض مآلوه في الفرق بين التفسير والتأويل ، وتكلم بهديان يوافق فهم أمثاله ، ثم ذكر قصيدة له مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : والحاصل أن هذه الفرقة المجدوعة المخدولة من طلبة زماننا في غاية الغباوة ، ونقص العقل والدين ، وقد عظم ضررهم على أنفسهم وعلى من يخالطهم ويصغي الى كلامهم من المسلمين ، فانهم مع جمعهم لعقائد شتى من عقائد أهل الزيغ والبدع والوهابية وغيرهم ، واستحسانهم ضلالاتهم ، هم أضر منهم بكثير وذلك أن الوهابية قوم أهل بدعة ظهرُوا بها في بلاد نجد ، وانتشر مذهبهم الى ماحواليهم من البلاد ، ثم تقلص ظنهم وقلوا وذلوا وانحصروا في أرضهم ، وهم مع كونهم حنابلة أنكروا عليهم علماء مذهب الامام أحمد ما هم عليه من الغلو في الدين ، وتضليل المسلمين ، أما هذه الفرقة الجديدة فهي مؤلفة من سائر المذاهب ، بدون علم ولا تقوى ، ولا قواعد يستندون اليها كسائر الفرق ، وانما الجامع بينهم فساد الافكار ، والاعتراض على الأئمة الاخيار ، وهم يختلطون بالناس ويكتبون آراءهم الفاسدة . ثم أخذ بيدي ويعيد ، ويكرر الشتم على أخيار أهل عصره المعرضين عن بدعته ، ثم تعرض بالذم لما طبع من كتب الشيخين وسائر الكتب السلفية ككتاب (الصارم المنكي) ثم ختم رسالته بقصيدة من شعره الركيك ، ويفاني برسول الله صلى الله عليه وسلم وبشرك به ، هذا ما ذكره في هذا الباب ، وهو يشتمل على مفاصد كثيرة ، لا يمكن ضبط أقلها ، بل ان كل كلمة من كلماته دلت على باطل ، فكلامه ظلمات بعضها فوق بعض ، وكله ينادي على جهله وغلوه ، ويدل على أنه ممن أنزل الله تعالى فيه : وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ، فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِّتْ لَهُمُ الصَّاحَابُ السَّعِيرِ (١) ولو أخذنا تتكلم على جميع ما حواه كلامه من المفاصد لطلال انكلام جدا ، ولكننا تتكلم على مقاصده على سبيل الاجمال :

(فأقول) حاصل ما دل عليه كلامه من المقاصد أمور :

(الاول) أن تفسير القرآن قد أخذ حده ، وعلم قد نضج واحترق ، ولا يمكن

أن يستنبط من التنزيل ما لم يستنبط .

(الثاني) من الامور التي دل عليها كلامه : أن الذي يتصدى لطلب تفسير

مشتمل على الاذواق العصرية وعلومه هو ملحد مبتدع زائغ الى آخر ما ذكره فيه
من المذم .

(الثالث) أن الوهاية مبتدعة غير أن ضررهم دون من قبلهم .
(الرابع) القدح في ابن تيمية ، وجرح كنهه وكتب ابن القيم وابن قدامة ، هذا
مادل عليه كلامه . ونحن نتكلم علي مطلب مطلب على سبيل الايجاز والاختصار ،
وبالله التوفيق وهو المستعان :

(الكلام على كتب التفسير والاحتياج الى تفسير موافق لأفكار أهل العصر)
ان من طالع كتب التفسير المتداولة بين الأيدي اليوم وجددها أعظم مانع من
الموقوف على مراد الله تعالى بكتابه الكريم ، فان منها ماهو مشحون بقواعد النحو
ووجوهه ، فتراه يذكر في كل آية من الوجوه ما يفوت الحصر ، ومنها ماهو مشحون
بالمسائل الكلامية ، والقواعد الحكمية ، حتى يصرف الآيات الى ما أصنه من الأصول
ويؤل النصوص القطعية الى ما يوافق معتقده ، اذا نظرت تفسير الرازي والبيضاوي
وأبي السعود تعلم حقيقة هذا الكلام ، ومنها ما اشتمل على قصص بني اسرائيل
وأكاذيبهم وأقوالهم التي تحيلها العقول وتنفر عنها الطباع ، ومنها تفاسير لا يدل
عليها نقل ولا عقل ولا لغة من اللغات ، كالتفسير الشهير بأنه من باب الاشارة ، ومنها
ومنها مما لا يحيط به العد والاحصاء .

وقد تكلم على التفسير كلام منصف واقف على الحقيقة : العلامة السيد محمد
بدر الدين الحلبي - فسح الله تعالى في مدته وبارك في حياته - في كتاب (التعليم
والارشاد) فقال - سلمه الله تعالى بعد أن تكلم على علم التفسير وأن أهل العلم لم
يعطوه حقه - والذي ينظر فيما طبع من نحو قرن في مصر - وهي محط رحال العلوم
الدينية وكعبة العلوم التي يفتد اليها الحجاج من جميع الآفاق والقدوة لكافة أهل
الامصار - يرى العجب العجاب ، يرى أن الذي طبع منها الى الآن تفسير الخازن ،
تفسير الجالين بحاشية الصاوي وبحاشية الجمل ، البيضاوي بحاشية الشهاب بقطعة
من حاشية السيد ، تفسير فخر الدين الرازي ، تفسير أبي السعود ، تفسير النسفي ،
تاج التفاسير ، ابن جرير الطبري ، الدر المنثور للسيوطي ، تفسير ابن عباس ، وبعض
تفاسير ضئيلة ، هذه هي كتب التفاسير التي تتداولها أيدي الناس اليوم ، وهي التي
يعتمد عليها طلاب العلوم الشرعية في تفسير كتاب الله جل شأنه ، والموقوف على
مراده منه .

فأما تفسير الخازن - وهو أكثر كتب التفاسير تداولاً ، وأعظمها انتشاراً بين عامة المسلمين وطلبة العلوم الشرعية - فهو الكتاب الذي يقف القلم حائراً عند وصفه ، لا يدري ما يقول فيه ، وما الذي يحدر به المسلمين منه ، وخير ما يقال فيه أنه مجموعة الأكاذيب ، ولا أرى إلا أن الإنسان لو جرد ما فيه من الأكاذيب الموضوعية على لسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والاقاصيص الكاذبة التي وضعها اليهود - كقصة بابل والغرائق وارم ذات العماد وغيرها - لكانت فوق نصف الكتاب ، وبعد ذلك فأشياء ان لم تضر لم تنفع .

وهو على اشتماله على هذين الوصفين اللذين هنا من أقبح أوصاف المؤلفات فهو العمدة لعامة المسلمين ، وأكثر طلبة العلوم الشرعية ، وأكثر انتشاراً بينهم ، ولقد أرى أن نسخه التي نشرت في مصر لا تقل عن مائة ألف نسخة ، فسد بواسطتها عشرة أضعاف هذا العدد من المسلمين ، ودخل عليهم في دينهم ما ليس منه من حديث موضوع وتفسير مفترى .

ومن العجيب أن لا يوجد في علماء الاسلام من ينهى الناس عن نشر مثل هذه الكتب المفسدة للعلوم والشرائع ، المضرة بالاخلاق والعقائد ، وقد لا يخلو بلد من بلاد الاسلام عن قوم من أهل العلم - ولو قليلين - يعرفون ما في هذه الكتب من الفساد ، ولا يحظرون على الناس استعمال هذه الكتب لاتقاء شرها ، بل ربما سئلوا عنها فأثنوا عليها خيراً مسائرة لأُميال العامة ، ومصانعة لهم فيما هو من أهم مهمات الدين ، قال : وهذا البحث موعداً به ان شاء الله القسم الثاني من هذا الكتاب ، وهو قسم الارشاد ، وانما غرضنا في هذا القسم النظر في طرق التعليم ، وكتب العلم المستعملة ، وبيان جيدها من رديئها .

وأما تفسير الجلالين بحاشيته الجميل والصاوي فهما يساويان تفسير الخازن انتشاراً وكثرة تداول ، إلا أن انتشار الخازن بيد العوام أكثر ، وانتشار هذين بيد الخاصة نعتي طلاب العلوم الشرعية أكثر ، فأما الشرح فهو غاية في الاختصار لا يمكن الاستقلال به في فهم كتاب الله تعالى ، مع علل فيه آخر يعلمها من جمع بينه وبين بعض تفاسير المتقدمين الموثوق بها وبمؤلفيها ، وأما حاشيتاه الضخمتان فهما من مؤلفات متأخري أهل العلم بصر ، وحسبك هذا في معرفة منزلتيهما بين المؤلفات . ثم انه سلمه الله عقد فصلاً في انحطاط العلم ، ثم قال : وأما الكشاف ومختصره للقاضي البيضاوي فهما المشكلة التي لاتحل اجبالاً واغلاقاً وغموضاً ، ولشدة

عراقتهما في ذلك أكثر المتأخرون من تعليق الحواشي والشروح عليهما ، لبيان عبارتهما ولوضيح مقاصدهما ، حتى لو جمعت الحواشي والشروح التي عليهما لأربت على ألف مجلد ، وما ذكره صاحب (كشف الظنون) مما كتب عليهما قليل من كثير ، ولولا أنهما بحيث يخفيان الا على من آلف حل الرموز والطلاسم واستخراج المخبات لم يعتن من جاء بعدهما بالتوسع في الكتابة عليهما ، والمبالغة في توضيح غوامضهما ، ودوق هذا كله اشتمالهما على مسائل كثيرة خارجة عن التفسير بالمرّة ، لا ترتبط فيه بوجه من الوجود ، كالمسائل الكلامية التي حشيا بها كتابيها ، وهي ليست من فن التفسير ولا من متعلقاته ، وإنما كان الغرض من ذكرها بيان معتقديهما والاستشهاد انه بكتاب الله •

ويلحق تفسير أبي السعود بهذين التفسيرين ، فانه صورة أخرى لهما مع بعض تغييرات قليلة جدا ، ويلحق تاج التناسير بتفسير الجلالين ، ونسبته اليه كنسبة تفسير أبي السعود الى تفسيري الكشاف والبيضاوي ، وان اختلف عنه فيسير •

وأما تفسير فخر الدين الرازي - وهو كتاب العامة والخاصة وعمدة الناس في هذا الموضوع - فأبو حيان المفسر يقول في تفسيره : تفسير الامام فخر الدين فيه كل شيء الا التفسير ، وما أحسن ما ترجم به أبو حيان هذا التفسير الكبير ، بل البحر العميق ، ولقد يفتح الانسان جزء من أجزاء هذا التفسير للمراجعة والكشف فيه عن تفسير آية من آي كتاب الله فلا يشعر الا وقد توسط بحرا لجيا لا يخلص الانسان منه الى ساحل ، ويظهر مما كتبه الامام فخر الدين في مقدمة كتابه أنه قد أودع كتابه كثيرا مما لا تعلق له بعلم تفسير كتاب الله ، ولا ارتباط له فيه بوجه من الوجوه ، وإنما كان غرضه مما جمعه في تفسيره من هذه المسائل الغريبة - مع أن الكتاب في تفسير كتاب الله خاصة على ما يظهر من كلامه في أول كتابه - أن يبرهن على حقيقة ما قاله لبعض مناظريه من أن كتاب الله - جل ثناؤه وعلا سلطانه - لا يمكن استقصاء ما فيه من الأسرار ، ولا الاحاطة بما فيه من المعاني والحكم ، ولو كتب في ذلك مئات من المجلدات ، وان فاتحة الكتاب يمكن أن يكتب فيها مجلد ضخم في أحكامها واسرارها ومعانيها ، ولذلك وضع في تفسير الفاتحة مجلدا لرد ما أنكره المنكرون عليه ، وان كان لم يصنع شيئا بالرد عليهم بحشو كتابه بهذه المسائل التي ذكرها ، ولا ارتباط لها بتفسير كتاب الله بوجه من الوجوه ، وكل كلام مؤلف كلام الله أو غيره يمكن للعالم أن يتوسع في الكتابة عليه الى مثل ما توسع به الامام فخر الدين في

تفسير كتاب الله ، والمؤلف اذا أغعض عينه وتسامح في تأليفه وراعى المناسب والمجاور ومجاوره استطال في يده جبل الكلام فلم يقف به عند حد .
ولقد رأينا لمتأخر من متأخري المصريين يدعي السحيمي حاشية على شرح عبد السلام على جوهرة التوحيد تقع في أربع مجلدات ضخام على أن الامير وهو أطول باعا منه في علم الكلام وادق نظرا استوعب الكلام على شرح عبد السلام في مجلد صغير ، وكان في قدرة السحيمي أن يضيف الى مجلداته الاربع أربعة آخر ، ولكن رأى أن الاقتصار على هذا المقدار كاف في البلاغ الى ما قصد من البرهان على سعة اطلاعه .

ثم تكلم على تفسير روح المعاني ، وان مصنفه أخذه من تفسير الامام فخر الدين ، الا أنه حذف منه كثيرا من الزوائد ، وأضاف اليه وأحسن غاية الاحسان ، وضم شيئا من أقوال سلف المفسرين ومتقدميهم ، وان لم يميز بين ما قوى سنده من هذه الاقوال وما هي ، فبقي في الامر بعض لبس وأشكال ، وأضاف اليه أيضا جملة كبيرة من تفاسير المتصوفة ، فلم يكتف رحمه الله بجمع تأويلات المتكلمين التي تأولوا بها القرآن للاستدلال على عقائدهم ، وتطبيقها على ما أدت اليه عقولهم منها عملا بقاعدتهم المشهورة عندهم من وجوب تأويل النقل اذا عارض العقل حتى يرجع الى العقل ، فأضاف الى ذلك تأويلات المتصوفة التي صرفوا بها القرآن عن ظاهره الى معان لاتدل الالفاظ العربية عليها بوجه من وجوه الدلالات المعروفة عند الناس ، فجاء كتابه جامعا للطرق الثلاثة : طريقة السلف ، وطريقة المتكلمين ، وطريقة المتصوفة الا أن طريقة السلف لم يتعرض فيها لبيان طرق نقلها وتميز صحيحها من سقيمها ، ولذلك كان ككتب الحديث التي لا يبين فيها سند الحديث وحال رجاله لاتقع الثقة به سيما اذا تعارض مع غيره ولم يقع الترجيح بينهما بوجه من وجوه الترجيح .

وأما تفسير الدر المنثور للجلال السيوطي فقد زعم أنه اختصر به - على حسب عادته - تفسير ابن جرير ، الذي جمع فيه صحاح الاحاديث المتعلقة بتفسير كتاب الله تعالى ، وبيان أسباب النزول ، وأضاف السيوطي في مختصره أحاديث واهية الاسناد في هذا الموضوع نفسه ، ومزجها بتلك الاحاديث أحاديث الاصل فاختلطت بها حتى لا يمكن التمييز بينها ، وقلت الثقة في الجميع .
وربما استبعد أحد أن يضع السيوطي في تفسيره الدر المنثور أحاديث واهية الاسناد ، أو موضوعة مع ماله من المؤلفات في موضوعات الاحاديث - فنقول أن من

علم طريقة السيوطي في التأليف لم يستنكر هذا الذي قلناه ، وطريقته - رحمه الله على ما علمنا من استقراء كتبه - أنه كلما وقع إليه كتاب من الكتب في أي فن من الفنون واستحسنه اختصره ونسبه إلى نفسه بدون تمييز بين غث وسمين ، ولا وقوف على حقائق العلوم ، ولذلك تراه مضطربا في كتبه ، لأنه لا يحكم فكر نفسه ، وإنما يحكم في كل كتاب فكر مؤلفه هو ، فيضيفه إلى نفسه ببعض تصرف يحدثه في الكتاب ، وإن كنت قد قرأت في كتابه الذي سماه (الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير) وكتابه الذي سماه (اللئالي المصنوعة ، في الأحاديث الموضوعة) ورأيت في (الجامع الصغير) كثيرا من الأحاديث التي نص في كتابه اللئالي على أنها موضوعة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تصح عنه بطريق من الطرق : جزمت بصحة هذا الذي قلناه ، وعلمت أنه لا يؤلف ، وإنما يلخص كتب الناس وينسبها لنفسه .

ثم أطال الكلام في السيوطي وابن كمال باشا ، وأنها على منهج واحد في انتحال الكتب بعد الاختصار إلى أن قال سلمه الله :

وأما تفسير محيي الدين فهو مسخ للقرآن ، ونقض للدين من أساسه ، ويرى بعض الباحثين أنه ليس من مؤلفات محيي الدين ، وإنما هو من مؤلفات القاشاني أحد الملاحدة الباطنية ، نسبة لمحيي الدين ليروجه بين عوام المسلمين ، ومن يستيتون إلى ما يقول محيي الدين مهما كان حاله ، والظن بسحبي الدين أنه لا يضع مثل هذا الكتاب ، ولا يذهب هذه المذاهب الفاسدة في تفسير كتاب الله تعالى . وسواء كان من مؤلفات محيي الدين أو غيره فإن انتشاره بين المسلمين بحت ضرر ، سيما ولا موقف يوقف الناس على الصحيح والفاسد من هذه الكتب .

وأما تفسير ابن عباس : فهو من مؤلفات مجد الدين الفيروز ابادي صاحب القاموس ، جمع فيه رواية محمد بن السائب الكلبي عن ابن عباس . قال : وقد علمت مما ذكرناه في المقدمة حال ابن السائب الكلبي وضعفه ، وقلة ثقة العلماء بمروياته . قال هذه كتب التفسير التي نقرأها اليوم ، وإن كان قد فاتنا ذكر شيء منها فإنه لا يخرج عن مضارعة واحد من هذه الكتب التي ذكرناها ، فلم يبق بيدنا ما يصح الاعتماد عليه والثقة به غير تفسير ابن جرير ، وهو الحسنة الوحيدة للمطابع الإسلامية بعد قرن وأكثر من ظهور المطابع في الممالك الإسلامية ، ولولا أن بعض أمراء العرب - من سكان الجزيرة العربية - راسل بعض تجار الكتب بمصر في شأنه ، وأعانه على

ذلك بمساعدات جليلة : لم يظهر له ظل في عالم المطبوعات ، اكتفاء منه (بالخازن
والجمل) •

وان أردت معرفة تفاسير الصحابة والتابعين وتابعي التابعين وعلماء القرن الثالث
فارجع الى ما كتبناه في المقدمة على هذا العلم . فقد بسطنا هناك مؤلفات القرون
الثلاثة ، والباحث عليها ان لم يجدها كلها وجد منها ما يكفي لحاجة الناس •
ثم إنه اعتذر عما كتبه بأنه لم يرد انتقاص أحد بذلك ، بل إن غرضه بيان أن
هذه التفاسير المتداولة قاطعة عن العلوم الاسلامية ، وان ضرورة المحافظة على الدين
تقتضي باختيار الكتب النافعة ، قال : فكل ما ذكره فانما الغرض منه تمحيص الحقيقة
والتماس الانفع لنا في علوم ديننا ، وهذا عذرنا في كل مانظره عن هذه المؤلفات
التي ابتليانها اليوم وابتليت بنا الخ • انتهى المقصود مما ذكره هذا الفاضل المصنف ، وبه
يعلم حال المتداول من التفاسير على الاجمال ، فكيف يقال أن تفسير القرآن قد فرغ
منه العلماء ، مع أنهم هم الذين قالوا في شأن علم التفسير علم لانضج ولا احترق ،
وقالوا المراد بنضج العلم تقرير قواعد وتفرع فروعها وتوضيح مسائله ، والمراد
باحتراقه بلوغه النهاية في ذلك •

وقد ذكر الامام السيوطي في (الاتقان) أن القرآن في اللوح المحفوظ كل
حرف منه بمنزلة جبل قاف ، وكل آية تحتها من التفاسير ما لا يعلمه الا الله تعالى •
انتهى • فمتى أعطاه العلماء حقه حتى يقال أنهم قد فرغوا منه ؟ فهل هذا الا قول من
قد بلغ من الجهل بدينه الى الغاية ؟ وأي ذنب لمن طلب في هذا العصر ، أو تمنى أن
يفسر القرآن تفسيرا نافعا للعامة والخاصة بعبارة سلسة ، يفهمها كل أحد ، كعبارات
بلغاء هذا العصر ، وكتابه التابعين فيه ، لا كعبارات الكتاب الماضين من الاعاجم
وغيرهم ، فانهم كانوا يتفاخرون بدقة العبارات وصعوبتها وعدم فهمها ويعيرون
الواضح منها ، مع أن البلقاء المتقدمين والكتبة السابقين على العكس من ذلك ، فقد
رأيت في بعض كتب أصول الحديث مانصه : ويكره كراهة تنزيه الخط الدقيق لقوات
الانتفاع أو كماله به لمن ضعف نظره ، وربما ضعف نظر كاتبه بعد ذلك فلا ينتفع به ،
كما قال الامام أحمد بن محمد بن حنبل لابن عمه حنبل بن اسحاق بن حنبل — وراه
يكتب خطأ دقيقا — فانه يخونك أحوج ما تكون اليه ، انتهى •

فكتب عليه الوالد رحمه الله في هامش الكتاب : انظر اذا كانت الدقة في الخط
هكذا فكيف بها في عبارات العلوم الشرعية ، وقد عدوا ذلك وجعلوه من الفضائل

العلية ، وجعلوا فهمها من أقصى مراتب العلم ، حتى أهملوا حفظ العلوم والمسائل ، بل لا يعمدون ذلك شيئاً ، وليت شعري هل كان علم المتقدمين في الصدور أم في السطور؟ وكيف كان علماء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين؟

قال : وقد رأيت بعض المؤلفين - وأنا أقابل معه تأليفه وقد دقق فيه - يتوقف في فهم بعض العبارات ، ولا يهتدي لها الا بتأمل طويل ، فهل ينبغي لمسلم ذلك؟ ولت شعري اذا اشتغل المتعلم في فهم العبارة فمتى يشتغل بحفظ المعنى فانصف ، ثم قال : وما أحوجهم الى ذلك الا عبارات الاعاجم الركيكة القاصرة عن مقاصدهم ، وكس رأينا ممن رسخ في فهم ذلك ولا يستطيع اعراب بيت من الشعر العربي ، فهل يليق ذلك بالعلماء أمناء الدين ؟ انتهى .

وشكوى الناس في كل عصر من الكتب المتداولة بين الايدي قد عرفها كل أحد ، فأبي ذنب لمن تمنى أن يؤلف في هذا العصر - عصر ظهور كنوز العلم وانتشار الكتب العجيبة - تفسيراً يفصل فيه محاسن الشريعة الفراء ، ويطبّق فيه أحوال العصر ، ويوافق فيه بين التواعد التي ثبتت بالبرهان وبين الآيات الكريمة ، مما يستوجب ميل العامة لمطالعة ومراجعتها ، فانه الكتاب الذي قال الله تعالى في شأنه : (مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)^(١) وقال عز اسمه : (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)^(٢) فهذه الآية شملت جميع ما خلق الله تعالى من العرش الى الفراش ، ولمن تكلم على هذه الآية له مجال واسع في البحث عن سائر الفنون ، ولهذا كانت هذه السورة من أحب السورة الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال سبحانه لما قالت الملائكة : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ : إِنْ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(٣) وهنا ذكر المفسرون أن من جملة حكم خلق الانسان وتخليفه في الارض ابراز ما أودع الله في الارض من خواص النبات والحيوان والمعدن على يدي هذا الخليفة ، لما أودع فيه من الشهوات وحوائج المأكّل والملبس وغير ذلك مما استنتجه بأفكاره ووصل اليه ببصيرته ، فدخل في هذا الباب من العلوم ما لا يحيط به دوائر الامكان ، ولا يقوم به قلم ولا لسان .

(١) الانعام : ٢٨ (٢) الاعلى : ١ - ٢ (٣) البقرة : ٢٠

فالاشتغال بمثل هذا التفسير أليس أولى من صرف العمر بذكر القبور وأهلها؟
وتشويق الجهلة وحثهم على عبادتها؟ والالتجاء إليها؟ مع أنهم لم يقصروا في ذلك،
وهي لديهم من أعظم الواجبات. بل ليس لهم سوى هذا الكمال من أمور الدنيا
والآخرة، فتراهم مفلسين من كل فضيلة.

ويقال للنبهاني الجاهل القبوري: هلا رأيت كتاب الفاضل الشيخ حسين الجسر
الطرابلسي؟ وقد كتب مانصه: وقد خطر لي حيث وجدت مجالاً للكلام، وسميعة
للنداء، أن أحرر رسالة يستبان منها حقيقة الدين الاسلامي، وكيفية تحققه لمتبعيه
على أسلوب جديد سهل الفهم. لاتبسه الانفس ولا تستوعره الافكار، يروق العقول
الحررة، ويعجب الاذهان المطلقة عن قيود التعصب ان شاء الله، انتهى المقصود من
نقله.

أفيقال ان الكتاب الذي ألفه فيه مغمز لثالب؟ كلا، بل هو كتاب من أجل
الكتب المصنفة في هذا الفن - ان لم نقل أحسنها - فأبي فائدة في الكلام مع الفلاسفة
الاولين؟ وأي نفع يترتب على الكلام في عقائد المعتزلة وابطال دلائلهم، مع تقلص
ظل وجودهم من هذا العالم. وفلاسفة العصر لهم فنون أخرى غير فنون أسلافهم،
وسلاحهم الذي يحملونه على أهل الدين غير سلاح أوائلهم، فينبغي للحازم أن يعد
لهم ماينخذلون له وينقادون اليه. فأبي ذنب لمن تسنى تفسيراً على هذا المنهج والمسلك
الذي سلكه الفاضل الطرابلسي. وهلا شد النبهاني رواحله الى هذا الفاضل وتعرف
منه دينه، وداوى أدواء جهله بعقائير معارفه؟ أو سافر الى الفاضل السيد بدر الدين
الخطبي؟ فتعلم منه مايرخرجه من ظلمات جهالته، وينور قلبه بأنوار علومه، فان
الرجل ممن ابتلي بداء (النوك) والجهل، فلا بد له من طبيب حاذق وان قيل إن داء
النوك ليس له دواء (١).

نرى كثيراً من المفسرين يؤل آيات الله تعالى المحكمة ليوافقها مع قواعد هيئة
اليونان، ويطبقها على أصول الحكمة الالهية، أو الطبيعية اليونانية، مع مكابدة
المشاق وتحمل الصعوبات، مع أن ماضهر من الفنون الجديدة التي قام على صحتها
البرهان يمكن تطبيقها وتوفيقها مع النصوص من غير كلفة لموافقة صحيح المعقول
لصريح المنقول.

(١) النوك بضم النون وفتحها مع التشديد: هو الحمق

فلم لم يعترض النبهاني القبوري على مثل تفسير الامام فخر الدين الرازي ؟ وقد شحنه من كلام المتكلمين وفلاسفة اليونانيين ، ومتى كانت هذه المباحث لدى المسلمين قبل أن تترجم كتب الفلاسفة ، فاذا لم يعترض على مثل ذلك فلم يعترض على من يسلك ذلك المسلك في الفلسفة الجديدة التي هي أصح وأولى بالاعتبار من هذيان اليونانيين ؟ فهل هذا الكلام منه إلا تحكم وترجيح بلا مرجح . ثم ان هذا القبوري لم يعترض على تفاسير القوم التي فسروا بها كلام الله تعالى ولم يقصدها - من كلامه - رب العالمين ، بل عد مثل هذه التفاسير من أجل المآثر ، وأعظم التحف والمفاخر ، ولم يتكلم بها أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا غيرهم ، فلم يعترض على من تمنى أن يصنف تفسير يدل عليه كلام الله دلالة صريحة ويصدقه العيان ويؤيده البرهان ؟! فأى ذنب لمن يطلب تصنيف مثل هذا التفسير ؟! (نعم) المذنب هو الذي يطلب تصنيف ذلك من هذا الجاهل القبوري الغبي أحد الغلاة ، ويتكلم معه مثل هذا الكلام ، وهو - على ماسمعنا به ممن رآه - من قراء المولد والتهايل للاموات ، فأين هو من مثل هذه المطالب العالية ؟ فلا شك أن الذي تكلم معه بذلك الكلام ، وطلب منه أن يفسر القرآن ، ومدح كتبه هو من العوام ومن أجهل الناس ، فأى كتاب من كتبه يمدح مع كونها مشحونة بالكاذب والمغالاة في الدين ، ويأسف الناظر أن نظر فيها لحظة على فوات جزء من حياته في العبث ، بل ربما يخس تصوره وذهنه بما عقل منها .

(الكلام على قول النبهاني : إن الذي يتصدى لطلب تفسير مشتمل على العلوم العصرية ملحد) قد سبق منا بيان مقصد هذا المتصدي ، وذكرنا أنه ليس من المذنبين بهذا الامل والمقصد ، ولم يكن مقصده الا توفير سواد المسلمين ، وحسن دعوة أعداء الدين ، وتفهم العوام أجل مقاصد الاسلام ، فكيف يكون مثل هذا هو من الملحدين ، والسالكين غير سبيل المؤمنين ، والنبهاني لا يحكم بالابتداع والالحاد على من يفسر القرآن برأيه ، ويقول : (تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ) الذي هو الفعل الجميل الموجب لصفاء القلب وذكاء النفس ، ولا تفعلون ما ترنقون به من مقام تجلي الافعال الى تجلي الصفات (وأنتم تتلون) كتاب فطرتكم الذي يأمركم بالدين السالك بكم سبيل التوحيد (أفلا تعقلون) فتقيدون مطلقات صفاتكم الذميمة بعقال مأفوض عليكم من الانوار القديمة ، واطلبوا المدد والعون من له القدرة الحقيقية (بالصبر) على ما يفعل بكم لكي تصلوا الى مقام الرضا (و الصلاة) التي هي المراقبة وحضور القلب لتلقي

تجليات الرب ، وان المراقبة لشاقة الا على المنكسرة قلوبهم اللينة أفدتهم لقبول أنوار التجليات اللطيفة ، واستيلاء سطوانها القهرية ، فهم الذين يتيقنون أنهم بحضرة ربهم وأنهم اليه راجعون بفناء صفاتهم ومحوها في صفاته ، فلا يجدون في الدار الا شئون الملك اللطيف القهار ، انتهى .

وهذا تفسير قوله تعالى : (اَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)^(١) .

فانظر أيها المنصف العارف باللغة ومدلولاتها . فمتى دلت ألفاظ هذه الآيات على ماذكره من المعاني ، وهل هو الا تفسير بما تهوى الانفس !؟

وحيث انجر الكلام بنا الى هذا المقام يجب أن نذكر هنا بعض القواعد الاصولية المتعلقة بفن التفسير ، ليميز به الحق من الباطل ، ويعرف الخطأ من الصواب ، ومن الله نستمد الاعانة والتوفيق .

قال شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية الحراني - قدس الله روحه - في كتابه الذي صنفه في أصول التفسير - وهو كتاب مفصل حافل لم يؤلف مثله في هذا الفن - مانصه : (٢) يجب أن يعلم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : (لَتَبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)^(٣) يتناول هذا وهذا . وقد قال أبو عبدالرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن ، كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما ، أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة ، وقال أنس : كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيننا ، رواه أحمد في مسنده ، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، أخرجه في الموطأ ،

(١) البقرة : ٤٤ (٢) النحل : ٤٤

الكلام في (مقدمة التفسير) المطبوعة ضمن المجموع جلد ١٢ ص ٢٢٩ - ٢٧٥ .

(٢) الواقع انه نقل كلام شيخ الاسلام ملخصا كما سيذكره في نهاية هذا الكلام ، وشيخ الاسلام ذكر هذا

وذلك أن الله تعالى قال : كَتَّابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ (١)
وقال : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) (٢) وتدبر الكلام بدون فهم معانيه
لا يمكن . وأيضاً فالعادة تمنع ان يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب
والحساب ولا يستشرحونه ، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم ،
وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم ودنياهم ، ولهذا كان النزاع بين الصحابة في
تفسير القرآن قليلاً جداً ، وهو وان كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة فهو قليل
بالنسبة الى من بعدهم ، ومن التابعين من تلقي جميع التفسير عن الصحابة ، وربما
تكلموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، والخلاف بين السلف في التفسير
قليل ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع الى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ،
وذلك صنفان : أحدهما أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل
على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى ، كتفسيرهم (الصراط
المستقيم) بعض بالقرآن أي اتباعه ، وبعض بالاسلام ، فالقولان متفقان ، لأن دين
الاسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما به على وصف غير الوصف الآخر ، كما
أن لفظ صراط يشعر بوصف ثالث ، وكذلك قول من قال هو السنة والجماعة ، وقول
من قال هو طريق العبودية ، وقول من قال هو طاعة الله ورسوله ، وأمثال ذلك ،
فهؤلاء كلهم أشاروا الى ذات واحدة لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها •

(الثاني) أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل
وتبنيه المستمع على النوع ، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه
مثاله : ما نقل في قوله تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا) (٣) الآية فمعلوم ان الظالم
لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتك للمحرمات ، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات
وتارك المحرمات ، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات ،
فالمقتصدون أصحاب اليسين (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) (٤) ثم ان كلا
منهم يذكر هذا في نوع من انواع الضاعات ، كقول القائل السابق الذي يصلي في اول الوقت ،
والمقتصد الذي يصلي في أثنائه ، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر الى الاصفرار ،

(١) سورة ص : ٢٩ (٢) النساء : ٨٧ ومحمد : ٢٤

(٣) فاطر : ٣٢ (٤) الواقعة : ١٣ ، ١٤

أو يقول : السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة فقط ، والظالم مانع الزكاة قال : وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في تنوع التفسير تارة لتنوع الاسماء والصفات ، وتارة لذكر بعض أنواع المسمى ، وهو الغالب في تفسير سلف الامة الذي يظن أنه مختلف ، ومن التنازع - الموجود منهم - ما يكون اللفظ فيه محتملا للامرين ، اما لكونه مشتركا في اللغة ، كلفظ (القسورة) الذي يراد به الرامي ، ويراد به الاسد ، ولفظ (عسس) الذي يراد به اقبال الليل وادباره ، واما لكونه متواطئا في الاصل لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشخصين كالضائر في قوله : (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) (١) وكلفظ : الفجر والشفع ، والوتر ، وليال عشر ، وأشياء ذلك ، فمثل ذلك قد يجوز أن يراد به كل المعاني التي قالها السلف ، وقد لا يجوز ذلك ، فالاول اما لكون الآية نزلت مرتين فأريد بها هذا تارة وهذا تارة ، واما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معناه ، واما لكون اللفظ متواطئا فيكون عاما اذا لم يكن لتخصيصه موجب ، فهذا النوع اذا صح فيه القولان كان من الصنف الثاني •

ومن الاقوال الموجودة عنهم - ويجعلها بعض الناس اختلافا - أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة ، كما اذا فسر بعضهم (تبسل) بتحبس ، وبعضهم بترتهن ، لأن كلا منهما قريب من الآخر •

(ثم قال فصل) والاختلاف في التفسير على نوعين : منه مامستنده النقل فقط ، ومنه ما يعلم بغير ذلك ، والمنقول اما عن المعصوم أو غيره ، ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره ، ومنه مالا يمكن ذلك ، وهذا القسم الذي لا يمكن معرفة صحيحه من ضعيفه عامته مما لافائدة فيه ، ولا حاجة بنا الى معرفته ، وذلك كاختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف واسمه ، وفي البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، وفي قدر سفينة نوح وخشبها ، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ، ونحو ذلك ، فهذه الامور طريق العلم بها النقل ، فما كان منه منقولا نقلا صحيحا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل ، ومالا - بان نقل عن أهل الكتاب ككعب ووهب - وقف عن تصديقه وتكذيبه ، لقوله صلى الله عليه وسلم (اذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم) وكذا ما نقل عن بعض التابعين وان لم يذكر أنه أخذه عن

أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض ، وما نقل في ذلك عن الصحابة نقلا صحيحا فالنفس اليه أسكن مما ينقل عن التابعين ، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أو من بعض من سمعه منه أقوى ، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ، ومع جزم الصحابي بما يقوله كيف يقال أنه أخذ عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم •

وأما القسم الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود كثير ولله الحمد ، وان قال الامام أحمد ثلاثة نيس لها أصل التفسير والملاحم والمغازي ، وذلك لأن الغالب عليها المراسل ، وأما ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل فهذا أكثر مافيه الخطأ من جهتين - حدثنا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم باحسان ، فان التفاسير التي يذكر فيها كلام هؤلاء صرفا لا يكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين ، مثل تفسير عبد الرزاق ، والقرطبي ، ووكيع ، وعبد ، واسحق ، وأمثالهم - إحداهما : قوم اعتقدوا معاني ، ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها ، والثانية : قوم فسروا القرآن بمجرد مايسوغ أن يريده من كان من الناطقين بلغة العرب ، من غير نظر الى التكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطب به ، فالاولون راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر الى مااستحقته ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان ، والآخرين راعوا مجرد اللفظ ومايجوز أن يريد به العربي من غير نظر الى مايلحح للتكلم ولسياق الكلام ، ثم هؤلاء كثيرا ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة ، كما يغلط في ذلك الذين قبلهم ، كما أن الاولين كثيرا ما يغلطون في صحة المعنى الذي فسروا به القرآن ، كما يغلط في ذلك الآخرون ، وان كان نظر الاولين الى المعنى أسبق ، ونظر الآخرين الى اللفظ أسبق ، والاولون صنفان : تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به ، وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به ، وفي كلا الامرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو ثباته من المعنى باطلا ، فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول ، وقد يكون حقا فيكون خطؤهم في الدليل لا في المدلول ، فالذين أخطؤا فيهما مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذاهب باطلة ، وعمدوا الى القرآن فتأولوه على رأيهم ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبه ، مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الاصم ، والجبائي ، وعبد الجبار والرماني ، والزمخشري ، وأمثالهم ، ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة ، يدس البدع في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون ، كصاحب الكشاف ونحوه ، حتى أنه يروج

على خلق كثير من أهل السنة كثيرا من تفاسيرهم الباطلة ، وتفسير ابن عطية وأمثاله اتبع للسنة ، وأسلم من البدعة ، ولو ذكر كلام السلف المأثور عنهم على وجهه لكان أحسن ، فانه كثيرا ما ينقل من تفسير ابن جرير الطبري - وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدرا - ثم انه يدع ما ينقله ابن جرير عن السلف ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين ، وانما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام ، الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم ، وان كانوا أقرب الى السنة ، لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه ، فان الصحابة والتابعين والأئمة اذا كان لهم في الآية تفسير وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين صار مشاركا للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا .

وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم اني ما يخالف ذلك كان مخطئا في ذلك بل مبتدعا لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله .

وأما الذين أخطئوا في الدليل لا في المدلول - كمثل كثير من الصوفية ، والوعاظ ، والفقهاء ، يفسرون القرآن بمعان صحيحة في نفسها ، لكن القرآن لا يدل عليها ، مثل كثير مما ذكره السلمى في الحقائق - فان كان فيما ذكره معاني باطلة دخل في القسم الاول ، انتهى كلام شيخ الاسلام ملخصا .

فقد علم من كلامه - رحمه الله تعالى - أن من فسر القرآن تفسيرا لا يخرج به عن السنة ، ولا يذكر فيه شيئا يناقض النصوص ، ويذكر ما دل عليه لفظ القرآن بأوجز عبارة ، وألطفها وأوضحها ، ويبين محاسن ما اشتمل عليه الكتاب الكريم من الاحكام ، وما أخبر به من أمور الدنيا والآخرة ، وبيان الحكم المشتمل عليها مما ينطبق على الفنون الصحيحة على ممر العصر والايام - فكيف يكون المتصدي لمثل هذا التفسير والطالب له ملجدا أو مبتدعا ، ويكون النهائي الذي يحكم بغير ما أنزل الله من قوانين محاكم العدلية مسلما على المنهج المستقيم؟! سبحانك هذا بهتان عظيم! قال الله عز ذكره (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) ومجبة الرسول باتباعه لا بالعمل على خلاف شريعته ، ولا بالعلو فيه كما غلا النهائي ، حيث

اعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يخلو منه زمان ولا مكان ، يريد بذلك أنه ما من زمان الا وهو فيه موجود ، وما من مكان الا وهو فيه موجود ، وهذه مقالة شنيعة في الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم ، وانزال له فوق منزلته التي أنزله الله بها ، فان هذا اشراك للنبي صلى الله عليه وسلم في أخص أوصاف الباري جل شأنه (٢) فكيف يدعي محبته من يقول بهذه المقالة ، ثم يصرف عمره في الحكم بغير ما أنزل الله ، ويذب عن البدع ويحث عليها ، ويشتم المحامين عن السنة النبوية ، والمحافظين على التوحيد ، وسائر ماوردت به الشريعة الغراء ، كشيخ الاسلام ابن تيمية وأضرابه ، فهل يتردد المنصف في أن مثل النبهاني أعدى الأعداء لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؟!

(الكلام على قول النبهاني أن الوهابية مبتدعة غير أن ضررهم دون من قبلهم) وأخذ يشتم المسلمين بكل ما هو أهل له ، ولا بد من الكلام على حقيقة ما عليه أهل نجد ، وبيان حال خصومهم وعقائدهم ، ليتبين الناظر المنصف من المبتدع ومن الزائع عن المحجة البيضاء .

قال العلامة الشيخ عبد اللطيف النجدي - من أحفاد الامام الشيخ محمد عليهما الرحمة - في كتابه (منهاج التأسيس في الرد على ابن جرجيس) ونقص عليك شيئاً عن سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ونذكر طرفاً من أخباره وأحواله ، ليعلم الناظر فيه حقيقة أمره ، فلا يروج عليه تشنيع من استحوذ عليه الشيطان ، وأغراه ، وبالغ في كفره واستهواه ، فنقول : قد عرف واشتهر واستفاض من تقارير الشيخ ومراسلاته ، ومصنفاته المسموعة المقروءة عليه ، وما ثبت بخطه ، وعرف واشتهر من أمره ودعوته ، وما عليه الفضلاء النبلاء من أصحابه وتلامذته : انه على ما كان عليه السلف الصالح ، وأئمة الدين أهل الفقه والفتوى في باب معرفة الله تعالى ، واثبات صفات كماله ، ونعوت جلاله ، التي نطق بها الكتاب العزيز ، وصحت بها الاخبار النبوية ، وتلقاها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقبول والتسليم ، يثبتونها ويؤمنون بها ويمرونها كما جاءت ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، وقد درج علمي ١٠٨ من بعدهم من التابعين وتابعيهم من أهل العلم والايمان ، وسلف الامة وأئمتها ، كسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ،

والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله ، وطلحة بن عبيد الله ، وسليمان بن يسار
وأمثالهم ، ومن الطبقة الثانية كمجاهد بن جبير ، وعطاء بن أبي رباح ، والحسن
البصري ، وابن سيرين ، وعامر الشعبي ، وجنادة بن أبي أمية ، وحسان بن عطية ،
وأمثالهم ، ومن الطبقة الثالثة علي بن الحسين ، وعمر بن عبد العزيز ، ومحمد بن
مسلم الزهري ، ومالك بن أنس وابن أبي ذئب ، وابن الماجشون ، وكحماد بن سلمة ،
وحماد بن زيد ، والفضيل بن عياض ، وعبد الله بن المبارك ، وأبي حنيفة النعمان بن
ثابت ، ومحمد بن ادريس ، واسحق بن ابراهيم ، وأحمد بن حنبل ، ومحمد بن
اسماعيل البخاري ، ومسلم بن حجاج القشيري ، واخوانهم وأمثالهم ونظرائهم من
أهل الفقه والاثري في كل مصر وعصر .

وأما توحيد العبادة والالهية فلا خلاف بين أهل الاسلام فيما قاله الشيخ وثبت
عنه من المعتقد الذي دعا اليه ، يوضح ذلك أن أصل الاسلام وقاعدته شهادة أن لا اله
الا الله ، وهي أصل الايمان بالله وحده ، وهي أفضل شعب الايمان ، وهذا الاصل
لا يبد فيه من العلم والعمل والاقرار باجماع المسلمين ، ومدلوله وجوب عبادة الله
وحده لا شريك له ، والبراءة من عبادة ما سواه كائنا من كان ، وهذا هو الحكمة التي
خلقت لها الانس والجن ، وأرسل لها الرسل ، وأنزلت بها الكتب ، وهي تتضمن كمال
الذل والحب ، وتتضمن كمال الطاعة والتعظيم ، وهذا هو دين الاسلام الذي لا يقبل
الله دينا غيره ، لا من الاولين ولا من الآخريين ، فان جميع الانبياء على دين الاسلام ،
وهو يتضمن الاستسلام لله وحده ، فمن استسلم له ولغيره كان مشركا ، ومن لم
يستسلم له كان مستكبرا عن عبادته : قال الله تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ
رَسُولًا أَنْ اَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)^(١) وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)^(٢) وقال تعالى
عن الخليل : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي
فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)^(٣) وقال تعالى عنه :

(١) النحل : ٢٦ (٢) الانبياء : ٢٥ (٣) الزخرف : ٢٦ - ٢٨ .

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوِّيَ الْإِرْبَ الْعَالَمِينَ) ^(١) وقال: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ) ^(٢) وقال تعالى: (وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) ^(٣) وذكر عن رسله نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم أنهم قالوا لقومهم: (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) ^(٤) وقال عن أهل الكهف (إِنَّهُمْ فِيئَةُ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى. وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا. هُوَ لِأَقْوَمُنَا أَتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) ^(٥) وقال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) ^(٦) في مواضع من كتابه، وقال تعالى: (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ) ^(٧).

قال رحمه الله: والشرك المراد بهذه الايات ونحوها يدخل فيه شرك عباد القبور، وعباد الانبياء، والملائكة، والصالحين، فان هذا هو شرك جاهلية العرب الذين بعث فيهم عبد الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فانهم كانوا يدعونها، ويلتجئون اليها، ويسألونها على وجه التوسل بجاهها وشفاعتها، لتقربهم الى الله، كما حكى الله ذلك عنهم في مواضع من كتابه، كقوله تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هُوَ لِأَقْوَمُنَا عِنْدَ اللَّهِ) ^(٨) وقال تعالى:

(١) الشعراء: ٧٥ - ٧٧ (٢) المتحنة: ٤ (٣) الزخرف: ٤٥ (٤) هود: ٥٠، ٦١، ٨٤. (٥) الكهف:

١٣ - ١٥ (٦) النساء: ٤٨، ١١٦ (٧) المائدة: ٧٢. (٨) يونس: ١٨

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) (١)
 وقال تعالى: (فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ، وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (٢).

(قال رحمه الله) ومعلوم أن المشركين لم يزعموا أن الانبياء والاولياء
 والصالحين والملائكة شاركوا الله في خلق السموات والارض ، واستقلوا بشيء من
 التدبير والتأثير والايجاد ولو في خلق ذرة من الذرات ، قال تعالى: (وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ
 مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ، قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ
 مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ؟! قُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) (٣)
 فهم معترفون بهذا مقرون به لا ينازعون فيه ، ولذلك حسن موقع الاستفهام ، وقامت
 الحجة بما أقرؤا به من هذه الجمل ، وبطلت عبادة من لا يكشف الضر ولا يمسك
 الرحمة ، ولا يخفى ما في التنكير من العموم والشمول المتناول لاقل شيء وأدناه من
 ضر أو رحمة ، وقال تعالى: (قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) الى
 (فَأَنْتِ تُسْحَرُونَ) (٤) وقال تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (٥)
 ذكر فيه السلف — كابن عباس وغيره — ايمانهم هنا بما أقرؤا به من ربوبيته وملكه،
 وفسر شركهم بعبادة غيره .

(قال رحمه الله) وقد بين القرآن في غير موضع أن من المشركين من أشرك
 بالملائكة ، ومنهم من أشرك بالانبياء والصالحين ، ومنهم من أشرك بالكواكب ،
 ومنهم من أشرك بالاصنام ، وقد رد عليهم جميعهم وكفر كل أصنافهم ، كما قال
 تعالى: (وَلَا يُأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ

(١) الزمر : ٣ (٢) الاحقاف : ٢٨ (٣) الزمر : ٢٨ (٤) المؤمنون : ٨٤ - ٨٩ (٥) يوسف : ١٠٦

بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ^(١) وقال تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ^(٢) الْآيَةَ . وقال : (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ^(٣)) ونحو ذلك في القرآن كثير ، وبه يعلم المؤمن أن عبادة الانبياء والصالحين كعبادة الكواكب والاصنام من حيث الشرك والكفر بعبادة غير الله .

(قال رحمه الله) وهذه العبادات التي صرفها المشركون لآلهتهم هي أفعال العبد الصادرة منه ، كالحب ، والخضوع والانابة ، والتوكل والدعاء ، والاستغاثة والاستغاثة ، والخوف والرجاء ، والنسك والتقوى ، والطواف بيته رغبة ورجاء ، وتعلق القلوب والآمال بفيضه ومداه واحسانه وكرمه ، فهذه الانواع أشرف أنواع العبادة وأجلها ، بل هي لب سائر الاعمال الاسلامية وخلاصتها ، وكل عمل يخلو منها فهو خداج مردود على صاحبه ، وانما أشرك وكفر من كفر من المشركين بقصد غير الله بهذا وتأهيله لذلك قال تعالى : (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^(٤)) وقال تعالى : (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْنا يُصْحَبُونَ^(٥)) وقال تعالى : (اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ^(٦)) الآية ، وحكى عن أهل النار أنهم يقولون لآلهتهم التي عبدوها مع الله : (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِذْ نَسُوْكُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ^(٧)) . ومعلوم أنهم ماسووهم به في الخلق والتدبير والتأثير ، وانما كانت التسوية في الحب والخضوع ، والتعظيم والدعاء ، ونحو ذلك من العبادات .

(قال رحمه الله) فجنس هؤلاء المشركين وأمثالهم ممن يعبد الاولياء والصالحين نحكم بأنهم مشركون ، ونرى كفرهم اذا قامت عليهم الحجة الرسالية ، وما عدا هذا من الذنوب التي دونه في الرتبة والمفسدة لانكفر بها ، ولا نحكم على أحد من أهل القبلة - الذين باينوا عباد الاوثان والاصنام والقبور - بكفر بمجرد ذنب ارتكبهوه

(١) آل عمران : ٨٠ (٢) التوبة : ٢١ (٣) النساء : ١٧٢ (٤) النحل : ١٧ (٥) الانبياء : ٢٣ (٦) الفرقان : (٧) الشعراء : ٩٧ ، ٩٨ .

وعظيم جرم اجترحوه ، وغلاة الجهمية والقدرية والرافضة ونحوهم من كفرهم
السلف لانخرج فيهم عن أقوال أئمة الهدى والفتوى من سلف هذه الأمة ، ونبرأ
الى الله مما أنتت به الخوارج وقالته في أهل الذنوب من المسلمين .

(قال رحمه الله) ومجرد الايمان بلفظ الشهادة من غير علم بمعناها ولا غسل
بمقتضاها لا يكون به المكلف مسلماً . بل هو حجة على ابن آدم ، خلافاً لمن زعم أن
الايمان مجرد الاقرار كالكرامية . ومجرد التصديق كالجهمية ، وقد أكذب الله
المنافقين فيما أتوا به وزعموه من الشهادة ، وسجل على كذبهم مع أنهم أتوا بالفاظ
مؤكدة بأنواع من التأكيدات ، قال تعالى : (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ
لِرَسُولِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ أَكْذَابُونَ)^(١)

فأكدوا بلفظ الشهادة وان المؤكدة واللام والجملة الاسمية ، فأكذبهم وأكد تكذيبهم
بمثل ما أكدوا به شهادتهم سواء بسواء ، وزاد التصريح باللقب الشنيع والعلم البشيع
الفظيح ، وبهذا تعلم أن مسى الايمان لا بد فيه من الصدق والعمل ، ومن شهد أن
لا اله الا الله وعبد غيره فلا شهادة له وان صلى وزكى وصام وأتى بشيء من أعمال
الاسلام ، قال تعالى لمن آمن ببعض الكتاب ورد بعضاً : (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ
الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ)^(٢) الآية ، وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضِ
وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً)^(٣) الآية ، وقال تعالى :
(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ)^(٤) الآية .

(والكفر نوعان) مطلق ومقيد ، فالمطلق أن يكفر بجميع ما جاء به الرسول ،
والمقيد أن يكفر ببعض ما جاء به الرسول ، حتى أن بعض العلماء كفر من أنكر فرعاً
مجمعا عليه - كتوريث الجد والاخت - وان صلى وصام ، فكيف بمن يدعو
الصالحين ، ويصرف لهم خالص العبادة ولها ، وهذا مذكور في المختصرات من كتب
المذاهب الاربعة ، بل كفروا ببعض الالفاظ التي تجري على السن بعض الجهال ، وان
صلى وصام من جرت على لسانه .

(١) المنافقون : ١ (٢) البقرة : ٨٥ (٣) النساء : ١٥٠

(٤) المؤمنون : ١١١

(قال رحمه الله) والصحابة كفروا من منع الزكاة وقاتلوهوم مع اقرارهم بالشهادتين ، والاتيان بالصلاة والصوم والحج •

(قال رحمه الله) واجتمعت الامة على كفر بني عبيد القداح مع أنهم يتكلمون بالشهادتين ويصلون ويبنون المساجد في قاهرة مصر وغيرها •

(وذكر ابن الجوزي) أنه صنف كتابا في وجوب غزوهوم وقتالهم ، ساه (النصر على مصر) قال : وهذا يعرفه من له أدنى المام بشيء من العلم والدين ، فتشبيه عباد القبور بأنهم يصلون ويصومون ويؤمنون بالبعث مجرد تعمية على العوام وتبليس لينفق شركهم ، ويقال باسلامهم وایمانهم ، ويأبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون •

(وأما مسائل القدر والجبر) والارجاء والامامة والتشيع ونحو ذلك من المقالات والنحل فهو أيضا فيها على ما كان عليه السلف الصالح ، وأئمة الهدى والدين يبرأ مما قالته القدرية النفاة والقدرية المجبرة ، وما قالته المرجئة والرافضة ، وما عليه غلاة الشيعة والناصبة ، يوالى جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويكف عما شجر بينهم ، ويرى أنهم أحق الناس بالعفو عما يصدر منهم ، وأقرب الخلق الى مغفرة الله واحسانه ، لفضائلهم وسوابقهم وجهادهم ، وما جرى على أيديهم من فتح القلوب بالعلم النافع والعمل الصالح ، وفتح البلاد ، ومحو آثار الشرك ، وعبادة الاوثان واليران ، والاصنام والكواكب ، ونحو ذلك مما عبده جهال الانام ، ويرى البراءة مما عليه الرافضة ، وأنهم سفهاء لئام ، ويرى أن أفضل الامة بعد نبيا أبو بكر ، فعمر ، فعثمان ، فعلي ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، ويعتقد أن القرآن الذي نزل به الروح الامين على قلب سيد المرسلين وخاتم النبيين ، كلام الله غير مخلوق ، منه بدا واليه يعود ، ويبرأ من رأى الجهية القائلين بخلق القرآن ، ويحكي تكفيرهم عن جمهور السلف أهل العلم والايمان ، ويبرأ من رأى الكلابية أتباع عبد الله بن سعيد ابن كلاب ، القائلين بأن كلام الله هو المعنى القائم بنفس الباري ، وأن ما نزل به جبريل حكاية أو عبارة عن المعنى النفسي ، ويقول هذا من قول الجهية ، وأول من قسم هذا التقسيم هو ابن كلاب ، وأخذ عنه الاشعري وغيره كالقلانسي . ويخالف الجهية في كل ما قالوه وابتدعوه في دين الله ، ولا يرى ما ابتدعه الصوفية من البدع والطرائق المخالفة لهدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسنته في العبادات والخلوات والاذكار المخالفة للمشروع ، ولا يرى ترك السنن والاخبار النبوية لرأي فقيه ، ومذهب عالم خالف ذلك باجتهاده ، بل السنة

أجل في صدره وأعظم عنده من أن تترك لقول أحد كائنا من كان . قال عمر بن عبد العزيز : لا رأى لأحد مع سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نعم عند الضرورة وعدم الاهلية والمعرفة بالسنن والاعبار وفوائد الاسناد والاسنظهار نصار الى التقليد لا مطلقا بل فيما بتعسر ويحفى . ولا يرى ايجاب مقاله المجتهد الا بدليل تقوم به الحجة من الكتاب والسنة . خلافا لعلاة المقدمين . ويوالي الأئمة الاربعة ، ويرى فضلهم وامامتهم . وأنهم من الفصل والفضائل في غاية ورتبة يفتر عنها المتناول . ويوالي كافة أهل الاسلام وعلساءهم . من أهل الحديث والفقهاء والتفسير وأهل الزهد والعبادة . ويرى المنع من الانفراد عن آئمة الدين من السلف الماضين برأي مبتدع أو قول مخترع . فلا يحدث في الدين ما ليس له أصل يتبع وما ليس من أقوال أهل العلم والاثار . ويؤمن بما نطق به الكتاب وصحت به الاخبار وجاء الوعيد عليه من تحريم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم . ولا يبيح من ذلك الا ما أباحه الشرع وأهدره الرسول . ومن نسب اليه خلاف هذا فقد كذب وافترى وقال ما ليس له به علم . وسيجزيه الله ما وعد به أمثاله من المفترين .

وأبدى رحمه الله تعالى من التقارير المفيدة ، والابحاث الفريدة على كلمه الاخلاص والتوحيد - شهادة أن لا اله الا الله - ما دل عليه الكتاب المصدق . والاجماع المستبين المحقق ، من نفي استحقاق العبادة والالهية عما سوى الله ، واثبات ذلك لله سبحانه على وجه الكمال المنافي لكليات الشرك وجزئياته ، وان هذا هو معناها وضعا ومطابقة ، خلافا لمن زعم غير ذلك من المتكلمين ، كمن يفسر ذلك بالقدرة على الاختراع ، أو بأنه تعالى غني عما سواه ، مفتقر اليه ماعداه ، فان هذا لازم المعنى ، اذ الاله الحق لا يكون الا قادرا غنيا عما سواه ، واما كون هذا هو المعنى المقصود بالوضع فليس كذلك ، والمتكلمون خفي عليهم هذا وفتنوا أن تحقيق توحيد الربوبية والقدرة هو الغاية المقصودة ، والفناء فيه هو تحقيق التوحيد ، وليس الامر كذلك ، بل هذا لا يكفي في الايمان وأصل الاسلام الا اذا أضيف اليه واقترن به توحيد الالهية ، وافراد الله بالعبادة ، والحب ، والخضوع . والتعظيم ، والانابة ، والتوكل ، والخوف ، والرجاء ، وطاعة الله وطاعة رسوله .

هذا أصل الاسلام وقاعدته . والتوحيد الاول توحيد الربوبية والقدرة والخلق والايجاد هو الذي بنى عليه توحيد العمل والارادة ، وهو دليله الأكبر ، وأصله

الاعظم ، كما قال تعالى : (وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)^(١)
إلى آخر الآيات •

قال العلامة ابن القيم رحمه الله :

ان كان ربك واحدا سبحانه
أو كان ربك واحدا أشراك لم
فكذلك أيضا وحده فاعبده لا
فاخصمه بالتوحيد مع احسان
يشركه إذ أشراك رب ثان
تعبد سواء يا أخا العرفان

وهذه الجمل منقولة عن السلف والأئمة من المفسرين وغيرهم من أهل اللغة
اجمالا وتفصيلا •

(وقد قرر رحمه الله) على شهادة أن محمدا رسول الله — من بيان ماتستلزمه
هذه الشهادة وتستدعيه وتقتضيه من تجريد المتابعة ، والقيام بالحقوق النبوية من
الحب والتوقير والنصرة والمتابعة والطاعة ، وتقديم سنته صلى الله عليه وسلم على
كل سنة وقول ، والوقوف معها حيث ماوقفت والانتفاء حيث انتهت . في أصول
الدين وفروعه ، باطنه وظاهره ، خفيه وجليه ، كليته وجزئيه — ماظهر به فضله ، وتأكد
علمه ونبله ، وأنه سباق غايات ، وصاحب آيات ، لا يشق غباره . ولا تدرك في البحث
والإفادة آثاره ، وأن أعداءه ومنازعيه ، وخصومه في الفضل وشانيه ، يصدق عليهم
المثل السائر بين أهل المحابر والدفانر :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه
كضرائر الحسناء قلن لوجهها
فالناس أعداء له وخصوم
حسدا وبغيا انه لدميم

(وله رحمه الله) من المناقب والمآثر ما لا يخفى على أهل الفضائل والبصائر ،
ومما اختصه الله به من الكرامة تسلط أعداء الدين وخصوم عباد الله المؤمنين على
مسيته ، والتعرض لبهته وغيبته • قال الشافعي رحمه الله تعالى : ماأرى الناس ابتلوا
بشتم أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الا ليزيدهم الله بذلك ثوابا
عند انقطاع أعمالهم ، وأفضل الامة بعد نبيا أبو بكر وعمر ، وقد ابتليا من طعن
أهل الجهالة والسفاهة بما لا يخفى ، وما حكيناه عن الشيخ حكاة أهل المقالات عن
أهل السنة والجماعة مجملا ومفصلا : قال وهذه عبارة أبي الحسن الأشعري في كتابه
(مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين) قال أبو الحسن الأشعري :

جملة ما عليه أصحاب الحديث وأهل السنة الاقرار بالله ، وملائكته ، وكتبه
ورسله ، وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
لا يردون من ذلك شيئاً ، والله تعالى اله واحد فرد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ،
وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن الجنة حق وأن النار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب
فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وأن الله تعالى على عرشه ، كما قال : (الرَّحْمَنُ
عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)^(١) وأن له يدين بلا كيف ، كما قال : (لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ)^(٢)
وكما قال : (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)^(٣) وأن له عينين بلا كيف ، وأن له وجهاً جل
ذكره ، كما قال تعالى : (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)^(٤) وأن أسماء
الله تعالى لا يقال إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج ، وأقروا أن لله علماً ، كما
قال : (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ)^(٥) وكما قال : (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ)^(٦)
وأثبتوا السمع والبصر ، ولم ينفوا ذلك كما نفته المعتزلة ، وأثبتوا لله القوة ،
كما قال : (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)^(٧) وقالوا انه
لا يكون في الارض من خير ولا شر الا ما شاء الله وأن الاشياء تكون بشيئة الله
تعالى ، كما قال : (وَمَا تَشَاوُنْ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)^(٨) وكما قال المسلمون ما شاء
الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وقالوا إن أحدا لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل
أن يفعل له ، أو يكون أحد يقدر على أن يخرج عن علم الله ، وأن يفعل
شيئاً علم الله أنه لا يفعله ، وأقروا أنه لا خالق الا الله ، وأن أعمال العباد يخلقها الله ،
وأن العباد لا يقدر أن يخلقوا شيئاً ، وأن الله تعالى وفق المؤمنين لطاعته ، وخذل
الكافرين بعصيته ، ولطف للمؤمنين ونظر لهم وأصلحهم وهداهم ، ولم يلفظ
للكافرين ولا أصلحهم ولا هداهم . ولو أصلحهم لكانوا صالحين ، ولو هداهم لكانوا
مهيئين ، وأن الله تعالى يقدر أن يصلح الكافرين ويلطف لهم حتى يكونوا مؤمنين ،
ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم ، وخذلهم وأصلحهم وطبع على قلوبهم ، وأن
الخير والشر بقضاء الله وقدره ، ويؤمنون بقضاء الله وقدره ، خيره وشره ، حلوه

(١) طه : ٥ (٢) ص : ٧٥ (٣) المائدة : ٦٤ (٤) الرحمن : ٢٧ (٥) النساء : ١٦٦ (٦) فاطر : ١١

(٧) فصلت : ١٦ (٨) التكويد : ٢٩

ومره ، ويؤمنون أنهم لا يسلكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله كما قال .
ويلجئون أمرهم الى الله ، ويشبتون الحاجة الى الله في كل وقت ، والفقر الى الله في
كل حال ، ويقولون أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، والكلام في الوقف واللفظ :
من قال باللفظ أو بالوقف فهو مبتدع عندهم ، لا يقال اللفظ بالقرآن مخلوق ولا يقال
غير مخلوق ، ويقولون أن الله تعالى يرى بالابصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة
البدر ، ويراه المؤمنون ولا يراه الكافرون ، لأنهم عن الله محجوبون ، قال الله تعالى :
(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ مَحْجُوبُونَ)^(١) وأن موسى سأل الله سبحانه الرؤية في الدنيا ،
وأن الله تعالى تجلى للجبل فجعله دكا فأعلمه بذلك أنه لا يراه في الدنيا بل يراه في
الآخرة ، ولم يكفروا أحدا من أهل القبلة بذنب يرتكبه كنجس الزنا والسرقه وما أشبه
ذلك من الكبائر ، وهم بما معهم من الايمان مؤمنون وان ارتكبوا الكبائر ، والايمان
عندهم هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره ، وحلوه ومره .
وان ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم ، وان ما أصابهم لم يكن ليخطئهم ، والاسلام هو أن
يشهد أن لا اله الا الله على ما جاء في الحديث ، والاسلام عندهم غير الايمان ،
ويقرون بأن الله مقلب القلوب . ويقرون بشفاعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وأنها لأهل الكبائر من أمته ، وبعداب القبر ، وأن الحوض حق ، والمحاسبة من الله
للعباد حق ، والوقوف بين يدي الله حق ، ويقرون بأن الايمان قول وعسل يزيد
وينقص . ولا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق ، ويقولون أسماء الله هي الله ، ولا
يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار ، ولا يحكمون بالجنة لأحد من الموحدين
حتى يكون الله تعالى نزلهم حيث شاء ، ويقولون أمرهم الى الله ان شاء عذبهم وان
شاء غفر لهم ، ويؤمنون بأن الله تعالى يخرج قوما من الموحدين من النار على ما جاءت
به الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينكرون الجدل والمراء في الدين ،
والخصومة في القدر ، والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل ويتنازعون فيه من أمر
دينهم بالتسليم للروايات الصحيحة ، ولما جاءت به الآثار التي رواها الثقات عدلا عن
عدل حتى ينتهي ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يقولون كيف ؟ ولا لم ؟
لأن ذلك بدعة ، ويقولون أن الله لم يأمر بالشر ، بل نهى عنه ، وأمر بالخير ، ولم
يرض بالشر وان كان مريدا له ، ويعرفون حق السلف الذين اختارهم الله تعالى

لصحة نبيه صلى الله عليه وسلم . وبأخذون بفضائلهم ، ويمسكون عما تجر بينهم صغيرهم وكبيرهم . ويقدمون أبا بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان . ثم عليا رضي الله تعالى عنهم ، ويترون أنهم الخلفاء الراشدون المهديون . وأنهم أفضل الناس كلهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم . ويصدقون بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله ينزل الى سماء الدنيا فيقول : هل من مستغفر ؟ كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : وبأخذون بالكتاب والسنة ، كما قال الله تعالى : (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) ^(١) ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين . وان لا يتدعوا في دينهم ما لم يأذن به الله ، ويقولون أن الله تعالى يجيء يوم القيامة : كما قال : (وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) ^(٢) وان الله تعالى يقرب من خلقه كيف يشاء ، كما قال تعالى : (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) ^(٣) ويرون العيد والجمعة والجماعة خلف كل امام بر وفاجر . ويثبتون المسح على الخفين سنة . ويرونه في الحضر والسفر ، ويثبتون فرض الجهاد للشركيين منذ بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم الى آخر عصاة تقاتل الدجال ، وبعد ذلك يرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح ، وأن لا يخرج عليهم بالسيف ، وأن لا يقاتلوا في الفتنة ، ويصدتوا بخروج الدجال ، وأن عيسى بن مريم يقتله . ويؤمنون بنكر ونكير ، والمعراج والرؤيا في المنام ، وأن الدعاء لموتى المسلمين والصدقة عنهم بعد موتهم تصل اليهم . ويصدقون بأن في الدنيا سحرة . وأن الساحر كافر ، كما قال الله تعالى ، وان السحر كائن موجود في الدنيا ، ويرون الصلاة على كل من مات من أهل القبلة مؤمنهم وفاجرهم ، ويقولون أن الجنة والنار مخلوقتان . وأن من مات مات بأجله ، وكذلك من قتل قتل بأجله . وأن الارزاق من قبل الله تعالى يرزقها عباده حلالا كانت أو حراما ، وأن الشيطان يوسوس للإنسان ويشككه ويخبطه ، وأن الصالحين قد يجوز أن يخصهم الله تعالى بآيات تظهر عليهم ، وأن السنة لا تنسخ القرآن ، وأن الاطفال أمرهم الى الله ان شاء عذبهم وان شاء فعل بهم ما أراد . وأن الله عالم ما العباد عاملون ، وكتب أن ذلك يكون ، وأن الامور بيد الله تعالى ، ويرون الصبر على حكم الله تعالى ، والأخذ بما أمر الله به ، والابتغاء عما نهى الله عنه ، واخلاص العمل والنصيحة لجماعة

(١) النساء : ٥٩ (٢) الفجر : ٢٢

(٣) ق : ١٦

المسلمين ، واجتناب الكبائر والزنا وقول الزور والمعصية والفخر والكبر والازراء على الناس والعجب ، ويرون مجانية كل داع الى بدعة ، والتشاغل بقراءة القرآن ، وكتابة الآثار ، والنظر في الفقه ، مع التواضع والاستكانة ، وحسن الخلق . وبذل المعروف ، وكف الاذى ، وترك الغيبة والنميمة والسعاية . وتفقد المأكل والمشرب ، فهذه جملة ما يأمرون به ويعتقدونه ويرونه ، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول ، واليه نذهب ، وما توفيقنا الا بالله . وهو حسبنا ونعم الوكيل ، اتينى .

هذاما يعتقداه أهل نجد ومن يوافقهم ، فكيف يقال أنهم مبتدعون ؟ ولكن الامر كما قيل : -

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

وهذا النبهاني الجاهل من أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، ولذلك يرميهم بكل منكر ، واذا ذكر اخوانه المبتدعة ذكرهم بكل تعظيم .

ثم ان الشيخ عبد اللطيف لما ذكر في سنهاجه معتقد جده واتباعه ذكر طرفا من حال هذا المبتدع واخوانه ، وعقد فصلا لذلك . فقال : -

ونذكر لك طرفا من معتقد عباد القبور والصالحين . وحقيقة ما هم عليه من الدين ليعلم الواقف عليه أي الفريقين أحق بالامن ، ان كان الواقف من اختصاصه الله تعالى بالفضل والمن : ولئلا يلتبس الامر بتسويتهم لكفرهم ومجالهم تشفعا وتوسلا واستظهارا مع ما في التسمية من الهلاك المتناهي عند من عقل الحقائق ، من ذلك محبتهم مع الله محبة تأله وخضوع ورجاء . ودعاؤهم مع الله في المهمات والملسات والحوادث التي لا يكشفها ولا يجيب الدعاء فيها الا فاضر الارض والسموات ، والعكوف حول أجدانهم ، وتقليل أعتابهم ، والتسبح بآثارهم ، طلبا للغوث ، واستجابة الدعوات ، واظهار الفاقة ، وابداء الفقر والضراعة ، واستنزال الغيوث والامطار ، وطلب السلامة من شدائد البر والبحار ، وسؤالهم تزويجهم الارامل والايامى ، واللفظ بالضعفاء واليتامى ، والاعتماد عليهم في المطالب العالية ، وتأهيلهم لمغفرة الذنوب والنجاة من الهاوية . واعطاء تلك المراتب السامية ، وجماهيرهم لما آلت ذلك طباعهم ، وفسدت به فطرتهم . وعز عنه امتناعهم ، لا يكاد يخطر ببال أحدهم ما يخطر ببال آحاد المسلمين من قصد الله تعالى ، والاناة اليه ، بل ليس لذلك عندهم

الا الولي الغلاني ، ومتشهد الشيخ فلان ، حتى جعلوا الذهاب الى المشاهد عوضا عن الخروج للاستسقاء ، والانابة الى الله في كشف الشدائد والبلوى ، كل هذا رأينا ، وسمعناه عنهم .

قال : وقد حدث الشيخ مصطفى البولاقى أن بعض رؤساء الجامع الازهر عاد لما اشتكى عينيه وقال له هلا ذهبت الى مولد الشيخ أحمد البدوي ؟ فقد حكى أن انسانا شكأ اليه ذهاب بصره ، فسع قائلا يقول من الصريح أعطوه عين كذا وكذا ، فانظر الى ماخطر ببال هذا المتكلم من تعظيم هذا الميت ، وتأهيله لتلك المطالب التي لايقدر عليها الا الله القاهر الغالب ، وقصد الوساطة هنا على ما فيها ماأظنها تخطر بباله أصلا ، فهل سمعت عن جاهليه العرب مثل هذه الغرائب ؟ التي ينتهي عندها العجب والكلام مع زكي القلب يقظ الذهن قوي الهمة العارف بالحقائق ، ومن لا ترضى نفسه بحضيض التقليد في أصول الديانات والتوحيد ، وأما ميت القلب ، بليد الذهن وضعيف النفس جامد القريحة ، ومن لا تفارق همته التثبث بأذيال التقليد والتعلق على ما يحكى عن فلان وفلان في معتقد أهل المقابر والتنديد فذاك فاسد الفطرة معتل المزاج ، وخطابه محض عناء ولجاج .

قال : وما بلغنا عن بعض علماء زبيد أن رجلين قصدا الطائف فقال أحدهما لصاحبه - والمسئول ممن يترشح للعلم - أهل الطائف لا يعرفون الله انما يعرفون ابن عباس ، فأجابه بأن معرفتهم لابن عباس كافية لأنه يعرف الله ، فأبي ملة صان الله ملة الاسلام لا تمنع هذه الكفریات ولا تدافعها ، وذكر الزبيدي أيضا أن رجلا كان بمكة عند بعض المشاهد قال لمن عنده أريد الذهاب الى الطواف ، فقال بعض غلاتهم مقامك هنا أكرم ، ومن وقف على كتاب مناقب الاربعة المعبودين بمصر - وهم البدوي والرفاعي والدسوقي ورابعهم فيما أظن أبو العلاء - فقد وقف على ساحل كفرهم ، وعرف صفة إفكهم ، وبلغنا عن بعض الثقات أن جماعة من المدعين للعلم بزبيد كانوا يقرؤن صحيح البخاري فاذا فرغوا منه - اما أحيانا أو مطلقا - ذهبوا الى قبر الجبيري أو غيره ، فوقفوا عاكفين - ما شاء الله - وعليهم السكينة والوقار ، وضرب من الخضوع لنازل الحفرة ، قال من نقله : فالله أعلم أهو شيء وجدوه في صحيح البخاري أو غيره أو ماهو ؟ قال : ورأيت في حاشية الشيخ ابراهيم البيجوري على السنوسية نقلا عن الدردير - فيما أظن - عن الشعراني أن الله وكل بقبر كل ولي ملكا يقضي حاجة من سأل ذلك الولي .

فقف هنا وانظر ما آل اليه شركهم وأفكهم ، فأين هذا من قوله تعالى : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان)^(١) وقوله : (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية)^(٢) وقوله : (فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب)^(٣) وقوله تعالى : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه)^(٤) . وقوله تعالى (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم)^(٥) الآية .

وأي حجة في هذا الذي قال الشعراي لو كانوا يعلمون ؟ ولكن القوم أصابهم داء الأمم قبلهم ، فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، واتبعوا ما اتلوا الشياطين . ومن هذا الجنس ما ذكره الشعراي في ترجمة الملقب شمس الدين الحنفي . أنه قال في مرض موته : من كانت له حاجة فليأت قبري ويطلب أن أفضيها له فانسا بيني وبينه ذراع من تراب ، وكل رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجل ، انتهى .

وقد اجتمع جماعة من الموحدين من أهل الاسلام في بيت رجل من أهل مصر وبقربه رجل يدعى العلم فأرسل اليه صاحب البيت فسأله بجمع من الحاضرين ، فقال له : كم يتصرف في الكون ؟ قال : ياسيدي سبعة ، قال : من هم ؟ قال : فلان ، وفلان وعد أربعة من المعبودين بمصر ، فقال صاحب الدار لمن بحضرته من الموحدين : انما بعثت لهذا الرجل وسألته لأعرفكم قدر ما أنتم فيه من نعمة الاسلام ، أو كلاما نحو هذا ، وباب تصرف المشائخ والاولياء قد اتسع حتى سلكه جمهور من يدعي الاسلام من أهل البسيطة ، وخرقه قد هلك في بحاره أكثر من سكن الغبراء وأظلمته المحيطه ، حتى نسي القصد الاول من التشفع والوساطة ، فلا يعرج عليه عندهم الا من نسي عهد الحمى ، وقد ذكر هذا شيخ الاسلام في منهاجه عن غلاة الرافضة في علي ، فعاد الامر الى الشرك في توحيد الربوبية والتدبير والتأثير ، ولم يبلغ شرك جاهلية الاولى الى هذه الغاية ، بل ذكر الله جل ذكره أنهم يعترفون له بتوحيد الربوبية ويقرون به ، ولذلك احتج عليهم في غير موضع من كتابه بما أقرؤا به من الربوبية والتدبير على ما أنكروه من الالهية .

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) الاعراف : ٥٥ (٣) الشرح : ٧ ، ٨ (٥) النمل : ٦٢ (٥) غافر : ٦٠

٥ - غافر : ٦٠

ومن ذلك - وهو من عجيب أمرهم - ما ذكره حسين بن محمد النعمي اليمني في بعض رسائله أن امرأة كف بصرها فنادت وليها أما الله فقد صنع ما ترى ولم يبق الا حسبك . انتهى .

وحدثني سعد بن عبد الله بن سرور الهاشمي رحمه الله أن بعض المغاربة قدموا مصر يريدون الحج ، فذهبوا الى الضريح المنسوب الى الحسين رضي الله عنه بالقاهرة ، فاستقبلوا القبر وأحرموا ، ووقفوا وركعوا وسجدوا لصاحب القبر ، حتى أنكروا عليهم سدة المشهد وبعض الحاضرين ، فقالوا : هذا محبة في سيدنا الحسين رضي الله تعالى عنه ، وذكر بعض المؤلفين من أهل اليمن أن مثل هذا وقع عندهم ، وقد حدثني الشيخ خليل الرشيدي بالجامع الأزهر أن بعض أعيان المدرسين هناك قال : لا يدق وتد في القاهرة الا بأذن السيد أحمد البدوي ، قال فقلت له : هذا لا يكون الا لله أو كلاما نحو هذا : فقال : حبي في سيدي أحمد البدوي اقتضى هذا . وحكي أن رجلا سأل الآخر كيف رأيت الجمع عند زيارة الشيخ الفلاني ؟ فقال : لم أر أكثر منه الا في جبال عرفات ، الا أنني لم أرهم سجدوا لله سجدة قط ، ولا صلوا مدة الثلاثة أيام ، فقال السائل : قد تحملها الشيخ ، قال بعض الافاضل وباب تحمل الشيخ مصراغاه ما بين بصرى وعدن قد اتسع خرقه ، وتتابع فتفه ، ونال رشاش زقومه الزائر والمعتقد ، وساكن البلد ، انتهى .

وقد اشتهر ما يقع من السجود على أعتاب المشهد وقصد التبرك مع ما فيه لا يمنع حقيقة العبادة الصورية ، ومن المعروف عنهم شراء الولدان من الولي بشيء معين ، يبقى رسما جاريا يؤدي كل عام ، وان كانت امرأة فمهرها أو نصف مهرها ، لأنها مشتراة منه ، ولا يمانع هذا الا مكابر ، لأنه استفاض واشتهر فلا ينكره الا مكابر في الحسيات ، وان فقد بعض أنواعه في بعض البلاد فكم له من نظائر ، وهذا أشد وأشنع مما ذكر جل ذكره عن جاهلية العرب بقوله : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ ثَمًّا ذُرًّا مِنَ الْحَرثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيْبًا ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا)^(١) الآية ، وكذلك جعل السوائب باسم الولي لا يحمل عليها ولا تذبح ، وسوق الهدايا والقرايين الى مشاهد الاولياء وذبحها حبا للشيخ وتقربا اليه ، وهذا وان ذكر اسم الله عليه فهو أشد تحريسا مما ذبح للحم وذكر عليه اسم غير الله كعيسى مثلا ، فان الشرك في العبادة أكبر من الشرك

(١) الانعام : ١٣٦

بالاستعانة ، ومن ذلك ترك الاشجار والكأ والعشب اذا كان بقرب المشهد وجعله من ماله .

ومنها الحج الى المشاهد في اوقات مخصوصة مضاهاة لبيت الله ، فيطوفون حول الضريح ، ويستغيثون ، ويهدون لصاحب القبر ويدبحون ، وبعض مشائخهم يأمر الزائر بحلق رأسه اذا فرغ من الزيارة ، كما يفعلون في بيت الله الحرام بعد الاداء وقد صنف بعض غلاتهم كتابا سماه حج المشاهد وهو متداول .
ومنها التعريف في بعض البلاد عند من يعتقدونه من أهل القبور ، فيصسلون عشية عرفة عند القبر خاضعين سائلين .

والعراق فيه من ذلك الحظ الأكبر ، والنصيب الاوفى الاوفر ، بل فيه البحر الذي لا ساحل له ، والمهامه التي لاينجو سالكها ولا يكاد ، ومن نحوه عرف الكفر وظهر الشرك والفساد ، كما يعرف ذلك من له المام بالتواريخ ومبدأ الحوادث في الدين .

ومن شاهد مايقع منهم عند مشهد الحسين ومشهد علي والكاظم عند رافضتهم ، وعبد القادر والحسن البصري والزيير وأمثالهم عند سنتهم ، من العبادات ، وطلب العطايا والمواهب والتصرفات ، وأنواع الموبقات ، علم أنهم من أجهل الخلق وأضلهم ، وأنهم في غاية من الكفر والشرك ماوصل اليها من قبلهم ممن ينتسب الى الاسلام ، والله المسؤول أن ينصر دينه ، ويعلي كلمته بمحو هذه الاوثان ، حتى يعبد وحده ، فتسلم الوجوه له ، وتعود البيضاء كما كانت ليها كنهارها .
ومن ذلك — وان كان يعلم مما تقدم — اتخاذها أعيادا ومواسم مضاهاة لما شرعه الله ورسوله من الاعياد المكانية والزمانية .

ومنها مايقع ويجري في هذه الاجتماعات من الفجور والفواحش ، وترك الصلوات ، وفعل الخلاعات ، التي هي في الحقيقة خلع لريقة الدين ، والتكليف ، ومثابرة لما يقع في أعياد النصارى والصابئة والافرنج ببلاد فرنسا وغيرها من التهور والطبول والزمرور والخمور ، وبالجملة فما أحدثه عباد القبور يعز حصره أو استيفاءه انتهى كلام الفاضل الشيخ عبد اللطيف في منهاجه .

فيأياها النبھاني العاقل هذا حال اخوانك ومن هو على شاكلتك ، ثم انك لم ترض بهذه المصائب والمثالب والمعائب حتى زدت في الطنبور نفمة ، وذلك اعتقادك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موجود في كل مكان وزمان ، ونظمت قصيدة من

شعرك الركيك الفاسد في ذلك ، ثم مع ذلك تدعي أنك محب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلا ثم كلا ، وقد أرسله الله تعالى لمحق الشرك وازالة الضلال ، وأنت بجهلك تريد تبديل الاحوال (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) ^١ فمن المبتدع ؟ أمن يحافظ على السنة النبوية ويذب عنها من يحاول نقصها في كل كلية وجزئية ، أم أمثالك الذين يدعون مع الله لها آخر ، ويطعنون على أختيار الامة ، وهداة المسلمين ، ويذوبون عن البدع وأهل الاهواء ، ويحكمون بغير ما أنزل الله . ويقدمون المواد القانونية على الآيات القرآنية والاحاديث النبوية؟! أفلا يستحي من هذه بعض أوصافه أن يثلب أهل الايمان ، وحلة القرآن وحفاظ سنة سيد ولد عدنان؟! ولكن الامر كما ورد في الحديث الصحيح : (ان ما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ما شئت) .

ولهذا النبھاني عدة قصائد في الاستغاثة والالتجاء الى غير الله ، وهي مطبوعة مشهورة ، ولولا أن يدنس القلم ذكرها لذكرتها ، فانها تؤيد ما ذكره الشيخ عبد اللطيف رحمه الله عنهم ، وها أنا أذكر شعر بعض الغلاة المشتغل على ما لهم من الغلو في القبور والمشاهد ، من ذلك قول بعض العراقيين : -

نبا من بنات الماء للكوفة الغمرا	سبوح سرت ليلا فبحان من أسرى
تسد جناحا من قوادمه الصبيرا	تروم بأكناف الغرى لها وكسرا
كساها الأسي ثوب الحداد ومن حلي	تجملها بالصبر لاعجها أعرى
جرت فجرى كل الى خير موقف	يقسول لعينيه قفا نيك من ذكرى
وكم غمرة خضنا اليه وانما	يخوض عباب البحر من يطلب الدرا
تؤم ضريحا ما الضراح وان علا	بأرفع منه لا وساكنه قدرا
حوى المرتضى سيف القضا أسد الشرى	على الذرى بل زوج فاطمة الزهرا
مقام علي كرم الله وجهه	مقام على رد عين العلى حسرى
أثير مع الافلاك خالف دوره	فمن فوقه الغبرا ومن تحته الخضرا
أحظنا به وهو المحيط حقيقة	بنا فتعالى أن نجيط به خيرا
تطوف من الاملاك طائفة به	فتسجد في محراب جامعه شكرا
وحزب من العالين يهتف بالثنا	عليه بوحي كدت أسمعها جهرا

جدير بأن يأوى الحبيج لبابه ويلمس من أركان كعبته الجدران
حرى بتقسيم الفيوض وما سوى أبي الحسنين الا حسنين بها أحرا
ثرى منه بالدنيا الثراء لتسرب وللمذب الجاني الشفاعة في الأخرى
بأهداب أجفان وأحداق أعين وحر وجوه عفرتها يد العبرا
أملنا القذى عن جفن سيف مذكر أجل سيوف الله أشهرها ذكرا
فوالله ما ندري وقد سطع السنا جلونا قرابا أم جلينا له قبرا
وجاء من العراقيين من خمس هذه الابيات فقال :

سرينا لنمحو الاثم أو نغشم الاجرا لزورة من تمحو زيارته الوزرا
وسارت وقد أرخى علينا الدجى سترا نبا من نبات الماء للكسوفة الغرا
سبوح سرت ليلا فسبحان من أسرى

تخيرتها دون السفائن مركبا واعدتها للسير شرقا ومغربا
فكانت كمثل الطير إن رمت مطلبا تمد جناحا من فوادمه الصبا
تروم باكناف العرى لها وكرا

وكانت تحلى قبل هذا تجملا وقد غذيت فيما أمر الذي حلا
أظن على فقد الشهيد بكر بلا كساها الاسبى ثوب الحداد ومن حلى
تجملها بالصبر لاجها أعرى

الى موقف سرنا بغير توقف يزيد بكائي عنده بتلهف
ولما تجاريننا بفلك ومدف جرت فجرى كل الى خير موقف
يقول لعينه قفا نيك من ذكرى

ترامت بنا فلک فيانعم مرتى الى درة الفخر التي لن تقوما
فخضنا اليه البحر والبحر قد طما وكم غمرة خضنا اليه وانما
يخوض عباب البحر من يطلب الدرا

الى مرقد يعلو الساكنين منزلا وقد نال ما نال الضراح من العلى
نسير ولا نلوى على السير معدلا تؤم ضريحا ما الضراح وان علا
بأرفغ منه لا وساكنه قدرا

فزوج ابنة المختار كأن غضفرا علا وارضته الطهر من سائر الورى
تعرف من هذا الذي طال مفخرا حوى المرتضى سيف القضا أسد الثرى
على الذرى بل زوج فاطمة الزهرا

عيون الورى ان لاحظت منه كنهه ترد عن التشبيه حصرى فينتهوا
وان مقاما لاترى العين شبهه مقام علي كرم الله وجهه
مقام على رد عين العلى حصرى

لقد سير الغبراء خضراء قبره وأشرق فيها في الحقيقة بدره
وقد وافق الاعجاز لله دره أثير مع الافلاك خالف دوره
فمن فوقه الغبرا ومن تحته الخضرا

أحاط بنا علما فليت سليقة تفيد علوما عن علاه دقيقة
مجازا وقد جزنا اليه طريقة أحظنا به وهو المحيط حقيقة
بنا فتعالى أن نحيط به خبرا

فطلق في مقام حل فيه ولبسه تر العالم الاعلى حفيضا بتربه
فكالمسجد الاقصى وأي تشبه تطوف من الاملاك طائفة به
فتجد في محراب جامعه شكرا

فأثنى عليه من علا مثل من دنا وكل بما أتى أجاد وأحنا
فحزب من الدانين اذ ذاك أعلننا وحزب من العالين يهتف بالثنا
عليه بوحى كدت أسمعه جهرا

حججنا الى بيت علا بجنابه عشية آويننا الى باب غابه
ومن قد سمت أركان كعبتنا به جدير بأن يأوى الحجيج لبابه
ويلمس من أركان كعبته الجدرا

فيوض علوم الله من قدم حوى فقسيم منها ما أفاد وما احتوى
ومن قبل ما يشوى ومن بعد ما شوى حري بتقسيم الفيوض وما سوى
أبي الحسنين الا حسنين بها أخرى

ظللنا وكم جان لديه ومدن وذو حاجة منا وصاحب مطلب
نقبل والاجفان تهمل بصيب ثرى منه في الدنيا الثراء لتسرب
وللسذب الجاني الشفاعة في الأخرى

خدمنا أمير المؤمنين بموطن نعفر فيه الوجه قصد تيمن
ويخدم قبر المرتضى كل مؤمن بأهداب أجفان واحداق أعين
وحر وجوه عفرتها يد الغبرا

أزلنا غبارا كان في قبر حيدر فلاح كعمد المشر في الشهر

ولا غرو في ذلك المكان المطهر أمطنا القذى عن جفن سيف مذكر
أجل سيوف الله أشهرها ذكرا

تبدي سنى أنواره وتبيننا غداة جلونا قبره فتزيننا
فحير افهامنا وأبهر أعيننا فوالله ماندرى وقد سطع السنا
جلونا قرابا أم جلينا له قبرا

وقال صاحب الأصل وقد خصها آخر من شعراء العراق أيضا :

شمخت رفعة وعزت منسالا واستطالت فخامة وجلالا
واستخفت من الجبال الثقالا قبة المرتضى على تعالي
شأنها عن موازن وعديل

بزغت في الدجى كبدر منير وتبدت تزهو بحسن نضير
فهي أكسير كل قلب كسير من نضار صيغت بغير نظير
في مثال منزه عن مثل

قد صفا كالمرآة منها صقال فبدا للنجوم فيها مثال
فلك لا يحيط فيه خيال فوقها كالاكليس لاح هلال
رمقته السهى بطرف كليل

ملأت قبة العوالم بالضو واستقلت بنفسها في ذرى الجو
بعلى علت فضا ضرها لو كبرت فاستقلت الفلك الدو
وارعنها بأن يرى ببديل

حل فيها نور الهدى فتحت ودنت فوق قبره فتدلت
ملئت هيئة فعمزت وجلت جللت مرقدا جليلا تجلت
فوقه هيئة المليك الجليل

سكها سامت السماك مقاما حين ضمت ذلك الامام الهماما
أبدا شأو شأنها لن يسامى فعلى قبة السماء اذا ما
فضلوها أقول بالتفضيل

هي عين وللتجلي سجنجل كل ذات بعكسها تتمثل
وبسراة فكر من يتخيل هي باء مقلوبة فوق تلك ال
نقطة المستحيلة التأويل

دار مجد من بابها السعد يدخل دار في صحنها الهدى في تسلسل

في عيلاها مهما تشا أبدا قل هي فلك بل ما عليه استوى الفلا
ك ومن فوق لوحه من قبيل
كعبة نحوها قطعنا الفجاجة بحماها قد آوت الحجاجا
ماترى عند بابها محتاجا هي كهف النجاة طور المناجا
ة شمال العفاة ماوى الدخيل

هي كز لدرة الفخر موئل فد حوت كل جوهر متفضل
لس فيها لعارض الدهر معقل هي حق للجوهر الخاص مالا
مرض العام عندها من مقيل
هي شمس الهدى لمن ضل دوما مارأى من بها اهتدى قط لوما
كم هدت من غوى الجهالة قوما هي ظل ماضل من قال يوما
بحماها من تحت ظل ظليل
صدف قد غلت بدر ثمين وامام للمؤمنين مبين
كنزها قد حوى لخير دفين هي غمد لذي فقار بطين
من سيوف الله العلي صقيل

حصرة فوفها الجلال تجلى أجرة في عرينها الليث حلا
كيف تدنو الاسود منه محلا هي غاب ثوي به أسد اللاله
عليّ بصدر أشرف غيل
هو سيف القضا بأيدي قدير نصله ينتضي بيوم عسير
حيدر يضرم الوغى بسعير ذلك ليث أردى العدى بزئير
وحسام أبادهم بصليل
هي روض ونعم مرعى ومنهل لأمير النحل الامام المفضل
دار فيها كأس الرحيق المسلسل كورة لليسوب مازج صرف ال
شهد منها أطائب الزنجيل

فلك دائر منير بشهب نورها ظاهر بشرق وغرب
هونت في تدبيرها كل صعب كرة مستديرة فوق قطب
دبر الكائنات بالتعديل
صاغها الله من محاسن تعجب وطلاها من نوره المتلهمب

فهي أسنى سبيكة لمذهب أفرغتها يمنى المفاخر من تبرر
المعالي في قالب التجميل

صبغة الله زينت بالتحلى وعليها الاملاك للوحي تملى
مذنا الروح نحوها بالتدلي صبغتها بالنور أيدي التجلي
بقدامى من خافقي جبرئيل

لا ط الخيال وقتا فوقتا بحلاها ولا يخيل نعتها
جمعت ذاتها فضائل شتى فغشاها النور الالهي حتى
بخيال جلت عن التخيل

أحرزت من أزاهر الشرف الغض وأحاطت بالمجد في الطول والعرض
كل فضل من فضلها يتبعض قد حوى فضل بابها جبل الفضل
ل التي قد غنيت عن تفصيل

جلت تزدهى بجسم صقيل فهي زهراء مالهها من مثيل
مذ زفت لخير مولى جليل كعروس بدت بوجه جميل
تسبي شمس الضحى بخد أسيل

هي بدر الدجى بغير سرار هي شمس ضاءت بغير استتار
زندها في كلا الجديدين وار هي في الليل مثلها في نهار
وبوقت الضحى كوقت الاصيل

نالت النيرات من ذلك نيلا يستييل المحب للحب ميلا
فلهاوت منها تقبل ذيلا قابلتها البدور باللثم ليلا
وشموس النهار بالتقيل

كسراج لنا تجلت مساء فاستعارت منها الدراري سنساء
زيتها التبر يستير ضياء صحتها كالقنديل يزهو صفاء
وهي تحكي ذبالة القنديل

هل محب يحنو على ما أفا سي من غرام دك الجبال الرواسي
مالجرحي سواكسا اليوم أسي ياخيلي والخليل المواسي
منكنا من يجب نفع الخليل

بالفرين حاجة أقتضيهما وبكوفان بلغنة أرتجيهما
فبحق الزهرا وحق بنيهما علاني بذكر من حل فيهما
ان قلبي يطيب بالتعليل

ذر سجايا أصفى من الدر والدر ومزايا لسم نحصها بالتفكر
أخبرت عن نعوته الكتب الفر نعتة بالزبور جاء وبالفسر
قان بل بالتوراة والانجيل

هل أتى في سواه بالذكر تملى آي وحي بها تسامى محلا
وصفه بالقرآن قد جاء يتلى الامام المبين أحصى به الله
جميع الاشياء في التنزيل

صدره نسخة لما كان في الكسو ن قديما من خطها الناس أملو
هو علم الكتاب في علمه أو فهو اللوح بل وما خط في اللو
ح لديه مقيد التسجيل

كم ثلنا منه بكأس روي فأمطبا برشفها كل غي
ان ترم أن تفوز منها بري سل بسيل لسلسيل علي
فعلى ابن السيل قصد السيل

زره مهما أصابك الخطب مهما تلق غيثا همى وبحرا خضما
فأجل في راحه عن القلب هما هو ساقى الحوض الذي ليس يظما
من حبه يداه بالتنويل

كم غليل روي بفيض مقييل مارويناه عن فرات ونيسل
كم أفاضت كفاه من سلسيل هو ذات الشفا لكل غليل
وشفاء لذات كل غليل

صاغه الله من ندى وبراه وعلى فطرة السخا سواد
بحر جود ما للعفاة سواه عيلم كل قطرة من نداد
هي غيث لكل عام محيل

جنت أشكو اليه بثي وحزني حاش لله أن يخيب ظنسي
نلت من فضله قصارى التمني عرض حلال لاغر وان طال أي
لذت في جاهه العريض الطويل

غيث فضل يهني بفيض غزير وغيث من كل أمر عسير
كيف أرضى منه بمن يسير طامع من نواله بكثير
ما أنا منه قانع بقليل

كم عديم أحييا بجود عميم وهدى حائرا نهج قويم

ولا عتابه بقلب سليم جئت مستهديا هدى من كريم
 لست مستجديا جدي من بخيل
 لجناحي أراش بعد تلاقي بقدامى أفضاله والخصوافي
 قبره كعبة غدا للطوافي من ثراه لي ثروة وحذافي
 «ردعاني بهن أغنى معيل
 كل من زار قبره أمن الهو ل وان كان ذنبه يملأ الجو
 ماتراني وقد أحاط بي السو زرتة والدموع تهمل والاو
 زار تهال عن كئيب مهيل
 حبه بارز بدا من ضميري وعلينا فرض ولاء الامير
 بولاه كم اغتنى من فقير ليس لي بعد حبه من نكير
 يفن غني شيئا ولا من فقير

(وقال أيضا الشاعر العراقي) :

حضرة الكاظمين منها المرايا قد حكت قلب صب أهل الطوف
 صبغتها يد التجلي بكف كبرت عن تشبيها بالكفوف
 وروت عن غدير خم صفاء فترأت لطرفي المطروف
 صور الكائنات فوجا بفوج سابحات في موجها المكفوف
 من قناديل عسجد زينوها بصفوف تلوح أثر صفوف
 رسم تعليقها الايق تبدي كسطور منضودة من حروف
 روضة للصدور فيها ورود بأكف الالحاظ ذات قطوف
 قد أظلت شمساً بغير كسوف وأقلت بدرا بغير خسوف
 وطوت كاظما ولقت جوادا فازدهت بالمطوى والملفوف
 شرفت فيهما وما كل ظرف حاز تشريفه من المظروف
 وغدت للقلبين مثل شغاف رق لطفها كقلبي المشغوف
 وهسي لما على السماء أنافت بهما قلت ياسما المجد نوفي
 كلما زرتها أقول لعيني هذه كعبة الجلال فطوفي
 بحماها كم من أوف من الزو ار فازت من المنى بصفوف
 فأخشى صروف دهري واني بحماها يخشى الزمان صروفي
 حرم آمن فن كان فيسه

زمر كاستدارة الخدروف
 ونبردكم قد كفت من كوفي
 لصرير الاقلام أبهى شنوف
 مرغم بالتراب شم الأنوف
 دمه من بروقهها بسيفوف
 وهي لاتثني عن المالسوف
 تتمنى الاملاك فيه وقوفي
 كان منها اغائة الملهوف
 مروة المرمين مأوى الضيوف
 طرقت بابيه أكف الختوف
 ي وأخراي لست بالمصروف
 سحب الفضل أبحر المروف
 رافل من ولأثم بشفوف
 قطع المدلجون كل تنسوف

ومطاف به استدارت فطافت
 كم لرشد من حائري هدته
 شنتها العلياء لما أصاقت
 شمخت عزة بأنف أشم
 أرغت مارن الصبباح فأجرت
 ألفت نفسي الثناء عليها
 لاتلمني على الوقوف بياب
 هو باب مجرب ذو خواص
 ملجأ العاجزين كهف اليتامى
 من يروم الفتوح مما سواه
 أنا عنه حيا وميتا بدنيا
 هم بنو المرتضى وعتره طه
 فليمني من شاء أني مسوال
 فعليهم مني الثنا ما اليهم

(وقال)

وذي العرش قد أربى الى حضرة القدس
 فان الذي في ضمنه آية الكرسي
 بين الشموع لهم عليه تهافت
 سياره من أنجم وثوابت

الا أن صندوقا أحاط بحيدر
 فان لم يكن لله كرسي عرشه
 وقال وقد شاهد الزوار ليلا تنهافت على
 صندوق قبر المرتضى زواره
 فكأنه بدربه قد أحذقت

(وقال لما زار موسى الكاظم)

غداة حللنا مرقدنا منك مأنوسا
 لانك بالوادي المقدس ياموسى
 الى غير ذلك من شعره الذي جمعه بمجموع سماه (الباقيات
 الصالحات) وكله على هذا المنهج ، ومن العجب من يسلك هذا المسلك
 كيف يدعي أنه من أهل السنة وليس من الروافض .
 وله أبيات في الشيخ عبد القادر الكيلاني وهي هذه وقد سلك فيها

خلعنا نفوسنا قبل خلع نعالنا
 وليس علينا من جناح بخلعها
 من الغلو مسلك ما نقلناه من شعره :

أبيات شعري حكى آيات تنزيل
 تتلى بحضرة مددوحي بترتيسل

فشنفتها بتكبير وتهليل
 فعطر النثر منها طيب تأويل
 أحب بكعبة النهدين عطلول
 فهتم ما بين عسان ومعسول
 في مدح مولاي عبد القادر الجيلي
 دور تسلسل لا في فيد تعطيل
 يحى ويهمى بأفضال وتفضيل
 لعينه عينه من غير تمثيل
 كم فزت منها بتعفير وتكحيل
 فلك الفتوة ينجي كل محمول
 سفن الولاية لا في ساحل النيل
 مشكاته فيه لا في ضوء قنديل
 بحر محيط بمعقول ومنقول
 ات لا قبض بسط العرض والطول
 في جهة كلت منه بالكليل
 باب الشهود لديه غير مقبول
 له فجاء بكشف غير معلول
 منذ الست ومن جيل الى جيل
 تالله في كل معنود ومحلول
 الاتقياء ومأوى كل مذلول
 دوح الفعال وحامي كل مخذول
 كنز المقلين مذخوري ومأمولي
 فخري أنال بحشري منه تنويلي
 مددت باعا به علقت كشكولي
 عن حصرها كل اجمالي وتفصيلي
 فشاغلي فيه أضحى عن مشغولي
 وهبي بأني سواه بان تخييلي
 موسى وعيسى بتورا وانجيل

وعت من المسلا الأعلى لها اذن
 قد انظوى العالم الاسى بأحرفها
 عن حسنها قاصرات الطرف قد قصرت
 ماست دلالات تعاطيني الرضاب طلا
 تاهت على السؤلؤ المشور اذ نظمت
 قطب عليه مدار العالمين له
 غوث وغيث لراجيه وخائفه
 سجنجل لتجلى ذاته ظهرت
 جلاء نقطة عين العين تربته
 طوفان علم به نوح النبوة في
 خضم فيض بعيد الغور فيه رست
 مصباح فضل نبراس الجمال زهت
 نور بسيط على وجه البسيطة بل
 قرآن جمع لاشتات الهبات من الدر
 فرقان فرق العلى آياته رسمت
 مفتاح غيب بلا ريب بيرزخه
 في عالم الغيب قد سحت مشاهدة
 توارثت أولياء الله بعثته
 في الشائين له حال تصرفه
 باب الرجاء وقطب الاولياء وفخر
 عين الكمال وسلطان الرجاء ومم
 ملجا المريدين منجى اللاندين به
 ذخري وفيه غنى فقري ومدحته
 الى موائده اللاتي حوت مددا
 تفصيل اجمال حزه من خوارقه
 نلت البقا بغنائى في مجبته
 وبان صحوي بسحوي في هواه وغن
 أنى من العلم في مثل الذي أتيا

ندب اذا عم خطب أودجا حزن
 تهديك بهجته الفرا وغنيته
 فساده عند نادية لفسادحة
 وقبل الترب من أعاب سادته
 فسدره المنتهى لاشك حضرته
 ترى المحبين صرعى تحت قبته
 أما تراهم وفي أطمارهم ربضوا
 اليه من موصل قد جئت منقطعاً
 كم ظن قوم قبولاً منه تم لهم
 فدع رجالاتي على جهل تعنفي
 وابغ رضا الله في مدح تقدمه
 عليه أزكى سلام الله تتبعه
 مادوخت ديمة الرضوان مرقده

الى غير ذلك من الشعر الكثير في هذا الباب ، ولو استوعبناه لظال به الكتاب ،
 وهذا حال خواصهم ، وقد سمعت غلوهم فكيف حال عوامهم ؟ وقد حكى العراقيون
 أن قبر عبد القادر قد غدا اليوم قبلة يطوفون عليه طواف الحجيج بيت الله الحرام ،
 وينذرون له النذور ، ويوقدون السرج على رغم ما جاء به دين الاسلام ، وقد اتخذ
 ذراري الشيخ ذلك غنيمة يرتعون فيها كما ترتع الانعام ، وبعض سفهاء العقول ، وناقصوا
 الاحلام يتخذهم وسائل في الدنيا والآخرة ، وحكى العراقيون أن الكيلانيين اليوم
 أشر أمة في العراق ، وعائلتهم أصبحت بلاء على بغداد ، ومن العجيب أن كبير تلك
 العائلة (النقيب) يدعى أنه سلفي العقيدة ، وهو من سدنة الاصنام ، لم يزل يأكل
 النذور المحرمة من الهندين وغيرهم ، نسأله تعالى أن يطهر الارض من أمثال هؤلاء
 المعادين لدين الله تعالى ، والمضادين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أحق هذا
 النقيب بقول القائل :

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت في البيداء أبعد منزل
 وقد سمعت أن بعض أدباء بلدته هجاه بقصائد كثيرة ، منها قصيدة مطلعها :
 أرجح بغداد واني غريبها على جنة الفردوس لولا نقيها
 واني أسأل الله تعالى أن يبصر المسلمين من أهل الهند وغيرهم حتى لا تكون

أموالهم غنيمة لهؤلاء السفهاء ، ويصونهم من كيدهم ، انه على كل شيء قدير ، ولولا ملاحظة أن يطول الكتاب لاتينا على مفصل أحوال هؤلاء السدنة وعباد الاصنام ، وما ذكرناه كاف ان شاء الله تعالى في هذا المقام .

فظهر مما ذكرنا أن قول هذا الجاهل : أن الشيخ محمد ومن وافقه من أهل نجد وغيرهم أهل بدعة هو قول عاطل ، بل هم الفرقة الناجية ان شاء الله ، وهم أهل السنة والجماعة ، وهم عصاة الحق ، وان المبتدعة هم هذا الجاهل الغبي ومن على شاكلته لما سمعت من جهلهم وضلالهم ، ولكن الامر كما قيل في المثل السائر : رمثني بدائها وانسلت .

وأما الكلام على ما ذكره من القدح والجرح في كتب الشيخين وأضرابهما فسيأتي البحث عنه مفصلاً فيما خصص له من فصول كتابه وعادته ودأبه تكرير الكلام من غير طائل ، بل ليعظم حجم الكتاب فيفرح به .

أما قوله : وقد طبعوا الى الآن عشرة كتب - ثم عددها مع الطعن والقدح فيها - فيقال له : أخطأت في الحساب ، كما قد زغت عن جادة الحق والصواب ، بل ان الذي طبع من كتب الشيخين ونحوهما نحو مائة كتاب ما بين مختصر ومفصل ، منها ما طبع في مصر ، ومنها ما طبع في المطابع الهندية ، ومنها ما طبع في مكة شرفها الله ، وكل هذه الكتب كنوز علم ومصايح هدى والحمد لله ، كما أنها شجى لاعداء الدين والمبتدعة الملحدين ، واني أبشرك أيها المبتدع أن جميع كتب شيخ الاسلام وأصحابه ستطبع قريباً ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، حيث يظهر بها زيغ الملحدين ، وافتراء السبكي وابن حجر وأضرابهما من المتبعين لهواهم ، الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، ثم ختم كلامه على الكتب بذكر شيء من قصيدته التي سماها طيبة الغراء ، وهي التي ذكر فيها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موجود في كل مكان وكل زمان ، غير أنه لم يأت بجميع آياتها هنا ، وزعم أنه حاكى بها قصيدة بانث سعاد ، فيقال له : لقد حكيت ولكن فاتك الشنب ، وشعره ركيك جدا ، وستكلم عليه فيما يناسب من مباحث الكتاب ، ثم نقول : ان هذه القصيدة التي ذكرها لا مناسبة لها مع البحث الذي هو بصدده ، وهكذا مباحث كتابه كلها على هذا المنوال لم يزل يذكر مباحث غير متناسبة ، ويورد أموراً لاتفيده شيئاً ، ولم يكن قصده - والله أعلم - الا انتفاخ كتابه ، وبيان رعوته وجهله ، نسأل الله تعالى العافية مما ابتلاه به .

(ثم ان النبھاني) ذكر القسم الثاني من المقدمة ، وقال : انه يشتمل علي اثني عشر تنبيها يلزم معرفتها لمن أراد مطالعة هذا الكتاب ، وذكر التنبيه الاول ، ونبيه بيان أحوال ابن تيمية والتحذير عنه ، وأنه ومن وافقه على ضلال ، ثم ذكر التنبيه الثاني وهو بمعنى التنبيه الاول ، غير أنه قال : انه لا يكفر ابن تيمية وأصحابه لأنهم من أهل القبلة ، وأطال الكلام في ذلك . ثم ذكر التنبيه الثالث ، وفيه ذكر رؤياه لابن السبكي وابن تيمية قائما والسبكي قاعدا على عجزه مع رجل ثالث ظنه صاحب الصارم المنكى ولم يعلم مقصده من هذا التنبيه . ثم ذكر التنبيه الرابع وقد اشتمل على بيان منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه صاحب الشفاعة العظمية ، والمقام المحسود ، وأن أهل العلم حثوا على دعائه والاستغاثة به ، وطلب ما يطلب من الله تعالى منه ، وأنه لم يمنع منها سوى محمد بن عبد الوهاب وأصحابه ، والسيد صديق حسن خان وحزبه ، وأن هذا الرجل هو الذي طبع كتب السنن وأضل الناس بها . ثم ذكر التنبيه الخامس وفيه الشناء على ابن تيمية وابن القيم ، ودفع التناقض بين ما كان منه من المدح والذم نظرا لاختلاف الحالات ، وتغاير الجهات ، وتأيد ذلك بما نقل من كتاب الصواعق الالهية للشيخ سليمان بن عبد الوهاب الحنبلي ، ثم ذكر التنبيه السادس ، وفيه اعتقاده في ابن تيمية وتلامذته أنهم من أئمة الدين وأكابر علماء المسلمين ، وقد نفعوا الأمة المحمدية بعلمهم نفعاً عظيماً ، وإن أساؤا غاية الاساءة في بدعة منع الزيارة والاستغاثة وأضروا بها الاسلام والمسلمين ، وهذا الذي استوجب رده عليهم حسماً لمادة الفساد الى آخر ما هذى به ، ثم ذكر التنبيه السابع ، وفيه يقول اياك أيها المسلم أن يخذعك الشيطان بقول أقوال ابن تيمية وأصحابه ، ويقول لك أنهم من أكابر أهل العلم ، الى آخر هذيانه الذي أورده للتنفير عن أقوال الشيخ ومن يوافقه . ثم ذكر التنبيه الثامن ، وفيه أنه لو كان كلام ابن تيمية حقا في مسألة المنع من شد الرحل لزيارة القبور لترك الناس الزيارة وخربت المدينة . ثم ذكر التنبيه التاسع ، وفيه أنه لم يقصد بما ألف ردع من يقول بأقوال ابن تيمية عن معتقده المتدع ، فإن هذا مما لا يفيد ، بل مقصوده تنبيه الناس على فساد عقائد هؤلاء القوم ، وتحذير المسلمين عن اعتقاد قولهم . ثم ذكر التنبيه العاشر ، وفيه أن ابن تيمية وكذلك أصحابه لم يقصدوا بمنعهم من سفر الزيارة الحط من رتبة النبي صلى الله عليه وسلم حاشاهم من ذلك ، فانهم من أكابر علماء المسلمين ، وحماة هذا الدين المبين ، ولكن لهم مذهب فاسد في ذلك سلكوه بحسب ما ظهر لهم من الادلة التي قامت عندهم ، وما فهموه من الكتاب والسنة على حسب استعدادهم الخ . وهذه التنبيهات بعضها ينقض بعضا ، ثم نقل

عبارة ابن تيمية في كتاب (العقل والنقل) في تعظيم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم تعجب من القائل بهذا القول كيف يمنع من سفر الزيارة والاستغاثة به الخ . ثم ذكر التنبه الحادي عشر ، وفيه تحذير الناس من مخالطة من يوافق ابن تيمية في الاعتقاد ، فانهم مبتدعة ، وتكلم عليهم بكل ما يستبشع ، ثم ذكر التنبه الثاني عشر ، وفيه بيان أن ابن تيمية لم يخص أحدا بالرد والتضليل ، ولكنه خاصم جميع المسلمين الى أن قال : ويزيد على ذلك تكفير كثير من أئمة الصوفية ، الذين هم سادات الامة الخ .

أقول : هذا حاصل ما ذكر في تنبيهاته ، ويكفي الواقف عليها معرفة مبلغ هذا الرجل من العلم ، وخفة عقله ورعوثه ، فإن جنيع ما ذكره في هذه التنبيهات ضرب من الوسواس وكلام المعتوهين ، أو نوع من هذيان المحموم ، ومآل جميعها واحد ، وهو الحط على ابن تيمية وأصحابه ، وتحذير الناس من الميل إليه ومطالعة كتبه والأخذ بأقواله بسبب ما ظهر له من منع سفر الزيارة والاستغاثة بمخلوق ، وبسبب قوله بهذه المسألتين قد قامت القيامة وفار التنور ، وهذا الامر لله تعالى من إدار المسلمين وسوء طوالعهم في هذا العصر ، عصر الترقى والأخذ بنواصي الكمالات ، ونحن سنتكلم على كلا المسألتين في مقامهما ، ونضرب صفحا عن مؤاخذته في كل ما هذى به في هذه التنبيهات وسنين أقوال أهل العلم في شأن ابن تيمية مما يلهم النبهاني وأضراجه حجر السكوت وذكر في التنبه الثالث رؤياه ولم يعبرها فوجب تعبيرها له ، وذلك أنه قال : رأيت منذ ثلاث سنوات ونيف الامام ابن تيمية والامام السبكي في رؤيا وهما في مجلس واحد ، والسبكي جالس وهو سمين أسمر عليه هية ووقار ، وابن تيمية واقف أسمر أغبر نحيف الوجه والجسم عليه هية العلم ، وقد كان أقرب الي من السبكي فتصدته لاقبل يده ، ويغلب على ظني أنني قبلتها وسألته عن مقدار عمره فقال ستمائة سنة ، ثم انتهت .

فيقال له : ان صحت رؤياك أيها النبهاني - وان كان ماتراه يقظة ومناما أضغاث أحلام - دلت على أن الله تعالى كشف لك عن حال مقتداك ، وشيخ بدعك وهو السبكي ، فانه كما هو المعلوم لدى كل منصف كان من ألد الخصوم لشيخ الاسلام ، بل لكل أهل الحق ، وحيث كان جالسا بين يدي خصمه فهو دليل على أن خصمه وهو ابن تيمية قد أقعده على عجزه ، والامر كما رأيت ، فقد تكلم السبكي على ما أفتى به الشيخ ابن تيمية في مسئلتى الطلاق والزيارة ، فرد عليه الشيخ ابن تيمية بعدة مجلدات

يقول ابن السبكي رأيت منها مجلدا ، وأما سواد الوجه الذي لاح في السبكي فهو بيان ما ابتدعه ، قال عز ذكره : (تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ)^(١) وأما السمن الذي كان فيه فهو علامة غيظه وشقائه بين يدي خصمه ، وأما وقوف ابن تيمية على ساقه فهو النصر على خصومه ، وانه لم يزل قائما على ساق الهمة ، وأما نحافة وجهه فهو ما كابدته من عناء مخاصمة أهل البدع وأعداء الدين ، وتعبير سمرته هو من السؤدد ، وتقبييل يديه ذلك له وضراعتك للحق ، وأما الرجل الذي رأته وظننته ابن عبد الهادي أو ابن القيم فهو والله أعلم الاول ، لأنه الذي رد على متنتك السبكي بعد وفاة الشيخ ابن تيمية في كتاب (الصارم المنكى في الرد على السبكي) في كتابه (شفاء السقام) وأقعدته على عجزه أيضا ، وبين جهله وغباوته ، وقد رأيت وله الحمد تعبير رؤيالك من قبل ، وأما قوله لك في جواب سؤالك عن مدة عمره أنه ستمائة سنة فهو معنى قوله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)^(٢) ومثل ابن تيمية لم يمت على تعاقب الازمان .

وما دام ذكر العبد بالفضل باقيا فذلك حي وهو في التراب هالك
وقال آخر :

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم في الناس أموات
فالعالم بما جاء به الرسول العامل به أطوع في أهل الارض من كل أحد ، فاذا مات أحيا الله ذكره ، ونشر له في العالمين أحسن الثناء ، فالعالم بعد وفاته ميت وهو حي بين الناس ، والجاهل في حياته حي وهو ميت بين الناس ، كما قيل :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشور
ومن تأمل أحوال أئمة الاسلام - كأئمة الحديث والفقهاء - كيف هم تحت التراب - هم في العالمين كأنهم أحياء بينهم لم يفقدوا منهم الا صورهم ، والا فذكرهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع ، وهذه هي الحياة حقا ، حتى عد ذلك حياة ثانية ، كما قال المنتبي :

ذكر الفتى عيشه الثاني وحاجته مافاتة وفضول العيش أشغال
ولكن النهاني على ما حكى لي من رآه أنه كذاب ، كثيرا ما يحدث بمنامات

لا أصل لها ، وفي الحقيقة أن غالب هؤلاء المتدعة كذلك ، وهم بيت الكذب ، كما أنهم المنهمكون على الدنيا ، وهذا من علائم دجاجلة العصر قبحهم الله تعالى •
هذا وما ذكره في باقي التنبهات منه مالا يستحق أن يصغى إليه لأنه لا يخفى فساد حتى على صغار الطلبة ، ومنه ما ذكره النبهاني في باب مختص به ، فأجلنا البحث عنه والكلام عليه الى وصولنا اليه ، والله الهادي الى سواء السبيل ، وهو حسنا ونعم الوكيل •

ثم انه عقد بابا في اثبات مشروعية السفر الى زيارة قبره الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم كسائر الانبياء والصالحين ، وجعله الباب الاول ، وافتتحه بأرجوزة مدح بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم استدل على مشروعية هذا السفر بما ذكره ابن حجر في كتابه (الجواهر المنظم) وقد أتى بأكثره ، والكتاب مشهور ، وبما ذكره ابن الحاج في مدخله وهو كذلك ، ثم بما ذكره السبكي في (شفاء السقام) ثم بما ذكره الشيخ عبد القادر الكيلاني في (الغنية) ثم عقبه بكلام النووي ، ثم بكلام ابن الهمام الحنفي في (فتح القدير) ثم بما في (مشارق الانوار) للشيخ حسن العدوي ثم ذكر ما زوروه من مد اليد للرفاعي ، ثم ذكر أربعين حديثا في فضل المدينة لأبي الحسن البكري ، ثم ختم الباب بخاتمة ذكر اختلاف الناس في التفاضل بين مكة والمدينة ، ثم ذكر فصلا ذكر فيه شيئا مما لا ينبغي فعله للزائر ، نقله من كتاب (الجواهر المنظم) لابن الحجر المكي ، ثم نقل عن العدوي كلاما يتعلق بكرامات الاولياء وتصرفهم ، وبه ختم الباب ، وحيث أن هذه المباحث مشهورة ، بل أنها قد ملتها الاسماع لم أذكرها في هذا المقام لطولها ، بل أذكر حاصلها في أثناء الرد عليه ، ومن الله التوفيق والهداية الى أقوم طريق •

أقول : كان من الحزم عدم التعرض لهذه المسائل المفروغ عن تحقيقها ، وقد سبق منا بيان العذر للكلام على هذيان النبهاني ، مع العلم أنه لا يفيد في رد من ختم الله على قلبه وسمعته وعلى بصره غشاوة ، فانه قد ألف في هذا الباب كتب مفصلة ومجمل ، قد حقق فيها الكلام على هذه المسائل أتم تحقيق ، ومع ذلك لم يؤثر شيئا في فهم هذا الخصم وأضرابه ، وأعاد وأبدى ، واستدل بما هو مردود مرارا عديدة ، فسبحان من طبع على قلبه •

وهنا كلام لابن القيم يناسب المقام ، قال رحمه الله تعالى : ومن تأمل القرآن والسنة وسير الانبياء في أممهم ودعوتهم لهم وما جرى لهم معهم جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه ، وعلم أن القرآن مملوء من الاخبار عن المشركين عباد الاصنام أنهم

كانوا يقولون بالله ، وأنه هو وحده ربهم وخالقهم ، وأن الأرض وما فيها له وحده ، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، وأنه بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وأنه هو الذي سخر الشمس والقمر ، وأنزل المطر وأخرج النبات ، والقرآن مناد عليهم بذلك ، محتج بما أقروا به من ذلك على صحة مادعتهم إليه رسله ، فكيف يقال أن القوم لم يكونوا مقرين قط بأن لهم ربا وخالقا ، وهذا بهتان عظيم ، فالكفر أمر وراء مجرد الجهل ، بل الكفر الاغلظ هو ما أنكره هؤلاء وزعموا أنه ليس بكفر .

قالوا : والقلب عليه واجبان لا يصير مؤمنا الا بهما جميعا : واجب المعرفة والعلم وواجب الحب والالتقياد والاستسلام ، فكما لا يكون مؤمنا اذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد لا يكون مؤمنا اذا لم يأت بواجب الحب والالتقياد والاستسلام ، بل اذا ترك هذا الواجب مع علمه ومعرفته به كان أعظم كفرا ، وأبعد عن الايمان من الكافر جهلا ، فان الجاهل اذا عرف وعلم فهو قريب الى الالتقياد والاتباع ، وأما المعاند فلا دواء فيه ، قال تعالى : (كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)^(١١) .

قالوا : فحب الله ورسوله بل كون الله ورسوله أحب الى العبد من سواهما لا يكون العبد مسلما الا به ، ولا ريب أن الحب أمر وراء العلم ، فما كل من عرف الرسول أحبه كما تقدم .

قالوا : وهذا الحاسد يحمله بغض المحيود على معاداته ، والسعي في أذاه بكل ممكن ، مع علمه بفضله وعلمه ، وأنه لاشيء فيه يوجب عداوته الا محاسنه وفضائله . ولهذا قيل الحاسد عدو للنعم والموافق ، فالحاسد لم يحمله على معادات المحسود جهله بفضله وكماله ، وانما حمله على ذلك فساد قصده وارادته ، كما هي حال الرسل وورثتهم مع الرؤساء الذين سلبهم الرسل ووارثوهم رياستهم الباطلة ، فمادوهم وصدوا النفوس عن متابعتهم ، ظنا أن الرياسة تبقى لهم وينفردون بها . وسنة الله في هؤلاء أن يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة ، ويصغرهم في عيون الخلق مقابلة لهم بنقيض قصدهم : (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)^(١٢)

(١١) آل عمران : ٨٦

(١٢) فصلت : ٤٦

قال : فهذا موارد احجاج الفريقين ، ومواقف اقدام الطائفتين ، فاجلس أيهما المنصف منهما مجلس الحكومة ، وتوخ بعلمك وعدلك فصل هذه الخصومة ، فقد أدلى كل منهما بحجج لاتعارض ولا تمنع ، وجاء بينات لاترد ولا تدافع ، فهل عندك شيء غير هذا يحصل به فصل الخطاب ، وينكشف به لطالب الحق وجه الصواب فيرضى الطائفتين ، ويزول به الاختلاف من البين ، والا

فخل المطي وحاديها وأعط القوس باريها

دع الهوى لانا يعرفون به قد كابدوا الحب حتى لان أصبغه
ومن عرف قدره وعرف لذي الفضل فضله فقد قرع باب التوفيق ، والله الفتح العليم ، فنقول وبالله التوفيق :

كلا الطائفتين ماخرجت عن موجب العلم ، ولا عدلت عن سنن الحق ، وانما الاختلاف والتباين بينهما من عدم التوارد على محل واحد ، ومن اطلاق ألفاظ مجملة بتفصيل معانيها يزول الاختلاف ، ويظهر أن كل طائفة موافقة للآخرى على نفس قولها ، وبيان هذا أن المقتضى قسما : مقتضى لايتخلف عنه موجب ومقتضاه ، لقصوره في نفسه عن التمام ، أو لقوات شرط اقتضائه ، أو قيام مانع منع تأثيره ، فان أريد بكون العلم مقتضيا للاهتداء والاقتضاء التام الذي لايتخلف عنه أثره بل يلزمه الاهتداء بالفعل فالصواب قول الطائفة الثانية ، وانه لايلزم من العلم حصول الاهتداء المطلوب ، وان أريد بكونه موجبا أنه صالح للاهتداء مقتضى له وقد يتخلف عنه مقتضاه لقصوره أو قوات شرط أو قيام مانع فالصواب قول الطائفة الاولى .
قال : وتفصيل هذه الجملة أن العلم بكون الشيء سببا لمصلحة العبد ولدائه وسروره قد يتخلف عنه عمله بمقتضاه لأسباب عديدة .

(السبب الاول) ضعف معرفته بذلك .

(السبب الثاني) عدم الأهلية ، وقد تكون معرفته به تامة ، لكن يكون مشروطا بزكاة المحل وقبوله للتزكية ، فاذا كان المحل غير زكي ولا قابل للتزكية كان كالارض الصلدة التي لايخالطها الماء ، فانه يمتنع النبات منها لعدم أهليتها وقبولها ، فاذا كان القلب قاسيا حجريا لايقبل تزكية ولا تؤثر فيه النصائح لم ينتفع بكل علم يعلمه ، كما لاتبت الارض الصلبة ولو أصابها كل مطر وبذر فيها كل بذر ، كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس : (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ

كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) (١) وقال تعالى: (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) (٢) وقال تعالى: (قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) (٣) وهذا في القرآن كثير، فاذا كان القلب قاسيا غليظا جافيا لا يعمل فيه العلم شيئا، وكذلك اذا كان مريضا مهينا مائيا لا صلابة فيه ولا قوة ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم.

(السبب الثالث) قيام مانع، وهو اما حسد أو كبر، وذلك مانع ابليس من الانقياد للامر، وهو داء الاولين والآخرين الا من عصم الله، وبه تخلف الايمان عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعرفوا صحة نبوته ومن جرى مجراهم، وهو الذي منع عبد الله بن أبي من الايمان، وبه تخلف الايمان عن أبي جهل وسائر المشركين، فانهم لم يكونوا يرتابون في صدقه وان الحق معه، لكن حملهم الكبر والحسد على الكفر، وبه تخلف الايمان عن أمية وأضرابه ممن كان عنده علم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

(السبب الرابع) مانع الرياسة والملك، وان لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق، لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد وملكه ورياسته، فيضن بملكه ورياسته، كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار الذين علموا نبوته وصدقته، وأقروا بها باطنا، وأحبوا الدخول في دينه، لكن خافوا على ملكهم، وهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة، وقل من نجا منه الا من عصم الله، وهو داء فرعون وقومه، ولهذا قالوا: (أَنْتُمْ مِنْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لِنَا عَلِيدُونَ) (٤) أنفوا أن يؤمنوا ويتبعوا موسى وهارون وينقادوا لهما وبنوا اسرائيل عبيد لهم، ولهذا قيل أن فرعون لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاور هامان وزيره، فقال: بينا أنت اله تعبد تصير عبدا تعبد غيرك، فأبى العبودية واختار الرياسة والالهية المحال.

(السبب الخامس) مانع الشهوة والمال، وهو الذي منع كثيرا من أهل الكتاب من الايمان خوفا من بطلان ماكلهم وأموالهم التي تصير اليهم من قومهم، وقد كان

(١) يونس : ٩٦ ، ٩٧ (٢) الانعام : ١١ (٣) يونس : ١٠١

(٤) المؤمنون : ٤٧

كفار قريش يصدون الرجل عن الايمان بحسب شهوته فيدخلون عليه منها ، فكانوا يقولون لمن يحب الزنا أن محمدا يحرم الزنا ويحرم الخمر ، وبه صدوا الاعشى الشاعر عن الاسلام ، قال : وقد فاوضت غير واحد من أهل الكتاب في الاسلام وصحته ، فكان آخر ما كلمني به أحدهم أنا لا أترك الخمر وأشربها آمنا ، فإذا أسلمت حلتهم بيني وبينها وجلدتموني على شربها ، وقال آخر منهم - بعد أن عرف ما قلت له - لي أقارب أرباب أموال ، واني ان أسلمت لم يصل الي منها شيء ، وأنا أو مل أن أرثهم ، أو كما قال . ولا ريب أن هذا القدر في نفوس خلق كثير من الكفار ، فتفتق قوة داعي الشهوة والمال ، وضعف داعي الايمان ، فيجيب داعي الشهوة والمال ويقول لا أرغب بنفسي عن آبائي وسلفي .

(السب السادس) محبة الاهل والاقارب والعشيرة ، يرى أنه اذا اتبع الحق وخالفهم أبعده وطردوه عنهم ، وأخرجوه من بين أظهرهم ، وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائريهم .

(السب السابع) محبة الدار والوطن ، وان لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب ، لكن يرى أن في متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه الى دار الغربة والنسوى فيضن بوطنه .

(السب الثامن) تخيل أن في الاسلام ومتابعة الرسول ازراء ، وطعنا منه على آباءه وأجداده وذما لهم ، وهذا هو الذي منع أبا طالب وأمثلة عن الاسلام ، استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال ، وأن يختاروا خلاف ما اختار أولئك لأنفسهم ، ورأوا أنهم ان أسلموا سفهوا أحلام أولئك ، وضللوا عقولهم ، ورموهم بأقبح الفبائح وهو الكفر والشرك ، ولهذا قال أعداء الله لأبي طالب عند الموت : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فكان آخر ما كلمهم به : هو على ملة عبد المطلب فلم يدعه أعداء الله الا من هذا الباب ، لعلمهم بتعظيمه آباء عبد المطلب ، وانه انما حاز الفخر والشرف به ، فكيف يأتي أمرا يلزم منه غاية تنقيصه وذمه ، ولهذا قال لولا أن تكون مسبة علي بن عبد المطلب لاقررت بها عينك ، أو كما قال وهذا تعرفه بصرح فيه بأنه قد علم وتحقق نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وصدقه : كقولهم :

ولتد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديننا
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحا بذاك مينا

وفي فحيدته الالاميه

فوالله لولا أن تكون مسبة تجر على أسياننا في المحافل
لكننا اتبعناه على كل حاله من الدهر جدا غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب لديننا ولا يعنى بصول الأباطيل
والمسبة التي زعم أنها تجر على أسياننا شهادته عليهم بالكفر والضلال . وتسفيه
الإحلام ، وتضليل العقول . وعدا هو الذي منعه من الإسلام بعد بيئته .

(السبب التاسع) متابعه من يعاديه من الناس للرسول ، وسبفه الى الدخول في
دينه ، وتخصمه وقربه منه ، وهذا القدر منع كثيرا من أتباع الهدى ، يكون
للرجل عدو ويحتمس مكانه ، ولا يجب أرضا يشي عليها ، ويقصد مخالفته ومناقضته
فيراه قد اتبع الحق فيحصله قصد مناقضته ومعاداته على معادات الحق وأهله ، وان
كان لا عداوة بينه وبينهم . وهذا كما جرى لليهود مع الانصار . فانهم كانوا أعداءهم
وكانوا يتوعدونهم بخروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنهم يتبعونه ويقاتلونهم
معه فلما بدرهم اليه الانصار وأسلموا حملهم معاداتهم على البقاء على كفرهم
ويهوديتهم .

(السبب العاشر) مانع الالف والعادة والمنشأ ، فان العادة قد تقوى حتى تغلب
حكم الطبيعة ، كما يترى لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد ، ولا يعقل نفسه الا عليها
ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد ازلتها واخراجها من قلبه وأن يسكن موضعها فيعسر
عليه الانتقال . ويصعب عليه الزوال . وهذا السبب وان كان أضعف الاسباب معنى
فهر أغلبها على الامم وأرباب المقالات والنحل ، ليس مع أكثرهم بل جميعهم ، الا
ماعسى أن يشد الا عادة ومربي تربي عليه ضللا لا يعرف غيرها ، ولا يحس به ،
فدين العوائد هو الغالب على أكثر الناس ، فالانتقال عنه كالانتقال عن الطبيعة الى
طبيعة ثانية ، فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله خصوصا على خاتمهم
وأفضلهم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، كيف غيروا عوائد الامم الباطلة ،
ونقلوهم الى الايمان ، حتى استحدثوا به طبيعة ثانية ، خرجوا بها عن عادتهم
وطبيعتهم الفاسدة ، ولا يعلم مشتقة هذا على النفوس الا من زاول نقل رجل واحد
عن دينه ومقالته الى الحق ، فجزي الله المرسلين أفضل ما جازى به أحدا من العالمين ،
انتهى المقصود من نقله .

وهذا كلام حسن يعلم به سبب عناد المبتدعة على بدعهم ، وعدم تأثير الدعوة الحقة فيهم ، اذ هم على قدم أسلافهم الذين لم ينقادوا للحق ، ولم يدعوا لدعوة المرسلين ، وأظن أن هذا الرجل وهو النبهاني المبتدع المجادل بالباطل وكذلك أضرابه من غلاة الشافعية تد توفرت فيهم الاسباب العشرة السابقة ، ولا سيما السبب الاول والثاني ، فان اليهود قد أخبر الله تعالى عن حال قلوبهم بقوله : (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)^(١) .

ونعود الى كلام هذا المخدول فنقول : ان ما نقله عن ابن حجر والسبكي وغيره كله متحد معنى ، ومن بعد السبكي كلهم قلده في رأيه الفاسد ، واعتقاده الكاسد ، الذي ذكره في كتابه (شفاء السقام) وقد علمت حال هذا الكتاب ، وما جرى عليه من الرد والابطال ، فقد رده الامام العالم العلامة الحافظ المحقق أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنلي المقدسي قدس الله روحه . في كتابه الذي سماه (الصارم المنكى في الرد على السبكي) وقد حقق فيه المسائل المتعلقة بزيارة القبور ، وبين ما كان فيها من حق وزور ، وأظهر جهل السبكي بعلم الاثر والحديث ، وعدم فهمه لمقاصد الشريعة .

ومن نظر الى هذا الكتاب تبين له أن شهرة السبكي بالعلم كانت شهرة كاذبة ، وان نظره كنظر العوام ، وان منزلته من العلماء كقطرة من بحرماء ، ونفحة من داماء (٢) لا يعلم شيئاً من معقول ولا منقول ، وان اطراء غلاة الشافعية فيه من محض تمصّبهم وقسوة قلوبهم ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، ولهذا ترى هذا المخدول لم يزل يتنمى ان لم يكن ألف هذا الكتاب ، أعني كتاب (الصارم المنكى) فاذا رد هذا الكتاب رد جميع ما ألف في هذه المسألة من كتب الغلاة ، ولو لم يكن سوى (الصارم المنكى) لكفى في ذلك ، مع أن كتب الرد عليهم لاتعد ولا تحصي ، ولا تكاد تستقصى ، ولو وقفت على ردود (الجواهر المنظم) لتبين لك أنه خرف لدى كسل

(١) البقرة : ٧٤ (٢) كذا في الاصل .

مصنف يعلم ، وكل هذه الكتب مشهورة متداولة بين الأيدي . فإذا تكلمنا على ما ذكر هذا المخدول كان عبثا وتضييعا للقرطاس .

ولما كانت كتب الخصوم كلها في الرد على شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد ذكروا عنه ما لم يقل به وزوروا عليه أمورا كثيرة لم يقل بها . تنقل جميع مقاله في الزيارة من الكتب والفتاوى . ثم نبه على بطلان قول الخصم المخدول بأوجز عبارة ، ومن الله نستمد التوفيق .

(قال شيخ الإسلام) ابن تيمية - قدس الله روحه - في كتابه (الجواب الباهر) . لمن سأل من أولياء الأمور عما أفتى به في زيارة المقابر مانعه - بمعد البسلة . (١)

قد ذكرت فيما كتبت من المناسك أن السفر إلى مسجده وزيارة قبره - كما يذكره أئمة المسلمين في مناسك الحج - عمل صالح مستحب ، وقد ذكرت في عدة مناسك الحج السنة في ذلك . وكيف يسلم عليه . وهل يستقبل الحجرة أم القبلة ؟ على قولين : فالأكثر يقولون : يستقبل الحجرة ، كمالك والشافعي وأحمد ، وأبو حنيفة يقولون : يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره في قول وخلفه في نحره ، لأن الحجرة لما كانت خارجة المسجد وكان الصحابة يسلمون عليه لم يكن يمكن أحد أن يستقبل وجهه صلى الله عليه وسلم ويستدبر القبلة ، كما صار ذلك مسكنا بعد دخولها في المسجد .

ثم قال : وأما ما ذكر في المناسك أنه بعد تحية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبيه والصلاة والسلام يدعو : فقد ذكر الإمام أحمد وغيره أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره ، لئلا يستدبره - وذلك بعد تحيته والصلاة والسلام - ثم يدعو لنفسه ، وذكروا أنه إذا حياه وصلى عليه يستقبل وجهه بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم ، فإذا أراد الدعاء جعل الحجرة عن يساره واستقبل القبلة ودعا ، وهذا مراعاة منهم لذلك ، فإن الدعاء عند القبر لا يكره مطلقا ، بل يؤمر به ، كما جاءت به السنة فيما تقدم ضمنا وتبعا ، وإنما المكروه أن يتحرى المجيء للقبر للدعاء عنده ، وكذلك ذكر أصحاب مالك ، قالوا : يدنوا من القبر فيسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يدعو مستقبل القبلة يوليه ظهره ، وقيل لا يوليه ظهره ، فإنما اختلفوا لما فيه من استدباره ، فإما إذ جعل الحجرة عن يساره فقد زال المحذور بلا خلاف ، وصار

(١) كتاب (الجواب الباهر) قد طبع ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، ببغداد ، من صحيفة ٢١٤ حتى ٢٢٢ من جلد ٢٧ ، وما ذكر المؤلف ملخصه هنا ببغداد ، من قوله : فصل قد ذكرت . الخ آخر صحيفة ٢٢٩ منه .

في الروضة أو امامها ، ولعل هذا الذي ذكره الائمة أخذوه من كراهة الصلاة السى
القبر ، فان ذلك قد ثبت النهي فيه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما بهى أن
يتخذ القبر مسجدا أو قبلة أمروا بأن لا يتجرى الدعاء اليه كما لا يصلى اليه . ولهذا
والله أعلم حرقت الحجرة وثلث لما بنيت ، فلم يجعل حائطها الشمالي على ست
القبلة ولا جعل مسطحا ، ولذلك قصدوا قبل أن تدخل الحجرة في المسجد .

ثم ان الشيخ رحمه الله أطل الكلام الى أن ذكر مسألة السفر للصلاة في المسجد
ثم قال : والصلاة تقصر في هذا السفر المستحب باجتماع المسلمين ، لم يقل أحد من
أئمة المسلمين أن هذا السفر لا تقصر فيه الصلاة ، ولا نهى أحد عن السفر الى مسجده
وان كان المسافر الى مسجده يزور قبره صلى الله عليه وسلم ، بل هذا من أفضل
الاعمال الصالحة ، ولا في شيء من كلامي وكلام غيري نهى عن ذلك ، ولا نهى عن
المشروع في زيارة قبور الانبياء والصالحين ، ولا عن المشروع في زيارة سائر القبور ،
بل قد ذكرت في غير موضع استحباب زيارة القبور ، كما كان النبي صلى الله تعالى
عليه وسلم يزور أهل البقيع وشهداء أحد ، ويعلم أصحابه اذا زاروا القبور أن يقول
قائلهم : (السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وانا ان شاء الله بكنم
لاحقون ، ويرحم الله المتقدمين منا ومنكم والمسنأخرين ، ونسأل الله لنا ولكم
العافية ، اللهم لاتحرمنا أجرهم . ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم) .

واذا كانت زيارة قبور عموم المؤمنين مشروعة فزيارة قبور الانبياء والصالحين
أدلى ، لكن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم له خاصة ليست لغيره من الانبياء
والصالحين ، وهو انا أمرنا أن نصلي ونسلم عليه في كل صلاة ، وشرع ذلك في الصلاة
وعند الاذان وسائر الادعية ، وأن نصلي ونسلم عليه عند دخول مسجده وغير
مسجده ، وعند الخروج منه ، وكل من دخل فلا بد أن يصلي فيه ويسلم عليه في الصلاة .
والسفر الى غيره مشروع ، لكن العلماء فرقوا بينه وبين غيره ، حتى كره مالك أن
يقال زرت قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لان المقصود الشرعي بزيارة القبور
السلام عليهم والدعاء لهم ، وذلك السلام والدعاء قد حصل على أكمل الوجوه في
الصلاة ، في مسجده وغير مسجده ، وعند سماع الاذان ، وعند كل دعاء ، فشرع
الصلاة عليه عند كل دعاء ، فانه أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ولهذا يسلم المصلي عليه
في الصلاة قبل أن يسلم على نفسه وعلى سائر عباد الله الصالحين ، فيقول : السلام
عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ويصلي
عليه فيدعي له قبل أن يدعو لنفسه ، وأما غيره فليس عنده مسجد فيستحب السفر

اليه كما يسحب السفر الى مسجده . وانما يشرع أن يزار قبره كما شبرعت زيارة القبور . وأما هو فيشرع السفر الى مسجده وينهى عما يوههم أنه سفر الى غير المساجد الثلاثة .

ويجب الفرق بين الزيارة الشرعية التي سنها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبين البدعية التي لم يشرعها ، بل نهى عن مثل اتخاذ قبور الانبياء والصالحين مساجد ، والصلاة الى القبر واتخاده ونساء وقد ثبت في الصحيحين عه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : (لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا ، والمسجد الاقصى) حتى أن أبا هريرة سافر الى انور الذي كلم الله عليه موسى فقال له بصرة ابن أبي بصرة الغفاري : لو أدركتك قبل أن تخرج لما خرجت . سعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : (لا تعمل المطي الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، ومسجد بيت المقدس) فهذه المساجد ترع السفر اليها لعبادة الله فيها للصلاة والفراء والذكر والدعاء والاعتكاف والمسجد الحرام يختص بالطواف لايطاف بغيره . وما سواه من المساجد اذا اتاها الانسان وسلى فيها من غير سفر كان ذلك من أفضل الاعمال . كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : (من تطهر في بيته ثم خرج الى المسجد كانت خطواته احداها تحط خطيئة والاخرى ترفع درجة . والعبد في صلاة مادام ينتظر الصلاة . والملائكة تصلي على أحدكم مادام في صلاة الذي صلى فيه : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ، ما لم يحدث) ولو سافر من بلد الى بلد مثل أن يسافر الى دمشق من مصر لأجل مسجدها أو بالعكس أو يسافر الى مسجد فباء من بلد ببيت لم يكن هذا مشروعاً باتفاق الائمة الاربعة وغيرهم ، ولو نذر ذلك لم يف بندره باتفاق الائمة الاربعة وغيرهم ، الا خلاف شاذ عن الليث بن سعد في المساجد ، وقال ابن مسلمة من أصحاب مالك في مسجد فباء فقط .

ولكن اذا أتى المدينة استحب له أن يأتي مسجد فباء ويصلي فيه ، لأن ذلك ليس بسفر ولا بشد رحل ، فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يأتي مسجد فباء راكباً وماشيا كل سبت ويصلي فيه ركعتين ، وقال . (من تطهر في بيته ثم أتى مسجد فباء كان له كمره) رواه الترمذي وابن أبي شيبة ، وقال سعد بن أبي وقاص وابن عمر : صلاة فيه كعمرة .

ولو نذر المشي الى مكة للحج والعمرة لزمه باتفاق المسلمين . ولو نذر أن يذهب الى مسجد المدينة أو بيت المقدس ففيه قولان : أحدهما ليس عليه الوفاء ، وهو قول أبي حنيفة واحد قولي الشافعي ، لأنه ليس من جنسه ما يجب بالشرع ، والثاني عليه الوفاء بذلك ، وهو مذهب مالك وأحمد بن حنبل والشافعي في قوله الآخر ، لأن هذا طاعة لله ، وقد ثبت في صحيح البخاري عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) ولو نذر السفر الى غير المساجد ، أو السفر الى مجرد قبر نبي أو صالح لم يلزمه الوفاء بنذره باتفاقهم ، فإن هذا السفر لم يأمر به النبي صلى الله عليه وسلم ، بل قد قال : (لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد) وإنما يجب بالنذر ما كان طاعة ، وقد صرح مالك وغيره بأن من نذر السفر الى المدينة النبوية ان كان مقصوده الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وفي بنذره ، وان كان مقصوده مجرد زيارة القبر من غير صلاة في المسجد لم يف بنذره ، قال : لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا تعمل المطى الا الى ثلاثة مساجد) والمسألة ذكرها اسماعيل بن اسحق في المبسوط ومعناها في المدونة ، والجلاب وغيرهما من كتب أصحاب مالك . يقول : ان من نذر اتيان مسجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لزمه الوفاء بنذره . لأن المسجد لا يؤتى الا للصلاة ، ومن نذر اتيان المدينة النبوية فان كان قصد الصلاة في المسجد وفي بنذره ، وان قصد شيئاً آخر مثل زيارة من بالبيع أو شهداء أحد لم يف بنذره ، لأن السفر انما يشرع الى المساجد الثلاثة ، وهذا الذي قاله مالك وغيره ما علت أحد من أئمة المسلمين قال بخلافه ، بل كلامهم يدل على موافقته .

وقد ذكر أصحاب الشافعي وأحمد في السفر لزيارة القبور قولين : التحريم ، والإباحة ، وقدمائهم وأئمتهم قالوا انه محرم ، وكذلك أصحاب مالك وغيرهم . وإنما وقع النزاع بين المتأخرين لأن قوله صلى الله عليه وسلم : (لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد) صيغة خبر ، ومعناه النهي ، فيكون حراماً ، وقال بعضهم : ليس بنهي ، وإنما معناه أنه لا يشرع ، وليس بواجب ولا مستحب ، بل مباح كالسفر في التجارة وغيرها ، فيقال له : تلك الاسفار لا يقصد بها العبادة ، بل يقصد بها مصلحة دنيوية مباحة ، والسفر الى القبور انما يقصد به العبادة ، والعبادة انما تكون بواجب أو مستحب ، فإذا حصل الاتفاق على أن السفر الى القبور ليس بواجب ولا مستحب ، كان من فعله على وجه التعبد مبتدعاً مخالفاً للاجماع ، والتعبد به بدعة ليس بمباح ،

لكن من لم يعلم أن ذلك بدعة فانه قد يعذر ، فاذا تبينت له السنة لم يجز مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا التعبد بما نهى عنه ، كما لا تجوز الصلاة عند طلوع الشمس ولا عند غروبها ، وكما لا يجوز صوم يومي العيدين - وان كانت الصلاة والصيام من أفضل العبادات - ولو فعل ذلك انسان قبل العلم بالسنة لم يكن عليه اثم ، فالطوائف متفقة على أنه ليس مستحبا وما علمت أحدا من أئمة المسلمين قال ان السفر اليها مستحب ، وان كان قاله بعض الاتباع فهو ممكن ، وأما الأئمة المجتهدون فما منهم من قال هذا ، واذا قيل : هذا كان قولاً ثالثاً في المسألة وحينئذ فيبين لصاحبه أن هذا القول خطأ مخالف للسنة ولاجماع الصحابة ، فان الصحابة في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبعدهم الى انقراض عصرهم لم يسافر أحد منهم الى قبر نبي ، ولا رجل صالح .

وقبر الخليل عليه السلام بالشام لم يسافر اليه أحد من الصحابة ، وكانوا يأتون بيت المقدس ويصلون فيه ولا يذهبون الى قبر الخليل ، ولم يكن ظاهراً بل كان في البناء الذي بناه سليمان عليه السلام ، ولا كان قبر يوسف يعرف ، ولكن أظهر ذلك بعد أكثر من ثلاثمائة سنة من الهجرة ، ولهذا وقع فيه نزاع ، فكثير من أهل العلم ينكره ، ونقل ذلك عن مالك وغيره ، لأن الصحابة لم يكونوا يزورونه فيعرف ولما استولى النصارى على الشام نقبوا البناء الذي كان على الخليل ، واتخذوا المكان كنيسة ، ثم لما فتح المسلمون البلد بقي مفتوحاً ، وأما على عهد الصحابة فكان قبر الخليل عليه السلام مثل قبر نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن أحد من الصحابة يسافر الى المدينة لأجل قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل كانوا يأتون فيصلون في مسجده ويسلمون عليه في الصلاة ، ويسلم من سلم عند دخول المسجد والخروج منه ، وهو مدثون في حجرة عائشة فلا يدخلون الحجرة ولا يقفون خارجاً عنها في المسجد عند السور ، وكان يقدم في خلافة أبي بكر وعمر امداد اليمن الذين فتحوا الشام والعراق - وهم الذين قال الله فيهم : (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) (١)

ويسلمون في مسجده كما ذكرنا ، ولم يكن أحد يذهب الى القبر ، ولا يدخل الحجرة ولا يقوم خارجها في المسجد ، بل السلام عليه من خارج الحجرة ، وعمدة مالك وغيره فيه على ما فعل ابن عمر .

وبكل حال فهذا القول لوقاه تصف المسلمين لكان له حكم أمناله في مسائل النزاع ، وأما أن يجعل هو الدين الحق ويستحل عبثية من خالفه ويقال بكفره فهذا خلاف اجماع المسلمين ، وخلاف ما جاء به الكتاب والسنة ، فإذا كان المخالف للرسول في هذه المسألة يكفر فالذي خالف سننه واجماع الصحابة وعلما أمته فهو الكافر ، ونحن لانكفر أحدا من المسلمين بالخطأ إلا في هذه المسائل ولا في غيرها ، ونكسن ان قدر تكفير المخطيء فمن خالف الكتاب والسنة واجماع الصحابة والعلماء أولى بالكفر ممن وافق الكتاب والسنة والصحابة وسلف الامة وأئمتها ، فأئمة المسلمين فرقوا بين ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم وبين ما نهى عنه في هذا وغيره ، فما أمر به هو عبادة وطاعة وقربة ، وما نهى عنه بخلاف ذلك ، بل قد يكون شركا ، كما يفعله أهل الضلال من المشركين وأهل الكتاب ومن ضاهاهم ، حيث يتخذون المساجد على قبور الانبياء والصالحين ، ويصلون اليها ، ويندرون لها ، ويحجون لها ، بل قد يجعلون الحج الى بيت المخلوق أفضل من الحج الى بيت الله الحرام ، ويسنون ذلك الحج الاكبر ، وصنف لهم شيوخهم في ذلك مصنفات ، كما صنف المفيد ابن النعمان كتابا في مناسك المشاهد ، سماه (مناسك حج المشاهد) وشبه بيت المخلوق ببيت الخالق .

وأصل دين الاسلام أن نعبد الله وحده ، ولا نجعل له من خلقه ندا ولا كفوا ولا سميا ، قال تعالى : (فَأَعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)^(١) وقال : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) . وقال : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)^(٢) وقال : (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا)^(٣) .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : (قلت يا رسول الله : أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلتك ، قلت ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت ثم أي ؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك) وقال تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)^(٤) فمن سوى بين الخالق والمخلوق في الحب له ، والخوف منه ، والرجاء له ، فهو مشرك

(١) مريم : ٦٥ (٢) الشورى : ١١ (٣) البقرة : ٢٢ (٤) البقرة : ١٦٥

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى أمته عن دقيق الشرك وجليله ، حتى قال صلى الله عليه وسلم : (من حلف بغير الله فقد أشرك) رواه أبو داود ، وقال له رجل ما شاء الله وشئت ، فقال : (أجعلتني لله ندا؟! بل ما شاء الله وحده) وقال : (لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد) وجاء معاذ بن جبل مرة فسجد له ، فقال له : (ما هذا يا معاذ ؟ فقال : يارسول الله رأيتهم في المنام يسجدون لاساقفتهم ، فقال : يا معاذ انه لا يصلح السجود الا لله ، ولو كنت أمرا أحدا لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها) فهذا فرق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين زيارة أهل التوحيد ، وبين زيارة أهل الشرك ، فزيارة أهل التوحيد لقبور المسلمين تتضمن السلام عليهم ، والدعاء لهم ، وهو مثل الصلاة على جنائزهم ، وزيارة أهل الشرك تتضمن أنهم يشبهون المخلوق بالخالق ، يندرون له ، ويسجدون له ، ويدعونه ، ويحبونه مثل ما يحبون الخالق ، فيكونون قد جعلوه لله ندا ، وسووه برب العالمين ، وقد نهى الله تعالى أن يشرك به الملائكة والانبيا وغيرهم ، فقال تعالى : (ما كان لبشر أن يوتيئه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ^(١)) وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا) ^(٢) .

قالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون الانبياء كالمسيح وعزير ، ويدعون الملائكة ، فأخبرهم الله أن هؤلاء عبده ، يرجون رحمته ويخافون عذابه ، ويتقربون اليه بالاعمال ، ونهى سبحانه أن يضرب له مثل بالمخلوق ، فلا يشبه بالمخلوق الذي يحتاج الى الاعوان والحجاب ونحو ذلك ، قال تعالى : (وإذا سألك عبادي عني

(١) آل عمران : ٨٠ (٢) الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

فإني قريبٌ أجيبُ دَعْوَةَ الدُّاعِ إذا دعان ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ
يُرْشَدُونَ^(١) وقال تعالى : (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ
مِنْهُمْ مِنْ ظَلِيمٍ ، وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ)^(٢) .

وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سيد الشفعاء لديه ، وشفاعته أعظم
الشفاعات ، وجاهه عند الله أعظم الجاهات ، ويوم القيامة اذا طلب الخلق الشفاعة من
آدم ثم من نوح ثم من ابراهيم ثم من موسى ثم من عيسى كل واحد يحيلهم على
الآخر ، فاذا جاؤا الى المسيح يقول اذهبوا الى محمد عبد غفر الله له ماتقدم من ذنبه
وما تأخر ، قال : (فأذهب فاذا رأيت ربي خررت له ساجدا ، وأحمد ربي بحامد
يفتحها علي لأحسنها الان ، فيقال : أي محمد ارفع رأسك وقل يسمع ، وسل تعطه ،
واشفع تشفع ، قال فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة) فمن أنكر شفاعة نبينا صلى الله
عليه وسلم في أهل الكبائر فهو مبتدع ضال ، كما ينكرها الخوارج والمعتزلة ، ومن
قال ان مخلوقا يشفع عند الله بغير اذنه فقد خالف اجماع المسلمين ونصوص القرآن ،
قال تعالى : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)^(٣) وقال تعالى : (وَلَا يَشْفَعُونَ
إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى)^(٤) وقال تعالى : (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي
شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعَدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى)^(٥) وقال تعالى :
(وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً ، يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا
مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا)^(٦) وقال تعالى : (مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ
وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ)^(٧) ومثل هذا في القرآن كثير .

فالدين هو متابعة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بأن يأمر به ، وينهى عما
نهى عنه ، ويجب ما أحبه الله ورسوله من الاعمال والاشخاص ، ويغض ما أبغضه

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) سبا : ٢٢ (٣) البقرة : ٢٥٥ (٤) الانبياء : ٢٨ (٥) النجم : ٢٦ (٦) طه : ١٠٩

(٧) السجدة : ٤

الله ورسوله من الاعمال والاشخاص ، والله سبحانه وتعالى قد بعث رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالفرقان ، ففرق بين هذا وهذا ، فليس لأحد أن يجمع بين ما فرقه الله بينه .

فمن سافر الى المسجد الحرام أو المسجد الاقصى أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فصلى في مسجده وصلى في مسجد قباء وزار القبور كما مضت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا هو الذي عمل العمل الصالح ، ومن أنكر هذا السفر فهو كافر يستتاب فان تاب والا قتل ، وأما من قصد السفر لمجرد زيارة القبر ولم يقصد الصلاة في مسجده وسافر الى مدينته فلم يصل في مسجده صلى الله عليه وسلم ولا سلم عليه في الصلاة بل أتى القبر ثم رجع فهذا مبتدع ضال ، مخالف لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا جناح لأصحابه ولعلماء أمته ، وهو الذي ذكره القولان (أحدهما) أنه محرم (والثاني) لاشيء عليه ولا أجر له .

والذي يفعله علماء المسلمين هو الزيارة الشرعية ، يصلون في مسجده صلى الله عليه وسلم ، ويسلمون عليه في الدخول للمسجد وفي الصلاة ، وهذا مشروع باتفاق المسلمين ، قد ذكرت هذا في المناسك وفي الفتيا ، وذكرت أنه يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيه ، وهذا الذي لم أذكر فيه نزاعا في الفتيا مع أن فيه نزاعا . إذ من العلماء من لا يستحب زيارة القبور مطلقا ، ومنهم من يكرهها مطلقا ، كما نقل ذلك عن إبراهيم النخعي ، والشعبي ، ومحمد بن سيرين . وهؤلاء من أجلة التابعين ، ونقل ذلك عن مالك ، وعنه أنها مباحة ليست مستحبة ، وأما إذا قدر من أتى المسجد فلم يصل فيه ولكن أتى القبر ثم رجع فهذا هو الذي أنكره الأئمة كمالك وغيره ، وليس هذا مستحبا عند أحد من العلماء ، وهو محل النزاع هل هو حرام أو مباح ، وما علمنا أحدا من علماء المسلمين استحب مثل هذا .

ثم ذكر عليه الرحمة حكم السفر الى القبور من كلامه في الجواب الباهر فقال : وأما السفر الى قبور الانبياء والصالحين فهذا لم يكن موجودا في الاسلام في زمن مالك ، وإنما حدث هذا بعد القرون الثلاثة قرن الصحابة والتابعين وتابعيهم ، فأما هذه القرون التي أتى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن هذا ظاهرا فيها ، ولكن بعدها ظهر الإفك والشرك ، ولهذا لما سأل سائل لمالك عن رجل نذر أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ان كان أراد المسجد فليأته وليصل فيه ، وان كان أراد القبر فلا يفعل ، للحديث الذي جاء (لاتعمل المطي الا الى ثلاثة مساجد)

وكذلك من يزور قبور الانبياء والصالحين ليدعوهم أو يطلب منهم الدعاء أو يقصد الدعاء عندهم - لكونه أقرب اجابة في فئنه - فهذا لم يكن يعرف على عهد مالك ، لا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولا غيره ، واذا كان مالك يكره أن يطيل الوقوف عنده للدعاء فكيف بمن لا يقصد لا السلام عليه ولا الدعاء له ، وانما يقصد دعاءه . وطاب حوائجه منه ، ويرفع صوته عنده ، فيؤدي الرسول ، ويشرك بالله ، ويظلم نفسه •

ولم يعتد الائمة الاربعة ولا غير الاربعة على شيء من الاحاديث التي يرويها بعض الناس في ذلك مثل ما يروون أنه قال : (من زارني في مساتي فكانما زارني في حياي) ومن قوله (من زارني وزار أبي في عام حسنت له على الله الجنة) ونحو ذلك ، فإن هذا لم يروه أحد من أئمة المسلمين ، ولم يعتدوا عليها ولم يروها لأهل الصحاح ، ولا أهل السنن التي يعتد عليها ، كأبي داود ، والنسائي ، لأنها ضعيفة بل موضوعة . كما قد بين العلماء الكلام عليها ، ومن زاره في حياته كان من المهاجرين ابيه . وانواحد بعدهم لم ينق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصفه ، وهو اذا أتى بالمرأئض لا يكون مثل الصحابة ، فكيف يكون مثلهم في النوافل ، أو بما ليس قربه ، أو بما هو منهى عنه ، وكره مالك رحمه الله أن يقول القائل زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، كره هذا اللفظ لأن السنة لم تأت به في قبره •

وقد ذكروا في تعليل ذلك وجوها ، ورخص غيره في هذا اللفظ للاحاديث العامة في زيارة القبور ، ومالك يستحب ما يستحبه سائر العلماء من السفر الى المدينة والصلاة في مسجده . وكذلك السلام عليه وعلى صاحبيه عند قبورهم اتباعاً لابن عمر ، ومالك رضي الله عنه من أعلم الناس بهذا ، لأنه قد رأى التابعين الذين رأوا الصحابة بالمدينة ، ولهذا كان يستحب اتباع السلف في ذلك . ويكره أن يتدع أحد هناك بدعة . فكره أن يطيل القيام والدعاء عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك ، وكره لأهل المدينة كلما دخل انسان المسجد أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك •

قال مالك : ولا يصلح آخر هذه الامة الا ما أصلح أولها ، بل كانوا يأتون ابي مسجده فيصلون خلف أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين ، فان

الاربعة صلوا أئمة في مسجده ، والمسلمون يصلون خلفهم ، وهم يقولون في الصلاة السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته كما كانوا يقولون ذلك في حياته . ثم اذا قضاوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ولم يكونوا يأتون القبر للسلام ، لعلمهم بأن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل ، وهي المشروعة .

وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو الصلاة واندعاء ، فإنه لم يشره لهم ، بل نهاهم ، وقال : (لا تتخذوا قبوري عيدا ، وصلوا علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني) فبين أن الصلاة تصل اليه من البعيد ، وكذلك السلام ، ومن صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا ، ومن سلم عليه سلم الله عليه عشرا ، وتخصيص الحجرة بالصلاة والسلام جعل لها عيدا وهو قد نهاهم عن ذلك ، ونهاهم أن يتخذوا قبره أو قبر غيره مسجدا ، ولعن من فعل ذلك ، ليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصاب غيرهم من اللعنة ، وكان أصحابه خير القرون ، وهم أعلم الناس بسنة ، وأطوع الأمة لأمره ، وكانوا اذا دخلوا الى المسجد لا يذهب أحد منهم الى قبره لا من داخل الحجرة ولا من خارجها ، وكانت الحجرة في زمانهم يدخل اليها من الباب اذا كانت عائشة فيها ، وبعد ذلك الى أن بنى الحائط الآخر ، وهم مع ذلك التسكن من الوصول الى قبره لا يدخلون اليه ، لا لسلام ولا لصلاة ، ولا لدعاء لأنفسهم ، ولا لسؤال عن حديث أو علم ، ولا كان الشيطان يطمع فيهم - حتى يسعهم كلاما وسلاما فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم ، وبين لهم الأحاديث ، أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج - كما طمع الشيطان في غيرهم ، فاضلهم عند قبره وقبر غيره ، حتى ظنوا أن صاحب القبر يحدثهم ويفتيهم ، ويأمرهم وينهاهم في الظاهر ، وإنه يخرج من القبر ويرويه خارجا من القبر ، ويظنون أن نفس ابدان الموتى خرجت من القبر تكلمهم ، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها كما رأهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة المعراج بقظة لامنا ما .

فإن الصحابة رضوان الله عليهم خير قرون هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس ، وهم تلقوا الدين عن النبي صلى الله عليه وسلم بلا واسطة ، ففهموا من مقاصده وعانوا من أفعاله وسمعوا منه شفاها ما لم يحصل لمن بعدهم ، وهم قد فارقوا جميع أهل الأرض وعادوهم ، وهجروا جميع الطوائف وأديانهم ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم . قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : (لا تسبوا

أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه (وهذا قاله لخالد بن الوليد لما تشاجر هو وعبد الرحمن بن عوف ، لأن عبد الرحمن بن عوف كان من السابقين الاولين ، وهم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا وهو فتح الحديبية ، وخالد هو وعمرو ابن العاص وعثمان بن طلحة أسلموا في مدة الهدنة بعد الحديبية وقبل فتح مكة ، فكانوا من المهاجرين التابعين لا من المهاجرين الاولين .

وأما الذين أسلموا عام فتح مكة فليسوا بمهاجرين ، لانه لا هجرة بعد الفتح بل كان الذين أسلموا من أهل مكة يقال لهم الطلقاء ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أطلقهم بعد الاستيلاء عليهم عنوة كما يطلق الاسير ، والذين بايعوه تحت الشجرة ومن كان من مهاجرة الحبشة هم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار .

وفي الصحيح عن جابر قال : قال لنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الحديبية : (أتم خير أهل الارض ، وكنا ألفا وأربعمائة) ولهذا لم يطمع الشيطان أن ينال منهم من الاضلال والاغواء ما قال ممن بعدهم ، فلم يكن فيهم من يتعمد الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم - وان كان له أعمال غير ذلك قد تنكر عليه - ولم يكن فيهم من أهل البدع المشهورة ، كالخوارج ، والروافض ، والقدرية ، والمرجئة ، والجهمية ، بل كل هؤلاء انما حدثوا فيمن بعدهم ، ولم يكن فيهم من طمع الشيطان أن يترائى له في صورة بشر ويقول أنا الخضر ، أو أنا ابراهيم ، أو موسى ، أو عيسى أو المسيح ، أو أن يكلمه عند قبر حتى يظن أن صاحبه كلمه ، بل هذا انما فاه فيمن بعدهم ، وناله أيضا من النصارى ، حيث أتاهم بعد الصلب وقال : أنا هو المسيح وهذه مواضع المسامير - ولا يقول أنا الشيطان فان الشيطان لا يكون جسدا - أو كما قال . وهذا هو الذي اعتمد عليه النصارى في أنه صلب لا في مشاهدته فان أحدا منهم لم يشاهد الصلب ، وانما حضره بعض اليهود ، وعلقوا المصلوب وهم يعتقدون أنه المسيح ، ولهذا جعل الله هذا من ذنوبهم وان لم يكونوا صلبوه ، ولكنهم قصدوا هذا الفعل وفرحوا به ، قال تعالى : (وَبَكَرَهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ .

وما قتلوه يقيناً . بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ^(١) . وبسط هذا له موضع آخر .

(والمقصود) أن الصحابة رضي الله عنهم لم يطعم الشيطان أن يضلهم كما أضل غيرهم من أهل البدع الذين تأولوا القرآن على غير تأويله ، وجهلوا السنة إذا رأوا أو سمعوا أمورا من الخوارق فظنوها من جنس آيات الانبياء والصالحين ، وكانت من أفعال الشياطين ، كما أضل النصارى وأهل البدع بمثل ذلك ، فهم يتبعون المتشابه من الكتاب ، ويدعون المحكم ، ولذلك يتمسكون بالمتشابه من الحجج العقلية والحسية ، كما يسمع ويرى أمورا فيظن أنه رحماني وانما هو شيطاني ، ويدعون البين الحق الذي لا اجمال فيه ، ولذلك لم يطعم الشيطان أن يتمثل في صورته ، ويعيث من استغاث به ، أو أن يحمل صوتا يشبه صوته ، لأن الذين رأوه قد علموا أن هذا شرك لا يحل ، ولهذا أيضا لم يطعم فيهم أن يقول أحد منهم لاصحابه اذا كانت لكم حاجة فتعالوا الى قبوري ، ولا تستغيثوا بي لا في محياي ولا في مماتي ، كما جرى مثل هذا لكثير من المتأخرين ، ولا طمع الشيطان أن يأتي أحدهم ويقول : أنا من رجال العيب ، أو الاوتاد الاربعة ، أو من السبعة ، أو الاربعين أو يقول له : أنت منهم ، اذ كان هذا عندهم من الباطل الذي لاحقيقة له ، ولا طمع الشيطان أن يأتي أحدهم فيقول : أنا رسول الله - ويخاطبه عند القبر - كما وقع ذلك لكثير ممن بعدهم عند قبره وقبر غيره ، وعند غير القبور ، كما يقع كثير من ذلك للمشركين وأهل الكتاب ، يرون بعد الموت من يعظمونه ، فأهل الهند يرون من يعظمونه من شيوخهم الكفار وغيرهم ، والنصارى يرون من يعظمونه من الانبياء والحواريين وغيرهم ، والضلال من أهل القبلة يرون من يعظمونه : إما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإما غيره من الانبياء - ينقله ، ويخاطبهم ويخاطبونه ، وقد يستفتونه ويسئلونه عن أحاديث فيجيبهم ، ومنهم من يخيل له أن الحجرة قد انشقت وخرج منها النبي صلى الله عليه وسلم وعانقه هو وصاحبه ، ومنهم من يخيل اليه أنه رفع صوته بالسلام حتى وصل مسيرة أيام الى مكان بعيد ، وهذا وأمثاله أعرف ممن وقع له هذا وأشباهه عددا كثيرا ، وقد حدثني بما وقع له في ذلك وبما أخبر به غيره من الصادقين من يطول هذا الموضع بذكرهم .

وهذا موجود عند خلق كثير ، كما هو موجود عند النصارى والمشركين ، لكن كثير من الناس يكذب بهذا ، وكثير منهم اذا صدق به يعتقد أنه من الآيات الالهية ،

(١) النساء : ١٥٦ - ١٥٨

وان الذي رأى ذلك رآه لصلاحه ودينه ، ولم يعلم أنه من الشيطان ، وأنه أضل من فعل به ذلك ، وأنه بحسب قلة علم الرجل يضلّه ، ومن كان أقلّ علما قال له ما يعلم أنه مخالف للشرية خلافا ظاهرا ، ومن عنده علم بها لا يقول له ما يعلم أنه مخالف للشرية ولا مفيد فائدة في دينه ، بل يضلّه عن بعض ما كان يعرفه ، فان هذا فسل الشياطين ، وهو وان ظن أنه استفاد شيئا فالذي خسره من دينه أكثر ، ولهذا لم يقل قط أحد من الصحابة أن الخضر أتاه ، ولا موسى ولا عيسى ، ولا أنه سمع رد النبي صلى الله عليه وسلم ، وابن عمر كان يسلم ولم يقل قط أنه سمع الرد ، وكذلك التابعون وتابعوهم ، وانما حدث هذا في بعض المتأخرين . وكذلك لم يكن أحد من الصحابة يأتيه فيسأله عند القبر عن بعض ما تنازعوا فيه وأشكل عليهم من العلم ، لا خلفاؤه الاربعة ولا غيرهم ، مع أنهم أخص الناس به . حتى ابنته فاطمة لم يطع الشيطان أن يقول لها اذهبي الى قبره فسله هل يورث ، كما أنهم أيضا لم يطع الشيطان فيهم فيقول لهم اطلبوا منه أن يدعو لكم بالمطر لما أجذبوا ، ولا قال اطلبوا منه أن يستنصر لكم ولا أن يستغفر كما كانوا في حياته يطلبون منه أن يستسقي لهم وأن يستغفر لهم ، فلم يطع الشيطان فيهم بعد موته أن يطلبوا منه ذلك . ولا طمع بذلك في القرون الثلاثة ، وانما ظهرت هذه الضلالات ممن قل علمه بالتوحيد والسنة فأضله الشيطان كما أضل النصارى في أمور ثقلة عليهم بما جاء به المسيح ومن قبله من الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وكذلك لم يمع الشيطان أن يطير بأحدهم في الهواء ، ولا أن يقطع به الارض في مدة قريبة ، كما يقع مثل هذا لكثير من المتأخرين ، لأن الاسفار التي كانوا يسافرونها كانت طاعات ، كسفر الحج والعمرة والجهاد ، وهم يثابون على كل خطوة يخطونها فيه ، وكلما بعدت المسافة كان الاجر اعظم ، كالذي يخرج من بيته الى المسجد فخطواته احداها ترفع درجة والآخرى تحط خطية ، فلم يسكن الشيطان أن يفوتهم ذلك الاجر . بأن يحملهم في الهواء أو يؤزهم في الارض اذا حتى يقطعوا المسافة بسرعة .

وقد علموا أن النبي صلى الله عليه وسلم انما أسرى به الله من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ليبريه من آياته ، وأنه أراه من آياته الكبرى ، وكان هذا من خصه ، فليس لمن بعده مثل هذا المعراج ، ولكن الشيطان يخيل اليه معاريج شيطانية كما خيلها لجماعة من المتأخرين ، وأما قطع النهر الكبير بالسير على الماء فهذا قد يحتاج اليه المؤمنون أحيانا ، مثل أن لا يمكنهم العبور الى العذر وتكميل الجهاد

الابدالك ، فلهذا كان الله يكرم من يحتاج الى ذلك من الصحابة والتابعين بسبل ذلك ، كما أكرم به العلاء بن الحضرمي وأصحابه ، وأبا مسلم الخولاني وأصحابه ، وبسط هذا له موضع آخر غير هذا الكتاب .

لكن المقصود أن يعرف أن الصحابة خير القرون ، وأفضل الخلق بعد الانبياء ، فما ظهر فيمن بعدهم مما يظن أنها فضيلة للتأخرين ولم تكن فيهم فانها من الشيطان ، وهي نقيصة لا فضيلة ، سواء كانت من جنس العلوم . أو من جنس العبادات . أو من جنس الخوارق والآيات ، أو من جنس السياسة والملك ، بل خير الناس بعدهم أتبعهم لهم ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : من كان منكم مستتاً فليستن بسن قد مات ، فان الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم : أبر هذه الامة قلوباً ، وأعقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتسكوا بهديهم ، فانهم كانوا على الهدى المستقيم . ويسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن الصحابة تركوا البدع المتعلقة بالقبور بقبره وقبر غيره لنهي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، ولئلا يتشبهوا بأهل الكتاب الذين اتخذوا قبور الانبياء أوثاناً ، وانما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه اذا قدم من سفر ، كما كان ابن عمر يفعل ، بل كانوا في حياته يسلمون عليه ثم يخرجون من المسجد لا يأتون اليه عند كل صلاة ، واذا جاء أحد سلم عليه رد عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكذلك من سلم عليه عند قبره رد عليه ، وكانوا يدخلون على عائشة فكانوا يسلمون عليه كما كانوا يسلمون في حياته ، ويقول أحدهم : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وقد جاء هذا عاماً ، ما من رجل يسر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ، فاذا كان رد السلام موجوداً في عموم المؤمنين فهو في أفضل الخلق أولى ، واذا سلم المسلم عليه في صلاته فانه وان لم يرد عليه لكن الله يسلم عليه عشرًا ، كما في الحديث : (من سلم علي مرة سلم الله عليه عشرًا) فالله يجزيه على هذا السلام أفقبل ما يحصل بالرد ، كما أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرًا ، وكان ابن عمر يسلم عليه ثم ينصرف ولا يقف لا لدعاء له إلا لنفسه ، لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة فكان بدعة محضة قال مالك : لن يصلح آخر هذه الامة الا ما أصلح أولها ، مع أن فعل ابن عمر اذا لم يفعل مثله سائر الصحابة انما يحصل للتسوية ، كأمثال ذلك فيما يفعله بعض الصحابة .

وأما القول بأن هذا الفعل مستحب أو منهي عنه أو مباح فلا يثبت الا بدليل شرعي ، فالوجوب والندب والاباحة والاستحباب والإكراهة والتحریم لا يثبت شيء منها الا بالادلة الشرعية ، والادلة الشرعية كلها مرجعها اليه ، فالقرآن هو الذي بلغه ، والسنة هي التي علمها ، والاجماع بقوله عرف أنه معصوم ، والقياس انما يكون حجة اذا علمنا أن الفرع مثل الاصل ، أو أن علة الاصل في الفرع ، وقد علمنا أنه صلى الله عليه وسلم لا يتناقض فلا يحكم في المتساثلين بحكمين متناقضين ، ولا يحكم بالحكم لعللة تارة ويسنعه أخرى مع وجود العلة الا لاختصاص احدي الصورتين بما يوجب التخصيص ، فشرعه هو ماشرعه ، وسنته هي ماسنها ، لا يضاف اليه قول غيره وفعله وان كان من أفضل الناس اذا وردت سنته ، بل ولا يضاف اليه الا بدليل يدل على الاضافة ، ولهذا كان الصحابة كأبي بكر وعمر وابن مسعود يقولون باجتهدهم ، ويكونون مصييين موافقين لسنته ، لكن يقول أحدهم : أقول في هذا برأيي ، فان يكن صوابا فمن الله ، وان كان خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه ، فان كان ماخالف سنته فهو شرع منسوخ مبدل ، لكن المجتهدون وان قالوا برأيهم وأخطئوا فلهم أجر وخطأهم مغفور لهم ، وكان الصحابة اذا أراد أحدهم أن يدعو لنفسه استقبل القبلة ودعا لنفسه كما كانوا يفعلون في حياته ، لا يقصدون الدعاء عند الحجرة ، ولا يدخل أحدهم الى القبر ، والسلام عليه قد شرع للمسلمين في كل صلاة ، وشرع للمسلمين اذا دخل أحدهم المسجد أي مسجد كان .

(فالنوع الاول) كل صلاة يقول المصلي : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، ثم يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (فاذا قلت ذلك أصابت كل عبد صالح لله في السماء والارض) فقد شرع للمسلمين في كل صلاة أن يسلموا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خصوصا وعلى عباد الله الصالحين من الملائكة والانس والجن ، وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال (كنا نقول خلفه النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة : السلام على فلان وفلان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ان الله هو السلام ، فاذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل : التحيات لله والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .) وقد روى عنه التمشيد بألفاظ أخر ، كما رواه مسلم من حديث ابن عباس ، وكما كان ابن عمر يعلم الناس التمشيد ، ورواه

مسلم من حديث أبي موسى ، لكن مثل تشهد ابن مسعود ، ولكن لم يخرج البخاري
الا تشهد ابن مسعود ، وكل ذلك سائق فان القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فالتشهد
أولى .

والمقصود : أنه صلى الله عليه وسلم ذكر أن المصلي اذا قال السلام علينا وعلى
عباد الله الصالحين أصابت كل عبد صالح في السماء والارض ، وهذا يتناول الملائكة
والانس والجن ، كما قال تعالى عنهم : (وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُوِّنَ ذَلِكَ كُنَّا
طَرَائِقَ قَدَدًا)^(١) .

(والنوع الثاني) السلام عليه عند دخول المسجد ، كما في المسند والسنن عن
فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (اذا
دخل أحدكم المسجد فليقل باسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر
لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك ، واذا خرج قال باسم الله والصلاة والسلام
على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب فضلك) .

وروى مسلم في صحيحه الدعاء عند دخول المسجد بأن يفتح له أبواب رحمته ،
وعند خروجه بسؤال الله من فضله ، وهذا الدعاء مؤكد في دخول مسجد رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا ذكره العلماء فيما صنّفوه من المناسك لمن أتى الى
مسجده أن يقول ذلك ، فان السلام عليه مشروع عند دخول المسجد والخروج ، وفي
نفس كل صلاة ، وهذا أفضل وأنفع من السلام عند قبره وأدوم ، وهذا مصلحة
محضة لأمسدة ، فيها يرضي الله ، ويوصل نفع ذلك الى رسول الله والى المؤمن ،
وهذا مشروع في كل صلاة ، وعند دخول المسجد والخروج منه ، بخلاف السلام عند
القبر ، مع أن قبره من حين دفن لم يمكن أحد من الدخول اليه ، لا لزبارة ولا لصلاة
ولا لدعاء ولا غير ذلك ، ولكن كانت عائشة فيه لأنه بيتها ، وكانت ناحية عن القبور
لأن القبور في مقدم الحجرة ، وكانت هي في مؤخرة الحجرة ، ولم يكن الصحابة
يدخلون الى هناك .

وكانت الحجرة على عهد الصحابة خارجة عن المسجد متصلة به ، وانما دخلت
فيه في خلافة عبد الملك بن مروان بعد موت العبادلة ابن عمر وابن عباس وابن الزبير
وابن عمرو ، بل موت جميع الصحابة الذين كانوا بالمدينة ، ولم يكن الصحابة يدخلون

(١) الجن : ١١

الى عند القبر ، ولا يقفون عنده خارجا ، مع أنهم يدخلون الى مسجده ليلا ونهارا ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد الا المسجد الحرام) وقال : (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، ومسجد بيت المقدس) وكانوا يقدمون من الاسفار للاجتماع بالخلفاء الراشدين وغير ذلك فيصلون في مسجده ، ويسلمون عليه في الصلاة . وعند دخول المسجد والخروج منه ، ولا يأتون القبر ، اذ كان عندهم مما لم يأمرهم به ، ولم يسنه لهم ، وانما أمرهم وسن لهم الصلاة والسلام عليه في الصلاة ، وعند دخولهم المساجد وغير ذلك ، ولكن ابن عمر كان يأتيه فيسلم عليه وعلى صاحبيه عند قدومه من السفر ، وقد يكون فعله غير ابن عمر أيضا ، فهكذا رأي من رأي من العلماء هذا جائزا افتداء بالصحابة رضي الله عنهم ، وابن عمر كان يسلم ثم ينصرف ولا يقف يقول : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبت ، ثم ينصرف ولم يكن جمهور الصحابة يفعلون ذلك اذ لم يكن هذا سنة سنها لهم .

وكذلك أزواجه كن على عهد الخلفاء وبعدهم يسافرون للحج ، ثم ترجع كل واحدة الى بيتها كما وصاهن بذلك ، وكانت امهات اليمين الذين قال الله فيهم (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) ^(١) على عهد أبي بكر وعمر يأتون أفواجا من اليمين للجهاد في سبيل الله ، ويصلون خلف أبي بكر وعمر في مسجده ، ولا يدخل أحد منهم الى داخل الحجرة ، ولا يقف في المسجد خارجا منها ، لا للدعاء ولا صلاة ولا سلام ولا غير ذلك ، وكانوا عالمين بسنته ، كما علمهم الصحابة والتابعون أن حقوقه ملازمة لحقوق الله ، وأن جميع ما أمر الله به وأحبه من حقوقه وحقوق رسوله فان صاحبها يؤمر بها في جميع المواضع والبقاع ، فليست الصلاة والسلام عليه عند قبره بأوكد من ذلك في غير ذلك المكان ، بل صاحبها مأمور بها حيث كان ، اما مطلقا واما عند الاسباب المؤكدة لها ، كالصلاة والدعاء والاذان ، ولم يكن شيء من حقوقه ولا شيء من العبادات هو عند قبره أفضل منه في غير تلك البقعة ، بل نفس مسجده له فضيلة لكونه مسجده ، ومن اعتقد أنه قبل القبر لم يكن له فضيلة — اذ كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصلي فيه والمهاجرون والانصار وانما حدثت له الفضيلة في

خلافة الوليد بن عبد الملك لما أدخل الحجرة في مسجده - فهذا لا يقوله الا جاهل مفرط في الجهل ، أو كافر ، فهو مكذب لما جاء ، مستحق للقتل .

وكان الصحابة يدعون في مسجده كما كانوا يدعون في حياته ، لم يتجدد لهم شريعة غير الشريعة التي علمهم اياها في حياته ، وهو لم يأمرهم اذا كان لأحدهم حاجة أن يذهب الى قبر نبي أو صالح فيصلي عنده ويدعوه ، أو يدعو بلا صلاة ، أو يسأله حوائجه ، أو يسأله أن يسأل ربه ، فقد علم الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمرهم بشيء من ذلك ، ولا أمرهم أن يخصوا قبره أو حجرته لا بصلاة ولا دعاء ، لا له ولا لأنفسهم ، بل قد نهاهم أن يتخذوا بيته عيدا ، فلم يقل لهم كما يقول بعض الشيوخ الجهال لاصحابه اذا كان لكم حاجة فتعالوا الى قبري ، بل نهاهم عما هو أبلغ من ذلك أن يتخذوا قبره أو قبر غيره مسجدا يصلون فيه لله ، ليسد ذريعة الشرك ، فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما ، وجزاه منا أفضل ماجزى نبيا عن أمته ، قد بلغ الرسالة وأدى الامانة ، ونصح الامة ، وجاهد في الله حق جهاده ، وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه ، فكان انعام الله به أفضل نعمة أنعم بها على أهل الارض .

وقد دلهم صلى الله عليه وسلم على أفضل العبادات ، وأفضل البقاع ، كما في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : (قلت يا رسول الله : أي العمل أفضل ؟ قال : الصلاة على مواقيتها ، قلت ثم أي ؟ قال : ثم بر الوالدين ، قلت ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله سألته عنهن ، ولو استزدته لزادني) وفي المسند وسنن ابن ماجه عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء الا مؤمن) والصلاة قد سن للامة أن تتخذ لها مساجد ، وهي أحب البقاع الى الله ، كما ثبت عنه في صحيح مسلم وغيره أنه قال : (أحب البقاع الى الله المساجد ، وأبغض البقاع الى الله الاسواق) ومع هذا فقد لعن من يتخذ قبور الانبياء والصالحين مساجد - وهو في مرض الموت - نصيحة للامة ، وحرصا منه على هذا ، كما نعته الله بقوله : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين ، رؤوف رحيم)^(١)

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - في مرضه الذي لم يقم منه - لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، قالت عائشة : ولولا ذلك لابرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجدا) ، وعن عائشة وابن عباس قالوا : لما نزل برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم كشفها عن وجهه ، فقال - وهو كذلك - (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما صنعوا) •

ومن حكمة الله تعالى أن عائشة أم المؤمنين صاحبة الحجر التي دفن فيها تروي هذه الاحاديث وقد سمعتها منه ، وان كان غيرها من الصحابة سمعها أيضا ، كابن عباس وأبي هريرة وجندب وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : (قاتل الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد) وفي الصحيحين عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بأرض الحبشة - فيها تصاوير - لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : (ان أولئك اذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة) وفي صحيح مسلم عن جندب قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول : اني أبرأ الى الله أن يكون لي منكم خليل ، فان الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا ، ولو كنت متخذا من أهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فاني أنهاكم عن ذلك) وفي صحيح مسلم عن أبي مرثد الغنوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لاتجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها) وفي المسند وصحيح أبي حاتم أنه قال (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد) •

وقد تقدم نهيهم أن يتخذ قبره عيدا ، فلما علم الصحابة أنه قد نهاهم عن أن يتخذوه مصلى للفرائض التي يتقرب بها الى الله - لئلا يتشبهوا بالمشركين الذين يتخذونها ويصلون بها وينذرون لها - كان نهيهم عن دعائها أعظم وأعظم ، كما أنه لما نهاهم عن الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها - لئلا يتشبهوا بمن يسجد للشمس - كان نهيهم عن السجود للشمس أولى ، فكان الصحابة يقصدون الصلاة والدعاء والذكر

في المساجد التي بنيت لله دون قبور الانبياء والصالحين التي نهوا أن يتخذوها مساجد وانما هي بيوت المخلوقين ، وكانوا يفعلون بعد موته ما كانوا يفعلون في حياته .
ثم ذكر فصلا في جوابه عن غلو بعض الناس في تعظيم القبور حتى قال ان البلاء يندفع عن أهل البلد أو الاقليم بسن هو مدفون عندهم من الانبياء والصالحين .
قال شيخ الاسلام في أثناء كلامه في (الجواب الباهر) وأما ما يظنه بعض الناس أنه يندفع البلاء عن أهل بغداد بقبور ثلاثة : أحمد بن حنبل ، وبشر الحافي ، ومنصور ابن عمار ، ويظن بعضهم أنه يندفع البلاء عن أهل الشام بمن عندهم من قبور الانبياء ، الخليل وغيره عليهم السلام ، وبعضهم يظن أنه يندفع البلاء عن أهل مصر بنفسه أو غيرها ، أو يندفع عن أهل الحجاز بقبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأهل البقيع أو غيرهم : فكل هذا غلو مخالف لدين المسلمين ، مخالف للكتاب والسنة والاجماع ، فالبيت المقدس كان عنده من قبور الانبياء والصالحين ماشاء الله فلما عصوا الانبياء وخالفوا ما أمر الله به ورسله سلط عليهم من انتقم منهم ، والرسول الموتى ما عليهم الا البلاغ ، وقد بلغوهم رسالة ربهم ، وكذلك نبينا قال الله تعالى في حقه: (إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ)^(١) وقال: (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)^(٢) .

وقد ضمن الله لكل من أطاع الرسول أن يهديه وينصره ، فمن خالف الرسول استحق العذاب ولم يغن عنه أحد من الله شيئا ، كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : (يا عباس عم رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئا) وقال لمن ولاه من أصحابه : (لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبتة بعير له رغاء ، يقول : يا رسول الله أغثنى ! فأقول : لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك) وكان أهل المدينة في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي أفضل أهل الدنيا والآخرة ، لتمسكهم بطاعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم تغيروا بعض التغير ، فقتل عثمان ، وخرجت الخلافة خلافة النبوة من عندهم وصاروا رعية لغيرهم ، ثم تغيروا بعض التغير فجرى عليهم عام الحرة من النهب والقتل وغير ذلك من المصائب ما لم يجر عليهم قبل ذلك ، والذي فعل بهم ذلك وان كان ظالما متعديا فليس هو أظلم ممن فعل بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ما فعل ، وقد قال الله تعالى : (أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ؟)

(١) الشورى : ٤٨ (٢) العنكبوت : ١٨

قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ^(١)

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم والسابقون الاولون مدفونين بالمدينة ، وكذلك الشام كان أهله في أول الاسلام في سعادة الدنيا والدين ، ثم جرت فتن وخرج الملك من أيديهم ، ثم سلط عليهم المنافقون الملاحدة والنصارى بذنوبهم ، واستولوا على بيت المقدس وقبر الخليل ، وفتحوا البناء الذي كان عليه ، وجعلوه كنيسة ، ثم صلح دينهم فأعزهم الله ونصرهم على عدوهم لما أطاعوا الله ورسوله ، واتبعوا ما أنزل اليهم من ربهم ، فطاعة الله ورسوله هي قطب السعادة وعليها تدور : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)^(٢) .

وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول في خطبته : (من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فلا يضر الا نفسه ولا يضر الله شيئاً) .
ومكة نفسها لا يدفع البلاء عن أهلها ويجلب لهم الرزق الا بطاعتهم لله ورسوله كما قال الخليل عليه السلام : (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيَتِمَّوْا الصَّلَاةَ ، فَاجْعَلْ أَفْتَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)^(٣)

وكانوا في الجاهلية يعظون حرمة الحرم ، ويحجون ويطوفون بالبيت ، وكانوا خيرا من غيرهم من المشركين ، والله لا يظلم مثقال ذرة ، فكانوا يكرمون ما لا يكرم غيرهم ، ويؤتون ما لا يؤتاه غيرهم ، لكونهم كانوا متمسكين من دين ابراهيم أعظم ماتمسك به غيرهم ، وهم في الاسلام ان كانوا أفضل من غيرهم كان جزاؤهم بحسب فضلهم ، وان كانوا اسوأ عملا من غيرهم كان جزاؤهم بحسب سيئاتهم ، فالمساجد والمساعر انما تنفع فضيلتها لمن عمل فيها بطاعة الله ، والا فمجرد البقاع لا يحصل بها ثواب ولا عقاب ، وانما الثواب والعقاب على الاعمال المأمور بها والمنهى عنها ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد آخى بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء ، وكان أبو الدرداء بدمشق وسلمان بالعراق ، فكتب أبو الدرداء الى سلمان هلم الى الارض المقدسة فكتب اليه سلمان ان الارض لا تقديس أحدا وانما يقديس

(١) آل عمران : ١٦٥ (٢) النساء . ٦٩ (٣) ابراهيم : ٢٧

الرجل عمله • والمقام بالشغور للجهد أفضل من مكنتى الحرمين باتفاق العلماء ،
ولهذا كان سكنى الصحابة بالمدينة أفضل للهجرة •

والله هو الذي خلق الخلق وهو الذي يهديهم ويرزقهم وينصرهم ، وكل من
سواه لا يملك شيئا من ذلك ، كما قال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ
شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ . وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ)^(١)

وقد فسروها بأن يؤذن للشافع والمشفوع له جميعا ، فان سيد الشفعاء يوم القيامة
محمد صلى الله عليه وسلم ، واذا أراد الشفاعة قال : (فاذا رأيت ربي خررت له
ساجدا ، فأحمده بمحامد يفتحها علي لأحسنها الآن ، فيقال لي : ارفع رأسك ، وقل
يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، قال : فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة) وكذلك
ذكره في المرة الثانية والثالثة •

ولهذا قال : (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ)^(٢) .
فأخبر أنه لا يملكها أحد دون الله ، وقوله (الا من شهد بالحق وهم يعلمون)
استثناء منقطع ، أي من شهد بالحق وهم يعلمون ، هم أصحاب الشفاعة ، منهم
الشافع ، ومنهم المشفوع له • وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال : (من
أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ، فقال : لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن
هذا الحديث أول منك لما رأيت حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي من
قال لا اله الا الله خالصا من قلبه) رواه البخاري ، فجعل أسعد الناس بشفاعته
أكملهم اخلاصا ، وقال في الحديث : (اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم
صلوا علي ، فانه من صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لي
الوسيلة ، فانها درجة في الجنة لا تنبغي الا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون ذلك
العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة) فالجزاء من جنس
العمل ، فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها
عشرا ، قال : (ومن سأل لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة) ولم يقل : (كان
أسعد الناس بشفاعتي) بل قال (أسعد الناس بشفاعتي من قال

(١) سبا : ٢٢ ، ٢٣ (٢) الزخرف : ٨٦

لا اله الا الله خالسا من قلبه) فعلم أن ما يحصل للعبد بالتوحيد والاخلاص من شفاعه الرسول وغيرها لا يحصل بغيره من الاعمال وان كان صالحا ، كسؤال الوسيلة للرسول ، فكيف بما لم يأمر به من الاعمال بل نهى عنه ، فذاك لا ينال به خيرا لاني الدنيا ولا في الآخرة ، مثل غلو النصارى في المسيح ، فانه يضرهم ولا ينفعهم ، ونظير هذا في الصحيح عنه أنه قال : (ان لكل نبي دعوة مستجابة ، واني اختبأت دعوتي شفاعه لامتي يوم القيامة ، فهي نائلة ان شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئا) وكذلك في أحاديث الشفاعه كلها انما يشفع في أهل التوحيد ، فيحسب توحيد العبد لربه واخلاصه دينه لله يستحق كرامة الله بالشفاعة وغيرها ، وهو سبحانه علق الوعد والوعيد والثواب والعقاب والحمد والذم بالايمان به وتوحيده وطاعته ، فمن كان أكمل في ذلك كان أحق بتولي الله له بخير الدنيا والآخرة ، ثم جميع عباده مسلمهم وكافرهم هو الذي رزقهم ، وهو الذي يدفع عنهم المكاره ، وهو الذي يقصدونه في النوائب ، قال تعالى : (وما يكفكم من نعمه فئن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون)^(١) وقال تعالى : (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن)^(٢) أي بدلا عن الرحمن هذا أصح القولين كقوله تعالى : (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون)^(٣) أي لجعلنا بدلا منكم ، كما قاله عامة المفسرين ومنه قول الشاعر :

فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيان
أي بدلا من ماء زمزم ، فلا يكأ الخلق بالليل والنهار فيحفظهم ويدفع عنهم المكاره الا الله ، قال تعالى : (آمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور . آمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور)^(٤) ومن ظن أن أرضا معينة تدفع عن أهلها البلاء مطلقا بخصوصها أو لكونها فيها قبور الانبياء والصالحين فهو غلط ، فأفضل البقاع مكة وقد عذب الله أهلها عذابا شديدا عظيما فقال : (ضرب الله مثلا قرية كانت

(١) النحل : ٥٣ (٢) الانبياء : ٤٢ (٣) الزخرف : ٦٠ (٤) الملك : ٢٠ ، ٢١

أَمَنَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ بِأَيْتِهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرْتُ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ
 لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ
 فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ^(١)

ومن فصول (الجواب الباهر لمن سأل من ولاة الامر عما أفتى به في زيارة
 المقابر) كلام في أن الزيارة المتضمنة ترك مأمور أو فعل محظور ليست بمشروعة .

قال شيخ الاسلام - قدس الله روحه - وقد تنازع المسلمون في زيارة
 القبور ، فقال طائفة من السلف : ان ذلك كله منهي عنه لم ينسخ ، فان أحاديث
 النسخ لم يروها البخاري ولم تشتهر ، ولما ذكر البخاري (باب زيارة القبور) احتج
 بحديث المرأة التي بكت على القبر ، ونقل ابن بطال عن الشعبي قال : لولا أن رسول
 الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن زيارة القبور لزرت قبر ابنتي ، وقال النخعي
 كانوا يكرهون زيارة القبور ، وعن ابن سيرين مثله ، قال : وقد سئل مالك عن
 زيارة القبور فقال قد كان نهى عنه عليه السلام ثم أذن ، فلو فعل ذلك انسان ولم
 يقل الا خيرا لم أر بذلك بأسا وليس من عمل الناس ، وروى عنه أنه كان يضعف
 زيارتها ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى أولا عن زيارة القبور باتفاق
 العلماء ، فقيل : لأن ذلك يفضي الى الشرك ، وقيل : لاجل النياحة عندها ، وقيل
 لأنهم كانوا يتفاخرون بها ، وقد ذكر طائفة من العلماء في قوله (أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى
 زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) أنهم كانوا يتكاثرون بقبور الموتى ومن ذكره ابن عطية في تفسيره ،
 قال : وهذا تأنيب على الاكثار من زيارة القبور ، أي حتى جعلتم أشغالكم القاطعة
 عن العبادة والعلم زيارة القبور تكثرا بمن سلف واشادة بذكره .

ثم قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم (كنت نهيتكم عن زيارة القبور
 فزوروها ولا تقولوا هجرا) وكان نهيه في معنى الآية ، ثم أباح الزيارة بعد معنى
 الانعاط ، لا لمعنى المباهاة والتفاخر ، وتسنيهما بالحجارة الرخام وتكوينها سريا
 وبيان النواويس عليها ، هذا لفظ ابن عطية .

(١) النحل : ١١٢ ، ١١٣

(والمقصود) أن العلماء متفقون على أنه كان نهى عن زيارة القبور ، ونهى عن الابتداء في الدباء والحنتم والمزفت والنقير ، واختلفوا هل نسخ ذلك ؟ فقالت طائفة : لم ينسخ ذلك ، لأن أحاديث النسخ ليست مشهورة ، ولهذا لم يخرج البخاري ما فيه نسخ عام . وقال الاكثرون : بل نسخ ذلك ، ثم قالت طائفة منهم انما نسخ الى الاباحة ، فزيارة القبور مباحة لا مستحبة ، وهذا قول في مذهب مالك وأحمد ، وقالوا لأن صيغة أفعل بعد الحظر انما تفيد الاباحة ، كما قال في الحديث (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، وكنت نهيتكم عن الابتداء في الاوعية فاتبدؤوا ، ولا تشربوا مسكرا) وقد روى (ولا تقولوا هجرا) وهذا يدل على أن النهي كان لما يقال عندها من الاقوال المنكرة سدا للذريعة ، كالنهي عن الابتداء في الاوعية كان ، لأن الشدة المطربة تدب فيها ولا يدري بذلك ، فيشرب الشارب الخمر وهو لا يدري ، وقال الاكثرون : زيارة قبور المؤمنين مستحبة للدعاء للموتى مع السلام عليهم ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يخرج الى البقيع فيدعو لهم ، وكما ثبت في الصحيحين أنه خرج الى شهداء أحد فصلى عليهم صلاته على الموتى كالمودع للاحياء والاموات ، وثبت في الصحيح (أنه كان يعلم أصحابه اذا زاروا القبور أن يقولوا السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين ، وانا ان شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لاتحرمنا أجرهم ، ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم) وهذا في زيارة قبور المؤمنين ، وأما زيارة قبر الكافر فرخص فيه لاجل تذكارة الآخرة ، ولا يجوز الاستغفار لهم ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، وقال : (استأذنت ربي في أن أزور قبرها فأذن لي ، واستأذنته في أن أستغفر لها فلم يأذن لي ، فزوروا القبور فانها تذكركم الآخرة) .

والعلماء المتنازعون ، كل منهم يحتج بدليل شرعي ، ويكون عند بعضهم من العلم ما ليس عند الآخر ، فان العلماء ورثة الانبياء ، قال الله تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً)^(١)

(١) الانبياء : ٧٨ ، ٧٩

والاقوال الثلاثة صحيحة باعتبار ، فان الزيارة اذا تضمنت أمرا محرما من شرك أو كذب أو نذب أو نياحة وقول هجر فهي محرمة بالاجماع ، كزيارة المشركين بالله والساخطين لحكم الله ، فان هؤلاء زيارتهم محرمة ، فانه لا يقبل دين الا الاسلام ، وهو الاستسلام لخالفه وأمره ، فنسلم لما قدره الله وقضاه ، ونسلم لما يأمر به ونجبه ، وهذا نفعه وندعو اليه ، وذلك نسله وتتوكل فيه عليه ، فرضى بالله ربا وبالاسلام ديننا ، وبمحمد نبيا ونقول في صلاتنا (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) مثل قوله : (اَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)^(١) وقوله : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ . وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)^(٢) .

والنوع الثاني : زيارة القبور لمجرد الحزن على الميت لقربته أو صداقته ، فهذه مباحة كما يباح البكاء على الميت بلا نذب ولا نياحة ، كما زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، وقال : (زوروا القبور فانها تذكركم الآخرة) فهذه الزيارة كان ينهى عنها لما كانوا يصنعون من المنكر ، فلما عرفوا الاسلام أذن فيها ، لأن فيها مصلحة وهو تذكير الموت ، فكثير من الناس اذا رأى قريبه وهو مقبور ذكر الموت واستعد للآخرة ، وقد يحصل منه جزع فيتعارض الامران ، ونفس الجنس مباح ان قصد به طاعة ، وان عمل معصية كان معصية .

وأما النوع الثالث : فهو زيارتها للدعاء لها - كالصلاة على الجنائز - فهذا هو المستحب الذي دلت السنة على استحبابه ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فعله ، وكان يعلم أصحابه مايقولون اذا زاروا القبور .

وأما زيارة قباه فيستحب لمن أتى المدينة أن يأتي قباه فيصلي في مسجدها ، وكذلك يستحب له عند الجمهور أن يأتي البقيع وشهداء أحد ، كما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل ، فزيارة القبور للدعاء للميت من جنس الصلاة على الجنائز يقصد فيها الدعاء لهم ، لا يقصد فيها أن يدعو مخلوقا من دون الله ، ولا يجوز أن تتخذ مساجد ، ولا تقصد لكون الدعاء عندها أو بها أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت .

(١) البقرة : ١٥٣ (٢) هود : ١١٤ ، ١١٥

والصلاة على الجنائز أفضل باتفاق المسلمين من الدعاء للموتى عند قبورهم ، وهذا مشروع ، بل هو فرض على الكفاية متواتر متفق عليه بين المسلمين ، ولو جاء انسان الى سرير الميت يدعوه من دون الله ويستغيث به لكان هذا شركا محرما باجماع المسلمين ، ولو ندبه وناح لكان أيضا محرما وهو دون الاول .

فمن احتج بزيارة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل البقيع وأهل أحد على الزيارة التي يفعلها أهل الشرك وأهل النياحة فهو أعظم ضلالا ممن يحتج بصلاته على الجنائز على أنه يجوز أن يشرك بالميت ، ويدعى من دون الله ، ويندب ويناح عليه ، كما يفعل ذلك من يستدل بهذا الذي فعله الرسول - وهو عبادة لله وطاعة له ، يثاب عليه الفاعل وينتفع المدعو له ويرضى به الرب - على أنه يجوز أن يفعل ما هو شرك بالله ، وايداء للميت ، وظلم من العبد لنفسه ، كزيارة المشركين وأهل الجزع ، الذين لا يخلصون له الدين ، ولا يسلمون لما حكم به سبحانه وتعالى ، فكل زيارة تتضمن فعل مانهى عنه وترك ما أمر به كالتى تتضمن الجزع ، وقول الهجر ، وترك الصبر ، أو تتضمن الشرك ، أو دعاء غير الله وترك اخلاص الدين لله ، فهي منهى عنه . وهذه الثانية أعظم اثما من الاولى ، ولا يجوز أن يصلى اليها ، بل ولا عندها ، بل ذلك مما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : (لاتصلوا الى القبور ، ولا تجلسوا عليها) رواه مسلم في صحيحه .

فزيارة القبور على وجهين : وجه نهى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ، واتفق العلماء على أنه غير مشروع ، وهو أن يتخذها مساجد ويتخذها وثنا ، ويتخذها عيدا ، فلا يجوز أن تقصد للصلاة الشرعية ، ولا أن تعبد كما تعبد الاوثان ، ولا أن تتخذ عيدا يجتمع اليها في وقت معين كما يجتمع المسلمون في عرفة ومنى .

وأما الزيارة الشرعية : فهي مستحبة عند الاكثرين وقيل : مباحة ، وقيل : كلها منهى عنه كما تقدم ، والذي تدل عليه الادلة الشرعية أنه يحمل المطلق من كلام العلماء على المقيد .

وتفصيل الزيارة على ثلاثة أنواع : منهى عنه ، ومباح ، ومستحب ، وهو الصواب ، قال مالك وغيره لا تأت الا هذه الآثار : (مسجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومسجد قباء ، وأهل البقيع ، وأحد) فان النبي صلى الله تعالى عليه

وسلم لم يكن يقصد الا هذين المسجدين وهاتين المقبرتين ، كان يصلي يوم الجمعة في مسجده ، ويوم السبت يذهب الى قباء ، كما في الصحيحين عن ابن عمر : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتي قباء كل سبت راكباً وماثياً فيصلّي فيه ركعتين) وأما أحاديث النهي فكثيرة مشهورة في الصحيحين وغيرهما ، كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد) ثم ذكر الأحاديث الواردة في ذلك ، وقد سبق ذكرها غير مرة ، ومنها : قوله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود : (ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد) رواه الامام أحمد في مسنده ، وأبو حاتم في صحيحه ، وفي سنن أبي داود عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لاتتخذوا قبوري عيداً ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني) . وفي موطأ مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (اللهم لاتجعل قبوري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ثم ذكر الأثر المشهور في سنن سعيد بن منصور ، وقال : فلما أراد الأئمة اتباع سنته في زيارة قبره والسلام طلبوا مايعتمدون عليه من سنته ، فاعتمد الامام أحمد على الحديث الذي في السنن عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما من رجل يسلم علي الا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) وعنه أخذ أبو داود ذلك ، فلم يذكر في زيارة قبره غير هذا الحديث ، وترجم عليه (بساب زيارة القبر) مع أن دلالة الحديث على المقصود فيها نزاع وتفصيل ، فانه لايدل على كل مايسميه الناس زيارة باتفاق المسلمين ، ويبقى الكلام المذكور فيه هل هو السلام عند القبر - كما كان من دخل على عائشة يسلم عليه - أو يتناول هذا والسلام عليه من خارج الحجرة ؟ فالذين استدلوا به جعلوه متناولاً لهذا وهذا ، وهو غاية ما كان عندهم في هذا الباب عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم يسمع السلام من القبر ، وتبلغه الملائكة الصلاة والسلام عليه من البعيد كما في النسائي عنه صلى الله عليه وسلم : (أن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام) وفي السنن عن أوس بن أوس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة فان صلاتكم معروضة علي ، قالوا : كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ فقال ان الله حرم على الارض أن تأكل لحوم الانبياء) صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

وذكر مالك في موطنه أن عبد الله بن عمر كان يأتي فيقول : السلام عليك
يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا آبت ، ثم ينصرف ، وفي رواية
كان إذا قدم من سفر ، وعلى هذا اعتمد مالك رحمه الله فيما يفعل عند الحجره اذ
لم يكن عنده الا أثر ابن عمر ، وأما ما زاد على ذلك مثل الوقوف للدعاء للنبي صلى
الله عليه وسلم مع كثرة الصلاة والسلام عليه - فقد كرهه مالك ، وذكر أنه بدعة
لم يفعلها السلف ، ولا يصلح آخر هذه الامة الا ما أصلح أولها ، والله تعالى أعلم •
هذا ما وجدناه من (الجواب الباهر) وبه علم مذهب الشيخ في زيارة القبور ،
وان ماتكلم به الخصوم من غلاة الشافعية ونحوهم هو محض بهتان وزور ، وله
رضي الله تعالى عنه كتاب آخر في مباحث الزيارة ، بحث فيه مع بعض من اعترض
عليه من علماء المالكية ، وهو أبسط منا ذكرنا ، وفيه مسائل مهمة أيضا ، فنذكر منه
ما يخص المقام :

(قال المعترض المالكي) وورد في زيارة قبره صلى الله عليه وسلم أحاديث
صحيحة وغيرها مما لم تبلغ درجة الصحيح ، لكنها يجوز الاستدلال بها على الاحكام
الشرعية ، ويحصل بها الترجيح •

(قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى) والجواب من وجوه : (أحدها) أن
يقال : لو ورد من ذلك ما هو صحيح لكان انما يدل على مطلق الزيارة ، وليس في
جواب الاستفتاء نهى مطلق عن الزيارة ، ولا حكى في ذلك نزاع في الجواب ، وانما
فيه ذكر النزاع فيمن لم يكن سفره الا لمجرد زيارة قبور الانبياء والصالحين ،
وحيث فلو كان في هذا الباب حديث صحيح لم يتناول محل النزاع ، ولا فيه رد
على ما ذكره المجيب من النزاع والاجماع •

(الثاني) أنه لو قدر أنه ورد في زيارة قبره أحاديث صحيحة لكان المراد بها
هو المراد بقول من قال من العلماء : انه يستحب زيارة قبره ، ومرادهم بذلك السفر
الى مسجده ، وفي مسجده يسلم عليه ويصلى عليه ، ويدعى له ويثنى عليه ، ليس
المراد أنه يدخل الى قبره ويصلى عليه ، وحيث فهذا المراد قد استجبه المجيب ،
وذكر أنه مستحب بالنص والاجماع ، فمن حكى عن المجيب أنه لا يستحب ما استجبه
علماء المسلمين من زيارة قبره على الوجه المشروع فقد استحق ما يستحقه الكاذب
المفتري ، واذا كان يستحب هذا وهو المراد بزيارة قبره فزيارة قبره بهذا المعنى من
مواقع الاجماع لا من موارد النزاع •

(الثالث) أن نقول : قول القائل أنه ورد في زيارة قبره أحاديث صحيحة قول لم يذكر عليه دليلا ، فاذا قيل له : لانسلم أنه ورد في ذلك حديث صحيح احتج الى الجواب ، وهو لم يذكر شيئا من تلك الاحاديث كما ذكر قوله : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها) وكما ذكر زيارته لأهل البقيع وأحد ، فان هذا صحيح ، وهنا لم يذكر شيئا من الحديث الصحيح ، فبقي ما ذكره دعوى مجردة تقابل بالمنع . (الوجه الرابع) أن نقول : هذا قول باطل ، لم يقله أحد من علماء المسلمين العارفين بالصحيح ، وليس في الاحاديث التي رويت بلفظ زيارة قبره حديث صحيح عند أهل المعرفة ، ولم يخرج أرباب الصحيح شيئا من ذلك ولا أرباب السنن المعتمدة ، كسنن أبي داود والنسائي والترمذي ونحوهم ، ولا أهل المساند التي من هذا الجنس ، كمسند أحمد وغيره ، ولا في موطأ مالك ، ولا في مسند الشافعي ونحو ذلك شيء من ذلك ، ولا احتج امام من أئمة المسلمين - كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم - بحديث فيه ذكر زيارة قبره ، فكيف يكون في ذلك أحاديث صحيحة ولم يعرفها أحد من أئمة الدين ولا علماء الحديث ؟ ومن أين لهذا وأمثاله أن تلك الاحاديث صحيحة وهو لا يعرف هذا الشأن ؟!

(الوجه الخامس) قوله : وغيرها مما لم تبلغ درجة الصحيح ، لكنها يجوز الاستدلال بها على الاحكام الشرعية ويحصل بها الترجيح ، فيقال له : اصطلاح الترمذي ومن بعده أن الاحاديث ثلاثة أقسام : صحيح ، وحسن ، وضعيف ، والضعيف قد يكون موضوعا فعلم أنه كذب ، وقد لا يكون كذلك ، فما ليس بصحيح ان كان حسنا على هذا الاصطلاح احتج به ، وهو لم يذكر حديثا وبين أنه حسن يجوز الاستدلال به ، فنقول له : لانسلم أنه ورد من ذلك ما يجوز الاستدلال به ، وهو لم يذكر الادعوى مجردة فتقابل بالمنع .

(الوجه السادس) أن يقال : ليس في هذا الباب ما يجوز الاستدلال به ، بل كلها ضعيفة ، بل موضوعة ، كما قد بسط في مواضع ، وذكرت هذه الاحاديث ، وذكرت كلام الائمة عليها حديثا حديثا ، بل ولا عرف عن أحد من الصحابة أنه تكلم بلفظ زيارة قبره البتة فلم يكن هذا اللفظ معروفا عندهم ، ولهذا كره مالك التكلم بخلاف لفظ زيارة القبور مطلقا ، فان هذا اللفظ معروف عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعن أصحابه ، وفي القرآن (أهلًا كم التكاثر حتى زرتم المقابر) لكن معناه عند الاكثرين الموت ، وعند طائفة هي زيارتها لاتتأخر بالموتى والتكاثر ، وأما

لفظ قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المخصوص فلا يعرف لا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه ، وكل ما يروى فيه فهو ضعيف ، بل هو كذب موضوع عند أهل العلم بالحديث ، كما قد بسط هذا في مواضع .

(الوجه السابع) أن يقال : الذين أثبتوا استحباب السلام عليه عند الحجره - كمالك ، وابن حبيب ، وأحمد بن حنبل ، وأبي داود - احتجوا بفعل ابن عمر ، كما احتج بذلك مالك وأحمد وغيرهما ، وأما الحديث الذي رواه أبو داود وغيره باسناد جيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما من رجل يسلم علي الا رد الله علي روعي حتى أرد عليه السلام) فهذا عمدة أحمد وأبي داود وابن حبيب وأمثالهم ، وليس في لفظ الحديث المعروف في السنن والمسند عند قيري ، لكن عرفوا أن هذا هو المراد ، وأنه لم يرد على كل مسلم عليه في صلاة في شرق الارض وغربها مع أن هذا المعنى ان كان هو المراد بطل الاستدلال بالحديث من كل وجه على اختصاص تلك البقعة بالسلام ، وان كان المراد السلام عليه عند قبره - كما فهمه عامة العلماء - فهل يدخل فيه من سلم من خارج الحجره ؟ هذا مما تنازع فيه الناس ، وقد توزعوا في دلالاته : فمن الناس من يقول هذا انما يتناول من سلم عليه عند قبره ، كما كانوا يدخلون الحجره على زمن عائشة فيسلمون على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكان يرد عليهم ، فأولئك سلموا عليه عند قبره وكان يرد عليهم ، وهذا قد جاء عموما في حق المؤمنين (ما من رجل يسر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه الا رد الله عليه روجه حتى يرد عليه السلام) قالوا فأما من كان في المسجد فهؤلاء لم يسلموا عليه عند قبره ، بل سلامهم عليه كالسلام عليه في الصلاة وكالسلام عليه اذا دخل المسجد وخرج ، وهذا هو السلام الذي أمر الله به في حقه بقوله (صلوا عليه وسلموا تسليما) وهذا السلام قد ورد أنه من سلم عليه مرة سلم الله عليه عشرة ، كما أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرة ، فاما أثر من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرة فهو ثابت من وجوه ، بعضها في الصحيح كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي ، فانه من صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشرة ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فانها درجة في الجنة لا تنبغي الا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة) وهذا مروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير هذا الوجه ، كما في حديث العلاء ابن

عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا) •
وأما السلام فقد جاء أيضا في أحاديث ، من أشهرها حديث عبد الله بن المبارك، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن سليمان مولى الحسن بن علي ، عن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنه جاء ذات يوم بالبشر يرى في وجهه ، فقال : أنه جاءني جبريل فقال : أما يرضيك يا محمد أن الله يقول انه لا يصلي عليك أحد من أمتك الا صليت عليه عشرا ، ولا يسلم عليك أحد من أمتك الا سلمت عليه عشرا ؟!) وقد روى في عدة أحاديث أن الله يصلي على كل من صلى عليه ، ويسلم على كل من سلم عليه ، ولم يذكر عددا لكن الحنة بعشر أمثالها ، فالمقيد يفسر المطلق • قال القاضي عياض من رواية عبد الرحمن ابن عوف عنه عليه السلام قال : (لقيت جبريل فقال لي : أبشرك أن الله يقول من سلم عليك سلمت عليه ، ومن صلى عليك سلمت عليه) قال ونحوه من رواية أبي هريرة ، ومالك بن أوس بن الحدثان وعبد الله بن أبي طلحة ، قلت وبسط الكلام على هذه الاحاديث له موضع آخر •

والمقصود هنا : أن ما أمر الله به من الصلاة والسلام عليه هو كما أمر به صلى الله عليه وسلم من الدعاء له بالوسيلة ، وهذا أمر اختص هو به ، فان الله أمر بذلك في حقه بعينه مخصوصا بذلك ، وان كان السلام على جميع عباد الله الصالحين مشروعا على وجه العموم ، وقد قيل : ان الصلاة تكره على غير الانبياء ، وغلا بعضهم فقال تكره على غيره من الانبياء ، وكذلك قال بعض المتأخرين في السلام على غير الانبياء ، ولكن الصواب الذي عليه عامة العلماء أنه يسلم على غيره ، وأما الصلاة فقد جوزها أحمد وغيره والنزاع فيها معروف • وفي تفسير شيان عن قتادة قال حدث أنس بن مالك عن أبي طلحة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اذا سلمتم علي فسلموا على المرسلين فانما أنا رسول من المرسلين) وهكذا رواه ابن أبي عاصم في كتاب الصلاة ، ورواه ابن أبي حاتم وغيره ، ولم يذكروا فيه سماع قتادة له ، وهو في تفسير سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة مرسلا ، وقد قال الله تعالى في كتابه : (قل الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى)^(١) وقال : (وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين^(١) وقال لما ذكر نوحا ، و ابراهيم ، وموسى ، وهارون والياسين : (وترَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ)^(٢) (وترَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)^(٣) (وترَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)^(٤) (وترَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَى الْيَاسِينَ)^(٥) .

والمقصود هنا : أن هذا السلام - المأمور به خصوصا والمشروع في الصلاة وغيرها عموما على كل عبد صالح كقول المصلي السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فان هذا - ثابت في الشهادات المروية عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كلها ، مثل حديث ابن مسعود الذي في الصحيحين ، وحديث أبي موسى وابن عباس اللذين رواهما مسلم ، وحديث ابن عمر وعائشة وجابر وغيرهم التي في المساند والسنن ، وهذا السلام لا يقتضي ردا من المسلم عليه ، بل هو بمنزلة دعاء المؤمن للمؤمنين واستغفاره لهم ، فيه الأجر والثواب من الله ، ليس على المدعو لهم مثل ذلك الدعاء بخلاف سلام التحية فانه مشروع بالنص والاجماع في حق كل مسلم ، وعلى المسلم عليه أن يرد السلام ولو كان المسلم عليه كافرا ، فان هذا من العدل الواجب ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يرد على اليهود اذا سلوا بقوله : (وعليكم) واذا سلم على معين تعين الرد ، واذا سلم على جماعة فهل ردهم فرض على الاعيان أو على الكفاية ؟ على قولين معروفين ، هما قولان في مذهب أحمد وغيره ، وسلام الزائر للقبر على الميت المؤمن هو من هذا الباب ، ولهذا روى أن الميت يرد السلام مطلقا . فالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم في مسجده وسائر المساجد وسائر البقاع مشروع بالكتاب والسنة والاجماع ، وأما السلام عليه عند قبره من داخل الحجرة فهذا كان مشروعا لما كان ممكنا بدخول من يدخل على عائشة ، وأما تخصيص هذا السلام والصلاة بالمكان القريب من الحجرة فهذا محل النزاع ، وللعلماء في ذلك ثلاثة أقوال :

منهم من ذكر استحباب الصلاة والسلام عليه اذا دخل المسجد ، ثم بعد أن يصلي في المسجد استحباب أيضا أن يأتي الى القبر ويصلي ويسلم ، كما ذكر ذلك طائفة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد .

(١) الصافات : ١٨١ ، ١٨٢ (٢) الصافات : ٧٨ ، ٧٩ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ، ١٣٠

ومنهم من لم يذكر الا الثاني فقط ، وكثير من السلف لم يذكروا الا النوع الاول فقط ، فأما النوع الاول فهو المشروع لأهل البلد وللقرياء في هذا المسجد وغير هذا المسجد ، وأما النوع الثاني فهو الذي فرق من استجبهه بسين أهل البلد والقرياء ، سواء فعله مع الاول أو مجردا عنه ، كما ذكر ذلك ابن حبيب وغيره اذا دخل مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم قال : باسم الله ، وسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، السلام علينا من ربنا ، وصلى الله وملائكته على محمد ، اللهم اغفر لي وافتح لي أبواب رحمتك وجنتك ، وجنبي من الشيطان الرجيم . ثم اقصد الى الروضة وهي ما بين القبر والمنبر فاركع فيها ركعتين قبل وقوفك بالقبر ، تحملي الله فيها ، وتسأله تمام ماخرجت اليه والعمون عليه ، وان كانت ركعتك في غير الروضة اجزائك وفي الروضة أفضل . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ، ومنبري على ترعة من ترع الجنة) ثم تقف بالقبر متواضعا ، وتصلي عليه ، وتشبي بما يحضر ، وتسلم على أبي بكر وعمر ، وتدعو لهما ، وأكثر من الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالليل والنهار ، ولا تدع أن تأتي مسجد قباء وقبور الشهداء .

قلت : وهذا الذي ذكره من استحباب الصلاة في الروضة قول طائفة ، وهو المنقول عن الامام أحمد في مناسك المروزي .

واما مالك فنقل عنه يستحب التطوع في موضع صلاة النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل لا يتعين لذلك موضع من المسجد ، وأما الفرض فيصله في الصف الاول مع الامام بلا ريب والذي ثبت في الصحيح عن سلمة بن الاكوع أنه كان يتحرى الصلاة عند الاسطوانة ، وأما ما قصد تخصيصه بالصلاة فيه فالصلاة فيه أفضل ، وأما مقامه فانما كان يقوم فيه اذا كان إماما يصلي بهم الفرض ، والسنة أن يقف الامام وسط المسجد امام القوم ، فلما زيد في المسجد صار موقف الامام في الزيادة .

والمقصود معرفة ماورد عن السلف من الصلاة والسلام عليه صلى الله تعالى عليه وسلم عند دخول المسجد وعند القبر ، ففي مسند أبي يعلى الموصلي : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا جعفر بن ابراهيم من ولد ذي الجناحين ، حدثنا علي بن عمر عن أبيه علي ابن الحسين ، أنه رأى رجلا يجيء الى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فيدعو فيها ، فقال : ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(لا تتخذوا قبوري عيدا ولا بيوتكم قبورا فان تسليمكم يبلغني أينما كنتم) وهذا الحديث مما أخرجه الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي فيما اختاره من الاحاديث الجياد الزائدة على ما في الصحيحين ، وهو أعلى مرتبة من تصحيح الحاكم ، وهو قريب من تصحيح الترمذي وأبي حاتم البستي ونحوهما ، فان الغلط في هذا قليل ، ليس هو مثل صحيح الحاكم ، فان فيه أحاديث كثيرة يظهر أنها كذب موضوعة ، فلهذا انحطت درجته عن درجة غيره ، فهذا علي بن الحسين زين العابدين وهو من أجل التابعين علما ودينا ، حتى قال الزهري مارأيت هاشميا مثله ، وهو يذكر هذا الحديث باسناده ولفظه : (لا تتخذوا بيتي عيدا ، فان تسليمكم يبلغني أينما كنتم) وهذا يقتضي أنه لامزية للسلام عليه عند بيته ، كما لامزية للصلاة عليه عند بيته ، بل قد نهى عن تخصيص بيته بهذا ، وهذا وحديث الصلاة مشهور في سنن أبي داود وغيره من حديث عبد الله بن نافع ، قال : أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبوري عيدا ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم) وهذا حديث حسن ، ورواته ثقات مشاهير ، لكن عبد الله بن نافع الصائغ فيه لين لا يمنع الاحتجاج به ، قال يحيى بن معين : هو ثقة وحسبك بآبن معين موثقا . وقال أبو زرعة : لا بأس به . وقال أبو حاتم الرازي : ليس بالحافظ هو لين تعرف وتنكر ، قلت : ومثل هذا قد يخاف أنه يغلط أحيانا ، فاذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ ، وهذا له شواهد متعددة قد بسطت في غير هذا الموضع ، كما رواه سعيد ابن منصور في سننه ، حدثنا حبان ، حدثنا علي ، حدثني محمد بن عجلان عن أبي سعيد مولى المهدي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تتخذوا بيتي عيدا ، ولا بيوتكم قبورا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني) وقال سعيد أيضا : حدثنا عبد العزيز بن محمد ، أخبرني سهيل بن أبي سهيل ، قال : رأيت الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر فناداني - وهو في بيت فاطمة يتعشى - فقال : هلم الى العشاء ، فقلت : لا أريده ، فقال : مالي رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اذا دخلت المسجد فسلم عليه . ثم قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تتخذوا بيتي عيدا ، ولا بيوتكم مقابر ، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم ، ما أتمتم ومن بالاندلس منه الا سواء) رواه اسماعيل بن اسحق

في كتاب الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يذكر هذه الزيادة وهي قوله : (ماأنتم ومن بالاندلس الا سواء) لأن مذهبه أن القادم من سفر والمريد للسفر سلامه أفضل ، وأن الغرباء يسلمون اذا دخلوا وخرجوا ، وهذه مزية على من بالاندلس ، والحسن ابن الحسن وغيره لايفرقون بين أهل المدينة والغرباء ، ولا بين المسافرين وغيره ، فرواه القاضي اسمعيل عن ابراهيم بن حمزة ، حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن سهل بن أبي سهل قال : جئت أسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وحسن بن حسن يتعشى في بيت عند النبي صلى الله عليه وسلم فدعاني فجئته ، فقال : أدن فتعش ، قال قلت لأريده ، قال : مالي رأيتك وقفت ؟ قلت وقفت أسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : اذا دخلت فسلم عليه ، ثم قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (صلوا في بيوتكم ، ولا تجعلوا بيوتكم مقابر ، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم) ولم يذكر قول الحسن ، فهذا فيه أنه أمره أن يسلم عند دخول المسجد ، وهو السلام المشروع الذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وجماعة من السلف ، كانوا يسلمون عليه اذا دخلوا المسجد ، وهذا مشروع في كل مسجد ، وهذا الحسن بن الحسن المثنى وهو من التابعين وهو من ظهر علي بن الحسين هذا ابن الحسن وهذا ابن الحسين ، وقد ذكر القاضي عياض هذا عن الحسن بن علي نفسه - رضي الله عنهم أجمعين - فقال : وعن الحسن بن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (حيثما كنتم فصلوا علي فان صلاتكم تبلغني) قال : وعن الحسن بن علي اذا دخلت المسجد فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاتتخذوا بيوتي عيدا ، ولا تتخذوا بيوتكم قبورا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم) .

قلت والصلاة والسلام عليه عند دخول المسجد مأثور عنه صلى الله عليه وسلم وعن غير واحد من الصحابة والتابعين ، مثل الحديث الذي في المسند والترمذي وابن ماجة عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ، وقال رب اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك) هذا لفظ الترمذي ، وفي غيره أنه صلى الله عليه وسلم أمر بذلك ، وفي سنن أبي داود عن أبي أسيد أو أبي حميد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اذا دخل أحدكم المسجد فليسلم وليصل على النبي صلى الله عليه

وسلم ، وليقل (••) وذكر الحديث • وقال الضحاك ابن عثمان : حدثنا سعيد المقبري عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وليقل اللهم أجرني من الشيطان الرجيم) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ، قال القاضي عياض : ومن مواطن الصلاة والسلام عليه دخول المسجد ، قال أبو اسحق بن شعبان : وينبغي لمن دخل المسجد أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، ويترحم عليه وعلى آله ، ويبارك عليه وعلى آله ، ويسلم عليه تسليماً ، ويقول : اللهم اغفر لي وافتح لي أبواب رحمتك وفضلك ، قال : وقال عمرو بن دينار في قوله (فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ)^(١)

قال : ان لم يكن في البيت أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، قال : وقال ابن عباس : المراد بالبيوت المساجد ، وقال النخعي : اذا لم يكن في البيت أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، قال : وعن علقمة قال اذا دخلت المسجد أقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، صلى الله وملائكته على محمد ، قال ونحوه عن كعب اذا دخل وخرج ولم يذكر الصلاة ، قال : واحتج ابن شعبان لما ذكره بحديث فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعله اذا دخل المسجد ، قال : ومثله عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وذكر السلام والرحمة ، قال : وروى ابن وهب عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (اذا دخلت المسجد فصل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقل اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك) وفي رواية أخرى فليسلم وليصل ويقول اذا خرج اللهم إني أسألك من فضلك ، وفي أخرى اللهم احفظني من الشيطان ، وعن محمد بن سيرين كان الناس يقولون اذا دخلوا المسجد : صلى الله وملائكته على محمد ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، باسم الله دخلنا وباسم الله خرجنا ، وعلى الله توكلنا ، وكانوا يقولون اذا خرجوا مثل ذلك ، قلت هذا فيه حديث مرفوع في سنن أبي داود وغيره أنه يقال عند دخول المسجد : (اللهم اني أسألك خير المولج وخير المخرج ، باسم الله ولجنا وباسم الله خرجنا وعلى الله توكلنا) قال القاضي عياض وعن أبي هريرة اذا دخل أحدكم المسجد فليصل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وليقل اللهم

افتح لي ، وقلت وروى ابن أبي حاتم من حديث سفیان الثوري عن ضرار بن مرة عن مجاهد في هذه الآية (فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَاسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً) قال اذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، واذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله ، واذا دخلت على أهلك فقل السلام عليكم ، قلت والآثار مبسوطة في مواضع •

والمقصود هنا : أن نعرف ما كان عليه السلف من الفرق بين ما أمر الله به من الصلاة والسلام عليه وبين سلام التحية الموجب للرد ، الذي يشترك فيه كل مؤمن خي ، ويرد فيه على الكافر ، ولهذا كان الصحابة بالمدينة على عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم - اذا دخلوا المسجد لصلاة أو اعتكاف أو تعليم أو تعلم أو ذكر لله ودعاء له ونحو ذلك مما شرع في المساجد - لم يكونوا يذهبون الى ناحية القبر فيزورونه هناك ، ولا يقفون خارج الحجرة ، كما لم يكونوا يدخلون الحجرة أيضا لزيارة قبره ، فلم يكن الصحابة بالمدينة يزورون قبره لا من المسجد خارج الحجرة ولا داخل الحجرة ، ولا كانوا أيضا يأتون من بيوتهم لمجرد زيارة قبره ، بل هذا من البدع التي أنكرها الأئمة والعلماء ، وان كان الزائر منهم ليس مقصوده الا الصلاة والسلام عليه ، ويبنوا أن السلف لم يفعلوها ، كما ذكره مالك في (المبسوط) وقد ذكره أصحابه ، كأبي الوليد الباجي ، والفاضل عياض وغيرهما •

قيل لمالك : ان ناسا من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه إلا يفعلون ذلك ، أي يقفون على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيصلون عليه ويدعون له ولأبي بكر وعمر ، يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر ، وربما وقفوا في الجمعة والايام المرة والمرة أو أكثر عند القبر يسلمون ويدعون ساعة فقال : لم يبلغني هذا عن أهل الفقه ببلدنا ، ولن يصلح آخر هذه الأمة الا ما أصلح أولها ، ولم يبلغني هذا عن أول هذه الامة وصدرها أنهم يفعلون ذلك ، ويكره الا لمن جاء من سفر أو أراد ، فقد كره مالك رحمه الله هذا ، وبين أنه لم يبلغه هذا عن أهل العلم بالمدينة ولا عن صدر هذه الامة وأولها وهم الصحابة ، وأن ذلك يكره لأهل المدينة الا عند السفر ، ومعلوم أن أهل المدينة لا يكره لهم زيارة قبور أهل البقيع وشهداء أحد وغيرهم ، بل هم في ذلك ليسوا دون سائر الامصار ، فاذا لم يكره لأولئك زيارة القبور بل يستحب لهم زيارتها عند جمهور العلماء - كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل - فأهل

المدينة أولى أن لا يكره لهم ، بل يستحب لهم زيارة القبور كما يستحب لغيرهم اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن قبر النبي صلى الله عليه وسلم خص بالمنع شرعا وحسا ، كما دفن في الحجرة ومنع الناس من زيارة قبره من الحجرة ، كما يزار سائر القبور فيصل الزائر الى عند القبر ، وقبر النبي صلى الله عليه وسلم ليس كذلك ، فلا تستحب هذه الزيارة في حقه ولا تمكن ، وهذا لعلو قدره وشرفه لا لكون غيره أفضل منه ، فان هذا لا يقوله أحد من المسلمين فضلا عن الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين بالمدينة وغيرها .

ومن هنا غلط طائفة من الناس ، يقولون : اذا كانت زيارة قبر آحاد الناس مستحبة فكيف بقبر سيد الاولين والآخرين صلوات الله وسلامه عليه ، وهؤلاء ظنوا أن زيارة قبر الميت مطلقا هو من باب الاكرام والتعظيم له ، والرسول صلى الله عليه وسلم أحق بالاكرام والتعظيم من كل أحد ، وظنوا أن ترك الزيارة فيها تنقص لكرامته ، وخالفوا السنة واجماع الامة سلفها وخلفها ، فقولهم نظير قول من يقول اذا كانت زيارة القبور يصل الزائر فيها الى قبر المزور فان ذلك أبلغ في الدعاء له ، وان كان مقصوده دعاءه ، كما يقصده أهل البدع ، فهو أبلغ في دعائه ، فالرسول صلى الله عليه وسلم أولى أن نصل الى قبره اذا زرناه .

وقد ثبت بالتواتر واجماع الامة أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يشرع الوصول الى قبره للدعاء له ، ولا لدعائه ، ولا لغير ذلك ، بل غيره يصل على قبره عند أكثر السلف ، كما دلت عليه الاحاديث الصحيحة ، ووالصلاة على القبر كالصلاة على الجنائز تشرع مع القرب والمشاهدة ، وهو بالاجماع لا يصل على قبره ، سواء كان للصلاة حد محدود أو كان يصل على القبر مطلقا ، ولم يعرف أن أحدا من الصحابة الغائبين لما قدم صلى على قبره صلى الله عليه وسلم ، وزيارة القبور المشروعة هي مشروعة مع الوصول الى القبر بمشاهدته ، وهذه الزيارة غير مشروعة في حقه بالنص والاجماع ، ولا هي أيضا ممكنة ، فتبين غلط هؤلاء الذين قاسوه على عموم المسلمين وهذا من باب القياس الفاسد ، ومن قاس قياس الاولى ولم يعلم ما اختص به كل واحد من القياس والمقيس به كان قياسه من جنس قياس المشركين الذين كانوا يقيسون الميتة على المذكي ، ويقولون للمسلمين أأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ؟ فأنزل الله تعالى : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ

إِنكُمْ لَمَشْرِكُونَ^(١)) وكذلك لما أخبر الله أن الاصنام التي تعبد هي وعابدها حسب جهنم قاس ابن الزبيري قبل أن يسلم هو وغيره من المشركين عيسى بها ، وقالوا يجب أن يعذب عيسى ، قال : (وَمَا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وقالوا أَلْهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ^(٢)) ثم قال : (إِنَّ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ)^(٣) وبين تعالى الفرق بقوله : (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)^(٤) بين أن من كان صالحا نبيا أو غير نبي لم يعذب لأجل من أشرك به وعبده وهو بريء من اشراكهم ، وأما الاصنام فهي حجارة تجعل حصبا للنار ، وقد قيل أنها من الحجارة التي قال الله تعالى فيها وقودها الناس والحجارة ، وقال تعالى : (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) وبسط هذا له موضع آخر .

(والمقصود هنا) أن يعرف أن ماضت به سنته وكان عليه خلفاؤه وأصحابه وأهل العلم والدين بالمدينة من تركهم لزيارة قبره أكمل في القيام بحق الله وحق رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهو أكمل وأفضل وأحسن مما يفعل مع غيره ، وهو أيضا في حق الله وتوحيده أكمل وأتم وأبلغ .

وأما كونه أتم في حق الله فلائن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ويدخل في العبادة جميع خصائص الرب ، فلا يتقى غيره ، ولا يضاف غيره ، ولا يتوكل على غيره ، ولا يدعى غيره ، ولا يصلى لغيره ، ولا يصام لغيره ، ولا يتصدق الا له ، ولا يحج الا الى بيته ، قال تعالى : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا لَهُمُ الرِّسَالَاتِ وَالرَّسُولَ ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده ، وقال : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا

(١) الانعام : ١٢١ (٢) الزخرف : ٥٧ - ٥٩ (٣) الانبياء : ١٠١ (٤) النور : ٥٢

الله من فضله ورُسُوله إِنَّا الى الله رَاغِبُونَ^(١) فجعل الايتاء لله والرسول ،
 وجعل التوكل والرغبة لله وحده وقال: (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ
 فَارْغَبْ) وقال: (وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَيَايَ
 فَارْهَبُونَ . وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ)^(٢)
 وقال تعالى: (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ
 وَلَا تَحْوِيلًا)^(٣) وقال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا
 خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا
 أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)^(٤) وقال تعالى: (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ
 مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا
 مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ . وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ)^(٥)
 وهذا الباب واسع ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس (إذا سألت فاسأل
 الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله) وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم في صفة
 السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب (هم الذين لا يسترقون ولا يكتون ،
 ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون) فهم لا يطلبون من غيرهم أن يرقهم ، والرقية
 دعاء فكيف بما هو أبلغ من ذلك •

ومعلوم أنه لو اتخذ قبره عيداً ومسجداً ووثناً صار الناس يدعونه ويتضرعون
 إليه ، ويسألونه ويتوكلون عليه ، ويستغيثون ويستجيرون به ، وربما سجدوا له
 وطافوا به ، وصاروا يحجون إليه ، وهذه كلها من حقوق الله وحده الذي لا يشركه
 فيها مخلوق ، وكان من حكمة الله دفنه في حجرته ، ومنع الناس من مشاهدة قبره ،
 والعكوف عليه والزيارة له ونحو ذلك لتحقيق توحيد الله وعبادته وحده لا شريك
 له وإخلاص الدين لله •

(١) التوبة : ٥٩ (٢) النحل : ٥١ ، ٥٢ (٣) الاسراء : ٥٦ (٤) الاحقاف : ٤ (٥) نساء : ٢٢ ، ٢٣

وأما قبور أهل البقيع ونحوهم من المؤمنين : فلا يحصل ذلك عندها ، وإذا قدر أن ذلك فعل عندها منع من يفعل ذلك وهدم ما يتخذ عليها من المساجد ، وإن لم تنزل الفتنة إلا بتعفية قبره وتعميته فعل ذلك كما فعله الصحابة بأمر عمر بن الخطاب في قبر دانيال ، وأما كون ذلك أعظم لقدره وأعلى لدرجته فلأن المقصود المشروع بزيارة قبور المؤمنين — كأهل البقيع وشهداء أحد — هو الدعاء ، كما كان هو يفعل ذلك ، كما زارهم وكما سنه لامته •

فلو سن للأمة أن يزوروا قبره للصلاة عليه والسلام عليه والدعاء له — كما كان بعض أهل المدينة يفعل ذلك أحيانا ، وبين مالك أنه بدعة لم تبلغه عن صدر هذه الأمة ولا عن أهل العلم بالمدينة ، وأنها مكروهة ، فإنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها — لكان بعض الناس يزوره ثم تعظيمه في القلوب ، وعلم الخلائق بأنه أفضل الرسل وأعظمهم جاها ، وأنه أوجه الشفعاء إلى ربه تدعو النفس أن تطلب منه حاجاتها وأغراضها وتعرض عن حقه من الصلاة والسلام عليه والدعاء له ، فإن الناس مع ربهم كذلك ، إلا من أنعم الله عليه بحقيقة الإيمان ، وإنما يعظمون الله عند ضرورتهم إليه ، كما قال تعالى : (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لَجُنُوبَهُ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُصْرَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ . كَذَلِكَ زَيْنَ السُّرْفِينِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(١) وقال تعالى : (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ائْتَرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً)^(٢) وقال تعالى : (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)^(٣)

ونظائر هذا في القرآن متعددة فاذا كانوا — إلا من شاء الله — إنما يعظمون ربهم ويوحّدونه ويذكرونه عند ضرورتهم لاغراضهم ، ولا يعرفون حقه إذا خلصهم ، فلا يحبونه ويعبدونه ، ولا يسألونه ، ولا يقومون بطاعته ، فكيف يكونون مع المخلوق ،

(١) يونس : ١٢ (٢) الاسراء : ٥٧ (٣) الزمر : ٨

فهم يطلبون من الانبياء والصالحين أغراضهم ، وذلك مقدم عندهم على حقوق الانبياء والصالحين ، فاذا أيقنوا أن في زيارة قبر نبي: أو صالح تحصيل أغراضهم بسؤاله ودعائه وجاهه وشفاعته أعرضوا عن حقه واشتغلوا بأغراضهم ، كما هو الموجود في عامة الذين يحجون الى القبور المعظمة ويقصدونها لطلب الحوائج ، فلو أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لهم في زيارة قبره ومكنهم من ذلك لأعرضوا عن حق الله الذي يستحقه من عبادته وحقه ، وعن حق الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يستحقه من الصلاة والسلام عليه والدعاء له ، بل ومن جعله واسطة بينهم وبين الله في تبليغ أمره ونهيه وخبره ، فلانوا يهضمون حق الله وحق رسوله ، كما فعلت النصارى ، فانهم بغلوهم في المسيح تركوا حق الله من عبادته وحده ، وتركوا حق المسيح ، فهم لا يدعون له بل هو عندهم رب يدعى ، ولا يقومون بحق رسالته فينظرون ما أمر به وما أخبر به ، بل اشتغلوا بالشرك به وبغيره وبطلب حوائجهم ممن يستغيثون به من الملائكة والانبياء وصالحيهما عما يجب من حقوقهم .

وأياها فلو جعلت الصلاة والسلام عليه والدعاء له عند قبره أفضل منها في غير تلك البقعة — كما قد يكون الدعاء للميت عند قبره أفضل — لكانوا يخصون تلك البقعة بزيادة الدعاء له ، واذا غابوا عنها تنقص صلاتهم وسلامهم ودعاؤهم ، فان الانسان لا يجتهد في الدعاء في المكان المفضول كما يجتهد في المكان الفاضل ، وهم قد أمروا أن يقوموا بحق الرسول صلى الله عليه وسلم في كل مكان ، وأن لا يكون البعيد عن قبره أنقص ايمانا وقياما بحقه من المجاور لقبره ، وقال لهم صلى الله عليه وسلم : (لاتخذوا بيتي عيدا وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني) وقد شرع لهم أن يصلوا عليه ويسألوا له الوسيلة اذا سمعوا المؤذن حيث كانوا ، وأن يصلوا عليه في كل صلاة ، ويصلوا عليه في الصلاة ، ويصلوا عليه اذا دخلوا المسجد واذا خرجوا منه ، فهذا الذي أمروا به عام في كل مكان ، وهو يوجب من القيام بحقه ورفع درجته واعلاء منزلته ما لا يحصل لو جعل ذلك عند قبره أفضل ، ولا اذا سوى بين قبره وقبر غيره ، بل انما يحصل كمال حقه مع حق ربه بفعل ما شرعه ومنه لأتمته من واجب ومستحب ، وهو أن يقوموا بحق الله ثم بحق رسوله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا من المحبة والموااة والطاعة وغير ذلك من الصلاة والسلام والدعاء وغير ذلك ، ولا يقصد تخصيص القبر لما يفضي اليه ذلك من ترك حق الله وحق رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهذا وغيره مما يبين أن ما نهى عنه الناس ومنعوا

منه كان السلف لا يفعلونه من زيارة قبره ، وان كان زيارة قبر غيره مستحبة فهو أعظم لقدره وأرفع لدرجته وأعلى في منزلته ، وان ذلك أقوم بحق الله ، وأتم وأكمل في عبادته وحده لا شريك له ، واخلاص الدين له ، ففي ذلك تحقيق شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وان كان أهل البدع الذين فعلوا ما لم يشرعه بل مانهى عنه ، وخالفوا الصحابة والتابعين لهم باحسان فاستحبوا ما كان أولئك يكرهونه ويمنعون منه : هم مضاهون للنصارى ، وأنهم نقصوا من تحقيق الايمان بالله ورسوله والقيام بحق الله وحق رسوله صلى الله عليه وسلم بقدر ما دخلوا فيه من البدعة التي ضاهوا بها النصارى ، فهذا هذا والله أعلم •

وأیضا فانه اذا أطيع أمره واتبعت سنته كان له من الاجر بقدر أجر من أطاعه واتبع سنته ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (من دعى الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا) وقوله : (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة) •

وأما البدع التي لم يشرعها بل نهى عنها وان كانت متضمنة للغلو فيه والشرك به والاطراء له كما فعلت النصارى فانه لا يحصل بها أجر لمن عمل بها ، فلا يكون للرسول صلى الله عليه وسلم فيها منفعة ، بل صاحبها ان عذر كان ضالا لا أجر له فيها ، وان قامت عليه الحجة استحق العذاب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : (لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فانما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) صلى الله عليه وسلم •

فان قال هؤلاء الذين قاسوا زيارة قبره على زيارة سائر القبور : أن الناس منعوا من الوصول اليه تعظيما لقدره ، وجعل سلامهم وخطابهم له من وراء الحجرة لأن ذلك أبلغ في الادب والتعظيم •

قيل : فهذا موجب الفرق ، فان الزيارة المشروعة ان كان مقصودها الدعاء له فيكون ذلك قريبا من الحجرة أفضل منه في سائر المساجد والبقاع ، فالذي يدعو له داخل الحجرة أقرب ، وان كان القرب مستحبا فكلما كان أقرب كان أفضل كسائر

القبور ، وان كان مقصودها مايقوله أهل الشرك والضلال من دعائه ودعاؤه من القرب أولى فينبغي أن يكون من داخل الحجرة أولي ، ولما ثبت أن هذا القرب من القبر ممنوع منه بالنص والاجماع وهو أيضا غير مقدور علم أن القرب من ذلك ليس بمستحب ، بخلاف زيارة قبر غيره والصلاة على قبره ، فان القرب منه مستحب مالم يفض الى مفسدة من شرك أو بدعة أو نياحة ، فان أفضى الى ذلك منع ذلك •

ومما يوضح هذا : أن الشخص الذي يقصد أتباعه زيارة قبره يجعلون قبره بحيث تمكن زيارته ، فيكون له باب يدخل منه الى القبر ، ويجعل عند القبر مكان للزائر اذا دخل بحيث يتمكن من القعود فيه ، بل يوسع المكان ليسع الزائرين ، ومن اتخذ مسجدا جعل عنده صورة محراب أو قريبا منه ، واذا كان الباب مغلقا جعل له شباك على الطريق ليراه الناس فيه فيدعونه ، وقبر النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف هذا كله لم يجعل للزائر طريق اليه بوجه من الوجوه ، ولا قبر في مكان كبير يتسع للزوار ، ولا جعل للمكان شباك يرى منه القبر ، بل منع الناس من الوصول اليه والمشاهدة له ، ومن أعظم ما من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أمته واستجاب دعاءه أن دفن في بيته بجانب مسجده ، فلا يقدر أحد أن يصلي الا الى المسجد ، والعبادة المشروعة في المسجد معروفة ، بخلاف ما لو كان قبره منفردا عن المسجد ، والمسافر اليه انما يسافر الى المسجد ، وأذا سمي هذا زيارة لقبره فهو اسم لا مسمى له ، انما هو اتيان الى مسجده ، ولهذا لم يطلق السلف هذا اللفظ (١) ولا عند قبره قناديل معلقة ، ولا ستوز مسبلة ، بل انما يعلق القناديل في المسجد المؤسس على التبرير ، ولا يقدر أحد أن يخلق نفس قبره بزعران أو غيره ، ولا ينذر له زيتا ولا شمعا ولا سترا ولا غير ذلك مما ينذر لقبر غيره ، وان كان في بعض الاحوال قد ستر بعض الناس الحجرة أو خلقها بعضهم بزعران فهذا انما هو للحائط الذي يلي المسجد لانفس باطن الحجرة والقبر كما يفعل بقبر غيره وان فعل شيء في ظاهر الحجرة ، فعلم أن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاءه حيث قال : (اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد) وان كان كثير من الناس يريدون أن يجعلوه وثنا ويعتقدون أن ذلك تعظيم له كما يريدون ذلك ويعتقدون في قبر غيره ، فهم لايتمكون من ذلك ، بل هذا القصد والاعتقاد خيال في نفوسهم لاحقيقة له في الخارج ، بخلاف القبر الذي جعل وثنا وان كان الميت وليا لله لا اثم عليه من فعل من أشرك به ، كما لا اثم على المسيح

(١) كذا في الاصل

من اثم من اشرك به ، قال تعالى : (وَاذْ قَالِ اللّٰهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ اَنْتَ قُلْتَ
لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَاُمَّي الْهَيْمِ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ قَالِ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُوْنُ لِي اَنْ اَقُوْلَ
مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ اِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا اَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِكَ اِنَّكَ اَنْتَ عَلٰمُ الْغُيُوْبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ اِلَّا مَا اَمَرْتَنِيْ بِهٖ اَنْ اَعْبُدُوْا
اللّٰهَ رَبِّيْ وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيْهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِيْ كُنْتُ اَنْتَ
الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَاَنْتَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)^(١) وقال تعالى : (وَقَالَ الْمَسِيْحُ يَا بَنِي
اِسْرٰئِيْلَ اَعْبُدُوْا اللّٰهَ رَبِّيْ وَرَبَّكُمْ اِنَّهٗ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّٰهُ عَلَيْهِ
الْجَنَّةَ وَمَا وَاوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظّٰلِمِيْنَ مِنْ اَنْصَارٍ)^(٢) وقال تعالى : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
يَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ فَيَقُوْلُ اَنْتُمْ اَضَلَلْتُمْ عِبَادِيْ هٰؤُلَاءِ اَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيْلَ .
قَالُوْا سُبْحٰنَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِيْ لَنَا اَنْ نَّتَّخِذَ مِنْ دُوْنِكَ مِنْ اَوْلِيَاءٍ وَلٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ
وَاٰبَاءَهُمْ حَتّٰى نَسُوْا الذِّكْرَ وَكَانُوْا قَوْمًا مُّوْرًا . فَتَمَدَّدْ كَذٰبُوْكُمْ بِمَا تَقُوْلُوْنَ فَمَا
تَسْتَطِيْعُوْنَ صِرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلَمْ مِنْكُمْ نَذِيْقُهُ عَذَابًا كَبِيْرًا)^(٣) .

فالمعبودون من دون الله - سواء كانوا اولياء كالملائكة والانبياء والصالحين أو
كانوا اولياء - قد تبرؤا ممن عبدتهم ، وبينوا أنه ليس لهم أن يوالوا من عبدتهم ،
ولا أن يوالهم من عبدتهم ، فالمسيح وغيره وان كانوا براء من الشرك بهم لكن
المقصود بيان ما فضل الله به محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته ، وما أنعم به عليهم
من اقامة التوحيد لله ، والدعوة الى عيادته وحده ، واعلاء كلمته ودينه ، واظهار ما بعثه
الله به من الهدى ودين الحق ، وما عسانه الله به وصال قبره من أن يتخذ مسجدا ،
فان هذا من أقوى أسباب ضلال أهل الكتاب ، ولهذا لعنهم النبي صلى الله عليه
وسلم على ذلك تحذيرا لأمته ، وبين أن هؤلاء شرار الخلق عند الله يوم القيامة ، ولما
كان أصحابه أعلم الناس بدينه وأطوعهم له لم يظهر فيهم من البدع ما ظهر فيمن بعدهم

(١) الأئمة : ١١٦ ، ١١٧ (٢) الأئمة : ٧٢ (٣) الفرقان : ١٧ - ١٩

لا في أمور القبور ولا في غيرها ، فلا يعرف من الصحابة من كان يتعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان فيهم من له ذنوب ، لكن هذا الباب مما عصمهم الله فيه من تعمد الكذب على نبيهم ، وكذلك البدع الظاهرة المشهورة مثل بدعة الخوارج والروافض والقدرية والمرجئة لم يعرف عن أحد من الصحابة شيء من ذلك ، بل النقول الثابتة عنهم تدل على موافقتهم للكتاب والسنة ، وكذلك اجتماع رجال الغيب بهم أو الخضر أو غيره ، وكذلك مجيء الانبياء اليهم في اليقظة وحمل من يحمل منهم الى عرفات ونحو ذلك مما وقع فيه كثير من العباد وظنوا أنه كرامة من الله وكان من اضلال الشياطين لهم لم تطمع الشياطين أن توقع الصحابة في مثل هذا ، فانهم كانوا يعلمون أن هذا كله من الشيطان ورجال الغيب هم الجن ، قال تعالى : (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

وكذلك الشرك بأهل القبور لم يطمع الشيطان أن يوقعهم فيه فلم يكن على عهدهم في الاسلام قبر نبي يسافر اليه ، ولا يقصد للدعاء عنده أو لطلب بركته أو شفاعته أو غير ذلك ، بل أفضل الخلق محمد خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه وقبره عندهم محجوب لا يقصده أحد منهم لشيء من ذلك ، وكذلك كان التابعون لهم باحسان ، ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، وانما تكلم العلماء والسلف في الدعاء للرسول صلى الله عليه وسلم عند قبره ، منهم من نهى عن الوقوف للدعاء دون السلام عليه ، ومنهم من رخص في هذا وهذا ، ومنهم من نهى عن هذا وهذا ، وأما دعاؤه هو وطلب استغفاره وشفاعته بعد موته فهذا لم ينقل عن أحد من أئمة المسلمين لا من الأئمة الاربعة ولا غيرهم ، بل الادعية التي ذكرها خالية عن ذلك .

أما مالك فقد قال القاضي عياض : وقال مالك في المبسوط : لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ويسلم ، ولكن يسلم ويمضي ، وهذا الذي نقله القاضي عياض ذكره القاضي اسمعيل ابن اسحق في المبسوط ، قال : وقال مالك لا أرى أن يقف الرجل عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ولكن يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أبي بكر وعمر ثم يمضي ، وقال مالك ذلك لأن هذا المنقول عن ابن عمر أنه كان يقول السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا أبا بكر السلام عليك يا أبت أو يا أبتاه ثم يتصرف ولا يقف يدعو ، فأرى مالك ذلك من البدع قال : وقال مالك في رواية ابن وهب اذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ودعا

يقف ووجهه الى القبر لا الى القبلة ، ويدنو ويسلم ولا يمس القبر بيده ، فقوله في هذه الرواية اذا سلم ودعا قد يريد بالدعاء السلام ، فانه قال يدنو ويسلم ولا يمس القبر بيده ، ويؤيد ذلك أنه قال في رواية ابن وهب يقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وقد يراد أنه يدعو له بلفظ الصلاة ، كما ذكر في الموطأ من رواية عبد الله بن دينار أنه كان يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أبي بكر وعمر ، وفي رواية يحيى بن يحيى وقد غلظه ابن عبد البر وقالوا انما لفظ الرواية على ما ذكره ابن القاسم والقنبي وغيرهما يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويسلم على أبي بكر وعمر ، وقال أبو الوليد الباجي وعندى أنه يدعو للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلفظ الصلاة ولابي بكر وعمر ، لما في حديث ابن عمر من الخلاف ، قال القاضي عياض : وقال في المبسوط : لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج الى سفر أن يقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيصلي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر ، فان أراد بالدعاء السلام والصلاة فهو موافق لتلك الرواية ، وان أراد دعاء زائدا فهي رواية أخرى ، وبكل حال فانما أراد الدعاء اليسير .

وأما ابن حبيب فقال : ثم يقف بالقبر متواضعا موقرا فيصلي عليه ويشي بما حضر ، ويسلم على أبي بكر وعمر ، فلم يذكر الا الثناء عليه مع الصلاة .

وأما الامام أحمد فذكر الثناء عليه بلفظ الشهادة له بذلك مع الدعاء له بغير الصلاة ، ومع دعاء الداعي لنفسه أيضا لم يذكر أن يطلب منه شيئا ، ولا يقرأ عند القبر قوله تعالى : (ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا) ، كما لم يذكر مالك ذلك ولا المتقدمون من أصحابنا ولا جمهورهم ، بل قال في منسك المروزي : ثم اتت الروضة وهي بين القبر والمنبر فصل فيها وادع بما شئت ، ثم اتت قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقل : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، السلام عليك يا محمد بن عبد الله ، أشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أنك رسول الله ، وأشهد أنك بلغت رسالة ربك ، ونصحت لأمتك ، وجاهدت في سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعبدت الله حتى أتاك اليقين ، فجزاك الله أفضل ماجزى نبيا عن أمته ، ورفع درجتك العليا ، وتقبل شفاعتك الكبرى ، وأعطاك سؤالك في الآخرة والاولى ، كما تقبل من ابراهيم اللهم احشرنا في زمرة ، وتوفنا على سنته ، وأوردنا حوضه ، واستقنا بكأسه مشربا رويانا لانظما بعده أبدا .

وما من دعاء وشهادة وثناء يذكر عند القبر الا وقد وردت السنة بذلك وما هو منه في سائر البقاع ولا يمكن أحدا أن يأتي بذكر يشرع عند القبر دون غيره ، وهذا تحقيق لنهيه أن يتخذ قبره أو بيته عيداً ، فلا يقصد تخصيصه بشيء من الدعاء للرسول صلى الله عليه وسلم فضلاً عن الدعاء لغيره ، بل يدعي بذلك للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم حيث كان الداعي ، فان ذلك يصل اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا بخلاف ما شرع عند قبر غيره ، كقوله : (السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وانا ان شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين) فان هذا لا يشرع الا عند القبور ، ولا يشرع عند غيرها ، وهذا مما يظهر به الفرق بينه وبين غيره ، وان ما شرعه وفعله أصحابه من المنع من زيارة قبره كما تزار القبور هو من فضائله ، وهو رحمة لأمنته ومن تمام نعمة الله عليها ، فالسلف كلهم متفقون على أن الزائر لا يسأله شيئاً ، ولا يطلب منه ما يطلب منه في حياته ويطلب منه يوم القيامة لا شفاعاة ولا استغفار ولا غير ذلك ، وانما كان نزاعهم في الوقوف للدعاء له والسلام عليه عند الحجر ، فبعضهم رأى هذا من السلام الداخل في قوله صلى الله عليه وسلم : (ما من رجل يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) واستحبه لذلك ، وبعضهم لم يستحبه ، إما لعدم دخوله ، وإما لأن السلام المأمور به في القرآن مع الصلاة - وهو السلام الذي لا يوجب الرد - أفضل من السلام الموجب للرد ، فان هذا مما يدل عليه الكتاب والسنة ، واتفق عليه السلف ، فان السلام المأمور به في القرآن كالصلاة المأمور بها في القرآن كلاهما لا يوجب عليه الرد ، بل الله يصلي على من صلى عليه ويسلم على من سلم عليه ، ولأن السلام الذي يوجب الرد هو حق للمسلم كما قال تعالى : (وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا)^(١) ولهذا يرد السلام على من سلم وان كان كافراً ، وكان اليهود اذا سلموا عليه يقول : (عليكم) وأمر أمته بذلك ، وانما قال : (عليكم) لأنهم يقولون السام والسام الموت ، فيقول : (عليكم) قال صلى الله عليه وسلم : (يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا) ولما قالت عائشة : و عليكم السام واللعنة قال : (مهلا يا عائشة فان الله رفيق يحب الرفق في الامر كله ، أو لم تسمعي ما قلت لهم ؟ !) يعني رددت عليهم فقلت

عليكم ، فهذا اذا قالوا السام عليكم ، وأما اذا علم أنهم قالوا السلام فلا يخصون في الرد فيقال عليكم فيصير بمعنى السلام عليكم لا علينا بل يقال وعليكم .

وإذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته عليكم جزاء دعائهم وهو دعاء بالسلامة والسلام أمان فقد يكون المستجاب هي سلامتهم منا أي من ظلمنا وعداوتنا وكذلك كل من رد السلام على غيره فانما دعا له بالسلامة ، وهذا مجمل ، ومن الممتنع أن يكون كل من رد على النبي صلى الله عليه وسلم السلام من الخلق دعا له بالسلامة من عذاب الدنيا والآخرة ، فقد كان المناقون يسلمون عليه ويرد عليهم ، ويرد على المسلمين أصحاب الذنوب وغيرهم ، لكن السلام فيه أمان ، ولهذا لا يتبدأ الكافر العربي بالسلام ، بل لما كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتابه الى قيصر قال فيه : (من محمد رسول الله الى قيصر عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى) كما قال موسى لفرعون ، والحديث في الصحيحين من رواية ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب في قصته المشهورة لما قرأ قيصر كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وسأله عن أحواله .

وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن ابتداء اليهود بالسلام ، فمن العلماء من حمل ذلك على العموم ، ومنهم من رخص اذا كان للسلم اليه حاجة يتبدئه بالسلام بخلاف اللقاء ، والكفار كاليهود والنصارى يسلمون على وعلى أمتهم سلام التحية الموجب للرد ، وأما السلام المطلق فهو كالصلاة عليه انما يتبلي عليه ويسلم عليه أمتهم ، فاليهود والنصارى لا يصلون عليه ويسلمون عليه ، وكانوا اذا رأوه يسلمون عليه ، فذلك الذي يختص به المؤمنون ابتداء وجوابا أفضل من هذا الذي يفعله الكفار معه ومع أمتهم ابتداء وجوابا ، ولا يجوز أن الكفار اذا سلموا عليه سلام التحية فان الله يسلم عليهم عشرا ، بل كان النبي صلى الله عليه وسلم يجيهم على ذلك فيوفيههم كما لو كان لهم دين فقضاه .

وأما ما يختص بالمؤمنين فاذا صلوا عليه صلى الله على من صلى عليه عشرا ، واذا سلم عليه سلم الله عليه عشرا ، وهذا الصلاة والسلام هو المشروع في كل مكان بالكتاب والسنة والاجماع ، بل هو مأمور به من الله سبحانه وتعالى ، لافرق في هذا بين الغرباء وبين أهل المدينة عند القبر .

وأما السلام عليه عند القبر فقد عرف أن الصحابة والتابعين المقيمين بالمدينة لم يكونوا يفعلونه اذا دخلوا المسجد وخرجوا منه ، ولو كان هذا كالسلام عليه لو كان

حيا لكانوا يفعلونه كلما دخلوا المسجد وخرجوا منه كما لو دخلوا المسجد في حياته وهو فيه فانه مشروع لهم كلما رأوه أن يسلموا عليه ، بل السنة لمن جاء الى قوم أن يسلم عليهم اذا قدم واذا قام ، كما أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ، وقال : (ليست الأولى أحق من الآخرة) فهو لما كان حيا كان أحدهم اذا أتى يسلم ، واذا قام يسلم ، ومثل هذا لا يشرع عند القبر باتفاق المسلمين ، وهو معلوم بالاضطرار من عادة الصحابة ، ولو كان سلام التحية خارج الحجرة كان مستحبا لكل أحد . ولهذا كان أكثر السلف لا يفرقون بين الغرباء وأهل المدينة ، ولا بين حال السفر وغيره ، فان استحباب هذا لهؤلاء وكرهته لهؤلاء حكم شرعي يقتدر الى دليل شرعي ، ولا يسكن أحدا أن ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه شرع لأهل المدينة الاتيان عند الوداع للقبر ، وشرع لهم ولغيرهم ذلك عند القدوم من سفر ، وشرع للغرباء تكرير ذلك كلما دخلوا المسجد وخرجوا منه ولم يشرع ذلك لأهل المدينة ، فمثل هذه الشريعة ليس منقولاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن خلفائه ، ولا هو معروف من عمل الصحابة ، وانما نقل عن ابن عمر السلام عند القدوم من السفر ، وليس هذا من عمل الخلفاء وأكابر الصحابة . قلت : روى عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن أيوب عن نافع ، قال : كان ابن عمر اذا قدم من سفر أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا بنتاه ، وأنبأ عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر ، قال معمر : فذكرت ذلك لعبيد الله بن عمر فقال : ما نعلم أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك الا ابن عمر ، هكذا قال عبيد الله بن عمر العمري الكبير ، وهو أعلم آل عمر في زمانه وأحفظهم وأثبتهم ، قال الشيخ كما كان ابن عمر يتحرى الصلاة والنزول والمرور حيث حل ونزل وغير ذلك في السفر .

وجمهور الصحابة لم يكونوا يصنعون ذلك بل أبوه عمر كان ينهى عن مثل ذلك ، كما روى سعيد بن منصور في سننه : حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن المعروز بن سويد عن عمر قال : خرجنا معه في حجة حجها فقراً بنا في صلاة الفجر (ألم تسر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) و (لا يلاف قريش) في الثانية فلما رجع من حجته رأى الناس ابتدروا المسجد ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم اتخذوا آثار الانبياء بيعاً من عرضت له منكم فيه الصلاة فليصل ومن لم تعرض له فليمض ، وما اتفق عليه الصحابة

ابن عمر وغيره - من أنه لا يستحب لأهل المدينة الوقوف عند القبر للسلام إذا دخلوا المسجد وخرجوا بل يكره ذلك - بين ضعف حجة من احتج بقوله : (ما من رجل يسلم علي الا رد الله علي روعي حتى أرد عليه السلام) فان هذا لو دل على استحباب السلام عليه من المسجد لما اتفق الصحابة على ترك ذلك ، ولم يفرق في ذلك بين القادم من السفر وغيره ، فلما اتفقوا على ترك ذلك مع تسييره علم أنه غير مستحب ، بل لو كان جائزا لفعله بعضهم ، فدل على أنه كان من المنهي عنه كما دلت عليه سائر الاحاديث •

وعلى هذا فالجواب عن الحديث اما بتضعيفه على قول من يضعفه ، واما بان ذلك يوجب فضيلة الرسول صلى الله عليه وسلم لافضيلة المسلم بالرد عليه اذا كان هذا من باب المكافأة والجزاء ، حتى أنه يشرع للبر والفاجر التحية بخلاف ما يقصد به الدعاء المجرد وهو السلام للمأمور به ، وإما بأن يقال : هذا مما هو فيمن سلم عليه من قريب ، والقريب أن يكون في بيته ، فانه ان لم يحد بذلك لم يبق له حد محدود من جهة الشرع ، كما تقدم ذكر هذا •

وأما الوجه : فتوجيهه أن الحديث ليس فيه ثناء على المسلم ولا مدح له ولا ترغيب له في ذلك ، ولا ذكر أجر له كما جاء في الصلاة والسلام للمأمور بهما ، فانه قد وعد أن من صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرا ، وكذلك من سلم عليه ، وأيضا فهو مأمور بهما وكل مأمور به ففاعله محمود مشكور مأجور وأما قوله : (ما من رجل يمر بقبر الرجل فيسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ، وما من رجل يسلم علي الا رد الله علي روعي حتى أرد عليه السلام) فانما فيه مدح المسلم عليه والاعتراف بسماعه السلام ، وأنه يرد السلام فيكافيء المسلم عليه لا يقضى للمسلم عليه فضل ، فانه بالرد يحصل المكافأة ، كما قال تعالى : (وَإِذَا حُيِّمَ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها) ولهذا كان الرد من باب العدل للمأمور به الواجب لكل مسلم اذا كان سلامه مشروعا ، وهذا كقوله : (من سألنا أعطيناه ومن لم يسألنا أحب إلينا) هو اخبار باعطائه السائل ، ليس هذا أمر بالسؤال وان كان السلام ليس مثل السؤال لكن هذا اللفظ انما يدل على مدح الراد •

وأما المسلم فيقف الأمر فيه على الدليل ، وإذا كان المشروع لأهل المدينة أن لا يقفوا عند الحجرة ويسلموا عليه علم قطعا أن الحديث لم يرغب في ذلك ، ومما بين ذلك أن مسجده كسائر المساجد لم يختص بجنس من العبادات لا تشرع في غيره ، وكذلك المسجد الأقصى ، ولكن خصا بأن العبادة فيهما أفضل ، بخلاف المسجد الحرام فإنه مخصوص بالزواف واستلام الركن وتقبيل الحجر وغير ذلك ، وأما المسجدان الآخران فما يشرع فيهما من صلاة وذكر واعتكاف وتعلم وتعليم وثناء على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وصلاة عليه وتسليم وغير ذلك من العبادات فهو مشروع في سائر المساجد ، والعمل الذي يسمى زيارة لقبره لا يكون الا في مسجده لا خارجا عن المسجد ، فعلم أن المشروع من ذلك العمل مشروع في سائر المساجد لا اختصاص لقبره بجنس من أجناس العبادات ، ولكن العبادة في مسجده أفضل منها في غيره لأجل المسجد لا لأجل التبر ، قال الشيخ ومما يوضح هذا أنه لم يعرف عن أحد من الصحابة أنه تكلم باسم زيارة قبره لا ترغيبا في ذلك ولا غير ترغيب ، فعلم أن مسمى هذا الاسم لم يكن له حقيقة عندهم ؛ ثم ذكر ما حكيناها عنه فيما تقدم •

ثم قال : والمقصود أن هذا كله بين ضعف حجة الفرق بين الصادر من المدينة والوارد عليها ، والوارد على مسجده من الغرباء والصادر عنه ، وذلك أنه يمتنع أن يقال أنه يرد على هؤلاء ولا يرد على أحد من أهل المدينة المقيمين بها ، فإن أولئك هم أفضل أمته وخواصها ، وهم الذين خاطبهم بهذا ، فيمتنع أن يكون المعنى من سلم منكم يا أهل المدينة لم أرد عليه مادمت مقيمين بها ، فإن المقام بها هو غالب أوقاتهم ، وليس في الحديث تخصيص ، ولا عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل على ذلك •

بين هذا : أن الحجرة لما كانت مفتوحة وكانوا يدخلون على عائشة لبعض الامور فيسلمون عليه انما كان يرد عليهم اذا سلموا •

فان قيل : انه لم يكن يرد عليهم فهذا تعطيل للحديث •

وان قيل : كان يرد عليهم من هناك ولا يرد اذا سلموا من خارج فقد أظهر الفرق •

وان قيل : بل هو يرد على الجميع فحينئذ ان كان رده لا يقتضي استحباب هذا السلام بطل الاستدلال به ، وان كان رده يقتضي الاستحباب وهو الآن مختص بمن سلم من خارج لزم أن يستحب لأهل المدينة عند الحجرة كلما دخلوا المسجد وخرجوا وهو خلاف ما أجمع عليه الصحابة والتابعون لهم باحسان وخلاف قول الفرقين ، ومن

أهل المدينة من قد لايسافر منها أولا يسافر الا للحج والقادم قد يقيم بالمدينة العشر والشهر ، فهذا يرد عليه عشر مرات في اليوم والليلة وأكثر كلما دخل وخرج وذاك المدني المقيم لا يرد عليه قط في عمره ولا مرة •

وأیضا فاستحباب هذا للوارد والصادر تشبيه له بالطواف الذي يشرع للحج عند الورد الى مكة - وهو الذي يسمى طواف القدوم وطواف التحية وطواف الورد - وعند الصدور - وهو الذي يسمى طواف الوداع - وهذا تشبيه لبيت المخلوق ببيت الخالق ، ولهذا لايجوز الطواف بالحجرة بالاجماع ولا الصلاة اليها ، كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم عن أبي مرثد الغنوي أنه قال : قال صلى الله تعالى عليه وسلم : (لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها) وأيضا فالطواف بالبيت لأهل مكة ولغيرهم كلما دخلوا المسجد والوقوف عند القبر كلما دخل المدني لا يشرع بالاتفاق ، فلم يبق الفرق بين المدني وغير المدني له أصل في السنة ولا نظير في الشريعة ، ولا هو مما سنه الخلفاء الراشدون وعمل به عامة الصحابة ، فلا يجوز أن يجعل هذا من شريعته وسنته ، وإذا فعله من الصحابة الواحد والاثنان والثلاثة وأكثر دون غيرهم كان غايته أنه يثبت به التسوية ، بحيث يكون هذا مانعا من دعوى الاجماع على خلافه ، بل يكون كسائر المسائل التي ساغ فيها الاجتهاد لبعض العلماء ، أما أن يجعل من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وشريعته وحكم ماتدل عليه سنته لكون بعض السلف فعل ذلك فهذا لايجوز ، ونظير هذا مسحه للقبر قال أبو بكر الاثرم قلت لأبي عبد الله يعني الامام أحمد قبر النبي صلى الله عليه وسلم يلمس ويتمسح به قال ما أعرف هذا ، قلت فالمنبر ، قال أما المنبر فنعم قد جاء فيه ، قال أبو عبد الله شيء يروونه عن ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن ابن عمر أنه مسح على المنبر ، قال ويروونه عن سعيد بن المسيب في الرمانة ، قلت ويروى عن يحيى بن سعيد يعني الانصاري شيخ مالك وغيره أنه حيث أراد الخروج الى العراق جاء الى المنبر فمسحه ودعا فرأيته استحسنت ذلك ، ثم قال لعله عند الضرورة ، قلت لأبي عبد الله أنهم يلصقون بطونهم بجدار القبر وقلت له ورأيت أهل العلم من أهل المدينة لايمسونه ويقومون ناحيته فيسلمون ، فقال أبو عبد الله نعم وهكذا كان ابن عمر يفعل ذلك ، ثم قال أبو عبد الله بأبي وأمي صلى الله تعالى عليه وسلم •

وقد ذكر أحمد بن حنبل أيضا في منسك المروزي نظير ما نقل عن ابن عمر وابن المسيب ويحيى ابن سعيد ، وهذا كله يدل على التسوية وأن هذا مما فعله بعض

الصحابة ، فلا يقال انعقد اجماعهم على تركه بحيث يكون فعل من فعل ذلك اقتداء ببعض السلف لم يتدع هو شيئاً من عنده ، وأما أن الرسول صلى الله عليه وسلم ندب الى ذلك ورغب فيه وجعله عبادة وطاعة يشرع فعلها فهذا يحتاج الى دليل شرعي لا يكفي في ذلك فعل بعض السلف ، ولا يجوز أن يقال أن الله ورسوله يجب ذلك أو يكرهه ، وأنه سن ذلك وشرعه أو نهى عن ذلك وكرهه أو نحو ذلك الا بدليل يدل على ذلك ، لاسيما اذا عرف أن جمهور أصحابه لم يكونوا يفعلون ذلك ، فيقال: لو كان هو ندبهم الى ذلك وأحبه لفعلوه ، فانهم كانوا أحرص الناس على الخير ونظائر هذا متعددة والله أعلم •

والمؤمن قد يتحرى الدعاء والصلاة في مكان دون مكان لاجتماع قلبه فيه ، وحصول خشوعه فيه ، لا لأنه يرى الشارع فضل ذلك المكان كصلاة الذي يكون في بيته ونحو ذلك ، فمثل هذا اذا لم يكن منها عنه فلا بأس به ويكون ذلك مستحبا في حق ذلك الشخص لكون عبادته فيه أفضل ، كما اذا صلى القوم خلف امام يحبونه كانت صلاتهم أفضل من أن يصلوا خلف من هم له كارهون ، وقد يكون العمل المفضول في حق بعض الناس أفضل لكونه أنفع له وكونه أرغب فيه وهو أحب اليه من عمل أفضل منه لكونه يعجز عنه فهذا يختلف بحسب اختلاف الاشخاص ، وهو غير ماثب فضل جنسه بالشرع كما ثبت أن الصلاة أفضل ، ثم القراءة ، ثم الذكر بالادلة ، مع أن العمل المفضول في مكانه هو أفضل من الفاضل في غير مكانه ، كفضيلة الذكر والدعاء والقراءة بعد الفجر والعصر على الصلاة المنهى عنها في هذا الوقت ، وكفضيلة التسبيح في الركوع والسجود على القراءة لأنه نهى أن يقرأ القرآن راكبا أو ساجدا ، وكفضيلة آخر القرآن هناك (١) لأنه موطن الدعاء ، ونظائر هذا متعددة ، وبسط هذا له موضع آخر •

لكن المقصود هنا : أن يعلم أن ما قيل إنه مستحب للأمة قد ندبهم اليه الرسول صلى الله عليه وسلم ورغبهم فيه فلا بد له من دليل يدل على ذلك ، ولا يضاف الى الرسول صلى الله عليه وسلم الا ما صدر عنه ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي فرض الله على جميع الخلق الايمان به وطاعته واتباعه ، وإيجاب ما أوجبه وتحريم ما حرمه ، وشرع ما شرعه ، وبه فرق الله بين الهدى والضلال ، والرشاد والغي ، والحق والباطل ، والمعروف والمنكر ، وهو الذي شهد الله له بأنه يدعو اليه

(١) كذا في الاصل

بأذنه ويهدي الى صراط مستقيم ، وهو الذي جعل الرب طاعته طاعة له في مثل قوله :
(مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)^(١) وقوله : (وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطِيعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)^(٢) وهو الذي لاسبيل لأحد الى النجاة الا بطاعته ، ولا يسأل
الناس يوم القيامة الا عن الايمان به واتباعه وطاعته ، وبه يمتحنون في القبور ، قال
تعالى : (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)^(٣) وهو الذي أخذ الله
الميثاق على النبيين وأمرهم أن يأخذوا على أممهم الميثاق أنه اذا جاءهم أن يؤمنوا به
ويصدقوه ، وهو الذي فرق الله به بين أهل الجنة والنار ، فمن آمن به وأطاعه
كان من أهل الجنة ، ومن كذبه وعصاه كان من أهل النار ، قال تعالى : (وَمَنْ
يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا
وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ)^(٤) والوعد بسعادة الدنيا والآخرة ، والوعيد بشقاوة الدنيا
والآخرة يتعلق بطاعته ، فطاعته هي الصراط المستقيم ، وهي جبل الله المتين ، وهي
العروة الوثقى ، وأصحابها هم أولياء الله المتقون ، وحزبه المفلحون ، وجنده الغالبون
والمخالفون لهم هم أعداء الله ، حزب ابليس اللعين ، قال تعالى : (وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ
عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا
خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلنَّاسِ خَذُولًا)^(٥)
وقال تعالى : (يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا
الرَّسُولَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا . رَبَّنَا آتِهِمْ
ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا)^(٦) وقال تعالى : (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)^(٧) وقال تعالى : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

(١) النساء : ٨٠ (٢) النساء : ٤٤ (٣) الاعراف : ٦ (٤) النساء : ١٣ ، ١٤ (٥) الفرقان : ٢٧ - ٢٩

(٦) الاحزاب : ٦٦ - ٦٨ (٧) آل عمران : ٣٢

حَتَّى يُحْكُمُوا فِيكَ فَتُدْعَىٰ فِيهَا شَجَرَتَيْنِ بَيْنَهُمَا تَمْرٌ لَا يَجِدُ فِيهِمَا أَنْفُسَهُمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلَّمُوا
تَسْلِيمًا) ^(١) وقال تعالى: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ
يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ^(٢) وقال تعالى (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ
أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّاهِدِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا .
ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ) ^(٣) وجميع الرسل أخبروا بأن الله أمر بطاعتهم ، كما قال تعالى :
(وما أرسلنا من رسولٍ إلا ليطاع بإذنِ اللهِ) يأمرون بعبادة الله وحده وتقواه وحده
وخشيته وحده ويأمرون بطاعتهم كما قال تعالى : (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله
ويتقوه فاولئك هم الفائزون) ^(٤) وقال نوح (اعبدوا الله واتقوه واطيعون)
وقال في الشعراء: (فاتقوا الله واطيعون) وكذلك قال هود وصالح ولوط وشعيب
« والناس محتاجون الى الايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم فطاعته في كل زمان
ومكان ليلا ونهارا سفرا وحضرا سرا وعلانية جماعة وفرادى وهم أحوج الى ذلك من
الطعام والشراب بل من النفس فانهم متى فقدوا ذلك فالتار جزاء من كذب بالرسول
وتولى عن طاعته كما قال تعالى (فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقي الذي
كذب وتولى) أي كذب بما أخبر به وتولى عن طاعته كما قال تعالى في موضع آخر:
(فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولى) أي كذب بما أخبر به وتولى عن
طاعته وقال تعالى : (إنا أرسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى
فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً مبيناً) ^(٥) وقال : (فكيف
إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً . يومئذ يود الذين كفروا
وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً) ^(٦)

والله تعالى قد سماه سراجا منيرا وسمى الشمس سراجا وهاجا ، والناس الى

(١) النساء : ٦٥ (٢) النور : ٦٣ (٣) النساء ، ٦٩ ، ٧٠ (٤) النور : ٥٢ (٥) الزمل : ١٥ (٦) النساء :

السراج المنير أوج منهم الى السراج الوهاج ، فانهم يحتاجون اليه ليلا ونهارا سرا وعلائية ، وهو أنفع لهم ، فانه منير ليس فيه أذى ، بخلاف الوهاج فانه ينفع تارة ويضر أخرى ، ولما كانت حاجة الناس الى الرسول صلى الله عليه وسلم والايمان به وطاعته ومحبه وموالاته وتعظيمه وتعزيره وتوقيره عامة في كل مكان وزمان كان ماؤمر به من حقوقه عاما لا يختص بقبره ، فمن خص قبره بشيء من الحقوق كان جاهلا بقدر الرسول صلى الله عليه وسلم وقدر ماأمر الله به من حقوقه ، وكل من اشتغل بما أمر الله به من طاعته شغله عما نهى عنه من البدع المتعلقة بقبره وقبر غيره، ومن اشتغل بالبدع المنهي عنها ترك ماأمر به الرسول صلى الله عليه وسلم من حقه ، فطاعته هي مناط السعادة والنجاة ، والذين يحجون الى القبور ويدعون الموتى من الانبياء وغيرهم عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأشركوا بالرب ، فقاتهم ماأمروا به من تحقيق التوحيد ، والايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو تحقيق شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجميع الخلق يأتون يوم القيامة فيسألون عن هذين الأصلين : ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟ كما بسط هذا في موضعه •

والمقصود : أن الصحابة كانوا في زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين يدخلون المسجد ، ويصلون فيه الصلوات الخمس . ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ويسلمون عليه عند دخول المسجد وبعد دخوله ، ولم يكونوا يذهبون ويقفون الى جانب الحجره ويسلمون عليه هناك ، وكان على عهد الخلفاء الراشدين والصحابة حجرته خارجة عن المسجد ، ولم يكن بينهم وبينه الا الجدار ، ثم إنه انما أدخلت الحجره في المسجد في خلافة الوليد بن عبد الملك بعد موت عامة الصحابة الذين كانوا بالمدينة ، وكان من آخرهم موتا جابر بن عبد الله ، وتوفي في خلافة عبد الملك ، فانه توفي سنة ثمان وسبعين ، والوليد تولى سنة ست وثمانين وتوفي سنة ست وتسعين فكان بناء المسجد وادخال الحجره فيه فيما بين ذلك ، وقد ذكر أبو زيد عمر بن شبه النميري في كتاب أخبار المدينة - مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم - عن أشياخه وعن حدثوا عنه أن عمر بن عبد العزيز لما كان نائبا للوليد على المدينة في سنة احدى وتسعين هدم المسجد وبناه بالحجارة المنقوشة ، وعمل سقفه بالساج وماء الذهب ، وهدم حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فأدخلها في المسجد ، وأدخل القبر فيه •

ثم ذكر الشيخ الآثار المروية في عمارة عمر بن عبد العزيز المسجد وزيادته فيه ، وذكر أن حكم الزيادة حكم المزيد ، فقال : وقد جاءت الآثار بأن حكم الزيادة في مسجده حكم المزيد ، تضعف فيه الصلاة بألف صلاة ، كما أن المسجد الحرام حكم الزيادة فيه حكم المزيد ، فيجوز الطواف فيه والطواف لا يكون الا في المسجد لا خارجا منه ، ولهذا اتفق الصحابة على أنهم يصلون في الصف الاول من الزيادة التي زادها عمر ثم عثمان ، وعلى ذلك عمل المسلمين كلهم ، فلولا أن حكمه حكم مسجده لكانت تلك صلاة في غير مسجده ، والصحابة وسائر المسلمين بعدهم لا يحافظون على العدول عن مسجده الى غير مسجده ويأمرون بذلك ، قال أبو زيد : حدثني محمد بن يحيى ، حدثني من أتق به أن عمر زاد في المسجد من القبلة الى موضع المقصورة التي هي به اليوم ، قال ، فأما الذي لا يشك فيه أهل بلدنا أن عثمان هو الذي وضع القبلة في موضعها اليوم ثم لم تغير بعد ذلك .

قال أبو زيد : حدثنا محمد بن يحيى عن محمد بن عثمان عن مصعب بن ثابت عن خباب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال - وهو يوما في مصلاه - لو زدنا في مسجدنا وأشار بيده نحو القبلة ، حدثنا محمد بن يحيى ، عن محمد بن اسمعيل ، عن ابن أبي ذئب ، قال : قال عمر : لو مد مسجد النبي صلى الله عليه وسلم لكان منه حدثنا محمد بن يحيى ، عن سعد بن سعيد ، عن أخيه عن أبيه عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو بني هذا المسجد الى صنعاء لكان مسجدي ، فكان أبو هريرة يقول : والله لو مد هذا المسجد الى داري ما عدوت أن أصلي فيه ، حدثنا عبد العزيز بن عمران ، عن فليح بن سليمان ، عن ابن أبي عمرة ، قال : زاد عمر في المسجد في شاميه ، ثم قال : لو زدنا فيه حتى يبلغ الجبانة كان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وهذا الذي جاءت به الآثار هو الذي يدل عليه كلام الأئمة المتقدمين وعملهم ، فإنهم قالوا ان الصلاة الفرض خلف الامام أفضل ، وهذا الذي قالوه هو الذي جاءت به السنة ، وكذلك كان الامر على عهد عمر وعثمان ، فان كليهما زاد من قبلي المسجد ، فكان مقامه في الصلاة الخس في الزيادة ، وكذلك مقام الصف الاول الذي هو أفضل مايقام فيه بالسنة والاجماع ، واذا كان كذلك فيمتنع أن تكون الصلاة في غير مسجده أفضل منها في مسجده ، وأن يكون الخلفاء والصفوف الاول كانوا يصلون في غير مسجده ، وما بلغني عن أحد من السلف خلاف هذا ، لكن رأيت بعض المتأخرين قد ذكر أن الزيادة ليست من مسجده ، وما علمت

لمن ذكر ذلك سلفا من العلماء ، قال : وهذه الامور نبهنا عليها ههنا ، فانه يحتاج الى معرفتها ، وأكثر الناس لا يعرفون الامر كيف كان ، ولا حكم الله ورسوله في كثير من ذلك .

وكان من المتفصود أن المسجد لما زاد فيه الوليد وأدخلت فيه الحجرة كان قد مات عامة الصحابة ، ولم يبق الا من أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يبلغ من التمييز الذي يؤمر فيه بالطهارة والصلاة ، ومن المعلوم بالتواتر أن ذلك كان في خلافة الوليد بن عبد الملك ، وقد ذكروا أن ذلك كان سنة احدى وتسعين ، وأن عمر بن عبد العزيز مكث في بناءه ثلاث سنين ، وسنة ثلاث وتسعين مات فيها خلق كثير من التابعين ، مثل سعيد بن المسيب وغيره من الفقهاء السبعة - ويقال لها سنة الفقهاء - وجابر بن عبد الله ، وكان من السابقين الاولين ممن بايع بالعقبة تحت الشجرة ، ولم يكن بقي من هؤلاء غيره لما مات ، وذلك قبل تغيير المسجد بسنين ، ولم يبق بعده من كان بالغا حين موت النبي صلى الله عليه وسلم الا سهل بن سعد الساعدي ، فانه توفي سنة ثمان وثمانين ، وقيل سنة احدى وتسعين ، ولهذا قيل فيه أنه آخر من مات بالمدينة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كما قاله أبو حاتم البستي وغيره .

وأما من مات بعد ذلك فكانوا صغارا : مثل السائب بن زيد الكندي ابن أخت نمر ، فانه مات بالمدينة سنة احدى وتسعين ، وقيل انه مات بعده عبد الله بن طلحة الذي حنكه النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك محمود بن الربيع الذي عقل مجة مجها رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه من بئر كانت في دارهم وله خمس سنين ، مات سنة تسع وتسعين وله ثلاث وتسعون سنة ، وأبو أمامة بن سهل بن حنيف سماه النبي صلى الله عليه وسلم أسعد باسم أسعد بن زرارة ، مات سنة مائة ، لكن هؤلاء لم يكن لهم في حياته من التمييز ما ينقلون عنه أقواله وأفعاله التي ينقلها الصحابة ، مثل ما ينقلها جابر وسهل بن سعد وغيرهما .

وأما ابن عمر فكان قد مات قبل ذلك بعد قتل ابن الزبير بمكة سنة أربع وسبعين وابن عباس مات قبل ذلك بالطائف سنة ثمان وستين ، فهؤلاء وأمثالهم من الصحابة لم يدرك أحد منهم تغيير المسجد وادخال الحجرة فيه ، وأنس بن مالك كان بالبصرة ولم يكن بالمدينة ، وقيل إنه آخر من مات بها من الصحابة .
وكانت حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم شرقي المسجد وقبليه - وقيل

وشاميه - فاشترت من ملاكها ورثة أزواجه وزيدت في المسجد فدخلت حجرة عائشة، وكان الذي تولى ذلك عمر بن عبد العزيز نائب الوليد على المدينة، فسد باب الحجرة وبنوا حائطاً آخر عليها غير الحائط القديم، فصار المسلم عليه من وراء الجدار أبعد من المسلم عليه لما كان جداراً واحداً .

قال هؤلاء : ولو كان سلام التحية الذي يردده على صاحبه مشروعاً في المسجد لكان له حد ذراع أو ذراعان أو ثلاثة ، فلا يعرف الفرق بين المكان الذي يستحب فيه هذا والمكان الذي لا يستحب . فان قيل : من سلم عليه عند الحائط الغربي رد عليه ، قيل : وكذلك من كان خارج المسجد والا فما الفرق حينئذ ، فيلزم أن يرد على جميع أهل الأرض ، وعلى كل مصل في صلاة - كما ظنه بعض الغالطين - ومعلوم بطلان ذلك ، وان قيل يختص بقدر بين المسلم وبين الحجرة ، قيل : فما حد ذلك ؟ وهم لهم قولان : منهم من يستحب القرب من الحجرة كما استحب ذلك مالك وغيره ، ولكن يقال فما حد ذلك القرب ؟ واذا جعل له حد فهل يكون من خرج عن الحد فعل المستحب؟! وآخرون من المتأخرين يستحبون التباعد عن الحجرة ، كما ذكر ذلك من ذكره من أصحاب أبي حنيفة والشافعي ، فهل هو بذراع أو باع أو أكثر؟ وقدره من قدره من أصحاب أبي حنيفة بأربعة أذرع ، فانهم قالوا يكون حين يسلم عليه مستقبل القبلة ، ويجعل الحجرة عن يساره ، ولا يدنو أكثر من ذلك ، وهذا والله أعلم قاله المتقدمون ، لأن المقصود به السلام المأمور به في القرآن كالصلاة عليه ، ليس المقصود به سلام التحية الذي يرد جوابه المسلم عليه ، فان هذا لا يشرع فيه هذا البعد ، ولا يستقبل به القبلة ، ولا يسمع اذا كان بالصوت المعتاد .

وبالجملة : فمن قال إنه يسلم سلام التحية الذي يقصد به الرد فلا بد من تحديد مكان ذلك ، فان قال الى أن يسمع ويرد السلام فان حد في ذلك ذراعاً أو ذراعين أو عشرة أذرع أو قال ان ذلك في المسجد كله أو خارج المسجد فلا بد له من دليل ، والاحاديث الثابتة عنه فيها أن الملائكة يبلغونه صلاة من صلى عليه وسلام من يسلم عليه ، ليس في شيء منها أنه يسمع بنفسه ذلك ، فمن زعم أنه يسمع ويرد من خارج الحجرة من مكان دون مكان فلا بد له من حد ، ومعلوم أنه ليس في ذلك حد شرعي وما أحد يحد في ذلك حدا الا عورض بمن يزيده أو ينقصه ولا فرق .

وأيضاً فذلك يختلف باختلاف ارتفاع الاصوات وانخفاضها ، والسنة للمسلم

في السلام عليه خفض الصوت ، ورفع الصوت في مسجده منهي عنه بالسلام والصلاة وغير ذلك ، بخلاف المسلم من الحجرة ، فانه فرق ظاهر بينه وبين المسلم عليه من المسجد ، ثم السنة لمن دخل مسجده أن يخفض صوته ، فالمسلم عليه أن رفع الصوت أساء الادب برفع الصوت في المسجد ، وان لم يرفع لم يصل الصوت الى داخل الحجرة ، وهذا بخلاف السلام الذي أمر الله به ورسوله ، الذي يسلم الله على صاحبه كما يصلي على من صلى عليه ، فان هذا مشروع في كل مكان لا يختص بالقبر .

وبالجملة : فهذا الموضوع فيه نزاع قديم بين العلماء على كل تقدير ، فلم يكن عند أحد من العلماء الذين استحبوا سلام التحية في المسجد حديث في استحباب زيارة قبره يحتجون به ، فعلم أن هذه الاحاديث ليست مسايعرفه أهل العلم ، ولهذا لما تتبعت وجدت روايتها اما كذاب واما ضعيف سيء الحفظ ونحو ذلك كما قد بين في غير هذا الموضوع ، وهذا الحديث الذي فيه (ما من مسلم يسلم علي الا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) قد احتج به أحمد وغيره من العلماء ، وقيل هو على شرط مسلم ، وهو معروف من حديث حيوة بن شريح المصري الرجل الصالح الثقة ، عن أبي صخر ، عن يزيد ابن عبد الله بن قسيط ، عن أبي هريرة ، وأبو صخر هذا متوسط ، ولهذا اختلف فيه عن يحيى بن معين ، فمرة قال هو ضعيف وواقفه النسائي ومرة قال لا بأس به وواقفه أحمد ، فلو قدر أن هذا مخالف لما هو أصح منه وجب تقديم ذلك عليه ، ولكن السلام على الميت وردة السلام على من سلم عليه قد جاء في غير هذا الحديث ، ولو أريد اثبات سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل هذا الحديث لكان هذا مختلفا فيه ، فالنزاع في اسناده وفي دلالة متنه ، ومسلم روى بهذا الاسناد قوله صلى الله عليه وسلم : (من خرج مع جنازة من بيتها وصلى عليها ثم تبعها حتى تدفن كان له قيراطان من الاجر كل قيراط مثل أحد ، ومن صلى عليها ثم رجع كان له من الاجر مثل أحد) وهذا الحديث قد رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة وعائشة من غير هذا الطريق ، ومسلم قد يروى عن الرجل في المتابعات مالا يرويه فيما انفرد به ، وهذا معروف منه في عدة رجال ، يفرق بين من يروى عنه ما هو معروف من رواية غيره وبين من يعتمد عليه فيما انفرد به ، ولهذا كثير من أهل العلم يمتنعون أن يقولوا في مثل ذلك هو على شرط مسلم أو البخاري ، كما بسط هذا في موضعه .

(الوجه الثامن) أنه لو كان في هذا الباب حديث صحيح لم يخف على الصحابة والتابعين بالمدينة ، ولو كان ذلك معروفا عندهم لم يكره أهل العلم بالمدينة مانك وغيره أن يقول القائل زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما كرهوا هذا القول دل على أنه ليس عندهم فيه أثر لا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا عن أصحابه .

(الوجه التاسع) ان الذين كرهوا هذا القول والذين لم يكرهوه من العلماء متفقون على أن السفر الى زيارة قبره انما هو سفر الى مسجده ، ولو لم يقصد الا السفر الى القبر لم يمكنه أن يسافر الا الى المسجد ، لكن قد يختلف الحكم بينه كما تقدم ، وأما زيارة قبره - كما هو المعروف في زيارة القبور - فهذا ممتنع غير مقدور ولا مشروع ، وبهذا يظهر أن الذين كرهوا أن يسلموا هذا زيارة لقبره قولهم أولى بالصواب ، فان هذا ليس زيارة لقبره ولا فيه ما يختص بالقبر ، بل كل ما يفعل فانما هو عبادة يفعل في المساجد كلها أو في غير المساجد أيضا ، ومعلوم أن زيارة القبر لها اختصاص بالقبر ، ولما كانت زيارة قبره المشروعة انما هي سفر الى مسجده وعبادة في مسجده ليس فيها ما يختص بالقبر كان قول من كره أن يسمى هذا زيارة لقبره أولى بالشرع والعقل واللغة ، ولم يبق الا السفر الى مسجده ، وهذا مشروع بالنص والاجماع ، والذين قالوا يستحب زيارة قبره انما أرادوا هذا ، فليس بين العلماء خلاف في المعنى بل في التسمية والاطلاق ، والمجيب لم يحك نزاعا في استحباب هذه الزيارة الشرعية التي تكون في مسجده ، وبعضهم يسميها زيارة لقبره ، وبعضهم يكره أن تسمى زيارة لقبره ، والمجيب يستحب ما يستحب بالنص والاجماع ، وقد ذكر مافيه النزاع ، فكان الحاكي عنه خلاف هذا كاذبا مفتريا يستحق ما يستحقه أمثاله من المقترين .

(قال المعترض المالكي) وتضافرت النصوص عن الصحابة والتابعين ، وعن السادة العلماء المجتهدين ، بالحض على ذلك والتدب اليه ، والغبطة لمن سارع لذلك ودوام عليه ، حتى نجا بعضهم في ذلك الى الوجوب ، ورفع عن المباح والمندوب ، ولم يزل الناس مطبقين على ذلك قولاً وعملاً ، لا يشكون في ندبه ولا يفتنون عنه حولاً ، وفي مسند ابن أبي شيبه (من صلى علي عند قبري سمعته ، ومن صلى علي نائياً سمعته) .

(قال الشيخ) هكذا في النسخة التي حضرت الي مكتوبة عن المعترض ، وقد صحح (ومن صلى علي نائيا سمعته) وهو غلط ، فان لفظ الحديث (من صلى علي عند قبري سمعته ، ومن صلى علي نائيا بلغته) هكذا ذكره الناس ، وهكذا ذكره القاضي عياض عن ابن أبي شيبة ، وهذا المعترض عمدته في مثل هذا كتاب القاضي عياض ، وهذا الحديث قد رواه البيهقي وغيره من حديث العلاء بن عمرو الحنفي ، حدثنا أبو عبد الرحمن عن الاعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : (من صلى علي عند قبري سمعته ، ومن صلى علي نائيا بلغته) قال البيهقي أبو عبد الرحمن هذا هو محمد بن مروان السدي فيما أرى وفيه نظر ، وقد مضى ما يؤكد .

قلت : هو تبليغ صلاة أمته وسلامهم عليه ، كما في الاحاديث المعروفة ، مثل الحديث الذي في سنن أبي داود وغيره عن حسين الجعفي ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن أبي الاشعث الصنعاني ، عن أوس ابن أوس الثقفي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فآكثروا علي من الصلاة فيه ، فان صلاتكم معروضة علي ، قالوا وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت -- يقولون بليت - فقال: ان الله حرم على الارض أن تأكل أجساد الانبياء) وهذا الحديث رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه ، ورواه أبو حاتم ، قال البيهقي : وله شواهد ، وروى حديثين عن ابن مسعود وأبي أمامة وله شواهد أكثر مما ذكر البيهقي .

(منها) مارواه ابن ماجه ، حدثنا عمرو بن سواد المصري ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن سعيد ابن أبي هلال ، عن زيد بن أيمن ، عن عبادة بن نسي ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (آكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة ، فانه مشهود تشهد الملائكة ، وان أحدا لن يصلي علي الا عرضت علي صلاته حتى يفرغ منها ، قال قلت وبعد الموت ، قال وبعد الموت ، ان الله حرم على الارض أن تأكل أجساد الانبياء) ورواه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تهذيب الآثار من حديث سعيد بن أبي هلال كما تقدم .

(ومنها) مارواه أبو داود وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى

الله عليه وسلم أنه قال : (لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبري عيدا ، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) وهذا له شواهد مراسيل من وجوه مختلفة يصدق بعضها بعضها .

(ومنها) ما رواه سعيد بن منصور في سننه : حدثنا جبان بن علي ، حدثنا محمد بن عجلان عن أبي سعيد مولى المهري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تتخذوا بيتي عيدا ولا بيوتكم قبورا ، وصلوا علي حيث كنتم فإن صلاتكم تبلغني) وقال سعيد : حدثنا عبد العزيز بن محمد ، أخبرني سهيل ابن أبي سهيل ، قال : رأيت الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر فننادني - وهو في بيت فاطمة يتعشى - فقال : هلم الي العشاء . فقلت : لا أريده ، فقال : مالي رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : اذا دخلت المسجد فسلم عليه ، ثم قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تتخذوا بيتي عيدا ، ولا بيوتكم مقابر ، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم ، ما أنتم ومن بالاندلس منه الا سواء) ورواه اسمعيل بن اسحق القاضي في كتاب فضل الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولفظه قال : مالي رأيتك وقتت ؟ قلت : وقتت أسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : اذا دخلت المسجد فسلم وذكر الحديث ولم يذكر قول الحسن ، وقال اسمعيل : حدثنا ابراهيم بن الحجاج عن وهيب عن أيوب السخيتاني قال : بلغني والله أعلم أن ملكا موكل بكل من صلى على النبي صلى الله عليه وسلم حتى يبلغه .

وأما السلام : ففي النسائي وغيره من حديث سفيان الثوري ، عن عبد الله ابن السائب ، عن زاذان ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (ان لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام) وفي الحديث الذي تقدم من رواية أبي يعلى الموصلي - وقد تقدم اسناده - عن علي بن الحسين ، أنه رأى رجلا يحيي الى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تتخذوا بيتي عيدا ولا بيوتكم قبورا فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم) فهذه الاحاديث المعروفة عند أهل العلم التي جاءت من وجوه حسان يصدق بعضها بعضا ، وهي متفقة على أن من صلى عليه وسلم من أمته فإن ذلك يبلغه ويعرض عليه ،

وليس في شيء منها أنه يسمع صوت المصلى عليه والمسلم بنفسه ، إنما فيها أن ذلك يعرض عليه ويبلغه صلى الله عليه وسلم تسليماً .

ومعلوم أنه أراد بذلك الصلاة والسلام الذي أمر الله به ، سواء صلى عليه وسلم في مسجده أو مدينته أو مكان آخر ، فعلم أن ما أمر الله به من ذلك فإنه يبلغه .
وأما من سلم عليه عند قبره فإنه يرد عليه ، وذلك كالسلام على سائر المؤمنين ، ليس هو من خصائصه ، ولا هو السلام المأمور به الذي يسلم الله على صاحبه عشرًا كما يصلي على من صلى عليه عشرًا ، فإن هذا هو الذي أمر الله به في القرآن ، وهو لا يختص بمكان دون مكان وقد تقدم حديث أبي هريرة أنه يرد السلام على من سلم عليه ، والمراد عند قبره ، لكن النزاع في معنى كونه عند القبر هل المراد في بيته كما يراد مثل ذلك في سائر ما أخبر به من سماع الموتى إنما هو لمن كان عند قبورهم قريباً منها ، أو يراد به من كان في الحجر كما قاله طائفة من السلف والخلف ؟ وهل يستحب ذلك عند الحجر لمن قدم من سفر أو لمن أراده من أهل المدينة أو لا يستحب بحال ؟ وليس الاعتماد في سماعه ما يبلغه من صلاة أمته وسلامهم إلا على هذه الأحاديث الثابتة . فأما ذلك الحديث وإن كان معناه صحيحاً فإسناده لا يحتج به وإنما يثبت معناه بأحاديث أخرى ، فإنه لا يعرف إلا من حديث محمد بن فروان السدي الصغير ، عن الأعمش ، كما ظنه البيهقي ، وما ظنه في هذا هو متفق عليه عند أهل المعرفة ، وهو عندهم موضوع على الأعمش . قال عباس الدوري عن يحيى بن معين / محمد بن مروان ليس بثقة . وقال البخاري سكتوا عنه لا يكتب حديثه البتة . وقال الجوزجاني ذاهب الحديث ، وقال النسائي متروك الحديث ، وقال صالح جزرة كان يضع الحديث ، وقال أبو حاتم الرازي والأزدي متروك الحديث ، وقال الدارقطني ضعيف ، وقال ابن حبان لا يحل كتب حديثه إلا اعتباراً ولا الاحتجاج به بحال ، وقال ابن عدي عامة ما يرويه غير محفوظ والضعف على رواياته بين ، فهذا الكلام على ما ذكره من الحديث مع أننا قد بينا صحة معناه بأحاديث أخرى ، وهو لو كان صحيحاً فأنما فيه أنه يبلغ صلاة من صلى نائياً ، ليس فيه أنه يسمع ذلك كما قد وجدته منقولاً عن هذا المعترض فإن هذا لم يقله أحد من أهل العلم ولا يعرف في شيء من الحديث ، إنما يقوله بعض الجهال ، يقولون إنه يوم الجمعة وليلة الجمعة يسمع بأذنيه صلاة من صلى عليه

فالقول بأنه يسمع ذلك من نفس المصلي باطل ، وانما في الاحاديث المعروفة أنه يبلغ ذلك ويعرض عليه ، وكذلك تبلغه الملائكة •

وقول القائل أنه يسمع الصلاة من بعيد ممتنع فانه ان أراد وصول صوت المصلي اليه فهذه مكابرة ، وان أراد أنه بحيث يسمع أصوات الخلائق من البعد فليس هذا الا لله رب العالمين الذي يسمع أصوات العباد كلهم ، قال تعالى : (أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَنَسْمَعُ سُرَّهُمْ وَنَجْهَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُوبُونَ)^(١) وقال (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) الى قوله : (ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) الى قوله (إن الله بكل شيء عليم)^(٢) وليس أحد من البشر بل ولا من الخلق يسمع أصوات العباد كلهم ، ومن قال هذا في بشر فقوله من جنس قول النصاري الذين يقولون ان المسيح هو الله ، وأنه يعلم ما يفعله العباد ، ويسمع أصواتهم ويجب دعائهم ، قال تعالى : (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ . قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)^(٣) فلا المسيح ولا غيره من البشر ولا أحد من الخلق يملك لأحد من الخلق ضرا ولا نفعاً بل ولا لنفسه ، وان كان أفضل الخلق ، قال تعالى : (قل اني لا املك لكم ضراً ولا رشداً وقال تعالى (قل لا اقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب)^(٤) الآية

(١) الزخرف : ٨٠ (٢) المجادلة : ٧ (٣) المائدة : ٧٢ - ٧٦ (٤) الانعام : ٥٠

وقال تعالى (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)^(١)

وقوله : (إلا ما شاء الله) فيه قولان : قيل : هو استثناء متصل ، وأنه يملك من ذلك ما ملكه الله ، وقيل : هو منقطع والمخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً بحال فقوله : (إلا ما شاء الله) استثناء منقطع ، أي لكن يكون من ذلك ما شاء الله ، كتول الخليل (وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا)^(٢) أي لأخاف أن يفعلوا شيئاً لكن إن شاء ربي شيئاً كان والا لم يكن والا فهم لا يفعلون شيئاً وكذلك قوله : (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة) ثم قال (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون)^(٣)

تنفعه الشهادة وتنفع شهادته ، كقوله : (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ)^(٤)

وقال (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا)^(٥) وبسط هذا له موضع آخر •

قال الشيخ : وأما ما ذكره من تضافر النقول عن السلف بالحض على ذلك واطباق الناس عليه قولاً وعملاً •

فيقال : الذي اتفق عليه السلف والخلف وجاءت به الأحاديث الصحيحة هو السفر الى مسجده ، والصلاة والسلام عليه في مسجده ، وطلب الوسيلة له ، وغير ذلك مما أمر الله به ورسوله ، فهذا السفر مشروع باتفاق المسلمين سلفهم وخلفهم ، وهذا هو مراد العلماء الذين قالوا يستحب السفر الى زيارة قبر نبينا صلى الله عليه وسلم ، فان مرادهم بالسفر لزيارته هو السفر الى مسجده ، وذكروا في منسك الحج أنه يستحب زيارة قبره ، وهذا هو مراد من ذكر الاجماع على ذلك ، كما ذكر القاضي عياض •

قال : وزيارة قبره سنة مجمع عليها ، وفضيلة مرغب فيها ، فمرادهم الزيارة التي بينها وشرحوها كما ذكر ذلك القاضي عياض في هذا الفصل فصل زيارته ، قال : وقال اسحق بن ابراهيم الفقيه : ومما لم يزل شأن من حج المرور بالمدينة والقصد الى الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، والتبرك برؤية روضته ومنبره ، وقبره ومجلسه ، وملامس يديه ومواطيء قدميه ، والعمود الذي كان يستند اليه ، ونزل

(١) الاعراف : ١٨٨ (٢) الانعام : ٨٠ (٣) الزخرف : ٨٦ (٤) سبأ : ٢٣ (٥) الزمر : ٤٤

جبريل بالوحي عليه فيه ، وبمن عمره وقصده من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ،
والاعتبار بذلك كله .

قلت وذلك أن لفظ زيارة قبره ليس المراد بها نظير المراد بزيارة قبر غيره ،
يوصل اليه ويجلس عنده ، ويتسكن الزائر مما يفعله الزائرون للقبور عندها من سنة
وبدعة ، وأما هو صلى الله عليه وسلم فلا سبيل لأحد أن يصل الا الى مسجده
لا يدخل أحد بيته ، ولا يصل الى قبره ، بل دفنوه في بيته ، بخلاف غيره فانهم دفنوه
في الصحراء ، كما في الصحيحين عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في
مرض موته : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر
ما فعلوا : قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً) فدفن
في بيته لئلا يتخذ قبره مسجداً ولا وثناً ولا عيداً ، فإن في سنن أبي داود من حديث
أحمد بن صالح عن عبد الله ابن نافع ، أخبرني ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ،
عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : (لاتجعلوا بيوتكم
قبوراً ، ولا تجعلوا قبوري عيداً ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم) وفي
الموطأ وغيره عنه أنه قال : (اللهم لاتجعل قبوري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم
اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وفي صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس :
(إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ،
فاني أنهاكم عن ذلك) فلما لعن من يتخذ القبور مساجد تحذيراً لأئمة من ذلك ونهاهم
عن ذلك ونهاهم أن يتخذوا قبره عيداً دفن في حجرته لئلا يتمكن أحد من ذلك ،
وكانت عائشة ساكنة فيها فلم يكن في حياتها أحد يدخل لذلك ، إنما يدخلون إليها
هي ، ولما توفيت لم يبق بها أحد ، ثم لما أدخلت في المسجد سدت وبنى الجدار البراني
عليها ، فما بقي أحد يتمكن من زيارة قبره كالزيارة المعروفة عند قبر غيره ، سواء
كانت سنية أو بدعية ، بل إنما يصل الناس الى مسجده .

ولم يكن السلف يطلقون على هذا زيارة لقبيره ، ولا يعرف عن أحد من
الصحابة لفظ زيارة قبره البتة ، ولم يتكلموا بذلك ، وكذلك عامة التابعين لا يعرف
هذا في كلامهم ، فان هذا المعنى ممتنع عندهم فلا يعبروا عن وجوده وهو قد نهى عن
اتخاذ بيته وقبره عيداً ، وسأل الله تعالى أن لا يجعل وثناً ، ونهى عن اتخاذ القبور
مساجد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور
أنبيائهم مساجد) ولهذا كره مالك وغيره أن يقال زرنا قبر النبي صلى الله عليه

وسلم ، ولو كان السلف ينطقون بهذا لم يكرهه مالك وقد باشر التابعين بالمدينة ، وهو أعلم الناس بمثل ذلك •

ولو كان في هذا حديث معروف عن النبي صلى الله عليه وسلم لعرفه هؤلاء ، ولم يكره مالك وأمثاله من علماء المدينة الاخبار بلفظ تكلم به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كان رضي الله عنه يتحرى ألفاظ الرسول في الحديث فكيف يكره النطق بلفظه ، لكن طائفة من العلماء سموا هذا زيارة لقبره وهم لا يخالفون مالكا . ومن معه في المعنى ، بل الذي يستحبه أولئك من الصلاة والسلام وطلب الوسيلة ونحو ذلك في مسجده يستحبه هؤلاء ، لكن هؤلاء سوا هذا زيارة لقبره وأولئك كرهوا أن يسوا هذا زيارة لقبره ، وقد حدث من بعض المتأخرين في ذلك بدع لم يستحبها أحد من الأئمة الاربعة ، كسؤاله الاستغفار ، وزاد بعض جهال العامة ما هو محرم أو كفر باجماع المسلمين كالسجود للحجرة والطواف بها وأمثال ذلك مما ليس هذا موضعه ، ومبدأ ذلك من الذين ظنوا أن هذا زيارة لقبره ، وظن هؤلاء أن الأنبياء والصالحين تزار قبورهم لدعائهم والطلب منهم واتخاذ قبورهم أوثانا ، حتى قد يفضلون تلك البقعة على المساجد ، وان بني عليها مسجد فضلوه على المساجد التي بنيت لله ، وحتى قد يفضلون الحج الى قبر من يعظمونه على الحج الى البيت العتيق ، الى غير ذلك مما هو كفر وردة عن الاسلام باتفاق المسلمين •

فالذي تضافرت به النقول عن السلف قاطبة وأطبقت عليه الامة قولاً وعملاً هو السفر الى مسجده المجاور لقبره ، والقيام بما أمر الله به من حقوقه في مسجده ، كما يقام بذلك في غير مسجده ، لكن مسجده أفضل المساجد بعد المسجد الحرام عند الجمهور ، وقيل : إنه أفضل مطلقاً كما نقل عن مالك وغيره ، ولم يتطابق السلف والخلف على اطلاق زيارة قبره ، ولا ورد بذلك حديث صحيح ولا نقل معروف عن أحد من الصحابة ، ولا كان الصحابة المقيمون بالمدينة من المهاجرين والانصار اذا دخلوا المسجد وخرجوا منه يجيئون الى القبر ويقفون عنده ويذرونه ، فهذا لم يعرف عن أحد من الصحابة ، وقد ذكر مالك وغيره أن هذا من البدع التي لم تنقل عن السلف وان هذا منهي عنه ، وهذا الذي قاله مالك مما يعرفه أهل العلم الذين لهم عناية بهذا الشأن ، يعرفون أن الصحابة لم يكونوا يزورون قبره لعلمهم بأنه قد نهى عن ذلك ، ولو كان قبره يزار كما تزار القبور قبور أهل البقيع والشهداء شهداء أحد لكان الصحابة يفعلون ذلك : إما بالدخول الى حجرتة ، واما بالوقوف عند قبره

إذا دخلوا المسجد ، وهم لم يكونوا يفعلون لا هذا ولا هذا ، بل هذا من البدع كما بين ذلك أئمة العلم ، وهذا كما ذكره القاضي عياض ، وهو الذي قال : زيارة قبره سنة مجمع عليها ، وفضيلة مرغ فيها ، وهو في هذا الفصل ذكر عن مالك أنه كره أن يقال : زرنا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكره أيضا : قال مالك في المبسوط وليس يلزم من دخل المسجد وخرج منه من أهل المدينة الوقوف بالقبر وإنما ذلك للغرباء ، وقال مالك في المبسوط أيضا : ولا بأس لمن قدم من سفر أن يقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويدعو له ولأبي بكر وعمر ، قيل له : فإن ناسا من أهالي المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر وربما وقفوا في الجمعة أو الايام المرة والمرة أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة : فقال : لم يبلغني هذا عن أهل الفقه بلدنا وتركه واسع ، ولن يصلح آخر هذه الامة الا ماصلح أولوا ، ولم يبلغني عن أول هذه الامة وصدورها أنهم كانوا يفعلون ذلك ويكرهه الا لمن جاء من سفر أو أراده ، فقد بين مالك أنه لم يبلغه عن السلف من الصحابة المقيمين بالمدينة أنهم كانوا يقفون بالقبر عند دخول المسجد الا لمن قدم من سفر ، مع أن الذي يقصد السفر فيه نزاع مذكور في غير هذا الموضع .

وقد ذكر القاضي عياض عن أبي الوليد الباجي أنه احتج لما كرهه مالك ، فقال أهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وقوله : (لاتتخذوا قبوري عيدا) وإذا كانت هذه الزيارة مما نهى عنها في الاحاديث فالصحابه أعلم بنهيه وأطوع له ، فهذا لم يكن بالمدينة منهم من يزور قبره باتفاق العلماء ، وهذا الوقوف الذي يسميه غير مالك زيارة لقبره - الذي بين مالك وغيره أنه بدعة لم يفعلها السلف - هي زيارة مقصود صاحبها الصلاة والسلام عليه ، كما بين ذلك في السؤال لمالك ، لكن لما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لاتتخذوا قبوري عيدا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبسني) وروى مثل ذلك في السلام عليه : علم أنه كره تخصيص تلك البقعة بالصلاة والسلام ، بل يصلى عليه ويسلم في جميع المواضع ، وذلك واصل اليه ، فاذا كان مثل هذه الزيارة للقبر بدعة منها عنها فكيف بمن يقصد ما يقصده من قبور الانبياء والصالحين ليدعوهم ويستغث بهم ليس قصده الدعاء لهم ، ومعلوم أن هذا أعظم في كونه بدعة وضلالة .

فالسلف والخلف إنما تطابقوا على زيارة قبره بالمعنى المجمع عليه من قصد

مسجده والصلاة فيه كما تقدم ، وهذا فرق بينه وبين سائر قبور الانبياء والصالحين ، فانه يشرع السفر الى عند قبره لمسجده الذي أسس على التقوى ، فهذا السفر مشروع باتفاق المسلمين ، والصلاة مقصورة فيه باتفاق المسلمين ، ومن قال ان هذا السفر لا تقصر فيه الصلاة فانه يستتاب فان تاب والا قتل ، وليس ذلك سفرا لمجرد الزيارة بل لا بد أن يقصد إتيان المسجد والصلاة فيه ، وإن لم يقصد الا القبر فهذا يندرج في كلام المجيب ، حيث قال : أما من سافر لمجرد زيارة قبور الانبياء والصالحين فهل يجوز له قصر الصلاة ؟ على قولين معروفين ، فهو ذكر القولين فيمن سافر لمجرد قصد زيارة القبور ، أما من سافر لقصد الصلاة في مسجده عند حجرته التي فيها قبره فهذا سفر مشروع مستحب باتفاق المسلمين ، وقد تقدم قول مالك للسائل الذي سأله عن نذر أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ان أراد مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فليأته وليصل فيه ، وإن كان إنما أراد القبر فلا يفعل للحديث الذي جاء (لاتعمل المطي الا الى ثلاثة مساجد) فالسائل سأله عن نذر أن يأتي الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ففصل مالك في الجواب بين أن يريد القبر أو المسجد مع أن اللفظ انما هو نذر أن يأتي القبر ، فعلم أن لفظ اتيان القبر وزيارة القبر ، والسفر الى القبر ونحو ذلك يتناول من يقصد المسجد وهذا مشروع ، ويتناول من لم يقصد إلا القبر وهذا منهي عنه كما دلت عليه النصوص وبينه العلماء مالك وغيره .

فمن نقل عن السلف أنهم استحبوا السفر لمجرد القبر دون المسجد بحيث لا يقصد المسافر المسجد ولا الصلاة فيه بل إنما يقصد القبر كالصورة التي نهى عنها مالك : فهذا لا يوجد في كلام أحد من علماء السلف استحباب ذلك فضلا عن اجماعهم عليه ، وهذا الموضوع يجب على المسلمين عامة وعلمائهم تحقيقه ، ومعرفة ماهو المشروع والمأمور به الذي هو عبادة لله وحده ، وطاعة له ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبر وتقوى وقيام بحق الرسول ، وما هو شرك وبدعة وضلالة منهي عنها ، لئلا يلتبس هذا بهذا ، فان السفر الى مسجد المدينة مشروع باتفاق المسلمين ، لكن إنما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرئ ما نوى ، وقد تقدم عن مالك وغيره أنه اذا نذر اتيان المدينة ان كان قصده الصلاة في المسجد وإلا لم يوف بنذره ، وأما اذا نذر اتيان المسجد لزمه ، لأنه انما يقصد الصلاة فلم يجعل السفر الى المدينة سفرا مأمورا به الا سفر من قصد الصلاة في المسجد ، وهو الذي يؤمر به الناذر بخلاف غيره ،

لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الاقصى) وجعل من سافر الى المدينة أو الى بيت المقدس لغير العبادة الشرعية في المسجدين سفرا منهيًا عنه لا يجوز أن يفعله وان نذره ، وهذا قول جمهور العلماء •

فمن سافر الى مدينة الرسول أو بيت المقدس لقصد زيارة ما هناك من القبور أو من آثار الانبياء والصالحين كان سفره محرما عند مالك والاكثرين ، وقيل انه سفر مباح ليس بقربة كما قاله طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد ، وهو قول ابن عبد البر ، وما علمنا أحدا من علماء المسلمين المجتهدين الذين تذكر أقوالهم في مسائل الاجماع والنزاع ذكر أن ذلك مستحب ، فدعوى من ادعى أن السفر الى مجرد القبور مستحب عند جميع علماء المسلمين كذب ظاهر ، وكذلك ان ادعى أن هذا قول الأئمة الاربعة أو جمهور علماء المسلمين فهو كذب بلا ريب ، وكذلك ان ادعى أن هذا قول عالم معروف من الأئمة المجتهدين وان قال : هذا قول المتأخرين أمكن أن يصدق في ذلك وهو - بعد أن تعرف صحة نقله - نقل قولنا شاذًا مخالفًا لاجماع السلف ، مخالفًا لتصوص الرسول ، فكفى بتموله فسادا أن يكون قولًا مبتدعا في الاسلام مخالفًا للسنة والجماعة ، لما سنه الرسول صلى الله عليه وسلم ولما أجمع عليه سلف الامة وأئمتها •

والنقل عن علماء السلف يوافق ما قاله مالك ، فمن نقل عنهم ضد ذلك فقد كذب ، وأقل ما في الباب أن يجعل من طول بصحة نقله والالفاظ المجملة والتي يقولها طائفة قد عرف مرادهم ، وعياض نفسه الذي ذكر أن زيارته سنة مجمع عليها قد بين الزيارة المشروعة في ذلك ، وقد ذكر عياض في قوله (لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد) ما هو ظاهر مذهب مالك ، أن السفر الى غيرها محرّم ، فهو أيضا يقول ان السفر لمجرد زيارة القبور كما قاله مالك وسائر أصحابه مع ما ذكره من استحباب الزيارة الشرعية مع ما ذكر من كراهة مالك أن يقول القائل زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم •

ثم ان المعارض المالكي احتج في زيارة قبره صلى الله عليه وسلم بالقياس على زيارة النبي ، فقال المعارض المناقض : وروى مسلم في صحيحه في الذي سافر لزيارة أخ له في الله ، ولفظ الحديث : (أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى ، فارصد الله

على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لي في تلك القرية ، قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال لا إلا أني أحببته في الله ، فقال : اني رسول الله اليك بأن الله أحبك كما أحببته فيه) . وفي مؤناً مالك عن معاذ بن جبل في حديث ذكر فيه (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - أي عن الله - وجبت محبتي للمتحابين في ، والمتجالسين في والمتزاورين في والمتبازلين في) قال : فقد علمت أيها الاخ بهذا فضيلة زيارة الاخوان ، وما أعد الله بها للزائرين من الفضل والاحسان فكيف بزيارة من هو حي الدارين ، وامام الثقلين ، الذي جعل الله حرمة في حال مساته كحرمة في حال حياته ، ومن شرفه الحق بما أعطاه من جميع صفاته ، ومن هدانا ببركته الى الصراط المستقيم ، وعصمنا به من الشيطان الرجيم ، ومن هو آخذ بحجزنا أن نقتحم في نار الجحيم ، ومن هو بالمؤمنين رؤوف رحيم .

(قال الشيخ ابن تيمية) والجواب : أما زيارة الاخ الحي في الله كما في الحديث فهذا نظير زيارته في حياته ، يكون الانسان بذلك من أصحابه وهم خير القرون ، وأما جعل زيارة القبر كزيارته حيا كما قاسه هذا المعترض فهذا قياس ما علمت أحدا من علماء المسلمين قاسه ، ولأ علمت أحدا منهم احتج في زيارة قبره بالقياس على زيارة الحي المحبوب في الله ، وهذا من أفسد القياس فانه من المعلوم أن من زار الحي حصل له بمشاهدته وسماع كلامه ومخاطبته وسؤاله وجوابه وغير ذلك مالا يحصل لمن لم يشاهده ولم يسمع كلامه ، وليس رؤية قبره أو رؤية ظاهر الجدار الذي بني على بيته بمنزلة رؤيته ومشاهدته ومجالسته وسماع كلامه ، ولو كان هذا مثل هذا لكان كل من زار قبره مثل واحد من أصحابه ، ومعلوم أن هذا من أبطل الباطل .

وأیضا : فالسفر اليه في حياته اما أن يكون لما كانت الهجرة اليه واجبه كالسفر قبل الفتح فيكون المسافر اليه مسافرا للمقام عنده بالمدينة مهاجرا من المهاجرين اليه ، وهذا السفر انقطع بفتح مكة ، فقال صلى الله عليه وسلم : (لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية) ولهذا لما جاء صفوان بن أمية مهاجرا أمره أن يرجع الى مكة ، وكذلك سائر الطلقاء كانوا بمكة لم يهاجروا ، واما أن يكون المسافر اليه وافدا اليه ليسلم ويتعلم منه ما يبلغه قومه ، كالوفود الذين كانوا يفدون عليه لاسيما سنة تسع وعشر سنة الوفود ، وقد أوصى في مرضه بثلاث ، فقال : (أخرجوا التصارى من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفود بنحو ماكنت أجيزهم) ومن الوفود وفد عبد القيس لما قدموا عليه ورجعوا الى قومهم بالبحرين ، لكن هؤلاء أسلموا قديما قبل فتح

مكة ، وقالوا : لانستطيع أن نأتيك الا في شهر حرام ، لأن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر - وهم أهل نجد كأسد وغطفان وتميم وغيرهم ، فانهم لم يكونوا قد أسلموا بعد - وكان السفر اليه في حياته لتعلم الاسلام والدين ، ولشاهدته وسماع كلامه وكان خيرا محضا ، ولم يكن أحد من الانبياء والصالحين عبد في حياته بحضرتة فانه كان ينهى من يفعل ما هو دون ذلك من المعاصي فكيف بالشرك ، كما نهى الذين سجدوا له ، ونهى الذين صلوا خلفه قياما ، وقال : (إن كدتم تفعلون فعل فارس والروم فلا تفعلوا) رواه مسلم ، وفي المسند باسناد صحيح عن أنس قال : (لم يكن شخص أحب اليهم من رسول صلى الله عليه وسلم ، وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون ، كراهته لذلك) وفي الصحيح أن جارية قالت عنده وفيما نبي يعلم ما في غد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (دعي هذا وقولي الذي كنت تقولين) ومثل هذا كثير من نهيه عن المنكر بحضرتة ، فكل من رآه في حياته لم يتمكن أن يفعل بحضرتة منكرا يقر عليه - الى أن قال - ومعلوم أنه لو كان حيا في المسجد لكان قصده في المسجد من أفضل العبادات ، وقصد القبر الذي اتخذ مسجدا مما نهى عنه ولعن أهل الكتاب على فعله ، وأيضا : فليس عند قبره مصلحة من مصالح الدين وقربة الى رب العالمين إلا وهي مشروعة في جميع البقاع ، فلا ينبغي أن يكون صاحبها غير معظم للرسول صلى الله عليه وسلم التعظيم التام والمحبة التامة الا عند قبره ، بل هو مأمور بهذا في كل وقت .

وزيارته في حياته مصلحة راجحة لا فسدة فيها ، والسفر الى القبر بمجردة بالعكس مفسدة راجحة لا مصلحة فيها ، بخلاف السفر الى مسجده فانه مصلحة راجحة ، وهنا يفعل من حقوقه ما يفعل في سائر المساجد .

وهذا مما يتبين به كذب الحديث الذي يقال فيه : (من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي) وهذا الحديث معروف من رواية حفص بن سليمان الغاضري صاحب عاصم ، عن ليث ابن أبي سليم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من حج فزار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي) وقد رواه عنه غير واحد وهو عندهم معروف من طريقه ، وهو عندهم ضعيف في الحديث الى الغاية حجة في القراءة ، قال يحيى بن معين حفص ليس بثقة ، وقال البخاري تركوه - ثم سرد الشيخ كلام الأئمة فيه وقال - وقد رواه الطبراني في المعجم من حديث الليث ابن أبي سليم عن زوجة جده عائشة عن ليث ، وهذا الليث وزوجته

مجهولان ، ونفس المتن باطل ، فان الاعمال التي فرضها الله ورسوله لا يكون الرجل بها مثل الواحد من الصحابة ، بل في الصحيحين عنه أنه قال : (لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) فالجهاد والحج ونحوهما أفضل من زيارة قبره باتفاق المسلمين ، ولا يكون الرجل بها كمن سافر إليه في حياته ورآه ، كيف وذلك اما أن يكون مهاجراً إليه كما كانت الهجرة قبل الفتح أو من الوفود الذين كانوا يفتدون إليه يتعلمون الاسلام ويبلغونه عنه الى قومهم ، وهذا عمل لا يمكن أحدا بعدهم أن يفعل مثلهم ، ومن شبه من زار قبر شخص بسن كان يزوره في حياته فهو مصاب في عقله ودينه •

والزيارة الشرعية لقبر الميت مقصودها الدعاء له والاستغفار ، كالصلاة على جنازته •

والدعاء المشروع المأمور به في حق نبينا - كالصلاة عليه ، والسلام عليه ، وطلب الوسيلة له - مشروع في جميع الامكنة لا يختص بقبره ، فليس عند قبره عمل صالح تمتاز به تلك البقعة ، بل كل عمل صالح يمكن فعله في سائر البقاع ، لكن مسجده أفضل من غيره ، فالعبادة فيه فضيلة بكونها في مسجده ، كما قال : (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام) والعبادات المشروعة فيه بعد دفنه مشروعة فيه قبل أن يدفن النبي صلى الله عليه وسلم في حجرته ، وقبل أن تدخل حجرته في المسجد ، ولم يتجدد بعد ذلك فيه عبادة غير العبادات التي كانت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وغير ما شرعه هو لأئمة ورغبتهم فيه ودعاهم إليه ، وما يشرع للزائر من صلاة وصيام ودعاء له وثناء عليه كل ذلك مشروع في مسجده في حياته ، وهي مشروعة في سائر المساجد ، بل وفي سائر البقاع التي تجوز فيها الصلاة ، وهو صلى الله عليه وسلم قد جعلت له ولأئمة الارض مسجداً وطهوراً ، فحيث ما أدركت أحدا الصلاة فليصل ، فانه مسجد ، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم ، ومن ظن أن زيارة القبر تختص بجنس من العبادة لم تكن مشروعة في المسجد وانما شرعت لأجل القبر فقد أخطأ ، لم يقل هذا أحد من الصحابة والتابعين ، وانما غلط في هذا بعض المتأخرين ، وغاية ما نقل عن بعض الصحابة كابن عمر أنه كان اذا قدم من سفر يقف عند القبر ويسلم •

وجنس السلام عليه مشروع في المسجد وغير المسجد ، قبل السفر وبعده ،

وأما كونه عند القبر فهذا كان يفعله ابن عمر إذا قدم من سفر ، وكذلك الذين استحبوه من العلاء استحبوه للصادر والوارد من المدينة واليها من أهلها ، وللوارد والصادر من المسجد من الغرباء ، مع أن أكثر الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك ، ولا فرق أكثر السلف بين الصادر والوارد ، بل كلهم يهون عما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قال أبو الوليد الباجي : اتنا فرق بين أهل المدينة وغيرها لأن الغرباء قصدوا لذلك ، وأهل المدينة مقيمون بها ولم يقصدوها من أجل القبر والتسليم ، قال : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهم لاتجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وقال (لاتجعلوا قبوري عيداً) وهذا الذي ذكره من أدلة من سوى في النهي ، فان قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (لاتجعلوا ولا تتخذوا بيتي عيداً) نهى لكل أمته أهل المدينة والقادمين اليها ، وكذلك نهيه عن اتخاذ القبور مساجد ، وخبره بأن غضب الله اشتد على من فعل ذلك : هو متناول للجميع ، وكذلك دعاؤه بأن لايتخذ قبره وثناً عام ، وما ذكره من أن الغرباء قصدوا لذلك تعليق على العلة ضد مقتضاها ، فان القصد لذلك منهى عنه ، كما صرح به مالك وجمهور أصحابه ، وكما نهى عنه ، واذا كان منهاه عنه أو ليس بقربة لم يشرع الاعانة عليه .

وابن عمر لم يكن يسافر الى المدينة لأجل القبر بل المدينة ووطنه ، فكان يخرج منها لبعض الامور ثم يرجع الى وطنه فيأتي المسجد فيصلي فيه ويسلم .
فأما السفر لأجل القبور فلا يعرف عن أحد من الصحابة ، بل ابن عمر كان يقدم الى بيت المقدس ولا يزور قبر الخليل صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أبوه عمر رضي الله عنه ومن معه من المهاجرين والانصار قدموا الى بيت المقدس ولم يذهبوا الى قبر الخليل عليه السلام ، وكذلك سائر الصحابة الذين كانوا ببيت المقدس وسائر أهل الشام لم يعرف عن أحد منهم أنه سافر الى قبر الخليل عليه السلام ولا غيره ، كما لم يكونوا يسافرون الى المدينة لأجل القبر ، وما كان قربة للغرباء فهو قربة لأهل المدينة وما لم يكن قربة لهم لم يكن قربة لغيرهم ، كاتخاذ بيته عيداً ، واتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً ، وكالصلاة الى الحجرة والتمسح بها ، والصاق البطن بها والطواف بها ، وغير ذلك مما يفعله جهال القادمين ، فان هذا — باجماع المسلمين — ينهى عنه الغرباء كما ينهى عنه أهل المدينة ، يهون عنه صادرين وواردين باتفاق المسلمين .

وبالجملة فجنس الصلاة والسلام عليه والثناء عليه صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك ما استحبه بعض العلماء عند القبر للواردين والصادرين هو مشروع في مسجده وسائر المساجد ، وأما ما كان سؤالا له فهذا لم يستحبه أحد من السلف لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم .

ثم بعض من يستحب هذا من المتأخرين يدعوا به مع البعد فلا يختص هذا عندهم بالقبر ، وأما نفس بيته عند قبره فلا يسكن أحدا الوصول ، ولم يشرع هناك عمل يكون هناك منه في غيره . ولو شرع لفتح باب الحجره للامة ، بل قد قال : (لاتخذوا بيتي عيدا ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم) صلوات الله وسلامه عليه .

وقد تقدم مارواه سعيد بن منصور في سننه عن عبد العزيز اندراورذي ، عن سهيل بن أبي سهيل ، قال : رأني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فناداني ، فقال : مالي رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : اذا دخلت المسجد فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاتخذوا بيتي عيدا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني ما أنتم ومن بالاندلس الا سواء) وكذلك سائر الصحابة الذين كانوا بيت المقدس وغيرها من الشام ، مثل معاذ بن جبل ، وأبي عبيدة ابن الجراح ، وعبادة ابن الصامت ، وأبي الدرداء وغيرهم : لم يعرف عن أحد منهم أنه سافر لقبر من القبور التي بالشام لاقبر الخليل ولا غيره ، كما لم يكونوا يسافرون الى المدينة لأجل القبر ، وكذلك الصحابة الذين كانوا بالحجاز والعراق وسائر البلاد ، كما قد بسطنا هذا في غير هذا الموضوع .

(فان قيل) الزائر في الحياة انما أحبه الله لكونه يحبه في الله ، والمؤمنون يحبون الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم ، وكذلك يحبون سائر الانبياء والصالحين ، فاذا زاروهم أثبوا على هذه المحبة .

(قيل) حب الرسول من أعظم واجبات الدين ، وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، ومن يحب المرء لا يحبه الا الله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار) وفي الحديث

الصحيح عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) رواه البخاري عن أبي هريرة ، قال والذي نفسي بيده ، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن هشام قال : (كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر فقال : يا رسول الله لأنت أحب الي من كل شيء الا نفسي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب اليك من نفسك ، فقال عمر : فانه الآن والله لأنت أحب الي من نفسي ، قال : الآن يا عمر) وتصديق ذلك في القرآن قوله : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم)^(١) وقوله : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدي القوم الفاسقين)^(٢) وقال : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروحٍ منه)^(٣) وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : (ما من مؤمن الا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة اقرؤا ان شئتم : النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) وذكر الحديث ، وفي حديث آخر (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) لكن حبسه وطاعته وتعزيره وتوقيره وسائر ما أمر الله به من حقوقه مأمور به في كل مكان ، لا يختص بمكان دون مكان ، وليس من كان في المسجد عند القبر بأولى بهذه الحقوق ووجوبها عليه ممن كان في موضع آخر .

ومعلوم أن مجرد زيارة قبره كالزيارة المعروفة للقبور غير مشروعة ولا مسكنة ، ولو كان في زيارة قبره عبادة زائدة للامة لفتح باب الحجرة ومكنوا من فعل تلك العبادة عند قبره ، وهم لم يمكنوا الا من الدخول الى مسجده ، والذي يشرع في مسجده يشرع في سائر المساجد ، لكن مسجده أفضل من سائر غير المسجد الحرام على نزاع في ذلك ، وما يجده المسلم في قلبه من محبته والشوق اليه والانس بذكره

(١) الا حزاب : ٦ (٢) التوبة : ٢٤ (٣) المجادلة : ٢٢

وذكر أحواله فهو مشروع له في كل مكان ، وليس في مجرد زيارة ظاهر الحجره ما يوجب عبادة لاتفعل بدون ذلك ، بل نهى عن أن يتخذ ذلك المكان عيداً ، وأمر أن يصلى عليه حيث كان العبد ويسلم عليه ، فلا يخص بيته وقبره لا بصلاة عليه ولا تسليم عليه فكيف بما ليس كذلك ، وإذا خص قبره بذلك صار ذلك في سائر الامكنة - دون ما هو عند قبره - ينقص حبه وتعظيمه وتعزيره وموالاته والثناء عليه عند غير قبره عما يفعل عند قبره ، كما يبده الناس في قلوبهم اذا رأوا من يحبونه ويعظمونه ، يجدون في قلوبهم عند قبره مودة له ورحمة ومحبة أعظم مما يكون بخلاف ذلك ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو الواسطة بينهم وبين الله في كل مكان وزمان ، فلا يؤمرون بما يوجب نقص محبتهم وايمانهم في عامة البقاع والازمنة ، مع أن ذلك لو شرع لهم لاشتغلوا بحقوقهم عن حقه ، واشتغلوا بطلب الحوائج منه كما هو الواقع ، فيدخلون في الشرك بالخالق وفي ترك حق المخلوق ، فينقص تحقيق الشهادتين : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله .

وأما ما شرعه لهم من الصلاة والسلام عليه في كل مكان ، وأن لا يتخذوا بيته عيداً ولا مسجداً ، ومنعهم من أن يدخلوا اليه ويزوروه كما تزار القبور : فهذا يوجب كمال توحيدهم للرب تبارك وتعالى ، وكمال ايمانهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ومحبته وتعظيمه حيث كانوا ، واهتمامهم بما أمروا به من طاعته ، فان طاعته هي مدار السعادة ، وهي الفارقة بين أولياء الله وأعدائه ، وأهل الجنة وأهل النار ، فأهل طاعته هم أولياء الله المتقون ، وجنده المفلحون ، وحزبه الغالبون ، وأهل مخالفته ومعصيته بخلاف ذلك ، والذين يقصدون الحج الى قبره وقبر غيره ويدعونهم ويتخذونهم أندادا من أهل معصيته ومخالفته . لا من أهل طاعته وموافقته ، فهم في هذا الفعل من جنس أعدائه لا من جنس أوليائه ، وان ظنوا أن هذا من موالاته ومحبته كما يظن النصارى أن ما هم عليه من الغلو في المسيح والشرك به من جنس محبته وموالاته ، وكذلك دعاؤهم للانبياء والموتى ، كابراهيم وموسى وغيرهما عليهم السلام ، ويظنون أن هذا من محبتهم وموالاتهم وانما هو من جنس معاداتهم ، ولهذا يتبرؤن منهم يوم القيامة ، وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم يتبرأ ممن عصاه ، وان كان قصده تعظيمه والغلو فيه ، قال تعالى : (وانذر عشيرتَكِ الْأَقْرَبِينَ وَانْحَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) ^(١١)

فقد أمر الله المؤمنين أن يتبرؤا من كل معبود غير الله ومن كل من عبده ، قال تعالى
 (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا
 تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى
 تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ)^(١)

وكذلك سائر الموتى ليس في مجرد رؤية قبورهم ما يوجب لهم زيادة المحبة ، الا لمن
 عرف أحوالهم بدون ذلك فيتذكر أحوالهم فيحبهم ، والزسول صلى الله عليه وسلم
 يذكر المسلمون أحواله ومحاسنه وفضائله وما من الله به عليه وما من به على أمته ،
 فبذلك يزداد حبههم له وتعظيمهم له لا بنفس رؤية القبر ، ولهذا تجد العاكفين على
 قبور الانبياء والصالحين من أبعد الناس عن سيرتهم ومتابعتهم : وانما قصد جمهورهم
 التآكل والترأس بهم ، فيذكرون فضائلهم ليحصل لهم بذلك رياسة أو مأكلة
 لا ليزدادوا هم حبا وخيرا ، وفي مسند الامام أحمد وصحيح أبي حاتم عن ابن مسعود
 عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم
 أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد) وما ذكره هذا من فضائله فيعض ما يستحقه
 صلى الله عليه وسلم ، والامر فوق ما ذكره أضعافا مضاعفة ، لكن هذا يوجب ايماننا
 به وطاعتنا له ، واتباع سنته والتأسي به ، والاقتراء به ومحبتنا له ، وتعظيمنا له ،
 وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه ، فان هذا هو طريق النجاة والسعادة ، وهو سبيل
 الحق ووسيلتهم الى الله تعالى ، ليس في هذا ما يوجب معصيته ومخالفة أمره ،
 والشرك بالله ، واتباع غير سبيل المؤمنين السابقين الاولين والتابعين لهم باحسان ،
 وهو صلى الله عليه وسلم قد قال : (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد) وقال :
 (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا) وقال :
 (لاتتخذوا قبوري عيدا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني) وقال : (خير
 الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر انه ور
 محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة وقال : (انه من يمش منكم بعدي فسيرى اختلا كرا ،
 فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بانوا مذ ،
 واياكم ومحدثات الامور فان كل بدعة ضلالة) الى غير ذلك من الادلة التي تبيّن أن
 الحجاج الى القبور هم من المخالفين للرسول صلى الله عليه وسلم الخارجين عن

شريعته وسنته ، لا من الموافقين له المطيعين له ، كما قد بسط في غير هذا الموضع ، هذا آخر ما نقلناه من كتاب شيخ الاسلام فيما يتعلق بالزيارة ، وقد علم مما نقلناه أن شيخ الاسلام رحمه الله لم يحرم زيارة القبور على الوجه المشروع في شيء من كتبه ، ولم ينهاها ، ولم يكرهها ، بل استحبابها وحض عليها ، ومناسكها ومصنفاته طافحة بذكر استحباب زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وسائر القبور ، ولم ينكر زيارتها في موضع من المواضع ، ولا ذكر في ذلك خلافا الا نقلا غريبا ذكره في بعض كتبه عن بعض التابعين ، وانما تكلم على مسألة شد الرحال واعمال المطي الى مجرد زيارة القبور ، وذكر في ذلك قولين للعلماء المتقدمين والمتأخرين (أحدهما) القول باباحة ذلك كما يقوله بعض أصحاب الشافعي وأحمد (والثاني) أنه منهي عنه كما نص عليه امام دار الهجرة مالك بن أنس ، ولم ينقل عن أحد من الأئمة الثلاثة خلفه ، واليه ذهب جماعة من أصحاب الشافعي وأحمد ، هكذا ذكر الشيخ الخلاف في شد الرحال واعمال المطي الى القبور ، ولم يذكره في الزيارة الخالية عن شد رحل واعمال مطي ، والسفر الى زيارة القبور مسألة وزيارتها من غير سفر مسألة أخرى ، ومن خلط هذه المسألة بهذه المسألة وجعلها مسألة واحدة وحكم عليهما بحكم واحد وأخذ في التشنيع على من فرق بينهما ويألف في التنفير عنه فقد حرم التوفيق ، وحاد عن سواء الطريق .

واحتج الشيخ لمن قال بضع شد الرحال واعمال المطي الى القبور بالحديث المشهور المنفق على صحته ، وهو (لا تشد الرحال) الحديث ، وذكر وجه الاستدلال في الكتابين السابقين ، وكذا في (كتاب اقتضاء الصراط المستقيم) بما لا مزيد عليه . فما نقله النبهاني الغافل الغبي عن السبكي وابن حجر وغيرهما من غلاة أسلافه ساقط عن درجة الاعتبار ، بل هو افتراء محض وبهتان صرف على الشيخ في هذه المسألة وغيرها ، والمسألة فرضية لا وقوع لها البتة ، فإن كل من سافر الى المدينة من أجل آماله الصلاة في مسجده صلح الله تعالى عليه وسلم ونية زيارة القبر فقط ان وقعت كان حكمها ما ذكره الشيخ حسبما دل عليه الحديث الصحيح ، فلا يرد ما ذكره هذا الغبي في التنبيه الثامن من الهديان ، وهو قوله : اعلم أنه لو كان حكم السفر لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم التحريم كما زعمه ابن تيمية لامتنع الناس لذلك من زيارته عليه الصلاة والسلام ، ولصارت المدينة المنورة من أحقر المدن ، بل من أحقر القرى ، وكادت تكون خرابا بلقعا ، فإن عمارتها انما هو لوجود قبره

الشريف صلى الله عليه وسلم فيها ، فان زيارة المؤمنين لها وانتياهم اباهما وترددهم اليها ومجاورتهم فيها كل ذلك انما هو لأجله صلى الله عليه وسلم ، ليكون وسيلتهم الى الله تعالى في سعادتهم ، لأنه ثبت عندهم ثبوتا أوضح من الشمس أنه صلى الله عليه وسلم أقرب الوسائل وأجلها وأنجحها الى الله تعالى . . الى آخر ما هذى به في ذلك التنبيه .

فانظر أيها المُنصف الى جهل هذا الغبي وما أدت اليه حماقته ، فانه الى الآن لم يعرف أن عمارة المدن بأي شيء تكون ، ولا درى أسباب الخراب ماهي ، وظن أن زيارة القبور هي سبب عمارة البلاد ، والاعراض عنها هو المستوجب لخرابها ، ولا بدع أن اعتقد الغلاة الضالون هذا الاعتقاد الفاسد ، فمثل ذلك هو اللائق بقلوبهم المختوم عليها .

ويقال له : ان الشيخ لم يحرم الزيارة ولا السفر اليها مطلقا حتى يرد ما ذكرت ، وان الصلاة في المسجد النبوي اذا كانت بتلك المنزلة فلا شك أن المسلمين لا يهملونها ، وما ذكره من قلة زوار البيت المقدس فكذب ، وعلى مقتضى تعليقه يلزم أن يكون البيت المقدس خرابا لقلّة زواره ، ومن المعلوم ما بلغ اليه من العمارة والمدنية ، والرجل لا يستحي من الكذب والزور ، ومقصوده بيان أنه كان رئيس المحكمة الجزائية يعلم الناس مبلغه من العلم والايمان قاتله الله ما أعظم حماقته ورعوتته .

ثم يقال : ان عمارة البلاد بالعلم والتقوى ، والايان الكامل والعمل الصالح ، والسعي للدنيا والآخرة ، وأما زيارة القبور أي قبر كان انما هي للدعاء للميت والاعتبار به فهي شعبة من شعب الطرق الاخرية .

وقد ذكر هذا الغبي أيضا في تضاعيف كلامه نقلا عن بعض أسلافه الغلاة : أن زيارة القبور تعظيم ، وتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم واجب ، فلا يجوز اهماله . قال الامام الحافظ ابن قدامة في (الصارم المنكى) الكلام عليه من وجوه :

(أحدها) أن يقال : هاتان المقدمتان ان أخذتا على اطلاقهما أتتجتا أن زيارة قبره واجبه ، وهو انتاج لازم للمقدمتين لزوما بينا ، فان الضرب الاول من الشكل الاول ، والحد الاوسط فيه محمول في الاولى موضوع في الثانية ، فتكون النتيجة موضوع الاولى ومحمول الثانية ، وهي زيارة قبره واجبة ، ثم يلزم على هذا لوازم : منها أن تارك زيارة قبره عاص آثم مستحق للعقوبة منتفي العدالة لاتصح شهادته ولا تقبل روايته ولا فتواه ، وفي هذا تفسيق جميع الصحابة الا من صح عنه منهم الزيارة ، ولا ريب أن هذا شر من قول الرافضة الذين فسقوا جمهورهم بتركهم

تولية على ، بل هو من جنس قول الخوارج الذين يكفرون بالذنب ، لأن تارك هذه الزيارة عنده تارك لتعظيمه ، وترك تعظيمه كفر أو ملزوم للكفر ، فإن تعظيم الرسول من لوازم الايمان فعدمه مستلزم للكفر ، وعلى هذا فكل من لم يزر قبره فهو كافر ، لأنه تارك لتعظيمه صلى الله عليه وسلم ، ولا ريب أن الروافض والخوارج لم يصلوا الى ما وصل اليه هؤلاء من الجهل والكذب على الله ورسوله وعلى الامة .

(يوضحه الوجه الثاني) أن الخوارج انما كفروا الامة بمخالفة أمره ومعصيته وتمسكوا بنصوص متشابهة لم يردوها الى المحكم ، وأما عباد القبور فكفروا بموافقة الرسول في نفس مقصوده ، وجعلوا تجريد التوحيد كفرا وتنقصا ، فأين المكفر بالذنب من المكفر بموافقة الرسول وتجريد التوحيد .

(يوضحه الوجه الثالث) ان زيارة قبره لو كانت تعظيما له لكانت مما لا يتسم الايمان الا بها ، ولكانت فرضا معينا على كل من استطاع اليها سبيلا من قرب أو بعد ، ولما أضع السابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان هذا الفرض ، وقام به الخلف الذين خلفوا من بعدهم ويزعمون أنهم بذلك أولياء الرسول ، وحزبه القائلون بحقوقه ، وما كانوا أولياءه ان أولياؤه الأهل طاعته ، والقيام بنا جاء به علما ومعرفة وعملا وارشادا وجهادا ، الذين جردوا توحيد الخالق وعرفوا للرسول حقه ، ووافقوه في تنفيذ ما جاء به والدعوة اليه والذب عنه .

(الوجه الرابع) أنه اذا كانت زيارة قبره واجبة على الاعيان كانت الهجرة الى القبر أكد من الهجرة اليه في حياته ، فان الهجرة الى المدينة انقطعت بعد الفتح ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لاهجرة بعد الفتح) وعند عباد القبور أن الهجرة الى القبر فرض معين على من استطاع اليه سبيلا ، وليس بخاف أن هذا مراعاة صريحة لما جاء به الرسول ، واحداث في دينه ما لم يأذن به ، وكذب عليه وعلى الله ، وهذا من أقبح التنقص .

وقد ذكر السبكي في موضع من كتابه (شفاء السقام) أنه رأى فتيا بخط شيخ الاسلام وفيها : ولهذا كانت زيارة القبور على وجهين : زيارة شرعية ، وزيارة بدعية ، فالزيارة الشرعية مقصودها السلام على الميت والدعاء له ان كان مؤمنا ، وتذكر الموت سواء كان الميت مؤمنا أم كافرا ، قال وقال بعد ذلك : فالزيارة لقبور المؤمن نيبا كان أو غير نبي من جنس الصلاة على جنازته ، وأما الزيارة البدعية فمن جنس زيارة النصارى مقصودها الاشرار بالميت ، مثل طلب الحوائج منه أو به ، أو

التمسح بقبره وتقبيله ، أو السجود له ونحو ذلك ، فهذا كله لم يأمر الله به ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا استجبه أحد من أئمة المسلمين ، ولا أحد من السلف لا عند قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا غيره .

قال السبكي - بعد حكايته هذا الكلام عن الشيخ - وبقي قسم لم يذكره ، وهو أن تكون للتبرك به من غير اشراك به ، فهذه ثلاثة أقسام أولها السلام والدعاء له ، وقد سلم جوازه وأنه شرعي . والقسم الثاني التبرك به والدعاء عنده للزائر ، قال وهذا القسم يظهر من فحوى كلام ابن تيسية أنه يلحقه بالقسم الثالث ، ولا دليل له على ذلك ؛ بل نحن نقطع ببطان كلامه فيه ، وإن المعلوم من الدين وسير السلف الصالحين التبرك ببعض الموتى من الصالحين فكيف بالانبياء والمرسلين ، ومن ادعى أن قبور الانبياء وغيرهم من أموات المسلمين سواء فقد أتى أمرا عظيما نقطع ببطلانه وخطئه فيه ، وفيه حظ لرتبة النبي صلى الله عليه وسلم الى درجة من سواه من المؤمنين ، وذلك كفر بيقين ؛ فإن من حظ رتبة النبي صلى الله عليه وسلم عما يجب له فقد كفر ، فإن قال : إن هذا ليس بحط ولكنه منع من التعظيم فوق ما يجب له ، قلت : هذا جهل وسوء أدب . وقد تقدم في أول الباب الخامس الكلام في ذلك ، ونحن نقطع بأن النبي صلى الله عليه وسلم يستحق من التعظيم أكثر من هذا المقدار في حياته وبعد موته ، ولا يرتاب من في قلبه شيء من الايمان ، هذا كله كلام المعترض .

فانظر الى ماتضمنه من الغلو والجهل والتكفير بمجرد الهوى وقلة العلم ، أفلا يستحي من هذا مبلغ علمه أن يرعى أتباع الرسول وحزبه وأوليائه برأيه الذي يشهد به عليه كلامه ؟ لكن من يرد الله فنتته فلن تملك له من الله شيئا .

(الوجه الخامس) أن يقال لهذا المعترض وأشباهه من عباد القبور : أتوجبون كل تعظيم للرسول صلى الله عليه وسلم أو نوعا خاصا من التعظيم ، فإن أوجبتم كل تعظيم لزمكم أن توجبوا السجود لقبره وتقبيله واستلامه والطواف به لأنه من تعظيمه . وقد أنكر صلى الله عليه وسلم على من عظمه بما لم يأذن به كتعظيم من سجد له . وقال : (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) ومعلوم أن مطرته إنما قصد تعظيمه .

وقال صلى الله عليه وسلم لمن قال له : يا محمد ، ياسيدنا وابن سيدنا ، وخيرنا وابن خيرنا (عليكم بقولكم ، ولا يستهويكم الشيطان) أنا محمد عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل) فمن عظمه بما لا يجب

فانما أتى بصد التعظيم ، وهذا نفس ما حرمه الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ونهى عنه وحذر منه •

وأیضا : فان الحلف به تعظيم له ، فقولوا يجب على الحالف أن يحلف به لأنه تعظيم له وتعظيمه واجب ، وكذلك تسيحجه وتكبيره والتوكل عليه والذبح باسمه كل هذا تعظيم له ، ومعلوم أن ايجاب هذا مثل ايجاب الحج اليه بالزيارة على من استطاع اليه سبيلا ولا فرق بينهما ، وان قلتم انما نوجب نوعا خاصا من التعظيم طولبتسم بضابط هذا النوع وحده ، والفرق بينه وبين التعظيم الذي لا يجب ولا يجوز ، وبيان أن الزيارة من هذا النوع الواجب ، والا كنتم متناقضين موجبين في الدين ما لم يوجهه الله وشارعين شرعا لم يأذن به الله •

(الوجه السادس) أن يقال : الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كلما خطر بالبال تعظيم له فأوجبوا له هذا التعظيم ، واحكموا على من قال لا يجب بأنه تارك لتعظيمه ، بل احكموا على من قال لا تجب الصلاة عليه كلما ذكر ولا تجب الصلاة عليه في الصلاة أولا تجب في العمر الا مرة أولا تجب أصلا بأنه تارك لتعظيم لأن الصلاة عليه تعظيم له بلا ريب ، فهل كان أئمة الاسلام وعلماء الامة نافرين لتعظيمه تاركين له بنفهم الوجوب ؟ أم كانوا أشد تعظيما له منكم واعرف بحقوقه وأحفظ لدينه أن يزداد فيه ما ليس منه !؟

(يوضحه الوجه السابع) أن الذين كرهوا من الفقهاء الصلاة عليه عند الذبح يكونون على قولكم تاركين لتعظيمه وذلك قادح في ايمانهم ، وكذلك من كره أو حرم الحلف به وقال لا تعتقد بين الحالف به يكون على قولكم تاركا لتعظيمه لأن الحلف به تعظيم له بلا ريب •

(الوجه الثامن) أن القول بعدم وجوب زيارة قبره أو بعدم استحبابها أو بعدم جواز شد الرحال لا يقدح في تعظيمه بوجه من الوجوه ، وهو بمنزلة قول من قال من أئمة الاسلام لا تجب الصلاة عليه في التشهد الأخير ، وبمنزلة قول من قال منهم تكراه الصلاة عليه عند الذبح ، وبمنزلة قول من قال لا تستحب الصلاة عليه في التشهد الاول ، ولا عند التشهد في الأذان ، بل قول من نفى وجوب الزيارة أو جواز شد الرحال الى القبر أولى أن لا يكون منافيا للتعظيم من قول من نفى وجوب الصلاة عليه أو استحبابها في بعض المواضع ، لأن الصلاة عليه مأمور بها ، وقد ضمن للصلي عليه مرة أن يصلى عليه عشرا ، بل الصلاة عليه محض التعظيم له ، فنفي وجوبها أو استحبابها في موضع ليس بترك للتعظيم وليس انكسار وجوب كل

من الامرين قادحا في تعظيمه ، بل ذلك عين تعظيمه .

(يدل عليه الوجه التاسع) أن تعظيمه هو موافقته في محبة ما يجب ، وكرهه ما يكره ، والرضي بما يرضى به ، وفعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه ، والمبادرة الى ما رغب فيه ، والبعد عما حذر منه ، وأن لا يتقدم بين يديه ، ولا يقدم على قوله قول أحد سواه ، ولا يعارض ما جاء به بمعقول ثم يقدم المعقول عليه كما يقوله أئمة هذا المعترض ، الذين تلقى عنهم أصول دينه وقدم آراءهم وهو اجس ظنونهم على كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم ينسب ورثة الرسول الواقفين مع أفواله المخالفين لما خالفها الى ترك التعظيم ، وأي اخلال بتعظيم وأي تنقص فوق من عزل كلام الرسول صلى الله عليه وسلم عن افادة اليقين ، وقدم عليه آراء الرجال ، وزعم أن العقل يعارض ما جاء به ، وأن الواجب تقديم المعقول وآراء الرجال على قوله؟!)

(الوجه العاشر) أن ايجاب زيارة قبره واستحبابها وشد الرحال اليه لأجل تعظيمه يتضمن جعل القبر منسكا يحج اليه كما يحج الى البيت العتيق كما يفعله عباد القبور ، سيما فانهم يأتون عنده بنظير ما يأتي به الحاج من الوقوف والدعاء والتضرع ، وكثير منهم يطوف بالقبر ويستلمه ويقبله ويسح عليه ، فلم يبق عليه من أعمال المناسك الا الحلق والنحر ورمي الجمار ، فايجاب الوسيلة الى هذا المحذور واستحبابها من أعظم الامور منافاة لما شرعه الله ورسوله ، وقد آل الامر بكثير من الجمال الى النحر عند قبور من يشدون الرحال الى قبورهم ، وحلق رؤسهم عند قبورهم ، وتسمية زيارتها حجا ومناسك ، وصنف فيه بعضهم كتابا سماه مناسك حج المشاهد ، وكان سبب هذا هو الغلو الذي يظنه من قل علمه تعظيما ، ولا ريب أن هذا أكره شيء الى الرسول تصدا ووسيلة .

(الوجه الحادي عشر) أن هذا الذي قصده عباد القبور من التعظيم هو بعينه السبب الذي لأجله حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخاذ القبور مساجد ، وايقاد السرج عليها ، ولعن فاعل ذلك ، ونهى عن الصلاة اليها ، وحرم اتخاذ قبره عيدا ، ودعا ربه أن لا يجعل قبره وثنا يعبد ، ولأجله نهى فضلاء الامة وساداتها عن ذلك ، ولأجله أمر عمر بتعفية قبر دانيال لما ظهر في زمان الصحابة ولأجله منع مالك من نذر اتيان المدينة وأراد القبر أن يوفي بنذره ولأجله كره الشافعي أن يعظم قبر مخلوق حتى يجعل مسجدا كما قال : وأكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجدا ولأجله كره مالك أن يقول القائل زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم لما يوهم هذا

اللفظ من أنه انما قصد المدينة لأجل زيارة القبر ، ولما فيه من تعظيم القبر باضافة الزيارة اليه مع كونه أعظم القبور على الاطلاق وأجلها وأشرف قبر على وجه الارض ، فالفتنة بتعظيمه أقرب من الفتنة بتعظيم غيره من القبور ، فحمى مالك رحمه الله تعالى الذريعة حتى في اللفظ ، ومنع الناذر من اتيانه ، ولو كان اتيانه قرابة عنده لأوجب الوفاء به ، فان من أصله ان كل طاعة تجب بالنذر سواء كان من جنسها واجب بالشرع أو لم يكن ، ولهذا يوجب اتيان مسجد المدينة على من نذر اتيانه ، وقد منع ناذر اتيان القبر من الوفاء بنذره ، فلو كان ذلك عنده قرابة لألزمه الوفاء به ، ومن رد هذا النقل عنه وكذب الناقل فهو من جنس من افترى الكذب وكذب بالحق لما جاءه ، فان ناقله ممن له لسان صدق في الامة بالعلم والامانة والصدق والجلالة ، وهو القاضي أبو اسحق اسمعيل بن اسحق بن اسمعيل بن حماد بن زيد أحد الأئمة الاعلام ، وكان نظير الشافعي ، وإماماً في سائر العلوم ، حتى قال المبرد اسمعيل القاضي أعلم مني بالتصريف ، وروى عن يحيى بن أكثم أنه رآه مقبلاً فقال : قد جاءت المدينة ، وقد ذكر هذا النقل عن مالك في أشهر كتبه عند أصحابه وأجلها عندهم وهو المبسوط ، فمن كذبه فهو بمنزلة من كذب مالكاً والشافعي وأبا يوسف ونظرانهم ، ومن وصل الهوى بصاحبه الى هذا الحد فقد فضح نفسه وكفى خصمه مؤتته ، ومن جمع أقوال مالك وأجوبته وضم بعضها الى بعض ثم جمعها الى أقوال السلف وأجربتهم قطع بمرادهم ، وعلم نصيحتهم للامة وتعظيمهم للرسول ، وحرصهم على اتباعه وموافقته في تجريد التوحيد وقطع أسباب الشرك ، وبهذا جعلهم لله أئمة ، وجعل لهم لسان صدق في الامة ، فلو ورد عنهم شيء خلاف هذا لكان من المشابه الذي يرد الى المحكم من كلامهم وأصولهم ، فكيف ولم يضح عنهم حرف واحد يخالفه ، فتبين أن هذا التعظيم الذي قصده عباد القبور هو الذي كرهه أهل العلم ، وهو الذي حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى أمته عنه ولعن فاعله ، وأخبر بشدة غضب الله عليه حيث يقول (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ومعلوم قطعاً أنهم انما فعلوا ذلك تعظيماً لهم ولقبورهم ، فعلم أن التعظيم للقبور مما يلعن الله فاعله ويشدد غضبه عليه .

(الوجه الثاني عشر) أن هذا الذي يفعله عباد القبور من المقاصد والوسائل ليس بتعظيم ، فان التعظيم محله القلب واللسان والجوارح وهم أبعد الناس منه ، فالتعظيم بالقلب ما يتبع اعتقاد كونه رسولا من تقديم محبته على النفس والولد

والوالد والناس أجمعين ، ويصدق هذه المحبة أمران :

(أحدهما) تجريد التوحيد ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان أحرص الخلق على تجريده ، حتى قطع أسباب الشرك ووسائله من جميع الجهات ، ونهى عن عبادة الله بالتقرب اليه بالنوافل من الصلوات في الاوقات التي يسجد فيها عباد الشمس لها ، بل قبل ذلك الوقت بعد أن تصلي الصبح والعصر لئلا يتشبه الموحدون بهم في وقت عبادتهم ، ونهى أن يقال ماشاء الله وشاء فلان ، ونهى أن يحلف بغير الله ، وأخبر أن ذلك شرك ، ونهى أن يصلى الى القبر ويتخذ مسجدا أو عيدا أو يوقد عليها سراج ، ودم من شرك بين اسمه واسم ربه تعالى في لفظ واحد ، فقال له : (بئس الخطيب أنت) بل مدار دينه على هذا الاصل الذي هو فطرب رجبى النجاة ، ولم يقرر أحد مآقرره صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله وهديه وسد الذرائع المنافية له ، فتعظيمه صلى الله عليه وسلم بموافقه على ذلك لا بمناقضته فيه .

(الثاني) تجريد متابعته وتحكيمه وحده في الدقيق والجليل من أصول الدين وفروعه ، والرضا بحكمه ، والانقياد له والتسليم ، والاعراض عن خالفه ، وعدم الالتفات اليه حتى يكون وحده الحاكم المتبع المقبول قوله ، كما كان ربه تعالى وحده المعبود المألوه المخوف المرجى المستغاث به المتوكل عليه ، الذي اليه الرغبة والرهبنة واليه الوجهة والعمل ، الذي يؤمل وحده لكشف الشدائد وتفريج الكربات ومغفرة الذنوب ، الذي خلق الخلق وحده ورزقهم وحده وأحياهم وحده وبعثهم وحده ويفر ويرحم ويهدي ويضل ويسعد ويشقي وحده وليس لغيره من الامر شيء كائنا من كان ، بل الامر كله لله ، وأقرب الخلق اليه وسيلة وأعظمهم عنده جاها وأرفعهم لديه ذكرا وقدرأ وأعظم عنده شفاعة ليس له من الامر شيء ، ولا يعضى أحدا شيئا ، ولا يمنع أحدا شيئا ، ولا يملك لأحد ضرا ولا رشدا ، وقد قال لا قرب الخلق اليه وهم ابنته وعمه وعمته : (يافاطمة بنت محمد لا أعني عنك من الله شيئا ، يا عباس عم رسول الله لا أعني عنك من الله شيئا ، يا صفية عمه رسول الله لا أعني عنك من الله شيئا) فهذا هو التعظيم الحق ، المطابق لحال المعظم ، النافع للمعظم في معاشه ومعاده ، الذي هو لازم ايمانه وملزومه .

وأما التعظيم باللسان فهو الثناء عليه بما هو أهله ما أتى به على نفسه ، وأتى به عليه ربه من غير غلو ولا تقصير ، فكما أن المقصر المفرط تارك لتعظيمه فالغالي

المفرط كذلك ، وكل منهما شر من الآخر من وجه دون وجه ، وأولياؤه سلكوا بين ذلك قواما .

وأما التعظيم بالجوارح فهو العمل بطاعته ، والسعي في اظهار دينه واعلاء كلماته ، ونصر ماجاء به وجهاد ماخالفه .

وبالجملة : فالتعظيم النافع هو تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والموالاتة والمعاداة ، والحب والبغض لاجله وفيه ، وتحكيمه وحده والرضا بحكمه ، وأن لا يتخذ من دونه طاغوت يكون التحاكم الى أقواله ، فما وافقها من قول الرسول قبله وما خالفها رده أو تأوله أو أعرض عنه ، والله سبحانه يشهد - وكفى بالله شهيدا - وملائكته ورسله وأولياؤه أن عباد القبور وخصوم الموحدين ليسوا كذلك وهم يشهدون على أنفسهم بذلك ، وما كان لهم أن ينصروا دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم ، شاهدين على أنفسهم بتقديم آراء شيوخهم وأفوال متبوعيههم على قوله ، وأنه لا يستفاد من كلامه يقين ، وأنه اذا عارضته آراء الرجال قدمت عليه وكان الحكم ماتحكّم به .

أفلا يستحي من الله من العقلاء من هذا حاله في أصول دينه وفروعه أن يستتر بتعظيم القبر ليوهم الجهال أنه معظم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ناصر له ، منتصر له ممن ترك تعظيمه وتنقصه ؟ ويأبى الله ذلك ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون . (وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاءُوهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (١) (وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (٢) انتهى .

وقد أكثر شيخ الاسلام - قدس الله روحه - من الرد على الغلاة القبوريين في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم وغيره من كتبه ، وما ذكرناه واف بالعرض على اختصاره ، والله أعلم .

ثم ان النبهاني الغبي ذكر قصة بلال التي ذكرها السبكي ، وهي أن بلالا رأى في منامه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول له ماهذه الجفوة يا بلال ، أما آن لك أن تزورني يا بلال ، فاتته خزينا وجلا خائفا ، فركب راحلته وقصد المدينة ، فأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه الى آخرها ، وقد تكلم عليها الحافظ ابن قدامة في كتابه (الصارم المنكى في الرد على السبكي) وبين

(١) الانفال : ٢٤ (٢) التوبة : ١٠٥

وذكر النبهاني الغبي أيضا الاكذوبة المشهورة المسندة لاحمد الرفاعي ، فقال ان الزيارة وصلة مع الحبيب ، وقد وقع لبعض العارفين مخاطبته له صلى الله عليه وسلم ورده عليه ، ومن ذلك المعنى ما ذكره بعض العارفين عن القطب الرفاعي في حال زيارته للقبر الشريف من قوله :

في حالة البعد روي كنت أرسلها تقبل الارض غني وهي نائبي
وهذه دولة الاشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي
قال : فمد يده الشريفة من الشباك فقبلها ، انتهى كلامه .

(أقول الكلام) على هذه الخرافة في مقامين ، (المقام الاول) في تكذيب وقوع هذه القصة وافترائها على أحمد الرفاعي ، (المقام الثاني) في بيان عدم امكان رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته وأن من ادعى ذلك فهو كاذب .
(أما المقام الاول) وهو بيان كذب هذه القصة فمن وجوه كثيرة نذكر منها ماخطر بالبال .

(الاول) أنه قد ترجم أحمد الرفاعي هذا جماعة من المؤرخين على اختلافهم في المذهب ، ولم يذكروا هذه القصة في ترجمته ، ولو كانت ثابتة لعدوها من أعظم مآثره وأكبر مفاخره ، لاسيما التاج السبكي لتعصبه للمتصوفة ولاسيما من هو على مذهبه ونحلته ، ومع ذلك لم يذكر هذه القصة في ترجمة أحمد الرفاعي لما ترجمه في طبقاته ، فانه قال :

(أحمد بن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعه) الشيخ الزاهد الكبير أحد أولياء الله العارفين ، والسادات المشمرين ، أهل الكرامات الباهرة ، أبو العباس بن أبي الحسن بن الرفاعي المغربي ، قدم أبوه الى العراق وسكن ببعض القرى وتزوج باخت الشيخ منصور الزاهد ورزق منها أولادا ، منهم الشيخ أحمد هذا لكنه مات وأحمد حمل ، فلما ولد رباه وأدبه خاله منصور ، وكان مولده في المحرم سنة خمسمائة ، وتفقه على مذهب الشافعي ، وكان كتابه التنبية (١) ولو أردنا استيعاب فضائله لضاق الوقت ، ولكننا نورد ما فيه بلاغ ، ثم ذكر كلاما في محاسن أخلاقه الى أن قال : وقال الشيخ أحمد : سلكت كل طريق فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الذل والافتقار والانكسار لتعظيم أمر الله ، والشفقة على خلق الله ، والافتقار بسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان يجمع الحطب ويحمله

(١) كذا في الاصل .

الى بيوت الارامل والمساكن ، وربما كان يحمل الماء لهم ، الى أن قال : وكان لا يجمع بين قميصين لا في شتاء ولا في صيف ، ولا يأكل الا بعد يومين أو ثلاثة أكلة ، ثم قال : وعن يعقوب - وقد سئل عن أوراد سيدي أحمد ، فقال - كان يصلي أربع ركعات بألف (قل هو الله أحد) ويستغفر كل يوم مرة ، واستغفاره أن يقول : لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين ، عملت سوء وظلمت نفسي وأسرفت في أمري ، ولا يغفر الذنوب الا أنت ، فاغفر لي وتب علي انك أنت التواب الرحيم ، يا حي يا قيوم لا اله الا أنت ، توفي يوم الخميس ثاني عشر جمادى الاولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، ومناقبه أكثر من أن تحصى ، وقد أفرد لها بعض الصلحاء كتابا يخصها ، انتهى •

فلم يذكر قصة مد اليد التي هي من أعظم الخوارق وأعجبها لو صحت ، مع أنه ذكر أعظم مفاخره وهي قصة الهرة التي كانت نائمة على كفه فقطع الكم ، وقصة البعوضة التي كانت على يده تمتص دمه ، وقصة الكلاب التي كانت تأكل التمر من القوصرة في دار الطعام وهم يتهارجون ، فوقف على الباب لئلا يدخل اليهم أحد يؤذيهم •

وذكر القاضي أحمد الشهير بابن خلكان في كتابه وفیات الاعيان مانصه : أبو العباس أحمد ابن أبي الحسن على بن أبي العباس أحمد المعروف بابن الرفاعي ، كان رجلا صالحا فقيها شافعي المذهب ، أصله من الغرب ، وسكن في البطائح بقرية يقال لها أم عبيدة ، وانضم اليه خلق عظيم من الفقراء ، وأحسنوا الاعتقاد فيه وتبعوه والطائفة المعروفة بالرفاعية والبطائحية من الفقراء منسوبة اليه ولاتباعه ، ولهم أحوال عجيبة من أكل الحيات وهي حية ، والنزول في التناير وهي تنضرم بالنار فيطفقونها الى أن قال : ولم يكن له عقب ، وانما العقب لأخيه وأولاده يتوارثون المشيخة والولاية على تلك الناحية الى الآن ، وأمورهم مشهورة مستفيضة فلا حاجة الى الاطالة فيها ، انتهى •

فلم يذكر تلك القصة من مناقبه ، ولو صحت روايتها لكانت غرة وجه مناقبه ، وهكذا ذكر كل من ترجمه من الثقات ، وهذه مما اختلقها له أصحابه بعد موته بعدة سنين ، كما ادعوا له الاتساب الى ابراهيم المرتضى بن موسى الكاظم رضي الله عنه ولا أصل له أيضا ، قال في مختصر عمدة الطالب : ان الشيخ أحمد رحمه الله لم

يدع ذلك ، وانما ادعاء البطن الثالث من ولده ، ويقولون هم أحمد بن علي بن الحسين بن المهدي بن أبي القاسم بن محمد بن الحسين ابن أحمد الأكبر بن موسى أبي شجبه بن ابراهيم المذكور . قال أبو نصر البخاري : لا يصح لابراهيم المرتضى عقب الا من موسى وجعفر ومن انتسب الي غيرهما فهو كاذب انتهى المقصود منه .
والمقصود : أن قصة مد اليد ونحوها من المزايا والمآثر لو صحت لكانت أحق بالذكر من جميع ما ذكره . فلما لم يذكرها علنا أنها من أفك أفك أنيم .

(الوجه الثاني) أن أحسن من رواها الامام السيوطي . وقد أسندها الى بعض المجاميع ولم يذكر لها سندا واهيا فضلا عن أن يكون صحيحا . مع أن حاله في الرواية معلوم ، فقال في كتابه (تنوير الحلك في رؤبة النبي والملك) وفي بعض المجاميع وذكر القصة والبيتين على وجه الاختصار مع أن هذه القصة لو صحت لتوردت الدواعي على نقلها ، لأنها حادث عظيم وخارق عجيب ، فإلشيء الذي تتوفر الدواعي على نقله ولم يذكره أحد من الثقات بل ذكره الدجالون الضالون المضلون فهو لاشك تزوير وبهتان ، وكذب من أفك شيطان .

(الوجه الثالث) أن الدجالين الذين رواوا هذه القصة المكذوبة ادعوا أن من كان حاضرا هناك ورأوا اليد وسعوا رد السلام نحو مائة ألف أو يزيدون ، سبحانك هذا بهتان عظيم ! كيف يسكن أن يكون هناك هذا العدد الكثير ؟ وأي محل في المسجد يسعهم أو يسع عشر معشارهم ؟! ثم إن القبر قد أحاطت به الجدران فمن أي شباك خرجت اليد ؟ ومن المعلوم إذا كان أمر عجيب وشيء غريب يتهاجم على رؤيته الراؤن فلا يمكن الرؤية الا للقريب ، وكذلك سماع رد السلام كيف أمكن للجميع ؟ فانظر الى هذه الاكذوبة التي لا تروج حتى على ضعفاء العقول ، ومع ذلك فقد تمسك بها قوم سلب الله منهم الحياء واتخذوها حباله من جبال مصائدهم ، وأغراهم الله على مثل هذه الدعاوي الكاذبة ليفضحهم بها في الدنيا والآخرة انتقاما لأهل الحق منهم .

(الوجه الرابع) أن كثيرا من أهل العلم والادب نسب البيتين الى غير أحمد الرفاعي . قال الشيخ صلاح الدين الصفدي في تذكرته : حكى أن ابن الفارض لما اجتمع بالشهاب السهروردي في مكة أنشده :

في حالة البعد روجي كنت أرسلها تقبل الارض عني وهي نائبتني
وهذه نوبة الاشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

وكفى بما ذكره الشيخ صلاح الدين هذا شاهدا على بطلان مادعاها غلاة
الرفاعية ومبتدعتهم ، فان هذا الشيخ كان اماما أديبا ناظما نائرا . ولد سنة ست
وتسعين وستائة ، وقد عقد له ابن السبكي ترجمة مجملة في طبقاته ، ومن نقل ذلك
الشهاب الخفاجي الشافعي في كتابه (طراز المجالس) وأن البيهقي من شعر ابن الفارض
لما اجتمع بالسهر وردي في مكة قال : وقد نسب هذا لغيره ، ولم يذكر الغير ولم يصرح
باسمه .

(الوجه الخامس) حسن الظن بأحمد الرفاعي رحمه الله يقتضي عدم مخالفته
للسنة النبوية والشريعة المحمدية ، فقد كان على ما روى الثقة بخلاف من يدعي
الانتماء اليه من المبتدعة الغلاة . وأنه لم يزل على المنهج المستقيم والصراف القويم ،
فمن البعيد عنه الزيارة البدعية التي وردت عن الجهلة الشيطانية ، بل لا بد أن يزور
الزيارة التي ذكرها الأئمة الاعلام ، وأساطين دين الاسلام ، وقد مر بيان ذلك مفصلا
فيما نقلناه من كتابي الشيخ ، فكيف يسوغ لمن تأدب بالآداب النبوية أن يتجاسر في
ذلك المقام ، ويطلب منه ما لم يطلبه غيره من أكابر الصحابة وأئمة أهل البيت وغيرهم ،
ويقول له امدد يمينك كي تحظى بها شفتي ، فهل هذا إلا قول أفاك أثيم أراد أن
يروج زيف كلامه على الجهلة والعموم الطعام ، فمن اليقين لدى العارفين أن هذه القصة
كذب وزور لعن الله من وضعها وافترأها .

(المقام الثاني في الكلام على رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بعد الموت)

قد ذكرنا سابقا بعض الوجوه على القدر برواية مد اليد وقصدنا الاختصار في
القول اذ الكلام عليه طويل جدا ، وقد آن أن نتكلم على المقام الثاني وهو أيضا من
بعض الوجوه السابقة ، فنقول وبالله التوفيق : ان رؤية النبي صلى الله عليه وسلم
قد ادعاها قوم كثيرون بعد وفاته بزمن طويل ، وقد ألف الجلال السيوطي رسالته
المسماة (بتتوير الحلك في رؤية النبي والملك) لأجل تأييد هذا القول ، وحال
السيوطي وتلونه معلوم ، حتى جعله بعض أهل العلم حاطب ليل ، وبعد أن نقل
عنه صاحب روح المعاني في هذه المسألة ما نقل وكذا عن غيره قال في تفسيره : -

ثم اني أقول بعد هذا كله : ان مانسب الى بعض الكاملين من أرباب الاحوال
من رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته وسؤاله والاخذ عنه لم نعلم وقوع
مثله في الصدر الاول ، وقد وقع اختلاف بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم من حين

توفي الى ماشاء الله تعالى في مسائل دينية وأمور دنيوية ، وفيهم أبو بكر وعمر
وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم ، والى أبي بكر وعلي ينتهي أغلب سلاسل
الصوفية الذين تسب اليهم تلك الرؤية ، ولم يبلغنا أن أحدا منهم ادعى أنه رأى
في اليقظة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ عنه مأخذ ، وكذا لم يبلغنا أنه صلى
الله عليه وسلم ظهر لمتحير في أمر من أولئك الصحابة الكرام فأرشده وأزال تحيره .

وقد صح عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال في بعض الأمور : ليتني كنت
سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، ولم يصح عندنا أنه توسل الى السؤال منه
صلى الله عليه وسلم بعد الوفاة نظير ما يحكى عن بعض أرباب الاحوال ، وقد وقتت على
اختلافهم في حكم الجدم مع الاخوة ، فهل وقتت على أن أحدا منهم ظهر له الرسول
صلى الله عليه وسلم فأرشده الى ماهو الحق فيه ، وقد بلغك ما عرى فاطمة البتول
رضي الله تعالى عنها من الحزن العظيم بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وما جرى لها
في أمر فدك ، فهل بلغك عنه عليه الصلاة والسلام أنه ظهر لها كما يظهر للصوفية قبل
لوعتها وهون حزنها وبين الحال لها ؟ وقد سمعت بذهاب عائشة الى البصرة وما كان
من وقعة الجمل ، فهل سمعت تعرضه صلى الله عليه وسلم لها قبل الذهاب وصدده
اياها عن ذلك لتلايقع أو تقوم الحجة عليها على أكمل وجه ؟ الى غير ذلك مما لا يكاد
يحصى كثرة .

(والحاصل) أنه لم يبلغنا ظهوره عليه الصلاة والسلام لأحد من أصحابه وأهل
بيته مع احتياجهم الشديد لذلك ، وظهوره عند باب مسجد قباء كما يحكيه بعض
الشيعة افتراء محض وبهت بحت .

وبالجملة عدم ظهوره لأولئك الكرام وظهوره لمن بعدهم مما يحتاج الى توجيه
يقنع به ذوو الافهام ، ولا يحسن مني أن أقول كل ما يحكى عن الصوفية من ذلك
كذب لا أصل له لكثرة حاكيه وجلالة مدعيه ، وكذا لا يحسن مني أن أقول انهم انما
رأوا النبي صلى الله عليه وسلم مناما فظنوا ذلك لخفة النوم وقلة وقته يقظة ، فقالوا
رأينا يقظته لما فيه من البعد ، ولعل في كلامهم ما ياباه ، وغاية ما أقول أن تلك الرؤية
من خوارق العادة كسائر كرامات الاولياء ومعجزات الانبياء عليهم السلام ، وكانت
الخوارق في الصدر الاول لترب العهد بشمس الرسالة قليلة جدا ، وأنى يرى النجم
تحت الشعاع أو يظهر كوكب وقد انتشر ضوء الشمس في البقاع ، فيمكن أن يكون
قد وقع ذلك لبعضهم على سبيل النادرة ولم تقتض المصلحة افساءه ، ويمكن أن يقال

انه لم يقع لحكمة الابتلاء ، أو لخوف الفتنة ، أو لأن في القوم من هو كالمراة له صلى الله عليه وسلم ، أو ليهرع الناس الى كتاب الله تعالى وسنته صلى الله تعالى عليه وسلم فيما يهمهم ، فيتسع باب الاجتياذ ، وتشر الشريعة ، وتعظم الحجة التي يسكن أن يعقلها كل أحد ، أو لنحو ذلك ، وربما يدعى أنه عليه الصلاة والسلام ظهر ولكن كان مستترا في ظهوره ، كما روي أن بعض الصحابة أحب أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء الى ميسونة فأخرجت له مرآته فنظر فيها فرأى صورة رسول الله عليه الصلاة والسلام ولم ير صورة نفسه ، فهذا كالظهور الذي يدعيه الصوفية الا أنه بحجاب المراة وليس من باب التخيل الذي قوى بالنظر الى مرآته عليه الصلاة والسلام ، وملاحظة أنه كثيرا ما ظهرت فيها صورته حسبما ظنه ابن خلدون ، فان قبل قولي هذا وتوجيهي لذلك الامر فيها ونعمت ، والا فالامر مشكل فاطلب لك ما يحله ، والله سبحانه الموفق للصواب ، انتهى كلامه •

وتوجيهه الذي وجه به غير مقبول ، اذ لا يدل عليه كتاب ولا سنة صحيحة ، وليس الامر مشكلا اذا لم يقبل توجيهه كما زعمه ، لأن غلط الحس كثير ، فاذا صدقوا بروايتهم نجيب حينئذ بما أجاب شيخ الاسلام في كتابه الجواب الباهر ، وقد ذكرناه سابقا برمته فانه قد قال : وكان الصحابة خير القرون ، وهم أعلم الناس بستته وأطوع الامة لامره ، وكانوا اذا دخلوا الى المسجد لا يذهب أحد منهم الى قبره لا من داخل الحجرة ولا من خارجها ، وكانت الحجرة في زمانه يدخل اليها من الباب اذ كانت عائشة فيها وبعد ذلك الى أن بنى الحائط الآخر ، وهم مع ذلك التمسك من الوصول الى قبره لا يدخلون اليه لا لسلا ، ولا لصلاة ، ولا لدعاء لأنفسهم ، ولا لسؤال عن حديث أو علم ، ولا كان الشيطان يطعم فيهم حتى يسمعهم كلاما وسلاما فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم وبين لهم الاحاديث أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج كما طمع الشيطان في غيرهم ، فأضلهم عند قبره وقبر غيره ، حتى ظنوا أن صاحب القبر يحدثهم ويفتيهم ويأمرهم ويذمهم في الظاهر ، وأنه يخرج من القبر ويرويه خارجا من القبر ، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت من القبر تكلمهم ، وأن روح الميت تجسدت لهم فأروها كما رأهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج يقظة لا مناما ، فان الصحابة رضوان الله عليهم خير قرون هذه الامة التي هي خير أمة أخرجت للناس ، وهم تلقوا الدين عن النبي صلى الله عليه وسلم بلا واسطة ففهموا من مقاصده وعانوا من أفعاله ، وسعوا منه شفاها ما لم يحصل لمن

بعدهم ، وهم قد فارقوا جميع أهل الأرض وعادوهم ، وهجروا جميع الطوائف وأديانهم ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم الى آخر ما ذكره هناك .

ثم انه يؤيد ما ذكره الشيخ أن العرب في الجاهلية كثيرا ما كانوا يسعون كلاما من أصنامهم كما سعوا من صنمهم المسى بالجلسد وهو صنم كان بحضر موت ، وفي كتاب أبي أحمد الحسن ابن عبد الله العسكري قال : أخبرنا ابن دريد قال أخبرني عبي الحسين بن دريد قال أخبرني حاتم ابن قبيصة المهليبي عن هشام بن الكلبي عن أبي مسكين ، قال : كان بحضر موت صنم يسمى الجلسد تعبده كنده وحضر موت ، وكانت سدنته بني شكامة بن شبيب بن السكون بن أشرس بن ثور بن مرتع وهو كنده ، ثم الى أهل بيت منهم يقال لهم بنو علاق . وكان الذي يسدنه منهم يسمى الاخرز ابن ثابت ، وكان للجلسد حمى ترعاه سوامه وغنسه ، وكانت هوا في الغنم اذا رعت حمى الجلسد حرمت على أربابها ، وكانوا يكلمون منه ، وكان كجثة الرجل العظيم ، وهو من صخرة بيضاء لها كالرأس أسود ، واذا تأمله الناظر رأى فيه كصورة وجه الانسان (قال الاخرز) ، اني كنت يوما عند الجلسد وقد ذبح له رجل من بني الامري بن مهرة ذبحا اذ سمعنا فيه كهمة الرعد فأصغينا فاذا قائل يقول : شعار أهل عدم ، انه قضاء حتم ، ان بطش سهم ، فقد فاز سهم ، فقلنا ربنا وضاح وضاح فأعاد الصوت وهو يقول : ناء نجم العراق ، يا أخرز بن علاق ، هل أحسست جمعا عما ، وعدد أجما ، يهوى من يمن وشام ، الى ذات الاجام ، نور أظل وظلام أفل ، ومملك انتقل من محل الى محل ، ثم سكت فلم ندر ما هو فقلنا هذا أمر كائن ، فلما كان في العام المقبل - وقد راث علينا ما كنا نسمع من كلام الصنم وساءت فلتوتنا ، وقربنا قربانا ولطخنا بدمه وكذلك كنا نفعل - فاذا الصوت قد عاد الينا فتبأشرنا ، فقلنا عم صباحا ربنا لامصد عنك ولا محيد تشارت الشؤن وسأت الظنون ، فالعياذ من غضبك والأيباب الى صفحك ، فاذا النداء من الصنم يقول : قلبت البنات ، وعزّأها واللات ، وعليها ومناة ، منعت الافق فلا مصعد ، وحرست فلا مقعد ، وأبهت فلا متلدد ، وكان قد ناجم نجم ، وهاجم الجهم ، وصامت زجم ، وقابل رجم ، وداع نطق ، وحق سبق ، وباطل زهق ، ثم سكت فتحدثت القبائل بهذا في مخاليف اليمن ، فانا لعلنا أفان ذلك ، اذ أضل رجل من كنده ابلا فأقبل الى الجلسد فنحر جزورا واستعار ثوبين من ثياب السدنة واكترهما فلبسهما - وكذلك كانوا يفعلون - ثم قال : - أنشدك يارب أباكرا ضخما مدمومة دما مخلوقة بالافخاذ ، مخلوطة بالحاذ ، أضللتها

بين جماهير النخرة ، حيث الشقيقة والصفرة ، فاهد رب وارشد فلم يجب ، قال
 الاخر فانكسر لذلك ، وقد كان فيما مضى يخبرنا بالاعاجيب ، فلما جن علينا الليل
 بت ميّتي عنده ، فاذا هاتف يقول : لا شأن للجسد ولا رثي لهدد ، استقام الاود ،
 وعبد الواحد الصمد ، واكفى الحجر الاصلد ، والرأس الاسود ، قال فهضت مذعورا
 فأتيت الصنم فاذا هو منقلب على رأسه ، وكان لو اجتمع فئام من الناس ما حبطوه
 فوالذي نفسي بيده ما عرجت على أهل ولا مال حتى أتيت راحلتي وخرجت حتى
 أتيت صنعاء ، فقلت هل من خائبة خير ؟ فقيل : ظهر رجل بمكة يدعو الى خلع
 الاوثان ، ويزعم أنه نبي ، فلم أزل أطوف في مخاليف اليمن حتى ظهر الاسلام ، فأتيت
 النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأسلمت ، وفي اشعارهم :

فبات يجتاب شقارى كما يبقر من يمشي الى الجلسد

والبيقر مشية يطأطىء الرجل فيها رأسه ، والبيت للمثقب العبدى ، ومنهم من
 قال انه لعدي بن الرقاع ، ويروى كما كبر من يمشي الى الجلسد •

وسمعوا أيضا كلاما من صنمهم المسمى بالضمار - وهو بكسر الضاد المعجمة
 وميم مخففة بعدها ألف ثم راء مهملة - كان صنما لبني سليم ، ولما حضرت مرداسا
 الوفاة قال للعباس ولده أي بني أعبد ضمارا فانه ينفعك ويضرك فينما عباس يوما
 عند ضمار اذ سمع من جوف ضمار مناديا يقول :

من للقبائل من سليم كلها أودى ضمار وعاش أهل المسجد

ان الذي ورث النبوة والهدى بعد ابن مريم من قرش مهتد

أودى ضمار وكان يعبد مدة قبل الكتاب الى النبي محمد

فحرق عباس ضمارا ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وفي لفظ أن عباس بن
 مرداس كان في لفتح له نصف النهار اذ طلع عليه راكب على نعامة بيضاء وعليه ثياب
 بيض فقال له يا عباس ألم تر أن السماء قد تعب أحراسها ، وأن الحرب قد حرقت
 أنفاسها ، وأن الخيل وضعت أحلاسها ، وأن الذي نزل عليه البر والتقوى صاحب
 الناقة القصوا ؟ فقال عباس : فراغني ذلك فجئت وثنا لنا يقال له الضمار كنا نعبده ،
 ونكلم من جوفه فكنت ما حوله ثم تمسحت به ، فاذا صائح يصيح من جوفه :

قل للقبائل من قريش كلها هلك الضمار وكان يعبد مدة
هلك الضمار وكان يعبد مدة قبل الصلاة على النبي محمد
ان الذي ورث النبوة والهدى بعد ابن مريم من قريش مهتد

قال عباس فخرجت مع قوم بني حارثة الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة فدخلت المسجد ، فلما رأني رسول الله صلى الله عليه وسلم تبسم ، فقال : يا عباس كيف اسلامك ؟! فقصت عليه القصة ، فقال : صدقت وأسأمت أنا وقومي .

وما كفى مبتدعة الرفاعية وغلاتهم تلك الاكذوبة الظاهرة العوار ، البينة الفساد حتى اتخذوا لها يوم عيد ، ولا يأكلون قبله بسبعة أيام شيئا من اللحوم ، وبعد انقضاءها يكون العيد فيهنىء بعضهم بعضا به ويسمونونه عيد مد اليد . ولهم في ذلك رسائل ومصنفات ، منها القواعد المرعية في أصول الطريقة الرفاعية ، وفيها قاعدة في الخلوة الاسبوعية المحرمة ، وفيها اشترط رجال هذه الطريقة العلية دخول الخلوة المحرمة في كل سنة في اليوم الثاني عشر من محرم الحرام الى مساء اليوم السابع عشر ، وقد اشترطوا ذلك على كل من اتسب الى هذه الطريقة ، وقالوا يلزم المختلي أن يتخذ له فراشا خالصا لا يشاركه فيه النساء ، وأن يديم الضوء كلما حدث له ناقص جرده ، ولا يتكلم بما لا يعنيه ، ولا يكثر الكلام لغير ضرورة ، ويلزم بيته الا لعذر وينفرد ، وليكن طعامه خاليا عن كل ذي روح ، ثم ذكر ما يشرع للسالك في تلك الايام من أورااد واذكار .

ومنها الفخر المخلد في منقبة مد اليد . وفيها بيان ما يشرع ليلة عيد الخلوة المحرمة من البدع والاهواء ، ولم ينزل الله بها من سلطان ، ولم يتكلم بما حوته عالم من العلماء الاعلام ، وكلها قد تلقوها عن اخوانهم الباطنية ، والنحل الرافضية . وليس هذا المقام مقام الرد عليهم . وبيان ما نسب من الضلال اليهم ، وقد رد عليهم شيخ الاسلام في عدة مواضع . وألف فيهم كتبا مفصلة ، منها كتابه الذي سماه (كشف حال المشائخ الاحدية وبيان أحوالهم الشيطانية) نذكر منه ان شاء الله تعالى ما يناسب مقامه .

وأظن أن ما كتبه النبهاني الغبي في هذه المسألة انما هو ارضاء لشيخه شيخ الضلال ومقدمة الدجال ، عدو المسلمين ، وناصر المبتدعين ، الذي كان قربه من ولي

الامر من أعظم المصائب وأدهى النوائب ، وقد روج بدع الرفاعية أي رواج ، وعدل بالمسلمين عن سواء السبيل وأقوم منهاج ، هذا مع ما هو عليه من الفسق والفجور ، والزيف عن الحق في كل الامور ، وما اكتفى بذلك حتى بث حربه ومردته يصدون عن الحق في كل سبيل ، وأقعدهم على صراط الله المستقيم للاغواء والتضليل ، حتى استفحل أمرهم ، وعم البر والبحر شرهم ، فذكر النبهاني الجاهل هذه القضية التي هي احدى حبائل شيخه ليستجلب رضاه ، فعليه وعلى شيخه ما يستحقان ، والردود المؤلفة في القدح على شيخه هذا كثيرة ، وكلها مطبوعة ومشتهرة منها كتاب (المسامير) ومنها (الفتح المين) ومنها (السيف الرباني) ومنها غير ذلك ، ولكن الامر كما قيل:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايسلام

ثم ان النبهاني أخذ يتكلم على فضل المدينة النبوية ، وذكر للشيخ البكري أربعين حديثا في فضلها ، والبكري هذا هو الذي رد عليه الشيخ في كتاب (الاستغاثة) وهو مجلد كبير ، ثم ذكر الخلاف في مكة والمدينة أيهما أفضل الخ .

أقول : فضل المدينة مما لاشك فيه ، والكتب مملوءة من ذلك ، قال ابن خلدون اعلم أن الله سبحانه وتعالى فضل من الارض بقاعا اختصها بتشريفه ، وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب وينسب بها الاجور ، وأخبرنا بذلك على السن رسله وأنبأته لظفا بعباده وتسهيلا لطرق السعادة لهم ، وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الارض حسبا ثبت في الصحيحين ، وهي مكة ، والمدينة ، وبيت المقدس ، أما بيت الحرام الذي بمكة فهو بيت ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، أمره الله ببنائه وأن يؤذن في الناس بالحج اليه ، فبناه هو وابنه اسماعيل كما نصه القرآن ، وقام بما أمره الله فيه وسكن اسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم الى أن قبضهما الله ودفنا بالحجر منه .

وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام ، أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ، ودفن كثير من الانبياء من ولد اسحق عليه السلام حواله .

قال : والمدينة مهاجر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، أمره الله تعالى بالهجرة اليها ، واقامة دين الاسلام بها ، فبنى مسجده الحرام بها ، وكان ملحد الشريف في تربتها .

قال : فهذه المساجد الثلاثة قررة عين المسلمين ، ومهوى أفئدتهم ، وعظمة دينهم ،

وفي الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب في مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف •
ثم انه أشار الى شيء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة ، وكيف تدرجت
أحوالها الى أن كمل ظهورها في العالم ، وقد ذكر ياقوت الحموي ذلك بتفصيل أكثر
على أنه قد أفرد لذلك كتب مخصوصة مشهورة ، فلا تتعب القلم بذكرها •
(وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية) في جواب سؤال ورده عن صحة أصول
مذهب أهل المدينة ومنزلة مالك المنسوب اليه مذهبهم في الامامة والديانة وضبط
علوم الشريعة عند أئمة علماء الامصار وأهل الثقة والخبرة من سائر الاعصار •

(أجاب رضي الله عنه) الحمد لله : مذهب أهل المدينة النبوية - دار السنة
ودار الهجرة ودار النصر اذ فيها سن الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم سنن
الاسلام وشرائعه واليهما هاجر المهاجرون الى الله ورسوله وبها كان الانصار أنصار
الله الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم مذهبهم - في زمن الصحابة والتابعين
وتابعيهم أصح مذاهب أهل المذاهب الاسلامية شرقا وغربا في الاصول والفروع ،
وهذه الاعصار الثلاثة هي أعصار القرون المفضلة التي قال فيها النبي صلى الله عليه
وسلم في الحديث الصحيح من وجوه (خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين
يلونهم ، ثم الذين يلونهم) فذكر ابن حبان بعد قرنه قرنين بسلا نزاع ، وفي بعض
الاحاديث الشك في القرن الثالث بعد قرنه ، وقد روى في بعضها بالجزم باثبات القرن
الثالث بعد قرنه فتكون أربعة ، واعتمد على ذلك أبو حاتم السلمي ونحوه من علماء
أهل الحديث في طبقات هذه الامة بأن هذه الزيادة ثابتة في الصحيح ، ثم انه ذكر
أحاديث الثلاثة والاحاديث التي فيها ذكر القرن الرابع - الى أن قال - وفي القرون
التي أتى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مذهب أهل المدينة ، أصح
مذاهب أهل المدائن ، فانهم كانوا يتأسون بأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر
من سائر الامصار ، وكان غيرهم من أهل الامصار دونهم في العلم بالسنة النبوية
واتباعها ، حتى أنهم لا يفتقرون الى نوع من سياسة الملوك ، وأن افتقار العلماء
ومقاصد العباد أكثر من افتقار أهل المدينة حيث كانوا أغنى من غيرهم عن ذلك كله
بما كان عندهم من الآثار النبوية التي يفتقر الى العلم بها واتباعها كل أحد ، ولهذا لم
يذهب أحد من علماء المسلمين الى أن اجماع أهل مدينة من المدائن حجة يجب اتباعها
غير المدينة ، لا في تلك الاعصار ولا فيما بعدها ، لا اجماع أهل مكة ولا الشام
ولا العراق ولا غير ذلك من أمصار المسلمين ، ومن حكى عن أبي حنيفة أو أحد من

أصحابه أن اجتمع أهل الكوفة حجه يجب اتباعها على كل مسلم فقد غلط على أبي حنيفة وأصحابه في ذلك .

وأما المدينة فقد تكلم الناس في اجماع أهلها . واشتهر عن مالك وأصحابه أن اجماع أهلها حجة ، وأن بقية الأئمة ينازعونهم في ذلك . والكلام انما هو في اجماعهم في تلك الاعصار المفضلة . وأما بعد ذلك فقد اتفق الناس على أن اجماع أهلها ليس بحجة ، اذ كان حينئذ في غيرها من العلماء ما لم يكن فيها ، لاسيما من حين ظهر بها الرفض . فان أهلها مستسكون بذهبهم القديم . منتسبين الى مذهب مالك الى أوائل المائة السادسة أو قبل ذلك أو بعد ذلك . فانهم قدم اليهم من رافضة المشرق من أهل قاشان وغيرهم من أقصد مذهب كثير منهم ، لاسيما المنتسبون منهم الى العترة النبوية . وقدم عليهم بكتب أهل البدع المخالفة للكتاب والسنة ، وبذل لهم أموالا فكثرت البدعة بها من حينئذ ، فأما الاعصار المفضلة فلم يكن فيها بالمدينة النبوية بدعة ظاهرة البتة ، ولا خرج منها بدعة في أصول الدين ، كما خرج من سائر الامصار فان الامصار الكبار التي سكنها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج منها العلم والايان خمسة : البحرين ، والعراقان . والشامان ، منها خرج القرآن والحديث والفقهاء والعبادة وما يتبع ذلك من أمور الاسلام .

وخرج من هذه الامصار بدع أصولية غير المدينة النبوية ، فالكوفة خرج منها التشيع والارزاء ، وانتشر بعد ذلك في غيرها ، والبصرة خرج منها القدر والاعتزال الفاسد ، وانتشر بعد ذلك في غيرها . والشام كان بها النصب والقدر ، وأما التجهم فانما ظهر من ناحية خراسان ، وهو شر البدع ، ولأن ظهور البدع بحسب البعد عن الدار النبوية ، فلما حدث الفرقة بعد مقتل عثمان ظهرت بدعة الحرورية ، وتقدم بعقوبتها الشيعة من الاصناف الثلاثة الغالية حيث حرقهم علي بالنار ، والمفضلة حيث تقدم جلدتهم ثمانين ، والسبائية حيث طلب أن يعاقب ابن سبا بالقتل أو بغيره فهرب منه ، ثم في أواخر عصر الصحابة حدثت القدرية في آخر عصر ابن عمر وابن عباس وجابر وأمثالهم من الصحابة وحدثت المرجئة قريبا من ذلك .

وأما الجهمية فانما حدثوا في أواخر عصر التابعين بعد موت عمر بن عبد العزيز ، وقد روي أنه أندر بهم ، وكان ظهور جهم بخراسان في خلافة هشام بن عبد الملك ، وقد قتل المسلمون شيخهم الجعد بن درهم قبل ذلك ، ضحى به خالد بن عبد الله القسري ، وقال : يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضح بالجعد بن درهم

انه زعم أنه لم يتخذ الله ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى عما يتقول
الجمعد بن درهم علوا كبيرا ، ثم نزل فذبحه ، وقد روى أن ذلك بلغ الحسن البصري
وأمثاله من التابعين فشكروا ذلك •

(وأما المدينة النبوية) فكانت سليمة من ظهور هذه البدع ، وان كان بها من
هو مضمحل لذلك كان عندهم مهانا مذموما . إذ كان بها قوم من القدرية وغيرهم ،
لكن كانوا مذمومين مقهورين ، بخلاف التشيع والارجاء بالكوفة ، والاعتزال وبدع
النسائك بالبصرة ، والنصب بالشام ، فانه كان ظاهرا ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي
صلى الله عليه وسلم أن الدجال لا يدخلها ، ويحكى أن عمرو بن عبيد وهو رأس
المعتزلة ممن كان يساجي سفيان الثوري ولم يعلم سفيان به فقال عمرو لرجل من هذا
فقال سفيان الثوري أو قال من أهل الكوفة قال ولو علمت بذلك لدعوته الى رأيي
ولكن ظننته من هؤلاء المدنيين الذين يجيئونك من فوق •

ولم يزل العلم والايسان بها ظاهرا الى زمن أصحاب مالك ، وهم أصل القرن
الرابع ، حيث أخذ ذلك القرن عن مالك وأهل طبقة ، كالثوري والاوزاعي والليث
بن سعد وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وسفيان بن عيينة وأمثالهم ، وهؤلاء أخذوا
عن طوائف من التابعين ، وأولئك أخذوا عن أدركوا من الصحابة ، والكلام في اجماع
أهل المدينة في تلك الاعصار •

(والتحقق في مسألة اجماع أهل المدينة) أن منه ما هو متفق عليه بين المسلمين
ومنه ما هو قول جمهور أئمة المسلمين ، ومنه ما لا يقول به البعض ، وذلك أن
اجماع أهل المدينة على أربع مراتب •

(الاولى) ما يجري مجرى النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مثل نقلهم
لمقدار الصاع والمد ، وكنزك صدقة الخضراوات والاجناس ، فهذا مما هو حجة باتفاق
العلماء •

أما الشافعي وأحمد وأصحابهما فهذا حجة عندهم بلا نزاع ، كما هو حجة عند
مالك ، وذلك مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، قال أبو يوسف رحمه الله - وهو أجل
أصحاب أبي حنيفة ، وأول من لقب قاضي القضاة ، لما اجتمع بمالك وسأله عن هذه
المسائل ، وأجابه مالك بنقل أهل المدينة المتواتر رجع أبو يوسف الى قوله وقال - لو
رأى صاحبي مثل ما رأيت لرجع مثل ما رجعت •

فقد نقل أبو يوسف أن مثل هذا النقل حجة عند صاحبه أبي حنيفة كما هو حجة عند غيره ، لكن أبو حنيفة لم يبلغه هذا النقل كما لم يبلغه ولم يبلغ غيره من الأئمة كثير من الحديث فلا لوم عليهم في ترك ما لم يبلغهم علمه ، وكان رجوع أبي يوسف الى هذا النقل كرجوعه الى أحاديث كثيرة اتبعها هو وصاحبه محمد وتركوا قول شيخهما لعلهما بأن شيخهما كان يقول ان هذه الاحاديث أيضا صحت لكن لم تبلغه ، ومن ظن بأبي حنيفة أو غيره من أئمة المسلمين أنهم يتعمدون مخالفة الحديث الصحيح لقياس أو غيره فقد أخطأ عليهم ، وتكلم اما بظن واما بهوى ، فهذا أبو حنيفة يعمل بحديث التوضي بالنيذ بالسفر مخالفة للقياس ، وبحديث القهقهة في الصلاة مع مخالفته للقياس ، لاعتقاده صحتها وان كان أئمة الحديث لم يصححوه ، قال : وقد بينا هذا في رسالة (رفع الملام ، عن الأئمة الاعلام) وبيننا أن أحدا من أئمة الاسلام لا يخالف حديثا صحيحا بغير عذر ، بل لهم نحو من عشرين عذرا : مثل أن يكون أحدهم لم يبلغه الحديث ، أو بلغه من وجه لم يثق به ، أو لم يعتقد دلالة على الحكم ، أو اعتقد أن ذلك الدليل قد عارضه ما هو أقوى منه ، كالناسخ أو ما يدل على الناسخ وأمثال ذلك ، والاعذار يكون العالم في بعضها مصيبا فيكون له أجران ، ويكون في بعضها مخطئا بعد اجتهاده فيثاب على اجتهاده وخطؤه مغفور له ، لقوله تعالى : (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) وقد ثبت في الصحيح أن الله استجاب هذا الدعاء وقال قد فعلت ، ولأن العلماء ورثة الانبياء •

وقد ذكر الله عن داود وسليمان أنهما حكما في قضية ، وأنه فهمها أحدهما ، ولم يعب الآخر بل أثنى على كل واحد منهما بأنه حكما وعلما ، فقال : (وداود وسليمان إذ يحكمان في المحرث إذ نفثت فيه غم القسوم وكننا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما)^(١)

وهذه الحكومة تتضمن مسألتين تنازع فيهما العلماء : مسألة نفث الدواب في الحرث بالليل وهو مضمون عند جمهور العلماء كمالك والشافعي وأحمد ، وأبو حنيفة لم يجعله مضمونا ، والثانية : ضمان بالمثل والقيمة ، وفي ذلك نزاع في مذهب الشافعي وأحمد وغيرهما ، والمأثور عن أكثر السلف في نحو ذلك يقتضي الضمان بالمثل اذا أمكن ، كما قضى به سليمان ، وكثير من الفقهاء لا يضمنون ذلك الا بالقيمة

كالمعروف من مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد .

والمقصود هنا : أن عمل أهل المدينة الذي يجري مجرى النقل حجة باتفاق المسلمين ، قال مالك لأبي يوسف - لما سأله عن الصاع والمد وأمر أهل المدينة باحضار صيغاتهم وذكروا له أن اسنادها على أسلافهم - أتري هؤلاء يا أبا يوسف يكذبون ؟ قال لا والله ما يكذبون ، فانا حررت هذه الصيغان فوجدتها خسة أرطال وثلاث بأرطالكم يا أهل العراق . فقال : رجعت الى قولك يا أبا عبد الله ، ولو رأى صاحبي مارأيت لرجع كما رجعت .

وسأله عن صدقة الخضراوات ، فقال : هذه مباييل أهل المدينة لم يؤخذ منها صدقة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبي بكر ولا عمر رضي الله تعالى عنهما يعني وهي تنبت فيها الخضراوات .

وسأله عن الاجناس ، فقال : هذا جنس فلان وهذا جنس فلان ، يذكر لبيان الصحابة ، فقال أبو يوسف في كل منهما : قد رجعت يا أبا عبد الله ، ولو رأى صاحبي مارأيت لرجع كما رجعت .

وأبو يوسف ومحمد وافقا بقية الفقهاء في أنه ليس في الخضراوات صدقة كمذهب مالك والشافعي وأحمد ، وفي أنه ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة كمذهب هؤلاء ، وأن الوقف عنده لازم كذهب هؤلاء .

وانما قال برطالكم يا أهل العراق لأنه لما انقضت الدولة الاموية وجاءت دولة ولد العباس قريبا فقام أخوه أبو جعفر الملقب بالمنصور فبنى بغداد فجعلها دار ملكه ، وكان أبو جعفر يعلم أن أهل الحجاز حينئذ كانوا أغنى بدين الاسلام من أهل العراق .

ويروى أنه قال ذلك لمالك أو غيره من علماء المدينة ، قال نظرت في هذا الامر فوجدت أهل العراق أهل كذب وتدليس أو نحو ذلك ، ووجدت أهل الشام انما هم أهل غزو وجهاد ، ووجدت هذا الامر فيكم .

ويقال انه قال لمالك وأنت أعلى أهل الحجاز أو كما قال ، فطلب أبو جعفر علماء الحجاز أن يذهبوا الى العراق وينشروا العلم فيه ، فقدم عليهم هشام بن عروة ، ومحمد بن اسحق ، ويحيى بن سعيد الانصاري ، وربيعة بن أبي عبد الرحمن ، وحنظلة بن أبي شقيق الجسجي . وعبد العزيز ابن أبي سلمة الماجشون ، وغير هؤلاء ، وكان أبو

يوسف يختلف في مجالس هؤلاء ويتعلم منهم الحديث وأكثر ممن قدم الحجاز .
ولهذا يقال في أصحاب أبي حنيفة : أبو يوسف أعلمهم بالحديث ، وزفر أطردهم
للقياس . والحسن بن زياد اللؤلؤي أكثرهم تفريرا ، فلما صارت العراق دار الملك واحتاج الناس
الى تعريف أهلها بالسنة والشريعة غير المكيال الشرعي برطل أهل العراق ، وكان
رطلهم بالحنطة الثقيلة والعدس اذ ذلك تسعين مثقالا ، مائة وثمانية وعشرون درهما
وأربعة أسباع الدرهم . فهذا هو المرتبة الاولى لاجتماع أهل المدينة وهو حجة باتفاق
المسلمين .

(المرتبة الثانية) العمل القديم بالمدينة قبل مقتل عثمان بن عفان ، فهذا حجة في
مذهب مالك ، وهو المنصوص عن الشافعي . قال في رواية يونس بن عبد الاعلى اذا
رأيت قدما أهل المدينة على شيء فلا تتوقف في قلبك ريبا انه الحق ، وكذا ظاهر
مذهب أحمد أن ماسنه الخلفاء الراشدون ، فهو حجة يجب اتباعها ، وقال أحمد كل
بيعة كانت في المدينة فهي خلافة النبوة ، ومعلوم أن بيعة أبي بكر وعمر وعثمان
كانت بالمدينة ، وكذلك بيعة علي كانت بالمدينة ، ثم خرج منها وبعد ذلك لم يعقد
بالمدينة بيعة . وقد ثبت في الحديث الصحيح حديث العرياض بن سارية عن النبي
صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من
بعدي ، تسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الامور ، فان كل
بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار) وفي السنن من حديث سفينة عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال : (خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا) فالمحكي
عن أبي حنيفة يقتضي أن قول الخلفاء الراشدين يخالف سنة رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

(والمرتبة الثالثة) اذا تعارض في المسألة دليلان كحديثين وقياسين جهل أيهما
أرجح وأحدهما يعمل به أهل المدينة : ففيه نزاع ، فمذهب مالك والشافعي أنه يرجح
بعمل أهل المدينة ، ومذهب أبي حنيفة أنه لا يرجح بعمل أهل المدينة ولاصحاب أحمد
وجهان :

(أحدهما) وهو قول القاضي أبي يعلى وابن عقيل أنه لا يرجح .
(والثاني) وهو قول أبي الخطاب وغيره أنه يرجح به ، قيل هذا هو المنصوص
عن أحمد ، ومن كلامه قال اذا رأى أهل المدينة حديثا وعطوا به فهو الغاية ، وكان

يفتي على مذهب أهل المدينة ويقدمه على مذهب أهل العراق تقريرا كثيرا ، وكان يدل المستفتي على مذاهب أهل الحديث ومذهب أهل المدينة ، ويدل المستفتي على اسحق وأبي عبيدة وأبي ثور ونحوهم من فقهاء أهل الحديث ، ويدله على حلقة المدنيين حلقة أبي مصعب الزهري ونحوه . وأبو مصعب هو آخر من مات من رواة الموطأ عن مالك ، مات بعد أحمد بسنة سنة اثنين وأربعين ومائتين . وكان أحد يكره أن يرد على أهل المدينة كما يرد على أهل الرأي ، ويقول انهم اتبعوا الآثار ، فهذا مذهب جمهور الأئمة يوافق مذهب مالك في الترجيح لأقوال أهل المدينة .

(وأما المرتبة الرابعة) فهي العمل المتأخر بالمدينة فهذا هل هو حجة شرعية يجب اتباعها أم لا ؟ فالذي عليه أئمة الناس انه ليس بحجة شرعية ، هذا مذهب الشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم ، وهو قول المحققين من أصحاب مالك ، كما ذكر ذلك الفاضل عبد الوهاب في كتابه أصول الفقه وغيره ، ذكر أن هذا ليس اجماعا ولا حجة عند المحققين من أصحاب مالك ، وربما جعله حجة بعض أهل الغرب من أصحابه ، وليس معه للأئمة نص ولا دليل ، بل هم أهل تقليد . قلت : ولم أر في كلام مالك ما يوجب جعل هذا حجة ، وهو في الموطأ انما يذكر الاصل المجمع عليه عندهم فهو يحكي مذهبهم ، وتارة يقول الذي لم يزل عليه أهل العلم ببلدنا يصير الى الاجماع القديم ، وتارة لا يذكر ، ولو كان مالكا يعتقد أن العمل المتأخر حجة يجب على جميع الامة اتباعها - وان خالفت النصوص - لوجب عليه أن يلزم الناس بذلك حد الامكان ، كما يجب عليه أن يلزمهم اتباع الحديث والسنة الثابتة التي لاتعارض فيها ، وبالاجماع .

وقد عرض عليه الرشيد أو غيره أن يحبل الناس على موطنه فامتنع من ذلك ، وقال : ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في الامصار وانما جمعت على أهل بلدي أو كما قال .

وإذا تبين أن اجماع أهل المدينة تفاوتت فيه مذاهب جمهور الأئمة علم بذلك أن قولهم أصح أقوال أهل الامصار رواية ورأيا ، وأنه تارة يكون حجة قاطعة ، وتارة حجة قوية ، وتارة مرجحا للدليل ، اذ ليست هذه الخاصة لشيء من أمصار المسلمين ، وسلموم أن من كان بالمدينة من الصحابة هم خيار الصحابة اذ لم يخرج منها أحد قبل الفتنة الا وأقام بها من هو أفضل منه ، فانه لما فتح الشام والعراق وغيرهما أرسل عمر بن الخطاب الى الامصار من يعلمهم الكتاب والسنة ، فذهب الى العراق عبد

الله بن مسعود ، وحذيفة ابن اليمان ، وعمار ابن ياسر ، وعمران ابن حصين ، وسلمان الفارسي وغيرهم . وذهب الى الشام معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء وبلال بن رباح وأمثالهم . وبقي عنده مثل عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف ، ومثل أبي بن كعب ومحمد بن مسلمة وزيد ابن ثابت وغيرهم ، وكان ابن مسعود وهو أعلم من كان بالعراق من الصحابة يفتي بالفتيا ، ثم يأتي المدينة فيسأل علماء أهل المدينة فيردونه عن قوله فيرجع ، كما جرى في مسألة أمهات النساء لما ظن ابن مسعود أن الشرط فيها وفي الريبة . وأنه اذا طلق امرأته قبل الدخول حلت أمها كما تحل ابنتها ، فلما جاء الى المدينة وسأل عن ذلك أخبره علماء الصحابة أن الشرط في الريبة دون الامهات فرجع الى قولهم ، وأمر الرجل بفراق امرأته بعدما حلت .

وكان أهل المدينة فيما يعملون : إما سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإما أن يرجعوا الى قضايا عمر بن الخطاب : ويقال : إن مالكا أخذ جل الموطأ عن ربيعة ، وربيعه عن سعيد بن المسيب ، وسعيد ابن المسيب عن عمر ، وعمر محدث ، وفي الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر) وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كان في الامم قبلكم محدثون فان يكن في أمتي أحد فعمر) ، وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر) وكان عمر يشاور أكابر الصحابة كعلي وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن وهم أهل الشورى ، ولهذا قال الشعبي انظروا ما قضى به عمر فانه كان يشاور ، ومعلوم أن ما كان يقضي أو يفتي به عمر يشاور فيه هؤلاء أرجح مما يقضي أو يفتي به ابن مسعود أو نحوه رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

وكان عمر - في مسائل الدين والاصول والفروع - انما يتبع لما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يشاور عليا وغيره من أهل الشورى ، كما شاوره في المطلقة المعتدة الرجعية في المرض اذا مات زوجها هل ترث وأمثال ذلك ، فلما قتل عثمان وحصلت الفتنة والفرقة وانتقل علي الى العراق هو وطلحة والزبير لم يكن بالمدينة من هو مثل هؤلاء ، ولكن كان بها من الصحابة مثل سعد بن أبي وقاص وأبي أيوب ومحمد بن مسلمة وأمثالهم من هو أجل ممن مع علي من الصحابة ، فأعلم من كان بالكوفة من الصحابة علي وابن مسعود ، وعلي كان بالمدينة اذا كان بها عمر وعثمان وابن مسعود وهو نائب عمر وعثمان ، ومعلوم أن عليا مع هؤلاء أعظم علما وفضلا

من جميع من معه من أهل العراق ، ولهذا كان الشافعي يناظر بعض أهل العراق في الفقه محتجا على المناظر بقول علي وابن مسعود ، فصنف الشافعي كتاب اختلاف علي وعبد الله يبين فيه ما تركه المناظر وغيره من أهل العلم من قولهما ، وجاء بعده محمد بن نصر المروزي صنف في ذلك أكثر مما صنف الشافعي - الى أن قال - ومما يوضح الامر في ذلك أن سائر أمصار المسلمين - غير الكوفة - كانوا منقادين لعلم أهل المدينة لا يعدون أنفسهم أكفاءهم في العلم كأهل الشام ومصر ، مثل الاوزاعي ومن قبله وبعده من الشاميين ، ومثل الليث بن سعد ومن قبله ومن بعد من المصريين وان تعظيمهم لعمل أهل المدينة واتباعهم لمذاهبهم القديمة ظاهر بين ، وكذلك علماء أهل البصرة كأيوب وحمام بن زيد وعبد الرحمن بن مهدي وأمثالهم ، ولهذا ظهر مذهب أهل المدينة في هذه الامصار ، فان أهل مصر صاروا ناصرة لقول أهل المدينة ، وهم أجلاء أصحاب مالك المصريين كابن وهب وابن القاسم وأشهب وعبد الله بن الحكم ، والشاميون مثل الوليد بن مسلم ومروان ابن محمد وأمثالهم لهم روايات معروفة عن مالك ، وأما أهل العراق كعبد الرحمن بن مهدي وحمام بن زيد ، ومثل اسمعيل بن اسحق القاضي وأمثالهم كانوا على مذهب مالك ، وكانوا قضاة القضاة واسمعيل ونحوه كانوا من أجل علماء الاسلام .

وأما الكوفيون بعد الفتنة والفرقة يدعون مكافأة أهل المدينة ، وأما قبل الفتنة والفرقة فقد كانوا متبعين لأهل المدينة ومنقادين لهم ، لا يعرف بعد مقتل عثمان أن أحدا من أهل الكوفة أو غيرها يدعي أن أهل مدينته أعلم من أهل المدينة ، فلما قتل عثمان وتفرقت الامة وصاروا شيعا ظهر من أهل الكوفة من يساوي بعلماء أهل الكوفة علماء أهل المدينة ، ووجه الشبهة في ذلك أنه ضعف أمر المدينة لخروج خلافة النبوة منها ، وقوي أمر أهل العراق لحصول علي فيها .

لكن مافيه الكلام من مسائل التروع والاصول قد استقر في خلافة عمر ، ومعلوم أن قول أهل الكوفة مع سائر الامصار قبل الفرقة أولى من قولهم وحديثهم بعد الفرقة .

قال عبيدة السلماني - قاضي علي كرم الله وجهه - رأيت مع عمر في الجماعة أحب لي من رأيك وحدك في الفرقة ، ومعلوم أنه كان بالكوفة من الفتنة والتفرقة ما دل عليه النص والاجماع ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : (الفتنة من ههنا ، الفتنة من ههنا ، الفتنة من ههنا ، من حيث يطلع قرن الشيطان) وهذا الحديث قد

ثبت عنه في الصحيح من غير وجه .

ومما يوضح الامر في ذلك : أن العلم اما رواية واما رأي ، وأهل المدينة أصح أهل المدن رواية ورأيًا . وأما حديثهم فأصح الاحاديث ، وقد اتفق أهل العلم بالحديث على أن أصح الاحاديث أحاديث أهل المدينة . ثم أحاديث أهل البصرة . وأما أحاديث أهل الشام : فهي دون ذلك ، فإنه لم يكن لهم من الاسناد المتصل وضبط اللفاظ مالهؤلاء ، ولم يكن منهم - يعني أهل المدينة ، ومكة ، والبصرة ، والشام - من يعرف بالكذب ، لكن منهم من يضبط ، ومنهم من لا يضبط .

وأما أهل الكوفة : فلم يكن الكذب في أهل بلد أكثر منه فيهم ، ففي زمن التابعين كان بها خلق كثير منهم معروفون بالكذب . لاسيا الشيعة ، فانهم أكثر الطوائف كذبا باتفاق أهل العلم ، ولأجل هذا يذكر عن مالك وغيره من أهل المدينة أنهم لم يكونوا يحتجون بعامة أحاديث أهل العراق ، لأنهم قد علموا أن فيهم كذابين ، ولم يكونوا يميزون بين الصادق والكاذب ، فاما إذا علموا صدق الحديث فانهم يحتجون به ، كما روى مالك عن أيوب السخيتاني وهو عراقي ، فقليل له ذلك ، فقال ماحدثتكم عن أحد الا وأيوب أفضل منه أو نحو هذا ، وهذا القول هو القول القديم للشافعي ، حتى روي أنه قيل له : اذا روى سفيان عن منصور عن علقمة عن عبد الله حديثا ألا يحتج به ؟ فقال : ان يكن له أصل بالحجاز والا فلا . ثم ان الشافعي رجع عن ذلك ، وقال لأحمد بن حنبل أتم أعلم بالحديث منا ، فاذا صح الحديث فأخبرني به حتى أذهب اليه ، شاميا كان أو بصريا أو كوفيا ، ولم يقل مكيًا أو مدنيا لأنه كان يحتج بهذا قبل .

وأما علماء أهل الحديث كشعبة ويحيى بن سعيد وأصحاب الصحيح والسنن فكانوا يميزون بين الثقات الحفاظ وغيرهم ممن بالكوفة والبصرة من الثقات الذين لا ريب فيهم ، وان فيهم من هو أفضل من كثير من أهل الحجاز ، ولا يستريب عالم في مثل أصحاب عبد الله ابن مسعود : كعلقمة ، والاسود ، وعبيدة السلبياني ، والحارث التيسي ، وشريح القاضي ، ثم مثل ابراهيم النخعي ، والحكم بن عتيبة وأمثالهم من أوثق الناس وأحفظهم ، فلهذا صار علماء الاسلام متفقين على الاحتجاج بما صححه أهل العلم بالحديث من أي مصر كان ، وصنف أبو داود السجستاني مفاريد أهل الامصار يذكر فيه ما انفرد أهل كل مصر من المسلمين من أهل العلم بالسنة .

(وأما الفقه والرأي) فقد علم أن أهل المدينة لم يكن فيهم من ابتدع بدعة في أصول الدين ، ولما حدث الكلام في الرأي في أوائل الدولة العباسية وفرع لهم ربيعة

بن هرمز فرعا كما فرع عثمان الليثي وأمثاله بالبصرة ، وأبو حنيفة وأمثاله بالكوفة ، وصار في الناس من يقبل ذلك وفيهم من يرد ، وصار الرادون لذلك مثل هشام ابن عروة وأبي الزناد والزهري وابن عيينة وأمثالهم ، فان ردوا ماردوا من الرأي المحدث بالمدينة فهم للرأي المحدث بالعراق أشد ردا ، فلم يكن أهل المدينة أكثر من أهل العراق فيما لا يحد ، وهم فوقهم فيما يحدونه . وبهذا يظهر الرجحان .

وأما ما قال هشام بن عروة : لم يزل أمر بني اسرائيل معتدلا حتى نشأ فيهم المولدون - أبناء سببا الامم - فقالوا فيهم بالرأي فضلوا وأضلوا . قال ابن عيينة : فنظرنا في ذلك فوجدنا ما حدث من الرأي انما هو من المولدين أبناء سببا الامم . وذكر بعض من كان بالمدينة وبالبصرة وبالكوفة ، والذين بالمدينة أحد عند هذا من بالعراق من أهل المدينة .

ولما قال مالك رضي الله تعالى عنه عن احدى الدولتين انهم كانوا اتبعوا للسنن من الدولة الاخرى : قال ذلك لأجل ما ظهر بسقاربتها من الحدثان ، لأن أولئك أولى بالخلافة نسبا وقرنا .

وقد كان المنصور والمهدي والرشيدي وهم سادات خلفاء بني العباس - يرجحون علماء الحجاز وقولهم على علماء أهل العراق ، كما كان خلفاء بني أمية يرجحون أهل الحجاز على علماء الشام . ولما كان فيهم من لم يسلك هذا السبيل بل عدل الى الآراء المشرقية كثر الاحداث فيهم وضعفت الخلافة .

ثم ان بغداد انما صار فيها من العلم والايان وترجحت على غيرها بعد موت مالك وأمثاله من علماء أهل الحجاز . وسكنها من أفشى السنة بها وأظهر حقائق الاسلام ، مثل أحمد بن حنبل ، وأبي عبيدة ، وأمثالهما من ففهاء أهل الحديث ، ومن ذلك الزمان ظهرت بها السنة في الاصول والفروع ، وكثر ذلك فيها وانتشر منها الى الامصار ، وانتشر أيضا من ذلك الوقت من المشرق والمغرب ، فصار في المشرق مثل اسحق بن ابراهيم بن راهويه وأصحابه ، وأصحاب عبد الله بن المبارك ، وصار الى المغرب من علم أهل المدينة ما نقل اليهم من علماء الحديث . فصار في بغداد وخراسان والمغرب من العلم ما يكون مثله اذ ذلك بالحجاز والبصرة ، ولم يكن بعد عصر مالك وأصحابه من علماء الحجاز من يفضل على علماء العراق والمشرق والمغرب ، وهذا باب يطول تتبعه ولو استقصينا فضل علماء أهل المدينة وصحة أصولهم لطال الكلام .

(إذا تبين ذلك) فلا ريب عند أحد أن مالكاً رضي الله عنه أقوم الناس بسذهب أهل المدينة رواية وراياً . فإنه لم يكن في عصره ولا بعده أقوم بذلك منه . كان له من المكاة عند أهل الإسلام - الخاص منهم والعام - ما لا يخفى على من له بالعلم أدنى المام . وقد جمع الحافظ أبو بكر الخطيب أخبار الرواة عن مالك فبلغوا ألفاً وسبعائة أو نحوها ، وهؤلاء الذين اتصل إلى الخطيب حديثهم بعد قريب من ثلاثائة سنة ، فكيف بمن انقطعت أخبارهم ولم يتصل إليه خبرهم . فإن الخطيب توفي سنة اثنين وسبعين وأربعمائة . وعصر ابن عبد البر ، البيهقي والقاضي أبي يعلى وأمثال هؤلاء واحد . ومالك توفي سنة تسع وسبعين ومائة . ونوفي أبو حنيفة سنة ثمان مائة . وتوفي الشافعي سنة أربع ومائتين . وتوفي أحمد بن حنبل سنة إحدى وأربعين ومائتين . ولهذا قال الشافعي : ماتحت أديم السماء كتاب أكثر صواباً بعد كتاب الله من مولاً مالك . وهو كما قال الشافعي رضي الله عنه .

وهذا لا يعارض ما عليه أئمة الإسلام من أنه ليس بعد القرآن كتاب أصح من صحيح البخاري ومسلم ، مع أن الأئمة على أن البخاري أصح من مسلم ، ومن رجح مسلماً فإنه رجحه بجمعه ألفاظ الحديث في مكان واحد . فإن ذلك أيسر على من يريد جمع ألفاظ الحديث .

وأما من زعم أن الأحاديث التي انفرد بها مسلم أو الرجال الذين انفرد بهم أصح من الأحاديث التي انفرد بها البخاري ، ومن الرجال الذين انفرد بهم : فهذا غلط لا يشك فيه عالم ، كما لا يشك أحد أن البخاري أعلم من مسلم بالحديث والعلل والتاريخ . وأنه أفقه منه . إذ البخاري وأبو داود أفقه أهل الصحيح والسنن المشهورة ، وإن كان قد يتفق لبعض ما انفرد به مسلم أن يرجح على بعض ما انفرد به البخاري فهذا قليل والغالب بخلاف ذلك . فإن الذي اتفق عليه أهل العلم أنه ليس بعد القرآن كتاب أصح من كتاب البخاري ومسلم . وإنما كانا كذلك لأنه جرد فيهما الحديث الصحيح المسند . ولم يكن القصد بتصنيفهما ذكر آثار الصحابة والتابعين ولا سائر الحديث من الحسن والمرسل وشبه ذلك ، ولا ريب أن ما جرد فيه الحديث الصحيح المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أصح الكتب ، لأنه أصح منقولاً عن المعصوم من الكتب المنسفة .

وأما المولاً ونحوه فإنه صنف على طريقة العلماء المصنفين إذ ذلك ، فإن الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يكتبون القرآن . وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد نهاهم أن يكتبوا عنه غير القرآن . وقال : (من كتب عني شيئاً غير

القرآن فليصحه) ثم نسخ ذلك عن جمهور العلماء حيث أذن في الكتابة لعبد الله بن عمر ، وقال اكتبوا لأبي شاه ، وكتب لعسرو بن حزم كتابا ، قالوا وكان النهي أولا خوفا من اشتباه القرآن بغيره ، ثم أذن لما أمن ذلك ، فكان الناس يكتبون من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يكتبون ، وكتبوا أيضا غيره ، ولم يكونوا يصنفون ذلك في كتب مصنفة الى زمن تابعي التابعين ، فصنف العلم ، فأول من صنّف ابن جريج شيئا في التفسير ، وشيئا في الاموات ، وصنف سعيد ابن أبي عروبة ، وحساد بن سلسة ، ومعسر وأمّثال هؤلاء يصنفون ما في الباب عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وهذه هي كانت كتب الفقه والعلم والاصول والقروع بعد القرآن ، فصنف مالك الموطأ على هذه الطريقة ، وصنف بعد عبد الله ابن المبارك ، وعبد الله بن وهب ، ووكيع بن الجراح ، وعبد الرحمن بن مهدي . وعبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وغير هؤلاء ، فهذه الكتب التي كانوا يعدونها في ذلك الزمان هي التي أشار إليها الشافعي رحمه الله تعالى ، فقال : ليس بعد القرآن كتاب أكثر صوابا من موطأ مالك ، فان حديثه أصح من حديث نظرائه ، وكذلك الامام أحمد - لما سئل عن حديث مالك ورأيه ، وحديث غيره ورأيهم - رجح حديث مالك ورأيه على حديث أولئك ورأيهم ، وهذا يصدق الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يوشك أن يضرب الناس أكباد الابل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة) فقد روي عن غير واحد كابن جريج وابن عيينة وغيرهما أنهم قالوا هو مالك .

والذين نازعوا في هذا لهم مأخذان (أحدهما) الطعن في الحديث ، فزعم بعضهم أن فيه انقطاعا (والثاني) أنه أراد غير مالك كالعسري الزاهد ونحوه ، فيقال : ما دل عليه الحديث وأنه مالك أمر مقرر لمن كان موجودا وبالتواتر لمن كان غائبا ، فانه لا ريب أنه لم يكن في عصر مالك أحد ضرب اليه الناس أكباد الابل أكثر من مالك ، وهذا يقرر بوجهين (أحدهما) بطلب تقديسه على مثل الثوري ، والاوزاعي ، والنليث وأبي حنيفة ، وهذا فيه نزاع ولا حاجة اليه في هذا المقام (والثاني) أن يقال : ان مالكا تأخر موته عن هؤلاء كلهم ، فانه توفي سنة تسع وسبعين ومائة ، وهؤلاء كلهم ماتوا قبل ذلك ، فسلوم أنه بعد موت هؤلاء لم يكن في الامة أعلم من مالك في ذلك العصر ، وهذا لا ينازع فيه أحد من المسلمين ، ولا رجل الى أحد من علماء المدينة مارحل الى مالك لا قبله ولا بعده ، رحل اليه من المشرق والمغرب ، ورحل اليه الناس على اختلاف طبقاتهم من العلماء والزهاد ، والملوك والعامّة ، وانتشر موطؤه في الارض

حتى لا يعرف في ذلك العصر كتاب بعد القرآن كان أكثر انتشارا من الموطأ ، وأخذ الموطأ عنه أهل الحجاز والشام والعراق . ومن أصغر من أخذ عنه الشافعي ومحمد بن الحسن وأمثالهما . وكان محمد بن الحسن إذا حدث بالعراق عن مالك والحجازيين يستليء داره ، وإذا حدث عن أهل العراق يقل الناس لعلهم بأن علم مالك وأهل المدينة أصح وأثبت ، وأجل من أخذ عنه الشافعي العلم إذاً مالك وابن عيينه ، ومعلوم عند كل أحد أن مالكا أجل من ابن عيينه ، حتى أنه كان يقول : اني ومالك كما قال القائل :

وابن اللبون اذا مالز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس
ومن زعم أن الذي ضربت اليه أكباد الابل في طلب العلم هو العسري الزاهد مع
كونه كان رجلا صالحا زاهدا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، لم يعرف أن الناس
احتاجوا الى شيء من علمه ، ولا رحلوا اليه فيه ، وكان إذا أراد أمرا يستشير مالكا
ويستفتيه ، كما نقل أنه استشاره لما كتب اليه من العراق أن يتولى الخلافة ، فقال
حتى أشاور مالكا ، فلما استشاره أشار عليه أن لا يدخل في ذلك ، وأخبره أن هذا
لا يتركه ولد العباس حتى تراق فيه دماء كثيرة ، وذكر له ما ذكر عمر بن عبد العزيز
— لما قيل له : ولي القاسم بن محمد — ان بني أمية لا يدعون هذا الامر حتى تراق فيه
دماء كثيرة ، وهذه علوم التفسير والحديث والفتيا وغيرها من العلوم لم يعلم أن الناس
أخذوا عن العسري الزاهد منها ما يذكر ، فكيف يقرن هذا بسالك في العلم ورحلة الناس
اليه .

ثم هذه كتب الصحيح التي أجل ما فيها كتاب البخاري : أول ما يستفتح الباب
بحديث مالك ، وان كان في الباب شيء من حديث مالك لا يقدم على حديثه غيره ،
ونحن نعلم أن الناس ضربوا أكباد الابل في طلب العلم فلم يجدوا عالما أعلم من مالك
في وقته ، والناس كلهم مع مالك ، وأهل المدينة اما موافق ، واما منازع ، فالموافق لهم
عضد ونصير ، والمنازع لهم معظم لهم مجل لهم عارف بقدرهم ، وما تجد من
يستخف بأقوالهم ومذاهبهم الا من ليس معدودا من أئمة العلم ، وذلك لعلهم أن
مالكا هو القائم بذهب أهل المدينة ، وهو أظهر عند الخاصة والعامة من رجحان
مذهب أهل المدينة على سائر الامصار ، فان موطأ مشحون اما بحديث أهل المدينة ،
واما بما اجتمع عليه أهل المدينة ، اما قديما ، واما حديثا . واما مسألة تنازع فيها أهل
المدينة وغيرهم فيختار فيها قولاً ويقول هذا أحسن ما سمعت ، فاما بآثار معروفة عند
علماء المدينة ولو قدر أنه كان في الازمان المتقدمة من هو أتبع لمذهب أهل المدينة من

مالك فقد انقطع ذلك . ولنا ننكر أن من الناس من أنكر على مالك مخالفته أولاً لأحاديثهم في بعض المسائل . كما يذكر عن عبد العزيز الدراوردي أنه قال له في مسألة تقدير المهر بنصاب السرقة تعرفت يا أبا عبد الله أي صرت فيها إلى قول أهل العراق الذين يقدرون أقل المهر بنصاب السرقة . لكن النصاب عند أبي حنيفة وأصحابه عشرة دراهم ، وأما مالك والشافعي وأحمد فالنصاب عندهم ثلاثة دراهم أو ربع دينار كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة . فقال أولاً إن مثل هذه الحكاية تدل على ضعف أقاويل أهل العراق عند أهل المدينة ، وأنهم كانوا يكرهون للرجل أن يوافقهم . وهذا مشهور عندهم يعيرون الرجل بذلك ، كما قال ابن عمر لما استفتاه عن دم البعوض ، وكما قال ابن المسيب لربيعة لما سأله عن عقل أصابع المرأة ، وأما ثانياً : فمثل هذا في قول مالك قليل جداً . وما من عالم إلا وله ما يرد عليه ، وما أحسن ما قال ابن خويز منداد في مسألة بيع كتب الرأي والاجارة عليها لا فرق عندنا بين رأي صاحبنا مالك وغيره في هذا الحكم . لكنه أقل خطأ من غيره .

(وأما الحديث) فأكثره تجد مالكا قد قال به في إحدى الروايتين ، وانما ترك طائفة من أصحابه كسألة رفع اليدين عند الركوع والرفع منه ، وأهل المدينة رووا عن مالك الرفع موافقاً للحديث الذي رواه . لكن ابن القاسم ونحوه من البصريين هم الذين قالوا بالرواية الأولى ، ومعلوه أن رواية ابن القاسم أصلها مسائل أسد بن فرات التي فرعها أهل العراق ، ثم سأل عنها أسد بن القاسم ، فأجبه بالنقل عن مالك ، وتارة بالقياس على قوله ، ثم أصحها في رواية سحنون ، فلهذا يقع في كلام ابن القاسم طائفة من الميل إلى قول أهل العراق ، وإن لم يكن ذلك من أصول أهل المدينة ، ثم اتفق أنه لما انتشر مذهب مالك بالاندلس وكان يحيى بن يحيى عامل الاندلس والولادة يستشيرونه ، فكانوا يأمرون القضاة أن لا يقضوا إلا بروايته عن مالك ، ثم رواية غيره ، ثم انتشرت رواية ابن القاسم عن مالك لأجل من غسل بها ، وقد تكون مرجوحة في المذهب . وغسل أهل المدينة والسنة حتى صاروا يتركون رواية الموطأ - الذي هو متواتر عن مالك ، وما زال يحدث به حتى مات - لرواية ابن القاسم ، وإن كان طائفة من أئمة المالكية أنكروا ذلك ، فمثل هذا إن كان فيه عيب فإنا هو على من نتل ذلك لا على مالك ، ويمكن المتبع لمذهبه أن يتبع السنة في عامة الامور . اذ قل من سنة الا وله قول يوافقها ، بخلاف كثير من مذهب أهل الكوفة فانهم كثيراً ما يخالفون السنة وإن لم يتعمدوا ذلك .

ثم من تدبر أصول الاسلام وقواعد الشريعة وجد أصول مالك وأهل المدينة

أصح الاصول والقواعد . وقد ذكر ذلك الشافعي وأحمد وغيرهما ، حتى ان الشافعي لما ناظر محمد بن الحسن حين رجع محمد بصاحبه على صاحب الشافعي فقال له الشافعي بالانصاف أو بالمكاثرة ؟ قال له : بالانصاف . فقال : ناشدتك الله صاحبنا أعلم بكتاب الله أم صاحبكم ؟ فقال . بل صاحبكم . فقال : صاحبنا أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أم صاحبكم ؟ فقال بل صاحبكم . فقال : صاحبنا أعلم بأقوال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أم صاحبكم ؟ فقال : صاحبكم ، فقال : مابقي بيننا وبينكم الا القياس ونحن نقول بالقياس ، ولكن من كان بالاصول أعلم كان قياسه أصح . وقالوا للامام أحمد من أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك أم سفيان ؟ فقال : بل مالك ، فقيل له أيا أعلم بآثار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك أم سفيان ؟ فقال : بل مالك ، فقيل له : أيا أزهده مالك أم سفيان ؟ فقال : هذه لكم . ومعلوم أن سفيان الثوري أعلم أهل العراق ذلك الوقت بالفقه والحديث ، فان أبا حنيفة . والنوري : ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى . والحسن بن صالح بن جني ، وشريك ابن عبد الله النخعي القاضي كانوا متقاربين في العصر ، وهم أئمة فقهاء الكوفة في ذلك العصر ، وكان أبو يوسف يتفقه أولا على محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي ، ثم انه اجتمع بأبي حنيفة فرأى أنه أدقه منه فلزمه ، وصنف كتاب اختلاف أبي حنيفة وأبي ليلى ، وأخذه عنه محمد بن الحسن ونقله الشافعي عن محمد بن الحسن . وذكر فيه اختياره : وهو المسمى بكتاب (اختلاف العراقيين) ومعلوم أن سفيان الثوري أعلم هذه الطبقة في الحديث مع تقدمه في الفقه والزهد ، والذين أنكروا من أهل العراق وغيرهم ما أنكروا من الرأي المحدث بالكوفة لم ينكروا ذلك على سفيان الثوري ، بل سفيان عندهم امام العراق ، فتفضيل أحمد لمذهب مالك على مذهب سفيان تفضيل له على مذهب أهل العراق ، وقد قال الامام أحمد في علمه وعلم مالك بالكتاب والسنة والآثار ما تقدم ، مع أن أحمد يقدم سفيان الثوري على هذه الطبقة كلها ، وهو يعظم سفيان غاية التعظيم ، ولكنه كان يعلم أن مذهب أهل المدينة وعلائها أقرب الى الكتاب والسنة من مذهب أهل الكوفة وعلائها ، وأحمد كان معتدلا عالما بالامور يعطي كل ذي حق حقه ، ولهذا كان يحب الشافعي ويشني عليه ويدعو له ويذب عنه عند من يطعن في الشافعي أو من ينسبه الى بدعة ، ويذكر تعظيمه للسنة واتباعه لها : ومعرفة بأصول التنقيح كالناسخ والمنسوخ ، والمجمل والمفسر ، ويثبت خبر الواحد ومناظرته عن مذهب أهل الحديث من خالفه بالرأي وغيره .

وكان الشافعي يقول : سئوني ببغداد ناصر الحديث ، ومناقب الشافعي واجتهاده في اتباع الكتاب والسنة واجتهاده في الرد على من يخالف ذلك كثير جدا ، وهو كان على مذهب أهل الحجاز ، وكان تفقه على طريقة المكيين أصحاب ابن جريج ، كسليم بن خالد . والزنجي . وسعيد بن سالم القداح . ثم رحل الى مالك وأخذ عنه الموطن . وكل أصول أهل المدينة ، فكان أجل علما وفقها وقدرنا من أهل مكة من عهد النبي صلى الله عليه وسلم الى عهد مالك . ثم اتفقت له محنة ذهب فيها الى العراق ، فاجتمع بمحمد بن الحسن وكتب كتبه وناظره . وعرف أصول أبي حنيفة وأصحابه ، وأخذ من الحديث ماأخذه على أهل العراق ، ثم ذهب الى الحجاز ، ثم قدم الى العراق مرة ثانية ، وفيها صنف كتابه القديم المعروف (بالحجة) واجتمع به أحمد بن حنبل في هذه القدمة بالعراق ، واجتمع به بمكة . وجمع بينه وبين اسحق بن راهويه ، وتناظرا بحضور أحمد رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، ولم يجتمع بأبي يوسف ولا بالاوزاعي وغيرهما ، فمن ذكر ذلك في الرحلة المضافة اليه فهو كاذب ، فان تلك الرحلة فيها من الاكاذيب عليه وعلى مالك وأبي يوسف ومحمد وغيرهم من أهل العلم ما لا يخفى على عالم ، وهي من جنس كذب القصاص ، ولم يكن أبو يوسف ومحمد سعيا في أذى الشافعي قط ، ولا كان حال مالك معه ما ذكر في تلك الرحلة الكاذبة .

ثم رجع الشافعي الى مصر وصنف كتابه الجديد ، وهو في خطابه وكتابه ينسب الى مذهب أهل الحجاز ، فيقول : قال بعض أصحابنا - وهو يعني أهل المدينة أو بعض علماء أهل المدينة كمالك - ويقول في أثناء كلامه وخالفنا بعض المشركين ، وكان الشافعي عند أصحاب مالك واحدا منهم ينسب الى أصحابهم ، واختار سكنى مصر اذ ذلك لأنهم كانوا على مذهب أهل المدينة ومن يشبههم من أهل مصر كالمليث بن سعد وأمثاله .

وكان أهل الغرب بعضهم على مذهب هؤلاء ، وبعضهم على مذهب الاوزاعي وأهل الشام ، ومذهب أهل الشام ومصر والمدينة متقارب ، لكن أهل المدينة أجل عند الجميع .

(ثم ان الشافعي رضي الله عنه) لما كان مجتهدا في العلم ورأى من الاحاديث الصحيحة وغيرها من الادلة مايجب عليه اتباعه - وان خالف قول أصحابه المدنيين - قام بما رآه واجبا عليه ، وصنف الاملاء على مسائل ابن القاسم ، وأظهر خلاف مالك فيما خالفه فيه .

وقد أحسن الشافعي فيما فعل ، وقام بما يجب عليه ، وان كان قد كره ذلك من

كرهه وآذوه ، وجرت محنة مصرية معروفة ، والله يغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات
الاحياء منهم والاموات .

(وأبو يوسف ومحمد) هما أصحاب أبي حنيفة ، وهما محتصان به كاختصاص
الشافعي بمالك ، ولعل خلافهما له يقارب خلاف الشافعي لمالك ، وكل ذلك اتباعا
للمدليل وقياما بالواجب .

والشافعي قرر أصول أصحابه والكتاب والسنة ، وكان كثير الاتباع لما صح
عنده من الحديث ، ولهذا كان عبد الله بن الحكم يقول لابنه يا بني الزم هذا الرجل
فانه صاحب حجج ، فما بينك وبين أن تقول قال ابن القاسم فيضحك منك الا أن
تخرج من مصر .

قال محمد : فلما صرت الى العراق جلست الى حلقة فيها ابن أبي دؤاد ، فقلت
قال ابن القاسم ، فقال : ومن ابن القاسم ؟ فقلت : رجل مفت يقول من مصر الى أقصى
المغرب ، وأظنه قال : قلت رحم الله أبي ، وكان مقصود أبيه اطاب الحجة لقول
أصحابك ولا تتبع ، فالتقليد انما يقبل حيث يعظم المقلد بخلاف الحجة ، فانه يقبل في
كل مكان ، فان الله أوجب على كل مجتهد أن يقول بموجب ما عنده من العلم ، والله
يخص هذا من العلم والفهم مالا يختص به هذا ، وقد يكون هذا هو المخصوص بمزيد
العلم والفهم في نوع من العلم ، أو باب منه ، أو مسألة ، وهذا هو مخصوص بذلك
في نوع آخر ، لكن جملة مذاهب أهل المدينة النبوية راجحة في الجملة على مذاهب
أهل المغرب والمشرق ، وذلك يظهر بقواعد جامعة .

هذا آخر ما نقلناه من كلام شيخ الاسلام في ترجيح مذهب أهل المدينة وبه يعلم
ما كان عليه من الاعتقاد الصحيح ، والفتنة الزائدة ، والفهم الكثير ، فان كل من
تكلم على فضل المدينة تكلم اجبالا ولم يبين الفضل بالدليل والسبب ، وكتابه هذا
كتاب جليل ، وقد نقلنا منه ما نقلنا حرصا على حفظ فوائده ، وقد بقي منه كلام طويل
تكلم فيه على قواعد جامعة تفيد رجحان مذهب المدنيين فعليك به ان أردته .

مقصودنا مما ذكرنا بيان افلاس النهائي الجاهل من كل فضيلة ، وأنه ينقل في
كتابه ما يقصد به تعظيم حجم الكتاب من غير فهم لما ينقله ولا محاكمة ، بل انه يقلد
غلاة شيوخه تقليد أعمى ، ومع ذلك يجعل نفسه من المتبعين ، ويرمي شيخ الاسلام
ومن هو اعلى مسلكه بأنهم من المبتدعين ، ولا بدع منه فانه ممن قال الله فيه : (وقالوا
لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) .

ثم ان النهائي عقد فضلا في ذكر شيء مما لا ينبغي فعله للزائر ، ونقل أقوالا

عن ابن حجر وأضرابه ينتقض بعضها بعضاً ، وساق منها جسيمة من العبارات ، انظر الى مقاله ابن حجر في التحفة والزواجر مع ما ذكره في الجوهر المنظم تجد المناقضة ظاهرة قال في التحفة : وقد أتى جمع بهدم كل ما في قرافة مصر من الابنية ، حتى قبة امامنا الشافعي التي بناها بعض الملوك ، وينبغي لكل أحد هدم ذلك ما لم يخش منه مفسدة فيتعين الرفع للامام أخذاً من كلام ابن الرفعة انتهى •

وقال في الزواجر : ومن أعظم أسباب الشرك الصلاة عند القبور واتخاذها مسجداً ، ويجب ازالة كل منكر عليها ، ويجب المبادرة لهدمها وهدم القباب التي على القبور ، اذ هي أضر من مسجد الضرار . لأنها أسست على معصية رسول الله صلى الله عليه وسلم . لأنه نهى عن ذلك وأمر بهدم القبور . ويجب ازالة كل قنديل أو سراج على قبر . ولا يصح وقفه أو نذره •

وقال أيضاً في الزواجر : ومن الكبائر اتخاذ القبور مساجد ، وإيقاد السرج عليها ، واتخاذها أوثاناً ، والطواف بها ، والصلاة اليها انتهى •

وقد نقض ذلك كله في كتابه (الجوهر المنظم) فأباح كل ما منعه في ذنبك الكتابين ، حتى قال بجواز السجود للقبور اذا غلب الحال على أهل الاحوال ، وذكر فيه من الغلو ما فيه قرّة لعيون الغلاة ، ولولا خوف التطويل لنقلنا كلامه كله والكتاب متداول بين الناس •

ثم ان النبهاني عقد باباً آخر في مشروعية الاستغاثة به صلى الله عليه وسلم ، وضمنه أربعة فصول •

أولها ذكر فيه أحاديث وردت في استغاثة الناس به صلى الله عليه وسلم في حياته •

وثانيها في أحاديث الشفاعة يوم القيامة •

وثالثها في بعض مقاله العلماء وأثبتوا به مشروعية الاستغاثة به صلى الله عليه وسلم •

ورابعها : في توضيح هذه المسألة من قبل مؤلف الكتاب •

أقول - ومن الله المعونة ويده أزمة التوفيق - ان الكلام على ما حواه كلامه من الكذب والزور والبطلان يطول جداً فضلاً عما اشتملت عليه عبارته من الغلط وقساد التركيب وسوء التعبير ، فكتابه كله ظلمات بعضها فوق بعض ، فلو تكلمنا

على ذلك كله لطلال الكلام ، وكتلت عن رقبته الاقلام ، فان التبهاني هذا هو من أعظم الغلاة المحادين لله ورسوله ، وكلامه كله باطل ، وجهل مركب ، وبهت لأهل الحق ، وليس فيه جنة واحدة توافق الحق أصلاً ، فالحمدا لله الذي خذل أعداء دينه ، وجعلهم عبرة لأوليائه وعباده المؤمنين •

أما مشروعية الاستغاثة : ففيها تفصيل ، اذ الاستغاثة بالشيء - على ما ذكره بعض المحققين - طلب الاغاثة والغيوث منه . كما أن الاستغاثة طلب الاغاثة منه ، فاذا كانت بندا من المستغيث للمستغاث كان ذلك سؤالاً عنه ، وظاهر أن ذلك ليس توسلاً به الى غيره . اذ قد جرت العادة أن من توسل بأحد عند غيره أن يقول لمستغاثه أستغيثك على هذا الامر بفلان ، فيوجه السؤال اليه ويقصر أمر شكواه عليه ، ولا يخاطب المستغاث به ويقول له أرجو منك أو أريد منك وأستغيث بك ، ويقول إنه وسيلتي الى ربي . وان كان كما يقول فما قدر المتوسل اليه حق قدره ، وقد رجأ وتوكل والتجأ الى غيره ، كيف واستعمال العرب يأبى عنه ، فان من يقول صار لي ضيق فاستغثت بصاحب القبر فحصل الفرج يدل دلالة جلية على أنه قد طلب الغوث منه ، ولم يفد كلامه أنه توسل به ، بل انما يراد هذا المعنى اذا قال توسلت أو استغثت عند الله بفلان ، أو يقول لمستغاثه استغثت اليك بفلان ، فيكون حينئذ مدخول الباء متوسلاً به ، ولا يصح ارادة هذا المعنى اذا قلت استغثت بفلان وتريد التوسل به ، سيما اذا كنت داعيه وسائله . بل قولك هذا نص على أن مدخول الباء مستغاث وليس مستغاثاً به ، والقرائن التي تكتنفه من الدعاء وقصر الرجاء والاتجاء لشهود عدول ، ولا محيد عما شهدت به ولا عدول ، فهذه الاستغاثة وتوجه القلب الى المسؤل بالسؤال والاناة محظورة على المسلمين ، لم يشرعها لاحد من أمته رسول رب العالمين ، وهل سمعتم أن أحداً في زمانه صلى الله عليه وسلم أو ممن بعده في القرون المشهود لأهلها بالنجاة والصدق - وهم أعلم منا بهذه المطاب وأحرص على نيل مثل تلك الرغائب - استغاث بمن يزيل كربته التي لا يقدر على ازالها الا الله ؟ أم كانوا يقصرون الاستغاثة على مالك الامور ولم يعبدوا الا اياه ، ولقد جرت عليهم أمور مهمة ، وشدائد مدلهمة في حياته صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته ، فهل سمعت عن أحد منهم أنه استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم ؟ أو قالوا انا مستغيثون بك يا رسول الله ، أم بلغك أنهم لأذوا بقره الشريف وهو سيد القبور حين ضاقت منهم الصدور ؟ كلا ، لا يسكن لهم ذلك ، وان الذي كان بعكس ما هنالك ، فلقد أتى الله

عليهم ورضي عنهم ، فقال عز من قائل : (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجِبْ لَكُمْ)
مبينا لنا أن هذه الاستغاثة أخص الدعاء وأجلى أحوال الالتجاء ، وهي من لوازم
السائل المضطر ، الذي يضطر الى طلب العوث من غيره ، فيخص نداءه لدى استغاثته
بزياد الاحسان في سره وجهره ، ففي استغاثته بغيره تعالى عند كربته تعطيل لتوحيد
معاملته .

(فان قلت) ان للاستغاث بهم قدرة كسبية وتسيبية فتسب الاغاثة اليهم بهذا
المعنى .

(قلنا له) ان كلامنا فيمن يستغاث به عند المأم ما لا يقدر عليه الا الله ، أو
لسؤال ما لا يعطيه وينعه الا الله ، وأما فيما عدى ذلك ما يجري فيه التعاون
والتعاقد بين الناس واستغاثة بعضهم ببعض فهذا شيء لا نقول به ، ونعد منعه جنونا
كما نعد اباحة ما قبله شركا وضلالا ، وكون العبد له قدرة كسبية لا يخرج بها عن
مشيئة رب البرية لا يستغاث به فيما لا يقدر عليه الا الله ، ولا يستعان به ، ولا يتوكل
عليه ، ولا يلتجأ في ذلك اليه ، فلا يقال لاحد - حي أو ميت ، قريب أو بعيد -
ارزقني أو أمتني ، أو آحي ميتي ، أو اشف مريضي ، الى غير ذلك مما هو من الافعال
الخاصة بالواحد الاحد ، الفرد الصمد ، بل يقال لمن له قدرة كسبية قد جرت العادة
بحصولها ممن أهله الله لها ، أعني في حمل متاعي أو غير ذلك ، والفرآن ناطق بخطر
الدعاء عن كل أحد لا من الاحياء ولا من الاموات ، سواء كانوا أنبياء أو صالحين أو
غيرهم ، وسواء كان الدعاء بلفظ الاستغاثة أو بغيرها ، فان الامور الغير مقدورة
للعباد لا تطلب الا من خالق القدر ، ومنشيء البشر ، كيف والدعاء عبادة وهي مختصة
به سبحانه ، أسبل الله علينا بفضلته غفوه ورضوانه ، فالقصر على ماتعبدنا فيه من
محض الايمان ، والعدول عنه عين المقت والخذلان .

وهذا خلاصة ما ذكره من جعل الاستغاثة والاستشفاع بغير الله شركا ظاهرا
لا يغفر ، ومتعاطيه جاعل لله ندا ، فيذبح بأمر الله تعالى ، وشرع رسول الله صلى
الله عليه وسلم ان لم يتب ويستغفر .

(وبألجيلة) فالاستغاثة والاستعانة والتوكل أغصان دوحه التوحيد ، المطلوب
من العبيد .

بقي ههنا شيء ، يورده المجيزون على هؤلاء المانعين ، وهو أنه لاشك أن من عبد غير الله مشرك حلال الدم والمال ، وان الدعاء المختص بالله سبحانه عبادة ، بل هو مخ العبادة ، ولكن لانسلم أن طلب الاغاثة من استغيث بهم شرك مطلقا . وانسا يكون شركا لو كان المستغيث معتقدا أنهم هم الفاعلون لذلك خلقا وايجادا ، فحينئذ يكون من الشرك الاعتقادي قطعا ، أما من اعتمدهم الفاعلين كسبا وتسببا فليس بسلم ، ولئن سلنا فليس المقصود من طلب الاغاثة منهم وندائهم الا التوسل بهم وبجاههم ، وان كان اللفظ ظاهرا يدل على الطلب منهم وأنهم المطلوبون بهذا النداء ، لكن مقصود المستغيث التشفع والتوسل بهم الى ربهم ، وهو صلى الله عليه وسلم من أشرف الوسائل الى الله سبحانه ، وقد أمرنا سبحانه بطلب مايتوسل به ، فقال تعالى (وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) فكيف تحظرونها بل تجعلونها شركا مخرجا عن الملة ، وليس في قلوب المسلمين الا هذا المعنى ، وان في ذلك تكفير أكثر الناس ، من غير ارتياب والتباس ، وكيف تحكمون على أناس قد أظهروا شعائر الاسلام من أذان وصلاة ، وصوم وحج ، وإيتاء زكاة ، يأتون بكلمة التوحيد ، ويحبون الله ويحبون سيد المرسلين ، ويتبلغون بالقبول التام ماجاء عنهما من أمور الدين ، وغاية الامر أنهم لرهبتهم من ربهم ومعرفتهم بعلو مرتبة نبيهم وما وعده الله سبحانه من ارضاءه في أمته ، كما قال سبحانه : (وَاسْأَفْ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) ولا يرضى صلى الله عليه وسلم إلا بأن يقف لأمته في مثل هذه التوسلات فينالوا الرغبات ، وليس في أقوالكم هذه الا تنقص بحق هذا النبي الذي أوجب الله علينا حبه أكثر من محبتنا لأنفسنا ، وفي مثل ذلك بشاعة في القول ، وشناعة بطريق الاول .

(فالجواب عنه منهم أن قالوا) أما أول اعتراضكم وقولكم إنه ليس مقصودهم الا التوسل - وان تكللوا بما يفيد غيره فانه - يدل على أن الشرك لا يكون الا اعتقاديا ، وأنه لا يكون كفر إلا اذا طابق الاعتقاد ، وهذا يقتضي سد أبواب الشرائع بأسرها ، ومحو الأبواب التي ذكرها الفقهاء في الردة ومحفها ، كيف وأن الله سبحانه يقول : (وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ) وقال سبحانه : (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ) (١) وقال سبحانه : (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ) (٢) وقال سبحانه : (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ) (٣)

(١) التوبة : ٧٦ (٢) التوبة : ٦٥ ، ٦٦

وقد ذكر المفسرون أنهم قالوها على جهة المزح ، وكذلك العلماء كفروا بالفاظ سهلة جدا . وبأفعال تدل على ما هو دون ذلك ، ولو فتحنا هذا الباب لا يمكن لكل من تكلم بكلام يحكم على قائله بالردة أن يقول : لم تحكسون بردتي ؟ فيذكر احتسالا ولو بعيدا يخرج به عما كفر فيه ، ولما احتاج الى توبة . ولا توجه عليه لوم أبدا . ولساغ لكل أحد أن يتكلم بكل ما أراد ، فتسد الابواب المتعلقة بأحكام الالفاظ من حد قذف ، وكفارة يمين ، وظهار ، ولانسدت أبواب العقود من نكاح وطلاق ، وغير ذلك من الفسوخ والمعاملات ، فلا يتعلق حكم من الاحكام بأي لفظ كان - إلا اذا اعتقد المعنى - وان أفيد بوضع الالفاظ .

وأما ما ذكرتم من أنه أشرف الوسائل فهي كلمة حق أريد بها باطل . كقولكم انه ذو الجاه العريض والمقام المنيع ، ونحن أولى بهذا المقام منكم لاتباعنا لاقواله وأفعاله واقتدائنا به صلى الله عليه وسلم نبينا وهادينا الى سبل الاسلام ، ومنقذنا برسالته من مهاوي أولئك الجفأة الظغام ، فلا نعمل الا بأمره ، وتتلقى ذلك بالسبح والطاعة في حلوه ومره ، وقد أوجب علينا أن نتبع سبيل المؤمنين . ونهانا عن الغلو في الدين ، فان علونا فانتا اذا عن الصراط ناكبون ، وان عدلنا انا اذا اخسرون .

وكيف يحسن طريق يؤدي الى الاشرار ، وأنى يليق بالموحدين هذا الوجه المؤدي للارتباك ؟ وهذا طريق سلفنا الصالح ، وهو الاعتقاد الصحيح الراجح ، هذا وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم - وأرواحنا له النداء - لا يرضى بسا يغضب الرب المتعال ، وكيف لا وقد بعث بحماية التوحيد من هذه الاقوال والافعال ، وقد قالت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم : كان خلقه القرآن . يرضى لرضاه ويسخط لسخطه ، فليس لنا وسيلة الى الله الا الدعاء المبني على أصول الذل والافتقار والثناء ، فهو الوسيلة التي أمرنا الله سبحانه بالتوسل به ، وجعله من أفضل الوسائل ، وأخبرنا أنه مخ عبادته تحقيقا لعبديتنا ، فسد به عن غيره أبواب الذرائع .

وقد اختلف العلماء - بعد أن اتفقوا على استحباب سؤال الله تعالى به وبأسائه وبصفاته وأفعاله وبصالح أعمالنا التي حصلت لنا بمحض كرمه وأفضاله - في جواز

التوسل بالذوات المنيفة والاماكن والاوقات الشريفة ، فعن العز بن عبد السلام ومن تابعه عدم الجواز الا بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث صح الحديث فيجوز ، ويكون ذلك خاصا به لعلو رتبته •

وعن الحنابلة في أصح القولين مكروه كراهة تحريم •

ونقل الفقهاء الحنفية عن بشر بن الوليد أنه قال سمعت أبا يوسف يقول قال أبو حنيفة لا ينبغي لأحد أن يدعو الله الا به ، وفي جبيع متونهم أن قول الداعي المتوسل بحق الانبياء والرسل وبحق البيت والمشعر الحرام مكروه كراهة تحريم ، وقال القدوري المسألة بخلقه تعالى لا تجوز لأنه لاحق للخلوق على الخالق •

وأما أحاديث : (أسألك بحق السائلين عليك وبحق ميثابي هذا وبحق نبيك والانبياء من قبلي) ففيها وهن ، وعلى تسليتها فالمراد بهذا الحق ما أوجبه الله تعالى على نفسه ، وذلك من أفعاله ، لأن حق السائلين الاجابة ، وحق المطيعين الاثابة ، وحق الانبياء التقريب والتفضيل بنا يخص أولئك العصابة صلى الله تعالى عليهم وسلم ، وذلك كقوله تعالى : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)^(١) وقوله تعالى : (وَعَدْنَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ)^(٢) وقوله : (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)^(٣) وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذبهم)

والسؤال بالاعمال لأن المشى الى الطاعة امتثالا لامره عمل طاعة ، وذلك من أعظم الوسائل المأمور بها في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)^(٤) ومن نظر الى الادعية الواردة في الكتاب والسنة لم يجدها خارجة عما ذكرنا ، قال الله تعالى في دعاء المؤمنين : (رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا)^(٥) وقوله تعالى : (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقَ مَنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)^(٦) وقوله تعالى

(١) الروم : ٤٨ (٢) التوبة : ١١٣ (٣) الانعام : ٥٤ (٤) المائدة : ٢٩ (٥) آل عمران : ١٩٤ (٦) المؤمنون : ١١١

عن الحواريين : (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا نَزَلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)^(١)

وكان ابن مسعود يقول : اللهم انك أمرتني فأطعتك ودعوتني فأجبتك فأغفر لي ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي جبعه العلماء لا يخرج عن هذا النمط .
وخلاف ذلك يعد كالخروج عن جادة الصواب والشطط ، فاتبع أيها الناظر نبيسك المصطفى تسلم من اللغظ والغلط ، هذا ما كان من تحرير مدعي المانعين ، وتقديره على وجه أبان عن لباب تلخيصهم بتسطيره ، ثم أخذ يذكر الجواب عما استدلل به المجوزون فان أردت الوقوف عليه فأرجع الى كتاب العقد الثمين .

فتبين مما نقلناه أن الاستغاثة بمخلوق بما لا يقدر عليه الا الله تعالى مسا لا يجوز فان الاستغاثة دعاء والدعاء عبادة بل مخ العباداة ، وغير الله تعالى لا يعبد بل هو المخصوص بالعبادة ، فاذا أصاب الناس جذب وقحط فلا يقال يارسول الله ارفع عنا القحط والجذب ، واذا نزل بالناس بلاء أو وباء فلا يقال يارسول الله أو يا جبريل أو ياميكائيل ارفع عنا البلاء والوباء . واذا مرض أحد فلا يقول يارسول الله شافني وعافني ولا غيره ، واذا احتاج أحد الى رزق فلا يقول يارسول الله ارزقني ولا غيره ، واذا لم يكن لأحد ولد فلا يجوز له أن يقول يارسول الله أعطني ولدا ، واذا كان في شدة في بر أو بحر فلا يجوز أن يقول يارسول الله أدركني أو التجيء اليك أو أستغيث بك أو نحو ذلك ، بل كل ذلك شرك مخرج عن الدين ، لانه عبادة لغير الله ونحن نوضح المسألة فقد زلت فيها أقدام ، فبين أولا معنى العبادة ، ثم نذكر ماهو من خصائص الالهية ومن الله نستمد التوفيق .

(أما العبادة) فهي في اللغة النذل والانقياد ، واصطلاحا اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الاقوال والاعمال الباطنة والظاهرة ، كالتوحيد فانه عبادة في نفسه والصلاة ، والزكاة ، والحج ، وصيام رمضان ، والوضوء ، وصلة الارحام ، وبر الوالدين ، والدعاء ، والذكر ، والقراءة ، وحب الله ، وخشية الله ، والانابة اليه ، واخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمة ، والرضاء بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وغير ذلك مما رضيه وأحبه ، فأمر به وتعبد الناس فيه ، قال العلامة عمر بن عبد الرحمن الفارسي في كشفه على الكشاف

(١) آل عمران : ٥٤

للمخشي - عند تفسير قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ) وهو خطاب مشركي أهل مكة ، ونقل عن علقمة أن كل خطاب بياؤها الناس فهو مكي وبياؤها الدين آمنوا فهو مدني - مانتظته تحرير الكلام فيه أن العبادة قد تطلق على أعمال الجوارح بشرط قصد القربة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (اتقىه واحد أتد على الشيطان من ألف عابد) وهي على هذا غير الايمان بمعنى التصديق ، والنية والاخلاص ، بل مشروطة بها ، وقد تطلق على التحقق بالعبودية بارتسام ما أمر السيد جل وعلا أو نهي . وعلى هذا يتناول الاعمال والعقائد التلبية أيضا . فيدخل فيها الايمان وهو عبادة في نفسه . وشرط لسائر العبادات انتهى •

وقال ابن القيم في (شرح منازل السائرين) مانصه : فالعبادة تجمع أصليين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع ، والعرب تقول طريق معبد أي مذل ، والتعبد التذلل والخضوع . فمن أحببته ولم تكن خاضعا له لم تكن عبدا له : ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عبدا له حتى تكون محبا خاضعا •

ثم قال في مكان آخر من شرحه هذا : مراتب العبودية واحكامها لكل واحد من القلب واللسان والجوارح . فواجب القلب منه متفق على وجوبه ، ومختلف فيه . فالمتفق على وجوبه كالأخلاص والتوكل والمحبة والصبر والانابة والخوف والرجاء والتصديق الحازم والنية للعبادة ، وهذه قدر زائد على الاخلاص ، فان الاخلاص أفراد المعبود عن غيره •

ونية العبادة لها مرتبتان : (إحداهما) تمييز العبادة عن العادة (والثانية) تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض ، والافسام الثلاثة واجبة ، وكذلك الصدق ، وانفرد بينه وبين الاخلاص أن للعبد مطلوبا وطلبا ، فالاخلاص توحيد مطلوبه والصدق توحيد الطلب ، فالاخلاص أن لا يكون المطلوب منقسما . والصدق أن لا يكون الطلب منقسما ، فالصدق بذل الجهد ، والاخلاص أفراد المطلوب •

وانفقت الامة على وجوب هذه الاعمال على القلب من حيث الجملة ، وكذلك النصيح في العبودية ، ومدار الدين عليه . وهو بذل الجهد في ايقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي به ، واصل هذا واجب ، وكماله مرتبة المقربين ، وكذلك

كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان واجب مستحق وهو مرتبة أصحاب اليقين ، وكسأل مستحب وهو مرتبة المتربين ، انتهى بعض مآفاله في بعض عبودية القلب . وعقبه بعبودية اللسان الواجب منها والمستحب ، وعبودية الجوارح الواجب منها والمستحب أيضا ، ومن اشتغل بالنظر الى أنواع العبادات كان عليه تمييزها ، والله الهادي الى سواء السبيل .

(وبالجملة) فكل عبادة فهي مضمورة على الاله الواحد من أعمال القلوب والجوارح ، فكسا لو صلى غير الله أو صام على وجه التقرب اليه كان كافرا متركا عند جميع الناس فكذلك من تقرب اليه بالاعمال القلبية المذكورة من التوكل والاناة والخوف والرجاء . وغير ذلك . لكن لما كانت هذه الامور القلبية من التأله - وكان الاولون يتألهون بها ويسون من تأله بها الهيا ، وكان مرجع كل ذلك الى القلب وأعماله التي هي منبع التوحيد ومصدر هذا الدين والمرجع اليه في الشك واليقين . ومع ذلك فهي الفارقة بين الاله الحق الذي اختص بها على الدوام . والاله الباطل الذي لا يحوم الموحد حوله بهذا المقاد - كان ذلك هو الداعي للتخصيص والموجب للتخصيص . وأيضا فالكلام على من حصل منه الشرك بما تأله في قلبه ورسخ بفؤاده ولبه من الاعمال الغير المختصة بالمسلمين ، وأما هذه الاعمال الظاهرة الشرعية المختصة بهم فلا يتعاطاها أحد لمن سواد ، ولم فرها تعمل الاله : ولم يعبدوا بها الاياه ، فهذا هو الذي أوجب تخصيصهم لهذه الاعمال القلبية وبعض البدنية ، كالسجود وحلق الرأس عبودية ، وإلا فجميع العبادات قابيها وقوليها وبدنيها مختصة به سبحانه وتعالى لا تصلح الاله .

قال المحقق السعد التمتازاني في شرحه للمقاصد مائنه : اعلم أن حقيقة التوحيد اعتقاد عدم الشريك في الالهية وخواتمها ، ولا نزاع بين أهل الاسلام ان خلق الاجسام وتديير العالم واستحقاق العبادة من الخواص ، ثم قال في آخر هذا المبحث : وبالجملة فان التوحيد في الالهية واجب شرعا وعقلا : وفي استحقاق العبادة شرعا . وما أمروا الا ليعبدوا الهيا واحدا سبحانه وتعالى عسا يشركون ، انتهى . وقد أفرد شيخ الاسلام لتحقيق معنى العبادة رسالة مفيدة وهي رسالة العبودية فراجعها .

(وأما الثاني أعني ماهو من خصائص الالهية) فاعلم أن توحيد الله تعالى بالتعظيم - كسا قاله العلامة القرافي في كتاب الفروق - ثلاثة أقسام : واجب اجماعا ،

وغير واجب اجباعا . ومختلف فيه هل يجب توحيد الله تعالى به أم لا .

(القسم الاول) الذي يجب توحيد الله تعالى به من التعظيم بالاجماع ، فذلك كالتلوات على اختلاف أنواعها ، والصوم على اختلاف رتبته في المرض والنفل والتندر فلا يجوز أن يفعل شيء من ذلك لغير الله تعالى . وكذلك الحج ونحو ذلك ، أي كالاتعانة والاستعانة والاتجاء . وكذلك الخلق والرزق والامانة والاحياء والبعث والنسر والسعادة والشقاء والهداية والاضلال والطاعة والمعصية والقبض واليسط . فيجب على كل أحد أن يعتقد توحيد الله تعالى ، وتوحده بهذه الامور على سبيل الحقيقة . وان أضيف شيء منها لغيره تعالى فاننا ذلك على سبيل الربط العادي لا أن ذلك المشار اليه فعل شيئا حقيقا . كقولنا : قتلته السم . وأحرقته النار ، وأرواه الماء . فليس شيء من ذلك يفعل شيئا ما ذكر حقيقة . بل الله تعالى ربط هذه المسببات بهذه الاسباب كما شاء وأراد . ولو شاء لم يربطها . وهو الخالق لمسبباتها عند وجودها . لا أن تلك الاسباب هي الوجودية ، وكذلك اخبار الله تعالى عن عيسى عليه السلام أنه كان يحيي الموتى ، ويريء الاكسه والابرص ، معناه أن الله تعالى كان يحيي الموتى ويريء عند ارادة عيسى عليه السلام لذلك . لا أن عيسى عليه السلام هو الفاعل لذلك حقيقة ، بل الله تعالى هو الخالق لذلك . ومعجزة عيسى عليه السلام في ذلك ربط وقوع ذلك الاحياء وذلك الابرء بارادته . فان غيره يريد ذلك ولا يلزم ارادته ذلك . فالزوم بارادته هو معجزته عليه السلام . وكذلك جميع ما يظهر على أيدي الانبياء والاولياء من المعجزات والكرامات الله تعالى هو خالقها ، وكذلك يجب توحيد الله تعالى باستحقاق العبادة والالوية ، وعموم تعلق صفاته تعالى ، فيتعلق عليه بجميع المعلومات ، وارادته بجميع الكائنات ، وبصره بجميع الموجودات الباقيات والفائيات ، وسمعه بجميع الاصوات ، وخبره بجميع المخبرات فهذا ونحوه توحيد واجب بالاجماع من أهل الحق لا مشاركة لأحد فيه .

(ثم ذكر القسم الثاني) وهو المتفق على عدم التوحيد فيه والتوحد ، ومثل له بالوجود والعلم ونحوهما وأطلب فيه .

(ثم ذكر القسم الثالث) وهو الذي اختلف فيه هل يجب توحيد الله تعالى به أم لا ؟ قال فهذا هو التعظيم بالقسم ، فهل يجوز أن يقسم بغير الله تعالى فلا يكون من التعظيم الذي وجب التوحيد فيه أو لايجوز فيكون من التعظيم الذي وجب

التوحيد فيه . وأما الكلام فيه أيضا . ومرادنا القسم الأول ، لأن فيه قوله : وكذلك يجب توحيدته تعالى باستحقاق العبودية . الخ وهذا هو المقصود بالنقل . ولا يخفى ما في كلامه من المخالفة المنصوص بسبب القول بأدول الكلائية . راجع هذا موضع مناقشته بما ذكر .

وحيث اتسع الكلام بحسب المقام ننقل مفاوله الفاضل ابن القيم في كتابه (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) مانصه :-

ومن خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه . الذي لا ينقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب العبادة كلها له وحده . والتعظيم والاجلال . والخشية والدعاء . والرجاء والاناة ، والتوبة . والتوكل والاستعانة . وغاية الذل مع غاية الحب . كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة أن يكون له وحده . وينبع الغير التشبيه من لاشييه له . ولا مثل له . ولا ند له . وذلك أقبح التشبيه وأبطله . ولشدة قبحه وتضسنة غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يعفده مع أنه كتب على نفسه الرحمة .

(ومن خصائص الالهية) العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونها ، وهما غاية الحب مع غاية الذل . هذا تمام العبودية ، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الاصلين فمن أعطى حبه وذاته وخضوعه لغير الله فقد شبه به في خالص حقه ، وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع ، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل ، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم وأفسدنها عليهم واجتالهم عنها ، ومضى على الفطرة الاولى من سبقت له من الله تعالى الحسنى . فأرسل اليهم رسله صلى الله عليهم وسلم ، وأنزل كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم ، فازدادوا بذلك نورا على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء .

إذا عرفت هذا فمن خصائص الالهية السجود ، فمن سجد أعيره فقد شبهه المخلوق به ، ومنها التوكل ، فمن توكل على غيره فقد شبهه به ، ومنها التوبة ، فمن تاب الى غيره فقد شبهه به ، ومنها الحلف باسمه تعظيما واجلالا ، فمن حلف بغيره على هذا الوجه فقد شبهه به ، انتهى مقاله .

(والمقصود من ذلك كله) القيام بالقسط الذي هو التوحيد ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، قال عز من قائل : (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)^(١) وقال تعالى : (وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا

مَنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّئِئِيسِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) فهذا التوحيد أعظم العدل وأقومه ، وأصل الدين ومحكمه ، وذات بأن يكون الدين كله لله قولاً وعلاً واعتقاداً باخلاص هذه الكلمة الطيبة في لفظها ومعناها ، شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وروح هذه الكلمة أفراد الرب - جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ، ولأنه غيره سبحانه والاحسان ، والتعظيم والخوف ، والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والافتقار ، والرغبة والرغبة ، فلا يجب سواه ، وكلما يجب غيره فأنما يجب تبعاً لمحبته ، وكونه وسيلة إلى زيادة محبته ، ولا يخاف سواه ، ولا يرجو سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يهرب إلا منه ، ولا يعمل عملاً قد تعبد الناس به إلا أفرد به ، ولا بشر غيره معه ، فيكون قد جمع جميع أنواع العبادات فيه قولاً وعلاً واعتقاداً ، وتحقق بها قائل وهو كلمة لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، مخلصين له الدين ولو كره المشركون .

وبهذه الحقوق التي هي حق الله تعالى على جميع عباده ، وحكمه الذي أوجبه على سائر مخلوقه ، تميز المسلمون ، واستسلم اليه المستسلمون .
ولما كان الدعاء لا يصدر في الغالب إلا من قام بقلبه كمال النذل والافتقار ، لا سيما في حالة الانكسار والاضطرار : كان كما ورد في الحديث مخ العباد ، ومن وفق له فقد أوتي الحسنى وزيادة ، وهذا الذي ذكرته ملخص ما أشار إليه المحققون انتهى .

وبما ذكرنا من معنى الاستغاثة واختصاصها بالله تعالى سقط ما ذكره النبهاني وغيره من الغلاة الزائعين من أن الاستغاثة بالأصفياء جائزة ، ولو كانت بالأمور التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى ، وهذا شرك محض وعبادة لغير الله تعالى ، وهو قول ليس عليه شبهة فضلاً عن الدليل المقبول لدى أهل العلم .

ثم انه عقد فصلاً ذكر فيه أربعين حديثاً من أحاديث الشفاء ولا كلام لنا فيها إذا طلبت منهم يوم القيامة ، وأما في الدنيا فأنما تطلب من الله أن يشفع فيهم من يشفع ، وسيأتي بعض الكلام عليها ان شاء الله .

ثم انه عقد فصلاً آخر - وهو الثالث - زعم أنه ذكر مقالته أسمة العلماء ، وأثبتوا به مشروعية الاستغاثة بغير الله تعالى ، ونقل عبارة ابن حجر في (الجواهر

المنظم) المشتلة على الاعتراض على الشيخ ابن تيسية في انكاره الاستغاثة بغير الله تعالى . وأن التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم حسن في كل حال قبل خلقه وبعد خلقه في الدنيا والآخرة .

قال ابن حجر :

نسبا يدل لطلب التوسل به صلى الله عليه وسلم ما أخرجه الحاكم وصححه أنه صلى الله عليه وسلم وذكر الحديث . وفيه استغاثة آدم به . وذكر حديث الأعمى . وحديث التوسل بالأعمال . وحديث استسقاء الرجل بقبر النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم ذكر كلام السبكي الذي نقله ابن حجر بعينه . قال : وعبارة ابن حجر السابقة وإن كانت كافية وافية فلا بأس بذكر بعض ما ذكره السبكي وإن تكرر بعضه مع ما تقدم عن ابن حجر . لأنه نقل كثيرا من عباراته وإن لم ينسب بعضها إليه . وساق كلام السبكي . ونقل مثل ذلك عن أمثال هؤلاء الغلاة ثم قال : وقد يتوسل بسدي الجاه إلى من هو أعلى جاها منه : والاستغاثة طلب العوث . والمستغث يطلب من المستغاث به أن يحصل له العوث من غيرده وإن كان ذلك الغير أعلى منه . فالتوجه والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم وبغيره ليس لهما معنى في قلوب المسلمين غير ذلك . ولا يقصد بها أحد منهم سواه . فمن لم يشرح صدره لذلك فليساك على نفسه . والمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى . والنبي صلى الله عليه وسلم واسطة بينه وبين المستغث . فهو سبحانه مستغاث به والعوث منه خلقا وإيجادا . والنبي مستغاث والعوث منه سببا وكسبا انتهى ما لخص من كلامه .

(أقول وبالله التوفيق) أما ما في كلام هذا الجاهل العبي من فساد التركيب وبشاعة التعبير فلسنا بصدد بيانه . والكلام عليه يطول . والغرض إبطال الدعوى ومعارضتها ، والكشف عن حالها وحال أنسه السابقين من الأمم : المعارضين لتوسل بأرائهم وأهوائهم . ثم تتكلم إن شاء الله بعد الكلام على هذه المقالة على مجيب شعبيهم الفاسدة .

قال العلامة الشيخ عبد اللطيف رحمه الله تعالى في كتابه (منهاج التأسيس في الرد على ابن جرير) بعد أن نقل عن العراقي مثل ما نقلنا عن النبهاني (والجواب) عن هذه الشبهة من وجود : —

(الاول) أن الله سبحانه إنما خلق خلقه لعبادته الجامعة لمعرفته ومحبه ، والخضوع له وتعظيمه ، وخونه ورجائه ، والتوكل عليه والابانة إليه ، والنضوع بين

يديه ، وهذه زبدة الرسالة الالهية . وحاصل الدعوة النبوية ، وهو الحق الذي خلقت له السموات والارض ، وأنزل به الكتاب . وهو الغاية المطلوبة والحكمة المقصودة من ايجاد المخلوقات ، وخلق سائر البريات ، قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ودعا سبحانه عباده الى هذا المقصود . وافترض عليهم القيام به حسب ما أمر ، والبراءة من الشرك والتدبير المتنافي لهذا الاصل الذي هو المراد من خلق سائر العبيد ، قال الله تعالى : (إِنْ أَشْرَكَ إِتَّخَذَ اللَّهُ سَبِيلَ الْفَاسِقِ الَّذِي كَفَرَ مَا يَكْفُرُ مِنْهُ خَلْقًا لِيَكْفُرُوا بِهِ لِيَحْكُمَ بِهِمْ يُحْكُمُ بِهِمْ رَبُّهُمْ ذَرَأَاتُ آلِهَتِهِمْ كَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ إِنَّهُ عَالِمُ الْغُيُوبِ) وقال : (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) وقال : (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) .

فالقول بجواز الاستغاثة بغير الله ودعاء الانبياء والصالحين وجعاهم وسائط بين العبد وبين الله ، والتقرب اليهم بالنذور والنحر ، والتعظيم بالحلف وما أشبهه : مناقضة ومنافاة لهذه الحكمة التي هي المقصودة بخلق السموات والارض ، وانزال الكتب ، وارسال الرسل ، وفتح باب الشرك في الحجة والخضوع والتعظيم ، ومشافة ظاهرة لله ورسوله ، وتلك نبي كريم ، والتموس مجبولة على صرف ذلك المذكور من العبادات ، الى من أهله لكشف الشدائد وسد الثقافات ، وقضاء الحاجات ، من الامور العامة التي لا يقدر عليها الا فاطر الارض والسموات .

(الوجه الثاني) أن هذا بعينه قول عباد الانبياء والصالحين من عهد قوم نوح الى أن بعث اليهم خاتم النبيين ، ولم يزيدوا على ما قال هؤلاء الغلاة فيما اتحلوه من الشرك الوخيم ، والقول الذميمة ، كما حكى الله عنهم ذلك في كتابه الكريم ، قال تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) وقال تعالى : (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ) وقال تعالى : (فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكُمْ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ) .

(١) النساء : ١١٦ (٢) المائدة : ٧٦ (٣) الحج : ٢٢ (٤) يونس : ١٩ (٥) الزمر : ٤ (٦) الاحقاف : ٢٩

فهذه النصوص المحكمة صريحة في أن الله كين لم يتصدوا إلا الجدة والشفاعة والنوسل ، بمعنى جمعهم وسائل شريهم أي الله ، وتضمن حواجهم منه تعالى ، وقد نكر القرآن هذا الله لأنكار ، واخبر أن أهله هم أصحاب النار ، وأن الله تعالى حرد عليهم لجنة دار أولئك الأبرار ، وجنهور هؤلاء المشركين لم يدعوا الاستقلال إلا شركه في توحه الربوبية ، بل قد أقرروا واعترفوا بأن ذات له وحده ، كما حكى سبحانه فرارهم بأمرهم بذات في غير موضع من كتابه .

أحصل ما ذكر من جوار الاستغاثة والدعاء والتعظيم بالذم والحلف مع نفي الاستقلال ، وأن الله يفعل لأجله — هو عين دعوى المشركين ، وتعليقهم وشبهتهم لم يروا عليه حرد واحدا ، إلا أنهم قالوا قربان وشفعاء ، والغلاة سوا ذلك توسلا داعلة واحده ، والحقبة متحدة .

(الوجه الثالث) أن الله سبحانه أمر عباده بدعائه ومسأئته والاستغاثة به ، واتزال حاجتهم وفاقتهم وضرورتهم به قال تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)^(١) وقال تعالى : (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)^(٢) وقد تعالى : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)^(٣) وقال تعالى : (فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ)^(٤) وقال تعالى : (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) وقال تعالى : (فإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) وفي الحديث (من لم يسأل الله يغضب عليه) وفيه : (الدعاء سلاح المؤمن وعباد الدين) وحديث النزول كل ليلة الى السماء الدنيا ، يقول تعالى : (هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فأتوب عليه) وعلى مذهب الغلاة وقولهم باستجاب الاستغاثة بغير الله تعالى ، وجعل الوسائط بين العباد وبينه تعالى يهدم هذا الاصل الذي هو أصل الدين ، ويسد بابه ، ويستغاث بالانبياء والصالحين ، ويرغب اليهم في حاجات الطالبين والسائلين ، وضرورات المضطرين من خلق الله أجمعين .

(١) البقرة : ١٨٦ ، المؤمنون : ٦٠ ، النمل : ٦٢ ، (٢) العنكبوت : ١٨

(الوجه الرابع) أن الله تعالى دعا عباده بربوبيته العامة الشاملة لكليات المسكنات وجزئياتها في الدنيا والآخرة . وانفراد بالايجاد والتدبير ، والتأثير والتقدير ، والعتناء والمنع . والخفض والرفع ، والعز والذل ، والاحياء والاماتة ، والسعادة والفقوة . والهداية والمغفرة . والتوبة على عباده . الى غير ذلك من أفعال الربوبية وآثارها المشاهدة المصنوعة : الى معرفته وعبادته ، الجامعة لمحبهه والخضوع له . وتعظيمه ودعائه . وترك التعلق على غيره محبة وتعظيمًا واستغاثة ، قال تعالى : (أَمَّنْ خَلِقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) الى قوله : (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)^(١) وقال تعالى : (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) الى قوله : (فَأَنِّي تَسْحَرُونَ)^(٢) وقال تعالى : (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) الى قوله : (أَفَلَا تَتَّقُونَ)^(٣)

فتأمل هذه الآيات وما تضمنته من تفرير أفعال الربوبية التي لا يخرج عنها فرد من أفراد الكائنات ، واعرف ماسيقت له ودلت عليه من وجوب محبهه تعالى وعبادته وحده لا شريك له ، وترك عبادة ما عدا من دونه من الابداد والآلهة والبراءة من ذلك . وانظر هل القوم المخاضبون بهذا زعموا الاستقلال لغير الكبير المتعال ، أم أقروا له سبحانه بالاستقلال والتدبير والتأثير . وانسا أنوا من جهة الواسطة والشفاعة ، والتوسل بدعاء غير الله وقصد سواه فيسا يحتاجه العبد وما يهواه ، وهذا صريح من تلك الحجج البيّنات ، ونص هذه الآيات المحكمات ، احتج سبحانه بما أقروا به من الربوبية والاستقلال على ابطال قصد غيره بالعبادة والدعاء والاستغاثة كما يفعله أهل الجهل والضلال ، فاذا قيل تجوز الاستغاثة بالانبياء والصالحين ودعاؤهم والنذر لهم على أنهم وسائط ووسائل بين الله وبين عباده وأن الله يفعل لأجلهم : انهدمت القاعدة الايمانية ، وانتقضت الاصول التوحيدية ، وفتح باب الشرك الاعظم ، وعادت الرغبات والرهبات ، والمقاصد والتوجهات ، الى سكان القبور والاموات ، ومن دعي مع الله من سائر المخلوقات ، وهذه هي الغاية الشركية ، والعبادة الوثنية ، فنعوذ بالله من الضلال والشقاء والانحراف عن أسباب الفلاح والهدى .

(الوجه الخامس) أنه لا فلاح ولا صلاح ، لا نجاح ولا نعيم ولا لذة للعبد الا

(١) النمل : ٦٥ - ٦٤ (٢) المؤمنون : ٨٦ - ٩١ (٣) بونس : ٣٢

بأن يكون الله سبحانه هو الهه ومجوبه ومستغائه . الذي اليه مفزعه عند الشدائد .
 واليه مرجعه في عامة المطالب والمقاصد . والعبد به فاقه وضرورة وحاجة إلى أن يكن
 الله هو معبوده ومستغائه . اليه اثابته ومفرغه ، ولو حصلت له كل الكائنات وتوجه
 الى جميع الخلوقات لم تسد فاقته . ولا تدفع ضرورته ، ولا يحصل نعيه وفرحه
 بزوايهه وكربه وشقاؤه الا بربه الذي من وجده وجد كل شيء ، ومن فاته فاته كل
 شيء ، وهو أحب اليه من كل شيء . وهذه فاقه وضرورة وحاجات لا يشبهها شيء
 فتشاس به . وانما تشبهه من بعض الوجه حاجة العبد الى طعامه وشرابه وقوته الذي
 يقوم بدنه به . فان التدن لا يقوم الا بذلك ، وفقده غاية انعدام البدن وموته .

وأما فقد محبة الله وعبادته ودعائه فعذاب وشقاء ، وجحيم في الآخرة والاولى
 لايفتك بحال من الاحوال ، قال تعالى : (اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو .
 فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) الى قوله : (ولعذاب
 الآخرة أشد وأبقى)^(١) وقال تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ
 اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ . الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ
 وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُ)^(٢) .

وفي الحديث القدسي - حديث الاولياء - يقول الله تعالى : (من عادى لي
 وليا فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب الي عبدي بشئ اداء ما افترضت عليه ، ولا يزال
 عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به .
 وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطس بها ، فبي يسمع ، ربي يبصر . وبني يبطس)
 الحديث .

وعلى القول بجعل الوسائط والشفعاء بين العباد وبين الله تفلح أصول هذا
 الاصل العظيم . الذي هو قطب رحي الايمان . وينهدم أساسه الذي ركب عليه
 البنيان ، فأني فرح وأي نعيم وأي فاقه سدت وأي ضرورة دفعت وأي سعادة حصلت
 وأي أنس ، واطمئنان اذا كان التوجه والدعاء والاستغاثة والذبح والنذر لغير الملك
 الحنان المنان ، سبحانه الله ما أجراً هذا المعترض على الله وعلى رسله وعلى دينه وعلى
 عباده المؤمنين ؟!

(١) طه : ١٢٤ (٢) الرعد : ٣١ ، ٣٢

اللهم انا نبرأ اليك ما جاء به هذا المفتري ، وما قاله في دينك وكتابات ، وعلى عبادك وأوليائك ، قال تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) فصلاح السموات والارض . بأن يكون الله سبحانه هو الهها دون ما سواه ، ومسئولها الذي نفع اليه وتلجأ اليه في مطالبها وحاجاتها ، وفسر المتكلمون هنا تمنع وجود ربيين مدبرين ، وانه لاصلاح للعالم الا بأن يكون الله قيومه ومدبره ، وقرر غيرهم من المحققين امتناع الصلاح بوجود آلهة تعبد ونقصد وترجى . فالاول يرجع الى الربوبية ، والثاني الى الالهية .

(الوجه السادس) أن الشرع الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والسنة التي سنها في قبور الانبياء والصالحين وعامة المؤمنين تنافي هذا القول الشنيع - الذي افتراه هذا الجاهل - وتبطله وتعارضه ، فانه صلى الله عليه وسلم سن عند القبور ما صحت به الاحاديث النبوية ، وجرى عليه غسل علماء الامة من السلام عند زيارتها والدعاء لأصحابها . وسؤال الله العافية لهم . من جنس ما شرعه من الصلاة على جنائزهم . ونهى عن عبادة الله عند القبور والصلاة فيها واليها ، وخص قبور الانبياء والصالحين بلعن من اتخذها مساجد يعبد فيها تعالى ويدعى . وتواترت بذلك الاحاديث خرجها أصحاب الصحيحين وأهل السنن ومالك في موطنه .

(فمنا) قوله صلى الله عليه وسلم : (اللهم لا تجعل قبوري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وحديث ابن مسعود (ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد) ، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه : (قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وحديث جابر بن عبد الله : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس يقول : اني أبرأ الى الله أن يكون لي منكم خليل ، فان الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا ، ولو كنت متخذا من أهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم من ذلك) وحديث عائشة : (لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فاذا اغتم بها كشفها ، فقال - وهو كذلك - لعن الاله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، قالت عائشة يحذر ما صنعوا

ولولا ذلك لابرز قبره . ولكن خشي أن يتخذ مسجداً (وفي رواية لمسلم :) (ومساجدهم) وانما نهى عن الصلاة عندها واتخاذها مساجد لما يفضى اليه من دعائها والاستغاثة بها ، وقصدها الحوائج والمهمات ، والتقرب اليها بالتذوق والتحر ونحو ذلك من القربات . فجاء الغلاة فهتكوا ستر الشريعة ، واقتحصوا الحسى ، وشافوا الله ورسوله ، وقالوا تدعى ويستغاث بها وترجى •

ومن شم رائحة العلم وعرف شيئاً مما جاءت به الرسل عرف أن هذا الذي قاله الغلاة من جنس عبادة الاصنام والاثان مناقض لما دلت عليه السنة والقرآن . ولا يستريب في ذلك عاقل من نوع الانسان •

(الوجه السابع) أن الله تعالى نهى عن الغلو ومجاوزة الحد فيما شرعه من حقوق أنبيائه وأوليائه ، قال تعالى : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقْمَلُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ) ^(١) وقال تعالى : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) ^(٢) .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تظروني كما أظرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) وس ابن عباس في قوله تعالى : (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتِكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وُدَّ وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) هذه أسماء رجال صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا لهم أنصاباً وصوروا تماثيلهم ، فلما مات أولئك ونسي العلم عبت ، وقال ابن القيم : قال غير واحد من السلف عكفوا على قبورهم وصوروا تماثيلهم ، فما طال عليهم الامد عبت ، انتهى •

فانظر الى ما آل اليه الغلو بالتصاوير والعكوف من غير دعاء ولا عبادة ، فكيف بالدعاء والاستغاثة والتوسل ؟ والقول بأن الله تعالى يفعل لأجلهم هذا نفس الشرك ، والاول وسيلته التي حدث الشرك بسببها •

(١) النساء : ١٧١ (٢) المائدة : ٨١

وقد قطع النبي صلى الله عليه وسلم وسيلة هذا الشرك وحسى الحسى وسد الذريعة حتى نهى عن الصلاة عندها ، واعتياد المجيء اليها بقوله في أشرف القبور : (لا تجعلوا قبوري عيدا ، ولا بيوتكم قبورا . وصلوا علي حيشا كنتم . فإن صلاتكم تبلغني) ونهى عن رفع القبور . وبعث علي ابن أبي طالب أن لا يدع تمثالا الا طسه ولا فيرا مشرفا الا سواه . ونهى عن تعظيمها بايقاد السرج ، كل هذا صيانة للتوحيد وحماية لجانبه ، فرحم الله امرأ آمن بالجنة والنار ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم امامه ومعلمه وقودته ، ولم يلتفت عما جاء به ، ولم يبال بسن خالفه وسلوك غير سبيله . وحن الى ما كان عليه السالف الصالح وأئمة الهدى في هذا الباب وفي غيره : (اوائك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) ^(١) (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسل فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) ^(٢)

(الوجه الثامن) أن من أعرض عن الله وقصد غيره وأعد ذلك الغير لحاجته وفاقته واستغاث به ونذر له ولاذ به فقد أساء الظن بربه ، وأعظم الذنوب عند الله تعالى اساءة الظن به ، فان الميء به الظن قد ظن به خلاف كما له المقدس ، فظن به ما يناقض أساءه وصفاته ، ولهذا توعد سبحانه وتعالى الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم ، كما قال تعالى : (عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا) ^(٣) وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته : (وذالكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) ^(٤) وقال تعالى عن خليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام : (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أنفكاً آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين) ^(٥) أي فما ظنكم أن يجازيكم اذا لقيتسوه وقد عبدتم غيره ، وما ظننتم بأسائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك الى عبودية غيره . فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه غني عن كل ما سواه فقير اليه كل من عداه ، وأنه قائم بالقسط على خلقه ، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشرك فيه غيره ،

(١) الانعام : ٩١ (٢) آل عمران : ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ (٣) الفتح : ٧ (٤) فصلت : ٢٤ (٥) الصافات : ٨٦ - ٨٨

والعالم بتفاصيل الامور فلا تخفى عليه خافية من خلقه . والكافي اهم وحده لا يحتاج الى معين . والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحسته الى من يستعطفه . وهذا بخلاف الملوك وغيرهم . من الرؤساء . فانهم محتاجون الى من يعرفهم احوال الرعية وحوادثهم . من الوسطاء الذين يعينونهم على قضاء حوائجهم . والى من يسترحبهم ويستعطفهم بالشفاعة . فاحتاجوا الى الوسائط ضرورة لحاجتهم وعجزهم وضعفهم وقصور علمهم .

فأما القادر على كل شيء . الغني بذاته عن كل شيء . العالم بكل شيء الرحمن الرحيم . الذي وسعت رحسته كل شيء . فادخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته والهيته وتوحيدده ، وظن به ظن السوء . وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده ويستتغ في العقول والفطر ، وقبحه مسنقر في العقول السليمة فوق كل قبح .

يوضح هذا أن العابد معظم لمعبوده متأله له خاضع ذليل له ، والرب تبارك وتعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والاجلال ، والتأله والخضوع والذل ، وهذا في خالص حقه ، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره ويشرك بينه وبينه فيه ، ولا سيما اذا كان الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومسلوكه ، كما قال تعالى :

(ضَرَبَ لَكُمْ مِثْلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) (١) أي إذا كان أحدكم يأنف أن

مسلوكه شريكه في رزقه فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به وهي الالهية التي لا تبغي لغيري ، ولا تصلح لسواي ، فمن زعم ذلك فسا قدرني حق قدري ، ولا عظمي حق تعظيبي ، ولا أفردي بسا أنا منفرد به وحدي دون خلقي .

فسا قدر الله حق قدره من عبد معه غيره ، كما قال تعالى : (وَمَا قَدَرُوا

اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (١)

فسا قدر من هذا شأنه وعظته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة ، بل هو أعجز شيء ، وأضعفه ، فسا قدر القوي العزيز حق قدره من

أشرك معه الضعيف الذليل .

وكذلك ما قدره حق قدره من قال انه لم يرسل الى خلقه رسولا ولا أنزل كتابا بل نسبه الى ما لا يليق به ولا يحسن منه من أهمال خلقه وتركهم سدى . وخلقهم باطلا عبثا .

ولا قدره حق قدره من نفى حقائق أسائه الخسنى وصفاته العليا فنفى سعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه وكلامه وتكليسه لمن شاء من خلقه بسنا يريد ، أو نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباد من ماعتهم ومعاصيهم فأخرجها عن قدرته ومشيئته وخلقته . وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاؤون بدون مشيئة الرب تبارك وتعالى ، فيكون في ملكه ما لا يشاء ويشاء ما لا يكون . تعالى الله عز وجل عن فسول أشباه المجوس علوا كبيرا .

وكذلك ما قدره حق قدره من قال : انه يعاقب عبده على ما لا يفعل العبد ولا نه عليه قدرة ، ولا تأثير له فيها البتة بل هو نفس فعل الرب جل جلاله ، فيعاقب عبده على فعله ، وهو سبحانه وتعالى الذي جبر العبد عليه ، وجبره على الفعل أعظم من اكراه المخلوق المخلوق ، فاذا كان من المستقر في النظر والعقول أن السيد لو أكره عبده على فعل وألجأه اليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحا : فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ، ولا هو واقع بإرادته بل ولا هو فعله البتة ، ثم يعاقب عليه عقوبة الابد ؟ تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا . وقول هؤلاء شر من أقوال المجوس ، والطائفتان ما قدروا الله حق قدره .

وكذلك ما قدره من لم يصنه عن بئر ولا حش ولا مكان يرغب عن ذكره ، بل جعله في كل مكان وصانه عن عرشه أن يكون مستويا عليه ، يصعد اليه الكلم الطيب والعسل الصالح يرفعه ، وتخرج الملائكة والروح اليه وتنزل من عنده ، ويدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه ، فصانه عن استوائه على سرير الملك ، ثم جعله في كل مكان يأنف الانسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه .

وما قدره حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقتة ولا من نفى حقيقة حكسته التي هي الغايات المحسودة المقصودة بفعله ، ولا من نفى حقيقة فعله ولم يجعل له فعلا اختياريا يقوم به ، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه :

فنفى حقيقة محبته وانيانه واستوائه على عرشه . وتكليه موسى صلى الله عليه وسلم من جانب الطور ، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه . الى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي نفوها وزعموا أنهم بنفها قدروا الله حق قدره . وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولدا . وجعله يحل في مخلوقاته وجعله عين هذا الوجود .

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال أنه رفع أعداء رسوله وأهل بيته وأهل ذكركم وجعل فيهم الملك والخلافة والعفو . ووضع أولياء رسوله وأهل بيته وأهلهم ، وضرب عليهم الذلة أينما تقفوا ، وهذا يتضمن غاية القدح في الرب - تبارك وتعالى عن قول الرافضة علوا كبيرا - وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين انه أرسل ملكا ظالما فادعى النبوة لنفسه ، وكذب على الله تعالى . ومكث زمنا طويلا يكذب عليه كل وقت ، ويقول قال كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا . وينسخ شرائع أنبيائه ورسله ، ويستبيح دماء اتباعهم وأموالهم وحريتهم . ويقول الله تعالى أباح لي ذلك . والرب تبارك وتعالى يظهره ويؤيده ، ويعليه ويقويه ، ويجيب دعواته ، ويسكنه ممن يخالفه ، ويقوم الأدلة على صدقه ، ولا يعاديه أحد الاظفر به فيصدقه بقوله وفعله وتقريره ، ويحدث أدلة تصدقه شيئا بعد شيء . ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن في الرب سبحانه وتعالى . وعلوه وحكمته ورحمته وربوبيته ، تعالى عن قول الجاحدين علوا كبيرا . فوازن بين قول هذا وقول اخوانه من الرافضة تجد القولين :

رضيعا لبا نثدي أم تقاسما باسحم داج عوض لايتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال انه يجوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعص طرفه عين ويدخلهم دار الجحيم ، وينعم أعداءه ومن لم يؤمن به طرفه عين ويدخلهم دار النعيم ، وان كلا الأمرين بالنسبة اليه سواء وانما الخير المحض جاء عنه بخلاف ذلك فسمعنا الخبر لا مخالفة حكسته وعدله وقد أنكر سبحانه وتعالى في كتابه على من يجوز عليه ذلك غاية الانكار ، وجعل الحكم به من أسوء الاحكام .

وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لايجبي الموتى ، ولا يبعث من في القبور ، ولا يجمع خلقه ليوم يجازي فيه المحسن باحسانه والمسيء باسأته ، ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه ، ويكرم المتحملين المشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته ، ويبين لخلق الذي يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه ، ونهيه فارتكبه ، وحقه فضيعه . وذكره فأهله وغفل قلبه عنه . وكان هواه آثر عند من طلب رضاه . طاعته المخلوق أهم عنده من ناعته . فلله الفضلة من قلبه وقوله وعمله . وسواء المتقدم في ذلك لانه المهم عنده . يستخف بنظر الله اليه وانلاعه عليه وهو في قبضته وناحيته بيده ، ويعظم نظر المخلوق اليه وانلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه . يستحي من الناس ولا يستحي من الله عز وجل . ويخشى الناس ولا يخشى الله عز وجل . ويعامل الخلق بأفضل ما يتدر عليه . وان عامل الله عز وجل عامله بأهون ما عنده وأحقره ، وان قاد في خدمة الهه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة ، قد فرغ له قلبه وجوارحه . وخدمه على كثير من مصالحه ، حتى اذا قام في حق ربه - ان ساعده القدر - قام قياما لا يرضاه مثله لمخلوق من مخلوقاته ، وبدا له مالم يستح أن يواجه به مخلوقا مثله ، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه ؟ وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الاجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء ؟ فلو جعل من أقرب الخلق اليه شريكا في ذلك لكان ذلك جزاءه ، وتوثبا على محض حقه واستهانته به ، وتثريكا بينه وبين غيره فيما لا ينبغي ولا يصلح الا له سبحانه وتعالى ، فكيف وانما شرك بينه وبين أبغض الخلق اليه وأهونهم عليه وأمتتهم عنده وهو عدو على الحقيقة . فانه ما عبد من دون الله الا الشيطان ، كما قال تعالى : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)^(١) ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم في نفس الامر للشيطان ، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة ، كما قال تعالى : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَإِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)^(٢)

فالشيطان يدعو المشرك الى عبادته ويوهمه أنه ملك ، وكذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب ، وهي التي تخاطبهم وتقضي لهم الحوائج ، ولهذا اذا طلعت الشمس قارنها الشيطان لعنه الله

(١) يس : ٦١ ، ٦٢ (٢) سبأ : ٤١ ، ٤٢ .

تعالى فيسجد لها الكفار فيقع سجودهم له وكذلك عند غروبها .
وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدها وانما عبد الشيطان فانه يزعم أنه يعبد
من أمره لعبادته وعبادة أمه ورضيتها لهم وأمرهم بها ، وهذا هو الشيطان الرجيم -
لعنه الله تعالى - لأعبد الله ورسولته . ونزل هذا كله على قوله تعالى : (أَلَمْ آعْبُدْ
لَكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) فما عبد أحد من بني
آدم غير الله عز وجل كائنا من كان الا وقعت عبادته للشيطان ، فيستمتع العابد
بالمعبود في حصول غرضه ، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له واشراكه مع الله
الذي هو غاية رضا الشيطان ، ولهذا قال تعالى : (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ
الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِّنَ الْإِنسِ) من اغوانهم واضلالهم (وقال أوليساء هم من
الانس ربنا استمتع بعضهم ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مشواكم
خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم) هذه اشارة لطيفة
الى السر الذي لاجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله تعالى . وأنه لا يغفر بغير
التوبة منه ، وانه يوجب الخلود في النار . وأنه ليس تحريمه وقبحه بسجرد النهي عنه ،
بل يستحيل على الله سبحانه وتعالى أن يشرع عبادة اله غيره كما يستحيل عليه
ما يناقض أوصاف كماله ونعمت جلاله ، وكيف يظن بالمتفرد بالربوبية والالهية والعظمة
والجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك ، أو يرضي به ، تعالى الله عز وجل عن ذلك
علوا كبيرا ، انتهى . وانما سقنا هذا المبحث العظيم الذي يعتقد عليه الخناصر ويعرض
عليه بالنواجذ لما فيه من الفوائد التي لا يستغنى عنها من نصح نفسه ، وانما الغرض
بيان ما في التوسل والاستغاثة بالاموات والغائبين من سوء الظن بالله رب العالمين .
(الوجه التاسع) أن الله تعالى حرم القول عليه بغير علم وجعله أعظم من
الشرك ، قال تعالى : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْأثْمَ
وَالْبَغْيَ بغير الحقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا) الآية ، فرتب المحرمات
منتقلا من الادنى الى الاعلى ، وقال تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

اولئك يُعَرِّضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هُوَ لَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ إِلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ. الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغِيهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ^(١) ومن عرف الشرك حق المعرفة يعلم أن من قال تجوز الاستغاثة والتوسل بالانبياء والصالحين والنذر لهم والحلف وما أشبهه من التعظيم : له نصيب واخر من الكذب على الله وعلى رسوله ، ومن الصد عن سبيل الله وابتغاء العوج والله المستعان ، وقال تعالى : (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا. أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)^(٢)

(ويتبين) كذب الغلاة على الله وعلى رسوله وعلى عباده الصالحين بالكلام على ماساقه هذا المعترض من الأدلة التي يزعم أنها تدل على دعواه ، وتنصر ما قاله واقتراه .

فأما قوله : اعلم أن المجوزين للاستغاثة بالانبياء والصالحين مرادهم أنها أسباب ووسائل بدعائهم ، وأن الله يفعل لأجلهم لا أنهم الفاعلون استقلالاً من دون الله ، فإن هذا كفر بالاتفاق : فجواب هذا تقدم في الوجه الثاني ، وذكرنا أن المشركين من عهد نوح الى عهد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم لم يقصدوا سوى هذا ، ولم يدعوا لآلهتهم غيره ، وأنهم مازادوا حرفاً واحداً على هذا العراقي وشيعته ، وهو يظن أن النزاع في دعواه الاستقلال وليس الامر كذلك ، فإن النزاع بين الرسل وقومهم إنما هو في توحيد العبادة ، فكل رسول أول ما يقرع أسمع قومه بقوله : (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) وكان المشركون من الجاهلية يقولون في تليتهم : لبيك لا شريك لك ، الا شريكاهو لك تملكه وما ملك ، فأثبتوا الشرك في العبادة واعتقدوا أن آلهتهم مملوكة لا مستقلة ، وهذا ظاهر في القرآن

(١) هود : ١٩ ، ٢٠ ، (٢) يونس : ٦٩ - ٧١

والسنة ، لايجهله من عرف ما الناس فيه من أمر دينهم ، وانما خفي ذلك على هذا المعترض لقرؤ جهله وقلة فهمه . ولأنه نشأ بين عباد القبور المتوسلين بها وبأهلها ، فظن أن هذا هو الاسلام ، والمسكين لم يعرف ربه وما يجب له من الحقوق على كافة الانام .

ولم يتخرج على امام يعتمد في بيان الشرائع والاحكام . مع أن عباد القبور في هذه الازمان اعتقدوا التدبير والتصريف لمن يعتقدونه ، فطائفة قالت يتصرف في الكون سبعة ، وطائفة قالت يتصرف أربعة ، وطائفة قالت يتصرف سبعون واختلفوا في قطبهم الذي اليه يرجعون - تعالى الله عما يقول الظالمون - فأهل مصر يرون أنه البدوي . وأهل العراق يرجحون الشيخ عبد القادر . والرافضة يرون ذلك للأئمة من أهل البيت ، وهذا مشتهر عنهم لاينكره الا مكابر . وقد حكم المعترض الجاهل بأن دعوى الاستقلال كفر بالاتفاق ، وعلى قول غلاة عباد القبور مصدر التصريف عنهم يستقلون به ، لأن الوكيل يستقل بتدبير ماوكل اليه ، وحينئذ فاذا لم يعرف العبادة ومسألة النزاع كيف يجادل عن قوم جزم بكفرهم وحكى عليه الاتفاق ، فالرجل مخلط لايدري مايقول .

وأما قوله ولا يخطر ببال مسلم جاهل فضلا عن عالم الخ .
فيقال : أين العناء لتطلب ؟ وأين السندل ليطلب ؟ اذا صح الاسلام لم يرغب أهله الى دعاء غير الله من العباد والاولئان والاصنام .

وأما قوله : بل ليس هذا خاصا بنوع الاموات ، فان الاحياء وغيرهم من الاسباب العادية ، كالقطع للسكين والشبع للاكل والري والدفء لو اعتقد أحد أنها فاعلة ذلك بنفسها من غير استنادها الى الله يكفر اجماعا .

فيقال : اذا كان اسناد الفعل اليها استقلالاً يكفر فاعله اجماعا - وهي من الاسباب العادية التي أودع الله تعالى فيها قوة فاعلة - فكيف لا يكفر من أسند مالا يقدر عليه الا الله من اغائة اللهفات ، وتفريج الكربات ، واجابة الدعوات الى غير الله من الصالحين أو غيرهم ، وزعم أنهم وسائل ، أو أن الله وكل اليهم التدبير كرامة لهم ، هذا أولى بالكفر وأحق به ممن قبله .

ويقال للزائع : أنت لاترضى تكفير أهل القبور لاحتمال العذر والشبهة ، وأنه شرك أصغر ، يثاب من أخطأ فيه ، فكيف جزم بكفر من أسند القطع للسكين من

غير استناد الى الله ؟ وما الفرق بين من عذرتة وحزمت باثابته وبين من كفرته وحزمت بعقابه ؟ ليست احدى المسألتين بأظهر من الاخرى ، وما يقال من الجواب فيما أثبتته من الكفر يقال فيما نفيته .

يوماً بجزوى ويوما بالعقيق وبالعذيب يوماً ويوما بالخليصاء

أي مذهب وافق هوائك تمذهبت به .

ويقال : جمهور العقلاء على الفرق بين الاسباب العادية وغيرها ، فالشعب والري والدفء أسباب عادية فاعلة ، وانما يكفر من أنكر خلق الله لهذه الاسباب وقال بفعلها دون مدبر عليم حكيم ، وهذا البحث يتعلق بتوحيد الربوبية ، وأما جعل الاموات أسباباً يستغاث بها وتدعى وترجى وتعظم على أنها وسائط : فهذا دين عباد الاصنام . يكفر فاعله بمجرد اعتقاده وفعله وإن لم يعتقد الاستقلال ، كما نص عليه القرآن في غير موضع ، فالغلاة معارضون للقرآن مصادمون لنصوصه .

وأما قوله : إن السبكي والقسطلاني والسهمودي وابن حجر في الجوهر المنظم قالوا والاستغاثة به صلى الله تعالى عليه وسلم وبغيره في معنى التوسل الى الله تعالى بجاهه الخ .

فيقال : مسألة الاستغاثة به وبجاهه ليست هي مسألة النزاع . ومراد أهل العلم أن يسأل الله بجاه عبده ورسوله لا أن يسأل الرسول نفسه ، فإن هذا لا يطلق عليه توسل بل هو دعاء واستغاثة ، وأن لفظ التوسل صار مشتركاً ، فعباد القبور يطلقون التوسل على الاستغاثة بغير الله ودعائه رغبا ورهبا ، والذبح والنذر والتعظيم بما لم يشرع في حق مخلوق ، وأهل العلم يطلقونه على المتابعة والاخذ بالسنة ، فيتوسلون الى الله بما شرعه لهم من العبادات ، وبما جاء به عبده ورسوله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا هو التوسل في عرف القرآن والسنة كما يأتيك مفصلاً ان شاء الله تعالى ، ومنهم من يطلقه على سؤال الله ودعائه بجاه نبيه أو بحق عبده الصالح أو بعباده الصالحين ، وهذا هو الغالب عند الاطلاق في كلام المتأخرين كالسبكي والقسطلاني وابن حجر .

(وبالجملة) فما نقله هنا عن ذكر ليس من مسألة النزاع في شيء وان كابر الغلاة وزعموا أنهم قصدوا دعاء الانبياء والصالحين والاستغاثة بهم أنفسهم وأن هذا

يسمى توسلا ، فهذا عين الدعوى والدعوى يحتج لها لابلها ، فبطل كلامه على كل تقدير •

(وأما قوله) أو بان يدعو الله كما في حال الحياة اذ هو غير مستنع •

(فيقال) هذا جرأة على الله وعلى رسوله ، وتقدم اليه بما لم يشرعه ولم يأذن فيه : وأعلم الخلق به أصحابه وأهل بيته وأئمة الدين من أمته لم يفعل أحد منهم ذلك البتة ولا نقله من يعتد به ، وهم أعلم الخلق به ودينه وشرعه ، وما يجوز وما يستنع . فلا نلو اما ان تسلم هذه المقامات ويجزم بأن الخروج عن هديهم من أفضع الجهالات وأنزل الضلالات ، أه تسلم تلك المقدمات ويدعى أن الخلف الذين يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون أحق بالصواب والعلم والمتابعة في تلك المسائل والمقالات ، وهذا اخلال بجملة الدين ، وقدح في القرون المفضلة بنص سيد المرسلين ، وكفى بهذا فضيحة وجهلا لو كانوا يعلمون •

(وأما قوله) مع علمه بسؤال من سأله والمستغث يطلب من المستغاث به أن يحصل له العوثر من غيره •

(فيقال) أما دعوى عموم العلم بسؤال السائلين لمن يستغث به جهلة القبورين فالأخذ به واضلقة على غير الله كفر صريح باتفاق أهل العلم ، فان من زعم احاطة العلم وشومه لغير الله أو عموم القدرة أو الرزق أو الخلق لغيره سبحانه يكفر كثيرا واضعاً : كما ذكره شراح الاسماء وغيرهم من أهل العلم ، وأما دعوى تخصيص ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم فهي — وان كانت من جنس ما قبلها في الرد والمنع — تبطل مذهب عباد القبور ، ودعائهم لغير الله من الغائبين والاموات ، فان دعاء الغافل الذي لا يعلم بحال الداعي ولا يدرىها ضلال مستبين ، قال تعالى : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ لِيَسْتَجِيبَ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)^(١)

(وأما قوله) والمستغث يطلب من المستغاث به أن يحصل له العوثر من غيره ممن هو أعلى منه وليس لها في قلوب المسلمين غير ذلك الى آخره •

(فيقال) هذا يدل على جهل هذا الغبي باللغة والشرع ، فان الداعي السائل لغيره لا يسمى مغنياً ، والمغيث من يفعل الاغاثة ويحصل العوثر بفعله •

قال شيخ الاسلام : من زعم أن مسألة الله بجاه عبده تقتضي أن يسمى العبد مغيثا ، أو يكون ذلك استغاثة بالعبد فهذا جهل ، ونسبته الى اللغة أو الى أمة من الامم كذب ظاهر . فان المغيث هو فاعل الاغاثة ومحدثها لا من تطلب بجاهه وحته ، ولم يقل أحد أن التوسل بشيء هو الاستغاثة به ، بل العامة الذين يتوسلون في أدعيتهم بأموار - كقول أحدهم تتوسل اليك بحق الشيخ فلان أو بحرمة أو باللوح والقلم أو بالكعبة في أدعيتهم - يعلون أنهم لا يستغيثون بهذه الامور ، وأن المستغيث بالشيء طالب منه سائل له . والمتوسل به لا يدعى ولا يطلب منه ولا يسأل وانما يطلب به : فكل أحد يفرق بين المدعو به والمدعو ، وتقدم ذلك .

فقول هذا الزائع : والنبي صلى الله عليه وسلم مستغاث والغوث منه نسبيا وكسبا .

(فيقال) نعم هذا معتقد من يعبد الانبياء والصالحين ويستغيث بهم ، يقول هم سببي وواسطتي ، يحصلون لي بكسبهم ، والله هو الخائق ولا ادعي غير ذلك ، ولا نازع في الخلق والربوبية الا فرعون ، والذي حاج ابراهيم في ربه ، وجسهور المشركين على الاول كما تقدم تقريره فبطل تعليله .

(وأما قوله) ولا يعارض ذلك خبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم الخ لأن في سنه ابن لهيعة والكلام فيه مشهور .

(فيقال) ابن لهيعة خرج له البخاري ومسلم فجاوز القنطرة ، ولا يقدر فيها رواه ابن لهيعة الا جاهل بالصناعة والاصطلاح ، وهو قاضي مصر وعالمها ومسندها ، روي عن عطاء ابن أبي رباح ، والاعرج ، وعكرمة ، وخلق ، وعنه روي شعبة ابن الحجاج أمير المؤمنين في الحديث . وعمرو بن الحارث ، والليث بن سعد ، وابن وهب وخلق ، ومن طعن في ابن لهيعة بقول بعض الناس فيه لزمه الطعن في كثير من الاكابر المحدثين ، كسعيد المقبري ، وسعيد بن أياس الجريري ، وسعيد بن أبي عروبة ، واسماعيل بن أبان ، وأزهر بن سعد السنان البصري ، وأحمد بن صالح المصري ، وأبو اليمان ، وأمثالهم ممن خرج له البخاري وغيره من الأئمة .

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد

(وأما قوله) وبفرض صحته فهو على حد قوله تعالى : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وقوله صلى الله عليه وسلم : (ما أنا حلتكم ولكن الله حلتكم) وهذا من نوادر جهل هؤلاء الضلال ، فإن لفظ الاستغائة طلب الغوث من هو بيده لمن أصابته شدة ووقع في كرب ، والأنجح والاولى لمن أصابه ذلك أن يستغيث بمن يجيب المضطر إذا دعاه انوصوف بأنه غياث المسغيثين مجيب المضطرين أرحم الراحمين ، فلفظ الاستغائة يستعمل في مخ العبادة وما لا يقدر عليه الا الله عالم الغيب والشهادة ، فكره صلى الله عليه وسلم اطلاقه عليه فيما يستطيعه ويقدر عليه -حماية لحمى التوحيد ، وسدا لذريعة الشرك ، وان كان يجوز اطلاقه فيما يقدر عليه المخلوق فحماية جانب التوحيد من مقاصد الرسول ومن فواعد هذه الشريعة المطهرة ، فأين هذا من قوله : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) (١) فإن الرمي المنفي هو ايصال مارمى به الى أعين المشركين جملتهم ، وهزيتهم بذلك ، والرمي المثبت ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من رمي ما أخذ بكفه الشريفة من التراب واستقبال وجوه العدو به .

(وأما قوله) وكثيرا ما تجيء السنة بنحو هذا من بيان حقيقة العلم ويجيء القرآن من اضافة الفعل الى مكنسبه ، كقوله صلى الله عليه وسلم : (لن يدخل أحد الجنة بعمله) مع قوله تعالى (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) فالامر ليس كما توهمه هذا الزائف ، فإن الباء في الحديث باء المعاوضة والمبادلة : وفي الآية هسي باء السببية لا باء المعاوضة ، فالمنفي غير المثبت كما نص عليه أهل العلم وأهل التفسير ، وكل فاضل وعارف بصير ، نعوذ بالله من القول على الله وعلى كتابه بغير علم ولا سلطان منير .

(وأما قوله) ان اطلاق لفظ الاستغائة لمن يحصل منه غوث ولو تسببا أمر معلوم لاشك فيه لغة ولا شرعا (فقد) تقدم كلام شيخ الاسلام في نفي الاستغائة عن من يسأل الله بجاهه وحقه وعن يدعو لغيره ، وأن من قال ذلك قد كذب على سائر اللغات والامم ، وأما من يسأل ويدعو وينادي - كما يفعله عباد القبور بمن يدعونه - فهذا يسمى استغائة ، كما يسمى عبادة لغير الله وشركا بالله ، وهذا النوع ليس

النزاع في اسمه وانما النزاع في جوازه وحله ، وأما حديث الشفاعة فهو فيما يقدر عليه البشر من الدعاء كما يسأل الحي الحاضر أن يدعو الله وأن يستسقى •

(وأما كلام الشيخ ابن تيسية) الذي نقله عن المصنفين في أساء الله فهو حجة لنا على عباد القبور ، فانهم استغاثوا بغير الله فيما لا يقدر عليه الا الله •

(وقوله) وان حصلت من غيره تعالى فهو مجاز •

(جوابه) أن الاستغاثة التي هي من جنس الاسباب العادية التي يقدر عليها المخلوق وفي وسعه ، فهذه وان حصلت من العبد فهي حقيقة لامجاز ، ولا ينازع في هذا من عرف شيئا من اللغة ، والعبد يفعل حقيقة ، فيأكل حقيقة ، ويشرب حقيقة ، ويهب حقيقة . وينصر أخاه ظالما أو مظلوما حقيقة ، والله سبحانه خلق العبد وما يعمل ، وهذا معروف من عقائد أهل السنة والجماعة ، وانما ينمي الفعل حقيقة عن فاعله ومن قام به القدريّة المجبرة الذين يرمون أن العبد مجبور ، وأنه لا اختيار له ولا مشيئة ، كما هو مبسوط في موضعه ، والغلاة صفر اليدين من هذه المباحث المهمة •

(وكذلك قوله) الاستغاثة بمعنى أن يطلب منه ما هو اللائق بمنصبه : لا ينازع فيها مسلم ، فاللائق بمنصبه الشريف أن يطلب منه ما يستطيعه ويقدر عليه ، كالدعاء وسائر الاسباب العادية ونحو ذلك ، وأما ما لا يقدر عليه الا الله كهداية القلوب ، ومغفرة الذنوب والانتاذه من النار ونحو ذلك من المطالب التي لا يقدر عليها الا الله الواحد القهار : فهذا انما يليق بمقام الربوبية ، قال تعالى : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)^(١) وقال : (وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ)^(٢) وقال تعالى : (أَفَأَنْتَ تَنْقِذُ مِنَ النَّارِ)^(٣) وقال تعالى : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)^(٤) وقال رجل : أتوب الى الله ولا أتوب الى محمد ، فقال صلى الله عليه وسلم : (عرف الحق لأهله)

(وأما قوله) وقد ذكر المجوزون أن جعل النبي صلى الله عليه وسلم متسببا

لا مانع من ذلك شرعا وعقلا •

(فيقال) هذه العبارة ركيكة التركيب ، والمجوزون للاستغاثة بغير الله فيما

(١) الفصص : ٥٧ (٢) آل عمران : ١٣٦ (٣) الزمر : ٢٠ (٤) آل عمران : ١٢٩

لا يقدر عليه الا الله هم خصومنا فلا حجة في كلامهم ، بل الشرع والعقل يرد مذهبهم ويبيظه كما مر تقريره عن ابن القيم . وأما الاسباب العادية فانها قد تجب ، وقد تستحب ، وقد تباح . وقد تكره . وليس الكلام فيها والمستغث بغير الله فيما لا يقدر عليه الا الله لا ينجيه مجرد اعتقاده أن ذلك بأذن الله . بل لا بد من اخلاص الدعاء والاستغاثة . ودعاء المستغث من أجل العبادات فيجب اخلاصه لله .
 (وقول الغلاة) ومن أقر بالكرامة وانها بأذن الله لم يجد بدا من اعترافه بجواز ذلك .

(فيقال) بل البد والسعة واليسر في القول بأنه لا يستغاث بالمخلوق فيما يختص بالخالق . ولو كان المخلوق قد ثبت له من الكرامة ما ثبت فالكرامة فعل الله لا فعل غيره ، والمستغاث هو الله لا غيره . ولم يكن الصحابة يستغيثون ويسألون من ظهرت له كرامة أو حصلت له خارقة من الخوارق . فهذا الكلام الذي قاله الغلاة جهل مركب يليق بقائله ، وكل اناء بالذي فيه ينضح .

(وأما قوله) والاحبار النبوية قد عاضدته . والآثار قد ساعدته : فبالوقوف على ما مر من كلامنا تعرف أن الاخبار النبوية قد عارضته وما عاضدته ، بل أبطلته والآثار السلفية قد ردت وما ساعدته .

(وأما قوله) ومن جعل الله فيه قدرة كاسبة للفعل مع اعتقاده أن الله هو الخالق كيف يمتنع عليه طلب ذلك الشيء ؟

(فجوابه) أن الله لم يجعل المعباد قدرة على ما يختص به من الاغاثة المطلقة . وأما الاغاثة بالاسباب العادية وما هو في طوق البشر وقدرتهم فهذا ليس الكلام فيه ، والاموات لا قدرة لهم على الاسباب العادية ، وما يطاب من الحي الحاضر ، فما هنا ليس من ذلك القليل ، وما يستوي الاحياء ولا الاموات ، وقد يجعل الله للعبد قدرة على بعض الاشياء ويمنع من سؤاله وطلبه ، وفي الحديث : (لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله وليس على وجهه مزعة لحم) وفيه : (من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشا أو خموشا في وجهه) فهذا له قدرة ، وقد منع السائل الغني من سؤاله ، بل والسحرة جعل الله لهم قدرة على أنواع السحر والشعوذة وسؤالهم ذلك من أكبر الكبائر ، فبطل قول هذا الزائف أن من جعل الله له قدرة لا مانع من سؤاله ، وكون الله قد قرب أنبيائه ورسله وأوجب على العباد برهم

وتعظيمهم لا يقتضي ذلك أن يستغاث بهم أو يطلب منهم ما لا يقدر عليه أحد إلا الله .
 والتعظيم اللائق بمناصبهم ليس من هذا الجنس . بل تعظيمهم محبتهم وطاقاتهم
 وتعزيرهم وتوقيرهم ، والاتقناء بيديهم ، والاخذ بما جاؤا به ، وعباد القبور تركوا
 هذا التعظيم الواجب ، وعظموهم بالاستغاثة والعبادة ، والذبح والنذر ، من جنس
 تعظيم أهل الكتاب لانبيائهم ورهبانهم وأحبارهم ، وهذا الزائغ — من جهله — يدعو
 الناس الى طريقة الغلاة من أهل الكتاب ، ويعرض عما جاءت به الرسل ، ويصد عن
 السنة والكتاب ، قال تعالى : (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الَّذِينَ لَا
 يَعْقِلُونَ) (١) .

(وأما قوله) وقد خلق الله فيه قوة كاسية : فإن أراد القوة العادية البشرية
 الانسانية فليس النزاع في هذا ، وإن أراد ما يعتقده عباد القبور في معبوداتهم من
 الصالحين وغيرهم وإن لهم قدرة على اجابة المضطر واغاثة الملهوف وقضاء حوائج
 السائلين فهذا شرك في الربوبية لم يبلغه شرك المشركين من أهل الجاهلية ، بل هو قول
 غلاة المشركين الذين يرون لألئهم تصرفا وتدبيرا ، وإن أراد أنهم يدعون ويسألون
 ويستغاث بهم ، الله يعطي لأجلهم : فهذا هو قول الجاهلية من الاميين والكتابين ،
 وتقدمت الآيات الدالة على ذلك ، وتقدم ما حكاها الشيخ من قول النصارى يا والدة
 الاله اشفعي لنا الى الاله (٢) فهم طلبوا منها الشفاعة والجاه ليس الا ، وهذا من
 كفرهم وشركهم مع ما هم عليه من القول في عيسى وأمه قاتلهم الله ، فإن كان هذا
 الزائغ أراد هذا الثاني فهو شرك غليظ ، وقد تقدم له التصريح بذلك وعبارته هنا
 توهم الاول ، وهو الغالب على عباد القبور في هذه الازمان ، نسأل الله العفو
 والعافية .

وأما كون الاولياء والصالحين في حال مناتهم كحال حياتهم يدعون لمن قصدهم
 ويتسببون في انقاذه فهذا جهل عظيم ، وقول على الله بلا علم ، لم يرد به كتاب ولا
 سنة ، ولا قاله ولا فعله أحد يعتد به ويقتدي به من أهل العلم والايان ، وقد مضت
 القرون الثلاثة المفضلة ولم يعهد عن أحد منهم أنه قال ذلك أو فعله ، وعندهم أشرف
 القبور على الاطلاق ولم يعرف عن أحد منهم أنه سأل الرسول صلى الله عليه وسلم
 أو دعاه ولا غيره من الصالحين ، وخبر العتبي سيأتي الكلام عليه وإن فاعل ذلك

(١) الانفال : ٢٢ (٢) هنا لم يتقدم شيء ، والكلام منقول من (المناهج) كما أشار اليه المؤلف آنفا .

اعرابي ليس مما يقتدى به ويحتج بقوله ، وان كان بعض المتأخرين احتج بحكاية
الاعرابي فهو احتجاج مدخول ، وقد نازعهم من هو أقدم منهم وأجل من الاكابر
والفحول .

وأما قوله في قوله تعالى : (فَأَسْتَغَاثُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ)
فان قال قائل هذا في الحي وله قدرة ، قلنا : لا يجوز نسبة الافعال الى أحد
حي أو ميت على أنه الفاعل استقلالاً من دون الله ، فهذا الكلام أورده بناء على أن
النزاع في دعوى الاستقلال ، وبزعمه أنه اذا لم يعتقد الاستقلال فالاسباب العادية
كغيرها ، ودعاء الاموات والغائبين يجوز عنده اذا لم يعتقد الاستقلال ، هذه دعواه
كررها مرارا واحتج بها ، والدعوى تحتاج لدليل لاتصلح هي دليلاً ، لاسيما هذه
الدعوى الضالة الكاذبة الخاطئة ، والله سبحانه حكى استغاثة المخلوق الحي الحاضر
فيما يقدر عليه من نصره على عدوه ، وهذا جائز لانزاع فيه ، واعتقاد الاستقلال من
دون الله وأن العبد يخلق أفعال نفسه هذه مسألة أخرى لم يقل بها الا قدرية النفاة ،
والناس مختلفون في تكفيرهم بهذا القول .

(وبالجملة) فالنزاع في غير هذه المسألة ، وانما هو في دعاء الاموات والغائبين،
وان لم يستقل بذلك المطلوب من دون الله .
(وأما قوله) وقد جعل الله الاغاثة في غيره : فهو قول ركيك فاسد المعنى ، فان
الله لم يجعل الاغاثة في غيره ، بل هو المعيث على الاملاق ، وانما جعل لعباده عملاً
وكسباً في فرد جزئي مما يستطيعه العبد ويكون في قدرته ، وعبارة الزائع في غاية
البشاعة .

(وأما قوله) فلهذا نفى النبي صلى الله عليه وسلم الاغاثة كما تقدم حيث قال
إنه لا يستغاث الا بالله : فليس النبي لما ذكره الزائع ، فان المخاطبين يعلمون أن الله
خالق أفعال العباد ، وانما نفى الاستغاثة عنه حماية للتوحيد وصيانة لجانبه ، كما
قال لمن قال له : أنت سيدنا وابن سيدنا (السيد الله ، انما أنا عبد فقولوا عبد الله
ورسوله) ولو كان كما زعم الزائع لنفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل فعل
وكل قول صدر منه ، لأنه لا يفعله استقلالاً ، قال الله تعالى (والله خلقكم وما تعملون)
والزائع قد خاض فيما لا يدره وما هو أجنبى عنه ، فالحد في الالفاظ النبوية وحرفها
وكابر الحس والمعقول ، والمنفي في الحديث الاستغاثة لا الاغاثة ، وأظن المعترض
لا يفرق بينهما .

(الكلام على شبه الخصم وابطالها)

(الشبهة الاولى) ما أورده ابن حجر في (الجوهر المنظم) والسبكي في كتابه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : لما اقترف آدم الخطيئة قال يارب أسألك بسحمد صلى الله عليه وسلم الا ما غفرت لي ، قال الله : يا آدم كيف عرفت محمدا ولم أخلقه ؟ قال يارب لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا اله الا الله محمد رسول الله فعلت أنك لم تضيف الي اسك الا أحب الخلق اليك ، فقال له الله صدقت يا آدم : انه لأحب الخلق الي ، واذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك ، والمراد بحقه صلى الله عليه وسلم رتبته ومنزله لديه تعالى ، أو الحق الذي جعله الله سبحانه وتعالى له على الخلق ، أو الحق الذي جعله الله تعالى بفضله له عليه الخ .

(الجواب) أن يقال : هذا الحديث لا أصل له ، بل الثابت عند أهل العلم والمفسرين أن قوله تعالى : (فتلقى آدم من ربه كلماتٍ فتتاب عليه إنه هو التواب الرحيم)^(١) نزل في توبة آدم ، وهذه الكلمات هي المفسرة بقوله تعالى : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)^(٢) وهذا مروى عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وأبي العالية ، والربيع بن أنس ، والحسن ، وقتادة ، ومحمد بن كعب القرظي ، وخالد بن معدان ، وعطاء الخراساني ، وعبد الرحمن بن يزيد ، وعن ابن عباس قال علم شأن الحج ، وعن عبيد بن عمير أنه قال قال آدم يارب خطيئتي التي أخطأت شيء كتبت علي قبل أن تخلقني أو شيء ابتدعته من قبل نفسي ؟ قال : بل كتبت عليك قبل أن أخلقك ، قال : فكما كتبت علي فاغفره لي فذلك قوله : (فتلقى آدم من ربه كلمات) وعن ابن عباس قال آدم عليه السلام ألم تخلقني بيدك قيل له بلى ، ونفخت في من روحك قيل له بلى ، وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك قيل بلى ، وكتبت علي أن أعمل هذا قيل له بلى ، قال أفرأيت إن تبت هل أنت راجعي الى الجنة قال نعم ، وكذا رواه العوفي وسعيد بن جبير وسعيد بن معبد ، ورواه الحاكم في مستدركه الى ابن عباس ، وروى ابن أبي حاتم حديثا مرفوعا شبيها بهذا ، وعن مجاهد قال الكلمات : اللهم لا اله الا أنت سبحانك

(١) البقرة : ٢٧ (٢) الاعراف : ٢٣

وبحمدك ربي اني ظلمت نفسي فاغفر لي انك خير الغافرين . اللهم لا اله الا أنت سبحانك
وبحمدك اني ظلمت نفسي فاغفر لي انك خير الراحمين . اللهم لا اله الا أنت سبحانك
وبحمدك رب اني ظلمت نفسي فنب علي انك أنت التواب الرحيم . هذا ما عليه المفسرون
لا ماقاله الغلاة ، فان كان بعض من لا بصيرة له قد ذكره فالحجة فينا ثبتت عن الصحابة
وعن سلف الامة وأئمتها ، ولا يجوز تفسير القرآن بقول شاذة أو موضوعة لاثبت
عند أهل العلم والحديث وأئمة التصحيح والترجيح ، وما روي ابن حبيد الرازي
الحكاية المنسوبة الى مالك رحمه الله مع أبي جعفر المنصور - وفيها أنه سأل مالكا
فقال يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟
فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام الى الله
يوم القيامة بل استقبله واستشفع به - فرد الحفاظ على ابن حبيد هذه الحكاية ؟
وذكروا أن اسنادها مظلم منقطع ، مشتتل على من يتهم بالكذب ، وقالوا ابن حبيد
كثير المناكير ، ولم يسمع من مالك شيئا ، بل روايته عنه منقطعة ، ومحمد بن حبيد
الرازي هذا تكلم فيه غير واحد من الأئمة ونسبه بعضهم الى الكذب .

(الشبهة الثانية) أن رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادع
الله لي أن يعافيني ، فقال : (إن شئت دعوت وإن شئت صبرت وهو خير لك الى أن
قال : فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : اللهم اني أسألك وأتوجه
اليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة ، يا محمد اني أتوجه بك الى ربي
في قضاء حاجتي لتقضي لي ، اللهم شفعه فيّ ، فقام وقد أبصر الخ) .

(والجواب) ما ذكره بعض أهل الحديث حيث قال : اعلم أن الجواب عنه يعلم
من تأمل معناه ، فقوله : اللهم اني أسألك أي أطلب منك وأتوجه اليك بنبيك محمد
صرح باسمه مع ورود النهي عن ذلك توائسعا منه صلى الله عليه وسلم لكون التعليم
من قبله ، وفي ذلك قصر السؤال الذي هو أصل الدعاء على الله الملك المتعال ، ولكنه
توسل بالنبي أي بدعائه ، ولذا قال في آخره : اللهم شفعه فيّ ، إذ شفاعته لا تكون
الا بالدعاء لربه قطعاً ، ولو كان المراد التوسل بذاته فقط لم يكن لذلك التعقيب
معنى ، إذ التوسل بقوله بنبيك كاف في افادة هذا المعنى ، فقوله : يا محمد اني
توجهت بك الى ربي قال الطيبي : الباء في بك للاستعانة ، وقوله اني توجهت بك
بعد قوله اليك فيه معنى قوله : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

فيكون خطابا لحاضر معين في قلبه مرتبط بما توجه به عند ربه من سؤال سبه بدئائه الذي هو عين شفاعته ، ولذلك أتى بالصيغة الماضيية بعد الصيغة الماضيية المبيدكل ذلك أن هذا الداعي قد توسل بشفاعة نبيه في دعائه ، فكأنه استحضره وقت ندائه ، ومثل ذلك كثير في المقامات الخطابية والقرائن الاعتبارية ، فقوله في حاشي هذه تتضي لي أي ليقضيها لي ربي بشفاعته في أي دعائه . وذلك مشروع مأمور به . فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يذنبون منه الدعاء وكان يدعو لهم . وكذلك يجوز الآن أن تأتي رجلا صالحا فتطلب منه الدعاء لك بل يجوز للأعلى أن يطلب من الأدنى الدعاء له كما طلب النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء من عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عمرته . بأن قال لا تسد يا أخي من دعائك ، قال عمر رضي الله عنه : ما يسرني بيا حمر النعم .

قال المناوي : سأل الله أولا أن يادن لنبيه أن يشفع له . ثم أقبل على النبي ملتسما بشفاعته له ، ثم كر مقبلا على ربه أن يقبل شفاعته ، والباء في بنيك للتعدية وفي بك للاستعانة ، وقوله : اللهم فشفعه في أي قبل شفاعته في حقي ، والعطف علي مقدر أي اجعله شفيعا لي فشفعه . وكل هذه المعاني دالة على وجود شفاعته بذلك ، وهو دعاؤه صلى الله عليه وسلم بكشف عاهته ، وليس ذلك بمحظور : غاية الأمر أنه حوسل من غير دعاء ، بل هو نداء لحاضر . والدعاء أخص من النداء ، إذ هو نداء عبادة شاملة للسؤال بما لا يقدر عليه الا الله ، وانا المحظور السؤال بالذوات لامطلقا بل على معنى أنهم وسائل لله بذواتهم ، وأما كونهم وسائل بدعائهم فغير محظور ، وإذا اعتقد أنهم وسائل لله بذواتهم فسأل منهم الشفاعة للتقرب اليهم فذلك عين ماكان عليه المشركون الاولون .

وأما ورود هذا الحديث عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه في زمن عثمان ففي سند مقال فكيف يعارض به جميع كتب الله وسنة رسوله وعمل أصحابه ، وهل سمعت أحدا منهم جاء اليه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته الى قبره الشريف فطلب منه مالا يقدر عليه الا الله ؟ وهم حريصون على مثل هذه المثوبات لاسيما والنفس مولعة بقضاء حوائجها تتشبث بكل ماتقدر عليه ، فلو صح عند أحدهم أدنى شيء من ذلك لرأيت أصحابه يتناوبون قبره الشريف في حوائجهم زمرا زمرا ، ومثل ذلك تتوفر الدواعي على نقله ولا وسع الله طريقا لم يتسع للصحابة والتابعين وصلحاء علماء الدين .

(الشبهة الثالثة) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توسل بالعباس رضي الله عنه في الاستسقاء ولم ينكر عليه ، وكان حكمة توسله به دون النبي صلى الله عليه وسلم وقبره اظهار غاية التواضع لنفسه والرفعة لقرابته صلى الله عليه وسلم . ففي توسله بالعباس توسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وزيادة الخ .

(والجواب) أن المراد من التوسل الدعاء لهم . يدل عليه ثبوت دعائه لهم بطلب السقيا كما جاءت به بقية الروايات ، وهذا المعنى هو الذي عناه الفقهاء في كتبهم ومرادهم التوجه الى الله بدعاء الصالحين بأن يدعوا لهم ، ولو كان التوسل بالذوات هو المطلوب والمدلول الذي أقاموا عليه الدليل - وهم بمقتضى دليلهم لا يحصون الاحياء بهذا التوسل ، ويستحبون التوسل بالذوات الشريفة ، ولو بدعائهم ودعائهم كما مر تقريره من دليلهم ، وأنه على معنى أن انتفعوا يدعون لهم ، وقالوا لا مانع من ذلك عقلا وشرعا فانهم أحياء في قبورهم - لكان التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الامر المهم وهم عنده بالمدينة أولى ، ولكان قولهم - كما في رواية البخاري أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس ، وقال اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا اليك بنبيك فتسقيننا وأنا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا ، فيسقون - عبثا ضائعا ، بل مخرابا يقولون ويدعون ، بل هو أقوى الأدلة وأرجحها وأعلاها وأوثقها وأصدقها لما ندعيه ، فإن قول عمر اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا الخ يدل دلالة ظاهرة على انقطاع ذلك الذي هو الدعاء بدليل قوله إنا كنا ، ولما كان العباس حيا طلبوه منه فلما مات فات ، فقصرهم له على الموجودين ولو كانوا مفضولين دليل ساطع وبرهان لامع على هذا المراد ، ولو كان المقصود الذوات كما يقولون لبقيت هذه التوسلات عندهم على حالها لم تتغير ولم تبدل الى المفضولين بعد وجود الفاضلين ، سيما الانبياء والمرسلين ، فتأمل في هذا فإنه أحسن ما في هذه الاوراق ، حقيق بأن يضرب عليه رواق الاتفاق ، والله يهديك السبيل فهو نعم المولى ونعم الوكيل .

وأما باقي الشبه التي أوردها النبهاني من كلام أسلافه الغلاة : فمنها ما لا يمس مقصودنا ، ومنها أحاديث لا تخلو عن ضعف أو كذب راوٍ أو غير ذلك مما يسع العمل بموجبه كما ذكره من رد عليهم ، ولو نظرت إليها بعين الايمان وجدت آثارا نوضح لائحة عليها ، وأحوال الصحابة وأعمالهم تدل على أنهم غير معترفين بما فيها ، ولو كان عندهم من ذلك أدنى رائحة لجأوا الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم في جميع ما ينوبهم على الرواحل ، وتركوا عند ذلك جميع المشاغل .

(ذكر شبه أخرى للجوزين للاستغاثة وابطالها)

لم يزل خصوم أهل الحق في كل عصر يسعون في تأييد باطلهم ويستندون الى شبه هي أو هي من بيت العنكبوت وأنها لمن أو هن اليسوت ، ويتشبهون لترويج باطلهم حتى بجبال القمر ، وقد رأيت رسالة مختصرة صنفها العلامة أبو عبد الله الشيخ محمد رحمه الله سماها (كشف الشبهات) أودعها نبذة من ذلك ، وهي على اختصارها نافعة جدا لطالب الحق فأحببت ايراد شيء منها اتماما للفائدة ، قال رحمه الله :

(اعلم أن الله سبحانه من حكمته لم يبعث نبيا بهذا التوحيد الا جعل له أعداء ، كما قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الأنس والجن يُوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا)^(١) وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة وكتب وحجج ، كما قال تعالى : (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم)^(٢) اذا عرفت ذلك وعرفت أن الطريق الى الله تعالى لا بد له من أعداء أهل فصاحة وعلم وحجج ، فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يكون لك سلاحا تقاقل به هؤلاء الشياطين الذين قال امامهم ومقدمهم لربك عز وجل : (لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لا آتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم)^(٣) ولكنك اذا أقبلت على الله تعالى وأصنيت الى حججه وبياناته فلا تخف ان كيد الشيطان كان ضعيفا ، والعامي من الموحدين يغلب الفا من خصومه بأذن الله ، كما قال تعالى : (وإن جندنا لهم الغالبون)^(٤) فجدد الله هم الغالبون بالحجة والبيان كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان ، وانما الخوف على الموحّد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح ، وقد من الله تعالى علينا بكتابه الذي جعله تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ، فلا يأتي صاحب باطل بحجة الا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها ، كما قال تعالى : (ولا يأتوك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا)^(٥) قال بعض المفسرين هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل الى يوم القيامة .

(١) الانعام : ١١٢ (٢) غافر : ٨٣ (٣) الاعراف : ١٦ < ١٧ (٤) الصافات : ١٧٢ (٥) الفرقان : ٢٣

وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله تعالى في كتابه جوابا لكلام احتج به خصوم أهل الحق في زماننا هذا علينا ، فنقول : ان جواب أهل الباطل من طريقتين : مجمل ومفصل .

(أما المجمل) فهو الامر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها ، وذلك قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرٌ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدَ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)^(١) وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم) .

(مثال ذلك) اذا قال لك بعض الخصوم : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)^(٢) وأن الشفاعة حق ، وأن الانبياء عليهم السلام لهم جاه عند الله ، أو ذكر كلاما للنبي صلى الله عليه وسلم يستدل به على شيء من بطله . فأجبه بقولك : إن الله تعالى ذكر أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه . وأن الله تعالى ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية ، وأنه كفرهم بتعلقهم على الملائكة والانبيا والاولياء ، مع أنهم قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فهذا أمر محكم بين لا يقدر أحد أن يغير معناه ، وما ذكرت لي أيها الخصم من الكتاب الكريم أو كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا أعرف معناه . ولكن أقطع أن كلام الله تعالى لا يتناقض وأن كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا يخالف كلام الله .

(وهذا جواب سديد) ولكن لا يفهمه الا من وفقه الله تعالى ، فلا تستهونه ، فانه كما قال تعالى : (وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم)^(٣)

(وأما الجواب المفصل) فان أعداء الحق لهم اعتراضات كثيرة يصدون بها الناس :

(١) آل عمران : ٧ (٢) يونس : ٦٢ (٣) فصلت : ٢٥

(منها) قولهم نحن لا نترك بالله بل نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر الا الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم لا يسلك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلا عن غيره ، ولكن أنا مذنب والصالحون لهم جاه عند الله واطلب من الله بهم •

(فأجبه) أن الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مقرين بسا ذكرت ، ومقرين أن أوثانهم لا تدبر شيئا وانما أرادوا الجاه والشفاعة ، وقرأ عليه ما ذكر الله في كتابه ووضحه له ، فان قال : إن هذه الآيات نزلت فيمن يعبد الاصنام فكيف تجعلون الصالحين أصناما ، فأجبه بأنه اذا أقر أن الكفار كانوا يشهدون بالربوبية كلها لله وأنهم ما أرادوا من قصدوا الا الشفاعة ، واذا أراد أن يفرق بين فعلهم وفعله بما ذكر فاذكر له أن الكفار منهم من كان يدعو الصالحين والاصنام ، ومنهم من كان يدعو الاولياء الذين قال الله فيهم : (اولئك الَّذِينَ يَدْعُونَ يَدْعُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ)^(١) وقال تعالى : (ما المسيحُ ابنُ مريمَ إلاَّ رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسلُ وأمهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ)^(٢) واذكر قوله تعالى : (ويومَ يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤ لاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت وليُّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ)^(٣)

فقل له : أعرفت أن الله تعالى كفر من قصد الاصنام ، وكفر أيضا من قصد الصالحين ، وقاتلهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؟

فان قال : ان الكفار يريدون منهم ، وأنا أشهد أن الله تعالى هو النافع الضار المدبر لا أريد الا منه ، والصالحون ليس لهم من الامر شيء ولكني بقصدهم أرجو من الله تعالى شفاعتهم •

(١) الاسراء : ٥٧ (٢) المائدة : ٧٥ (٣) سبا : ٤٠ ، ٤١

فأجبه أن هذا قول الكفار سواء بسواء ، فاقراً عليه قوله تعالى : (ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)^(١) وقوله تعالى : (هُوَ لَأَسْرَعُ)^(٢)

(واعلم) أن هذه الشبه الثلاث هي أكبر ما عندهم ، فإذا عرفت أن الله تعالى وضحها في كتابه وفهمتها فهما جيداً فما بعدها أيسر منها .

(فان قال) أنا لأعبد إلا الله والالتجاء الى الصالحين ودعوتهم ليس بعبادة ، فقل له : أنت تقرر أن الله تعالى فرض عليك اخلاص العبادة وهو حقه عليك ؟ فإذا قال : نعم ، فقل له : بين لي هذا الذي فرض عليك وهو اخلاص العبادة لله وحده وهو حقه عليك ، فانه لا يعرف العبادة ولا أنواعها فينبغي له بقولك قال الله تعالى : (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)^(٣) إذا علمت بهذا هل هو عبادة فلا بد أن يقول نعم والدعاء مخ العبادة ، فقل له : إذا أقررت أنها عبادة ودعوت الله ليلاً ونهاراً خوفاً وطمعاً ، ثم دعوت في تلك الحاجة نيباً أو غيره هل أشركت في عبادة الله غيره . إذ قال الله تعالى : (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) وأطعت الله ونحرت له ؟ فلا بد أن يقول نعم ، فقل له : إذا نحرت لمخلوق نبي أو جني أو غيره هل أشركت في هذه العبادة غير الله تعالى ؟ فلا بد أن يقر ويقول نعم .

(وقل له أيضاً) ان المشركين الذين نزل فيهم القرآن هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات والعزى وغير ذلك ؟ فلا بد أن يقول نعم : فقل له : وهل كانت عبادتهم إياهم الا في الدعاء والذبح والالتماء ونحو ذلك ، والا فهم مقسرون أنهم عبيد لله تحت قهره ، وان الله تعالى هو الذي يدبر الامر ولكن دعوتهم والتجوا اليهم للجاء والشفاعة وهذا ظاهر جدا .

فان قال : أتتكر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ منها ؟ فقل له : لا أنكرها ولا أتبرأ منها ، بل هو صلى الله تعالى عليه وسلم الشافع المشفع وأرجو شفاعته ، لكن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى : (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا)^(٤) ولا تكون الا من بعد اذنه سبحانه ، كما قال عز وجل : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)^(٥) ولا يشفع لأحد الا من بعد أن يأذن الله فيه ، كما قال جل جلاله ولا يشفعون

(١) الزمر : ٣ (٤) يونس : ١٨ (٢) الاعراف : ٥٥ (٣) الزمر : ٤٤ (٥) البقرة : ٢٥٥

إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى (١) وهو لا يرضى إلا التوحيد ، كما قال تعالى : (وَمَنْ يُتَّبِعْ غَيْرَ
الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (٢)

فاذا كانت الشفاعة كلها لله ولا تكون الا بعد اذنه ولا يشفع النبي صلى الله عليه وسلم ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه ولا يأذن الا لأهل التوحيد : تبين أن الشفاعة كلها لله ، واطلبها منه وأقول اللهم لاتحرمني شفاعته ، اللهم شفعه في ، وأمثال هذا .

(فان قال) إن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى الشفاعة وأنا أطلب مما أعطاه الله (فقل له) ان الله تعالى أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا ، وقال : افلا تدعوا مع الله أَحَدًا (٣) وأيضا فان الشفاعة أعطيها غير النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد صح أن الملائكة يشفعون والاولياء يشفعون ، أنقول ان الله أعطاهم الشفاعة وأنا أطلبها منهم ؟ فان قلت هذا رجعت الى عبادة الصالحين التي ذكرها الله تعالى في كتابه وان قلت لا بطل قولك ان الله تعالى أعطاه الشفاعة وأنا أطلب مما أعطاه الله .

(فان قال) أنا لا أشرك بالله شيئا حاشا وكلا والالتجاء الى الصالحين ليس بشرك (فقل له) إذا كنت تقر أن الله تعالى قد حرم الشرك أعظم من تحريمه الزنا ، وتقر أن الله لا يغفره ، فما هذا الامر الذي عظمه الله وذكر أنه لا يغفره ؟ فانه لا يدري (فقل له) كيف تبريء نفسك من الشرك وأنت لاتعرفه ؟ أم كيف يحرم الله عليك هذا ويذكر أنه لا يغفره ولا تسأل عنه ولا تعرفه ؟ أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا (فان قال) الشرك عبادة الاصنام ونحن لانعبد الاصنام (فقل له) مامعنى عبادة الاصنام أتظن أنهم كانوا يعتقدون أن تلك الاخشاب والاحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها ؟ فهذا يكذبه القرآن (وإن قال) هو قصد خشبة أو حجر أو بنية على قبر أو غيره يدعون ذلك ويدبحون له ويقولون انه يقربنا الى الله زلفى ويدفع عنا ببركته ، (فقل) له صدقت وهذا هو فعلكم عند الاحجار ، والابنية التي على القبور وغيرها ، فهذا قد أقر أن فعلهم هذا هو عبادة الاصنام .

(ويقال له أيضا) قولك الشرك عبادة الاصنام هل مرادك أن الشرك مخصوص

(١) الانبياء : ٢٨ (٢) آل عمران : ٨٥ (٣) الجن : ١٨

بهذا وأن الاعتماد على الصالحين ودعائهم لا يدخل في هذا؟ فهذا يردده ما ذكره الله تعالى في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة وعيسى والصالحين ، فلا بد أن يقر لك أن من أشرك في عبادة الله أحدا من الصالحين فهو الشرك المطلوب في القرآن وهذا هو المطلوب •

(وسر المسألة) أنه اذا قال لك أنا لأشرك بالله ، فقل له وما الشرك بالله فسر له ، فان قال هو عبادة الاصنام فقل له وما معنى عبادة الاصنام فسر لها لي ، فان فسرها بما بينه القرآن فهو المطلوب ، وان لم يعرفه فكيف يدعي شيئا وهو لا يعرفه وان فسرك ذلك بغير معناه فبين له الآية الواضحة في معنى الشرك بالله وعبادة الاوثان مما يفعل في هذا الزمان بعينه ، وأن عبادة الله وحده لا شريك له هي التي ينكرون عليها و يصحون كما صاح اخوانهم ، حث قالوا : أحعل الآلهة لها واحد ان هذا

بهذا وأن الاعتماد على الصالحين ودعائهم لا يدخل في هذا ؟ فهذا يردده ما ذكره الله تعالى في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة وعيسى والصالحين ، فلا بد أن يقر لك أن من أشرك في عبادة الله أحدا من الصالحين فهو الشرك المطلوب في القرآن وهذا هو المطلوب •

(وسر المسألة) أنه اذا قال لك أنا لأشرك بالله ، فقل له وما الشرك بالله فسر له لي ، فان قال هو عبادة الاصنام فقل له ومامعنى عبادة الاصنام فسر لها لي ، فان فسر لها بما بينه القرآن فهو المطلوب ، وان لم يعرفه فكيف يدعي شيئا وهو لا يعرفه وان فسر ذلك بغير معناه فيبين له الآية الواضحة في معنى الشرك بالله وعبادة الاوثان مما يفعل في هذا الزمان بعينه ، وأن عبادة الله وحده لاشريك له هي التي ينكرون عليها ويصيحون كما صاح اخوانهم ، حيث قالوا : أجعل الآلهة الها واحد ان هذا لشيء عجاب •

(فاذا عرفت) أن هذا الذي يسميه خصوم الحق في وقتنا الاعتقاد هو الشرك الذي أنزل فيه القرآن ، وقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عليه ، فاعلم أن شرك الاولين أخف من شرك أهل عصرنا من وجهين •

(أحدهما) أن الاولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والاولياء والاولئان مع الله تعالى الا في الرخاء ، وأما في الشدة فيخلصون لله الدين ، كما قال تعالى :
(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّٰكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا)^(١) وقال تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ)^(٢) وقال تعالى :
(وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانُ ضُرًّا دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ) الى قوله : (قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)^(٣) وقال تعالى : (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلْمِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)^(٤) فمن فهم هذه المسألة التي أوضحها الله

(١) الاسراء : ٦٧ (٢) الانعام : ٤٠ ، ٤١ (٣) الزمر : ٨ (٤) لقمان : ٢٢

بهذا وأن الاعتماد على الصالحين ودعائهم لا يدخل في هذا ؟ فهذا يرده ما ذكره الله تعالى في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة وعيسى والصالحين ، فلا بد أن يقر لك أن من أشرك في عبادة الله أحدا من الصالحين فهو الشرك المطلوب في القرآن وهذا هو المطلوب •

(وسر المسألة) أنه اذا قال لك أنا لأشرك بالله ، فقل له وما الشرك بالله فسر له ، فان قال هو عبادة الاصنام فقل له وما معنى عبادة الاصنام فسر لها لي ، فان فسرها بما بينه القرآن فهو المطلوب ، وان لم يعرفه فكيف يدعي شيئا وهو لا يعرفه وان فسره ذلك بغير معناه فبين له الآية الواضحة في معنى الشرك بالله وعبادة الاوثان مما يفعل في هذا الزمان بعينه ، وأن عبادة الله وحده لا شريك له هي التي ينكرون عليها ويصيحون كما صاح اخوانهم ، حيث قالوا : أجعل الآلهة الها واحد ان هذا لشيء عجاب •

(فاذا عرفت) أن هذا الذي يسميه خصوم الحق في وقتنا الاعتقاد هو الشرك الذي أنزل فيه القرآن ، وقاتل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الناس عليه ، فاعلم أن شرك الاولين أخف من شرك أهل عصرنا من وجهين •

(أحدهما) أن الاولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والاولياء والاثوان مع الله تعالى الا في الرخاء ، وأما في الشدة فيخلصون لله الدين ، كما قال تعالى :
(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ اِئْتَدَّبْتُمْ وَكُنَ الْإِنسَانُ كَفُورًا)^(١) وقال تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ إِلَٰهَهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ)^(٢) وقال تعالى :
(وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانُ ضُرًّا دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ) الى قوله : (قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)^(٣) وقال تعالى : (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلْمِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)^(٤) فمن فهم هذه المسألة التي أوضحها الله

(١) الاسراء : ٦٧ (٢) الانعام : ٤٠ ، ٤١ (٣) الزمر : ٨ (٤) لقمان : ٢٢

تعالى في كتابه ، وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعون الله ويدعون غيره في الرخاء ، وأما في الضر والشدة فلا يدعون الا الله تعالى وحده لا شريك له وينسون ساداتهم : تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الاولين ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهما راسخا والله المستعان .

(والامر الثاني) أن الاولين يدعون مع الله أناسا مقرين عند الله ، إما أنبياء ، واما أولياء ، واما ملائكة ، ويدعون أشجارا وأحجارا مطيعة لله ليست عاصية ، وأهل زماننا يدعون مع الله أناسا من أفسق الناس والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك ، ومن يعتقد في الصالحين ومن يعبد مالا يعصى كالخشب والحجر أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويشهد به .

(اذا تحققت) أن الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصح عقولا وأخف شركا من هؤلاء ، فاعلم أن هؤلاء شبهة يوردونها على ما ذكرنا وهي من أعظم شبههم ، فاصغ سمعك لجوابها ، وهي أنهم يقولون أن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا اله الا الله ، ويكذبون الرسول وينكرون البعث ، ويكذبون القرآن ويجعلونه سحرا ، ونحن نشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ونصدق القرآن ونؤمن بالبعث ، ونصلي ونصوم ، فكيف تجعلوننا مثل أولئك ؟ .

(فالجواب) أنه لاخلاف بين العلماء كلهم ان الرجل اذا صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء وكذبه في شيء انه كافر لم يدخل في الاسلام ، وكذلك اذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة ، أو أقر بهذا كله وجحد الصوم أو أقر بهذا كله وجحد الحج .

ولما لم ينقد أناس في زمن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للحج أنزل الله تعالى في حقهم : (وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِّلُهَا عَلَيْكَ لَعَلَّ لَئِنْ رَدَدْتَهَا قُلُوبُ بَعْضِ الْبَشَرِ لِيَتَلْوَ كِتَابًا يَتَفَتَحُونَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُشْرُوبَةٌ كَثِيرَةٌ مِمَّا يَتَذَقُّونَ وَالَّذِينَ يَأْتُواكُم مِّنَ الْأَشْجَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ سَأَلًا أَلَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ إِذْ كَفَرُوا إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ

وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفِرُ
بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا)^(١١)
فاذا كان الله تعالى قد صرح في كتابه أن من آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقا
زالت هذه الشبهة عن قلبه .

(ويقال) إذا كنت تقرأ أن من صدق الرسول في كل شيء، وجحد وجوب الصلاة
انه كافر حلال الدم والمال بالاجماع ، وكذلك اذا أقر بكل شيء الا البعث ، وكذلك
لو جحد وجوب صوم رمضان لا يجحد هذا ولا تختلف المذاهب فيه ، وقد نطق به
القرآن كما قدمنا ، فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي صلى الله
تعالى عليه وسلم ، وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج ، فكيف اذا جحد
الانسان شيئا من هذه الامور كفر وان عمل بكل ما جاء به الرسول ، واذا جحد
التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لا يكفر ، سبحان الله ما أعجب هذا الجهل !

(ويقال أيضا) هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قاتلوا
بني حنيفة ، وقد أسلموا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم يشهدون أن
لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ويصلون ويؤذنون . فان قال : إنهم يقولون
أن مسيلة نبي ، قلنا : هذا هو المطلوب ، إذا كان من رفع رجلا في رتبة النبي صلى
الله عليه وسلم كمر وحل ماله ودمه ولم تنفعه الشهاداتان ولا الصلاة فكيف بمن رفع
وليا أو صحابيا أو نبيا في مرتبة جبار السموات والارض ، سبحان الله ما أعظم شأنه
(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)^(١٢)

(ويقال أيضا) إن الذين حرقهم علي بن أبي طالب كلهم يدعون الاسلام ، وهم
من أصحاب علي بن أبي طالب كلهم يدعون الاسلام ، وهم من أصحاب علي ، وقد
تعلموا العلم من الصحابة ، ولكن اعتقدوا في علي مثل الاعتقاد في الصلحاء ، فكيف
أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم ؟ أتظنون أن الصحابة يكفرون المسلمين ؟ أم
تظنون أن الاعتقاد في صلحاء العصر لا يضر ، والاعتقاد في علي ابن أبي طالب يكفر ؟

(ويقال أيضا) إن بني عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر أيام بني العباس
كلهم كانوا يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ويدعون الاسلام ،

(١) النساء : ١٥٠ ، ١٥١ (٢) الروم : ٦٠

ويصلون الجمعة والجماعة ، فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم ، وأن بلادهم بلاد حرب ، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين •

(ويقال أيضا) إذا كان الاولون لم يكفروا الا من جمع بين الشرك وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن وانكار البعث وغير ذلك فلهذا معنى الباب الذي ذكره الفقهاء من كل مذهب وهو باب حكم المرتد وهو المسلم الذي يكفر بعد اسلامه ؟ وذكروا أنواعا كثيرة كل نوع منها يكفر ويحل دم الرجل وماله ، حتى أنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه أو كلمة يذكرها على وجه المزح واللعب •

(ويقال أيضا) ان الذين قال تعالى فيهم (يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ)^(١) أما سمعت الله تعالى كفرهم بكلمة مَنَعَ أَنَّهُمْ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجَاهِدُونَ مَعَهُ ، وَيَصِلُونَ مَعَهُ ، وَيَزْكُونَ وَيَحْجُونَ وَيُوحِدُونَ ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : (قُلْ أَلِلَّهِ وَأَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)^(٢) فهؤلاء الذين أخبر الله تعالى عنهم أنهم كفروا بعد إيمانهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قد قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزح • فتأمل هذه الشبهة وهي قولهم تكفرون بالمسلمين أناسا يشهدون أن لا اله الا الله ويصلون ويصومون ثم تأمل جوابها فانه من أنفع ما في هذه الاوراق • (ومن الدليل على ذلك أيضا) ما حكى الله تعالى عن بني اسرائيل مع اسلامهم وعلمهم وصلاتهم أنهم قالوا لموسى : (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ هُمْ أَتَجْهَلُونَ)^(٣) وقال ناس من الصحابة اجعل لنا ذات أنواط فحلف صلى الله عليه وسلم أن هذا نظير قول بني اسرائيل اجعل لنا الها ، ولكن لخصوم الحق شبهة يدلون بها عند هذه القصة ، وهي أنهم يقولون أن بني اسرائيل لم يكفروا وكذلك الذين قالوا اجعل لنا ذات أنواط لم يكفروا •

(١) التوبة : ٧٦ (٢) التوبة : ٦٧ ، ٦٨ (٣) الاعراف : ١٢٨

(فالجواب) أن نقول : ان بني اسرائيل لم يفعلوا ذلك ، وكذلك الذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا خلاف أن بني اسرائيل لم يفعلوا ذلك ولو فعلوا ذلك لكفروا ، وكذلك لاخلاف أن الذين نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم لو لم يطيعوه واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا ، وهذا هو المطلوب •

(وهذه القصة) تفيد أن المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك وهو لا يدري ، فتفيد التعلم والتحرز ومعرفة أن قول الجاهل فهمنا التوحيد من أكبر الجهل ومن مكائيد الشيطان ، وتفيد أيضا أن المسلم المجتهد اذا تكلم بكلام كفر - وهو لا يدري - فبه على ذلك وتاب من ساعته أنه لا يكفر ، كما فعل بنو اسرائيل ، والذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وتفيد أيضا أنه لو لم يكفر فانه يغلظ عليه الكلام تغليظا شديدا كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم •

(ولخصوم الحق وأعداء الدين شبهة أخرى) وهي أنهم يقولون : أن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر على أسامة قتل من قال لا اله الا الله وقال : (أقتلته بعدما قال لا اله الا الله) وكذلك قوله : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله) الى أحاديث أخر في الكف عن قائلها ومراد هؤلاء الجهلة أن من قائلها لا يكفر ولا يقتل ولو فعل ما فعل •

(فيقال لهم) من المعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل اليهود وسألهم وهم يقولون لا اله الا الله ، وأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ويصلون ويدعون الاسلام ، وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب بالنار ، وهؤلاء الجهلة يقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا اله الا الله ، وأن من جحد شيئا من أركان الاسلام كفر وقتل ولو قائلها ، فكيف لا تنفعه اذا جحد فرعا من الفروع وتنفعه اذا جحد التوحيد الذي هو أساس دين الرسل ورأسه ، ولكن أعداء الله لم يفهموا معنى الاحاديث •

(فأما أحاديث أسامة) فانه قتل رجلا ادعى الاسلام بسبب أنه ظن أنه مادعى الاسلام الا خوفا على دمه وماله ، والرجل اذا أظهر الاسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك ، وأنزل الله تعالى في ذلك : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ

في سبيلِ اللهِ فتيِّبُوا) (١) أي تثبتوا ، فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والنسب
فاذا تبين منه بعد ذلك ما يخالف الاسلام قتل لقوله : (فتيبوا) ولو كان لا يقتل اذا
قالها لم يكن للتبثب معنى . وكذلك الاحاديث الأخر معناها ما ذكرناه ، وأن من
أظهر التوحيد والاسلام وجب الكف عنه ، الا أن يتبين منه ما يناقض ذلك •

(والدليل على هذا) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي قال :
(أقتلته بعدما قال لا اله الا الله) وقال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يتولوا لا اله
الا الله) ، وهو الذي قال في الخوارج : (أينما لقيتموهم فاقتلوهم ، لأن أدركتهم
لاقتلهم قتل عاد) مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً ، حتى أن الصحابة رضي
الله عنهم يحقرون أنفسهم عندهم ، وقد تعلموا العلم من الصحابة فلم تنفعهم كلمة
لا اله الا الله ، ولا كثرة العبادة ، ولا ادعاء الاسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة •

(وكذلك) ما ذكرناه من قتال اليهود وقاتل الصحابة رضي الله عنهم بني حنيفة •

(وكذلك) أراد صلى الله عليه وسلم أن يفزوا بني المصطلق لما أخبره رجل
منهم أنهم منعوا الزكاة حتى أنزل الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ
بنيأ فتيبوا) (٢) وكان الرجل كاذبا عليهم ، وكل هذا يدل على أن مراد النبي صلى
الله عليه وسلم بالاحاديث التي احتجوا بها ما ذكرناه •

(ولهم شبهة أخرى) وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أن الناس يوم
القيامة يستغيثون بآدم ، ثم بنوح ، ثم بإبراهيم ، ثم بموسى ، ثم بعيسى فكلهم يعتذر
حتى ينتهوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا لهذا يدل على أن الاستغاثة
بغير الله ليست شركاً •

(والجواب) أن نقول : سبحان من طبع على قلوب أعدائه ، فان الاستغاثة
بالمخلوق فيما يقدر عليه لانكرها ، كما قال تعالى في قصة موسى : (فاستغاثه الذي
من شيعته على الذي من عدوه) (٣) وكما يستغيث الانسان بأصحابه في الحرب
أو غيره في أشياء يقدر عليها المخلوق ، ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند

(١) النساء : ٩٤ (٢) الحجرات : ٧ (٣) القصص : ١٦

قبور الاولياء أو في غيبتهم في الاشياء التي لا يقدر عليها الا الله ، اذا ثبت ذلك فاستغاثتهم بالانبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعوا الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف ، وهذا جائز في الدنيا والآخرة ، مثل أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ويسمع كلامك ، تقول له ادع الله لي كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه في حياته ، وأما بعد موته فحاشا وكلا انهم لم يسألوا ذلك ، بل أنكروا السلف على من قصد دعاء الله عند قبره ، فكيف بدعائه نفسه ، صلى الله عليه وسلم .

(ولهم شبهة أخرى) وهي قصة ابراهيم عليه السلام لما ألقى في النار ، اعترض له جبريل في الهواء ، وقال له : ألك حاجة ، فقال ابراهيم عليه السلام : أما اليك فلا . قالوا فلو كانت الاستغاثة شركا لم يعرضها على ابراهيم عليه السلام .

(والجواب) أن هذا من جنس الشبهة الاولى ، فإن جبريل عليه السلام عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه ، فانه كما قال الله تعالى فيه شديد القوى ذو مرة ، فلو أذن له أن يأخذ نار ابراهيم عليه السلام وما حولها ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل ، ولو أمره الله تعالى أن يضع ابراهيم عليه السلام عنهم في مكان بعيد لفعل ، ولو أمره أن يرفعه الى السماء لفعل ، وهذا كرجل غني له مال كثير يرى رجلا محتاجا فيعرض عليه أن يقرضه أو يهبه شيئا يقضي به حاجته ، فيأبى ذلك المحتاج أن يأخذ ويصبر الى أن يأتيه الله برزق لآمنة فيه لأحد ، فأين هذا من استغاثة العباد والشرك لو كانوا يفقهون .

هذا آخر ما قصدنا نقله من كتاب (كشف الشبهات) وقد خطر لي بيتان من الشعر في قصة ابراهيم عليه السلام نظمهما بعض الادباء العصريين وهما :

أصبحت ملة ابراهيم متبعاً لا أبتغي من سوى رب العلى بدلا
لو قال لي الروح جبرائيل هل لك من حاج لقلت له أما اليك فلا

وهذا هو التوحيد الذي يرغم أنف النبهاني وأضرابه من الغلاة الطغاة ، وما نقلناه عن الشيخ كلام مفيد لذوي البصائر والافهام ، وقد سقط به ما ذكره النبهاني من توضيح مسألة الاستغاثة ، فان كلامه هنا مجرد اعادة عبارة سابقة ليعظم لديه حجم كتابه ، نسأله تعالى أن يهدينا سلنا ، ويصلح لنا أحوالنا بمنه وكرمه .
(ثم ان النبهاني الغبي) ذكر في آخر الفصل الرابع تمة زعم أنها اشتملت على

كلام بعض أئمة أهل العلم والاولياء في زيارة قبور الصالحين والانتفاع بزيارتها وصفاء ارواحهم بعد مماتهم ، ثم نقل عن ابن دحلان هديانه الذي في كتابه تقريب الاصول لتسهيل الوصول ، وهو قوله : قد صرح كثير من العارفين أن الولي بعد وفاته تتعلق روحه بمريده ، فيحصل لهم ببركته أنوار وفيوضات ، قال ومن صرح بذلك قطب الارشاد سيدي عبد الله بن علوي الحداد ، فانه قال : الولي يكون اعتناؤه بقرابته واللائذين به بعد موته أكثر من اعتناؤه بهم في حياته ، لأنه في حياته كان مشغولاً بالتكليف وبعد موته طرح عنه الاعباء وتجرد ، والحج في خصوصية وبشرية ، وربما غلبت احدهما الاخرى ، وخصوصاً في هذا الزمان فانها تغلب البشرية والميت مافيه الا الخصوصية فقط - ثم بقي يهدي الى أن قال - وكان الشيخ أبو المواهب أيضاً يقول : من الاولياء من ينفع مریده الصادق بعد مماته أكثر مما ينفعه حال حياته ، ومن العباد من تولى الله تعالى تربيته بنفسه بغير واسطة ، ومنهم من تولاه بواسطة بعض اوليائه ولو ميتاً في قبره فيربي مریده وهو في قبره ويسمع مریده صوته من القبر ، ولله عباد يتولى تربيتهم النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه من غير واسطة لكثرة صلاتهم عليه صلى الله عليه وسلم ، ثم نقل كلام الامام فخر الدين الرازي - الذي ذكره في الفصل الثالث عشر من كتابه المطالب العالية في بيان كيفية الانتفاع بزيارة القبور والموتى - وهو قوله : ان الانسان اذا ذهب الى قبر انسان قوي النفس كامل الجواهر ووقف هناك ساعة وحصل تأثير في نفسه حين حصل من الزائر تعلق بزيارة تلك التربة فلا يخفى أن نفس ذلك الميت تعلقاً بتلك التربة أيضاً فحينئذ يحصل لنفس الزائر الحي ولنفس ذلك الانسان الميت تعلق بتلك التربة وملاقة بسبب اجتماعهما بتلك التربة أيضاً ، فصار هاتان النفسان شبيهتين بمراآتين صقيلتين متقابلتين بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منهما الى الاخرى ، فكل ما حصل في نفس هذا الزائر الحي من المعارف والبراهين والعلوم الكسبية والاخلاق الفاضلة من الخشوع لله تعالى والرضا بقضاء الله تعالى ينعكس منه نور الى روح هذا الحي الزائر ، وبهذه الطريقة تصير تلك الزيارة سبباً لحصول تلك المنفعة الكبرى والبهجة العظمى لروح هذا الزائر ، فهذا هو السبب والاصل في مشروعية الزيارة ، ولا يبعد أن يحصل منها أسرار أخرى أدق وأخفى مما ذكرنا ، وتام الحقائق ليس الا عند الله تعالى انتهى كلام الرازي •

ثم قال : قال الشيخ أبو المواهب : قال بعض العارفين وللاولياء عند زيارة

الاولياء وقائع كثيرة تدل على اعتناء المזור بالزائر وتوجهه اليه بالكلية على قدر توجهه وقابليته ، قال النبهاني : انتهى ما نقلته من تقريب الاصول للسيد أحمد دحلان
أقول : انما نقلت كلام ابن دحلان الذي استدل به النبهاني على باطله من أوله
الى آخره - وان كان فيه تضييع المداد والقرطاس ويؤسف على ما يصرف مدة نقله
على الانفاس - ليقف عليه المؤمن فيجد الله على الايمان والاسلام ، ونجاته من
ظلمات مثل هذه الاوهام ، ولشاعتها وبشاعتها لدى ذوي العقول السليمة لا تحتاج
الى اقامة دليل ولا برهان على ماحوته من بدهاة البطلان ، وجميع من نقل عنه ذلك
الهيذان كانوا من غلاة الشافعية فقط ، ومن الاسف على مثل هذا المذهب أن دنسه
هؤلاء الغلاة وأضرابهم مع ما كان عليه الامام الشافعي من الاتباع للسنة ، وقد صان
الله تعالى السادة الحنفية والمالكية والحنابلة عن مثل هذه العقيدة الزائفة والمقبول
الباطل ، ومن المعلوم لديك أن النبهاني عقد بابا لزيارة القبور ، وبابا للسفر اليها ،
وهذى بما هذى في كلا البابين ، وكأنه نسي أن يذكر هذا الكلام في موضعه فتداركه
في هذا المقام ، فان له تعلقا به من حيث الاستعداد والاستفاضة اللذان ادعاهما في
الزيارة قاتله الله ما أعظم جهله وغباوته •

ثم افا قد أسلفنا الكلام على الزيارة ، وبيننا ما فيه الكفاية لمن كان له قلب سليم ،
وقلنا : ان الزيارة منها ما هو سني وهو الذي كان يعلمه الرسول صلى الله عليه
وسلم أصحابه من شأنها ، ومنها ما هو بدعي لم ينزل الله به من سلطان ، وأظننا
الكلام على كل ذلك ، ونقلنا ما كتبه شيخ الاسلام في (الجواب الباهر) وكتبه في
الرد على المعترض المالكي وهو الذي لم يسبقه أحد اليه ، ومنه يعلم أن ما كتبه ابن
دحلان وما نقله عن الرازي كلام ساقط كل السقوط ، وليس عليه دليلا لا من كتاب
ولا من سنة ولا من كلام السلف الصالح ، وكان الذي قال يقول الرازي من المتقدمين
والمتاخرين انما أخذوه عن الاشراقين من فلاسفة اليونان ، ومن الاسف على مثل
الرازي أن يتفوه بمثل ما نقل عنه ومنزلته في العلم ماتعلم ، لكن الامام الذهبي قد
بين حقيقته ومبلغه من علوم الدين ، وابن السبكي تأثر من شيخه الذهبي اذ بين
حقيقته وأطال اللسان عليه في طبقاته في الكلام على ترجمة الرازي ، وابن دحلان لبس
ما يلام على جهله ، وغباوته ودعواه في العلم معلومة ، وعجبه وكبره مما يقتضي
مارأيت من جهله ، والحاصل أنه لو لم يكن لنا دليل على بطلان ما نقله النبهاني عن
نقله سوى مخالفته للنقل الصحيح والعقل الصريح لكفانا ذلك ، فكيف والادلة على

بطلانه كثيرة كما يعلم مما سبق •

(ثم ان النبهاني) نقل كلام ابن دحلان في كتابه (خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام) وعقد له بابا وجعله ثالث الابواب ، وهو كلام ليس عليه اثاره من علم ، ونقله النبهاني بأسره ، فذكر الشبه التي تمسك بها الوهابية على زعمه ، فقال : ينبغي أولاً أن نذكر الشبهات التي تمسك بها ابن عبد الوهاب في اضلال العباد ، ثم نذكر الرد عليه ببيان أن كل ماتمسك به زور واقتراء وتلييس على عوام الموحدين •

(قال فمن شبهاته) التي تمسك بها زعمه أن الناس مشركون في توسلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وبغيره من الانبياء والاولياء والصالحين ، وفي زيارتهم قبره صلى الله عليه وسلم وندائهم له بقولهم يارسول الله نسألك الشفاعة ، وزعم أن ذلك كله اشراك وحمل الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على الخواص والعوام من المؤمنين ، كقوله تعالى : (فلا تدعوا مع الله أحداً) ^(١) وقوله تعالى : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) ^(٢) وقوله تعالى : (فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين) ^(٣) وقوله تعالى : (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فأنتك إذا من الظالمين) ^(٤) وقوله تعالى : (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قِطْميرٍ ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سيعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) ^(٥) وقوله تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً) ^(٦)

وأمثال هذه الآيات كثيرة في القرآن كلها حملها على الموحدين الخ •

(١) الجن : ١٨ (٢) الاحقاف : ٥ ، ٦ (٣) الشعراء : ٢١٣ (٤) يونس : ١٠٦ (٥) فاطر : ١٣ ، ١٤ (٦)

الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

(أقول ومن الله أستمد التوفيق) ان النبهاني لم يزل يكرر مباحث كتابه ويعيد حتى يعظم حجم كتابه ، وما أدري ماذا قصد بنقل كلام ابن دحلان ، فهل للاستدلال به على باطله وهو لا يفيد ذلك فان الرجل ليس ممن يحتاج بقوله ، بل ولا ممن يوثق به فانه مبتدع بل من الغلاة المشهورين ، وان كان نقله لكلامه ليبين للناس أن له أمثالا في الغلو والضلال فهذا مما لا يحتاج ، فقد قيل :

ومهما تكن عند امريء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

وعلى كل حال فان ما نقله النبهاني عن صاحبه مؤلف كتاب خلاصة الكلام وكتاب الدرر السنية في الرد على الوهابية قد رددناه سابقا كما قد رد عليه من قبلي علماء أفاضل محققون ، وقد انتشرت كتبهم ، منها كتاب (صيانة الانسان عن وسوسة الشيخ دحلان) للعلامة المحدث الشيخ عبد الله بن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ عبد الرحيم السندي رحمه الله تعالى ، وقد أجاد في رده عليه وأظهر زيفه وعواره ، فقد قال في خطبة كتابه : أما بعد ، فاني وقفت على الرسالة التي جمعها الشيخ أحمد بن زيني دحلان وسماها (الدرر السنية في الرد على الوهابية) ورأيت مؤلفها يدعي في دياجة رسالته الباطلة الساقطة الدنية الردية أنه جمع فيها ماتمسك به أهل السنة في زيارة النبي صلى الله عليه وسلم والتوسل به من الدلائل والحجج القوية ، من الآيات والاحاديث النبوية ، فتعجبت منه التعجب الصراح ، كيف وليس في الباب حديث واحد حسن فضلا عن الصحاح ، فتأملت فيها تأمل الناقد البصير لكي أعلم به هل صدق في تلك الدعوى أم كذب كذب المجادل الضرير ، فوجدت دعواها عارية عن لباس الصدق والحق المبين ، محلاة بحلية الزور والكذب والباطل المهين ، فانه ليس فيها من الاحاديث الا ما أورده التقي السبكي في شفاء السقام ، وهي دائرة بين الاحتمالات الثلاثة السقام ، اما موضوعة عملتها أيدي الوضاع اللثام ، أوضعاف واهية رواها من وسم بمثل كثرة الغلط والخطأ والالوهام ، أو شيء يسير من الصحيح والحسن في زعمه قاصر عن افادة المرام ، كما بين ذلك كله الامام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي في كتابه (الصارم المنكي) وليس فيها من الآيات والاحاديث الصحاح والحسان ما يدل على المطلوب المحكى ، وكان حقا على المؤلف تماطي واحد مما يذكر ، لئلا يعد كلامه مما يهجر وينكر ، اما ايراده لاحاديث صحيحة أو حسنة دالة على المطلوب غير ما أورده في الشفاء ، أو الاجابة عما تكلم به عليها صاحب الصارم وغيره من الائمة الاذكياء ، وان لم يفعل هذا ولا ذلك فليس لها فائدة ، ولا يؤل هذا

الطول الى منفعة وفائدة ، ومن عجائب صنيعه أن المؤلف مع زعمه أنه من جملة المقلدين يستدل بالأدلة الشرعية وهو منصب المجتهدين ، فعن لي أن أبنه علي ما وقع فيها من مساويء المفاهيم ، وزخارف الاقوال ، وأراجيف الاستدلال ، لئلا يفتربها من يقف عليها ممن لاخبرة له بحقائق علم السنة من المتون والرجال ، فبالله أستعين وأقول الى آخر ما قال .

فاذا عرفت ماكان من الردود على أقوال ابن دحلان فالتعرض لها في مثل هذا المقام فضول ، ومع ذلك نشير اشارة اجمالية الى الرد عليها ، فنقول : قوله فمن شبهاته التي تمسك بها زعمه أن الناس مشركون في توسلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم الخ لا أصل له ، بل أن له دلائل قطعية من الكتاب والسنة على أن العبادة مختصة بالله تعالى لايشركه غيره ، لقوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ . وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم : (إذا استعنت فاستعن بالله) الخ وبين أن مالا يقدر عليه الا الله فطلبه منه مخ العبادة ، فمن صرفه لغيره فلا شك أنه عبد الغير ، ومن عبد الغير فقد أشرك على ماسبق فيما نقل عنه من كتاب (كشف الشبهات) .

ثم انه لم يقل أن زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم أو قبور سائر الانبياء والصلحاء الزيارة المشروعة شرك بل نذبها واستحبها ، نعم ان الزيارة المخالفة لما ورد فهي ليست بمقبولة ، كما أنها كذلك عند المحققين من الائمة ، وقد سبق بيان ذلك فيما نقلناه عن شيخ الاسلام ، وكذلك التوسل به بمعنى جعله وسيلة والطلب من الله تعالى ليس مما نوزع فيه .

وقوله : وندائمهم له الخ قد أسلفنا لك فيما نقلناه من كتاب (كشف الشبهات) أن الشفاعة تطلب من الله تعالى ، وتقدم تفصيله .

(وقوله) وحمل الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على الخواص والعوام من المؤمنين الخ (فقد تقدم أيضا) بيان ذلك مفصلا في (كشف الشبهات) وحاصل ماأسلفناه أن من عبد غير الله شملته نصوص المشركين وان صام وان صلى ، فلا حاجة الى تكرير الكلام في هذا المقام ، وقد تكلم على هذه الاعتراضات على وجه البسط أيضا الشيخ عبد الله السندي في رده على ابن دحلان فراجع ان شئت فانه مفيد .

(ثم ان النبهاني) نقل كلام ابن دحلان بجملته وهو عين ماهدى به في كتابه الدرر السنية ، وما فيها منقول عن الجوهر المنظم وشفاء السقام ، وقد عرفت ما كان من الكتابين ، وما كان من الرد عليهما فلا تتعب البنان برده ، ثم قال بعد كلام طويل : ان الذين اعتنوا بالرد على محمد ابن عبد الوهاب خلائق لا يحصون من مشارق الارض ومغاربها من ارباب المذاهب الاربعة في كتب مبسوطه ومختصرة ثم ذكر احاديث الزيارة التي سبق الكلام عليها وبها ختم الباب •

أقول يجب عن هذا الكلام من وجوه :

(الوجه الاول) أن كثيرا من العلماء المحققين اتصروا للشيخ ، وردوا على من من رد عليه بكتب مفصلة مفيدة لايسع المقام ذكرها •

(الوجه الثاني) أن رد كثير من العلماء على الشيخ لا يقتضي بطلان ما كان عليه ولا حقية ما كان عليه خصومه ، انما معيار الحق شهادة الكتاب العزيز والسنة النبوية ، واذا كان قوله وعمله موافقا للنقلين فلا مبالاة بمخالفة الغير كائنا من كان •

إذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضبانا على لئامها

(الوجه الثالث) أن الامة لم تزل بين راد ومردود ، ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم ، وكثير من علماء الصحابة والتابعين وتابعي التابعين قد خالفهم كثير من العلماء هؤلاء المذاهب الاربعة كل واحد منهم له من المخالفين أكثر من الموافقين ، وكل منهم قد رد عليه خصومه بردود مفصلة ، وهذا من المسلمات التي لايسوغ النزاع فيها ، فالشيخ الدجلاني كأنه غض طرفه عما جرى بين أئمتهم وأتباعهم ، وما كان من خراب الديار بسبب تنازعهم ، ورأى ما اعترض به خصوم ابن عبد الوهاب عليه لما أظهر زيفهم وزيفهم وباطلهم وضلالهم ، والحق بيد الشيخ الدحلاني فإنه على جهله قد ادعى الرياسة على قوم لم يميزوا بين يمينهم وشمالهم ، وأطاعوه لموافقته لهم على ما ألفوه من الضلال والغي ، فاذا علمت أقوال هذا الرجل وتبصر بها من تبصر تقطعت حبال ابن دحلان وأمثاله من حزب الشيطان ، ثم انه ليس هو بأول من رد عليه ولا أول من عودي وحسد ، ففي البخاري : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخبر ورقة بن نوفل ما رأى قال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، ياليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا اذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودي ،

وان يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً) ولو أخذنا نذكر ماجرى على الأئمة
طال الكلام .

(وقد ذكر الشيخ عبد اللطيف) في كتابه (منهاج التأسيس ، في الرد على ابن
جرجيس) كلاماً مفيداً يعلم منه السبب في معاداة الناس لجدته الشيخ محمد ، ولا بأس
بذكره فإنه يرد به على الخصوم قال عليه الرحمة : ان الله بعث محمداً صلى الله عليه
وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وكان الناس
قبل مبعثه على أديان متفرقة ، ونحل متباينة ، وطرائق مختلفة ، وضلال مستبين ، كما
في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم : (أن الله
نظر الى أهل الارض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب) فقام صلى
الله عليه وسلم بأعباء النبوة والرسالة ، وصدع بالانكار على كافة أهل الجهالة
والضلالة ، ودعى الناس الى معرفة الله تعالى وتوحيده ، وأمرهم باخلاص الدين لله
وتجريده ، ولم يزل صلى الله عليه وسلم الى الله داعياً ، والى سبيله هادياً ، حتى
أظهره الله على سائر فرق المشركين ، الاميين منهم والكتابين ، واستعلن الدين
واستنار ، وقهر الاسلام كل مشرك جبار ، فأكمل الله للامة الدين ، وأتم النعمة بما
جاء به رسوله الامين ، فدخل الناس في دين الله أفواجا ، وأشرفت الارض بنور
النبوة واهترت طربا وابتهاجا ، ومحا الله آثار الاصنام والاوثان ، وخمدت معابد
الصلبان والنيران ، ورفعت أعلام السنة والقرآن ، حتى تركهم صلى الله عليه وسلم
على البيضاء ليلها كنهارها ، لا يضل سالكها ولا تلتبس عليه مناهجها ومسالكها ، ولم يزل
خلفاؤه الراشدون ومن بعدهم من تلك الاعصار الفاضلة والقرون على هذا المنهج
المنير متفقون ، وبعروته مستمسكون ، فاستمر الامر على ذلك ، ومضى الصالحون
على تلك المناهج الواضحة والمسالك ، ثم نشأ في الاسلام من لا يعرف الجاهلية ، ولم
يميز بين شعب الشرك والاصول الاسلامية ، فاتقضت من الدين عراه ، وعز خلاصه
وعظمت بالجهال محنته وبلواه ، وآلت الرياسة الى الجهال والاغمار ، وجاءت دولة
غربة الدين واشتد الادبار ، فوقع الشرك بالصالحين وغيرهم صرفاً لم يشب ، هزم
عليه الكبير ونشأ الصغير وشب ، واستحكم الامر استحكاماً لا مزيد عليه ، حتى جزم
الاكثر بكفر من أنكر ذلك وأشير به اليه ، وهذا من أعلام نبوة نبينا المصطفى ، زاده
الله تعالى صلاة وسلاماً وشرفاً ، فقد روى الشيخان وغيرهما من حديث أبي سعيد
الخدري رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لتبعن

سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟) وجاء نحوه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه وفيه زيادة : (وباعا بباع) وفيه : (حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتموه ، وحتى لو أن أحدهم جامع أمه في الطريق لفعلتموه) وفي الباب عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه وشداد بن أوس ، وعن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده ، فصار الامر طبق ما أخبر به هذه الامة نبيها ، وظهر وجه الشبه بينهم وبينها ، وانتهى الحال الى أن قيل بالاتحاد والحلول ، وكثرت في ذلك اشارات القوم والنقول ، وصار هو مذهب الخاصة والخلاصة عند الاكثرين ، ومن أنكره فهو عندهم ليس على شيء من العلم والدين ، وعبدت الكواكب والنجوم ، وصنف في ذلك مثل أبي معشر وصاحب السر المكتوم ، وعظمت القبور وبنيت عليها المساجد ، وعبدت تلك الضرائح والمشاهد ، وجعلت لها الاعياد الزمانية والمكانية ، وصرفت لها العبادات المالية والبدنية ونحرت لها النخائر والقرايين ، ووظف بها الفوج بعد الفوج من الزائرين والسائلين ، وحلقت لأربابها رؤوس الوافدين ، وهتف بدعائها ورجائها من حضر أو غاب من المعتقدين والمجيبين ، واعتمدوا عليها في المهمات من دون الله رب العالمين ، وانهكت بأعيادها وموالدها محظورات الشريعة والمحرمات ، واستبيح فيها ما اتفق على تحريمه جميع الشرائع والنبوات ، وكثر المكاء والتصدية بتلك الفجاج والعرضات ، وبارروا بتلك القبائح والعظائم فاطر الارض والسموات ، وصنف في استجاباه بعض شيوخهم كابن المقيد ، وظنه الاكثر من دين الاسلام والتوحيد ، وأشير الى من أنكره بالكفر الشديد ، وقد ضمن الله تعالى لهذه الامة أن لا تجتمع على ضلالة ، وان لا يزال فيها من يعبد الله تعالى قائما على أي وصف وحالة ، وجاء الحديث بأنه تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل قرن من يجدد لها أمر الدين ، ويقوم من الحجة بالواضح المستبين ، فمنهم من قص علينا نبؤه ووصل ، ومنهم من انقطع عنا خبره وما اتصل ، وأحق أهل القرن الثاني عشر - عند من خبر الامور وسبر ، ووقف على ما قرره أهل العلم والاثر ، من حصول الوصف الكاشف المعتبر - شيخ الاسلام والمسلمين ، المجدد لما درس من أصول الملة والدين ، السلفى الاول وان تأخر زمانه عند من عقل وتأمل ، محمد ابن عبد الوهاب ، رحمه الله تعالى وأجزل له الثواب ، وكان قيامه رحمه الله تعالى بعد الخمسين ومائة وألف من سني الهجرة المحمدية ، وابتداء التواريخ الاسلامية ، فشمّر رحمه الله تعالى عن ساعدي جده واجتهاده ، وأعلن بالنصح لله

ولكتابة ورسوله وسائر عبادته ، وصبر على ما ناله من أعباء تلك الرتبة والدعوة ، وما قصد به من أنواع المحنة والجفوة ، وقرر رحمه الله تعالى أن الواقع الذي حكينا ، والصنيع الذي رأينا وروينا ، عن عباد القبور والصالحين ، هو بعينه فعل الجاهلية الوثنيين ، وهو الذي جاءت الرسل بسحوه وإبطاله ، وتكفير فاعله ورد باطله ومحاله ، وقال إن حقيقة دين الإسلام وزبدة ما جاءت به الرسل الكرام : هو أفراد الله تعالى بالقصد والعبادة ، وإسلام الوجه له بالعمل والإرادة ، وترك التعلق على الأولياء من دونه والأنداد ، والبراءة من عبادة ما سواه من سائر المخلوقات والعباد ، وهذا معنى كلمة الإخلاص والتوحيد ، وهو الحكمة المقصودة بخلق جميع الكائنات والعبيد ، وقرر رحمه الله أن مجرد الاتيان بلفظ الشهادة مع مخالفة ما دللت عليه الأصول المقررة ومع الشرك الأكبر في العبادة لا يدخل المكلف في الإسلام ، إذ المقصود من الشهادتين حقيقة الأعمال التي لا يقوم الايمان بدونها ، كمحبة الله وحده ، والخضوع له ، والانابة اليه ، والتوكل عليه ، أفراده بالاستعانة ، والاستغاثة فيما لا يقدر عليه سواه ، وعدم الاشراف به فيما يستحقه من العبادات ، كالذبح والنذر والتقوى والخشية ونحو ذلك من الطاعات .

واستدل لذلك بنصوص قاطعة ، وبراهين واضحة ساطعة ، وحكى الاجماع على ذلك عن الائمة الفضلاء ، والسادة النبلاء ، من سائر أهل الفقه والفتوى ، وذكر عبارة من حكى الاجماع من أهل المذاهب الاربعة وغيرهم ، وألف في ذلك التأليف ، وقرر الحجة وصنف التصانيف ، وقد عارضه من الغلاة المارقين ، ومن الدعاة الى عبادة الأولياء والصالحين : أناس من أهل وقته ، فباؤا بغضب الله ومقته ، وأظهره الله عليهم بعد الامتحان ، وحقت كلمة ربك على أهل الكفر والطغيان ، وهذه سنة الله التي قد خلت من قبل ، وحكمته التي يظهر بها ميزان العقل والعدل ، وقد جمع أعداؤه شبهات في رد ما أبداه ، وجحد ما قرره وأملاه ، واستعانوا بملئهم من العجم والعرب ، ونسبوه الى ما يستحي من ذكره أهل العقل والادب ، فضلا عن ذوي العلوم والرتب ، وزعموا أنه خارجي مخالف للسنة والجماعة ، كمقالة أسلافهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم انه صابئي صاحب إفك وصناعة ، انتهى ما قصدنا نقله من الكلام .

(ثم ان النبهاني) عقد بابا رابعا نقل فيه على زعمه أقوال علماء المذاهب الاربعة في الرد على ابن تيمية ، والكلام على بعض كتبه ، ومخالفته أهل السنة في بعض

المسائل المهمة ، ومنها اعتقاد الجهة في جانب الله تعالى وتقدس ، قال : فمن عاصره الامام صدر الدين ابن الوكيل المعروف بابن مرحل الشافعي وقد ناظره .
 (أقول ومن الله المدد والاعانة) هذا الباب هو عمدة أبواب كتاب النبهاني وبيت قصيده ، ولأجل ذكره ألف كتابه ، فان الغلاة بعضهم لشيخ الاسلام ابن تيمية مما لاشبهة فيه ، والنبهاني في هذا من حثالتهم وفضلاتهم ، فلا شك أنه من أشد الناس عداوة لهذا الامام ، لأن غالب كتبه في الرد على المبتدعة وأهل الزيغ والضلال والالحاد . ثم إنه ذكر ابن الوكيل قبل كل أحد من أعداء الشيخ لأنه كان عريفا في البدع ، مبغضا للسنة النبوية ، وكان من غلاة الشافعية أيضا ، وقعت بينه وبين شيخ الاسلام قدس الله روحه مناظرات ، وقد أثار عليه فتنا كثيرة ، وقد رأيت أن أذكر ما كان من المناظرة بين الشيخ وخصومه ليتبين للناظر أعداؤه من محبيه ، ورأيت رسالة من جملة الرسائل الكبرى التي طبعت حديثا في مصر مشتملة على بيان مناظرته ، ورأيت فيها تحريفا كثيرا ونقصانا ، مع أن الشيخ ألف كتابا فيما عقد له من المجالس وما جرى له فيها ، فأجبت أن أذكر ما وجدته من ذلك ، ليكون المنصف على بصيرة من أمره ، وكلام صاحب الواقعة أصح من غيره ، ولذلك أتحت أهل العلم بذكرها لما اشتملت عليه من الفوائد الغزيرة والمسائل الكثيرة .

(ذكر المجالس التي انعقدت لمناظرة شيخ الاسلام ابن تيمية في عقيدته الواسطية)
 (وهي من مصنفاته رضي الله تعالى عنه) (١)

قال بعد البسملة : الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ،
 وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ولا ظهور ولا معين ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أرسله الى الخلق أجمعين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا وعلى سائر عباد الله الصالحين .

(أما بعد) فقد سئلت غير مرة أن أكتب ما حضرني ذكره مما جرى في المجالس الثلاثة المعقودة للمناظرة في أمر الاعتقاد ، بمقتضى ماورد من كتاب ذي السلطان من الديار المصرية الى نائبه أمير البلاد ، لما سمى اليه قوم من الجهمية والاتحادية والرافضة وغيرهم من ذوي الاحقاد ، فأمر الامير بجمع القضاة الاربعة ، قضاة المذاهب الاربعة وغيرهم من نوابهم والمفتين والمشايخ ممن له حرمة وبه اعتداد ، وهم لا يدرون ما قصد بجمعهم في هذا الميعاد ، وذلك يوم الاثنين ثامن رجب المبارك عام خمس وسبعمائة ،

(١) ذكر هذا البحث في (مجموع فتاوي شيخ الاسلام) جلد ٣ صحيفة ١٦٠ فما بعد .

فقال لي : هذا المجلس عقد لك ، فقد ورد مرسوم السلطان بأن أسألك عن اعتقادك
وعما كتبت به الى الديار المصرية من الكتب التي تدعو بها الناس الى الاعتقاد ، وأظنه
قال وان أجمع القضاة والفقهاء ويتباحثون في ذلك •

فقلت : أما الاعتقاد فلا يؤخذ عني ولا عمن هو أكبر مني ، بل يؤخذ عن الله
ورسوله صلى الله عليه وسلم وما أجمع عليه سلف الامة ، فما كان في القرآن وجب
اعتقاده ، وكذلك ما ثبت في الاحاديث الصحيحة مثل صحيح البخاري ومسلم ، وأما
الكتب فما كتبت الى أحد كتابا ابتداء أدعوه به الى شيء من ذلك ، ولكنني كتبت أجوبة
أجبت بها من سألني من أهل الديار المصرية وغيرهم ، وكان قد بلغني أنه زور على
كتاب الى الامير ركن الدين الجاشنكير أستاذ ذي السلطان يتضمن ذكر عقيدة محرقة
ولم أعلم بحقيقته لكن علمت أنه مكذوب •

وكان يرد علي من مصر وغيرها من يسألني عن مسائل في الاعتقاد فأجبت
بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الامة ، فقال : نريد أن تكتب لنا عقيدتك فقلت
اكتبوا •

فأمر الشيخ كمال الدين أن يكتب فكتب له جمل الاعتقاد في أبواب الصفات
والقدر ، ومسائل الايمان والوعيد والامامة والتفضيل ، وهو أن اعتقاد أهل السنة
والجماعة الايمان بما وصف الله به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ، من غير تحريف
ولا تعطيل ، ولا تكليف ولا تمثيل ، وان القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بداواليه
يعود ، والايمان بأن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها ، وانه ما شاء الله كان
وما لم يشأ لم يكن ، وأنه أمر بالطاعة وأحبها ورضيها ، ونهى عن المعصية وكرهها ،
والعبد فاعل حقيقة ، والله خالق فعله ، وان الايمان والدين قول وعمل يزيد وينقص
وان لا تكفر حدا من أهل القبلة بالذنوب ، ولا نخلد في النار من أهل الايمان أحدا ،
وأن أفضل الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان
ثم علي ، وترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة ، ومن قدم عليا على عثمان فقد أزرى
بالمهاجرين والانصار ، وذكرت هذا أو نحوه ، فاني الآن قد بعد عهدي ولم أحفظ
لفظ ما أمليته لكنه كتب اذ ذلك •

ثم قلت للامير والحاضرين : أنا أعلم أن أقواما يكذبون علي كما قد كذبوا غير
مرة ، وان أمليت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون كتم بعضه أو داهن ودارى ، فأنا

أحضر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين قبل أن يجيء التتر الى الشام ، وقلت قبل حضورها كلاما قد بعد عهدي به ، وغضبت غضبا شديدا ، لكنني أذكر أنني قلت أنا أعلم أن أقواما كذبوا علي ، وقالوا للسلطان أشياء وتكلمت بكلام احتجت اليه ، مثل أن قلت من قنام بالاسلام أوقات الحاجة غيري ، ومن الذي أوضح دلائله وبينه وجاهد أعداءه وأقامه لما مال حين تخلى عنه كل أحد ، ولا أحد ينطق بحجته ولا أحد يجاهد عنه ، وقمت مظهرا الحجة مجاهدا عنه مرغبا فيه ، فإذا هؤلاء يطمعون في الكلام في فكيف يصنعون بغيري ، ولو أن يهوديا طلب من السلطان الانصاف لوجب عليه أن ينصفه ، وأنا قد أغفو عن حقي وقد لا أغفو بل أطلب الانصاف منه ، وأن يحضر هؤلاء الذين يكذبون ليكافئوا على افتراءهم ، وقلت كلاما أطول من هذا الجنس لكن بعد عهدي به •

فأشار الامير الى كاتب الدرج محي الدين بأن يكتب في ذلك ، وقلت أيضا : كل من خالفني في شيء مما كتبتة فأنا أعلم بمذهبه منه ، وما أدري هل قلت هذا قبل حضورها أو بعده ، لكن قلت أيضا بعد حضورها وقراءتها ما ذكرت فيها فضلا الا وفيه مخالف من المنتسبين الى القبلة ، وكل جملة فيها خلاف لطائفة من الطوائف ، ثم أرسلت من أحضرها ومعه كراريس بخطي من المنزل ، فحضرت العقيدة الواسطية ، وقلت لهم : هذه كان سبب كتابتها أنه قدم علي من أرض واسط بعض قضاة نواحيها شيخ يقال له رضي الدين الواسطي من أصحاب الشافعي ، قدم علينا حاجا وكان من أهل الخير والدين ، وشكنا ما الناس فيه بتلك البلاد في دولة التتر من غلبة الجهل والظلم ودروس الدين والعلم ، وسألني أن أكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته ، فاستعفيت من ذلك وقلت قد كتبنا لناس عقائد متعددة فخذ بعض عقائد أئمة السنة ، فألح في السؤال وقال ما أحب الا عقيدة تكتبها أنت ، فكتبت له هذه العقيدة وأنا قاعد بعد العصر ، وقد انتشرت بها نسخ كثيرة في مصر والعراق وغيرهما ، فأشار الامير بأن لاقرأها أنا لرفع الريبة ، وأعطاهم لكتابه الشيخ كمال الدين فقرأها على الحاضرين حرفا حرفا ، والجماعة الحاضرون يسمعونها ويورد المورد منهم ماشاء ويمارض فيما شاء ، والامير أيضا سأل عن مواضع فيها ، وقد علم الناس ماكان في نفوس طائفة من الحاضرين من الخلاف والهوى ماقد علم الناس بعضه ، وبعضه بسبب الاعتقاد وبعضه بغير ذلك ، ولا يمكن ذكر ماجرى من الكلام والمناظرات في هذه المجالس ، فانه كثير لاينضبظ لكن اكتب ملخص ما حضرني من ذلك مع بعد العهد بذلك ، ومع أنه كان يجري رفع أصوات ولغظ لاينضبظ •

فكان مما اعترض عليه بعضهم لما ذكر في أولها : ومن الايمان بالله الايمان بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكيف ولا تمثيل ، فقال : ما المراد بالتحريف والتعطيل ؟ ومقصوده أن هذا ينفي التأويل الذي أثبتته أهل التأويل الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره اما وجوبا واما جوازا ، فقلت : تحريف الكلم عن مواضعه ، كما ذمه الله تعالى في كتابه ، وهو ازالة اللفظ عما دل عليه من المعنى ، مثل تأويل بعض الجهمية لقوله تعالى (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)^(١) جرحه بأظافر الحكمة تجريحا ، ومثل تأويلات القرامطة والباطنية وغيرهم من الجهمية والرافضة والقدرية وغيرهم ، فسكت وفي نفسه ما فيها •

وذكرت في غير هذا المجلس أنني عدلت عن لفظ التأويل الى لفظ التحريف لأن التحريف اسم جاء القرآن بدمه ، وأنا تحريت في هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة ، فبينت ما ذمه الله من التحريف ، ولم أذكر فيها لفظ التأويل بنفي ولا اثبات ، لأنه لفظ له عدة معان ، كما بينته في موضعه من القواعد ، فان معنى لفظ التأويل في كتاب الله غير معنى لفظ التأويل في اصطلاح المتأخرين من أهل الاصول والفقه ، وغير معنى وكان أحب الي من لفظ ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ، وان كان قد يعنى بنفيه معنى تسمى تأويلا ما هو صحيح منقول عن بعض السلف فلم أنف ما تقوم به الحجة على صحته ، اذ ما قامت الحجة على صحته وهو منقول عن السلف فليس من التحريف •

وقلت لهم أيضا : ذكرت في النفي التمثيل ولم أذكر التشبيه لأن التمثيل نفاه الله بنص كتابه ، حيث قال : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)^(٢) وقال : (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)^(٣) وكان أحب الي من لفظ ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ، وان كان قد يعنى بنفيه معنى صحيح كما قد يعنى به معنى فاسد ، ولما ذكرت أنهم لا ينفون عنه ما وصف به نفسه ويحرفون الكلم عن مواضعه ويلحدون في أسماء الله وآياته جعل بعض الحاضرين يتمعض من ذلك لاستشعاره ما في ذلك من الرد الظاهر عليه ، ولكن لم يتوجه له ما يقوله ، وأراد أن يدور بالاسئلة التي أعلمها فلم يتمكن لعلمه بالجواب •

ولما ذكرت آية الكرسي أظنه سال الامير عن قولنا لا يقر به شيطان حتى يصبح و ذكرت حديث أبي هريرة في الذي كان يسرق صدقة الفطر ، وذكرت أن البخاري

(١) النساء : ١٦٤ (٢) الشورى : ١٢ (٣) مريم : ٦٦

رواه في صحيحه ، وأخذوا يذكرون نفي التشبيه والتجسيم ، ويطنسون في هذا ، ويعرضون لما ينسبه بعض الناس إلينا من ذلك •

وقلت : قولي من غير تكييف ولا تمثيل ينفي كل باطل ، وانما اخترت هذين الاسمين لأن التكييف مأثور نفيه عن السلف ، كما قال ربيعة ومالك وابن عيينة وغيرهم المقالة التي تلقاها العلماء بالقبول : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والايان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فاتفق هؤلاء السلف على أن التكييف غير معلوم لنا ، فنفت ذلك اتباعا لسلف الامة ، وهو أيضا منفي بالنص ، فان تأويل آيات الصفات يدخل فيها حقيقة الموصوف وحقيقة صفاته ، وهذا من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله ، كما قد قررت ذلك في قاعدة مفردة ذكرتها في التأويل ، والفرق بين علمنا بمعنى الكلام وبين علمنا بتأويله •

وكذلك التمثيل منفيّ بالنص والاجماع القديم مع دلالة العقل على نفيه ونفي التكييف ، اذ كنه الباري غير معلوم للبشر ، وذكرت في ضمن ذلك الخطأ الذي نقل أنه مذهب السلف وهو اجراء الصفات وأحاديث الصفات على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها اذ الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات ، يحتذى فيه حدوه ويتبع فيه مثاله ، فاذا كان اثبات الذات اثبات وجود لا اثبات تكييف : فكذلك اثبات الصفات اثبات وجود لا اثبات تكييف •

وقال أحد كبار المخالفين : فحينئذ يجوز أن يقال هو جسم لا كالأجسام ، فقلت له أنا وبعض الفضلاء الحاضرين : إنما قيل أنه يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم وليس في الكتاب والسنة أن الله جسم حتى يلزم هذا السؤال •

وأخذ بعض القضاة المعروفين بالديانة يريد اظهار أن ينفي عنا مايقول وينسبه البعض إلينا فجعل يريد المبالغة في نفي التشبيه والتجسيم ، فقلت ذكرت فيها في غير موضع من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل •

وقلت في صدرها : ومن الايمان بالله الايمان بما وصف به نفسه في كتابه ، وبما به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل •

ثم قلت : وما وصف الرسول به ربه من الاحاديث الصحاح التي تلقاها أهل

المعرفة بالقبول وجب الايمان بها كذلك ، الي أن قلت : الي أمثال هذه الاحاديث التي يخبر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أخبر به ، فان الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك ، كما يؤمنون بما أخبر الله في كتابه ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكيف ولا تمثيل ، بل هم وسط في فرق الامة ، كما أن الامة هي الوسط في الامم ، فهم وسط في باب صفات الله بين أهل التعطيل الجهمية وبين أهل التمثيل المشبهة •

ولما رأى هذا الحاكم العدل مما لأتهم وتعصبهم ورأى قلة العارفين الناصر وخافهم قال : أنت صنفت اعتقاد الامام أحمد ، فتقول هذا اعتقاد أحمد ؟ يعني والرجل يصنف على مذهبه فلا يعترض عليه ، فان هذا مذهب متبوع ، وغرضه بذلك قطع مخاصمة الخصوم ، فقلت : ما جمعت الا عقيدة السلف الصالح جميعهم ، ليس للامام أحمد اختصاص بهذا ، والامام أحمد انما هو مبلغ العلم الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو قال أحمد من تلقاء نفسه ما لم يجيء به الرسول لم تقبله ، وهذه عقيدة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم •

وقلت مرات : قد أمهلت كل من خالفني في شيء منها ثلاث سنين ، فان جاء بحرف واحد عن أحد من القرون الثلاثة التي أتتني عليها النبي صلى الله عليه وسلم — حيث قال (خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم) — يخالف ما ذكرناه فأنا أرجع عن ذلك ، وعليّ أن آتي بنقول جميع الطوائف عن القرون الثلاثة يوافق ما ذكرناه ، من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والاشعرية وأهل الحديث والصوفية وغيرهم •

وقلت أيضا في غير هذا المجلس : الامام أحمد رضي الله تعالى عنه لما انتهى اليه من السنة ونصوص رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما انتهى الي غيره ، وابتلى بالحنة والرد على أهل البدع أكثر من غيره : كان كلامه وعلمه في هذا الباب أكثر من غيره ، فصار اماما في السنة أظهر من غيره ، والا فالامر كما قاله بعض شيوخ المغاربة العلماء الصلحاء ، قال : المذهب لمالك والشافعي ، والظهور لأحمد بن حنبل ، يعني أن الذي كان عليه أحمد عليه جميع أئمة الاسلام ، وان كان لبعضهم من الزيادة أو البيان أو اظهار الحق ودفع الباطل ما ليس لبعض •

ولما جاء فيها : وما وصف به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ربه في الاحاديث الصحاح التي تلقاها أهل العلم بالقبول ، ولما جاء حديث أبي سعيد — المتفق عليه في

الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم : (يقول الله يوم القيامة يا آدم ، فيقول لبيك وسعديك ، فينادي بصوت أن الله يأمرك أن تبعث بعثا الى النار) الحديث - سألهم الامير هل الحديث صحيح ؟ فقلت : نعم هو في الصحيحين ، ولم يخالف في ذلك أحد ، واحتاج المنازع الى الاقرار به ووافق الجماعة على ذلك .

وطلب الامير الكلام في مسألة الحرف والصوت ، لأن ذلك طلب منه ، فقلت : هذا الذي يحكيه كثير من الناس عن الامام أحمد وأصحابه أن صوت القارئ ومداد المصاحف قديم أزلي - كما نقله مجد الدين الخطيب وغيره - كذب مفترى ، لم يقل ذلك أحمد ، ولا أحد من علماء المسلمين ، لا من أصحاب أحمد ولا غيرهم ، وأخرجت كراسيا قد أحضرتها مع العقيدة فيه ألفاظ أحمد مما ذكره الشيخ أبو بكر الخلال في (كتاب السنة) عن الامام أحمد ، وما جمعه صاحبه أبو بكر المروزي من كلام الامام أحمد ، وكلام أئمة زمانه وسائر أصحابه ، فان من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع .

قلت : وهذا هو الذي نقله الاشعري في كتاب المقالات عن أهل السنة وأصحاب الحديث ، وقال : انه يقول به ، قلت : فكيف بمن يقول لفظي قديم ؟ فكيف بمن يقول صوتي غير مخلوق ؟ فكيف بمن يقول صوتي قديم ؟ ونصوص الامام أحمد : في الفرق بين تكلم الله بصوت وبين صوت العبد ، كما نقله البخاري صاحب الصحيح في كتاب (خلق أفعال العباد) وغيره من أئمة السنة .

وأحضرت جواب مسألة ، كنت سئلت عنها قديما فيمن حلف بالطلاق في مسألة الحرف والصوت ، ومسألة الظاهر في العرش ، فذكرت من الجواب القديم في هذه المسألة وتفصيل القول فيها وان اطلاق القول أن القرآن هو الحرف والصوت أو ليس بحرف ولا صوت كلاهما بدعة حدثت بعد المائة الثالثة ، وقلت : هذا جوابي ، وكانت هذه المسألة قد أرسل بها طائفة من المعاندين المتجهمه ممن كان بعضهم حاضرا في المجلس ، فلما وصل اليهم الجواب أسكتهم ، وكانوا قد ظنوا أنه ان أجبت بما في ظنهم أن أهل السنة تقوله حصل مقصودهم من الشناعة ، وان أجبت بما يقولونه هم حصل مقصودهم من الموافقة ، فلما أجيبوا بالفرقان الذي عليه أهل السنة وليس هو كما يقولونه هم ولا ما ينقلونه عن أهل السنة أو قد يقوله بعض الجهال بهتوا لذلك ، وفيه أن القرآن كله كلام الله حروفه ومعانيه ، ليس القرآن اسما لمجرد الحروف ولا لمجرد المعاني .

وقلت في ضمن الكلام لصدر الدين بن الوكيل - لبيان كثرة تناقضه وأنه لا يستقر على مقالة واحدة وانما يسعى في الفتن والتفريق بين المسلمين - عندي عقيدة للشيخ أبي البيان فيها أن من قال ان حرفا من القرآن مخلوق فقد كفر ، وقد كتبت عليها بخطك أن هذا مذهب الشافعي وأئمة أصحابه ، وأنت تدين الله بها ، فاعترف بذلك ، فأنكر عليه الشيخ كمال الدين بن الزمكاني ذلك ، فقال ابن الوكيل : هذا نص الشافعي وراجعه في ذلك مرارا ، فلما اجتمعنا في المجلس الثاني ذكر لابن الوكيل أن ابن درباس نقل في كتاب الانتصار عن الشافعي مثل ما نقلت ، فلما كان في المجلس الثالث أعاد ابن الوكيل الكلام في ذلك ، فقال الشيخ كمال الدين لصدر الدين بن الوكيل : قد قلت في ذلك المجلس للشيخ تقي الدين أنه من قال أن حرفا من القرآن مخلوق فهو كافر ، فأعاده مرارا ، فغضب هنا الشيخ كمال الدين غضبا شديدا ورفع صوته ، وقال : هذا يكفر أصحابنا المتكلمين الاشعرية ، الذين يقولون ان حروف القرآن مخلوقة مثل امام الحرمين وغيره ، وما نصبر على تكفير أصحابنا ، فأنكر ابن الوكيل أنه قال ذلك ، وقال ما قلت ذلك وانما قلت ان من أنكر حرفا من القرآن فقد كفر ، فرد ذلك عليه الحاضرون ، وقالوا ما قلت الا كذا وكذا ، وقالوا ما ينبغي لك أن تقول قولاً وترجع عنه ، وقال بعضهم ما قال هذا ، فلما حرفوا : قال ماسمعناه قال هذا ، حتى قال نائب السلطان واحد يكذب ، وآخر يشهد ، والشيخ كمال الدين مغضب ، فالتفت الى قاض القضاة نجم الدين الشافعي يستصرخه للانتصار على ابن الوكيل حيث كفر أصحابه ، فقال القاضي نجم الدين : ماسمعت هذا ، فغضب الشيخ كمال الدين وقال كلاما لم أضبط لفظه الا أن معناه أن هذا غضاضة على الشافعي ، وعار عليهم أن أئمتهم يكفرون ولا ينتصر لهم ، ولم أسمع من الشيخ كمال الدين ما قال في حق القاضي نجم الدين ، واستثبت غيري ممن حضر هل سمع منه في حقه شيئا فقالوا لا ، لكن القاضي اعتقد أن التعبير لأجله ولكونه قاضي المذهب ولم ينتصر لأصحابه وأن الشيخ كمال الدين قصده بذلك فغضب قاضي القضاة نجم الدين ، وقال اشهدوا عليّ أنني عزلت نفسي ، وأخذ يذكر ما يستحق به التقديم والاستحقاق وعفته عن التكلم في أعراض الجماعة ، ويستشهد بنائب السلطان في ذلك ، وقلت له كلاما مضمونه تعظيمه واستحقاقه لدوام المباشرة في هذه الحال .

(ولما جاءت مسألة القرآن) ومن الايمان به الايمان بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ واليه يعود : نازع بعضهم في كونه منه بدأ واليه يعود وطلبوا

تفسير ذلك ، فقلت : أما هذا القول فهو المأثور الثابت عن السلف ، مثل ما نقله عمرو بن دينار ، قال : أدركت الناس منذ سبعين سنة يقولون : الله الخالق وماسواه مخلوق إلا القرآن فانه كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ واليه يعود ، وقد جمع غير واحد مافي ذلك من الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، كالحافظ أبي الفضل بن ناصر ، والحافظ أبي عبد الله المقدسي ، وأما معناه : فان قولهم منه بدأ أي هو المتكلم به وهو الذي أنزله من لدنه ، ليس هو كما تقوله الجهمية أنه خلق في انهواء أو غيره وبدا من عند غيره ، وأما اليه يعود فانه يسري به في آخر الزمان من المصاحف والصدور ، فلا يبقى في الصدور منه كلمة ، ولا في المصاحف منه حرف ، ووافق على ذلك غالب الحاضرين وسكت المنازعون .

وخاطبت بعضهم في غير هذا المجلس بأن أريته العقيدة التي جمعها الامام القادري وفيها أنه كلام الله خرج منه ، فتوقف في هذا اللفظ ، فقلت : هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم (ماتقرب العباد الى الله بمثل ماخرج منه) يعني القرآن ، وقال خباب بن الازت : يا هذا تقرب الى الله بما استطعت ، فلن يتقرب اليه بشيء أحب اليه مما خرج منه ، وقال أبو بكر الصديق لما قرأ قرآن مسيلمة الكذاب : ان هذا الكلام لم يخرج من إل يعنى رب .

وجاء فيها : ومن الايمان به الايمان بأن القرآن كلام الله ، منزل غير مخلوق ، منه بدأ واليه يعود ، وأن الله تكلم به حقيقة ، وأن هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره ، ولا يجوز اطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة ، بل اذا قرأه الناس أو كتبه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله ، فان الكلام انما يضاف حقيقة الى من قاله مبتديا لا الى من قاله مبلغا موديا فتمعض بعضهم من اثبات كونه كلام الله حقيقة بعد تسليمه أن الله تعالى تكلم به حقيقة ، ثم انه سلم ذلك لما بين له أن المجاز يصح نفيه وهذا لا يصح نفيه ، ولما بين له أن أقوال المتقدمين المأثورة عنهم وشعر الشعراء المضاف اليهم هو كلامهم حقيقة فلا يكون شبه القرآن بأقل من ذلك ، فوافق الجماعة كلهم على ما ذكر في مسألة القرآن ، وأن الله متكلم حقيقة ، وأن القرآن كلام الله حقيقة لا كلام غيره .

ولما ذكر فيها أن الكلام انما يضاف حقيقة الى من قاله مبتديا لا الى من قاله مبلغا مؤديا : استحسنا هذا الكلام وعظموه ، وأخذ أكبر الخصوم يظهر تعظيم هذا الكلام

كابن الوكيل وغيره ، وأظهر الفرع بهذا التلخيص ، وقال : انك قد أزلت عنا هذه الشبهة ، وشفيت الصدور ، ويذكر شيئاً من هذا النمط •

ولما جاء ما ذكر من الايمان باليوم الآخر وتفصيله ونظمه استحسنا ذلك وعظومة ، وكذلك لما جاء ذكر الايمان بالقدر وأنه على درجتين ، الى غير ذلك من القواعد الجليلة ، وكذا لما جاء ذكر الكلام في الفاسق الملي وفي الايمان ، لكن اعترضه على ذلك بما سأذكره ، وكان ما اعترض به المنازعون المعاندون بعد انقضاء قراءة جميعها والبحث فيها عن أربعة أسئلة •

(الاول) قولنا ومن أصول الفرقة الناجية أن الايمان والدين قول وعمل ، يزيد وينقص ، قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح ، قالوا : اذا قيل إن هذا من أصول الفرقة الناجية خرج عن الفرقة الناجية من لم يقل ذلك ، مثل أصحابنا المتكلمين ، الذين يقولون أن الايمان هو التصديق ، ومن يقول الايمان هو التصديق والاقرار ، واذا لم يكونوا من الناجين لزم أن يكونوا هالكين •

(وأما الاسئلة الثلاثة) وهي التي كانت عمدتهم فأوردوها على قولنا : وقد دخل فيما ذكرناه من الايمان بالله الايمان بما أخبر الله في كتابه ، وتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأجمع عليه سلف الامة ، من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه عليّ على خلقه ، وهو معهم أينما كانوا ، يعلم ما هم عاملون ، كما جمع بين ذلك في قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)^(١) وليس معنى قوله : (وهو معكم) أنه مختلط بالخلق ، فان هذا لا توجه للغة ، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الامة ، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق ، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر أينما كان وغير المسافر ، وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع اليهم ، الى غير ذلك من معاني ربوبيته ، وكل هذا الكلام الذي ذكره الله تعالى من أنه فوق العرش وأنه معنا حق على حقيقته لا يحتاج الى تحريف ، ولكن يصاب عن الظنون الكاذبة •

(السؤال الثاني) قال بعضهم تقربا للفظ الوارد ، مثل حديث العباس حديث الاوعال والله فوق العرش ، ولا نقول فوق السموات ، ولا نقول على العرش استوى ، ولا نقول مستو ، وأعادوا هذا المعنى مرارا أن اللفظ الذي ورد يقال اللفظ بعينه ، ولا يبدل بلفظ يرادفه ، ولا يفهم له معنى أصلا ، ولا يقال أنه يدل على صفة لله أصلا ، ويسط الكلام في هذا في المجلس الثاني كما سنذكره ان شاء الله تعالى .

(السؤال الثالث) قالوا التشبيه بالقمر فيه تشبيه كون الله في السماء بكون القمر في السماء .

(السؤال الرابع) قالوا قولك حق على حقيقته : الحقيقة هي المعنى اللغوي ، ولا نفهم من الحقيقة اللغوية الا استواء الاجسام وفوقيتها ، ولم تضع العرب ذلك إلا لها ، فثابت الحقيقة هو محض التجسيم ، ونفي التجسيم مع هذا تناقض ومصانعة .

فأجبتهم عن الاسئلة بأن قولي اعتقاد الفرقة الناجية : هي الفرقة التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بالنجاة ، حيث قال : (تفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة ، وهي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي) فهذا الاعتقاد هو المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ، وهم ومن اتبعهم الفرقة الناجية ، فانه قد ثبت عن غير واحد من الصحابة أنه قال الايمان يزيد وينقص ، وكل ما ذكرته في ذلك فانه مأثور عن الصحابة بالاسانيد الثابتة لفظه ومعناه ، واذا خالفهم من بعدهم لم يضر في ذلك .

ثم قلت لهم : وليس كل من خالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكا ، فان المنازع قد يكون مجتهدا مخطئا يغفر الله خطأه ، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة ، وقد تكون له من الحسنات ما يحو الله به سيئاته ، واذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة له لا يجب أن يدخل فيها المتأول والقانت وذو الحسنات الماحية والمغفور له وغير ذلك فهذا أولى ، بل موجب هذا الكلام أن من اعتقد ذلك نجا في هذا الاعتقاد ، ومن اعتقد ضده فقد يكون ناجيا ، وقد لا يكون ناجيا ، كما يقال من صمت نجا .

(وأما السؤال الثاني) فأجبتهم أولا بأن كل لفظ قلته فهو مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مثل لفظ فوق السموات ، ولفظ على العرش ، وفوق العرش

وقلت : اكتبوا الجواب ، فأخذ الكاتب في كتابته ، ثم قال بعض الجماعة قد طال المجلس اليوم فيؤخر هذا الى مجلس آخر ، وتكتبون أتم الجواب وتحضرونه في ذلك المجلس ، فأشار بعض الموافقين بأن يتم الكلام بكتابة الجواب ، لئلا تنتشر أسئلتهم واعتراضهم ، وكان الخصوم لهم غرض في تأخير كتابة الجواب ، ليستعدوا لانفسهم ويظالعوا ويحضروا من غاب من أصحابهم ، ويتأملوا العقيدة فيما بينهم ، ليتمكنوا من الطعن والاعتراض ، فحصل الاتفاق أن يكون تمام الكلام يوم الجمعة ، وقسنا على ذلك ، وقد أظهر الله من قيام الحجة وبيان المحجة ما أعز به السنة والجماعة ، وأرغم به أهل البدعة والضلالة •

وفي نفوس كثير من الناس أمور لم تحدث في المجلس الثاني ، وأخذوا في تلك الايام يتأملونها ويتأملون ما أجبت به في مسائل تتعلق بالاعتقاد مثل (المسألة الحموية في الاستواء والصفات الخبرية) وغيرها •

قال عليه الرحمة (فصل) فلما كان المجلس الثاني يوم الجمعة في اثني عشر رجب وقد أحضروا أكثر شيوخهم ممن لم يكن حاضرا ذلك المجلس ، وأحضروا معهم زيادة صفي الدين الهندي ، وقالوا هذا أفضل الجماعة وشيخهم في علم الكلام ، وبحسوا فيما بينهم ، واتفقوا وتواطئوا وحضروا بقوة واستعداد للمخاطب الذي هو المسؤل والمجيب والمناظر ، فلما اجتمعنا - وقد أحضرت ما كتبت من الجواب عن أسئلتهم المتقدمة التي طلبوا تأخيرها الى اليوم - حمدت الله بخطة الحاجة خطبة ابن مسعود رضي الله عنه ، ثم قلت : ان الله تعالى أمرنا بالجماعة والائتلاف ، ونهانا عن الفرقة والاختلاف ، وقال لنا في القرآن : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)^(١) وقال : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء)^(٢) وقال :

(ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات)^(٣)

وربنا واحد ، وكتابنا واحد ، ونبينا واحد ، وأصول الدين لا تحتمل التفرق والاختلاف ، وأنا أقول ما يوجب الجماعة بين المسلمين وهو متفق عليه بين السلف ، فان وافق الجماعة فالحمد لله ، والا فمن خالفني بعد ذلك كشفت الاسرار ، وهتكت الاستار ، وبينت المذاهب الفاسدة التي أفسدت الملل والدول ، وأنا أذهب الى سلطان الوقت على البريد ، وأعرفه من الامور ما لا أقوله في هذا المجلس ، فان للسلم

(١) آل عمران : ١٠٣ (٢) الانعام : ١٥٩ (٣) آل عمران : ١٠٥

كلاما ، وللحرب كلاما ، وقلت : لاشك أن الناس يتنازعون : يقول هذا أنا حنبلي ، ويقول هذا أنا أشعري ، ويجري بينهم تفرق وفتن واختلاف على أمور لا يعرفون حقيقتها ، وأنا قد أحضرت ما يبين اتفاق المذاهب فيما ذكرته ، وأحضرت كتاب (تبيين كذب المفتري فيما ينسب الى الشيخ أبي الحسن الأشعري) رضي الله عنه ، تأليف الحافظ أبي القاسم ابن عساكر رحمه الله ، وقلت : لم يصنف في أخبار الأشعري المحمود كتاب مثل هذا ، وقد ذكر فيه لفظه الذي ذكره في كتابه (الابانة) .

فلما انتهيت الى ذكر المعتزلة سألت الامير عن معنى المعتزلة ، فقلت : كان الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق الملبى - وهو من أول اختلاف حدث في الملة - هل هو كافر أو مؤمن ، فقالت الخوارج انه كافر ، وقالت الجساعة انه مؤمن ، وقالت طائفة تقول هو فاسق لا مؤمن ولا كافر ، تنزله منزلة بين المنزلتين ، وخذلوه في النار ، واعتزلوا حلقة الحسن البصري وأصحابه رحمه الله تعالى فسما معتزلة .

وقال الشيخ الكبير بجبته وردائه : ليس كما قلت ، ولكن أول مسألة اختلف فيها المسلمون مسألة الكلام ، وسمي المتكلمون متكلمين لأجل تكلمهم في ذلك ، وكان أول من قالها عمرو بن عبيد ، ثم خلف بعد موته عطاء بن واصل .
هكذا قال ، وذكر نحواً من هذا .

فغضبت عليه ، وقلت : أخطأت ، وهذا كذب مخالف للاجماع ، وقلت له : لا أدب ولا فضيلة ، لا تأدبت معي في الخطاب ، ولا أصبت في الجواب .

قلت : الناس اختلفوا في مسألة الكلام في خلافة المأمون ، وبعدها في أواخر المائة الثانية ، وأما المعتزلة فقد كانوا قبل ذلك بكثير من زمن عمرو بن عبيد بعد موت الحسن البصري في أوائل المائة الثانية ، ولم يكن أولئك قد تكلموا في مسألة الكلام ولا تنازعوا فيها ، وإنما أول بدعتهم تكلمهم في مسائل الاسماء والاحكام والوعيد ، فقال : هذا ذكره الشهرستاني في كتاب (الملل والنحل) فقلت الشهرستاني ذكره في اسم المتكلمين لم سماوا متكلمين ، لم يذكره في اسم المعتزلة ، والامير انما سأل عن اسم المعتزلة ، وأنكر الحاضرون عليه وقالوا غلظت ، وقلت في ضمن كلام أنا أعلم كل بدعة حدثت في الاسلام وأول من ابتدعها وما كان سبب ابتداعها ، وأيضا فما ذكره الشهرستاني ليس بصحيح في اسم المتكلمين ، فان المتكلمين كانوا يسمون بهذا الاسم قبل منازعتهم في مسألة الكلام ، وكانوا يقولون عن واصل بن عطاء إنه متكلم ويصفونه بالكلام ، ولم يكن الناس اختلفوا في مسألة الكلام ، وقلت أنا وغيري انما هو واصل بن عطاء أي لاعطاء بن واصل كما ذكره المعترض ، قلت : وواصل لم يكن

بعد موت عمرو بن عبيد وانما كان قرينه ، وقد روي أن واصلا تكلم مرة بكلام فقال عمرو بن عبيد لو بعث نبياً ما كان يتكلم بأحسن من هذا ، وفصحته شهورة حتى قيل انه كان الشغ وكان يحترز عن الرء ، حتى قيل له أمر الامير أن يحضر بئر فقال أوعز القائد أن يقلب قلب .

ولما انتهى الكلام الى مقاله الاشعري قال الشيخ المقدم فيهم . لا ريب أن الامام أحمد إمام عظيم القدر من أكبر أئمة الاسلام لكن قد انتسب اليه أناس ابتدعوا أشياء ، فقلت : أما هذا فحق ، وليس هذا من خصائص أحمد ، بل ما من امام الا وقد انتسب اليه أقوام هو منهم بريء ، قد انتسب الى مالك أناس مالك بريء منهم ، وانتسب الى الشافعي أناس هو بريء منهم ، وانتسب الى أبي حنيفة أناس هو بريء منهم ، وقد انتسب الى موسى عليه السلام أناس هو منهم بريء ، وانتسب الى عيسى عليه السلام أناس هو منهم بريء ، وقد انتسب الى علي بن أبي طالب أناس هو بريء منهم ، ونبينا صلى الله عليه وسلم قد انتسب اليه من القرامطة والباطنية وغيرهم من أصناف الملحدة والمنافقين من هو بريء منهم .

وذكر في كلامه أنه انتسب الى أحمد من الحشوية والمثبهة ونحو هذا

الكلام .

فقلت : المثبهة والمجسة في غير أصحاب الامام أحمد أكثر منهم فيهم ، هؤلاء أصناف : الاكراد كلهم شافعية وفيهم من التشبيه والتجسيم مالا يوجد في صنف آخر وأهل جيلان فيهم شافعية وحنبلية ، قلت : وأما الحنبلية المحضة فليس فيهم من ذلك ما في غيرهم ، وكان من تمام الجواب أن الكرامية المجسة كلهم حنفية .

وتكلمت على لفظ الحشوية — ما أدري جواباً عن سؤال الامير أو غيره أو غير جواب — فقلت هذا اللفظ أول من ابتدعه المعتزلة ، فانهم يسمون الجماعة والسواد الاعظم الحشو ، كما تسميهم الرافضة الجمهور ، وحشو الناس هم عموم الناس وجمهورهم ، وهم غير الاعيان المتميزين ، يقولون هذا من حشو الناس ، كما يقال هذا من جمهورهم ، وأول من تكلم بهذا عمرو بن عبيد ، قال : وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه حشويًا ، فالمعتزلة سموا الجماعة حشوا كما تسميهم الرافضة الجمهور .

وقلت — لا أدري في المجلس الاول أو الثاني — أول من قال ان الله جسم هشام

بن الحكم الرافضي .

وقلت لهذا الشيخ : من في أصحاب الامام أحمد رحمه الله حشوي بالمعنى الذي تريده ؟ الاثرم ، أبو داود ، المروزي ، الخلال ، أبو بكر عبد العزيز ، أبو الحسن التميمي ، ابن حامد ، القاضي أبو يعلى ، أبو الخطاب ، ابن عقيل ؟ ورفعت صوتي ، وقلت سمهم ، قل لي من هم ؟ من هم ؟ أبكذب ابن الخطيب وافترائه على الناس في مذاهبهم تبطل الشريعة وتندرس معالم الدين ؟ كما نقل هو وغيره عنهم أنهم يقولون ان القرآن القديم هو أصوات القارئ ومداد الكاتبين وان الصوت والمداد قديم أزلي من قال هذا ؟ وفي أي كتاب وجد هذا عنهم قل لي ؟ وكما نقل عنهم أن الله لا يرى في الآخرة باللزوم الذي ادعاه والمقدمة التي نقلها ، وأخذت أذكر ما يستحقه هذا الشيخ من أنه كبير الجماعة وشيخهم وأن فيه من العقل والدين ما يستحق أن يعامل بموجبه •

وأمرت بقراءة العقيدة جميعها عليه ، فانه لم يكن حاضرا في المجلس الاول ، وانما أحضروه في الثاني انتصارا ، وحدثني الثقة عنه بعد خروجه من المجلس أنه اجتمع به وقال له : أخبرني عن هذا المجلس ؟ فقال : ما فلان ذنب ولا لي ، فان الامير سأل عن شيء فأجابه عنه فظننته سأل عن شيء آخر وقال : قلت أتم ما لكم على الرجل اعترض ، فانه نصر ترك التأويل وأتم تصرون قول التأويل ، وهما قولان للاشعري وقال : أنا أختار قول ترك التأويل ، وأخرج وصيته التي أوصى بها وفيها قولي ترك التأويل •

قال الحاكي لي : فقلت له بلغني عنك أنك قلت في آخر المجلس لما أشهد الجماعة على أنفسهم بالموافقة لا تكتبوا عني نفي ولا اثباتا فلم ذاك ؟ فقال : لوجهين : (أحدهما) أنني لم أحضر قراءة جميع العقيدة في المجلس الاول ، (والثاني) لأن أصحابي طلبوني لينتصروا بي فما كان يليق أن أظهر مخالفتهم فسكت عن الطائفتين •

وأمرت غير مرة أن يعاد قراءة العقيدة جميعها على هذا الشيخ ، فرأى بعض جماعة أن ذلك تطويل ، وأنه لا يقرأ عليه الا الموضوع الذي لهم عليه سؤال ، وأعظموه لفظ الحقيقة ، فقرأوه عليه ، فذكر هو بحثا حسنا يتعلق بدلالة اللفظ ، فحسنته ومدحته عليه ، وقلت : لا ريب أن الله حي حقيقة ، عليم حقيقة ، سميع حقيقة ، بصير حقيقة ، وهذا متفق عليه بين أهل السنة والصفاتية من جميع الطوائف ، ولو نازع بعض أهل البدع في بعض ذلك فلا ريب أن الله موجود والمخلوق موجود ، ولفظ الوجود سواء كان مقولا عليهما بطريق الاشتراك اللفظي ، أو بطريق

التواطؤ المتضمن للاشتراك لفظاً ومعنى ، أو بالتشكيك الذي هو نوع من التواطؤ ، فعلى كل قول فالله موجود حقيقة ، والمخلوق موجود حقيقة ، ولا يلزم من اطلاق الاسم على الخالق والمخلوق بطريق الحقيقة محذور ، ولم أر أرجح في ذلك المقام قولاً من هذه الثلاثة على الآخر ، لأن غرضي تحصل على كل مقصودي ، وكان مقصودي تقرير ما ذكرته على قول جميع الطوائف ، وأن أبين اتفاق السلف ومن بعدهم على ما ذكرت ، وأن أعيان المذاهب الأربعة والاشعري وأكابر أصحابه على ما ذكرته ، فإنه قبل المجلس الثاني اجتمع بي من أكابر علماء الشافعية والمنتسبين إلى الأشعرية والحنفية وغيرهم من عظم خوفهم من هذا المجلس ، وخافوا انتصار الخصوم فيه وخافوا على نفوسهم أيضاً من تفرق الكلمة ، فلو أظهرت الحجة التي ينتصر بها ما ذكرته ، ولم يكن من أئمة أصحابهم من يوافقها صارت فرقة وتعصب عليهم أن يظهروا في المجالس العامة الخروج عن أقوال طوائفهم بما في ذلك من تمكن أعدائهم من اعتراضهم ، فإذا كان من أئمة مذهبهم من يقول ذلك وقامت عليه الحجة وبان أنه مذهب السلف أمكنهم اظهار القول به ما يعتقدونه في الباطن من أنه الحق ، حتى قال بعض الأكابر من الحنفية - وقد اجتمع بي - لو قلت هذا مذهب أحمد وثبت ذلك لانقطع النزاع ، ومقصوده أنه يحصل دفع الخصوم عنك بأنه مذهب متبوع ويستريح المنتصر والمنازع من اظهار الموافقة . فقلت : لا والله ليس لاحمد بن حنبل في هذا اختصاص ، وانما هذا اعتقاد سلف الأمة وأئمة أهل الحديث ، وقلت أيضاً هذا اعتقاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل لفظ ذكرته فانا أذكر به آية أو حديثاً أو اجماعاً سلفياً ، وأذكر من ينقل الاجماع عن السلف من جميع طوائف المسلمين والفقهاء الأربعة والمتكلمين وأهل الحديث والصوفية ، وقلت لمن خاطبني من أكابر الشافعية لا تبين أن ما ذكرته هو قول السلف وقول أئمة أصحاب الشافعي وأذكر قول الأشعري وأئمة أصحابه التي ترد على هؤلاء الخصوم ، ولينتصرن كل شافعي وكل من قال بقول الأشعري الموافق لمذهب السلف ، وأبين أن القول المحكي عنه في تأويل الصفات الخيرية قول لا أصل له في كلامه ، وانما هو قول طائفة من أصحابه ، فللاشعرية قولان ليس للاشعري قولان .

فلما ذكرت في المجلس أن جميع أسماء الله التي سمي بها المخلوق كلفظ الوجود الذي هو مقول بالحقيقة على الواجب والممكن على الاقوال الثلاثة : تنازع كبيران هل هو مقول بالاشتراك أو بالتواطؤ ؟ فقال أحدهما هو متواطئ ، وقال الآخر هو

مشترك لتلازم التركيب ، وقال هذا قد ذكر فخر الدين أن هذا النزاع مبني على أن وجوده هل هو عين ماهيته أم لا ؟ فسن قال وجود كل شيء عين ماهيته قال انه مقول بالاشتراك ، ومن قال ان وجوده قدر زائد على ماهيته قال انه مقول بالتواطؤ ، فأخذ الاول يرجح قول من يقول ان الوجود زائد على الماهية لينصر أنه مقول بالتواطؤ ، فقال الثاني مذهب الاشعري وأهل السنة أن وجوده عين ماهيته ، فانكر الاول ذلك فقلت : أما متكلموا أهل السنة فعندهم أن وجود كل شيء عين ماهيته ، وأما القول الآخر فهو قول المعتزلة ان وجود كل شيء قدر زائد على ماهيته ، وكل منهما أسباب من وجه ، فان الصواب أن هذه الاسماء مقولة بالتواطؤ كما قد قررته في غير هذا الموضوع ، وأجبت عن شبهة التركيب بالجوابين المعروفين ، وأما بناء ذلك على كون وجود الشيء عين ماهيته أو ليس عينه فهو من اللفظ المضاف الى ابن الخطيب ، فأنا وان قلنا ان وجود الشيء عين ماهيته لا يجب أن يكون الاسم مقولا عليه وعلى نظيره بالاشتراك اللفظي فقط ، كما في جميع أسماء الاجناس ، فان اسم السواد مقول على هذا السواد وهذا السواد بالتواطؤ ، وليس هذا السواد عين هذا السواد ، اذ الاسم دال على القدر المشترك بينهما وهو المطلق الكلي ، لكنه لا يوجد مطلقا بشرط الاطلاق الا في الذهن ، ولا يلزم من ذلك نفي القدر المشترك بين الاعيان الموجودة في الخارج ، فانه على ذلك تنتفي الاسماء المتواطئة وهي جمهور الاسماء في الغالب ، وهي أسماء الاجناس اللغوية ، وهو الاسم المطلق على الشيء وعلى كل ما أشبهه ، سواء كان اسم عين أو اسم صفة ، جامدا أو مشتقا ، وسواء كان جنسا منطقيا أو فقهايا أو لم يكن ، بل اسم الجنس في اللغة يدخل فيه الاجناس والاصناف والانواع ونحو ذلك ، وكلها أسماء متواطئة وأعيان مسمياتها في الخارج متميزة .

وطلب بعضهم إعادة قراءة الاحاديث المذكورة في العقيدة ليطعن في بعضها فعرفت مقصوده ، فقلت : كأنك قد استعددت للطعن في حديث الاعداد حديث العباس ابن عبد المطلب - وكانوا قد تعبوا حتى ظفروا بما تكلم به زكي الدين عبد العظيم من قول البخاري في تاريخه : عبد الله بن عمرة لا يعرف له سماع من الاحنف - فقلت : هذا الحديث - مع أنه رواه أهل السنن كأبي داود وابن ماجه والترمذي وغيرهم فهو - مروى من طريقين مشهورين ، فالقدح في أحدهما لا يقدرح في الآخر ، فقال : أليس مداره على ابن عمرة وقد قال البخاري لا يعرف له سماع من الاحنف ؟ فقلت : قد رواه امام الأئمة ابن خزيمة في (كتاب التوحيد) الذي اشترط فيه أنه لا يحتج فيه الا بما

نقله العدل عن العدل موصولاً الى النبي صلى الله عليه وسلم ، قلت والاثبات مقدم على النفي ، والبخاري انما نفى معرفة سماعه من الاحنف لم ينف معرفة الناس بهذا ، فاذا عرف غيره ما ثبت به الاسناد كانت معرفته واثباته مقديما على نفي غيره وعدم معرفته ، ووافق الجماعة على ذلك ، واخذ بعض الجماعة يذكر من المدح ما لا يليق أن أحكيه ، واخذوا يناظرون في أشياء ثم تكن في العقيدة ، ولكن انما تعلقوا بما أجت به في مسائل وله تعلق بما قد يفهمونه من العقيدة •

فأحضر بعض أكابرهم (كتاب الاسماء والصفات) لليهقي رحمه الله تعالى ، فقال : هذا فيه تأويل الوجه عن السلف ، فقلت : لعلك تعني قوله تعالى : (**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَمُؤْجِهٌ لِلَّهِ**) فقال : نعم قد قال مجاهد والشافعي يعني قبة الله ، فقلت : نعم هذا صحيح عن مجاهد والشافعي وغيرهما وهذا حق ، وليست هذه آية من آيات الصفات ، ومن عدها في الصفات فقد غلط كما فعل طائفة ، فان سياق الكلام يدل على المراد حيث قال : (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) والمشرق والمغرب الجهات ، والوجه هو الجهة ، يقال أي وجه تريد أي أي جهة ، وأنا أريد هذا الوجه أي هذه الجهة ، كما قال تعالى : (**وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُؤْكِسَهَا**) ولهذا قال : (**فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَمُؤْجِهٌ لِلَّهِ**) أي تستقبلوا وتتوجهوا انتهى •

هذا ما وجدناه منقولاً عن نقل من خط المصنف شيخ الاسلام تقي الدين قدس الله روحه ، وغرضنا من نقله أن يتبين لناظر في هذا الكتاب أن من ينقل عنهم الغبي النبهاني من مطاعن الشيخ كصدر الدين ابن الوكيل وابن الزمكاني وصفي الدين الهندي والعز بن جماعة والسبكي ونحوهم من غلاة الشافعية كلهم كانوا خصوما ألداء للشيخ فلا يلتفت الى قدحهم وجرحهم ، والشيخ قد كابد منهم ما كابد ، وهؤلاء وأضرابهم الذين شيدوا أركان البدع ، ونفشوا سم ضلالهم في أفواه متبعيهم قاتلهم الله أجمعين ، على أن ما ذكر في هذه المناظرة تنفع في مباحث كثيرة تأتي ان شاء الله . وبها يرتدع الخصم الألد •

قال النبهاني : ومنهم الامام أبو حيان وكان صديقا له ، فلما اطلع على بدعه رفضه رفضا بتا وحذر الناس منه •

(أقول) نعم ، كان الشيخ أبو حيان من المثمين على ابن تيمية بالثناء الحسن الجميل ، وله شعر جيد في مدحه نذكره في مناقبه المنقولة عن الشيخ مرعي الحنبلي ، وما ذكره من الرفض لم نعلمه ممن يوثق به ، نعم ذكر الامام الذهبي أنه بعد أن مدحه دار بينها كلام فجري ذكر سيويه فأغلظ الشيخ ابن تيمية القول في سيويه ، فناظره أبو حيان بسببه ، ثم عاد داما له . وصير ذلك ذنبا لا يغفر ، ويقال أن ابن تيمية قال له ما كان سيويه نبي النحو ولا معصوما بل أخطأ في الكتاب في ثمانين موضعا ماتفهمها أنت ، فكان ذلك سبب مقاطعته اياه ، وذكره في تفسيره البحر بكل سوء ، وكذا في مختصره النهر انتهى ، فمن الممكن أن يقع بين العلماء مثل ذلك ، ولكن من المعلوم أن طعن أبي حيان انما كان بعد تخطئة ابن تيمية له والحط على سيويه ، وما ذكره النبهاني الجاهل أن رفضه كان بعد أن اطلع على بدعه قول ساقط ، والسبب الذي كان من أجله المنافرة قد ذكره أهل العلم ، وأي بدعة تنسب للشيخ تقي الدين حتى يهجره بسببها أبو حيان النحوي ؟ وما ذهب اليه من الاختيارات كلها مبرهنة بالكتاب والسنة ، كما في كتاب (الاختيارات) ولكن النبهاني الجاهل الغافل ظن ذلك هيعة قطار اليها (١) ثم ان من مدح وذم فقد كذب مرتين ، على أن قدح المعاصر معلوم حاله ، والرجل ليس من أهل الجرح والتعديل حتى يعول عليه .

(قال النبهاني) ومنهم الامام عز الدين بن جماعة رد عليه وشنع عليه كثيرا .
(جوابه) أن العز هذا كان من أعظم خصوم الشيخ وحديثه ، وكانت أقواله في الشيخ تقي الدين وبهتانه عليه من أنكى سلاح ابن حجر المكي في الطعن على أهل التوحيد وأعداء الغلاة ، وقد عقد ابن السبكي ترجمة له في طبقاته فلا تتعب القلم بها .
(قال النبهاني) ومنهم الامام كمال الدين الزملكاني الشافعي المتوفي سنة سبع وعشرين وسبعمائة ، ثم نقل ترجمته عن تاريخ ابن الوردي والثناء عليه ، ثم نقل عن كتاب كشف الظنون كتاب الدررة المضية في الرد على ابن تيمية ، قال : وقد ناظره في مسائله التي شذ بها عن المذاهب الاربعة ، ثم قال : ومن أشنعها مسألة منعه شد الرجل وإعمال المطي لزيارة القبور ، ومنعه الاستغاثة بغير الله ، ثم أورد له أبياتا التجأ فيها بغير الله ، إلى آخر ما قال .

(جوابه) أن كمال الدين هذا قد سبق ذكره في مجالس المناظرة ، وأنه أحد خصوم الشيخ تقي الدين ، ومثله لا يرجى منه أن يشى عليه ، ومع ذلك فقد أثنى عليه كل الثناء ، وسيأتي بيانه عند الكلام على مناقب الشيخ عليه الرحمة ، ثم ان الرد على

بعض مسائل ابن تيمية لا يقتضي الجرح فيه ، فمن المعلوم ما ألف من الردود على العلماء والمجتهدين ، هؤلاء الأئمة الأربعة كم ردوا عليهم وكم خالفهم من مخالف ، حتى أن أصحاب الأئمة يردون على أئمتهم ، ولم يقل أحد إن كل من يرد عليه كلامه يكون من المتبدعين والسالكين غير سبيل المؤمنين ، كما يزعمه هذا الغبي وأضرابه من غلاة الشافعية •

(قال النبهاني) ومنهم الامام الكبير الشهير تقي الدين السبكي ، ثم نقل عنه عبارته التي في كتاب (شفاء السقام) المشتملة على القدح في شيخ الاسلام ابن تيمية ، ومنها قوله : وحسبك أن انكار ابن تيمية للاستعانة والتوسل قول لم يقله عالم قبله ، وصار به بين أهل الاسلام مثله ، الى آخر ما قال مما هو على هذا المنوال •

(أقول في الجواب) عن هذا الهذيان والكلام العاري عن الدليل والبرهان : ان السبكي هذا شيخ أعداء ابن تيمية وغميدهم ، وعليه يعتمد الطاعنون شقيهم وسعيدهم والمناظرات التي كانت بين السبكي وبين الشيخ قد ملأت الدفاتر ، ونفذت منها المحابر ، وما هذى به السبكي في حق الشيخ كله قد رد عليه وعاد وباله اليه ، وما كتبه في مسألة الطلاق من الاعتراض قد رد عليه شيخ الاسلام بمجلدات رأى ابن السبكي منها مجلدا ، وشفاء السقام رد عليه الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي ، وبرد السبكي على الشيخ في المسألتين السابقتين لم يزل يفتخر على أهل الحق نظما ونثرا ، ومن نظمه في ذلك ما قاله في أبياته المشهورة :

لو كان حيا يرى قولي ويسمعه	رددت ما قال ردا غير مشتبه
كما رددت عليه في الطلاق وفي	ترك الزيارة أقفوا اثر سببته
وبعده لا أرى للرد فائدة	هذا وجوهه مما أضن به
والرد يحسن في حالين واحدة	لقطع خصم قسوي في تغلبه
وحالة لا تنفع الناس حيث به	هدى وربح لديهم في تكسبه

وما أحسن ما رد عليه الامام أبو المظفر الحنبلي معارضا لآياته هذه :

وقلت من بعد هذا قول ذي حسد	أخطأ الهدى وتجارى في تنكبه
(لو كان حيا يرى قولي ويسمعه	رددت ما قال ردا غير مشتبه)
(كما رددت عليه في الطلاق وفي	ترك الزيارة أقفوا اثر سببته)
فضحت نفسك في هذا المقال ولم	تشرع وعجت عن المرعى وأخصبه

عرفتنا ان ما قد قلت ليس لوجـ
اذ لو أردت بيان الحق فهت به
مذاك صدك بل خوف الجواب كما
ذا شأن من لم يجرّد صار ما ذكرنا
لكن اذا الاسد الضرغام غاب عن الـ
كذا الجبان خلا في البر صاح الا
ولو سمعت جواب الرد رحت فتى
وفد كفاني أبو العباس كلفته
ووافقه سراة الناس عن كذب
من أهل بغداد والآيات شاهدة
عبت الذي قال مافيه الخلاف من اي
وقلت تنكح زوجا غيره ونكا
وكيف تنكح من لم تبر عصمتها
وفي الزيارة لم تنصف رددت على
ردا ملخصه أشياء أذكرها
أما صحيح ولكن لا دليل به
أما بمجمل لفظ قول خصمك من
أما بلا علم لي والجهل غايته
فأي رد لعمرى قد رددت وما
ان كان عندك في شد الرحال الى الـ
ليعرف الحق من كان أخا نظر
أنى وذلك كالعناء في عدم
ما أنت الا كما قد قيل في مثل
فشيخنا بصريح الحق حجته
فمن أحق بحق القول ان ظهر الـ
(وقلت ما بعدده للرد فائدة
ماذا الكلام وما معناه قلنا
ما ذلك الجوهر المضمون ويحك هل

ه الله بل للرا أقبح بنصبه
في محضر الخصم اما في مغيبه
أجبت قبل بسهم من مصوبه
ماضي الفرارين غضبا من مجرّه
عرين تسمع فيه ضج ثعلبه
مبارز وتغالى في توثبه
من أعظم الخلق عن جرم واتوبه
كذا أرحت لساني غير متعبه
من أهل مذهبه أو غير مذهبه
لهم وللحق مصباح يبين به
قاع الثلاث ولو أفتى بأغربه
حها مع الخلف باق في تذبذبه
بلا خلاف لشخص مع تجنّبه
مالم يقله ولم تمرر بسببه
أما حديث ضعيف عند مطلبه
على مرادك بل هدم لمنصبه
أقوى المقال به قسرا وأصوبه
أيعذر الشخص فيما لا أحاط به
ذا قلت اذ قلت أقفوا أثر سببه
قبور نقل فعارضه بموكبه
خال عن العلم ناء عن تعصبه
وكالسمندل يحكي مع تغيبه
خالف لتعرف مشهور لضربه
ونقد نقلك زيف في ثقلبه
انصاف مرتفعا من فوق مرّبه
هذا وجوهه مما أضن به)
أمدح أم هجو أعرب عن معربه
تعني به الشيخ أو ردا لمذهبه

فان يك ماذا الطعن فيه أو الـ
(والرد يحسن في حالين واحدة
(وحالة لا تتفاد الناس حيث به
كنم العلوم حرام لا يجوز الذي
والرد في الحالة الأولى مضي هدرا
فقل ورد ان اسطعت السبيل اذا
حاشا وكلا واني بالسبيل الى
قل كي ترى سننا تستن في سنن الـ
ورهنه وتريك الحق أظهر من

جواب عن قوله نور بغيره
لقطع خصم قوي في تغلبه)
هدى وربح لديهم في تكسبه)
علم يضمن بعلم عند طلبه
فاستدرك الحال الاخرى قبل مذهبه
وانفع به الناس كي تحظى بأثوبه
رد الصواب وقد وافي بكبكه
هدى تنكس جهسا عن ثوبه
شمس الضحى وهلالا وسط عيبه

وقال الامام أبو عبد الله محمد بن جنال الدين الشافعي رحمه الله من جملة
قصيدته التي عارض السبكي بها :

وما رددت عليه في الطلاق فما
بل فاسد القصد أعمى الذهن منك
نزلت حول حماه كي تنازله
وقد أجابك فانظر في الجواب ترى
أخذت منه علوما فاتصرت بها
وحزتها مجملات من مفصلة
وهكذا كل من سارت ركائبه
وان تبجحت بالردين لست له
كم بحر علم أتاه عاد ساقية
وما نرى لكم في الخلق فائدة
أين الثريا مكانا في ترفعها
من ذا يقيس نقي الجلد من درن الـ
لو كان عندك أنصاف ومكرمة
لكنت تقفو وراه قفو مجتهد
لو وفق الله أهل الارض قاطبة
وما نسبتم اليه عند ذكركم
فقد أجابكم عن ذا بأجوبة

حققت نقلا ولا عقلا ظفرت به
كما هي عادة الله فيمن شان مذهبه
فما علوت عليه بل علوت به
سيفا تجول المنايا عند مضربه
على سواه وكانت من مهذبه
ففصل الآن ما أجملت تحظ به
يقفو خطاه فسائل من مجربه
كفوا ولا أهل هذا العصر فاتبه
وكم جهول أتاه صار منتبه
غير التنعم في النعماء من شبه
من الثرى قال هذا كل منتبه
دنيا وأمراضها يوما بأجره
وجود معرفة أو ذهن منتبه
علما ودنيا وأمرا تفلحن به
الى الصواب لساروا خلف مذهبه
ترك الزيادة أمر لا يقول به
أزال فيها صدى الاشكال والشبه

لكل ذي فطنة في القول معربه
والله ينصفه من رماه به
سقى الانام بها من صفو مشربه
شد الرحال اليها فادر واتبه
خير القرون أولى التحقيق والنبه
قالوا كما قال قول غير مثبته
أهل العراق على فتياه فافت به
فيما تقدم قولاً غير منجبه
رددت ما قال رداً غير مثبته ()
مثل الصواعق تردى من تمر به
من كل أروع شتم القلب منتبه
يريك ثرا ونظماً في تأدبه
يكاد يخشى عليه من تلهبه
من الكلام ولا يخشون ذا النبه
فليس ذو منصب يحمى بمنصبه
ولا تكن سالكا في أثر سببه
بمثل احسانه أو قبح مكسبه
بحرا وقافية في النظم والشبه
جار على مرما يقضي وأطيبه
محمد المصطفى الهادي بمذهبه
ماشرق الجو من أنوار كوكبه

وقد تبين هذا في مناسكه
رमितموه بهتان يشان به
وفي الجواب أمور من تدبرها
ولم يكن مانعا نفس الزيارة بل
تمسكا بصحيح النقل متبعا
مع الأئمة أهل الحق كلهم
وقد علمت يقينا حين وافقه
هذا وقد قلت فيما قلت مرتجلا
(لو كان حيا يرى قولي ويسمعه
فابرز ورد ترى والله أجوبة
عقلا ونقلا وآيات مفصلة
ماضي الجنان كحد السيف فكرته
وقاد ذهن اذا جالت قريحته
يقابلون الذي يأتي بمشتبته
فنزل القوم في أعلى منازلهم
وانظر الى من طغى في الارض من أمم
أن الاله يجازي كل ذي عمل
هذا جوابك يا هذا موازنة
والحمد لله حمدا لانفاد له
ثم الصلاة على خير الورى شرفا
وآله والصحاب الغر كلهم

وكلا القصيدتين مشهورتان ، وقد رأيت مالقي السبكي من الويل والعطب
بسبب مجاوزته حده في الجهل والحسد ، وما أحسن ما وصف به الحافظ أبو عبد
الله بن قدامه كتاب (شفاء السقام) وترجم مؤلفه السبكي .

(أما وصف الكتاب) فهو هذا : قال الحافظ أما بعد فاني وُقت على الكتاب
الذي ألفه بعض قضاة الشافعية ، في الرد على شيخ الاسلام تقي الدين أبي العباس
أحمد بن تيمية ، في مسألة شد الرحال وإعمال المطي الى القبور ، وذكر أنه قد سماه
شن الغارة على من أنكر سفر الزيارة ، ثم زعم أنه اختار أن يسميه (شفاء السقام)

في زيارة خير الانام) فوجدت كتابه مشتملا على تصحيح الاحاديث الضعيفة والموضوعة ، وتقوية الآثار الواهية والمكذوبة ، وعلى تضعيف الاحاديث الصحيحة الثابتة ، والآثار التقوية المقبولة وتحريفها عن مواضعها ، وصرفها عن ظاهرها ، بالتأويلات المستتكرة المردودة •

ثم أخذ يصف المؤلف ويترجم أحواله فقال : ورأيت مؤلف هذا الكتاب المذكور رجلا مساريا معجبا برأيه ، متبعا لهواه ، ذاهبا في كثير مما يعتقده الى الاقوال الشاذة والآراء الساقطة ، صار في أشياء مما يعتمده الى الشبه المخيلة ، والحجج الداحضة وربما خرق الاجماع في مواضع لم يسبق اليها ، ولم يوافقه أحد من الأئمة عليها ، وهو في الجملة لون غريب وبناء عجيب ، تارة يسلك فيما ينصره ويقويه مسلك المجتهدين فيكون مخطئا في ذلك الاجتهاد ، ومرة يزعم فيما يقوله ويدعيه أنه من جملة المقلدين فيكون من قلده مخطئا في ذلك الاعتقاد ، نسأل الله سبحانه أن يلهمنا رشدنا ويرزقنا الهداية والسداد ، هذا مع أنه ان ذكر حديثا مرفوعا أو أثرا موقوفا - وهو غير ثابت - قبله اذا كان موافقا لهواه ، وان كان ثابتا رده اما بتأويل أو غيره اذا كان مخالفا لهواه ، وان نقل عن بعض الأئمة الاعلام - كمالك وغيره - ما يوافق رأيه قبله وان كان مطعون فيه غير صحيح عنه ، وان كان مما يخالف رأيه رده ولم يقبله وان كان صحيحا ثابتا ، وان حكى شيئا مما يتعلق بالكلام على الحديث وأحوال الرواة عن أحد من أئمة الجرح والتعديل - كالامام أحمد بن حنبل وأبي حاتم الرازي ، وأبي حاتم البستي ، وأبي جعفر العقيلي ، وأبي أحمد بن عدي ، وأبي عبد الله الحاكم صاحب المستدرک ، وأبي بكر البيهقي ، وغيرهم من الحفاظ ، وكان مخالفا لما ذهب اليه - لم يقبل قوله ورده عليه وناقشه فيه ، وان كان ذلك الامام قد أصاب في ذلك القول ووافق غيره من الأئمة عليه ، وان كان موافقا لما صار اليه تلقاه بالقبول واحتج به واعتمد عليه ، وان كان ذلك الامام قد خولف في ذلك ولم يتابعه غيره من الأئمة عليه ، وهذا هو عين الجور والظلم وعدم القيام بالقسط ، نسأل الله التوفيق ونعوذ به من الخذلان واتباع الهوى ، هذا مع أنه حملته اعجاب به برأيه وغلبه اتباع هواه على أن نسب سوء الفهم والغلط في النقل الى جماعة من العلماء الاعلام ، المعتمد عليهم في حكاية مذاهب الفقهاء واختلافهم وتحقيق معرفة الاحكام ، حتى زعم أن مانقله الشيخ أبو زكريا النووي في شرح مسلم عن الشيخ أبي محمد الجويني من النهي عن شد الرحال وإعمال المطي الى غير المساجد الثلاثة

كالذهاب الى قبور الانبياء والصالحين والى المواضع الفاضلة ونحو ذلك — هو ما غلط فيه على الشيخ أبي محمد ، وأن ذلك وقع منه على سبيل السهو والغفلة ، قال : ولو قاله يعني الشيخ أبا محمد أو غيره ممن يقبل كلامه الغلط لحكمتنا بغلطه وأنه لم يفهم مقصود الحديث •

فانظر الى كلام هذا المعارض المتضمن لرد النقل الصحيح بالرأي الفاسد ، واجمع بينه وبين ما حكاه عن شيخ الاسلام من الافتراء العظيم ، والافك المبين ، والكذب الصراح ، وهو ما نقله عنه من أنه جعل زيارة قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقبور الانبياء عليهم السلام معصية بالاجماع مقطوعا بها ، هكذا ذكر المعارض عن بعض قضاة الشافعية عن الشيخ أنه قال هذا القول الذي لا يشك عاقل من أصحابه وغير أصحابه أنه كذب مفترى ، لم يقله قط ولا يوجد في شيء من كتبه ولا دل كلامه عليه ، بل كتبه كلها ومناسكه وفتاويه وأقواله وأفعاله تشهد ببطان هذا النقل عنه ، ومن له أدنى علم وبصيرة يقطع بأن هذا مفتعل مخلق على الشيخ ، وأنه لم يقله قط ، وقد قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)^(١) وهذا المعارض يعلم أن ما نقله هذا القاضي المشهور — بما لأحب حكايته عنه — في هذا المقام عن شيخ الاسلام من هذا الكلام كذب مفترى لا يرتاب في ذلك ، ولكنه يطفف ويداهن ويقول بلسانه ما ليس في قلبه ، قال : ولقد أخبرني الثقة أنه ألف هذا الكتاب لما كان بصر قبل أن يلي القضاء بالشام بمدة كبيرة ، ليتقرب به الى القاضي الذي حكى عنه هذا الكذب ويحظى لديه فخاب أمله ولم ينفق عنده ، وقد كان هذا القاضي الذي جمع المعارض أعني السبكي كتابه هذا لأجله من أعداء الشيخ المشهورين ، وقد زعم هذا المعارض أيضا — مع هذا الامر الفظيع الذي ارتكبه من التكذيب بالصدق ، والتصديق بالكذب — أن الفتاوى المشهورة التي أجاب بها علماء أهل بغداد موافقة للشيخ مختلقة موضوعة ، وضعها بعض الشياطين — هكذا زعم — مع علم الخاص والعام بأن هذه الفتاوى مما شاع خبرها وذاع ، واشتهر أمرها وانتشر ، وهي صحيحة ثابتة متواترة عن أفتى بها من العلماء ، وقد رأيت أنا وغيري خطوطهم بها ، فانظر الى تكذيب هذا المعارض بما لم يحط به علما ، وجراته على

انكار ماشتهر وتواتر ، وكيف يحل لمن ينتسب الى شيء من الدين أن ينسب أمرا مقطوعا بكذبه الى من لم يقله ، ويقدم في أمر مشاهد مقطوع بصحته ، ويزعم أنه مختلق من بعض الشياطين . هذه عثرة لاتقال وله مثلها كثيرا ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ، قال : فلما وقفت على هذا الكتاب المذكور وهو (شفاء السقام) أحسبت أن أئبه على ما وقع فيه من الامور المنكرة ، والاشياء المردودة ، وخلط الحق بالباطل ، لئلا يعتر بذلك بعض من يقف عليه من لاخبرة له بحقائق الدين ، مع أن كثيرا منا فيه من الوهم والخطأ يعرفه خلق من المبتدئين في العلم بأدنى تأمل والله الحمد ، ولو نوقش مؤلف هذا الكتاب علي جميع ما اشتمل عليه من الظلم والعدوان والخطأ والخبط والتخليط والغلو والتشنيع والتلبيس لظال الخطاب ، وبلغ الجواب مجلدات ، ولكن التنبيه على القليل مرشد الى معرفة الكثير لمن له أدنى فهم ، والله المستعان ، انتهى .

(وقال الحافظ أبو عبد الله أيضا) في موضع آخر من كتابه (الصارم المنكي) وقد سمعت أخا شيخ الاسلام يذكر هذا النص الذي حكاه القاضي اسمعيل في المبسوط عن مالك لهذا المعترض بحضرة بعض ولاية الامر ، فغضب المعترض وهو السبكي غضبا شديدا ولم يجبه بأكثر من قوله هذا كذب على مالك ، فانظر الى جرأة هذا المعترض واقدامه على تكذيب مالك يحط بعلمه بغير برهان ولا حجة بل بمجرد الهوى والتخرص ، وليس هذا بيدع منه فانه قد عرف منه مثل ذلك في غير موضع ، وهو من أشد الناس مخالفة لمالك في هذه المواضع التي لا يعرف لأحد من كبار الأئمة أنه خالف مالكا فيها ، بل قد حمله فرط غلوه ومتابعته هواه على نسبة أمور عظيمة — لأحب ذكرها — الى من قال بقول مالك في هذه المواضع التي لا يعرف عن امام متبوع مخالفته فيها ، نعوذ بالله من الخذلان ، ومن عجب أن هذا المعترض صحح الحكاية المنقولة عن مالك مع أبي جعفر المنصور لأن فيها ما يتابع هواه ، مع أنها غير صحيحة ، بل هي باطلة موضوعة ، وكذب هذا النقل الثابت الذي ذكره القاضي اسمعيل في المبسوط لشدة مخالفته لهواه ومقصده وما ذهب اليه ، وأعرض عما ذكره أيضا في المبسوط من قول مالك لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ، ولكن يسلم ويمضي ، لأنه مخالف لهواه ، وتمسك بما في كتاب (الموازنة) لمتابعته هواه في ظنه ، وهكذا عادته ودأبه يكذب النصوص الثابتة أو يعرض عنها ، ويقبل الاشياء الواهية التي لم تثبت والامور المججلة الخفية ويتمسك بها بكلتا يديه ،

وليس هذا شأن من يقصد الحق وايضاح الدين للخلق ، نسأل الله تعالى التوفيق ،
وذكر هذا الامام الحافظ في أثناء كتابه كثيرا من أحوال السبكي التي لاترضي
الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلا بدع من هذا المبتدع بل القبوري
وهو النبهاني أن يحتج على ترويج مقاصده بالسبكي وأمثاله من أسلافه غلاة
الشافعية ، بل الفرقة الزائفة الحلوية أعداء الحق وأهله ، وخصوم الدين ومن
أخذ به •

(قال النبهاني) ورأيت للامام السبكي عبارة موجودة الآن بخط يده في المكتبة
الخالدية في القدس ، وقد أرسلت فاستكتبتها وهذه صورتها بحروفها : (قال رحمه
الله تعالى) في سنة احدى وخمسين وسبعمائة وقفت على كتاب العقل والنقل لابن
تيمية ، فوجدت فيه مواضع أنكرتها وكتبت على بعضها حواشي ، فتحررت أنوف
خلق له ، ففكرت في انتشار أصحاب هذا الرجل وما يخشى من انتشار بدعته وعدم
من يقاومهم ، فكتبت ليلة السبت عاشر شوال سنة أحد وخمسين وسبعمائة رقعة الى
سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأل الله فيها ذلك • (وفي آخرها)
إن كنت مصيبا في اعتقادي فقوِّني ، وان كنت مخطئا فاهدني ، ثم أصبحت ورفعتها
للشيخ نور الدين السخاوي ليحملها فانه عزم على الحج وكان ذلك قبل الظهر ، فلما
كان الظهر جاءني شخص فأخبرني عن ابن تيمية بخبر يوجب شوطي فيه ، وكنت
سمعت عنه من شخص مسألة من نحو أربعين سنة فلم أصدقها فلما تابعها هذا وقع في
قلبي صحة ذلك ، ثم جاء آخر وآخر وآخر بمثل ذلك ، ثم نظمت قصيدة أرسلتها مع
الشيخ نور الدين أيضا ، فلما أكملت نظمها في ليلة الاثنين ثاني عشر الشهر المذكور
وقع في قلبي أن الله تعالى ما هيا لي تلك الاخبار في ذلك اليوم الا هداية وجوابا عما
سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانظر هذه القضية ما أعجبها ، وفضل رسول
الله صلى الله عليه وسلم عليّ •

وها أنا أذكر نص ما كتبت في تلك الورقة وما نظمت ان شاء الله ، والمرجو من
الله ارسالها ووصولها الى النبي صلى الله عليه وسلم ونجحهما ان شاء الله ، أما
الورقة فنص ما فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
يارسول الله اني عييد ضعيف عاجز مسكين ، وجميع ما حصل لي من خير الدنيا

والآخرة أنت كنت سببه ، وأنت وسيلتي الى الله سبحانه ، واني نشأت على دين الاسلام سالما عن الشبه والبدع والاهوية والاعراض والميل الى جانب من الجوانب ، لأعرف غير أشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، ثم اشتغلت بالقرآن ، ثم بالفقه على مذهب الشافعي ، لا أعرف غير ذلك ، ولم أسمع ولم يدخل في قلبي شيء غير ذلك ، لا من العقائد ولا من غيرها ، ثم اشتغلت بنحو وأصول وفرائض ، ثم بعلم الحديث ذا تصويب فيه اليك ، ثم نظرت في شيء من العلوم العقلية ، واشتغلت بعلم الكلام على طريقة الاشعري ، لأنها المشهورة في بلادنا التي رأيت عليها أهلي وقومي ، وبقيت أراها طريقة وسطى بين الحشو والاعتزال ، ولازلت على تلك حتى جاوزت عشرين سنة من عمري وأنا بالديار المصرية ، فشاع عندنا خبر ابن تيمية وما يتفق له بدمشق ، وكان بها اذ ذاك علماء يقاومونه وفي مصر القاهرة علماء وأكابر ، فأحضروه واتفق له ما اتفق بسبب العقائد ، ثم كتبت كلامه في التوسل والاستغاثة ، وتكلم معه من هو أكبر مني ورأيته واجتمعت به كثيرا ، ثم عاد الى الشام ، ثم بلغنا كلامه في الطلاق وأن من علق الطلاق على قصد اليمين ثم حنث لا يقع عليه طلاق ، ورددت عليه في ذلك ، ثم بلغنا كلامه في السفر اني زيارتك ومنعه اياه ورددت عليه في ذلك ، ثم توفي وله أصحاب كثيرون يشيعون رأيه وينشرون تصانيفه ، وجئت الى دمشق كما يقال نائب شريعتك (١) ومن لي برضاك بذلك ، فأنا أقل عبيدك ، مسكت عن الكلام في العقائد من الجانبين ، لأنني في نفسي أن عقولنا تضعف عن ادراك سبحات الحق جل جلاله ، وأرى البقاء على الفطرة السليمة ، والاكتفاء بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن لا ينه العوام لشيء آخر ، ومن كان عالما ينظر بما ييسر له ، والمعصوم من عصم الله :، لكن الطلاق والزياره انا شديد الانكار لقول ابن تيمية فيهما ظاهرا وباطنا ، والعقائد لا يعجبني ما اعتمده فيها من تحريك قلوب العوام فيها .

(قال النبهاني) انتهت عبارة الامام السبكي بعرفها وهي مكتوبة بخطه بلا نقط ، وهكذا جائتني صورتها فنقطتها ، أما القصيدة التي ذكرها فغير موجودة انتهى .

أقول ومنه سبحانه المدد والتوفيق : قد نقلت في هذا المقام ما ذكره النبهاني بحذافيره من غير تلخيص ولا اختصار وان كان في نقلها تضيق للمداد والقرطاس—

(١) كذا في الاصل

فيعلم الناظر في هذا المقام ما خلق الله من العقول والافهام ، فيحمد الله تعالى من عوفي
 من داء هذا الجهل الوخيم ، والضلال القديم ، والنهائي هذا رجل كذاب لا يؤمن
 على نقله ولا يصدق بروايته ، فانه من الغلاة والجهلة العواة ، ولكنه قد يصدق
 الكذوب ، فان صحت روايته هذه عن السبكي كفاه خزيا ذلك وهو الذي يناسب
 ما كان عليه من الغلو والابتداع الظاهر ، وهذه المقالة عن السبكي قاذحة في عدالته
 مسقطه له عن درجة أهل العلم ، موصلة له الى طبقة العوام السفلى ، ومن العجيب
 أنه قال في أول مقاله ففكرت في انتشار أصحاب هذا الرجل وما يخشى من انتشار بدعته
 الخ ، فنسب البدعة الى الشيخ ابن تيمية حافظ الامة مع شهرة حاله في التعصب
 للسنة ، فعبّر عنه بالمتدع وجعل نفسه هو المتبع ، وفي المثل السائر : رميتي القرعى
 بدائها وانسلت ، وهكذا تكون الوقاحة وعدم الحياء من الله ورسوله صلى الله
 عليه وسلم ، وفي الحديث : (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح
 فاصنع ما شئت) وهذا هو الهوى المتبع واعجاب المرء بنفسه الذي ورد في الخير ،
 وليت النهائي المشبور كان عنده شيء من البصيرة والفهم فلم ينقل هذه المقالة الشنعاء
 عن السبكي حتى فضحه بها وقد توفاه الله تعالى منذ مئات من السنين ، ولكن أبى
 الله الا أن يفضح من تنقص خيار الامة وسلفها بكشف عورات جهالاتهم •

ثم إن ما حكاه عن السبكي من المقالة الفظيعة مختلة المبني والمعنى يرد على كل
 كلمة من كلماتها ايرادات ومؤاخذات لو بسطنا الكلام فيها لاستوجب أن يفرد له
 كتاب مفصل ، والوقت يضيق عن الاشتغال بمثل ذلك فكان من الواجب علينا أن
 نتكلم عليها اجمالاً ، ونذكر ما يرد على محصلها ومقصدتها ، ولولا سوء الادب لأجبتنا
 مقاله تلك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكرنا له ما تعدى به طوره
 وتجاوز حده ، ولكن نعوذ بالله من التجاسر على مقام النبوة والتفوه بما لم يقله ،
 كما أنا نلجأ اليه أن يعصنا من سوء الادب •
 (ثم ان الكلام) على ما قصدته السبكي في مقاله من وجوه :

(الوجه الاول) أن كتاب (العقل والنقل) ويسمى أيضا (بيان موافقة صريح
 المعقول ، لصحيح المنقول) ويسمى أيضا (قسطاس الانصاف والعدل ، في رد
 تعارض العقل والنقل) من مصنفات الآية الظاهرة ، والحجة الباهرة ، ماشطة العصر
 بل فادرة الدهر ، بحر العلوم ، وصدر القروم ، الناسك العابد ، والورع الزاهد :
 شيخ الاسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية رحمه الله ، ألفه في الجواب عن

سؤال ورد إليه ، وهو اذا تعارضت الادلة السمعية والعقلية ، أو السمع والعقل ، أو العقل والعقل ، أو الظواهر الثقيلة والقواطع العقلية أو نحو ذلك من العبارات ، فهل يجمع بينهما وهو محال لأنه جمع بين النقيضين ، وإما أن يراداً جميعاً ، وإما أن يقدم السمع وهو محال لأن العقل أصل النقل ، فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحاً في العقل الذي هو أصل النقل ، والقدح في أصل الشيء قدح فيه ، فكان تقديم النقل قدحاً في النقل والعقل جميعاً ، فيجب تقديم العقل ، ثم النقل اما أن يتأول ، وإما أن يفوض وأما اذا تعارضا تعارض الضدين امتنع الجواب عنهما ولم يمتنع ارتفاعهما ، فذكر في الجواب تسعة عشر وجهاً مفصلة أتم تفصيل في بيان أن صريح المعقول لا يخالف صحيح المنقول . وفيه الذب عن الشريعة الغراء ، وأنها وافية بكل ما يستوجب سعادة الدارين ، ليس لها حاجة الى اكمالها بالقواعد التي وضعها علماء الكلام من أعداء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وان جميع ما جاءت به الشريعة الغراء مما يوافق ماتقتضيه العقول السليمة ، وأن نصوصها لا تؤل لأجل تطبيقها على ما اخترعوه من الآراء الفاسدة ، والاقوال الكاسدة ، وبسط الكلام كل البسط في كل وجه من تلك الوجوه ، هذا موضوع الكتاب ، وهو كتاب جليل ليس له نظير في بابهِ ، ومن النعم العظمى على الامة ظهور هذا الكتاب في هذا العصر وانتشاره بين الناس ، وما أحسن ما قال فيه الشيخ ابن القيم في منظومته الشافية الكافية ، وقد عقد فصلاً في ذكر مؤلفات شيخ الاسلام :

واقراً كتاب العقل والنقل الذي ★ ما في الوجود له نظير ثان

فجزى الله تعالى عن المسلمين كل خير من سعى في طبعه ونشره ، ومثل هذا الكتاب كيف يشتكى منه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من له أدنى بصيرة في العلم وأقل نظر في معرفة الشريعة اللهم الا اذا كان السبكي ممن ختم الله على قلبه فلم يفهمه ، وتصدى للرد عليه والاستئذان من الرسول عليه السلام لأجل ذلك وما بعد الحق الا الضلال .

(الوجه الثاني) أن الله تعالى أكمل الدين المبين قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأصبحت الشريعة الغراء ليلاً كنهارها ، لم تغادر شيئاً من الاحكام ولا من بيان الحلال والحرام ، وبسط الكلام عليها الأئمة ومجتهدوا الامة فلم يبق حاجة الى مراجعة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، بل ان عمر رضي الله تعالى

عنه لم يوافق على كتابة الكتاب في مرضه وقد طلب دواة وقرطاسا ، والحديث مشهور ، قال تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)^(١) فإذا أشكل أمر على أحد راجع أهل الذكر ان كان ممن لا يعلم أو فتش على مقصده كتب الشريعة ونصوصها فما دلت عليه واقتضته عمل بموجبه من غير حاجة الى كتابة شيء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابه عند قبره وقال عز اسمه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)^(٢) .

(ذكر المفسرون) ان الخطاب عام للمؤمنين مطلقا ، والشيء خاص بأمر الدين بدليل ما بعده والمعنى : فان تنازعتم أيها المؤمنون أتمم وأولوا الامر منكم في أمر من أمور الدين فردوه الى الله ، أي فارجعوا فيه الى كتابه ، والرسول أي الى سنته ، ولا شك أن هذا انما يلائم حمل أولى الامر على الامراء دون العلماء ، لأن للناس والعامه منازعة الامراء في بعض الامور وليس لهم منازعة العلماء ، اذ المراد بهم المجتهدون ، والناس ممن سواهم لا ينازعونهم في أحكامهم ، وجعل بعضهم الخطاب فيه لاولي الامر على الالتفات ليصح ارادة العلماء لأن للمجتهدين أن ينازع بعضهم بعضا مجادلة ومحاجة ، فيكون المراد أمرهم بالتمسك بما يقتضيه الدليل ، وبعضهم قال يراد الاعم مع أنه يجوز أن يكون الخطاب للمؤمنين ، وتكون المنازعة بينهم وبين اولي الامر باعتبار بعض الافراد وهم الامراء •

والمقصود : أن الله تعالى أمر المؤمنين عند التنازع أن يراجعوا الكتاب والسنة لا أن يكتبوا كتابا لقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتلقى الجواب بمحض الاوهام كما فعله السبكي ، وتام الكلام على الآية يطلب من محله •
(الوجه الثالث) أن الصحابة الكرام اختلفوا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخلافة اختلافا كثيرا وهو مذكور في محله فلم يستفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبره ، ولم يكتبوا له أن الانصار يارسول الله يقولون

(١) المائدة : ٣ (٢) النساء : ٥٩

منا أمير ومنكم أمير ، وأن بعضهم يريد أبا بكر ، ومنهم من يطلب عليا ، ومنهم
• ومنهم

ثم انهم اختلفوا بعد ذلك في مسائل علمية ولم يستفتوا رسول الله صلى الله
عليه وسلم في قبره ، ولم يجيء أحد منهم يسأله ماذا حكم الجد مع الاخوة ، وأن
فاطمة جاءت الى أبي بكر تطلب ارث أبيها منه فأورد لها خبر نحن معاشر الانبياء
لانورث فلم ترض بقوله وقامت وهي عليه غضبي ولم تستفت رسول الله صلى الله
عليه وسلم في قبره ، ولا كنت اليه مافعل معها أبو بكر ، وخرج على عثمان أهل
مصر وغيرهم فلم يستفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في قبره عما كان من
عثمان ، ولا أن عثمان شكى عليه كما فعل السبكي ، وأن عليا ومعاوية تنازعا الامر
وجرى بين الفريقين ماجرى ولم يصدر عن أحد ماصدر عن السبكي من الشكوى
والاستئذان ، ومثل هذه المسائل مما لا يحيط به القلم •

(الوجه الرابع) أن من اشتبه عليه أمر ولم يعلم هل هو خير أم شر ليعمل
بموجه يستخير الله تعالى ، فان الاستخارة ما درج عليه السلف وجرى على منهاجهم
الخلف ، وقد تكلموا عليها في فصول :

(منها في الامور التي هي محل الاستخارة) فقالوا : ما من شأنه أن يراد ينقسم
أولا الى ثلاثة أقسام : (الاول) ما يعلم كونه خيرا قطعا كالواجب المضيق (الثاني)
ما يعلم كونه شرا قطعا كالمحرم المجمع على تحريمه (الثالث) ما لا يعلم على القطع
خيرته ولا شرته في وقت مخصوص كالواجب الموسع والمندوب كذلك والمندوب
المضيق الذي يعارضه مندوب آخر في ذلك الوقت من غير ظهور رجحان لاحدهما
والمباحات كلها ، ولما كان معناها طلب خير الامرين من الفعل في وقت معين أو تركه
فيه لم يكن الاولان محلين لها ، إذ أولهما خير قطعا فلا رخصة في تركه ، وثانيهما
شر قطعا فلا رخصة في فعله ، فليس محلا لها الا الثالث ، فما يوهم العموم في بعض
الاخبار كالامور في خبر جابر الآتي عام مخصص ، أو أن أل فيه للمهد •

(ومنها في سرد بعض أحاديثها) روى البخاري في (باب ماجاء من التطوع
مثنى مثنى) من صحيحه عن جابر بن عبد الله ، قال : (كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يعلمنا الاستخارة في الامور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : اذا

همّ أحدكم بالامر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم اني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم ان كنت تعلم أن هذا الامر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، وان كنت تعلم أن هذا الامر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه وأقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به ، قال ويسمى حاجته) •

وروى في (كتاب الدعوات) عن جابر أيضا ، قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الامور كلها كسورة من القرآن ، اذا هم أحدكم بالامر فليركع ثم يقول : اللهم اني أستخيرك) وساق الدعاء ، وقال في آخره أيضا ويسمى حاجته •

وروى في (كتاب التوحيد) من الصحيح عنه أيضا قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الاستخارة في الامور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن ، يقول : اذا هم أحدكم بالامر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم اني أستخيرك بعلمك الى قوله وأنت علام الغيوب - ولم يقل العظيم - اللهم فان كنت تعلم هذا الامر - ثم يسميه بعينه - خيرا لي في عاجل أمري وآجله قال أو في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، اللهم وان كنت تعلم أنه شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فاصرفني عنه وأقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به) •

وروى الطبراني في المعجم الصغير عن ابن مسعود قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : اذا أراد أحدكم أمرا فليقل اللهم اني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم ان كان في هذا الامر خير في ديني ودنياي وعاقبة أمري فاقدره لي ، وان كان غير ذلك خيرا لي فسهل لي الخير حيث كان ، واصرف عني الشر حيث كان ، ورضني بقضائك) •

وروى في الكبير عنه أيضا قال : (علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

الاستخارة ، فقال : اذا أراد أحدكم أمرا فليقل اللهم اني أستخيرك بعلمك - ولم يقل العظيم - وقال فان كان هذا الذي أريد خيرا في ديني وعاقبة أمري فيسره لي ، وان كان غير ذلك خيرا فاقدر لي الخير حيث كان ، يقول ثم يعزم) •

وروى الحافظ نور الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر في كتابه (موارد الظمان ، الى زوائد ابن حبان) عن أبي أيوب رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اكنم الخطبة ثم توشأ فأحسن وضوءك ، ثم صل ماكتب الله لك ، ثم احمد ربك ومجده ، ثم قل : اللهم انك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، فان رأيت لي فلانة تسميها باسمها خيرا لي في ديني ودنياي وآخرتي فاقدرها ، وان كانت غيرها خيرا لي منها في ديني ودنياي وآخرتي فاقض لي ذلك) •

وروى فيه أيضا عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اذا أراد أحدكم أمرا فليقل اللهم اني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم ان كان كذا وكذا لي في ديني ومعيشتي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي وأعني عليه ، وان كان كذا وكذا الامر الذي تريد شرا لي في ديني ومعيشتي وعاقبة أمري فاصرفه عني ، ثم اقدر لي الخير أينما كان ، ولا حول ولا قوة الا بالله) •

وروى فيه أيضا عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اذا أراد أحدكم أمرا فليقل : اللهم اني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم ان كان كذا وكذا خيرا لي في ديني وخيرا لي في معيشتي وخيرا لي في عاقبة أمري فاقدره لي وبارك لي فيه ، وان كان غير ذلك خيرا فاقدر لي الخير حيث كان ورضني بقدرك) •

وروى الحافظ السخاوي في (كتاب الابتهاج ، باذكار المسافر الحاج) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأنس رضي الله عنه : (اذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر الى الذي سبق الى قلبك فان الخير فيه) وعزاه السيوطي الى الديلمي في مسند الفردوس •

(ومنها في بيان كيفية صلاتها) المذكور في كثير من الكتب ان من أراد

الاستخارة يصلي ركعتين من غير الفريضة ، ثم يدعو وهو المصرح به في حديث جابر ، وقال الحافظ بن حجر في (فتح الباري) قال النووي في الاذكار : لو دعا بدعاء الاستخارة عقب راتبة الظهر مثلا أو غيرها من الراتبة والمطلقة سواء اقتصر على ركعتين أو أكثر أجزاء ، كذا أطلق وفيه نظر ، ويظهر أن يقال : محله ان نوى تلك الصلاة بعينها وصلاة الاستخارة معا ، بخلاف ما اذا لم ينو ، وتفارق تحية المسجد لأن المراد بها شغل البقعة بالصلاة ، والمراد بصلاة الاستخارة أن يقع الدعاء عقبها الى آخر ما قال أه .

ثم ان ظاهر ما في حديث أبي أيوب ثم صل ما كتب الله لك أن الركعة الواحدة يحصل بها المقصود ، وكلام الفقهاء على هذه المسألة مفصل في كتب الفقه .
(ومنها) اذا فرغ المستخير من الدعاء فليض كما قال النووي لما انشرح له صدره .

قال الهيثمي : فان لم ينشرح صدره لشيء فالذي يظهر أنه يكرر الاستخارة بصلاتها ودعائها حتى ينشرح صدره لشيء وان زاد على السبع ، والتقيد بها في خبر أنس : (اذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر الى الذي سبق الى قلبك فان الخير فيه) لعله جرى على الغالب اذ انشراح الصدر لا يتأخر عن السبع ، على أن الخبر اسناده غريب ، ووقع للشافعي أنه استخار في أمر سنة ، والكلام في هذا الباب طويل ، والمقصود أن السبكي ابتدع ما لم يسبق اليه أحد وترك الامر المسنون وهو الاستخارة ان كان ماتصدى اليه من مواضعها .

(الوجه الخامس) أن السبكي زعم أنه حصل له الاذن بالرد على كتاب (العقل والنقل) وأنه أمر بذلك أمرا معنويا كما استنبطه هو بفكره الثاقب ورأيه الصائب ، فلم لم يمتله وأين رده الذي رد به على هذا الكتاب ؟ وليته ألفه ليمزق بسهام الاقلام ويكون مثله بين الانام ، فان الذي مبلغه من العلم ماسمعت كيف يرد على شيء لا يفهمه ولا يعرفه ، ثم ان ولده تاج الدين ذكر في طبقاته ترجمة والده ، ونسب اليه كل فضيلة وعزا اليه كل منقبة جلييلة ، وذكر مصنفاة واختياراته وكلماته وهذياتاته ، ولم يذكر في كتبه هذا الرد ، فعلم أنه بهتان مبین ، وانه لم يمثل أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على زعمه .

(الوجه السادس) أن حديث عرض الاعمال في أيام مخصوصة على ماسبق بيانه

في كلام شيخ الاسلام تقي الدين لا يقتضي كتابة شيء الى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في قبره ، بل أن أعمال أمته تعرض عليه فان رأى خيرا سره وان رأى غير ذلك احتسب ، ولم يقل أحد أن له قدرة على تغيير ما لا يرضى الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، وحياته البرزخية ليست الحياة المتعارفة والا لاقتضت لوازمها وأنى له ذلك ، فكيف يعرض عليه مثل تلك الامور وما ذلك الا عثرة من السبكي لا تقال ، ولا يصدر مثلها حتى عن ضعفاء العقول من الجهال ، فبطل كلامه وزال مقصده ومرامه •

(الوجه السابع) أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعلم - عند النبهي وأسلافه الغلاة - ما كان وما يكون ، بل يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ، فما فائدة اعلامه بما أعلمه به السبكي من أنه رجل شافعي المذهب أشعري العقيدة الى آخر ما هدى به ، فانه اذا علم ما كان وما يكون - ومنه أعمال السبكي وأفعاله - فلاجل أي شيء يخبره به ؟ لا يقال ان ذلك كاخبار امرأة عمران بما وضعت ، وهو الذي حكاه سبحانه بقوله : (إذ قالت امرأة عمران ربّ إني نذرتُ لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم فإما وضعتها قالت ربّ إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبأها نبأاً حسناً وكفلها زكرياً) (١) الآية ، قالوا : ان الله عالم بما كان فلم أخبرته امرأة عمران بما أخبرته ؟ أجاوبوا : ان الخبر تارة يقصد به افادة المخاطب الحكم اذا كان غير عارف به ، وتارة يقصد به افادة لازم من لوازمه المفصلة في علم المعاني ، ولازم خبر امرأة عمران هو التحزن والتحسر على خيبتها وانعكاس أملها ، وحمل السبكي كلامه على ذلك مما لاوجه له •

وهذا الذي ذكرناه - من أن الغلاة يعتقدون في النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما ذكرناه - هو مما لم يمكنهم انكاره ، كيف والنبهاني على ما أسلفناه يقول ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موجود في كل مكان وكل زمان ، وقد تكلمت يوماً مع أحد غلاة الرفاعية الزنادقة ومشركيهم - اذ استغاث بالرفاعي قبل الشروع

في ذكرهم - فقلت له : هل يسمع الآن نداءك الرفاعي وهو في قبره في أم عبيده ويمدك؟ قال : نعم قلت : فاذا اتفق مثلك في بلاد كثيرة ومواضع متعددة ألوف مؤلفة وان كانوا في أقطار شاسعة فهل يسمعون أحمد الرفاعي ويمدهم وينيئهم؟ قال : نعم ، قلت : هذا هو العلو الذي نهى الله عنه في كتابه الكريم ، قال ليس هذا من العلو بل هو مقتضى الدين ألم تسمع حديث الاولياء وهو قوله صلى الله عليه وسلم الذي رواه البخاري : (وما زال عبيد يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها) الحديث؟ فظن هذا الغبي الجاهل أن معناه مايعتقده اخوانه أهل الزيف والالحاد من أن العبد اذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة حتى يصفى من الكدورات انه يصير في معنى الحق تعالى الله عن ذلك ، وأنه يفنى عن نفسه جملة حتى يشهد أن الله تعالى هو الذاكر لنفسه المحب لنفسه ، وأن هذه الاسباب والرسوم تصير عدما صرفا في شهوده وان لم تعدم في الخارج .

(أقول) قد زلت أقدام أقوام في معنى هذا الحديث واستشكل كيف يكون الباري جل وعلا سمع العبد وبصره .

(والجواب) على ما ذكره العسقلاني في شرحه من أوجه : (أحدها) أنه ورد على سبيل التمثيل والمعنى كنت سمعه وبصره في ايثارد أمري ، فهو يجب طاعتي ويؤثر خدمتي كما يجب هذه الجوارح .

(ثانيها) أن المعنى كليته مشغولة بي فلا يصغي بسمعه الا الى مايرضيني ولا يرى ببصره الا ما أمرته به

(ثالثها) اجعل له مقاصده كأنه ينالها بسمعه وبصره الخ .
(رابعها) كنت له في النصرة كسمعه وبصره ويده ورجله في المعاونة على عدوه .

(خامسها) قال الفاكهاني وسبقه الى معناه ابن هبيرة هو فيما يظهر لي أنه على حذف مضاف والتقدير كنت حافظ سمعه الذي يسمع به فلا يسمع الا ما يحل استماعه وحافظ بصره كذلك الخ .

(سادسها) قال الفاكهاني يحتمل معنى آخر أدق من الذي قبله وهو أن يكون معنى سمعه مسموعه ، لأن المصدر قد جاء بمعنى المفعول مثل فلان أمني بمعنى

مأمولي ، والمعنى : أنه لا يسمع الا ذكري ، ولا يلتذ الا بتلاوة كلامي ، ولا يأنس الا بمناجاتي ، ولا ينظر الا لعجائب ملكوتي ، ولا يمد يده الا فيما فيه رضاي ، ورجله كذلك ، انتهى . وقد ذكرت هذه المسألة في موضع آخر .

(والمقصود) أن الغلاة يعتقدون أن الولي يعلم كما يعلم الله ، ويبصر كما يبصر الله ، ويسمع كما يسمع الله ، فكيف بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو سيد الاولياء والاصفياء ، فلا بد أنهم يعتقدون فوق اعتقادهم في الولي ، فإذا كان الامر على ما ذكر فلا وجه لما كتبه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، وان كان السبكي لا يعتقد ذلك الذي ذكرناه من الصفات التي لا تثبت الا للخالق دون المخلوق فما وجه كتابة تلك المقالة ونظم القصيدة وارسالهما مع الشيخ نور الدين السخاوي ؟ فعلى كلا الوجهين أن السبكي قد أخطأ فيما فعله وأبان به جهله وغيه وضلاله .

هذا حال السبكي الذي أعده النبهي المسكين سلاحا في ميدان الطعن بشيخ الاسلام وجرحه ، والحمد لله الذي جعل أعداء أهل الحق في كل عصر وزمان من أجهل الناس وأضلهم وأغواهم ، ومن العجائب أن السبكي - مع هذه الاحوال التي سمعتها - قد جعله ابن حجر المكي من المجتهدين الاجتهاد المطلق ، وأنه مما لم يخالف أحد في وصوله الى هذه المرتبة ، وأنه امام أهل التحقيق والتدقيق ، وأنه ليس له نظير ولا قرين في كل فن ، الى غير ذلك من الاوصاف الجليلة ، فإذا جرى ذكر تقي الدين ابن تيمية وأصحابه من أهل الحديث الحفاظ المتقنين شتمهم بكل ما خطر له ، وذمهم بكل ما يقع في تصوره ، فانظر الى هذا التعصب وعدم الانصاف ، وهذا أحد الاسباب التي أوجبت انحطاط الاسلام الى ما نرى ، وأعظمها تطاول السفهاء واناطة الامر الى غير أهله ، وعنده يترقب الخراب العام .

وابن السبكي الذي جرى مجرى أبيه لم يدع منقبة من مناقب الاولين والآخرين الا وأثبتها لوالده ظنا منه أن الحقائق تخفي ، وما درى هذا المسكين أن الامر كما قيل :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وان خالها تخفي على الناس تعلم

وفي المثل السائر كل فتاة بابها معجبة .

والمقصود : أن قدح مثل السبكي بمثل الشيخ ابن تيمية كصرير باب ، وطنين

ذباب ، ولولا التقى لقلنا لا يضر السحاب نبج الكلاب .

(قال النبهاني) ومنهم الحافظ ابن حجر العسقلاني ، وذكر من فضله وغزارة علمه ما هو غني عن البيان ، ونقل عنه عبارة ذكرها في فتح الباري عند الكلام على حديث لا تشد الرحال الخ ، وهي قوله في مسألة تحريم شد الرحل والسفر الى زيارة القبور : وهي من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية الخ ، ثم نقل عنه مقاله في تقريظه على كتاب (الرد الوافر) مما ليس فيه مطعن ولا مغز لثالب .

(جوابه) أن الحافظ ابن حجر العسقلاني موالاته ومحبته للشيخ ابن تيمية مما لا ينكره الا جاهل ، وقد تلقى العلم عن تلامذة الشيخ وأصحابه وانتفع بكتبه وقرأ كثيرا منها درسا ، وهذا هو اللائق به وبأمثاله من أهل الفضل والعلم ، وقد قيل : انما يعرف ذا الفضل ذووه . والعبارة التي نقلها النبهاني عنه وهي قوله عن منعه من سفر الزيارة : وهي من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية الخ أي طعن فيها وقدح في عدالة ابن تيمية ؟ ومن المعلوم ما كان من الردود على كل من الأئمة ، ولم يخل ذلك بشرفهم ولا خفض من منزلتهم ، وقد قال غير واحد من أهل العلم : ان مسألة التزوج بالنت من الزنا من أبشع المسائل المنقولة عن الشافعي ، وأن مسألة تزوج الغربي بالشرقي أو بالعكس ثم ولدت الزوجة ولدا يلحق بالاب وان لم يجتمع الزوجان قط من أبشع المسائل المنقولة عن أبي حنيفة ، وان جواز التيمم بالثلج من أبشع المسائل المنقولة عن الامام مالك ، وهكذا الى مالا يسعه المقام ، وأي امام من الأئمة لم ينسب اليه أقوال شاذة؟! هذا اذا قلنا أن مسألة المنع من سفر الزيارة من الشواذ مع أن الامر ليس كما ذكروا ، كيف والادلة القطعية قائمة على مقاله ؟ وقد سبقه اليه الأئمة المقتدى بهم وقد سبق بيان ذلك مفصلا فيما نقلناه عن الشيخ من الكتابين ، وما نقله النبهاني من كلام الحافظ العسقلاني على (الرد الوافر) هو رد عليه ، لأنه ليس فيه إلا الثناء والمدح ، وتبرئته عما يوجب اللوم والقدح ، ولم ينقل العبارة بعينها لأن ذلك مناقض لغرضه الفاسد ، ومخالف لما يرومه من التليس والتدليس قاتله الله ما أجهله ، وهانحن نقلها بنصها ليتبين ما ذكرناه أنه كان من أخلص الناس مودة لشيخ الاسلام :

قال العلامة المحدث السيد صفي الدين الحنفي البخاري نزيل نابلس عليه الرحمة في كتابه (القول الجليّ في ترجمة الشيخ تقي الدين بن تيمية الحنبلي) صورة تقرّظ للامام الحافظ في عصره بل حافظ الدنيا العلامة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني قدس الله سره على (الرد الوافر) لابن ناصر

الدين الدمشقي الشافعي رحمه الله تعالى ولفظه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ،
وقفت على هذا التأليف النافع ، والمجموع الذي هو للمقاصد التي جمع لها جامع ،
فتحققت سعة اطلاع الامام الذي صنفه ، وتضلعه من العلوم النافعة بما عظمه بين
العلماء وشرفه ، وشهرة امامة الشيخ تقي الدين ابن تيمية أشهر من الشمس ، وتلقيه
بشيخ الاسلام باق الى الآن على اللسنة الزكية ويستمر غدا كما كان بالامس ، ولا
ينكر ذلك الا من جهل مقداره وتجنب الانصاف ، فما أكثر غلط من نعاطى ذلك وأكثر
عثاره ، فالله تعالى هو المسئول أن يقينا شرور نفوسنا ، وحصاد ألسنتنا بمنه
وفضله .

ولو لم يكن من فضل هذا الرجل الامانه عليه الحافظ الشهير علم الدين
البرزالي في تاريخه أنه لم يوجد في الاسلام من اجتمع في جنازته لما مات ما اجتمع في
جنازة الشيخ تقي الدين لكفى ، وأشار الى أن جنازة الامام أحمد كانت حافلة جدا
شدها مؤون ألوف لكن لو كان بدمشق من الخلائق نظير ما كان ببغداد بل أضعاف
ذلك لما تأخر أحد منهم من شهود جنازته ، وأيضا فجميع من كان ببغداد الا الاقل
كانوا يعتقدون امامة الامام أحمد ، وكان أمير بغداد وخليفة الوقت اذ ذاك في غاية
المحبة له والتعظيم ، بخلاف ابن تيمية ، وكان أمير البلد حين مات غائبا ، وكان أكثر
من في البلد من الفقهاء قد تعصبوا عليه حتى مات محبوسا بالقلعة ، ومع هذا فلم
يتخلف منهم عن حضور جنازته والترحم والتأسف عليه إلا ثلاثة أنفس تأخروا خشية
على أنفسهم من العامة ، ومع حضور هذا الجمع العظيم فلم يكن لذلك باعث إلا
اعتقاد امامته وبركته لاجمع سلطان ولا غيره ، وقد صح عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال أتم شهداء الله في الارض ، ولقد قام على الشيخ تقي الدين جماعة من
العلماء مرارا بسبب أشياء أنكروها عليه من الاصول والفروع ، وعقدت له بسبب
ذلك عدة مجالس بالقاهرة ودمشق ، ولا يعلم عن أحد منهم أنه أفتى بزندقته ، ولا
حكم بسفك دمه ، مع شدة المتعصب عليه حينئذ من أهل الدولة حتى حبس بالقاهرة ،
ثم بالاسكندرية ، ومع ذلك فكلهم يعترف بسعة علمه وزهده ووصفه بالسخاء
والشجاعة وغير ذلك من قيامه في نصرة الاسلام ، والدعاء الى الله تعالى في السر
والعلانية ، فكيف لا ينكر على من أطلق أنه كافر بل من أطلق على من سماه شيخ
الاسلام الكفر ، وليس في تسميته بذلك ما يقتضي ذلك فانه شيخ مشايخ الاسلام في

عصره بلا ريب ، والمسائل التي أنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهي ، ولا يصر على القول بها بعد قيام الدليل عليه عنادا ، وهذه تصانيفه طافحة بالرد على من يقول بالتجسيم والتبري منه ، ومع ذلك فهو بشر يخطيء ويصيب ، فالذي أصاب فيه - وهو الأكثر - يستفاد منه ويترحم عليه بسببه ، والذي أخطأ فيه لا يقلد فيه بل هو معذور ، لأن علماء الشريعة شهدوا له بأن أدوات الاجتهاد اجتمعت فيه ، حتى كان أشد المتعصين عليه العاملين في إيصال الشراية - وهو الشيخ كمال الدين الزمكاني - شهد له بذلك ، وكذلك الشيخ صدر الدين بن الوكيل الذي لم يثبت لمناظرته غيره ، ومن أعجب العجب أن هذا الرجل كان من أعظم الناس قياما على أهل البدع من الروافض والحولية والاتحادية ، وتصانيفه في ذلك كثيرة شهيرة ، وقتاويه فيهم لا تدخل تحت الحصر ، فياقرة أعينهم اذا سمعوا تكفيره ، وياسرورهم اذا رأوا من يكفره من أهل العلم ، فالواجب على من تلبس بالعلم وكان له عقل أن يتأمل كلام الرجل من تصانيفه المشهورة ، أو من السنة من يوثق به من أهل النقل ، فيفرد من ذلك ما ينكر ، فليحذر منه على قصد النصح ، ويشي عليه بفضائله فيما أصاب من ذلك كدأب غيره من العلماء الانجاب .

ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب الا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية ، صاحب التصانيف النافعة السارة ، التي انتفع بها الموافق والمخالف : لكان غاية في الدلالة على عظم منزلته ، فكيف وقد شهد له بالتقدم في العلوم والتميز في المنطوق والمفهوم أئمة عصره من الشافعية وغيرهم فضلا عن الحنابلة ، فالذي يطلق عليه مع هذه الاشياء الكفر أو على من سماه شيخ الاسلام لا يلتفت اليه ولا يعمل في هذا المقام عليه ، بل يجب رده عن ذلك الى أن يراجع الحق ويدعن للصواب ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قال : وكتبه أحمد بن علي بن محمد بن حجر الشافعي عفا الله عنه ، وذلك في اليوم التاسع من شهر ربيع الاول عام خمسة وثلاثين وثمانمائة حامداً لله ومصليا على محمد ومسلما ، هذا آخر كلامه .

(فانظر أيها المنصف الى كلام هذا الامام) في الذب عن شيخ الاسلام هل تراه منتصرا له أم طاعنا عليه ، وهل تجده مادحا له أم موجها سهام الذم بين يديه ؟ وانظر الى تحريف النبهاني الذي سبق به تحريف أسلافه اليهود ، فقد نقل منه ما ظن بزعمه أنه ينفعه ، وترك ما هو شجي في فمه ، كل ذلك لأجل ترويح ضلاله وهواه وباطله ،

فبالله عليك أيها الواقف على مثل هذه الاحوال هل يليق أن يولي هذا الرجل الحكم على أموال الناس وأعراضهم ودمائهم ، وهو يخون - جهلا واتباعا لهواه - هذه الخيانة التي لم تخف على أحد من طلبة العلم فضلا عن أكابر العلماء ، ومحققي الفضلاء؟! فياخسارة لمن تولى الحكم عليه هذا الغبي الجاهل ، وعبث كما أداه اليه هواه في المحافل .

(قال النبهاني) ومنهم السيد صفي الدين الحنفي البخاري نزيل نابلس ألف كتابا مستقلا سماه (القول الجلي ، في ترجمة الشيخ تقي الدين بن تيمية الحنبلي) ذكر فيه مناقبه وكلام العلماء في الثناء عليه ، الى أن قال : قال صفي الدين في كتابه المذكور : قد نص على أنه أي ابن تيمية بلغ رتبة الاجتهاد جمع من العلماء ولم يتفرد بمسألة منكرة قط ، وان كان قد خالف الأئمة الاربعة في مسائل فقد وافق فيها بعض الصحابة أو التابعين ، ومن أشنع ما وقع له مسألة تحريم السفر الى زيارة القبور ، وقد قال به قبله أبو عبد الله بن بطة الحنبلي في الابانة الصغرى ، ثم قال صفي الدين في موضع آخر من كتابه : فان قلت ما نقلته في هذا الجزء يدل على براءة الشيخ مما نسب اليه ، فما بال عليّ القاري والتقي الحنفي وابن حجر الهيتمي وغيرهم ينسبونه الى أمور فظيعة قلت : اعلم - وفقك الله تعالى - أن ابن تيمية رحمه الله تعالى كان رجلا مشهورا بالعلم والفضل وحفظ السنة ، وكان مبالغا في مذهب الاثبات ، وكان يكره التأويل أشد الكراهة ، وكان يرد على الصوفية ما ذكروه في كتبهم من وحدة الوجود وما شاكلها على عادة أهل الحديث والفقهاء والمتكلمين ، فرد على الشيخ محيي الدين ابن العربي ، والشيخ عمر بن الفارض ، وعبد الحي بن سبعين وأضرابهم ، وكان قد خالف الأئمة الاربعة في بعض الفروع كمسألة الزيارة والطلاق ، وكان يناظر عليهما فقام عليه ناس وحسدوه وأبغضوه وأشاعوا عنه ما لم يقله من التشبيه والتجسيم وغير ذلك ، فدخل ذلك على بعض أهل العلم من الحنفية والشافعية وغيرهم ولم يطلبوا تحقيق ذلك من كتبه المشهورة ، واعتمدوا على السماع فوق منهم ما قد وقع ، وقد وقع مثل هذا الغير واحد من أهل العلم والفضل .

ثم قال : وقد أنكروا على الشيخ أشياء لا بأس بذكر الجواب عنها والاعتذار ، فأقول : قالوا يقول بحرمة السفر الى زيارة القبور ، وقد خالف في ذلك الاجماع ، قال صفي الدين : قلت وهو مخطيء في ذلك أشد الخطأ ، ولكن لا يلزم من القول به التفسيق فضلا عن التكفير ، لانه صدر ذلك عن شبهة ولو كان ذلك الدليل خطأ

عندنا ، انتهى كلام صفي الدين البخاري ومثله العلماء الذين أثنوا على ابن تيمية
 ذكروا خطأ الفاحش في مسائله التي خالف فيها الاجماع انتهى كلام النبهاني •
 (والجواب) أن كلام النبهاني هذا على نمط ما قبله ، فان السيد صفي الدين
 الحنفي عليه الرحمة ألف كتابه (القول الجلي ، في ترجمة الشيخ تقي الدين ابن
 تيمية الحنبلي) وذكر فيه أقوال أساطين العلماء الذين أثنوا عليه ، وذبح عنه وأجاب
 عما نسب اليه من الاختيارات بما لا مزيد عليه ، وقال في خطبة كتابه : (وبعد) فهذا
 جزء لطيف في ترجمة شيخ الاسلام ، وبركة الانام ، علم الزهاد ، وأوحد العباد ، سيد
 الحفاظ ، وفارس المعاني والالفاظ ، تقي الدين أبي العباس ، وذكر نسبه الى أن قال
 ابن تيمية الحراني نزيل دمشق رحمه الله ، لخصته مما اجتمع عندي من كلام الفقهاء
 والمحدثين ، رجاء للشواب ونفعا للاحباب •

(فانظر أيها المنصف) كيف ساغ للنبهاني الجهول أن يذكر السيد صفي الدين
 هذا من جملة من رد على الشيخ ابن تيمية وينقل عنه ما يهدم بنيانه ؟ وهل ذلك إلا
 من جملة أحكام منصبه التي يحكم بها بغير ما أنزل الله ؟ قاتله الله تعالى ما أشتفه
 بالباطل واتباع الهوى ! والعبارة التي نقلها محرفة غير منقولة بتمامها ، وكتاب السيد
 صفي الدين بين الايدي فلا تتعب البنان بنقل كلامه في هذا المقام ، وقد أسلفنا مرارا
 أن رد بعض العلماء على بعض لا يستوجب القدح على من رد عليه ولا تبديمه ولا
 تفسيقه بوجه ، هذا فخر الدين الرازي قد حشى تفسيره من الرد على الامام أبي حنيفة
 رحمه الله ، وملاؤه من الهذيان عليه فايّ قدح لحق بالامام أبا حنيفة من ذلك ؟
 واعترض بعض علماء المالكية على الامام الشافعي بما لا مزيد عليه فايّ نقص لحقه
 منه ؟ وهكذا مما لا يسع المقام بيانه ، هذا لو سلمنا أن السيد صفي الدين قد رد على
 الشيخ ، فكيف والامر بخلاف ذلك ؟ •

(قال النبهاني) ومنهم الحفاظ عماد الدين بن كثير الشافعي ، ثم نقل من كتاب
 السيد صفي الدين ما ذكره من عبارته المشتملة على الثناء على الحفاظ ابن القيم ، الى
 أن قال : نعم أوذي بسبب قوله بقول الشيخ ابن تيمية في مسألة الطلاق ، ومع أنه
 خالف الائمة الاربعة في ذلك فلم ينفرد به كما هو مبين في موضعه ، وهو وان كان
 خطأ فاحشا فلا يوجب التفسيق انتهى •

(والجواب) ما حكيناه سابقا ، فان ما نقله من الكلام هو أيضا على نسق ما قبله ،
 فان النبهاني ينقل ما ذكره السيد صفي الدين من أقوال العلماء الذابة عن الشيخ

فيعكس النبهاني القضية ويجعل تلك الاقوال رادة عليه ، ثم ذكر كلام البلقيني والامام السيوطي والكزبري والشيخ علي القاري والخفاجي وابن اسحق المالكي والزرقاني والصفدي والمناوي في الرد على الشيخ بزعمه ، مع أن غالب من ذكر كانوا من المثني عليه والموالين له ، وكلامهم الذي نقله عنهم يشهد لما قلناه ، ولو سلم أن في كلام بعضهم غض على الشيخ استوجه التعصب والتقليد للاشياخ وعدم الانصاف فلا تنب البنان بنقل عباراتهم والكلام عليها .

(قال النبهاني) ومنهم صاحبنا العالم العامل الفاضل الكامل الشيخ مصطفى بن أحمد الشطي الحنبلي الدمشقي ، قال : ألفت حفظه الله رسالة مخصوصة سماها (النقول الشرعية ، في الرد على الوهابية) وختمها بخاتمة في تأييد مذهب سادتنا الصوفية ، وطبعها ونشرها ، فما قاله في المقالة الاولى منها - التي تكلم فيها على الاجتهاد - لاشك أن من ادعى ذلك في هذا الزمان عليه امانة البهتان ، كما يقع دعوى ذلك من فرقة شاذة نسبت نفسها للحنابلة ، الى أن قال : وقد ينكرون دعوى الاجتهاد ويحتجون بعبارة شيخ الاسلام ابن تيمية فقط مع أن الامام المذكور قد خرج من مذهب الحنبلي في عدة مسائل تفرد بها وتهياً بخصوصها للاجتهاد المطلق ، الا أنها لم تدون على كونها مذهبا له كما دونت فروع مسائل المذاهب الاربعة .

ثم ذكر بعض تلك المسائل الى أن قال : وذكر في المقالة الرابعة من هذه الرسالة جواز التوسل والاستغاثة والاستشفاع بالانبياء والاولياء والصالحين حال حياتهم وبعد مماتهم ، وأقام الدليل على ذلك من الكتاب والسنة الى آخر قوله .

(والجواب) أن النبهاني كالغريق يتشبث بالحشيش حيث استدل بكل قول سمعه ووافق هواه ، ولو كان صادرا من الاطفال والصبيان ، وفصده أن يعظم حجم كتابه ليهول به على أمثاله من الجهلة ، ومن الشيخ مصطفى هذا الذي ذكره حتى يخرج بقوله في باب الجرح والتعديل ؟! أيظن أنه بسبب اتسائه الى مذاهب الحنابلة يؤخذ بقوله ويوثق بنقله ؟ فهل يلزم أن من ينتمي الى الشافعي كلهم كالسبكي وابن حجر المكي ونحوهما من الغلاة ؟ لا والله ، بل فيهم أمسة هادون ميديون ، وأفاضل منصفون ، وهكذا أصحاب كل مذهب والناس معادن .

وما كل مخضوب البنان بشينة ولا كل مصقول الحديد يمانى

هذا مع أن ما نقله عن صاحبه فلا حجة فيه لما هو بصدده ، أما مسألة انقطاع

الاجتهاد التي ذكرها فقد تكلمنا عليها أول الكتاب بما لا مزيد عليه ، وأما ما نقله عن شيخ الاسلام فهو حق وقد شهد له بالاجتهاد المطلق أكابر العلماء ، وأما قوله بالاستغاثة والتوسل فقد مر الكلام على بطلانها مفصلا ، وأما ثناؤه على الصوفية فلم يبين الثناء منه كان على أي قسم منهم ، فأما من كان منهم على منهج الجنيذ وأضرابه فبهم أهل للثناء ، وأما من كان يقول منهم بوحدة الوجود ويتكلم بما يصادم الشريعة فمدحهم والثناء عليهم مما يبابه العلماء الربانيون ، فما نقله عن صاحبه لا يفيد فيما هو بصدده من ذكر كلام الرادين على شيخ الاسلام ، وقد ذكرنا أنه ليس في كلامه ما يرد عليه ، وكتاب النقول الشرعية قد رد عليه علماء أهل السنة فلا تناقشه على ما ذكر من السقط .

(قال النبهاني) ومنهم الامام شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي المكي ، وهو أشدهم ردا على ابن تيمية محاماة عن الدين ، وشفقة على المسلمين ، من أن يسري اليهم شيء من غلطاته الفاحشة ، ولا سيما فيما يتعلق بسيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن نظر بعين الانصاف شهد لهذا الامام ابن حجر بالولاية ، وأنه ربما يكون قد أطلع الله على ما سيحصل في المستقبل من الاضرار العظيمة التي ترتبت على أقوال ابن تيمية ، من فرقته الوهابية ، التي هو أصل اعتقادها ، وأساس فسادها ، ولا يخفي ما حصل منها من الاضرار العظيمة في حق المسلمين والاسلام ، ولا سيما في الحرمين الشريفين وجزيرة العرب ، فمن المحتمل احتسابا لقرابا أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد اطلع الامام ابن حجر على ذلك على سبيل الكرامة ، وهو أهل لذلك ، فانه رضي الله عنه كان من أكابر العلماء العاملين ، والائمة الهادين المهديين ، وهذا علمه وكتبه النافعة التي خدم بها الامة المحمدية خدمة لم يشاركه فيها سواه من عصره الى الآن قد ملأت الدنيا ، وانتفع بها الخاص والعام في جميع بلاد الاسلام ، ومن كان كذلك لا يستبعد عليه أن يكون الله تعالى قد أكرمه باطلاعه على بعض المغيبات ، ومنها ما حدث من فرقة الوهابية اتباع ابن تيمية من المضار العظيمة على الشريعة المحمدية ، والملة الاسلامية ، ولذلك كان رضي الله عنه أشدائمة المسلمين انكارا لبدع ابن تيمية وردا عليه بأشد العبارات شفقة على المسلمين ، ومحاماة عن هذا الدين المين ، وله في ذلك عبارات كثيرة في كتبه ولا سيما في الفتاوى الحديثة ولم أر حاجة الى نقلها هنا فمن شاءها فليراجعها .

(أقول) انا قد أسلفنا عن النبهاني هذا المفترى على الله ورسوله صلى الله

عليه وسلم أنه قد اتصف بصفات الخزي والسوء وعدم الادب والحياء من الله ومن الناس فلا يستحي من كذب ولا يبالي بخزي ، وأما مساويه فهي كما قال القائل :

مساو لو تسن على الغواني لما أمهرن الا بالطلاق

وهو - والامر لله تعالى - لا يدري ولا يدري أنه لا يدري ، فلا ينجع فيه كلام ولا يؤثر فيه سهام الملام ، بل هو كما قال المتنبى :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بسيت إيسلام

ولم يزل يبدي ويعيد بباطله ، ويكرر كلامه مرة بعد أخرى ، وينقل المسائل التي قد تكرر الرد عليها من العلماء الاعلام ، ومزقوها بسهام الملام ، ولم يؤثر فيه كل ذلك حتى كأنه لم يسمع بما قيل فيها وطعن عليها ، بل يعتقدها وحيا منزلا من الله عز وجل ، فهو ممن قال الله تعالى فيه : (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) (١١) .

وقد ذكر في هذا الكلام كلاما لابن حجر المكي عامله الله بعدله في قدح ابن تيمية وسبه وشتمه ، وقال : انه كان أشدهم ردا عليه ، والاحرى به أن يقول انه كان أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، فانه قد ملأ كتبه بشتيم عباد الله الصالحين ، أهل الحديث النبوي وخدام السنة المطهرة والشريعة الغراء ، وقد اتدب للرد عليه بعض أهل العلم من عصرنا وقبله وبينوا سقطاته وغلطاته ، وكذبه وافترائه ، وخيافته في النقل ، وتحريفه للكلم عن مواضعه ، وغير ذلك من الامور التي لا يقدم عليها من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومزقوا بسهام أقلامهم جميع ما حاكه من نسج الاباطيل وزخرف الاقاويل بما لامزيد عليه ، كما قد ردوا على أسلافه الغلاة بمثل ذلك ، وكتبهم مشهورة متداولة بين الايدي ، وفيها الكفاية لمن أخذت الهداية بيديه ، ومن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

(وحيث أن النبھاني) ميت القلب بليد الطبع جامد القريحة ، يرى كلام متبوعيه وأسلافه كالشريعة المنزلة والدين المتبع ، ولا شك أن ذلك مما كان عليه أهل الجاهلية ، ففي شرح مسائل الجاهلية التي أبطلها الاسلام للعلامة أبي عبد الله الشيخ محمد قوله : ومنها الاقتداء بفسقة أهل العلم وجهالهم وعبادهم وقد حذرهم الله تعالى من

ذلك بقوله : (يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله)^(١) وقال تعالى : (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل)^(٢) الى آيات أخر تنادي ببطان الاقتداء بالفسقة وأهل الضلالة والغي ، وذلك من سنن أهل الجاهلية ، وطرائقهم المعوجة الرديئة .

قال : ومنها الاحتجاج بما كان عليه القرون السالفة من غير تحكيم العقل والاختد بالدليل الصحيح ، وقد أبطل الله ذلك بقوله : (قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى . الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كلوا وارعموا أنعامكم)^(٣) الآية . وقال تعالى : (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مُفترى ، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين . وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون)^(٤) وقال عز ذكره : (ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فقال الملائكة الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين . إن هو إلا رجل به جنه فتربصوا به حتى حين)^(٥) وفي آية أخرى : (وانطلق الملائكة

(١) التوبة : ٣٤ (٢) المائدة : ٧٧ (٣) طه : ٤٩ - ٥٤ (٤) القصص : ٣٦ ، ٣٧ (٥) المؤمنون : ٢٣-٢٥

مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي
الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا لِإِخْتِلَاقٌ^(١) .

فجعلوا مدار احتجاجهم على عدم قبول ما جاءت به الرسل انه لم يكن عليه أسلافهم
ولا عرفوه منهم ، فانظر الى سوء مداركهم وجمود قرائحهم ، ولو كانت لهم أعين
يبصرون بها وآذان يسمعون بها لعرفوا الحق بدليله ، وانقادوا لليقين من غير تعلبه ،
وهكذا اخلافهم ووراثهم قد تشابهت قلوبهم أه •

(والنبهاني) من هؤلاء القوم الذين تكلم عليهم في شرح المسائل ، وهو مع
جهله بكل علم ألف كتابا ذكر فيه مباحث كأنه لم يسمع بردها ، ولا علم بباطلها ،
وملاه من الهذيان والزور والبهتان ، فكان ممن قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في
أصحاب السعير .

ومع ذلك فنحن نتكلم على ما نقله هنا عن ابن حجر ، ونجيب عنه بجوابين
مجمل ومفصل •

(أما الجواب المجمل) فهو ان ما نقل عن ابن حجر لا يضر شيخ الاسلام فانه
عدو له ومن خصومه الالداء ، كما يدل على ذلك ما كان منه من الشتم والسب واللعن
وغير ذلك مما لا ينبغي أن يذكر بعضه في حق أعداء الله كاليهود وغيرهم من أعداء
الدين ، وذلك خارج عن قوانين المناظرة المقصود منها اظهار الصواب ، والحامل له
على ذلك تمصبه للسبكي ، فان كثيرا من الشافعية لهم حظ وافر مما كان عليه أهل
الجاهلية من انتصار بعضهم لبعض ولو ظلما ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :
(من تعزى بعزاء الجاهلية فاعضوه بهن أبيه ولا تكنوا) •

(وفي شرح المسائل) التي أبطلها الاسلام مانصه : ومن خصال الجاهلية أنهم
لا يتقبلون من الحق الا ما تقول به طائفتهم ، قال تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ
مَصَدَقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)^(٢) .

ومعنى (نؤمن بما أنزل علينا) أي نستتر على الايمان بالتوراة وما في حكمها مما أنزل في تقرير حكمها ، ومرادهم بضمير المتكلم اما أنبياء بني اسرائيل وهو الظاهر وفيه إيماء الى أن عدم ايمانهم بالقرآن كان بغيا وحسدا على نزوله على من ليس منهم ، وإما أنفسهم ، ومعنى الانزال عليهم : تكليفهم بما في المنزل من الاحكام، واذ، وا على هذه المقالة لما فيها من التعريض بشأن القرآن ودسائس اليهود مشهورة ، أو لأنهم تأولوا الامر المطلق العام ونزلوه على خاص هو الايمان بما أنزل عليهم ، كما هو ديدنهم في تأويل الكتاب بغير المراد منه .

(ويكفرون بما وراءه وهو الحق) أي هم مقارنون لحقيقته أي عالمون بها (مصدقا لما معهم) لأن كتب الله يصدق بعضها بعضا ، فالتصديق لازم لا ينتقل ، وقد قررت مضمون الخبر لانها كالاتدلال عليه ، ولهذا تضمنت رد قولهم : (نؤمن بما أنزل علينا) حيث أن من لم يصدق بما وافق التوراة لم يصدق بها (قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين) أمر للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك تسكيتا لهم حيث قتلوا الانبياء مع ادعاء الايمان بالتوراة وهي لاتسوغه .

قال : ومنها التعصب للمذهب والاقرار بالحق للتوصل الى دفعه ، قال تعالى : (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلمهم يرجعون . ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم قل ان الهدى هدى الله ان يوتى احد مثل ما أوتيتم او يحاجوكم عند ربكم قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)^(١)

قال الحسن والسدي : توأمأ اثنا عشر رجلا من أحبار يهود خيبر وقرى عرينة وقال بعضهم لبعض ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد واكفروا آخر النهار ، وقولوا انا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمدا ليس بذلك ، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه ، فاذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم ، وقالوا انهم أهل كتاب وهم أعلم به ، فيرجعون عن دينهم الى دينكم انتهى .

وما كان عليه ابن حجر المكي من الغلو في القبور والقول بأقوال المتصوفة الكاذبة وترويح بدعهم المعلومة أمر لايسعه الانكار ، وكتبه طافحة بمثل هذه

الأكاذيب ، وشيخ الاسلام قد بين أحكام الله تعالى في هذه الفئة الزائفة ، وذكر ما وردت به الشريعة من القول الحق الذي يذعن له كل من يسمعه ويصغي اليه ، وذلك من المسلم حتى لدى خصومه •

فمن جملة ما كتبه أبو الحسن السبكي الى الحافظ الذهبي أحد من أخذ على شيخ الاسلام في حق الشيخ تقي الدين مانصه :

وأما قول سيدي في الشيخ فالمملوك متحقق كبر قدره ، وزخارة بحره ، وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية ، وفرط ذكائه واجتهاده ، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائما ، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل ، مع ما جمع الله له من الورع والزهادة والديانة ، ونصرة الحق والقيام فيه لافترض سواه ، وجريه على سنن السلف وأخذ من ذاك بالماخذ الاوفى ، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان ، انتهى •

(والمقصود) أن كل ما اعترض به ابن حجر على شيخ الاسلام مردود عليه ، فان منه ما هو افتراء ، ومنه ما هو مؤيد بالحجج والدلائل القطعية ، ومنه ما لم ينفرد به بل قال بقوله جمع من المجتهدين ، وان ما كان من تهور ابن حجر ليس من الدين في شيء وانما لمزيد حبه وغيه واتباعه لهواه ، فكلامه الذي نقله الغبي النبهاني وغيره كنه مردود عليه •

(وأما الجواب المفصل) فنقول : أما قول ابن حجر فيه ما قال فذلك قول النبهاني هو أشدهم ردا على ابن تيمية محاماة عن الدين وشفقة على المسلمين الخ • • فقد صدق في جملة من هاتين الجملتين وكذب في الاخرى ، أما ما صدق فيها فقوله عن ابن حجر أنه أشد الناس ردا عليه والامر كما قال ، والسبب في ذلك ما ذكرناه سابقا من الحب للبدع والكراهة للسنن النبوية ، فان من نظر الى كتب الشيخ ابن تيمية وجدها دينا خالصا ، وكلاما أشبه شيء بالذهب المصفى ، وعلم منها حرصه رحمه الله على السنة والمحاماة للشريعة ، والحظ على أعداء الدين وخصماء السنة ، ومزيد حبه للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن راجع بعض فصول كتابه (الصارم المسلول) تبين له ما قلناه •

كل ذلك بخلاف ما كان عليه ابن حجر ، فتراه في كثير من كتبه يروج البدع ويدافع عنها ، ويذب عن أهلها ، ويخاصم اتباع السنن ، ويعادي أهل الحديث أشد

العداوة ، وينسب اليهم كل ماخطر على باله وجرى على لسان قلمه من الافك والزور والبهتان ، انظر الى مذكره في فتاواه الحديثية بل البدعية تجدها مشحونة من العدوان على ابن تيسية ، وقبل أن تنشر كتب شيخ الاسلام تقي الدين ربما كان يظن من يظن أنه صادق في منقوله ، فلما انتشرت وتداولتها الايدي تبين لكل ذي عينين أن ابن حجر كذب وافتري ولم يتوثق به أحد بعد ذلك ، وسقط من درجة الاعتبار بالكلية الا لدى من أعمى الله عين بصيرته من الاغبياء •

وبذلك يظهر كذب النبھاني في الجملة الاخرى ، وهي أن انكاره كان شفقة على الدين الخ ، بل لو أنصف لقال : ان انكاره كان من بغضه للدين ، فانه شوق الناس على البدع والاهواء ، وحذرهم من كتب السنة ومحبة أهلها والمحامين لها ، ولذلك ترى من اغتر بأقواله الكاسدة في ظلمات بن الجهل والغي والعمى ، لاينجع فيهم كلام ولا تمضي فيهم سهام الملام •

وأما من طالع كتب السنة - ولا سيما كتب شيخ الاسلام - تراه قد انكشفت عن بصيرته غشاوة التعصب واتبع ماقتضاه الدليل ، وهكذا الفرق بين المتداع والسنني ، ترى المتدعة يصرفون النصوص والدلائل الى ماتهوا أنفسهم ، وأهل السنة يذهبون الى مايقوده اليهم الدليل ، ويتركون له ماتهوا أنفسهم ، وهذا بحمد الله بين •

وأما قوله : ومن نظر بعين الانصاف شهد لهذا الامام ابن حجر بالولاية ، وأنه ربما يكون قد أطلعه الله على ماسيحصل في المستقبل من الاضرار العظيمة فجوابه من وجوه :

(أما أولا) فيقال : ان الولاية والكرامة انما تكون لصلحاء الامة ، أهل التقوى والورع والكرامة ، لاتكون لمثل ابن حجر من الكذابين المفترين المتناقضين في أقوالهم المضطربين في دينهم ، وما أحسن ما في كتاب أبناء الابناء بأحسن الانباء : يابسي من رأيتموه يطير في الهواء أو يمشي على وجه الماء - وقد خالف شيئا من الشريعة الغراء فذاك من أولياء الشيطان ، لا من أولياء الرحمن ، فاياكم وإياه ، واشتغلوا عنه بتقوى الله ، وقال شيخ الاسلام في كتابه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) ومن حين بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم جعله الفارق بين أولياء الله وأعدائه ، فلا يكون ولي الله الا من آمن به واتبعه ظاهرا وباطنا ، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله ، بل من خالفه كان من أعداء

الله وأولياء الشيطان قال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)^(١)
قال الحسن البصري : ادعى قوم انهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم
وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول فإن الله يحبه ، ومن ادعى محبة الله ولم يتبع
الرسول فليس من أولياء الله تعالى ، وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو
في غيرهم أنهم من أولياء الله ولا يكونون من أولياء الله فإن اليهود والنصارى يدعون
أنهم أولياء الله وأنه لا يدخل الجنة الا من كان منهم ، بل يدعون أنهم أبناء الله
وأجباؤه قال تعالى : قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ) الى قوله :
(واليه المسير)^(٢) وقال تعالى : (وقالوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ الْآمَنُ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى
تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ) الى قوله : (ولا هم يحزنون)^(٣) وكان مشركوا العرب يدعون أنهم
أهل الله لسكناهم مكة ومجاورتهم البيت ، وكانوا يستكبرون به على غيرهم كما
قال تعالى : (قد كانت آياتي تتلى عليكم) الى قوله : (سامراً تهجرون)^(٤) وقال
تعالى : (وإذ يكره بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك) الى قوله : (وهم
يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه الا المتقون ولكن
أكثرهم لا يعلمون)^(٥) فبين سبحانه وتعالى أن المشركين ليسوا أولياءه ولا أولياء بيته
انما أولياؤه المتقون .

وثبت في الصحيحين عن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول جهارا غير سر (إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء انما وليي الله وصالح
المؤمنين) وهذا موافق لقوله تعالى وان تظاهرا عليه الى قوله ظهير وصالحوا المؤمنين
المتقون أولياء الله ، ودخل في ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر أهل بيعة
الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة وكانوا ألفا وأربعمائة كلهم في الجنة ، كما
ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا يدخل النار أحد بايع
تحت الشجرة) ومثل هذا الحديث الآخر : (ان أولى الناس بي المتقون من كانوا
وحيث كانوا) كما أن من الكفار من يدعي أنه ولي الله وليس ولي الله بل عدوله ، وكذلك
من المنافقين الذين يظهرون الاسلام ويقرون في الظاهر بشهادة أن لا اله الا الله وأن

(١) آل عمران : ٣١ (٢) المائدة : ١٨ (٣) البقرة : ١١١ ، ١١٢ (٤) المؤمنون : ٦٦ ، ٦٧ (٥) الانفال :

محمدا رسولا لله ، وأنه مرسل الى جميع الانس ، بل الى الثقيلين الانس والجن ، ويعتقدون في البواطن ما يناقض ذلك ، مثل أن لا يقروا في الباطن أنه رسول الله ، انما كان ملكا مطاعا ساس الناس برأيه من جنس غيره من الملوك ، أو يقول انه رسول الله الى الاميين ، دون أهل الكتاب كما يقول كثير من اليهود والنصارى ، أو يقول انه مرسل الى عامة الخلق وأن لله أولياء خاصة لم يرسل اليهم ولا يحتاجون اليه ، أو أن لهم طريقا الى الله من غير جهته كما كان الحضر مع موسى ، أو أنهم يأخذون عن الله كلما يحتاجون اليه وينتفعون به من غير واسطة ، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهم موافقون له فيها ، وأما الحقائق الباطنية فلم يرسل بها ولم يكن يعرفها ، أو هم أعرف منه أو يعرفونها بمثل ما يعرفها هو من غير طريقته ، وقد يقول بعض هؤلاء أن أهل الصفة كانوا مستغنين عنه ولم يرسل اليهم الى آخر ما ذكره من التفصيل الذي لاتجده في غيره .

ومنه يعلم أن ابن حجر المكي ليس منهم في شيء ، فانه كان ممن يجوز الالتجاء الى غير الله تعالى ، والاستغاثة بالانبياء والصالحين ، والاستعانة بهم والتوسل ، وغير ذلك مما أسلفنا حكمه ، وبيننا اختلاف أهل العلم في ايمانه واسلامه ، هذا ما عدا ما ذكره في تضاعيف كلامه ولاسيما في كتابه (الجواهر المنظم) وما عدا ما اقرئ من الاثم في شتم خيار الامة وسبهم ولعنهم والافتراء عليهم فان هذه الامور متى اتصف بها شخص كان حكمه معلوما ، فكيف يجعل من الاولياء ويثبت له كرامات وخوارق؟! نعم انه يليق أن يكون لدى النبهاني من الاولياء ، وان الشياطين بعضهم اولياء بعض .

(وأما ثانيا) فلأن الاضرار التي ادعاها لموافقي ابن تيمية لم يبين ماهي ، ونحن نعلم أن كل ما يخالف الكتاب والسنة فوجوده ضرر محض ، ومن وافق ابن تيمية في أقواله انما نهى عن المنكرات التي كانت بين الناس مما لم يكن مثلها في الجاهلية الاولى ، وأمر بالمعروف الذي يجبه الله ورسوله ، كل ذلك معلوم لدى العقلاء ، فلم لم يطلع الله ابن حجر - اذا كان وليا وصاحب كرامة - على ما حدث في الاسلام من الزيف والاعوجاج والمنكرات الكثيرة في أخص بلاد الاسلام وأشرفها ، وما صادم الدين المبين من القواعد والاحكام التي يعرفها النبهاني ولا يحتاج الى أن ينبه عليها فانها اختلطت بلحمه وعظمه وعليها مدار معاشه واتعاشه (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين)

(وأما ثالثا) فإن قوله ان الاضرار التي ترتبت على أقوال ابن تيمية من فرقته الوهاية الخ ليس له محصل ولا حاصل ، فنحن نطالبه ببيان تلك الاضرار التي ادعاها أنها ترتبت على أقوال ابن تيمية ، مع أن أقواله هي عن الكتاب والسنة ، وما يترتب على الكتاب والسنة يترتب على الاقوال المأخوذة عنها ، والله سبحانه هو الذي أمر بجهاد المشركين ومحوهم من الارض أفيقال أن ذلك من المضار وفي الكتاب والسنة من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ما هو معلوم لدى كل ذي بصر ، أفيقال ان ما يترتب على ذلك هو ضرر والكتاب والسنة أوجبا ازالة البدع والاهواء وابطالها وان أضر بأهلها ؟ أفيقال : ان ما يترتب على ذلك يعد من الضرر ؟ والكتاب والسنة نهيا عن جميع الكبائر والمحرمات المفصلة في غير هذا الموضع فهل لوحظ ما يترتب على ذلك من الضرر على من يتعاطاه ؟ فقول النبهاني هذا ساقط ليس له وجه •

(وأما رابعا) فإن الذين أطلق عليهم اسم الوهاية - اطلاقا غلطا - هم أهل نجد وهم حنابلة من خيار أهل السنة ، وهم من أتباع الامام أحمد في الفروع لا من أتباع ابن تيمية ، وأما في العقائد والاصول فهم ليسوا بمقلدين لأحد فيها ، وهم لم يبتدعوا شيئا في الدين يكونون به فرقة أخرى ، ولم يتخذوا مع الله آلهة أخرى كما اتخذها الغلاة •

(وأما خامسا) فأبي مضار ترتبت على موافقي ابن تيمية وهم الذين فعلوا ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ، وامتثلوا أمره في الطاعة لولي الأمر ، ويعتقدون أن مخالفته من خصال الجاهلية ، ففي شرح المسائل : أن مخالفة ولي الأمر وعدم الانقياد له عندهم فضيلة ، وبعضهم يجعله دينا ، فخالفهم النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك ، وأمرهم بالصبر على جور الولاة ، والسمع والطاعة والنصيحة لهم ، وغلظ في ذلك وأبدى وأعاد ، وهذه الثلاث هي التي ورد فيها ما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : (إن الله يرضى لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم) وروى البخاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من كره من أميره شيئا فليصبر فانه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية) وروى أيضا عن جنادة ابن أبي أمية قال : دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض ، فقلنا : أصلحك الله حدث بحديث يتفكك الله به سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعنا فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة ، في منشطنا

ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ، وأن لا تنازع الامر أهله ، إلا أن تروا كفسرا
بواحا عندكم من الله فيه برهان) والاحاديث الصحيحة في هذا الباب كثيرة ، ولم
يقع خلل في دين الناس أو دنياهم الا من الاخلال بهذه الوصية ، انتهى •
وما كان من الحروب في نجد بين رؤسائهم أي ذنب لهم فيه ، وهم لم يبدأوا
أحدا بحرب ولا ضرب حتى يبدأ الغير به فحينئذ يدافعون عن أنفسهم ، ودفع الصائل
مأمور به ، فلم يحصل منهم ضرر على الشريعة بل هم أكثر المسلمين محاماة عليها
كما سبق •

(وأما سادسا) أن ما ينقل عن أهل نجد مما فعلوه بالحرمين لأصل له كما
لا يخفى على من طالع كتب تواريخهم ، وفي كتاب (منهاج التأسيس في الرد على ابن
جرجيس) وتتمته نبذة من ذلك ، وجزيرة العرب تشمل الحرمين ، بل هما الجزيرة
بلسان الشرع ، فلا وجه لعطف الجزيرة على الحرمين •

(وأما قوله) ولذلك كان رضي الله عنه لئشد أئمة المسلمين انكارا لبدع ابن
تيمية الخ فجوابه : انا قد ذكرنا سابقا أن ما كان منه من التهور والتجاوز على ابن
تيمية اتباعا لهواه ، وابن تيمية من أعظم الناس اتباعا للسنة وأكثرهم ردا للبدع ،
وقول النبهاني شبيه بقول اخوانه المشركين ، ففي كتاب شرح المسائل التي أبطلها
الاسلام من خصال الجاهلية سميتهم اتباع الاسلام شركا ، قال تعالى :
(ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا
لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون
ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيا أمركم بالكفر بئذ إذ
أنتم مسلمون) (١)

أخرج ابن اسحق بسنده حين اجتمعت الاحبار من اليهود والنصارى من أهل
نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى الاسلام قالوا : أتريديا محمد
أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران - نصراني
يقال له الرئيس - أو ذلك تريد منا يا محمد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو نأمر بعبادة غيره ما بذلك بعثني ، ولا بذلك أمرني)
فأنزل الله تعالى الآية ، انتهى •

وأظن أن النبهاني لا يفرق بين البدعة والسنة ، ولا ما يطلق عليه كل واحدة منها ، بل لا يعرف الايمان من ضده ، ولذلك سمى ابن تيمية مبتدعا ، وسمى نفسه وأضرابه مؤمنا ومن أهل السنة ، وقل له منشدا :

نزلوا بسكة في قبائل هاشم ونزلت بالبيداء أبعـد منزل

(وقل له)

أيها المدعي لسلمي اتسـابا لست منها ولا قلامـة ظفر

ولا بد من الكلام على البدعة حتى يعلم بعد معرفتها من المبتدع الذي أطلقه على شيخ الاسلام .

(كلام مفيد في تعريف البدعة)

اعلم أن البدعة لغة : المحدثـة مطلقا ، واصطلاحا : اذا قوبلت بالسنة يراد بها المحدثـة في الدين ، اما بزيادة أو نقصان ، وهي السيئة التي ليس لها أصل ظاهر من الكتاب والسنة أو سند صحيح استنبطه علماء الامة ، فاما ما كانت حسنة ناشئة عن هذه الاصول فهي قد تكون مباحة ، كالمواظبة على أكل لب الحنطة مثلا ، وقد تكون مستحبة كبناء المنارة وتصنيف الكتب ، وقد تكون واجبة كنظم الدلائل لرد كيد الملاحدة وشبه الفرق الضالة ، وقد وقع من ذلك عن الصحابة شيء كثير ، كما وقع لأبي بكر وعمر ، ولزيد بن ثابت في جمع القرآن ، فان عمر أشار به على أبي بكر خوفا من اندراس القرآن بموت الصحابة رضوان الله عليهم لما كثر فيهم القتل يوم اليمامة وغيره ، فتوقف أبو بكر لكونه صورة بدعة ، ثم شرح الله صدره لفعله لأنه ظهر له أنه يرجع الى الدين وأنه غير خارج عنه ، ولما دعا زيد بن ثابت وأمره بالجمع قال له : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : والله انه حق ، وكما وقع لعمر في جمع الناس لصلاة التراويح في المسجد مع تركه صلى الله عليه وسلم لذلك بعد أن كان فعله ليالي ، وقال نعمت البدعة هي ، لأنها وان سماها بدعة باعتبار معناها اللغوي فليس فيها رد لما مضى وزيادة في الدين ، بل هي من الدين لأنه صلى الله عليه وسلم علل الترك بخشية الافتراض وقد زال بوفاته صلى الله عليه وسلم ، ومنشأ الدم ما قاد الى شيء من مخالفة السنة ودعا الى الضلالة .

ثم قال الفاضل السويدي : والقول الفصل الموضح لما تقدم هو أن البدعة لها معنيان : (أحدهما) لغوي ، وهو المحدث مطلقا سواء من العادات أو العبادات (وثانيهما) شرعي ، وهو الزيادة في الدين أو النقصان منه من غير اذن من الشارع ، لا قولاً ولا فعلاً ولا صريحاً ولا إشارة ، فالبدعة التي هي ضلالة كما في الحديث هي بحسب معناها الشرعي ، فيقتصر بها على غير العادات من العبادات التي هي لأصول الشريعة من الكتاب والسنة والاذن من الشارع مخالقات ، فالمنازة عون لاعلام وقت الصلاة ، وتصنيف الكتب عون للتعليم ، ونظم الدلائل لرد الشبه ذب عن الدين ، فكل ذلك مأذون فيه ، لأن البدعة الحسنة ما لم يحتج اليه الاوائل واحتاج اليه الاواخر ، وعند الاستقراء لا توجد هذه البدعة في العبادات البدنية المحضة كالصوم والصلاة والذكر والقراءة ، بل لا تكون البدعة فيها الا سيئة .

قال صاحب مجالس الابرار ما ملخصه : لأن عدم وقوع الفعل في الصدر الاول إما لعدم الحاجة اليها ، أو لوجود مانع ، أو لعدم تنبه ، أو لتكاسل ، أو لكراهة ، أو لعدم مشروعيته ، والاولان منتفیان في العبادات البدنية المحضة لأن الحاجة في التقرب الى الله تعالى لاتنقطع ، وبعد ظهور الاسلام لم يكن منها مانع ، ولا يظن بالنبي صلى الله عليه وسلم عدم التنبه أو التكاسل ، فذاك أسوأ الظن المؤدي الى الكفر ، فلم يبق إلا كونها سيئة غير مشروعة .

وكذلك يقال لكل من أتى في العبادات البدنية المحضة بصفة لم تكن في زمن الصحابة ، اذ لو كان وصف العبادة في الفعل المبتدع يقتضي كونه بدعة حسنة لما وجد في العبادات ما هو بدعة مكروهة ، ولما جعل الفقهاء مثل صلاة الرغائب والجماعة فيها ومثل أنواع النعمات الواقعة في الخطب وفي الاذان وقراءة القرآن في الركوع مثلاً والجهر بالذكر أمام الجنائز من البدع المنكرة ، فمن قال بحسنها قيل له مائت حسنة بالادلة الشرعية فهو اما غير بدعة فيبقى عموم العام في حديث : (كل بدعة ضلالة) وحديث : (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد) على حاله ، أو يكون مخصوصاً من هذا العام ، والعام المخصوص دليل فيما عدا ما خص منه ، فمن ادعى الخصوص فيما أحدث أيضاً احتاج الى دليل يصلح للتخصيص من كتاب أو سنة أو اجماع مختص بأهل الاجتهاد ، ولا نظر للعوام ولعادة أكثر البلاد فيه ، فمن أحدث شيئاً يتقرب به الى الله تعالى من قول أو فعل فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله ، فلمع أن كل بدعة في العبادات البدنية المحضة لا تكون الا سيئة .

(والحاصل) أن كل ما أحدث ينظر في سببه فان كان لداعي الحاجة بعد أن لم يكن - كنظم الدلائل لرد الشبه التي لم تكن في عصر الصحابة ، أو كان وقد ترك لعارض زال بموت النبي صلى الله عليه وسلم كجمع القرآن ، فان المانع منه كون الوحي لا يزال ينزل فيغير الله ما يشاء وقد زال - كان حسناً ، وإلا فاحداثه بصرف العبادات البدنية القولية والفعلية تغيير لدين الله تعالى ، مثلاً الأذان في الجمعة سنة ، وقبل صلاة العيد بدعة ، ومع ذلك فانه يدخل في عوم قوله تعالى : (وأذكروا الله ذكراً كثيراً)^(١) وقوله تعالى : (ومن أحسن قولاً ممن دعى إلى الله)^(٢) فيقول قائل : هذا زيادة عمل صالح لا يضر ، لأنه يقال له هكذا تتغير شرائع الرسل ، فان الزيادة لو جازت لجاز أن يصلي الفجر أربعاً والظهر ستاً ، ويقال هذا عمل صالح زيادته لا تضر ، لكن أهل السنة يتبعون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الفعل والترك ، فان الله تعالى قد بين لنا الشرائع وأتم لنا الدين ، فهذا هو من غير زيادة أو نقص ، فالزيادة عليه كالتقصان ، فنعبده بما شرع ، ولا نعبده بالبدع ، فعقولنا عن مثل ذلك قاصرة ، وآراؤنا اذا كاسدة خاسرة ، والعقول لا تهتدي الى الاسرار الالهية ، فيما شرعه من الاحكام الدينية ، أو ماترى كيف نوديت الى الصلاة دائماً ، ونهيت عنها في الاوقات الخمسة ، وذلك ينتهي الى قدر ثلث النهار ، فينبغي لك أن تكون حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وأعمالهم فهم السواد الاعظم ، ومنهم يعرف الحسن من القبيح ، والمرجوح من الرجيح ، واذا وقع أمر ينظر فيه الى قواعد المجتهدين الذين هم السلف لمن خلف ، فان وافق أصولهم قبله المتبع بقلبه ، والا فلينبذ وراء ظهره وليتبصر في جلية أمره ، ولا تغرنك عوائد الناس فانها السموم القاتلة والداء العضال ، وعين المشاقة المؤدية الى الضلال ، وقد كان هشام بن عروة يقول : لاتسألوا الناس اليوم عما أحدثوه فانهم قد أعدوا له جواباً ، لكن سلوهم عن السنة فانهم لا يعرفونها واخرج أبو داود عن حذيفة رضي الله عنه ، قال : كل عبادة لم تفعلها الصحابة فلا تفعلوها ، وأخرج البيهقي أن ابن عباس قال أبغض الامور الى الله تعالى البدع .

(فمن البدع السيئة) ماخلفت شيئاً من ذلك صريحاً أو التزاماً ، وقد تنتهي الى ما يوجب التحريم تارة والكراهة أخرى ، والى ما يظن أنه طاعة وقربة .

فمن الاول الانتماء الى جماعة يزعمون التصوف ويخالفون ما كان عليه مشائخ

الطريق من الزهد والورع وسائر الكمالات المشهورة عنهم ، بل كثير من أولئك إباحية لا يحرمون حراما لتلبس الشيطان عليهم أحوالهم القبيحة الشنيعة ، فهم باسم الفسق أو الكفر أحق منهم باسم التصوف أو الفقر .

ومنه ما عمت به البلوى من تزيين الشيطان للعامّة تخليق حائط أو عمود أو تعظيم نحو عين أو حجر أو شجرة لرجاء شفاء أو قضاء حاجة ، وقبائحهم في هذا ظاهرة غنية عن الايضاح والبيان . وقد صح أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم مروا بشجرة سدر قبل حنين كان المشركون يعظمونها وينوطون بها أسلحتهم أي يعلقونها بها ، فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذوات أنواع كما لهم ذات أنواع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الله أكبر ، هذا كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، قال انكم قوم تجهلون ، لتركبن سنن من كان قبلكم) .
ومن الثاني ومنشأه أن الشارع يخص عبادة بزمن أو مكان أو شخص أو حال فيعممونها جهلا وظنا أنها طاعة مطلقا نحو صوم يوم الشك أو التشريق والوصال ، ومنه التعريف بغير عرفة ، ومنه صلاة ليلة الرغائب أول جمعة في رجب وليلة النصف من شعبان فهما مذمومتان .

قال السويدي : ومن أعظم البدع الغلو في تعظيم القبور ، فإتخذوها في هذا الزمان معابد يعتقدون أن الصلاة عندها أفضل من الصلاة في جميع بيوت الله ، وهم وإن لم يصرحوا ولكن طبعت قلوبهم على ذلك ، فتراهم يقصدونها من الأماكن البعيدة وربما أن تكون بحذاءهم مساجد مهجورة فيعطّلونها ، وإذا لحقوا على الصلاة فيها ولو في أوقات الكراهة كانت أفضل عندهم من الصلاة في الأوقات الفضيلة في المساجد ، وتلك المساجد التي بحذاء القبور ليست مقصودة لكونها بيوتا لله بل لكونها حضرات لمن اتسبت إليه من أهل تلك القبور ، يدل ذلك على ذلك كله أنهم لا يسمنونها الا حضرات ، فإذا قلت لأحدهم أين صليت قال لك صليت في حضرة الشيخ فلان ، وليس مفصودهم به الا التقرب به وبحضرة ، وكلما أكثر الرجل التردد الى القبور - ولو كانت مشتملة على أنواع المنكرات من ستور الحرير والديباج والترصيع بالفضة والعقيان فضلا عن غيرها - كان مشهورا بين الناس بالديانات ، مغفور الزلات ، مقربا عند أصحاب تلك الحضرات ، ولقد امتلأت قلوب العوام من رجائهم ومخافتهم ، فتراهم إذا عضلت عليهم الامور أوصى بعضهم بعضا بقصد أصحاب القبور ، وكذلك إذا وقع على أحد يمين بالله حلف به من غير أدنى وجل

أو حذر ، و إذا قيل له احلف بفلان عند قبره خصوصا إذا أمره بالغسل لهذا اليمين ليكون ذلك من أقوى العبادات : خاف خوفا يظهر على جميع جوارحه ، فلو سلمنا أنه أدخل الى قبره ارتعدت فرائضه وانحلت قواه ، وربما أن أحدهم - لكثرة أوهامه وشدة خوفه - تبطل حواسه فيزدادون كفرا ، وتضحك عليهم الشياطين جهرا ، وترى كثيرا منهم يعلقون مرضاهم عليهم ، فيأخذون المريض وهو في غاية شدته فيدخلونه على قبره ، والسعيد عندهم من يدخلونه داخل شباكه ويتعلق بستر قبره ، والرزية العظى أنهم في حالي السراء والضراء يتلاعب ابليس بهم ، فان مات مريضهم قالوا ما قبلنا الشيخ فلان يعنون به صاحب القبر ، وان صادف القدر فعوفي سيما اذا وافق مطلوبهم ذلك الوقت فرحوا بما عندهم من الكفر : فأرسلوا القرابين ومعها شموع العسل موقدة من بيوتهم ، اظهرا لقدر صاحب القبر وتبنيها على فضيلته ، وكثيرا ما ينشرون الرايات له على طريقة أهل الجهل من الاعراب أن من فعل شيئا عظيما نشرت له راية بيضاء ، وقد رأيت من لم يفعل ذلك ولكنه ينصب راية بيضاء على سطح داره ثلاثة أيام يصبح كل يوم وقت المغرب بأعلى صوته الارية البيضاء المبنية لفلان بيض الله وجهه •

قال وبالجملة : فأكثر البدع الخبيثة نشأت من هنالك ، حتى أنني رأيت بدمشق الشام أناسا يندرون للشيخ عبد القادر الجيلي قنديلا يعلقونه في رؤس المنابر ويستقبلون به جهة بغداد ويبقى موقدا الى الصباح ، وهم يعتقدون أن ذلك من أتم القربات اليه ، كأنهم يقولون بلسان حالهم أينما توقدوا فثم عبد القادر •
فيا لله العجب ماهذه الخرافات؟! وأين دين الله الذي قد مات؟ بال الشيطان في عقولهم وأضلهم عن سبيلهم ، ولا ترى أحدا ينهى وينكر أمثال ذلك •

وأعظم مما هنالك ومن أقبح المنكرات : ما يستعملها جميع الناس عند وضع الاناث ولاسيما في شدة الطلق ، فانهن يستغثن بعلي بن أبي طالب ، وكلما اشتد الطلق صاحت النساء بأعلى أصواتهن داعيات ومستغيثات به ليفرج عنهن ماقد كربهن ، ومن يسعهن يتيقن اشراكهن ، وكلما تسلم امرأة منهن في هذا الحال العظيم ، والخطب الجسيم ، وكثير منهن يزعمن أنه الموكل بالارحام ، والموكل اليه في هذه الاحوال العظام •

(ومن البدع المنكرة) أن كثيرا من أهل الهند وأهل الاماكن القاصية يرسلون الهدايا العظيمة ، والاموال الكثيرة ، اما لاجراء القنوات لأجل المجاورين عند

قبورهم ، فانهم عندهم أفضل خلق الله ، ومن جاور عندهم فكأنما ابتاع منهم قطعة من الجنان ، واما لعمل قبابهم بصفائح الذهب والعقيان ، وبعضهم يرسل هدايا عظيمة ليرسل له اسدنة اعلاما ينشرونها على فلکهم اذا وقعوا في شدتهم ، فيكون اسمه المكتوب في تلك الاعلام المرسله اليهم كشافا لكربتهم نفاعا لهم بانجاح بغيتهم ، قال : وأكثر نساء بغداد اذا قمن صحیحات من وضعهن يخزن خبزا يسمينه عباس المستعجل يزعمن أن العباس بن علي ابن أبي طالب هو المتكفل بهذه الامور العظام •

(ومن ذلك عند الناس شيء كثير) من أحجار وآبار ، وصخور وأشجار ، يزعمون منها شفاء الامراض وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، ولو بسطت الكلام في ذلك - مما يستعمله الرجال والنساء ، أو يختص بالنساء ، من أشياء يعلقنها عليهن ، ويبين خواصها وتأثيراتها في أزواجهن ، ويسينها بأسماء لو رجعت الجاهلية الاولى لعجزت عن أقل القليل من هذه الجهالات وسوء الاعتقادات - لاحتمل مجلدات ، والويل كل الويل لمن أنكر ذلك ، أو تكلم بأدنى شيء بنجى من تلكم المهالك •

(ومن أسخف البدع) أنك تسمع وقت خسوف القمر من الضرب بالطسوس والنحاس شيئا عظيما ، ولا تكاد تسمع برجل دخل بيتا من بيوت الله للصلاة فيه أو صلى في بيته أو استغفر أو تاب أو تصدق ، فبالله نستعين على زمان أميتت فيه السنن واستؤنس بالبدع ، اللهم واذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا اليك غير مفتونين آمين •

(ومن البدع المنكرة) ما يستعمله المتصوفة من أذكار اشتملت على الدفوف والطبالات والغناء وأنواع الرقص ويسمونه حالا ، وتراهم يعملون ذلك ومغنيهم ينشدهم من الشعر المشتل على مالا يرضي الله تعالى ، ويحضره الفسقة والمرد والنساء ، فيحصل من ذلك ماتظهر به شعائر الفسق والعصيان ، وترى الشيخ لو حصلت له مواجهة الظلمة وظفر بدرامهم لعددا من أطيب المكاسب ، وأقرب المراتب ، لا أكثر الله من أمثالهم •

وأعظم الناس بلاء في هذا العصر على الدين والدولة : مبتدعة الرفاعية ، فلا تجد بدعة إلا ومنهم مصدرها وعنهم موردها ومأخذها ، فذكرهم عبارة عن رقص وغناء والتجاء الى غير الله وعبادة مشائخهم ، وأعمالهم عبارة عن مسك الحيات والعقارب ونحو ذلك •

قال ابن خلدون في (كتابه العبر) قد كثر الزغل في أصحاب الشيخ أحمد وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذ التتار العراق ، من دخول النيران ، وركوب السباع ، واللعب بالحيات ، وهذا لا يعرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه ، فتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، انتهى .

وشيخ الاسلام ابن تيمية قد أطنب في بيان ضلالاتهم وجهالاتهم وحيلهم ، وما يخذعون به الجهال وغير ذلك من أفعالهم وأعمالهم ، ولهم معه حوادث ومجالس فمن أراد الوقوف على ذلك فعليه برراجعة كتابه الذي ألفه في بيان أحوالهم وسماه : (كشف حال المشائخ الاحمدية ، وبيان أحوالهم الشيطانية) ولولا طول الكلام لاتحفظنا القراء بذكر شيء منه .

(والحاصل) أنه لو أراد الانسان أن يفصل منكرات القبور وتكيات الصوفية ومنكرات الحيطان والآبار والصخور والاحجار والتماثيل ، وكذا منكرات المساجد والحمامات والطرقات والاسواق والبوادي والامصار ، فضلا عن الدخول في منكرات المجالس والملابس والبيع والشراء ، وما ابتدعه فيها وجعلوه كالسنة المأمور بها : لضاق عنه التحرير ، وعجز عن ضبطه من تصدى للتسطير ، وعسى الله سبحانه وتعالى أن يرسل في هذه الامة من يجدد لها أمر الدين ، ويتبع سبيل المؤمنين .

(والمقصود) أن النبهاني لم يعرف معنى البدعة ولا محل اطلاقها ، فلذلك جعل شيخ الاسلام مبتدعا وجعل نفسه متبعا مع قوله بوحدة الوجود ، ونداء غير الله في الحاجات والضرورات ، وصرف عمره بأحكام العدلية وقوانينها ، واعتقاده بالوهية النبي صلى الله عليه وسلم ، الى غير ذلك من الامور التي لو اعتقد أحد أمرا واحدا منها كفى في اخراجه عن الدين المبين ، وزيفه عن اتباع سبيل المؤمنين ، وما أحققه بقول القائل من الاكابر والامائل :

مساو لو قسمن على العواني
لما أمهرن الا بالطلاق

وأما شيخ الاسلام وعلم الاعلام : فقيامه بنصرة الدين أمر معلوم ، وجهاده في الله حق الجهاد لا ينكره ذوو الفهوم ، وقول النبهاني هذا كما حكى الله عن اخوانه الجاهلين ، ففي شرح المسائل من خصالهم الايمان بالجيت والطاغوت ، وتفضيل المشركين على المسلمين ، قال تعالى : (الم تر الى الذين أتوا نصيباً من الكتاب

يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ
آمَنُوا سَبِيلًا^(١) .

قالوا : نزلت هذه الآية في حبي بن أخطب وكعب بن الاشرف في جمع من يهود
وذلك أنهم خرجوا الى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشا ^{عليه} رسول الله صلى الله
عليه وسلم وينقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل
كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه ، ونزلت اليهود في دور قريش ، فقال أهل مكة :
انكم أهل كتاب ومحمد صلى الله عليه وسلم صاحب كتاب فلا يؤمن هذا أن يكون
مكرا منكم فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما ففعل ، ثم
قال كعب : يا أهل مكة ليجيء منكم ثلاثون ومنا ثلاثون فنزلت أكبادنا بالكعبة فنعاهد
رب البيت لنجهدن على قتال محمد ففعلوا ذلك ، فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب :
إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لانعلم فأينا أهدى طريقا وأقرب الى الحق
نحن أم محمد ؟ قال كعب : اعرضوا على دينكم ، فقال أبو سفيان : نحن نتحرل للحجر
الكوماء ، ونسقيهم اللبن ، ونقرى الضيف ، ونفك العاني ، ونصل الرحم ، ونعسر
بيت ربنا ، ونطوف به ، ونحن أهل الحرم ، ومحمد فارق دين آباءه ، وقطع الرحم ،
ودينا القديم ، ودين محمد الحديث ، فقال كعب : أتمم والله أهدى سبيلا مما عليه
محمد ، فأنزل الله في ذلك الآية .

والجبت في الاصل : اسم صنم فاستعمل في كل معبود غير الله ، والطاغوت :
يطلق على كل باطل من معبود أو غيره ، ومعنى الايمان بهما : اما التصديق بأنهما آلهة
واشراكهما بالعبادة مع الله تعالى ، واما ناعتها وموافقتهما على ماها عليه من الباطل
واما القدر المشترك بين المعنيين كالتعظيم مثلا ، والمتبادر المعنوي الاول ، أي أنهم
يصدقون بألوهية هذين الباطلين ويشركونهما في العبادة مع الاله الحق ويسجدون
لهما اه .

(قال النبهاني) فقد ثبت وتحقق وظهر ظهور الشمس في رابعة النهار أن علماء
المذاهب الاربعة قد اتفقوا على رد بدعة ابن تيمية ، ومنهم من طعن بصحة نقله كما
طعن بكمال عقله فضلا عن شدة تشنيعهم عليه في خطئه الفاحش في تلك المسائل التي
شد بها في الدين ، وخالف بها اجماع المسلمين ، ولا سيما فيما يتعلق بسيد المرسلين .

(الجواب عنه) أنه قد ثبت وتحقق لدى كل منصف أن علماء المذاهب الأربعة أثنوا عليه ، واعترفوا بفضله ، وألقوا في مناقبه كتباً مفصلة ، ومن شذ منهم وطعن عليه القم الحجر ورد عليه كلامه ، وإن اعترضه كان لجهل أو غرض أو تعصب أو نحو ذلك ، وتبين أن ابن تيمية لم يتدع شيئاً في الدين ، وما اختار شيئاً إلا وأقام عليه الدلائل الصحيحة والبراهين ، ومن طعن بصحة نقله فهو عدو له مبين ، واسم يسلم أحد من لسان الخلق حتى رب العالمين ، وسيد الأولين والآخرين ، وغزارة علمه من سعة عقله وكمال فضله ، وما ذهب إليه من المسائل هو الحق الحقيقي بالقبول ، وحديث الأجماع على خلافها كذب عند علماء المنقول والمعقول .

قال الحافظ الذهبي : ما رأيت أشد استحضاراً للمتون وعزوها منه ، وكانت السنة بن عينه وعلى طرف لسانه بعبارة رشيقة وعين مفتوحة .

وقال حافظ الإسلام الجبر التليق أستاذ أئمة الجرح والتعديل شيخ المحدثين جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الركن عبد الرحمن المزني الشافعي في ابن تيمية : ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه ، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا أتبع لهما منه ، ونأهيك بهذا الكلام من الحافظين العدلين المستوعبين أبي الحجاج المزني وأبي عبد الله الذهبي .

وقال الشيخ الإمام بقية المجتهدين تقي الدين بن حنبل العيد الشافعي لما اجتمع به وسمع كلامه : كنت أظن أن الله تعالى ما بقى يخلق مثلك ، وقال أيضاً : رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه يأخذ منها ما يريد ويدع ما يريد .

وقال الحافظ عماد الدين بن كثير الشافعي : وبالجملة كان رحمه الله تعالى من كبار العلماء ، ومن يخطيء ويصيب ، ولكن خطؤه بالنسبة لصوابه كنقطة في بحر نجى ، وخطؤه أيضاً مغفور له لما سح في صحيح البخاري : (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر) .

قال السيد صفي الدين الحنفي في ترجمة ابن تيمية : قد نص على أنه بلغ رتبة الاجتهاد جمع من العلماء : منهم الإمام أبو عبد الله الذهبي ، والحافظ بن حجر ، والحافظ السيوطي في لمبقات الحفاظ ، ولم يتفرد بمسألة منكرة قط ، وإن كان قد خالف الأئمة الأربعة في مسائل فقد وافق فيها بعض الصحابة أو التابعين الخ انتهى . وسنفرد له إن شاء الله فصلاً مفصلاً في ذكر مناقبه وبهذا أيضاً تبين الحاد

النبهاني وزوره وكذبه واتباعه لهواه ، وقد جادل بغير علم ، وذلك كما كان عليه
أهل الجاهلية .

(وفي شرح المسائل) الجدل بغير علم كما ترى كثيرا من أهل الجهل يجادلون
أهل العلم عند نهيهم عما ألقوه من البدع والضلالات ، وهي خصلة جاهلية نهانا الله
تعالى عن التخلق بها ، قال تعالى : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا
أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ هُوَءَاءَ حَاجِّجْتُمْ فِيهَا
لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)^(١)

أخرج ابن اسحق وابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، قال :
اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعوا
عنده ، فقالت الاحبار ما كان ابراهيم الا يهوديا ، وقالت النصارى ، ما كان ابراهيم الا
نصرانيا ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية المنادية على جهلهم وغبواتهم انتهى .

فوازن بين النبهاني وبين اخوانه تجد الفريقين كما قال القائل :

رضيحي لبان ثدي أم تقاسما باسحم داج عوض لا تفرق

(وأما قوله) ولاسيما فيما يتعلق بسيد المرسلين الخ فإنه يدل على أن ابن
تيمية مغل بحقوق النبي صلى الله عليه وسلم ، وبه صرح مرارا حيث قال : ان ابن
تيمية حيث لم يجوز الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا دعاءه ولا الالتجاء
اليه ولا شد الرحل الى زيارة قبره : فاعلم أن حب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
وتعظيمه باتباع شريعته ، وامثال أوامره واجتناب نواهيه ، وحبه وتعظيمه بما ذكره
الخصم : هو من قبيل تعظيم النصارى لعيسى ، وغلوهم في الانبياء والرسل عليهم
السلام ، قال تعالى : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ
الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتُهُ أُقْبِئْتُهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ
فَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ
أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ)^(٢) والغلو في المخلوق هو أعظم أسباب عبادة الاصنام

(١) آل عمران : ٦٥ ، ٦٦ (٢) النساء : ١٧١

والصالحين ، كما كان في قوم نوح من عبادة نسر وسواع ويعوث ويعوق ونحوهم
وكما كان من عبادة النصارى للمسيح عليه السلام ، وهذا هو القول على الله بغير
الحق •

والمقصود : أن مراعاة حقوق النبي صلى الله عليه وسلم إنما تكون بالمحافظة
على شريعته لا بما يقول النبّهاني الغبي ، ومن المعلوم ما كان عليه ابن تيمية من اتباع
السنن ، والمحافظة على الشريعة الفراء ، ومزيد الأدب مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، حتى أنه عقد فصلا في كتابه (الصارم المسلول) لبذل الاموال وسفك
الدماء في تعزير رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره ، وفصلا آخر في فرض الله
علينا تعزيره وتوقيره ، وفصلا آخر في أن قيام المدحة والتعظيم والشناء عليه صلى
الله عليه وسلم قيام الدين كله ، وفصلا آخر في أن شاتم الرسول صلى الله عليه
وسلم يتعين قتله ، وفصلا آخر في أن الله تعالى أوجب لنبيه صلى الله عليه وسلم
حقوقا زائدة على القلب واللسان والجوارح ، وأن سبه سب لجميع المسلمين ، ووطن
في دينهم ، وفصلا آخر في أن التعظيم والمحبة للرسول صلى الله عليه وسلم لازم
للايمان ، وفصلا آخر في بيان حكم الطعن في نسه أو خلقه أو خلقه أو أماته أو
وفائه أو صدقه ، وذكر فصولا أخرى مهمة كلها تدل على ما انطوى عليه من مزيد حبه
وأدبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أنه قال نقلا عن القاضي عياض جميع
من سب النبي صلى الله عليه وسلم أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو نسه أو دينه
أو خصلة من خصاله أو عرض به شبهة بشيء على طريق السب له والأزراء عليه أو
البغض منه والعيب له : فهو ساب له ، والحكم فيه حكم الساب يقتل ، ولا تستثن
فصلا من فصول هذا الباب عن هذا المقصد ، ولا تتر فيه تصريحاً كان أو تلويحاً ،
وكذلك من لعنه ، أو تمنى مضرة له ، أو دعا عليه ، أو نسب إليه مالا يليق بمنصبه
على طريق الذم ، أو عيبه في جهة الغريزة بسخف من الكلام ، وهجر ومنكر من القول
وزورا ، أو عيره بشيء مما يجري من البلاء والمحنة عليه ، أو غمضه ببعض العوارض
البشرية الجائزة والمعهود لديه ، قال : وهذا كله اجماع من العلماء وأئمة الفتوى من
لذن أصحابه وهلم جرا •

وقال ابن القاسم عن مالك من سب النبي صلى الله عليه وسلم قتل ولم يستتب ،
قال ابن القاسم أو شتمه أو عابه أو تنقصه فإنه يقتل كالزندق ، وقد فرض الله

توقيره ، وكذلك قال مالك في رواية المدنيين عنه من سب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو شتمه أو عابه أو تنقصه قتل مسلماً كان أو كافراً ولا يستتاب ، وروى ابن وهب عن مالك : من قال ان رداء النبي صلى الله عليه وسلم وسخ وأراد به عيه قتل ، وروى بعض المالكية اجماع العلماء على من دعا على نبي من الانبياء بالويل أو بشيء من المكروه أنه يتنزل بلا استتابة ، وذكر القاضي عياض أجوبة جماعة من فقهاء المالكية المشاهير بالقتل بلا استتابة في قضايا متعددة أفتى في كل قضية بعضهم وفصلها ، انتهى ما قصدنا نقله من كتاب (الصارم المسلول) وهو كتاب جليل يدل دلالة سريحة على ما كان عليه مؤلفه من المحبة بالاتباع ، وبه يسقط كل ما هذى به النهائي من الباطل والزور .

(قال النهائي) ويقوي عدم اعتبار نقل ابن تيمية في بعض ما ينقله مقاله في حقه الحافظ العراقي الكبير ، وها أنا أنقله تسمياً للفائدة وتقوية للحجة وان لم يكن منا نحن فيه ، فأقول : قد اطلعت على جزء لطيف تأليف الحافظ العراقي ، شيخ الحافظ ابن حجر والامام العيني ، تكلم فيه على أكل الدجاج والحبوب والتوسعة على العيال يوم عاشوراء ، رد به على الامام ابن تيمية في منعه ذلك ، ثم انه أورد الرسالة بتمامها .

(جوابه) أن ما ذكرناه سابقاً بل ويأتي أيضاً من ثناء أهل العلم وأكابر المحدثين وعدمهم له من أكابر الحفاظ يستوجب سقوط ما ذكره النهائي من عدم اعتبار نقله ، وهو الثقة الصدوق ، شهد له بذلك أجاؤه وخصومه ، ولم يخالف في ذلك أحد ، حتى أن علماء الحديث قالوا كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بجديد ، فانظر الى هذه المنزلة العظيمة والدرجة العليا من الصدق ، وما نقله عن العراقي — ان صح نقله — فهو دليل على جهله وعدم معرفته بأحكام الدين ، فان تخصيص يوم عاشوراء بشيء من الامور الدينية والدنيوية مما لا أصل له ، كما عليه أئمة المذاهب وفقهاؤها والاحاديث التي أوردها منها ما هو موضوع ، ومنها ما لا يدل على الغرض المقصود ، وتفصيل الكلام فيها يخرجنا عن موضوع الكتاب .

ولقد تكثر النهائي من ذكر خصوم الشيخ والطاعنين فيه مع أن الاعتماد على الكسرة والسواد الانظم والاحتجاج على بطلان الشيء بقلة أهله من الجهل بديكان ، قال تعالى : (وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ان

بحر المحيط بسائر الخلجان
 ما في الوجود له نظير ثمان
 قول الروافض شيعة الشيطان
 أرداهم في حفرة الجبان
 أعجوبة للعالم الرباني
 في ست أسفار كتبن سمان
 يشفي الصدور وانه سفران
 ني شارح المحصول شرح بيان
 في غاية التقرير والبيان
 أبدا وكتبهم بكل مكان
 سفلى فيه في أتم بيان
 سفران فيما بيننا خممان
 والله في علم وفي ايمنان
 قبلي يموت لكان غير الثمان
 توحيدهم هو غاية الكفران
 بحقيقة المعقول وابرهان
 رد على من قال بالنفسياني
 أعني كلام النفس ذا الوجدان
 أوفي من المائتين في الحبان
 فأشرت بعض اشارة لبيان
 أطراف والاصحاب والاخوان
 تتباع بالغالي من الاثمان
 أضحى عليها دائم الطوفان
 يام من شهر بلا نقصان
 قد فاتني منها بلا حسابان
 عشر كبار ليس ذا نقصان
 لمة فسفر واضح التبيان
 هي كالنجوم لسانك حيران

أعني أبا العباس أحمد ذاك ال
 واقرأ كتاب العقل والنقل الذي
 وكذلك منهج له في رده
 وكذلك أهل الاعتزال فانه
 وكذلك التأسيس أصبح نقضه
 وكذلك أجوبة له مصرية
 وكذا جواب للنصارى فيه ما
 وكذلك شرح عقيدة للاصبها
 فيها النبوات التي أثباتها
 والله مالاولى الكلام نظيره
 وكذا حدوث العالم العلوي وال
 وكذا قواعد الاستقامة أنها
 وقرأت أكثرها عليه فزادني
 هذا ولو حدثت نفسي أنه
 وكذلك توحيد الفلاسفة الألي
 سفر لطيف فيه نقض أصولهم
 وكذلك تسعينية فيها له
 تسعون وجها بينت بطلانه
 وكذا قواعدها الكبار فانها
 لم يتسع نظمي لها فأسوقها
 وكذا رسائله الى البلدان وال
 هي في الورى مبثوثة معلومة
 وكذا فتاواه فأخبرني الذي
 بلغ الذي ألفاه منها عدة الا
 سفر يقابل كل يوم والذي
 هذا وليس يقصر التفسير عن
 وكذا المفاريد التي في كل مس
 ما بين عشر أو تزيد بضعفها

وله المقامات الشهيرة في النورى
نصر الاله ودينه وكتابه
أبدى فضائحهم وبين جهلهم
وأصارهم والله تحت نعال أهـ
وأصارهم تحت الحضيض وظالمنا
ومن العجائب أنه بسلاحهم
كانت نواصينا بأيديهم فما
فعدت نواصيهم بأيدينا فلا
وغدت ملوكهم ماليكا لا؛
وأنت جنودهم التي صالوا بها
يدري بهذا من له خبر بما
والقدم يوحثنا وليس هناكم

قد قامها لله غير جبان
ورسوله بالسيف والبرهان
وأرى تناقضهم بكل زمان
لحق بعد ملابس التيجان
كانوا هم الاعلام في البلدان
أرداهم تحت الحضيض الداني
منالهم الا أسير عان
يلوتنا الا بجبل أمان
صار الرسول بمنة الرحمن
منقادة لعساكر الايمان
قد قاله في ربه الفتان
فحضوره ومغيبه سيان

(وقلت في شرح هذه الايات) أعلم أن الناظم لم يذكر كنه مرتبة أعنى كتب
كل فن على حدة لعدم مساعدة النظم على ذلك ، ونحن نشرحها حسبما ذكرها
فنقول :

(قوله) واقراً كتاب العقل والنقل الخ هذا كتاب ألفه في بيان أن الشريعة كافية
بنصوصها ، ولا حاجة بها الى ما أحدث من القواعد الكلامية المأخوذة من الحكمة
اليونانية ، وان الدليل النقلي يفيد اليقين ، وهذا الكتاب متداول بين الايدي ، ونسخه
كثيرة في الهند وبلاد العرب والفرس ، وتوجد منه نسخة كاملة لانقص فيها في خزانة
كتب راغب باشا في دار السلطنة المحروسة •

(قوله) وكذلك منهاج له في رده الخ •• هذا الكتاب أيضا من كتب الشيخ
المهمة ، وهو أحسن كتاب ألف في الرد على الروافض ، مشتمل على فنون كثيرة وعلم
غزير ، نسخته أيضا كثيرة في البلاد ، وكثير من خزائن الكتب الاسلامية مشتملة
عليه •

(قوله) وكذلك التأسيس أصبح نقضه الخ • اشارة الى كتاب نقض أساس
التأسيس ، وهو في الرد على أساس التأسيس للإمام فخر الدين الرازي اشتمل على
مسائل مهمة في علم الكلام ، ونسخته في خزانة كتب الملك العادل في دمشق الشام ،

وهو في ست أسفار على ما نقل لي •

(وقوله) وكذلك أجوبة مصرية الخ هي أيضا فتاوي مشتملة على مسائل مهمة في ست أسفار •

(وقوله) وكذا جواب للنصارى الخ يريد به (الجواب الصحيح ، لمن بدل دين المسيح) ولم يؤلف في الرد على النصارى كتاب مثله وكتب في شأنه بعض المجلات المصرية مانصه (الجواب الصحيح والدين الصريح) اذا أطلق الانسان حرته ، وجرده عن عوامل التقييدات ومحض فطرته ، وتأمل في جواهر الاديان ومد النظر في مجال ما حدث به كل نبي عن ربه يرى أن الحقيقة واحدة والامنية لكل متحدة ، فلباب الشرائع الالهية واحد ، ومقصد الشارعين متحد ، مصداقا لقوله تعالى : (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر)^(١) وغير ذلك من الآيات الدالة على اتفاقهم في المقصد واتحادهم في الغرض ، وقد انفقت كلمتهم على التوحيد والنهي عن التفرق والاختلاف كما قال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)^(٢) ولكن أبى الانسان الناقص بأصل فطرته القاصر عن فهم حكمة ربه البالغة الا أن يجعل ماهو أصلا في الاتفاق سببا في الافتراق ، وما هو أصل السعادة سببا في الشقاء ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين لجمع الكلمة وتوحيد الامة ، فتعلبت قوة الشر وطبيعة النقص على هذا الخير المحض والكمال المطلق ، فمزقت هذه الجامعة الانسانية ، والوحدة الدينية ، فتعددت فيهم المذاهب والنحل والآراء والملل ، وقامت بينهم حروب الاقلام وتلتها معارك السنان ، واشتغل كل فريق بالرد والاعتراض وانتصر لكل جماعات وأفراد ، وهكذا كثر القيل والقال ، والمشاعبة والجدال ، وذهبت الحقيقة تحت أستار المغالبة ، واحتجبت بحجاب المرء والمخاصمة ، وما أتى فريق لكشف تلك الشبهات بجلاء ، بل بعدوا عن الحقيقة بعد الارض من السماء ، الى أن انبرى في القرون الوسطى لنصرة الحق لذاته شيخ الاسلام وقدوة الانعام تقي الدين أحمد بن تيمية ، فكتب كتابه الموسوم (بالجواب الصحيح) سلك فيه مسلك العدل والانصاف ، وأظهر الحق وأبطل الباطل ، وترفع عن المجادلة والمشاعبة

(١) القمر : ٥٠ (٢) الشورى : ١٣

وتنزه عن المشاتمة والمغالبة ، فما نحى أحد منحاه ، ولا سلك طريقته وهداه ، وكان الباعث لتأليف هذا الكتاب الذي أوضح فيه الحقيقة لأولي الالباب : كتابا ورد من مدينة قبرص ألفه بولص الراهب أسقف صيدا الانطاكي . جسع فيه جيسع الاحتجاجات لدين النصارى التي يحتج بها علماءهم وفضلاء ملتهم ، وكان ما في ذلك الكتاب هو عمدتهم التي يعتد عليها علماءهم في كل زمان ومكان ، وهو محصور في ستة مطالب هي دعائم الديانة المسيحية واصول مذاهبهم المليية ، وقد أجابهم على كل دعوى بما فيه لذوي البصيرة مقنع ، ثم ذكر مشتتات الكتاب ، ثم قال : فجاء هذا الامام الجليل واطرح الآراء المذهبية ، وترك التعصبات الدينية ، وأظهر الحقيقة في ذاتها ، وأبان كنهها لطالبها بما هيانها ، فأخذ أولا في تنفيذ تلك المطالب على طريقة أهل الجدل ، وقلب هذه الادلة الموهومة فجعلها منتجة ضد مطلوبها ، فكانت عليه لاله ، ثم استقام في الاستدلال ونهج منهج الاعتدال ، وأرجع كل هذه الاختلافات الى الاتفاق ، والمخاضات الى الوفاق ، وأبان أن أصل الاديان واحد ، وأن ما يترآى من الاختلافات نشأ من حب الرياسة والشهوات حسب الازمنة والامكنة ، وقد اطلع على هذا الكتاب بعض قسيسى المجمع العلمي المنعقد في بعض البلاد الافرنجية ، فقدروه تدره وأثنوا على مؤلفه خيرا ، وقالوا لو جمع مؤلفه كتابا آخر في محاسن دين الاسلام لدخل الناس فيه أفواجا .

وبالجملة : فهذا الكتاب جدير بالمطالعة والاقنتاء ، يحتاجه المسلم في اسلامه ، والنصراني لنصرانيته ، وكل معترف بدين أو كتاب الخ .

(قوله) وكذلك شرح عقيدة للاصفهاني الخ أي من جملة مصنفاته كتاب (شرح عقيدة الاصفهاني) وهو كتاب جليل القدر ، مشتمل على مطالب مهمة ، لاسيما مباحث النبوات وحدوث العالم العلوي والسفلي .

(قوله) وكذا قواعد الاستقامة الخ وهو من أفيد كنه ، وهو مفصل يبلغ سفرين ، توجد نسخه في بلاد العرب ودمشق وفي بعض بلاد الهند .

(قوله) وكذلك توحيد الفلاسفة الآلي الخ يريد به الرد على الفلاسفة ، وهو عادة أسفار ، يقال : ان من نسخه في بعض خزائن كتب دار السلطنة ، لكن الناظم يقول هو سفر لطيف الخ وهو أدري به من غيره .

(قوله) وكذلك تسعينية الخ هذا الكتاب كثير وهو في الرد على من يقول

بالكلام النفسي من تسعين وجها ، وهو بين الايدي •
(قوله) وكذا قواعد الكبار الخ هي على منهج قواعد القرآني وغيره الا أنها
أكثر فائدة ، ونسخه في البلاد العربية •

(قوله) وكذا رسائله الى البلدان • الخ وقوله وكذا فتاواه الخ ، أما رسائله
المختصرة وكتبه فلا يحيط بها الاحصاء ، وفتاواه - كما قال الناظم - بلغت نحو
ثلاثين سفرا •

(قوله) هذا وليس يقصر التفسير عن الخ هو لم يفسر القرآن مرتبا ، ولكنه
كتب على كثير من سوره ومواضعه المشكلة ، فله على الاستعاذة ، وعلى البسملة
وكلامه في الجهر بها ، وكتب على قوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وكتب
على قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا) وعلى قوله تعالى : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ
الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا) وعلى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ) وعلى قوله
تعالى (إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) وعلى آية الكرسي ، وعلى قوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)
وعلى قوله تعالى : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) الخ • وعلى قوله تعالى :
(مَا أَصَابَكَ مِنْ حُسْنَةٍ فَمَنْ اللَّهُ) وعلى سورة المائدة ، وعلى قوله تعالى :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ) الآية ، وعلى قوله تعالى (وَإِذَا خَذَرْتُمْ)
وعلى سورة يوسف ، وعلى سورة النور ، وعلى سورة القلم ، وأنها أول
سورة نزلت ، وعلى سورة لم يكن ، والكافرون ، وتبت ، والمعوذتين ، وكتب على
سورة الاخلاص وغير ذلك •

(قوله) وكذا المفاريد التي في كل مسألة الخ منها الاعتراضات المصرية على الفتوى
الحموية ، وشرح بضعة عشر مسألة من الاربعين للرازي ، وجواب ما أورده كمال الدين
الشريشي ، وشرح كتاب الغزنوي في أصول الدين ، والرد على المنطق ، وكتساب
الزواج ، وقاعدة في القضايا الوهمية ، وقاعدة في قياس ما لا يتناها ، وجواب الرسالة
الصفدية ، وجوابه عن قول بعض الفلاسفة أن معجزات الانبياء عليهم السلام قوى
نفسانية ، والرد على ابن سينا في اثبات المعاد ، وشرح رسالة ابن عبدوس في كلام
الامام أحمد في الاصول ، وثبوت النبوات عقلا ونقلها ، والمعجزات والكرامات ،

وقاعدة في الكليات ، والرسالة القبرصية ، ورسائله الى أهل طبرستان وحلان في خلق الروح والنور ، والرسالة البعلبكية ، والرسالة الازهرية القادرية البغدادية ، وأجوبة القرآن والنطق ، وجواب من حلف بالطلاق الثلاث ، ورسالة في أن القرآن حرف وصوت ، وكتاب في اثبات الصفات والعلو والاستواء ، والمراكشية في صفات انكمال والضابط ، جواب في الاستواء وابطال تأويله بالاستيلاء ، جواب من قال لا يمكن الجمع بين اثبات الصفات على ظاهرها مع نفي التشبيه ، أجوبة كون جهة السموات كرية ، رسالة في سبب قصد القلوب العلو ، جواب كون الشيء في جهة العلو مع كونه ليس بجوهر ولا عرض هل هو معقول أو مستحيل ، جواب هل الاستواء والنزول حقيقة ، وهل لازم المذهب مذهب ، مسألة أهل الاريلية ، شرح حديث النزول ، واختلافه باختلاف وقته ، وباختلاف البلدان والمطالع ، بيان حل اشكال ابن حزم الوارد على الحديث ، قاعدة في قرب الرب من عابديه ، الكلام على نقض المرشد ، المسائل الاسكندرانية ، في الرد على الحلولية والاتحادية ، رسالة فيما تضمنه فصوص الحكم ، جواب في لقاء الله عز وجل ، جواب في رؤيا النساء ربهن في الجنة ، الرسالة المدنية في اثبات الصفات النقلية الهلاونية ، جواب سؤال ورد على لسان ملك التتار ، قواعد في الرد على القدرية والجبرية ، جواب في خلق الله الخلق وانشاء الايام لعله أم لا ، شرح حديث فحج آدم موسى ، تنبيه الرجل العاقل على تمويه المجادل ، تناسي الشدائد في اختلاف العقائد ، كتاب الايمان ، شرح حديث جبريل في الايمان والاسلام ، رسالة في عصمة الانبياء عليهم السلام فيما يبلغونه عن ربهم ، مسألة في العقل والروح ، مسألة في المقربين هل يسألهم منكر ونكير أم لا ، مسألة هل يعذب الجسد مع الروح في القبر أم لا ، الرد على أهل الكسروان وهم من الروافض ، فضل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على غيرهما ، رسالة في معاوية ابن أبي سفيان ، تفضيل صالحى الناس على سائر الاجناس ، رسالة مختصرة في كفر النصيرية ، رسالة في جواز قتال الرافضة ، الرد على تقي الدين السبكي في مسألة بقاء الجنة والنار في فناءهما ، هذه كلها في أصول الدين .

(ومن مؤلفاته في أصول الفقه) قاعدة غالبها أقوال الفقهاء ، قاعدة كل حمد ودم من الاقوال والافعال لا يكون الا بالكتاب والسنة ، رسالة في شمول النصوص للإحكام ، قاعدة في الاجماع وأنه ثلاثة أقسام ، جواب في الاجماع والخبر المتواتر ،

قاعدة في كيفية الاستدلال على الاحكام بالنص والاجماع ، والرد على من قال أن الدلالة اللفظية لا تقيد اليقين ، قاعدة فيما نص من تعارض النص والاجماع . مؤاخذه على ابن جزم في الاجماع ، قاعدة في تقرير القياس ، قاعدة في الاجتهاد والتقليد في الاحكام ، رفع الملام عن الأئمة الاعلام ، قاعدة في الاستحسان وفي وصف العموم واللاحق والاطلاق ، قاعدة في أن المخطى في الاجتهاد لا يأتهم ، رسالة في أنه هل التااضي يجب عليه تقليد مذهب معين ، جواب في ترك التقليد ، رسالة فيمن يقول مذهبي مذهب النبي صلى الله عليه وسلم وليس أنا محتاج الى تقليد الاربعة ، جواب من تفقه في مذهب ووجد حديثا صحيحا هل يعمل به أم لا ، جواب تقليد الخنفي الشافعي في المطر والوتر ، رسالة في الفتح على الامام في الصلاة ، تفضيل قواعد مالك وأهل المدينة ، تفضيل الأئمة الاربعة وما امتاز به كل واحد منهم ، قاعدة في تفضيل الامام أحمد ، جواب هل كان النبي صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة نبيا ، جواب هل كان النبي صلى الله عليه وسلم متعبدا بشرع من قبله ، قواعد أن النهي يقتضى المضادة .

(ومن مؤلفاته في الفقه) شرح المحرر في مذهب الامام أحمد ، شرح العمدة لموفق الدين ، جواب مسائل وردت من أصبهان ، جواب مسائل وردت من الصلت ، جواب مسائل وردت من بغداد ، جواب مسائل وردت من الزرع ، جواب مسائل وردت من طرابلس ، قاعدة في المياه والمائعات وأحكامها ، جواب أربعين مسألة وردت من الوجنة ، الدررة المضية في فتاوى ابن تيمية ، المرادنية الطرابلسية ، قاعدة في حديث القلتين وعدم رفعه ، قواعد في الاستجمار وتطهير الارض بالشمس والريح ، جواز الاستجمار مع وجود الماء ، نواقض الوضوء ، قواعد في عدم نقضه بلمس النساء ، رسالة في أن التسمية على اوضوء خطأ ، القول بجواز المسح على الخفين ، جواز المسح على الخفين المتخرقين والجوربين واللفائف ، وفيمن لا يعطى أجره الحمام ، تحريم دخول النساء بلا منزر في الحمام والاعتسال وذم الوسواس ، جواز طواف الحائض ، تيسير العبادات لارباب الضرورات بالتيمم والجمع بين الصلاتين للمعذر ، كراهية التلطف بالنية وتحريم الجهر بها في الاذكار ، كراهية تقديم بسط السجادة للمصلي قبل مجيئه ، الكلم الطيب في الركعتين اللتين تصلى قبل الجمعة وفي الصلاة بعد أذان الجمعة ، القنوت في الصبح والوتر ، تارك المثاني وكفره ، الجمع بين الصلاتين في السفر والحضر ، أهل البدع هل يصلى خلفهم ، صلاة بعض أهل المذاهب

خلف بعض ، الصلوات المتبدعة ، تحريم السماع ، تحريم الشبابة ، تحريم اللعب بالشرنج ، تحريم الحشيشة المغيبة والحد عليها وتنجيسها ، النهي عن المشاركة في أعياد النصارى واليهود وإيقاد النيران في الميلاد ونصف شعبان وما يفعل في عاشوراء ، قاعدة في مقدار الكفارة باليمين ، وفي أن المطلقة ثلاثا لاتحل الا بنكاح زوج ثان ، بيان الحلال والحرام في الطلاق ، جواب من حلف لايفعل شيئا على المذاهب الاربعة ثم طلق ثلاثا في الحيض ، الفرق المبين بين الطلاق واليمين ، لمعة المختطف ، في الفرق بين الطلاق والحلف ، كتاب التحقيق في الفرق بين أهل الايمان والتطليق ، الطلاق البدعي لايقع ، مسائل الفرق بين الطلاق البدعي ونحو ذلك ، مناسك الحج في حجة النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة المكية ، في شراء السلاح بتبوك ، وسرب السوق بالعقبة ، وأكل التمر بالروضة ، ومايلبس المحرم ، وزيارة الخليل عليه السلام عقب الحج ، وزيارة البيت المقدس مطلقا ، جميع ايمان المسلمين مكفرة ، بيان الدليل على أبطال التحليل ، الرسالة التدمرية ، جبل لبنان كأمثاله من الجبال ليس فيه رجال الغيب والابدال •

(ومن كتبه في أنواع شتى) الكلام على الفتوة المصطلحة ، وليس لها أصل متصل بعلي رضي الله عنه ، كشف حال الاحمدية وبيان أحوالهم الشيطانية ، مايقوله أهل بيت الشيخ عدي ، النجوم هل لها تأثير عند القران والمقابلة وهل يقبل قول المنجمين فيه رؤية الالهة ، تحريم أقسام المعزمين بالعزائم المعجمة وصرع الصحيح وصفة الخواتيم ، أبطال الكيمياء ولو صحت ، كتاب السياسة الشرعية ، كتاب التصوف ، كتاب الاستقامة ، كتاب تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ، كتاب المحنة المصرية ، كتاب الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن ، الرد على الاخواني في في مسألة الرمادة ، طهارة بول ما يؤكل لحمه ، الصارم السلول على منتقص الرسول ، كتاب اقتضاء الصراط المستقيم ، جواب أهل الايمان في التفاضل بين آيات القرآن ، الرد على البكري في مسألة الاستغاثة ، التحرير في مسألة حفير ، سفر في مسألة القسمة كتبها اعتراضا على النحوي في حادثة حكم فيها ، الفرقان بين الحق والبطلان كتاب الوسيلة ، التحفة العراقية في الاعمال القلبية ، وله غير ذلك مما يطول ذكره ، وجميعها مفصلة ما بين سفر وسفرين وأكثر ، مع سلاسة عبارة وذكر دليل ودفع ايراد وكل منها فريد في بابه حري بالتقريظ ، ولو تكلمنا على كل واحد منها بما يليق به من الثناء والمدح لاستوجب ذلك افراد مؤلف منفصل •

وأما انتقاد النبهاني (كتاب الجواب الصحيح ان الكتاب في غاية النفاسة لو
خلا من التعرض لبدعه التي انفرد بها عن المسلمين الخ) .

(فجوابه) أن ما انتقده هو من محاسن الكتاب وأجل فصوله ، فإن الاستغانة
بالمخلوق والاستعانة به والاتجاء به هو الذي كان من غلو أهل الكتاب ، وهو
مذهب النصارى ، فإن عبادة المسيح وأمه عبارة عن ذلك ، فلو لم يبطل هذا القول
لما ساغ له الرد عليهم ، وكذلك الرد على القائلين بالحلول والاتحاد ، فإنه لو لم يرد
عليهم ويبطل دعواهم ويخرجهم عن الملة لما ساغ له ابطال قول النصارى في دعواهم
حلول الاله في المسيح أو الاتحاد به أو نحو ذلك ، فإن لقائل أن يقول حينئذ : ان من
المسلمين من يقول باشنع من هذا القول ، وهو دعوي الحلول والاتحاد التي أبطلها
الشيخ وغيره من العلماء الربانيين المتبعين لما جاء به الشرع المبين ولعلنا نبسط الكلام
على ذلك فيما يناسب المقام ، ونذكر كلام من رد عليهم وأبطل دعواهم ، ونفصل
القول فيهم تفصيلا ، هذا الذي نقمه النبهاني الزائغ وانتقد به كلام الشيخ من أوضح
ما يدل على زيغ واتباعه لهواه : (وما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ) ومثل ما حكى الله عن اخوانه (أَوْ كَصِيبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ
وَرَعْدٌ وَبُرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ
بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبُرْقُ يُخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ
قَامُوا . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(١)
وما أحسن ما قال القائل :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

وقال آخر :

تعد ذنوبي عند قومي كثيرة ولا ذنب لي الا العلا والفواضل

ولم يعرف النبهاني وأضرابه من الغلاة قدر كتب شيخ الاسلام وتمنى عدم
وجودها وفقدتها من العالم لأنها تبطل ماذهب اليه من الاقوال الفاسدة ، وتهدم

(١) البقرة : ١٩ ، ٢٠

بنيان أشياخه ، قال تعالى : (وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)^(١) وأهل الحق وذوو البصائر اذا ظفروا بكتاب من كتبه تراهم كأنهم ظفروا بكنز من كنوز العلم ، وقد رأيت كتابا كتب على ظهر ترجمة شيخ الاسلام وبيان مناقبه ، وهي : (الدرر البهية ، في ترجمة شيخ الاسلام ابن تيمية) للحافظ الشيخ شمس الدين بن عبد الهادي المقدسي ، وذلك الكتاب أرسله بعض أفاضل العراق المعاصرين لشيخ الاسلام ، وكان من أكابر الشافعية ، وهو العلامة الشيخ عبد الله بن حامد وكتابه هذا :

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أصغر العباد عبد الله بن حامد ، الى الشيخ الامام العالم العامل ، قدوة الافاضل والمحافل ، المحامي عن دين الله ، والذاب عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المعتصم بجبل الله ، الشيخ المكرم المبجل أبي عبد الله أسبغ الله عليه نعمه ، وأيد باصابة الصواب لسانه وقلمه ، وجمع له بين السعادتين ، ورفع درجته في الدارين بمنه ورحمته ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(أما بعد) فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، ثم وافاني كتابك وأنا اليك بالاشواق ، ولم أزل سائلا ومستخبرا الصادر والوارد عن الانباء التي طاب مسموعها ، وسر مايسر منها ، وما تأخر كتابي عنك هذه المدة مللا ولا خلا بالمودة ، ولا تهاونا بحقوق الاخاء ، حاش لله أن يشوب الاخوة في الله جفاء ، ولا أزال أتعلل بعد وفاة الشيخ الامام امام الدنيا رضي الله تعالى عنه بالاسترواح الى اخبار تلامذته واخوانه ، وأقاربه وعشيرته ، والخصيصين به ، لما في نفسي من المحبة الضرورية التي لايدفعها شيء ، على الخصوص لما اطلعت على مباحثه واستدلالاته التي تزلزل أركان المبطلين ، ولا يثبت في ميدانها سفسطة المتفلسفين ، ولا يقف في حلباتها أقدام المتدعين من المتكلمين .

وكنث قبل وقوفي على مباحث امام الدنيا رحمه الله قد طالعت مصنفات المتقدمين ووقفت على مقالات المتأخرين من أهل الاسلام ، فرأيت فيها الزخارف

والباطيل ، والشكوك التي يأنف المسلم الضعيف في الاسلام أن تخطر بباله فضلا عن القوي في الدين ، فكان يتعب قلبي ويحزني ما يصير اليه الاعاظم من المقالات السخيفة ، والآراء الضعيفة ، التي لا يعتقد جوازها آحاد الامة ، وكنت أفتش على السنة المحضة في مصنفات المتكلمين من أصحاب الامام أحمد رحمه الله على الخصوص ، لاشتغالهم بمنصوصات امامهم في أصول العقائد ، فلا أجد عندهم ما يكفي ، وكنت أراهم يتناقضون اذ يؤصلون أصولا يلزم فيها ضد ما يعتقدونه ، ويعتقدون خلاف مقتضى أدلتهم ، فاذا جمعت بين أقاويل المعتزلة والاشعرية وحابلة بغداد وكرامية خراسان أرى أن اجماع هؤلاء المتكلمين في المسألة الواحدة على ما يخالف الدليل العقلي والنقلي ، فيسوّني ذلك وأظل أحزن حزنا لا يعلم كنهه الا الله ، حتى قاسيت من مكابدي هذه الامور شيئا عظيما لا أستطيع شرح أيسره ، وكنت التجيء الى الله سبحانه وتعالى وأتضرع اليه وأهرب الى ظواهر النصوص ، وألقي المعقولات المتباينة والتأويلات المصنوعة لنبوة الفطرة عن قبولها ، ثم قد تشبثت فطرتي بالحق الصريح في أمهات المسائل غير متجاسرة على التصريح بالمجاهرة قولا وتصحيحا للعقد ، حيث لا أراه مأثورا عن الأئمة وقدماء السلف ، الى أن قدر الله سبحانه وقوع تصنيف الشيخ الامام امام الدنيا في يدي قبيل واقته الاخيرة بقليل ، فوجدت فيه ما بهرني في موافقة فطرتي ، لما فيه من عزو الحق الى أئمة السنة وسلف الامة مع مطابقة المعقول والمنقول ، فهت لذلك سرورا بالحق ، وفرحا بوجود الضابطة التي ليس لفقدائها عوض ، فصارت محبة هذا الرجل رحمه الله محبة ضرورية تقصر عن شرح أقلها العبارة ولو أطنبت •

ولما عزمت على المهاجرة الى لقيه وصلني خبر اعتقاله ، وأصابني لذلك المقيم المقعد ، ولما حججت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة صممت العزم على السفر الى دمشق لأتوصل الى ملاقاته ببذل ما أمكن من النفس والمال للتفريج عنه ، فوافاني خبر وفاته رحمه الله تعالى مع الرجوع الى العراق قبيل وصولي الى الكوفة ، فوجدت عليه ما لا يجده الاخ على شقيقه ، واستغفر الله بل ولا الوالد الثاكل على ولده ، وما دخل على قلبي من الحزن لموت أحد من الولد والاقارب والاخوان كما وجدته عليه رحمه الله تعالى ، ولا تخيلته قط في نفسي ولا تمثلته في قلبي الا ويتجدد لي حزن جديد كأنه محدث ، ووالله ما كتبتها الا وأدمعي تتساقط عند ذكره أسفا على فراقه وعدم ملاقاته ، فانا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم •

وما شرحت هذه النبذة من محبة الشيخ رحمه الله تعالى الا ليتحقق بعدي عن تلك الوهوم ، لكن لما سبق الوعد الكريم منكم بانفاذ فهرس مصنفات الشيخ رضي الله تعالى عنه وتأخر ذلك عني : اعتقدت أن الاضراب عن ذلك نوع تقية ، أو لعذر لا يسعني السؤال عنه ، فسكت عن الطلب خشية أن يلحق أحدا ضرر والعياذ بالله بسببي لما كان قد اشتهر من تلك الاحوال ، فان أنعمت بئني من مصنفات الشيخ رحمه الله تعالى كانت لكم الحسنة عند الله علينا بذلك ، فما أشبه كلام هذا الرجل بالتبر الخالص المصفى ، وقد يقع في كلام غيره من الغش والشبه المدلس بالتبر ما لا يخفى على طالب الحق بحرص وعدم هوى ، ولا أزال أتعجب من المنتسبين الى حب الانصاف في البحث المبرزين على أهل التقليد أن المعقولات التي يزعمون أن مستندهم الاعظم الصريح منها كيف يباينون ما أوضحه الحق وكشف عن قناعه •

وقد كان الواجب على الطلبة شد الرحال اليه من الافاق ليروا العجب ، وما أشبه حال المبائين له - من المنتسبين للعلم الطالبين للحق الصريح الذي أعياهم وجد أنه - بحال قوم ذبحهم العطش والظما في بعض المفازة ، فحين أشرفوا على التلف لمع لهم شط كالفرات أو دجلة أو كالنيل ، فعند معاينتهم لذلك اعتقدوه سرايا لاشرابا ، فتولوا عنه مدبرين ، فتقطعت أعناقهم عطشا وظما ، فالحكم لله العلي الكبير •

وما أرسلنا المقابلة من الطرفين فيه تعسف وتمهدون العذر في الاطناب (١) فهذا الذي ذكرته من حالي مع الشيخ كالقطرة من البحر ، وان أنعمت بالسلام على أصحاب الشيخ وأقاربه كبيرهم وصغيرهم كان ذلك مضافا الى سابق أنعامكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وأنتم في أمان الله تعالى ورعايته ، والحمد لله وحده - وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، (عبد الله بن حامد) ، (وأما قول النبهاني) وهذا دأبه في كتبه ، ولذلك قلل الله النفع بها ، كما جرت عادته فيمن يتعرض لاوليائه بالسوء الخ •

(فجوابه) أن من الواجب على العالم أن يظهر علمه والا ألجمه الله بلجام من نار ، قال تعالى : (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ) .

قال الامام الشافعي : لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم ، وبيان ذلك

(١) كذا في الاصل ، وفي العبارة شيء من عدم الوضوح .

أن المراتب أربعة ، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله .

(احداها) معرفة الحق .

(الثانية) عمله به .

(الثالثة) تعليمه من لا يحسنه .

(الرابعة) صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه .

فذكر تعالى المراتب الاربعة في هذه السورة ، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر ، الا الذين آمنوا : وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة ، وعملوا الصالحات : وهم الذين عملوا بما علموه من الحق ، فهذه مرتبة أخرى . وتواصوا بالحق : وصى به بعضهم بعضا تعليما وارشادا ، فهذه مرتبة ثالثة ، وتواصوا بالصبر : صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه والثبات ، فهذه مرتبة رابعة ، وهذا نهاية الكمال ، فان الكمال أن يكون الشخص كاملا في نفسه مكملا لغيره ، وكماله باصلاح قوته العلمية والعملية ، فصلاح القوة العلمية بالايان ، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات ، وتكميله غيره بتعليمه اياه وصبره عليه ، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل ، فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذايره ، والحمد لله الذي جعل كتابه كافيا عن كل ماسواه ، شافيا من كل داء ، هاديا الى كل خير اه .

فعلم أنه يجب على العالم أن يصدع بالحق وان كثر المخالفون له ، وقد رأى من الحق التنبيه على الفرق بين اولياء الشيطان واولياء الرحمن ، وقد أطب الكلام في ذلك ، ومما قال : وقد ظن طائفة غالطة أن خاتم الاولياء يكون أفضل الاولياء قياسا على خاتم الانبياء ، ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الاولياء الا محمد بن حكيم الترمذي صنف فيه مصنفا غلط فيه في مواضع ، ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل منهم أنه خاتم الاولياء ، ومنهم من يدعي أن خاتم الاولياء أفضل من خاتم الانبياء من جهة العلم بالله ، وأن الانبياء يستفيدون العلم بالله من جهته ، كما زعم ذلك ابن العربي صاحب كتاب (الفتوحات) في كتاب (الفصوص) فخالفوا الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله واولياء الله - كما يقال لمن قال : (فخر عليهم السقف من تحتهم) لا عقل ولا قرآن - وذلك لأن الانبياء أسبق في الزمان من اولياء هذه الامة ، والانبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل من الاولياء ، فكيف يكون الانبياء كلهم والاولياء يستفيدون معرفة الله ممن يأتي بعدهم وبدعي أنه خاتم الاولياء ، وليس آخر الاولياء أفضلهم كما أن آخر الانبياء أفضلهم ، فان فضل محمد

صلى الله عليه وسلم على سائر الانبياء ثبت بانصوص الدالة على ذلك ، كقوله صلى الله عليه وسلم : (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) وقوله : (آتي باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لاحد قبلك) و ليلة المعراج رفع الله درجته فوق الانبياء كلهم ، فكان أحقهم بقوله تعالى : (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) (١)

الى غير ذلك من الدلائل ، والانبيااء كلهم يأتيه الوحي من الله لاسيما محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن في نبوته محتاجا الى غيره ، فلم تحتج شريعته لا الى نبي سابق ولا الى لاحق ، بخلاف غيره ، فان المسيح أحالهم في أكثر الشريعة على التوراة ، وشريعة التوراة جاء المسيح بتكميلها ، ولهذا كان النصارى محتاجين الى النبوة المتقدمة على المسيح كالتوراة والزبور ، وتام الاربع والعشرين نبوة ، وكان الامم قبلنا محتاجين الى المحدثين ، بخلاف أمة محمد صلى الله عليه وسلم فان الله أغناهم به فلم يحتاجوا معه لا الى نبي ولا الى محدث ، جمع له من الفضائل والمعارف والأعمال الصالحة ما فرقه في غيره من الانبياء ، فكان ما فضله الله به من الله - بما أنزل الله وأرسله اليه - لا بتوسط بشر ، وهذا بخلاف الاولياء فان كل من بلغه رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لا يكون وليا الا باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فكل ما حصل له من الهدى ودين الحق بتوسط محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك من بلغته رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون وليا لله الا اذا اتبع ذلك الرسول الذي أرسله اليه ، ومن ادعى أن من الاولياء الذين بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من له طريق الى الله لا يحتاج فيه الى محمد فهو كافر ملحد ، واذا قال : أنا محتاج الى محمد صلى الله عليه وسلم في علم الظاهر دون الباطن ، أو في الشريعة دون علم الحقيقة : فهو أشر من اليهود والنصارى الذين قالوا ان محمدا رسول الى الاميين دون أهل الكتاب ، فان أولئك آمنوا ببعض ما جاء به وكفروا ببعض ، فكانوا كفارا بذلك ، وكذلك هذا الذي يقول ان محمدا بعث بعلم الظاهر دون الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض ، وهذا كافر أكفر من أولئك ، لأن علم الباطن الذي هو علم ايمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الايمان الباطنة ، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الاسلام الظاهرة ، فاذا ادعى المدعي أن محمدا انما علم هذه

الامور الظاهرة دون حقائق الايمان وانه لا يأخذ الحقائق من الكتاب والسنة فقد ادعى أن بعض الذي آمن به مما جاء به الرسول دون البعض الآخر ، وهذا شر ممن يقول أو من ببعض وأكثر ببعض ولا يدعي أن هذا البعض الذي آمن به أولى القسامين ، وهؤلاء الملاحدة قد يدعون أن الولاية أفضل من النبوة ، ويلبسون على الناس ، ويقولون : ان ولاية محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من نبوته وينشدون :

مقام النبوة في برزخ فوق الرسول ودون الولي

ويقولون : نحن شاركناه في ولايته التي هي أعظم من رسالته ، وهذا من أعظم ضلالهم ، فان ولاية محمد صلى الله عليه وسلم لم يمثله فيها أحد ، لا ابراهيم ، ولا موسى ، فضلا عن أن يمثله فيها هؤلاء الملاحدة ، وكل رسول نبي وكل نبي ولي ، فالرسول نبي وولي ، ورسالته متضمنة للنبوة ، ونبوته متضمنة لولايته ، فكيف تكون ولايته المتضمنة في نبوته أفضل من نبوته الداخلة في ولايته ؟ واذا قدرنا مجرد انباء الله اياه بدون ولايته لله فهذا تقدير ممتنع ، فانه حال انباء الله اياه يمتنع أن لا يكون وليا لله ، فلا تكون نبوة مجردة عن ولاية ، ولو قدرت مجردة لم يكن أحد مماثلا للرسول في ولايته لله ، وهؤلاء قد يقولون - كما يقول صاحب الفصوص ابن عربي - انهم يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به الى الرسول ، وذلك أنهم اعتقدوا عقيدة ملاحدة المتفلسفة ثم أخرجوها في قالب الكشف وذلك أن المتفلسفة الذين قالوا ان الافلاك قديمة أزلية لها علة شبيهة بهما - كما يقول أرسطو وأتباعه - أولها موجب بذاته - كما يقوله متأخروهم كابن سينا وأمثاله - ولا يقولون ان الرب خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ، ولا خلق الاشياء بمشيئته وقدرته ، ولا يعلم الجزئيات ، بل اما أن ينكروا علمه مطلقا - كقول أرسطو - أو يقولون انما يعلم من الامور المتغيرة كلياتها كما يقوله ابن سينا. وحقبة هذا القول انكار علمه بها ، فان كل موجود في الخارج فهو معنى جزئي ، والافلاك كل منها معنى جزئي ، وكذلك جميع الاعيان وصفاتها وأفعالها ، فمن لم يعلم الا الكليات لم يعلم شيئا من الموجودات ، والكليات انما توجد كليات في الازهان لا في الاعيان ، والكلام على هؤلاء قد بسط في موضع آخر في بحث تعارض العقل والنقل وغيره ، فان كفر هؤلاء أعظم من كفر اليهود والنصارى ، بل ومشركي العرب ، اذ جميع هؤلاء يقولون ان الله خلق السموات والارض ، وأنه يخلق المخلوقات بمشيئته وقدرته ، وأرسطو ونحوه من متفلسفة اليونان كانوا يعبدون الكواكب والاصنام ، وهم لا يعرفون الملائكة ولا الانبياء ، وليس في كتب أرسطو ذكر شيء

من ذلك ، وانما غالب علم القوم الامور الطبيعية ، وأما الامور الالهية فكلماهم فيها قليل كثير الخطأ •

واليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل أعلم بالالهييات منهم بكثير ، ولكن متأخروهم كابن سينا أرادوا أن يلفقوا بين كلام اولئك وبين ما جاءت به الرسل ، فأخذوا شيئا من بعض أصول الجهمية والمعتزلة وركبوا منه ومن قول أولئك مذهبا قد يعتزى اليه متفلسفة أهل الملل ، وفيه من الفساد والتناقض ما تد نبه على بعضه في غير هذا الموضوع •

وهؤلاء لما رأوا أن أمر الرسل - كوسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم - قد ظهر للعالم واعترفوا بأن الناموس الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم أعظم ناموس طرق العالم ووجدوا الانبياء قد ذكروا الملائكة والجن : أرادوا أن يجمعوا بين ذلك وبين قول أسلافهم اليونان ، الذين هم من أبعاد الخلق عن معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله ، وأولئك قد أثبتوا عقولا عشرة يسمونها المجردات والمفارقات ، وأصل ذلك مأخوذ من مفارقة النفس للبدن ، فسموا تلك مفارقة لمفارقتها المادة ومجرد لتجردها عنها ، وأثبتوا للأفلاك لكل فلك نفسا ، وأكثرهم جعلها اعراضا ، وبعضهم جعلها جواهر ، وهذه المجردات التي أثبتوها ترجع عند التحقيق الى أمور موجودة في الازهان لا في الاعيان ، كما أثبت أصحاب أرسطو أعدادا مجردة ، وكما أثبت أفلاطون المثل الافلاطونية المجردة ، وأثبتوا هيوالى مجردة عن الصورة مدة وخلاء مجردين ، وقد اعترف حذاقهم بأن ذلك انما يتحقق في الازهان لا في الاعيان •

فلما أراد هؤلاء المتأخرون منهم كابن سينا أن يثبتوا أمر النبوة على أصولهم الفاسدة زعموا أن النبوة لها خصائص ثلاثة من اتصف بها فهو نبي : أن يكون له قوة علمية يسمونها القوة القدسية ينال بها العلم بلا تعلم ، وأن يكون له قوة تخيلية تخيل ما يعقله في نفسه بحيث يرى في نفسه صورا ويسمع في نفسه صوتا كما يراه النائم ويسمعه ولا يكون لها وجود في الخارج ، وزعموا أن تلك الصور هي ملائكة الله وتلك الاصوات هي كلام الله ، وأن يكون له قوة فعالة تؤثر بها في هيوالى العالم ، وجعلوا كرامات الاولياء ومعجزات الانبياء وخوارق السحرة من قوى النفس ، فأقروا من ذلك بما يوافق أصولهم دون قلب العصاحية ودون انشقاق القمر ونحو ذلك فانهم ينكرون وجود هذا ، وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في مواضع ،

وبينا أن كلامهم هذا من أفسد كلام ، وأن هذا الذي جعلوه من خصائص النبي يحصل ما هو أعظم منه لأحد العامة ولأقل أتباع الانبياء ، وأن الملائكة التي أخبرت بها الرسل أحياء ناطقون أعظم مخلوقات الله ، وهم كثيرون ، ولا يعلم جنود ربك الا هو ، وليسوا عشرة ، وليسوا أعراضا ، لاسيما وهؤلاء يزعمون أن الصادر الاول هو العقل الاول عنه صدر كل مسواه ، فهو عندهم رب كل ماسوى الله •

وكذلك كل عقل رب كل مادونه ، والعقل الفعال العاشر رب كل ماتحت فلنك القمر ، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل فليس أحد من الملائكة مبدعا لكل ماسوى الله ، وهؤلاء يزعمون أن العقل الاول هو العقل المذكور في حديث يروى (ان أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ، فقال له أدبر فأدبر ، فقال وعزتي ما خلقت خلقا أكرم على منك ، فبك آخذ ، وبك أعطي ، وبك الثواب وعليك العقاب) ويسمونه أيضا القلم لما رأوا أنه قد روى (ان أول ما خلق الله القلم) والحديث الذي ذكروه في العقل كذب موضوع عند أولى المعرفة بالحديث ، كما ذكر ذلك أبو حاتم البيهقي ، وأبو الحسن الدارقطني ، وابن الجوزي وغيرهم ، وليس هو في شيء من دواوين الحديث التي يعتمد عليها ، ومع هذا فلفظه لو كان ثابتا لكان حجة عليهم ، فان لفظه (أول ما خلق الله العقل قال له) ويروى (لما خلق الله العقل قال له) وفي الحديث أنه خاطبه في أول أوقات خلقه ليس معناه أنه أول المخلوقات ، وأول منصوب على الظرف كما في اللفظ الآخر لما ، وتام الحديث : (ما خلقت خلقا أكرم على منك) فهذا يقتضي أنه خلق قبله غيره ، ثم قال : (فبك آخذ ، وبك أعطي ، وبك الثواب ، وعليك العذاب) فذكر أربعة أنواع من الاعراض ، وعندهم أن جميع جواهر العلوي والسفلي صدر عن ذلك العقل فأين هذا من هذا ؟!

وسبب غلظهم : أن لفظ العقل في لغة المسلمين ليس هو لفظ العقل في لغة هؤلاء اليونانيين ، فان العقل في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلا كما في القرآن : (وقالوا لو كنا نسمعُ أو نعقلُ ما كنا في أصحابِ السَّعيرِ) وقوله تعالى : (إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يعقلون)^(١) (أفلم يسيروا في الأرضِ فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها)^(٢) ويراد بالعقل الغريزة التي جعلها الله للانسان يعقل بها ، وأما أولئك فالعقل عندهم جوهر قائم بنفسه كالعقل ، وليس هذا مطابقا للغة الرسول

(١) النحل : ١٢ (٢) الحج : ٤٦

صلى الله عليه وسلم والقرآن ، وعالم الخلق عندهم كما يذكره أبو حامد عالم الاجسام ، وأما العقول والنفوس فيسميها عالم الامر ، وقد يسمى العقل عالم الجبروت ، والنفوس عالم الملكوت ، والاجسام عالم الملك ، ويظن من لا يعرف لغة الرسول ومعاني الكتاب والسنة أن في القرآن والسنة من ذلك الملك والملكوت والجبروت ما يوافق هذا وليس الامر كذلك .

وهؤلاء يلبسون على المسلمين تليسا كثيرا ، كالتلّاقهم أن الملك محدث أي معلول مع أنه قديم عندهم ، والمحدث لا يكون الا مسبوقا بالعدم ، ليس في لغة العرب ولا في لغة أحد أنه يسمى القديم الازلي محدثا ، والله سبحانه قد أخبر أنه خالق كل شيء ، وكل مخلوق فهو محدث ، وكل محدث كائن بعد أن لم يكن ، لكن ناظرهم أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة مناظرة قاصرة لم يعرفوا بها ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا حكموا فيها قضايا العقول ، فلا للإسلام نصروا ، ولا لاعدائه كسروا ، وشاركوا أولئك في بعض قضاياهم الفاسدة ، ونازعوهم في بعض المعقولات الصحيحة ، فصار قصور هؤلاء في العلوم السمييه والعقليه من أسباب قوة ضلال أولئك ، كما بسط في غير هذا الموضوع .

وهؤلاء المتفلسفة قد يجعلون جبرائيل هو الخيال الذي يتشكل في نفس النبي والخيال تابع للعقل ، فجاء الملاحدة الصوفية الذين شاركوا هؤلاء المتفلسفة وزعموا أنهم أولياء الله ، وأن الولي أفضل من النبي ، وأنهم يأخذون عن الله بلا واسطة ، كابن عربي صاحب الفتوحات والقصص ، فقال : انه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به الى الرسول ، والمعدن عنده هو العقل ، والملك هو الخيال ، والخيال تابع للعقل ، وهو بزعمه يأخذ عن العقل الذي هو أصل الخيال والرسول يأخذ عن الخيال ، فلماذا صار عند نفسه فوق النبي ، ولو كان خاصة النبي ما ذكره لم يكن هو من جنسه فضلا عن أن يكون فوقه ، فكيف وما ذكره يحصل لآحاد المؤمنين ، والنبوة أمر وراء ذلك ؟ فان ابن عربي وأمثاله وان ادعوا أنهم من الصوفية فهم من الصوفية الملاحدة الفلاسفة ، ليسوا من صوفية أهل الكلام فضلا عن أن يكونوا من مشائخ أهل الكتاب والسنة كالفضيل ابن عياض ، وإبراهيم بن الادهم وأبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، والجعيد بن محمد ، وسهل ابن عبد الله انتستري ، وأمثاله .

والله سبحانه قد وصف الملائكة في كتابه بصفات تباين قول هؤلاء كقوله

تعالى : (وقالوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) الى قوله : (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)^(١) وقال تعالى : (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا) الى قوله : (ويرضى)^(٢) وقال تعالى : (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ . وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ)^(٣) وقال تعالى : (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ)^(٤) وقد أخبر أن الملائكة جاءت ابراهيم في صورة البشر ، وأن الملك تمثل لمريم بشرا سويا ، وكان جبرائيل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي ، وفي صورة الاعرابي ، فرآهم الناس كذلك ، وقد وصف جبرائيل بأنه ذوقوة عندذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رآه بالافق المبين ، ووصف بأنه : (شديدُ القُوى ذو مرةٍ فاستوى ، وهو بالأفقي الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى) الى قوله : (ولقد رأى من آيات ربه الكبرى)^(٥) :

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم ير جبرائيل في الصورة التي خلق عليها الا مرتين ، يعني مرة في الافق الاعلى ، والنزلة الاخرى عند سدرة المنتهى ، ووصف جبرائيل في مواضع آخر بأنه الروح الامين ، ووصفه بأنه روح القدس ، الى غير ذلك من الصفات التي تبين منها أنه من أعظم مخلوقات الله الاحياء العقلاء ، وأنه جوهر قائم بنفسه ، ليس خيالا في نفس النبي

(١) الانبياء : ٢٦ - ٢٩ (٢) النجم : ٢٦ (٣) سبا : ٢٢ ، ٢٣ (٤) الانبياء : ١٩ ، ٢٠ (٥) النجم :

كما زعمه هؤلاء الملاحدة المتفلسفة المدعون ولاية الله وأنهم أعلم من الانبياء ، وغاية تحقيق هؤلاء انكار أصول الايمان ، فان أصول الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وحقيقة أمرهم جحد الخالق ، فانهم جعلوا وجود المخلوق هو وجود الخالق ، وقالوا الوجود واحد ، ولم يميزوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع ، فان الموجودات اشتركت في مسمى الوجود كما يشترك الناس في مسمى الانسان والحيوانات في مسمى الحيوان ، ولكن هذا المشترك الكلي لا يكون مشتركا كلياً الا في الذهن ، والا فالحيوانية القائمة بهذا الانسان ليست هي الحيوانية القائمة بالنفوس ، ووجود السموات ليس بعينه وجود الانسان ، فوجود الخالق جل جلاله مبين لوجود مخلوقاته ، وحقيقة قولهم قول فرعون الذي عطل الصانع ، فانه لم ينكر هذا الوجود المشهود لكن زعم أنه موجود بنفسه لا صانع له ، وهؤلاء وافقوه في ذلك ولكن زعموا أنه هو الله ، فكانوا أضل منه ، وان كان هو أظهر غسادا منهم ، ولهذا جعلوا عباد الاصنام ماعبدوا الا الله ، وقالوا : لما كان فرعون في منصب التحكم صاحب السيف قال أنا ربكم الاعلى وان كان الكل أرباباً بنسبة ما فانا ربكم الاعلى بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم ، قالوا ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قال أقروا له بذلك وقالوا له اقض ماأنت قاض ، انما تقضي هذه الحياة الدنيا قالوا فصح قول فرعون أنا ربكم الاعلى وان كان فرعون على عين الحق .

ثم أنكروا حقيقة اليوم الآخر فجعلوا أهل النار يتنعمون كما يتنعم أهل الجنة، فصاروا كافرين بالله وباليوم الآخر وبملائكته وكتبه ورسله مع دعواهم أنهم خلاصة الخاصة من أهل الله وأنهم أفضل من الانبياء ، وأن الانبياء انما يعرفون الله من مشكاتهم، وليس هذا موضع بسط بيان الحاء هؤلاء ، ولكن لما كان الكلام في أولياء الله والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وكان هؤلاء من أعظم الناس دعوى لولاية الله وهم من أعظم الناس ولاية للشيطان فنبهنا على ذلك ، ولهذا عامة كلامهم انما هو في الخيالات الشيطانية ، ويقولون مايقول صاحب الفتوحات بأن أرض الحقيقة : هي أرض الخيال ، فيعترف بأن الحقيقة التي يتكلم فيها هي خيال ، والخيال محل تصرف الشيطان فان الشيطان يخيل للانسان الامور بخلاف ماهي ، قال تعالى : (وَمَنْ يُعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ

وإنهم ليمصدونهم) الى قوله : (فَبَيْسَ الْقَرِينِ)^(١) وقال تعالى : (إن الله لا يَغْنِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) الى قوله : (يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا)^(٢) وقال تعالى : (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ) الى قوله : (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)^(٣) وقال تعالى : (وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ) الى قوله : « إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ »^(٤) .

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح أنه رأى جبرائيل ينزع الملائكة ، والشياطين اذا رأت ملائكته التي يؤيد بها عباده هربت منهم ، والله يؤيد عباده المؤمنين بملائكته ، قال تعالى : (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا)^(٥) وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ) الى قوله (وجنوداً لم تروها)^(٦) وقال تعالى : (ثُمَّ أَنْزَلَ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا)^(٧) وقال تعالى : (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا)^(٨) وقال تعالى : (إِذْ يَقُولُ لِمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)^(٩) .
وهؤلاء تأتيهم أرواح فتخاطبهم وتمثل لهم وهي جن وشياطين فيظن أنها

(١) الزخرف : ٢٦ - ٢٨ (٢) النساء : ١١٦ - ١٢٠ (٣) ابراهيم : ٢٢ (٤) الانفال : ٤٨ (٥) الانفال : ١٢ (٦) الاحزاب : ٩ (٧) التوبة : ٢٦ (٨) التوبة : ٤٠ (٩) آل عمران : ١٢٤ - ١٢٦

ملائكة كالارواح التي تخاطب من يعبد الكواكب والاصنام ، وكان من أول من ظهر من هؤلاء في الاسلام المختار بن عبيد الثقفي ، الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (سيكون في ثقيف كذاب ومبير) فكان الكذاب : المختار ابن عبيد الثقفي ، وكان المبير الحجاج بن يوسف ، فقيل لابن عمر : ان المختار يزعم أنه ينزل عليه ، فقال : صدق ، قال تعالى : (هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلُ الشَّيَاطِينَ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)^(١) وقال الآخر : وقيل له ان المختار يزعم أنه يوحى اليه ، فقال : قال الله تعالى : (إِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ)^(٢) .

ومن هذه الارواح الشيطانية الروح الذي يزعم صاحب الفتوحات أنه ألقى اليه ذلك الكتاب ، ولهذا يذكر أنواعا من الخلوات بطعام معين وحال معين ، وهذه مما تفتح لصاحبها الاتصال بالجن والشياطين ، فيظنون ذلك من كرامات الانبياء وانما هو من الاحوال الشيطانية ، وأعرف من هؤلاء عددا منهم من كان يحمل الى مكان بعيد ويعود ، ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسترقه الشياطين وتأتيه به ، ومنهم من كانت تدله على السراق يجعل له من الناس أو بعطيتهم له اذا دلهم على سرقاتهم ونحو ذلك .

ولما كانت أحوال هؤلاء شيطانية كانوا مناقضين للرسول صلوات الله عليهم كما يوجد من صاحب الفتوحات المكية والفصوص وأشباه ذلك أنه يمدح الكفار ، مثل قوم نوح ، وهود ، وفرعون وغيرهم ، ويتنقص بالانبياء : بنوح ، وابراهيم ، وموسى ، وهارون وغيرهم ، ويذم شيوخ المسلمين : كالجنيد بن محمد ، وسهل بن عبد الله التستري ، وأمثالهما ، ويمدح المذمومين عند المسلمين كالحلاج ونحوه ، كما ذكره في التجليات الخيالية الشيطانية ، فان الجنيد قدس الله سره كان من أئمة الهدى ، فسئل عن التوحيد فقال : التوحيد أفراد الحدوث عن القدم ، فبين أن التوحيد أن يميز بين القديم والمحدث أي الخالق والمخلوق .

وصاحب الفصوص أنكر هذا ، وقال في مخاطبته الخيالية الشيطانية له : يا جنيد هل يميز بين المحدث والقديم الا من يكون غيرهما ؟ فخطأ الجنيد في قوله أفراد

(١) الشعراء : ٢١٩ (٢) الانعام : ١٢١

المحدث عن القديم ، لأن قوله ان وجود المحدث هو عين وجود القديم كما قال في (فصوصه) ومن أسائه الحسنى العلى على من ، ومائمه الا هو وعنادا وماهو الا هو ، فعلوه لنفسه ، وهو عين الموجودات ، فالمسمى محدثات هي العلية لذاتها وليست الا هو . الى أن قال : فهو عين مابطن ، وهو عين ماطهر ، وما ثم من يراه غيره ، وما ثم من ينطق عنه سواه ، وهو المسمى أبو سعيد الخراز ، وغير ذلك من أسماء المحدثات .

(فيقال لهذا الملحد) ليس من شرط المميز بين الشيين بالعلم والقول أن يكون ثالثا غيرهما ، فان كل واحد من الناس يميز بين نفسه وبين غيره ، وليس هو ثالثا ، فالعبد يعرف أنه عبد ويميز بين نفسه وبين خالقه ، والخالق جل جلاله يميز بين نفسه وبين مخلوقاته ، ويعلم أنه ربهم وأنهم عباده ، كما نطق بذلك القرآن في غير موضع ، واستشهدنا بالقرآن عند المؤمنين الذين يقرون به باطنا وظاهرا ، وأما هؤلاء الملاحدة فيزعون ما كان يزعمه التلمساني منهم وهو أحذقهم في الحادهم لما قريء عليه الفصوص فقيل له القرآن يخالف قولكم فقال القرآن كله شرك ، وانما التوحيد في كلامنا ، فقيل له اذا كان الوجود واحدا فلم كانت الزوجة حلالا والاخت حراما ؟ قال : الكل عندنا حلال ، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم ، وهذا مع كفره العظيم تناقض ظاهر ، فان الوجود اذا كان واحدا فمن المحجوب ومن الحاجب ؟! ولهذا قال بعض شيوخهم لمريده : من قال لك ان في الكون سوى الله فقد كذب ، فقال له مريده فمن هو الذي يكذب ؟ وقالوا الآخر : هذه مظاهر ، فقال لهم : المظاهر غير الظاهر أم هي هو ؟ فان كانت غيرها فقد قلتهم بالثنية ، وان كانت هي اياها فلا فرق .

وقد بسطنا الكلام على كشف أسرار هؤلاء في موضع آخر ، وبيننا حقيقة كل واحد منهم ، وأن صاحب الفصوص يقول المعدم شيء ووجود الحق فاض عليه ، فيفرق بين الوجود والثبوت ، والمعتزلة الذين قالوا المعدم شيء ثابت في الخارج مع ضلالهم خير منه ، فان أولئك قالوا ان الرب خلق لهذه الاشياء الثابتة في العدم وجودا ليس هو وجود الرب ، وهذا زعم أن عين وجود الرب فاض عليها فليس عنده وجود مخلوق مباين لوجود الخالق ، وصاحبه القونوي يفرق بين المطلق والمعين لأنه كان أقرب الى الفلسفة فلم يقر بأن المعدم شيء ، لكن جعل الحق هو الوجود المطلق ، وصنف مفتاح غيب الجمع والوجود ، وهذا القول أدخل في تعطيل الخالق وعدمه ،

فان المطلق بشرط الاطلاق - وهو الكلي العقلي - لا يكون الا في الازدهان لافي الاعدان ، والمطلق لا بشرط شيء - وهو الكلي الطبيعي وان قيل أنه موجود في الخارج - فلا يوجد في الخارج الا معينا ، وهو جزء من المعين عند من يقول بشوته في الخارج ، فيلزمه أن يكون وجود الرب اما متعينا في الخارج واما أن يكون عين وجود المخلوقات ، وهل يخلق الجزء الكل أم يخلق الشيء نفسه أم العدم يخلق الوجود أو يكون بعض الشيء خالقا لجميعه ، وهؤلاء يفرون من الحلول لأنه يقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر ، وعندهم الوجود واحدا ، ويقولون ان النصراني انما كفر لما خصصوا المسيح بأنه هو الله ولو عمموا لما كفروا ، وكذلك يقولون في عباد الاصنام انما أخطؤا لما اعتقدوا بعض المظاهر دون بعض فلو عدوا الجميع لما أخطؤا عندهم ، وهذا مع ما فيه من الكفر العظيم فيه ما يلزمهم دائما من التناقض لأنه يقال لهم فمن المخطيء ، لكنهم يقولون ان الرب هو الموصوف بجميع النقايس التي يوصف بها المخلوق ، ويقولون ان المخلوقات توصف بجميع الكمالات التي يوصف بها الخالق ، ويقولون ما قاله صاحب الفصوص فالعلی لنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستوعب جميع النعوت الوجودية والنسب العدمية ، سواء كانت محمودة عرفا أو عقلا أو شرعا ، أو مذمومة عرفا أو عقلا أو شرعا ، فليس ذلك الا لمسمى الله خاصة ، وهم مع هذا الكفر لا يندفع عنهم التناقض ، فانه معلوم بالحس والعقل أن هذا ليس هو ذلك ، وهؤلاء يقولون ما كان يقوله التلمساني : انه ثبت عندنا بالكشف ما يناقض صريح العقل ، ويقولون من أراد التحقيق يشي تحقيقهم فليترك العقل والشرع .

وقد قلت لمن خاطبت منهم معلوم أن كشف الانبياء أعظم وأتم من كشف غيرهم ، وخبرهم أصدق من خبر غيرهم ، والانبياء صلوات الله عليهم يخبرون بما تعجز عقول الناس عن معرفته لا بما يعرف الناس بعقولهم انه ممتنع ، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول ، ويمتنع أن يكون في أخبار الرسول ما يناقض العقل الصريح ، ويمتنع أن يتعارض دليلان قطعيان ، سواء كانا عقليين أو سمعيين ، أو كان أحدهما سمعيا والآخر عقليا ، فكيف بمن ادعى كشفا يناقض الشرع والعقل ، وهؤلاء قد لا يريدون الكذب لكن يخيل لهم أشياء تكون في نفوسهم وبظنونها في الخارج ، وأشياء يرونها تكون موجودة في الخارج لكن يظنونها من كرامات الصالحين ، وتكون من تليسات الشياطين ، وهؤلاء الذين يقولون بالوحدة يقدمون الاولياء على الانبياء ،

ويذكرون أن النبوة لم تنقطع كما يذكر عن ابن سبعين ونحوه ، ويجعلون المراتب ثلاثة : يقولون العبد يشهد أولاً طاعة ومعصية ، ثم طاعة بلا معصية ، ثم لاطاعة ولا معصية •

والشهود الاول - وهو الشهود الصحيح - هو الفرق بين الطاعات والمعاصي •

وأما الثاني : فيريدون به شهود القدر كما أن بعض هؤلاء يقول أنا كافر برب يعصى ، وهذا يزعم أن المعصية مخالفة الارادة التي هي المشيئة ، والخلق كلهم داخلون تحت حكم المشيئة ، ويقول شاعرهم :

أصبحت منفعلا لما تختاره مني ففعلي كله طاعات

ومعلوم أن هذا خلاف ما أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه ، فإن المعصية التي يستحق صاحبها الذم والعقاب مألوفة أمر الله ورسوله ، كما قال تعالى :
رَبِّكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا) (١) وسنذكر الارادة الكونية والدينية ، والامر الكوني والديني وكانت هذه المسألة قد اثبتت على طائفة من الصوفية ، فينها الجنيد رحمه الله ، فمن اتبع الجنيد فيها كان على السداد ، ومن خالفه ضل ، فانهم تكلموا أن الامور كلها بمشيئة الله وقدرته ، وفي شهوده هذا التوحيد ، وهذا يسمونه الجمع الاول ، فبين لهم الجنيد أنه لا بد من شهود الفرق الثاني ، وهو أنه مع شهود كون الاشياء كلها مشتركة في مشيئته وقدرته وخلقه فيجب الفرق بين ما يأمر به ويحبه ويرضاه ، وبين ما ينهى عنه ويكرهه ويسخطه ، ويفرق بين اوليائه وأعدائه ، كما قال تعالى :
(أَلَمْ نَجْعَلِ الْمَسْلَمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) (٢) وقال تعالى : (أَمْ نَجْعَلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلِ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) (٣)
وقال تعالى : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (٤) وقال تعالى : (وَمَا يَسْتَوِي

(١) النساء ١٣ ، ١٤ (٢) القلم : ٣٥ ، ٣٦ (٣) ص : ٢٨ (٤) البجاية : ٢١

الاعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون^(١)

ولهذا كان مذهب سلف الامة وأئمتها أن الله تعالى خالق كل شيء وربهم ومليكه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لارب غيره ، وهو مع ذلك أمر بالطاعة ونهى عن المعصية ، وهو لا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يأمر بالفحشاء وان كانت واقعة بمشيئته ، فهو لا يحبها ولا يرضاها ، بل يبغضها ويذم أهلها ويعاقبهم .

والمرتبة الثالثة : أن لا يشهد طاعة ولا معصية ، فانه يرى أن الوجود واحد ، وعندهم أن هذا هو غاية التحقيق والولاية لله ، وهو في الحقيقة غاية الاحساد في أسماء الله تعالى وصفاته ، وغاية العداوة لله ، فان صاحب هذا المشهد يتخذ اليهود والنصارى وسائر الكفار أولياء ، وقد قال الله تعالى : (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ)^(٢)

ولا يتبرأ من الشرك والاثوان فيخرج عن ملة ابراهيم الخليل ، وقال تعالى : (قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم) الى قوله : (حتى تؤمنوا بالله وحده)^(٣)

وقال الخليل لقومه المشركين : (أفأريتم ما تعبدون أنتم وآبائكم الأقدمون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين)^(٤) وقال تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه)^(٥) وهؤلاء قد صنف بعضهم كتاباً وقصائد على مذهبه مثل قصيدة ابن الفارض المسماة بنظم السلوك ، ويقول فيها

لها صلواتي بالمقام أقيمها	وأشهد فيها أنها لي صلت
كلانا مصل واحد ساجد الى	حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سواي ولم تكن	صلاتي لغيري في أداء كل ركعة

(الى أن قال)

وما زلت اياها وايهاي لم تنزل	ولا فرق بسل ذاتي لذاتي أحب
الى رسولا كنت مني مرسلا	وذاتي بآياتي على استمدلت
فان دعيت كنت المجيب وإن أكن	منادي أجابت من دعاني ونبت

(١) غافر : ٥٨ (٢) المائدة : ٥١ (٣) الممتحنة : ٤ (٤) الشعراء : ٧٥ - ٧٧ (٥) المجادلة : ٢٢

الى أمثال هذا الكلام ، ولهذا كان القائل عند الموت ينشد :

ان كان منزلتي في الحب عندكم ما قد لقيت فقد ضيقت أيامي
أمنية ظفرت تنسى بها زمنا واليوم أحسبها أضفأت أحلامي

فانه كان يظن أنه هو الله ، فلما حضرت ملائكة الله لقبض روحه تبين له بطلان ما كان يظنه ، وهؤلاء ممن قال الله سبحانه فيهم : (أَفَنَزَّيْنَهُ لهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)^(١) وقد قال تعالى : (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فجميع ما في السموات وما في الارض يسبح الله ، ثم قال تعالى : (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في دعائه (اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والانجيل والقرآن : أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الاول فليس قبلك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين ، وأغنني من الفقر) .

ثم قال تعالى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ)^(٢) فلفظ مع لاتقتضي في لغة العرب أن يكون أحد الشيتين مختلطاً بالآخر ، كقوله تعالى : (اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)^(٣) وقوله تعالى : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)^(٤) وقوله تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِهِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ)^(٥) .

ولفظة (مع) جاءت في القرآن عامة وخاصة ، فالعامة في هذه الآية وفي آية

(١) فاطر : ٨ (٢) الايات من (سبح لله) الى هنا من سورة الحديد : ١ - ٤ (٣) التوبة : ١١٩ (٤) الفتحة : ٢٩ (٥) الانفال : ٧٥

المجادلة : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) الى قوله : (إِنْ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

فافتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم ، ولهذا قال ابن عباس ، والضحاك ، وسفيان الثوري ، والامام أحمد بن حنبل وغيرهم : هو معهم بعلمه •

وأما المعية الخاصة ففي قوله تعالى : (إِنْ اللَّهُ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)^(١) وقوله تعالى لموسى وهارون : (إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى)^(٢) وقال تعالى عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)^(٣) يعني النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الصديق ، فهو مع موسى وهارون دون فرعون ، ومع محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه دون أبي جهل وغيره من أعدائه ، وهو مع الذين اتقوا وكانوا محسنين دون الظالمين المعتدين ، فلو كان معنى المعية أنه بذاته في كل مكان تناقض الخبر الخاص والخبر العام ، بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك ، وقوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ)^(٤) أي هو اله من في السماء واله من في الأرض ، كما قال تعالى (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)^(٥) وكذلك قوله : (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)^(٦) كما قرره أئمة العلم أنه المعبود في السموات والأرض ، وأجمع سلف الأمة وأئمتها أن الرب تعالى بائن من مخلوقاته ، يوصف بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فيوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ، ويعلم أنه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في شيء من صفات الكمال ، قال الله تعالى : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) .

قال ابن عباس : الصمد العليم الذي كمل في علمه ، العظيم الذي كمل في عظمته

(١) النحل : ١٢٨ (٢) طه : ٤٦ (٣) التوبة : ٤٠ (٤) الزخرف : ٨٤ (٥) الروم : ٢٧ (٦) الانعام : ٢

القدير الكامل في قدته ، الحكيم الكامل في حكمته ، السيد الكامل في سؤدده •
وقال ابن مسعود وغيره : الصمد الذي لا جوف له ، والاحد الذي لا نظير له ،
فاسمه الصمد يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونقي النوائص عنه ، واسمه الاحد
يتضمن أنه لا مثل له ، وقد بسطنا الكلام على ذلك في تفسير هذه السورة وكونها
تعديل لثالث القرآن ، انتهى المقصود نقله من كلام شيخ الاسلام قدس الله روحه •

وهذه نبذة مما يتعلق بأهل الحلول والاتحاد • وللشيخ علي القاري ، والسعد
التفتازاني ، والشيخ محمد البخاري ، والشيخ عبد الباري ، والعلامة عضد الملة
وإدين : كتب مفردة في الكلام عليهم وردهم ، ولعلنا ان شاء الله تعالى نفرّد في ذلك
كتاباً نذكر فيه جميع ما قاله العلماء الربانيون فيهم ، ونذكر بدع أهل الطرائق
المتبدعة وما عندهم من المخالفات للشريعة •

(والمقصود مما نقلناه كله) أن قول النبّهاني عن أهل الحلول والاتحاد انهم
أولياء الله كلام دل على جهله واتباعه لهواه وغيه ، وقد ذكر الشيخ علي القاري في
الرد على الفصوص من المنكرات والاهوام والغلطات ما تشعّر منها الجلود ، وقال في
آخر كتابه : وما سبق من المنكرات في كلام ابن عربي لاسبيل الى صحة تأويلها ، فلا
يستقيم اعتقاد أنه من أولياء الله مع اعتقاد صدور هذه الكلمات منه الا باعتقاد أنها
لم تصدر عنه ، أو أنه رجع الى ما يعتقد أهل الاسلام في ذلك ، ولم يجيء بذلك
عنه خبر ولا روي عنه أثر ، فذمه جماعة من أعيان العلماء وأكابر الأولياء لأجل
كلامه المنكر •

(وأما قول النبّهاني) عن كتب ابن تيمية أنه بسبب كلامه على القائلين بالحلول
والاتحاد وغير ذلك مما يدل على البطلان والفساد قلل الله النفع بها الخ •

(فجوابه) أن الله تعالى لم يقلل الانتفاع بها ، بل لم يزل الناس يلتقطون منها
درر الفوائد ، ويصححون بها أعمالهم وابعقائدهم ، وهي كما قال الحافظ ابن القيم
تشتري بالعالي من الاثمان في كل عصر وزمان ، فأبي عالم من العلماء انتفع الناس
بكتبه كما انتفعوا بكتب شيخ الاسلام ، وذلك من المعلوم بين الخاص والعام ، ولكن
الامر كما قيل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم
وكتب المتأخرين من الحنابلة وغيرهم مشحونة بالنقل عن كتبه ، والمنقولات

عنها زينة للكتب وغرة محاسنها ، وقد أودع الله تعالى فيها خاصية التأثير في القلوب فلا تجد أحدا يطالع فيها الا وفتح الله عليه أبواب العلوم ، وأفاض عليه من زلال عذب منطوقها والمفهوم ، الا من قسى قلبه وكشف حجابها ، كما قال تعالى عن كتابه :
 (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (١)

(قال النبهاني) ومن كتبه (منهاج السنة) في الرد على الروافض وكتاب (العقل والنقل) في الرد على المتكلمين من أهل السنة ، كالاشعري والماتريدي وأصحابهما ، وهم معظم الامة المحمدية ، قال : ومنهاج السنة وان كان مؤلفا في الرد على الروافض الا أنه حشاه بالرد على أهل السنة ، والرد على ساداتنا الصوفية ومن يعتقد فيهم ، كقوله في جواب قول الرافضي : يجب في كل زمان أمام معصوم - بعد أن بين فسادهم - وهل هذا إلا أفسد مما يدعيه كثير من العامة في التطب والغوث ونحو ذلك من أسماء يعظمون مسماها بما هو أعظم من مرتبة النبوة من غير تعيين لشخص معين يمكن أن ينتفع به الانتفاع المذكور في مسعى هذه الاسماء ، وكما يدعي كثير منهم حياة الخضر مع أنهم لم يستفيدوا بهذه الدعوى منفعة لا في دينهم ولا في دنياهم ، وانما غاية من يدعي ذلك أنه يدعي جريان بعض ما يقدر الله على يدي مثل هؤلاء ، وهذا مع أنهم لا حاجة لهم الى معرفته لم ينتفعوا بذلك لو كان حقا فكيف اذا كان ما يدعونه باطلا ، ومن هؤلاء من يتمثل له الجني في صورة ويقول أنا الخضر ويكون كاذبا ، وكذلك الذين يذكرون رجال الغيب ورؤيتهم انما رأوا الجن وهم رجال غائبون وقد يظنون أنهم إنس ، وهذا قد بيناه في مواضع تطول حكايتها مما تواتر عندنا .

(قال النبهاني في الاعتراض على الشيخ) وهكذا دأبه في انكار ما لم يحيط بعلمه ، وجعله في درجة المستحيلات ، مع أنه ثبت عند غيره من جماهير المسلمين - من الاولياء العارفين ، والعلماء العاملين ، والعباد والصالحين وغيرهم - ثبوت الالاحتمل وقوع الشك في صحته ، ثم انه استشهد على صحة دعواه بكلام الياضي ، وابن حجر المكي ، ونجم الدين الاصفهاني وأضرابهم من الغلاة .
 (أقول جوابه) من وجوه :

(١) البقرة : ٢٦ ، ٢٧

(الاول) أنا تكلمنا سابقا عن جميع كتب الشيخ ، وذكرنا في مدحها وتقريظها
 ماذكرنا ، وقلنا ان (منهاج السنة) من أجل كتب الشيخ ، وفيه من الفوائد الدينية
 مايعز وجود نظيره في غيره ، وما أحسن ماقرظ به الاديب الفهامة الشيخ طه بن
 محمود رئيس التصحيح في المطبعة الكبرى ، وهو :

بأقوم منهاج أتى القوم أحمد	فمالي لا أتني عليه وأحمد
✓ إمام جباه الله علما وحكمة	وقلبا تقيا نوره يتوقد
فقام بأمر الحق في الناس صادعا	بأوضح برهان له العقل يشهد
وبدد أهواء تجمع شملها	بها ضل قوم والضلال مبدد
أتاهم وهم شتى المذاهب مالهم	من العقل هاد أو من الدين مرشد
✓ أتاهم وليل الرفض والنصب حالك	وقاعدة الطغيان فيهم توصلد
أتى معشرا للغي أهدي من القطا	ولم يصروا طرق الرشاد فيهدوا
✓ أتى أمة بغض الصحابة دينهم	وسب أبي بكر به قد تعبدوا
✓ فأنكر ماقد خالف الدين والتقى	ومن ديننا إنكار ماليس يحمد
✓ وأفشى كتاب الله فيهم وأنهم	أباة عن الأذعان للحق شرد
✓ وناضل عن صحب النبي وحزبه	ومن لهم رأي وقول مسدد
✓ فهل مثل هذا الجبر أولى بشكره	على ما أتاه أم تراه ينفد
ولكن أعداء الفضائل جمة	وهل ساد إلا ذو الأيادي المحسد
سأشكره دهري عن الناس إذ غدا	عليهم جميعا لابن تيمية اليد
✓ فلو كان تأليف الفتى مخلدا له	لكان من المنهاج والله مخلد
ولو كان في الدنيا جزاء لمحسن	لكان له فيها التعيم المؤبد
✓ فأسألك اللهم هتان رحمة	على قبره ملاح في الأفق فرقد

فاتقاد النبھاني على هذا الكتاب أشبه شيء بنبج الكلاب للسحاب ، أبان
 للناس جهله وغباوته وضلاله ، وعداوته للدين ، وانحرافه عن سبيل المسلمين
 والمؤمنين .

(الوجه الثاني) أن النبھاني اتقد كتاب المنهاج واعترض على مصنفه في انكاره
 الخضر والاقطاب والاوزاد ورجال الثيب وغيرهم مما ابتدعه المتصوفه والغلاة
 ترويجا لمقاصدهم ، واتقاده هذا مما لاوجه له ، لأن الرافضة لما أوجبوا اللطف على
 الله ومراعاة الاصلح وأن الأئمة منحرون بزعمهم في اثني عشر اماما وهم
 لايستوعبون الزمان الى قيام الساعة : لزهم القول بالمنتظر ، مع أن حجج الله

الله لا تقوم بخفي مستور لا يقع العالم له على خير ، ولا ينتفعون به في شيء أصلا ، فلا جاهل يتعلم منه ، ولا ضال يهتدي به ، ولا خائف يأمن به ، ولا دليل يتعزز به ، فأبي حجة لله قامت بمن لا يرى له شخص ، ولا يسمع منه كلمة ، ولا يعلم له مكان ؟ ولا سيما على أصول القائلين به ، فان الذي دعاهم الى ذلك : أنهم قالوا لا بد منه في اللطف بالمكلفين وانقطاع حجتهم عن الله ، فيالله العجب أي لطف حصل بهذا المعدوم لا المعصوم ؟ وأي حجة أثبتتم للخلق على ربهم بأصلكم الباطل ؟ فان هذا المعدوم اذا لم يكن لهم سبيل قط الى لقائه والاهتداء به فهل في تكليف ما لا يطاق أبلغ من هذا ؟ وهل في العذر والحجة أبلغ من هذا ؟ فالذي فررتهم منه وقعتم في شر منه ، وكتسم في ذلك كما قيل :

المستجير بعمره وعند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولكن أبا الله إلا أن يفضح من تنقص بالصحابة الاخيار ، وبسادة هذه الامة الابرار ، وان يرى الناس عورته ، ويغريه بكشفها ونعوذ بالله من الخدلان ، ولقد أحسن القائل :

ما آن للسرداب أن يلد الذي ثلثتموه بزعمكم ما آن
فعلى عقولكم العفاء فانكم ثلثتم المعء والغيلانا

ولقد بطلت حجج استودعها مثل هذا الغائب وضاعت أعظم ضياع ، فهم أبطلوا حجج الله من حيث زعموا حفظها .

(فلما ردَّ الشيخُ) عليّ ابن المطهر الحلبي القول بالمنتظر على أحسن وجه : أراد سد أبواب طرق مناظرتهم وحجاجهم ومعارضتهم على الخضر والاقطاب والاوناد ونحوهم ، وأبطل القول بوجودهم ، وأنه ليس من الدين في شيء ، ولولا ذلك لامكن أن يقولوا ان القول بالمنتظر كالقول بالخضر والقطب والبدل والوتد وغيرهم ، لاسيما وحياء الخضر أطول بكثير ، والقائلون به أكثر ، فما هو جوابكم فهو جوابنا ، فكان من الواجب على الشيخ بيان الحقيقة في ذلك ، واقامة الدليل على نفي وجودهم ، وكيف يمكن مخاصمة الروافض في المهدي المنتظر وانكاره مع القول بحياة الخضر واثبات الاقطاب ونحوهم ، فلا شك أن انتقاد النبهاني هنا في غاية السقوط .

(الوجه الثالث) اعراض النبهاني على الشيخ في تعرضه لبعض من يزعم أنه

من أهل السنة من الأشعرية والماتريدية وساداته الصوفية ، فنقول : ان الشيخ تكلم على كل من ابتدع وأحدث في الدين ما ليس منه ، ولم يتخوف من الاسماء ، فمن خالف الكتاب والسنة واجماع الامة فهو ممن اتبع غير سبيل المؤمنين ، فكيف لا يرد على المخالفين ، وكل آخذ يؤخذ منه ويرد عليه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال ذلك امام دار الهجرة ، وسنتكلم ان شاء الله تعالى على السنة وماهي ومن أهلها ليعلم ما في كلام النبهاني من الجهل والغلط .

(الوجه الرابع) أن القول بوجود الخضر وحياته والاعتقاد برجان الغيب وأمثالهم ان كان من واجبات الشريعة وأركان الديانة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ووجود الجن ونحو ذلك مما وردت نصوص الكتاب والسنة به : فلم لم ينص عليها في القرآن ولم يرد فيها حديث صحيح ؟ فإذا سأل رب العالمين عبدا من عباده وقال له لم لم تؤمن بحياة الخضر الابدية وكذبت بالاقطاب والاوراد والابدال ونحوهم مما قال به الصوفية ، ثم أجابه بقوله يارب العالمين وياخالق اسموات والارضين انك كلفت الناس أن يؤمنوا بك وان لم ترك العيون ولم تحط بك الظنون ، ولكن نصبت لهم دلائل في الافاق والانفس على وجودك عدا ماورد من النصوص على لسان أنبيائك ورسلك ، وأودعت في كل شيء آية تدل على أنك الواحد ، بل كل ذرة من ذرات العوالم هي أعدل شاهد ، ثم انك ملأت كتابك الكريم من ذكر الملائكة والرسل والجن وغير ذلك سا لم نره ، ثم ان نبيك صلى الله عليه وسلم وسائر الانبياء كلهم أخبروا بذلك ، فلذلك اعترفنا وصدقنا بما ذكر ، وأما الخضر ومن دثر معه فلم نر في كتابك الكريم آية تدل على خلوده ولا وجوده ووجودهم ، وأما مارواه الكذابون عن نبيك صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال المحققون من أهل العلم : انها كذب لا أصل لها ، بل الوارد خلاف ذلك ، فكيف ياالهي أو من بأمر موهومة وأشخاص غير معلومة ، وقد أنعمت على بعقل آزن فيه الامور وأجعله حكما عدلا ، ودليلا هاديا اذا أعضلت على المقاصد ، فإذا لم أتفع ياالهي بما أنعمت علي من نعمة العقل أكون اذا كالتبهاني الغبي أخبط خبط عشواء ولا أفرق بين السماء والماء .

ثم أقول : الهي ما فائدة القول بوجود الخضر والاقطاب والابدال ونحوهم ؟ لاجاهل يستفيد منهم العلم بدينه ، ولا مظلوم يستصرخهم على دفع ظلمه ، والشمس أنت تطلعها وتغيبها ، والفلك أنت تديره ، والقمر أنت تديره ، والكواكب أنت جعلتها

زينة للسماء وحفظا من كل شيطان مارد ، والسحاب أنت تنشئه ، والغيث أنت تغيث به عبادك ، والمريض أنت تشفيه ، والجائع أنت تطعمه ، والعطشان أنت تسقيه ، وقد أودعت كتابك كل علم ، وبيان كل حكم ، وأنزلت : (**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**)^(١) فالخضر وغيره حينئذ ماذا يفعلون اذا لم تكن لهم وظيفة وعمل ؟ والله المستعان ما يصفون .

(الوجه الخامس) أن النبهاني وأضرابه استدلوا على وجود من ذكر بقول ابن حجر المكي وبحوه ، ومن المعلوم أن كلام أمثال هؤلاء لا يفيد في هذا الباب شيئا ، وقد تقدم أن العمدة عند أهل العلم في مسائل أصول الدين وفروعه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واجماع أهل العلم من هذه الامة ، ولا تذكر أقوال أهل العلم الاتبعوا وبيانا ، لا أنها المقصودة بالذات والاصالة .

ثم المسائل التي لا يلزم بها المجتهد غيره هي ما كان للاجتهاد فيه مساغ ، ولم تخالف كتابا ولا سنة صريحة ولا اجماعا ، وما خالف ذلك فهو مردود على قائله ، ويلزمه أهل العلم بصريح الكتاب والسنة واجماع الامة .

قال امام دار الهجرة مالك ابن أنس رحمه الله تعالى : ما منّا إلا راد ومردود عليه الا صاحب هذا القبر ، يعني رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأحسن منه قول الله تعالى : (**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**)^(٢) .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا الفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الامر من أمري فيقول بيننا وبينكم كتاب الله ، ألا واني أوتيت الكتاب ومثله معه) فاذا كان رد السنة محرما لايجوز ولو ردها ظانا أن القرآن لايدل عليها فكيف الكتاب والسنة وعدم الازام بهما لخلاف أحد من الناس كائنا من كان ؟! والمقصود : أن النبهاني، وأضرابه لم يوردوا على اثبات مقصدهم بديل . يليق أن يتلقى بالقبول ، وابن حجر المكي ونحوه من الغلاة هم خصوم الحق وأعداؤه ، فكيف يسوغ أن نستدل بكلامهم على ما لا يقول به أهل الحق ؟! (الوجه السادس) أن ما ذكره الشيخ لم يذكره الخصم بتمامه ، بل حرف فيه

(١) المائدة : ٣ (٢) النساء : ٥٩

وغير ، وحذف منه ما يجب ذكره ، ونحن ننقل هنا ما وجدناه من كلامه في مواضع متفرقة ، وإذا جمعت في موضع واحد وتبين دليلها سلم المنصف كلامه وسقط عنده قول من أنكروا عليه من الغلاة السالكين غير سبيل المؤمنين ، ومن الله التوفيق :

قال شيخ الاسلام - رحمه الله في أثناء جواب سؤال سأله بعضهم عن الاستغاثة بأهل التبور والنذر لهم ونحو ذلك - وأما سؤال السائل عن القطب الغوث الفرد الجامع : فهذا قد يقوله طوائف من الناس ، ويفسرونه بأمر باطل في دين الاسلام ، مثل تفسير بعضهم ان الغوث الذي يكون مدد الخلائق بواسطته في نصرهم ورزقهم ، حتى قد يقولون ان مدد الملائكة وحيتان البحر بواسطته ، فهذا من جنس قول النصارى في المسيح والغالية في على عليه السلام ، وهذا كفر صريح يستتاب صاحبه فان تاب والاقبل ، فانه ليس من المخلوقات لا ملك ولا بشر يكون امداد الخلائق بواسطته ، ولهذا كان ما يقوله الفلاسفة في العقول العشرة التي قد يزعمون أنها الملائكة ، وما يقوله النصارى في المسيح ، ونحو ذلك : كفر صريح باتفاق المسلمين ، وكذلك ان عني بالغوث ما يقول بعضهم أن في الارض ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، وقد يسميهم النجباء ، فينتقى منهم سبعون هم النجباء ، ومنهم أربعون هم الابدال ، ومنهم سبعة هم الاقطاب ، ومنهم أربعة هم الاوتاد ، ومنهم واحد هو الغوث ، وانه مقيم بمكة ، وأن أهل الارض اذا نابتهم نأبة في رزقهم ونصرهم فزعوا للثلاثمائة والبضعة عشر رجلا ، وأولئك يفزعون الى السبعين ، والسبعون الى الأربعين ، والأربعون الى السبعة ، والسبعة الى الأربعة ، والأربعة الى الواحد .

وبعضهم قد يزيد في هذا وينقص في الاعداد والاسماء والمراتب ، فان لهم فيها مقالات متعددة ، حتى يقول بعضهم انه ينزل من السماء على الكعبة ورقة خضراء باسم غوث الوقت واسم خضره على قول من يقول أن الخضر هو مرتبة ، وأن لكل زمان خضرا فاز لهم في ذلك قولين .

وهذا كله باطل لا أصل له لاني كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا قاله أحد من سلف الامة ولا أئمتها ، ولا من الشيوخ الكبار المتقدمين الذين يصلحون للاقتداء بهم ، ومعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وعثمان وعلي كانوا خير الخلق في زمنهم وكانوا بالمدينة ولم يكونوا بمكة ،

وقد روى بعضهم حديثاً في هلال غلام المغيرة ابن شعبة وأنه أحد السبعين ، والحديث كذب باتفاق أهل المعرفة ، وان كان قد روى بعض هذه الاحاديث أبو نعيم في حلية الاولياء والشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في بعض مصنفاته ، فلا نفر بذلك فانه يروي الصحيح والحسن والضعيف والموضوع والكذب ، ولا خلاف بين العلماء في أنه كذب موضوع ، وتارة يروونه على عادة أهل الحديث الذين يروون ماسمعه ولا يميزون بين صحيحه من باطله ، وكان أهل الحديث لا يروون مثل هذه الاحاديث لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من حدث غني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين) .

(وبالجملة) فقد علم المسلمون كلهم أن ما ينزل بالمسلمين من النوازل في الرغبة والرهبة - مثل دعائهم عند الكسوف والاعتداد لدفع البلاء وأمثال ذلك - انما يدعون في مثل ذلك الله وحده ، لا يشركون به شيئاً ، لم يكن للمسلمين أن يرجعوا بحوائجهم الى غير الله ، بل كان المشركون في جاهليتهم يدعونه بلا واسطة فيجيبهم الله ، أفتراه بعد التوحيد والاسلام لا يجب دعاءهم الا بهذه الوسطة التي ما أنزل الله بها من سلطان ؟ قال تعالى : (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ) (١) الآية ، وقال : (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ) (٢) الآية ، وقال تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ) الآية ، وقال تعالى (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك) الى قوله : (ما كانوا يعملون) (٣) .

والنبي صلى الله عليه وسلم استسقى لاصحابه بصلاة الاستسقاء وبغير صلاة ، وصلى بهم للاستسقاء وصلاة الكسوف ، وكان يقنت في صلاته فيستنصر على المشركين ، كذلك خلفاؤه الراشدون بعده ، وكذلك أئمة الدين ، ومشائخ المسلمين : مازالوا على هذه الطريقة ، ولهذا يقال ثلاثة أشياء مالها من أصل : باب النصيرية ، ومنتظر الرافضة ، وغوث الجهال ، فان النصيرية تدعي في الباب الذي لهم ماهو من هذا الجنس ، وأنه الذي يقيم العالم ، فذاك شخصه موجود ، لكن دعوى النصيرية فيه باطلة ، وأما محمد بن الحسن المنتظر والغوث المقيم بمكة ونحو هذا فانه باطل ليس له أصل في الوجود ولا وجود ، وكذلك ما يزعمه بعضهم من أن القطب الغوث

(١) يونس : ١٢ (٢) الاسراء : ٦٧ (٣) الانعام : ٤٠ ، ٤٣

الجامع يمد أولياء الله ويعرفهم كلهم ونحو هذا فهذا باطل ، فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما لم يكونا يعرفان جميع أولياء الله وعددهم ، فكيف بهؤلاء الضالين المفترين الكذابين ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم سيد واد آدم انما عرف الذين لم يكن يراهم بسيا الضوء وهو الغرة والتجليل ، ومن هؤلاء من أولياء الله مالا يحصيه الا الله ، وأنبياء الله الذين هو امامهم وخطيبهم لم يكن يعرف أكثرهم ، بل قال الله تعالى له : (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك)^(١) وموسى لم يعرف الخضر ، والخضر لم يكن يعرف موسى ، بل لما سلم عليه موسى قال له الخضر واني بأرضك السلام ؟ فقال له : أنا موسى ، قال : موسى بني اسرائيل ؟ قال نعم . فكان قد بلغه اسمه وخبره ولم يكن يعرف عينه ، ومن قال : انه نقيب الاولياء وأنه يعلمهم كلهم فقد قال الباطل .

(والصواب الذي عليه المحققون) أنه ميت ، وأنه لم يدرك الاسلام ، ولو كان موجودا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لوجب عليه أن يؤمن به ويجاهد معه ، كما أوجب الله ذلك عليه وعلى غيره ، ولكان يكون بمكة والمدينة ، وكان يكون حضوره مع الصحابة رضي الله عنهم للجهاد معهم واعانتهم على الدين أولى له من حضوره عند قوم كفار ليرقع لهم سفينتهم ، ولم يكن عن خير أمة خرجت للناس مختفيا ، وهو قد كان بين المشركين ولم يحتجب عنهم .

ثم ليس للمسلمين به وبأمثاله حاجة لا في دينهم ولا دنياهم ، فان دينهم أخذوه عن الرسول صلى الله عليه وسلم النبي الامي ، الذي علمهم الكتاب والحكمة ، وقال لهم نبينهم صلى الله عليه وسلم (لو كان موسى حيا ثم اتبعتموه وتركتموني لضلتم) وعيسى بن مريم اذا نزل من السماء انما يحكم فيهم بكتاب ربهم وسنة نبينهم ، فأني حاجة لهم مع هذا الى الخضر أو غيره والنبي صلى الله عليه وسلم قد أخبرهم بنزول عيسى من السماء ، وحضوره مع المسلمين ، وقال : (كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى في آخرها) فاذا كان هذان النبيان الكريمان اللذان هما مع ابراهيم وموسى ونوح أفضل الرسل ومحمد صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم ولم يحتجبوا عن هذه الامة لاعوامهم ولا خواصهم فكيف يحتجب عنهم من ليس مثلهم ؟ واذا كان

الخضر حيا دائما فكيف لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قط ؟ ولا أخبر به أمته ولا خلفاء الراشدين .

وقول القائل : انه نقيب الاولياء ، فيقال من ولاء النجابة ؟ وأفضل الاولياء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وليس فيهم الخضر ، وعامة ما يحكى في هذا الباب من حكايات بعضها كذب وبعضها مبني على ظن رجال ، مثل شخص رأى رجلا ظن أنه الخضر أو قال انه خضر ، كما أن الرفضة ترى شخصا تظن أنه الامام المنتظر المعصوم أو تدعي ذلك ، وروى عن الامام أحمد أنه قال - وقد ذكر له الخضر - من أحالك على غائب فما أنصفك ، وما ألقى هذا على ألسن الناس الا شيطان ، وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضوع .

(أما اذا قصد) القائل بقوله القطب الغوث الفرد الجامع أنه رجل يكون أفضل أهل زمانه فهذا ممكن ، لكن من الممكن أن يكون في الزمان اثنان متساويان في الفضل وثلاثة وأربعة ، ولا يجزم بأن لا يكون في كل زمان أفضل الناس الا واحدا ، وقد يكون جماعة بعضهم أفضل من بعض من وجوه ، وتلك الوجوه اما متقاربة أو متساوية ، ثم اذا كان في الزمان رجل هو أفضل أهل الزمان ، فسميته الغوث الفرد الجامع بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا تكلم بها أحد من سلف الامة وأئمتها ، وما زال السلف يظنون في بعض أنه أفضل أو من أفضل أهل زمانه ولا يطلقون عليه هذه الاسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان ، لاسيما من المنتحلين لهذا الاسم من يدعي أن أول هؤلاء الاقطاب هو الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام ، ثم يتسلسل الامر الى مادونه الى بعض المشايخ المتأخرين ، وهذا لا يصح على مذهب أهل السنة ، ولا على مذهب الرفضة ، فآين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والسابقون من المهاجرين والانصار ؟ والحسن عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم قد كان قارب سنه الاحتلام ، وقد حكي عن بعض الاكابر من الشيوخ المنتحلين لهذا الاسم : أن القطب الفرد الغوث الجامع ينطبق علمه على علم الله ، وقدرته على قدرة الله ، فيعلم ما يعلمه ، ويقدر على ما يقدر عليه الله ، وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كذلك ، وأن هذا انتقل منه الى الحسن ، فتسلسل الى شيخه : فبينت له أن هذا كفر صريح ، وجهل قبيح ، وأن دعوى هذا في رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر دع من سواه ، وقد قال تعالى : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ

الغيبَ ولا أقولُ لكم إني ملكٌ) ^(١) وقال تعالى: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) ^(٢) الآية، وقال تعالى: (يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بِيوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ) ^(٣) وقال تعالى: (قُلْ إِنْ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ) ^(٤) وقال تعالى: (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الْأُذُنِ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتْتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ) ^(٥) والآية بعدها وقال تعالى: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ^(٦) والله تعالى قد أمرنا أن نطيع رسوله فقد قال تعالى: (وَمَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) ^(٧) وأمرنا أن نتبعه، قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) ^(٨) وأمرنا أن نعززه ونوقره ونصره، وجعل له من الحقوق ما يينه في كتابه وسنة رسوله حتى أوجب علينا أن يكون أحب إلينا من أنفسنا وأهلنا فقال تعالى: (الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ) ^(٩) وقال تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ (الْفَاسِقِينَ) ^(١٠)).

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) وقال له عمر رضي الله عنه: (يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال: فأنت أحب إلي من نفسي، قال الآن يا عمر) وقال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار) وقدين في كتابه الحقوق التي لا تصلح إلا له، وحقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحقوق المؤمنين بعضهم على بعض - كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع - وذلك مثل قوله تعالى: (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) ^(١١)

(١) الانعام: ٥٠. (٢) الاعراف: ١٨٨. (٣) آل عمران: ١٥٤. (٤) آل عمران: ١٢٧. (٥) القصص: ٥٦. (٦) النساء: ٨٠. (٧) آل عمران: ٣١. (٨) الأحزاب: ٦. (٩) التوبة: ٢٤. (١٠) النور: ٥٢.

فالطاعة لله والرسول ، والخشية والتقوى لله وحده ، وقوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)^(١) فالإتياء لله وللرسول ، كقوله : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)^(٢) لأن الحلال ما حلله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله .

وأما التحسب فهو لله وحده ، كما قالوا حسبنا الله ولم يقولوا حسبنا الله ورسوله ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)^(٣) أي يكفيك ويكفي من اتبعك من المؤمنين ، وهذا هو المقطوع به في معنى هذه الآية ، ولهذا كانت كلمة ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام حسبنا الله ونعم الوكيل .

(الوجه السابع) في بيان حجج المنكرين لحياته - أعني الخضر - اليوم ، ودلائل خصومهم ، وبيان الحق الحقيقي بالنبول من القولين .

إعلم أن العلماء اختلفوا في حياته اليوم كما اختلفوا في نبوته ، فذهب جمع الى أنه ليس بحي اليوم ، وسئل البخاري عنه وعن الياس عليهما السلام هل همسا حيان ؟ فقال : كيف يكون هذا ؟! وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم - أي قبل وفاته بقليل : (لا يبقى على رأس المائة ممن هو اليوم على ظهر الارض أحد) والذي في صحيح مسلم عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته : (ما من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ حية) وهذا أبعد عن التأويل ، وسئل عن ذلك غيره من الائمة فقرأ : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) .

وسئل عنه شيخ الاسلام ابن تيمية ، فقال : لو كان الخضر حيا لوجب عليه أن يأتي الى النبي صلى الله عليه وسلم ويجاهد بين يديه ويتعلم منه ، وقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يوم بدر (اللهم ان تهلك هذه العصابة لاتعبد في الارض) فكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا معروفين بأسمائهم وأسماء آباؤهم وقبائلهم ، فأين كان الخضر حينئذ ؟!

وسئل ابراهيم الحربي عن بقائه ، فقال : من أحال على غائب لم ينصف وما ألقى

(١) التوبة : ٥٩ (٢) الحشر : ٧ (٣) الانفال : ٦٤

هذا بين الناس الا الشيطان ، وندب في ابجر عن شرف الدين ابي عبد الله محمد بن ابي الفضل المرسي القول بموته أيضا ، ونقله ابن الجوزي عن علي بن موسى الرضا رضي الله تعالى عنهما أيضا ، وكذا عن ابراهيم بن اسحق الحري ، وقال أيضا كان أبو الحسين بن المنادي يقبح قول من يقول انه حي ، وحكى القاضي أبو يعلى موته عن بعض أصحاب محمد ، وكيف يعقل وجود الخضر ولا يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة والجماعة ، ولا يشهد معه الجهاد مع قوله عليه الصلاة والسلام : (والذي نفسي بيده لو كان موسى حيا ماوسعه الا أن يتبعني) وقوله عز وجل : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين)^(١) وثبت أن عيسى عليه السلام اذا نزل الى الارض يصلي خلف امام هذه الامة ، ولا يتقدم عليه في مبدأ الامر ، وما أبعد فهم من ثبت وجود الخضر وينسى ما في طي اثباته من الاعراض عن هذه الشريعة ثم قال وعندنا من المعقول وجوه على عدم حياته :

(أحدها) أن الذي قال بحياته قال انه ابن آدم عليه السلام لصلبه ، وهذا فاسد لوجهين (الاول) انه يلزم أن يكون عمره اليوم ستة آلاف سنة أو أكثر ، ومثل هذا بعيد في العادات في حق البشر ، (والثاني) أنه لو كان ولده لصلبه أو الرابع من اولاده - كما زعموا أنه وزير ذي القرنين - لكان مهول الخلقة مفرط الطول والعرض ، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (خلق آدم طوله ستون ذراعا فلم يزل الخلق ينقص بعده) وما ذكر أحد ممن يزعم رؤية الخضر أنه رآه على خلقة عظيمة ، وهو من أقدم الناس .

(والوجه الثاني) أنه لو كان الخضر قبل نوح عليه السلام لركب معه في السفينة ، ولم ينقل هذا أحد .

(الثالث) أن العلماء انفقوا على أن نوحا عليه السلام لما خرج من السفينة مات من معه ولم يبق غير نسله ودليل ذلك قوله سبحانه : (وجعلنا ذريته هم الباقين)^(٢)

(١) آل عمران : ٨١ (٢) الصافات : ٧٧

(الرابع) أنه او صح بقاء بشر من لدن آدم الى قرب خراب الدنيا لكان ذلك من أعظم الآيات والعجائب ، وكان خبره في القرآن مذكورا في مواضع ، لأنه من آيات الربوبية ، وقد ذكر سبحانه عز وجل من استحياء ألف سنة الا خمسين عاما وجعله آية ، فكيف لا يذكر جل وعلا من استحياء أضعاف ذلك •

(الخامس) أن القول بحياة الخضر قول على الله تعالى بغير علم ، وهو حرام بنص القرآن ، أما المقدمة الثانية فظاهرة ، وأما الاولى فلأن حياته لو كانت ثابتة لدل عليها القرآن أو السنة أو اجماع الامة ، فهذا كتاب الله تعالى فأين فيه حياة الخضر ؟ وهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين ما يدل على ذلك بوجه ؟ وهؤلاء علماء الامة فمتى أجمعوا على حياته ؟ •

(السادس) أن غاية ما يتمسك به في حياته حكايات منتولة يخبر الرجل بها أنه رأى الخضر ، فيالله تعالى العجب هل للخضر علامة يعرفه بها من رآه ؟ وكثير من زاعمي رؤيته يعتبر بقوله أنا الخضر ، ومعلوم أنه لا يجوز تصديق قائل ذلك بلا برهان من الله تعالى ، فمن أين للرائي أن المخبر له صادق لا يكذب ؟

(السابع) أن الخضر فارق موسى بن عمران كليم الرحمن ولم يصاحبه ، وقال هذا فراق بيني وبينك ، فكيف يرضى لنفسه بمفارقة مثل موسى عليه السلام ثم يجتمع بجهلة العباد الخارجين عن الشريعة ، الذين لا يحضرون جمعة ولا جباة ولا مجلس علم ، وكل منهم يقول قال لي الخضر ، جاءني الخضر ، أوصاني الخضر ، فيا عجباً له يفارق الكليم ، ويدور على صحبة جاهل لا يصحبه الا شيطان رجيم ؟ سبحانه هذا بهتان عظيم !

(الثامن) أن الامة مجمعة على أن الذي يقول أنا الخضر لو قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا لم يلتفت الى قوله ، ولم يحتج به في الدين ولا مخلص للقائل بحياته عن ذلك الا أن يقول انه لم يأت الى الرسول عليه الصلاة والسلام ولا بايعه ، أو يقول انه لم يرسل اليه ، وفي هذا من الكفر ما فيه •

(التاسع) أنه لو كان حيا لكان جهاده الكفار ورباطه في سبيل الله تعالى ومقامه في الصف ساعة وحضوره الجمعة والجماعة وارشاد جهلة الامة : أفضل بكثير من سياحته بين الوحوش في القفار والفلوات الى غير ذلك ، وسيأتي ان شاء الله تعالى ماله وما عليه •

(وشاع الاستدلال) بخبر لو كان الخضر حيا لزارني وهو كما قال الحفاظ
خبر موضوع لا أصل له ، ولو صح لأغنى عن القيل والقال ، ولا تقطع به الخصام
والجدال •

(الذاهبون الى حياته)

ومن الناس من قال بحياته وهو موجود بين أظهرنا ، وذلك متفق عليه عند
الصوفية على ماقاله النووي ، ونقل عن الثعلبي المفسر : أن الخضر نبي معمر على
جميع الاقوال ، محجوب عن أبصار أكثر الرجال ، وقال ابن الصلاح : هو حي
اليوم ، وانما ذهب الى انكار حياته بعض المحدثين ، واستدلوا على ذلك بأخبار
كثيرة •

منها : ما يروى عن ابن عباس أنه قال الخضر ابن آدم لصلبه ونسيء له في أجله
حتى يكذب الدجال ، ومثله لا يقال من قبل الرأي •

ومنها : ما أخرجه ابن عساكر عن ابن اسحق ، قال : حدثنا أصحابنا أن آدم عليه
السلام لما حضره الموت جمع بنيه ، فقال : يا بني ان الله تعالى منزل على أهل الارض
عذابا فليكن جسدي معكم في المغارة حتى اذا هبطتم فابعثوا بي وادفنونني بأرض
الشام ، فكان جسده معهم ، فلما بعث الله تعالى نوحا ضم ذلك الجسد ، وأرسل
الله تعالى الطوفان على الارض ففرقت زمانا ، فجاء نوح حتى نزل بابل ، وأوصى
بنيه الثلاثة أن يذهبوا بجسده الى المغار الذي أمرهم أن يدفنوه به ، فقالوا الارض
وحشة لا أنيس بها ولا نهتدي الطريق ولكن كف حتى يأمن الناس ويكثروا ، فقال
لهم نوح : إن آدم قد دعا الله تعالى أن يطيل عمر الذي يدفنه الى يوم القيامة ، فلم
يزل جسد آدم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه ، فأنجز الله تعالى له ما وعده
فهو يحيا الى ماشاء الله تعالى له أن يحيا ، وفي هذا سبب طول بقائه وكأنه سبب
بعيد والا فالمشهور فيه أنه شرب من عين الحياة حين دخل الظلمة مع ذي القرنين وكان
على مقدمته •

ومنها : ما أخرجه الخطيب وابن عساكر عن علي رضي الله عنه ، أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم لما توفي وأخذنا في جهازه خرج الناس وخلا الموضع ، فلما
وضعت على المعتسل اذا بهاتف يهتف من زاوية البيت بأعلى صوته لاتغسلوا محمدا

فانه ظاهر مطهر ، فوقع في قلبي شيء من ذلك وقلت ويلك من أنت فان النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أمرنا وهذه سنته ، واذا بهاتف آخر يهتف بي من زاوية البيت بأعلى صوته غسلوا محمدا فان الهاتف الاول كان ابليس الملعون حسد محمدا صلى الله عليه وسلم أن يدخل قبره مغسولا فقلت : جزاك الله تعالى خيرا قد أخبرتني بأن ذلك ابليس فمن أنت ؟ قال أنا الخضر حضرت جنازة محمد صلى الله عليه وسلم وعن علي كرم الله وجهه قال : بينما أنا أطوف بالبيت اذا رجل متعلق بأستار الكعبة يقول : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ويا من لا تغلظه المسائل ، ويا من لا يتبرم بالنجاح الملحين ، أذقتي برد عفوك ، وحلاوة رحمتك ، قلت : يا عبد الله أعد الكلام ، قال : أسمعته ؟ قلت نعم ، قال : والذي نفس الخضر بيده - وكان هو الخضر - لا يقولهن عبد دير الصلاة المكتوبة الا غفرت ذنوبه وان كانت مثل رمل عالج وعدد المطر وورق الشجر .

ومنها : ما أخرجه الحاكم في المستدرک عن جابر ، قال : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمع الصحابة دخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح ، فتخطى رقابهم فبكى ، ثم التفت الى الصحابة فقال : ان في الله تعالى عزاء من كل مصيبة ، وعوضا من كل فائت ، وخلقا من كل هالك ، فالى الله تعالى فأنبؤوا ، واليه تعالى فارغبوا ، ونظره سبحانه اليكم في البلاء فانظروا فانما المصاب من لم يجبر ، فقال أبو بكر وعلي رضي الله تعالى عنهما : هذا الخضر عليه السلام ، الى غير ذلك مما لم يدل على حياته اليوم بل يدل على أنه كان حيا في زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يلزم من حياته اذ ذاك حياته اليوم .

والنافون أجابوا عن هذه الاحاديث ، وقالوا : ان الاخبار التي ذكر فيها الخضر عليه السلام وحياته كلها كذب ، ولا يصح في حياته حديث واحد ، ومن ادعى الصحة فعليه البيان .

ثم ان المشايخ لم يتفقوا على القول بحياته ، فقد نقل الشيخ صدر الدين اسحق القونوي في كتابه (تبصرة المتدي وتذكرة المنتهى) أن وجود الخضر عليه السلام في عالم المثال ، وذهب عبد الرزاق الكاشي الى أن الخضر عبارة عن البسط والياس عن القبض ، وذهب بعضهم الى أن الخضرية رتبة يتولاها بعض الصالحين على قدم الخضر الذي كان في زمن موسى عليهما السلام ، الى غير ذلك من الاقوال المذكورة في روح المعاني .

وفيه أيضا : ثم اعلم بعد كل الاخبار الصحيحة النبوية والمقدمات
الراجحة العقلية تساعد القائلين بوفاته أي مساعدة ، وتعاضدهم على دعواهم أي
معاوضة ، ولا مقتضى للعدول عن تلك الاخبار الا مراعاة ظواهر الحكايات المروية
- والله أعلم بصحتها - عن بعض الصالحين الاخبار ، هذا ملخص ما في تفسير روح
المعاني مما يرغم أنف النبهاني ، فتمسك بما قاله أئمة المحدثين ، فهم أعلم الناس
بشريعة سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين •

(الوجه الثامن) من الوجوه الدالة على فساد قول النبهاني : أن ما نقله عن ابن
حجر المكبي وما وقع له مع تسيخه وأبي يحيى زكريا الانصاري وأن أبا يحيى قال
لشيخ ابن حجر - وكان منكرا للاقطاب والابدال - هكذا ياشيخ محمد وكرر ذلك
عليه ، حتى قال له الشيخ محمد : يامولانا شيخ الاسلام آمنت بذلك وصدقت به
وقد ثبت ، فقال : هذا هو الظن بك الخ - لا يقوم حجة على المنكرين ، إذ مدار
الاستدلال على الكتاب والسنة ، لا بمثل قول أبي يحيى للشيخ محمد عند انكاره
هكذا ياشيخ محمد مكررا ذلك •

ومثل هذه الخرافات يأنف عن نقلها أرباب العقول السليمة ، ففي (روح
المعاني) - عند الكلام على قوله تعالى : (ولقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل وبعثنا
منهم اثني عشر نقيبا)^(١) بعد نقل عبارة الفتوحات في النقباء من أنواع الاولياء - قال :
وفد عد الشيخ أنواعا كثيرة ، والسلفيون ينكرون أكثر تلك الاسماء ، ففي بعض
فتاوي ابن تيمية : وأما الاسماء الدائرة على السنة كثير من النساء والعمامة مثل
الغوث الذي بمكة والاولاد الاربعة والاقطاب السبعة والابدال الاربعة والنجباء
الثلاثمائة : فهي ليست موجودة في كتاب الله تعالى ، ولا هي مأثورة عن النبي صلى
الله عليه وسلم لا باسناد صحيح ولا ضعيف ، محتمل ، الا لفظ الابدال ، فقد روى
فيهم حديث شامى منقطع الاسناد عن علي كرم الله وجهه مرفوعا الى النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال : (إن فيهم - يعني أهل الابدال - اربعين رجلا ، كلما مات
رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلا) ولا توجد أيضا في كلام السلف ، انتهى غير أنني
رأيت في موضع آخر من (روح المعاني) عند الكلام على قوله تعالى :
(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة^(١)

ولهم في تعريفه عبارات شتى تقدم بعضها ، وفي (الفتوحات) هو الذي تولاه الله تعالى في مقام مجاهدته الاعداء الاربعة : الهوى ، والشيطان ، والدنيا ، وفيها تقسيم الاولياء الى عدة أقسام : منها الاقطاب ، والاوتاد ، والابدال ، والنقباء ، والنجباء ، وقد ورد ذلك مرفوعا وموقوفا من حديث عسر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وأنس ، وحذيفة بن اليمان ، وعبادة بن الصامت ، وابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وابن مسعود ، وعوف بن مالك ، ومعاذ بن جبل ، ووائلة بن الاسقع ، وأبي سعيد الخدري ، وأبي هريرة ، وأبي الدرداء ، وأم سلمة ، ومن مرسل الحسن ، وعطا ، وبكر بن خنيس ، ومن الآثار عن التابعين ومن بعدهم مالا يحصى ، وقد ذكر ذلك الجلال السيوطي في رسالة مستقلة له ، وشيد أركانه ، وأنكره ، كما قدمنا بعضهم ، والحق مع المثبتين ، وأنا والحمد لله تعالى منهم ، وان كنت لم أشيد قبل أركان ذلك ، والأئمة والحواريون والرجيون والختم والملازمة والفقراء وسقيط الرفرف بن ساقط العرش والامناء والمحدثون الى غير ذلك * (٢)

وفي موضع آخر من تفسير (روح المعاني) عند تفسير قوله تعالى :
(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)^(٣)
قال بعد كلام طويل : إن الآية متضمنة الوعد منه عز وجل لأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم بأنهم ان ينتهوا عما ينهون عنه ، ويأتمروا بما يأمرهم به : بذهب عنهم - لامحالة - مبادئ ما يستهجن ، ويحليهم أجل تحلية بما يستحسن ، وفيه ايماء الى قبول أعمالهم ، وترتب الآثار الجميلة عليها قطعا ، ويكون هذا خصوصية لهم ومزية على من عداهم ، من حيث أن اولئك الاغيار اذا انتهوا واثتمروا لا يقطع لهم بحصول ذلك ، ولذا تجد عباد أهل البيت أتم حالا من سائر العباد المشاركين لهم في العبادة الظاهرة ، وأحسن أخلاقا وأزكى نفسا ، واليهم تنتهي سلاسل الطرائق التي ميناها - كما لا يخفى على سالكيها - التخلية والتحلية اللتان هما جناحان للطيران الى حظائر القدس ، والوقوف على أركان الانس ، حتى ذهب قوم الى أن القطب في كل عصر لا يكون الا منهم ، خلافا للاستاذ أبي العباس المرسى حيث ذهب - كما نقل عنه تلميذه التاج بن عطاء الله - الى أنه قد يكون من غيرهم *

(١) يونس : ٦٢ - ٦٤ (٢) هكذا عبارته الاصل (٢) الاحزاب : ٢٣

قال ورأيت في مكتوبات الامام الفاروقي الرباني مجدد الالف الثاني ما حاصله :
أن القطبية لم تكن على سبيل الاصاله الا للأئمة أهل البيت المشهورين ، ثم إنها
صارت بعدهم لغيرهم على سبيل النيابة عنهم ، حتى انتهت النبوة الى السيد الشيخ
عبد القادر الكيلاني ، فنال مرتبة القطبية على سبيل الاصاله ، فلما عرج بروحه
القدسية الى أعلى عليين نال من نال بعده تلك الرتبة على سبيل النيابة عنه ، فاذا
جاء المهدي ينالها أصالة كما نالها غيره من الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين
• انتهى •

ثم قال بعد ذلك : وأقول أن السيد الشيخ عبد القادر قد نال ما نال من القطبية
بواسطة جده عليه الصلاة والسلام على أتم وجه وأكمل حال ، فقد كان رضي الله
تعالى عنه من أجلة أهل البيت حسنيا من جهة الاب حسينيا من جهة الام ، لم يصبه
نقص لو أن وعسى وليت ، ولا ينكر ذلك إلا زنديق أو رافضي ينكر صفة الصديق
انتهت عبارة روح المعاني •

وأنت تعلم مما أسلفناه اليك أن هذا الكلام ساقط عن الاعتبار عند المحققين
من الحفاظ وأئمة المحدثين ، اذ ليس لهم على ذلك دليل يعتمد عليه لا من الكتاب
ولا من السنة النبوية الصحيحة ، ولا تنظر الى من قال وانظر الى ما قال ، وقد تحصل
من جميع ما ذكرناه أن ما ذهب اليه شيخ الاسلام هو الحق الذي اقتضاه الكتاب
والسنة ، وما يخالفه ساقط لا يلتفت اليه والله ولي التوفيق •

(قال النبهاني) وها أنا أرجع الى الكلام على (منهاج السنة) للامام ابن تيمية
فأقول : لما كان كثير من طلبة العلم في هذا الزمان - فضلا عن العوام - غير ماهرين
في علم الكلام ، ومعرفة ما يخالف أو يوافق العقيدة الصحيحة من أبحاثهم الدقيقة ،
التي لا يهتدي لمعرفة التفريق بين الحق والباطل منها الا أكابر علماء الاسلام -
الذين قضوا زما طويلا من أعمارهم في مباحث علم الكلام - كان من الواجب على
علماء أهل السنة والجماعة من الاشعرية والماتريدية - وهم أهل المذاهب الثلاثة
وبعض الحنابلة أيضا - أن يحذروا العوام وضعاف الطلبة من مطالعة هذين الكتابين ،
لكثرة ما فيهما من خلط الحق بالباطل ، والرد على أهل السنة والجماعة بحجج
مزخرفات ، ربما لا يهتدي لدفعها القاصرون من طلبة العلم فضلا عن العوام ، قال :
وقد تقدم في كلام الامام السبكي أنه رد على كتابه (العقل والنقل) فرده هو لاشك
من الجهات التي خالف بها أهل السنة ورد عليهم مثل الامام الاشعري وغيره •

ثم انه نقل عن الزبيدي ما يؤيد قوله من أن أهل السنة هم الاشاعرة ونحوهم ،
وعن التاج السبكي ووالده مثل ذلك ، وانه لافرق بين الاشاعرة وبين الماتريدية الا في
مسائل .

ثم انه نقل أيضا عن الزبيدي أيضا أن للسبكي شرحا على قصيدة ابن زفيل
الحنبلي التي رد فيها على الاشاعرة وأضرابهم ، وهي التي يقول فيها :

ان كنت كاذبة السذي حدثني فعليك اثم الكاذب الفتان
جهم بن صفوان وشيعته الالى جحدوا صفات الخالق الديان
بل عطلوا منه السموات العلى والعرش أخلسوه من الرحمن
والعبد عندهم فليس بفاعل بل فعله كتحرك الرجفان

اعلم أن هذه الابيات من نونية ابن القيم رحمه الله تعالى ، وهي المسماة
(بالكافية الشافية) ولم نسمع أن أحدا سماه ابن زفيل ، وكلامه يوهم أنه شخص
آخر ، وهكذا شأن الغلاة ديدنهم ودينهم تحريف الكلام عن مواضعه ، والسبكي
ليس من رجال هذه المنظومة حتى يكتب عليها شيئا ، ومن ادعى غير ما ذكرناه فعليه
البيان حتى تتكلم عليه بما يجب .

ثم نقل من شرح السبكي على هذه الابيات ذم علم الكلام ، وذم الشيخ ابن
تيمية وأصحابه بسبب قولهم في المسائل المختارة للشيخ وما افتراه عليهم خصومهم ،
وبعد أن فرغ من عبارة السبكي التي نقلها الزبيدي ، قال النبهاني : اذا علمت ذلك
أيها المسلم الشافعي أو الحنفي أو المالكي أو الحنبلي الصالح الموفق نعلم أنه يجب عليك
الحذر التام من كتب الامام ابن تيمية وجماعته المتعلقة بالعقائد ، لئلا تهوي في مهواة
الضلال ، ولا ينفعك الندم بعد ذلك بحال من الاحوال ، واياك أن تغتر بكلام السيد
نعمان أفندي الالوسي البغدادي في كتابه (جلاء العينين) وتظن أنه حنفي من أهل
السنة والجماعة ، فهو بهذا الكتاب قد خرج عن حنفيته وسنيته ، وصار من جماعة
ابن تيمية ناصرا لمذهبه مذهب الوهابية — عفا الله عنه وعنهم أجمعين — فانهم بلا
شك من جملة المسلمين وان كانوا فيما خالفوا أهل السنة مبتدعين ، وهم انما يغرون أهل
الاسلام من ضعاف الطلبة والعوام بقولهم انهم على مذهب السلف ، ثم نقل بعض
العبارات عن كتاب المنهاج زعم أن فيها اثبات الجهة الى آخر هديانه .

(وحاصل كلامه) الطويل السخيف العليل : أنه حذر طلبة العلم من مطالعة كتب

ابن تيمية ، ولا سيما كتاب العقل والنقل ، والمنهاج ، ومن كتاب جلاء العينين ، فان تلك الكتب مخالفة لعقائد أهل السنة ، وأن مؤلف جلاء العينين بسبب الذب عن ابن تيمية وابطال بهتان ابن حجر خرج عن حنفيته وسنيته ، وله الفضل حيث لم يخرجه أيضا عن حنفيته ، وأن ابن تيمية قائل بالجهة ، هذا حاصل جميع هديانه في هذا المقام ، والله المستعان ، وقد جعل الموافقين لابن تيمية مبتدعة ، وقد كرر ذلك الكلام مرارا ، وأعاده مرة بعد أخرى •

(أقول في الجواب عن غلظه) انا قد قدمنا الكلام على كتب الشيخ ابن تيمية مفصلا ، وذكرنا ما ذكرنا من تقاريظ أهل العلم عليها ، وما قالوه من الثناء الذي لم يكن لغيرها ، وهي الكتب التي فتح الله بها عيوننا عميا ، وآذاننا صما ، وقلوبنا غلظا ، وكانت من بعض آيات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ان كان فرد من أفراد أمته بلغ ما بلغ من العلم بحمد الله وتوفيقه ، ويقال للنبهاني كما أنشدناه سابقا :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

ويقال له أيضا : من أين لك علم بعلم الكلام ؟ بل بعلم من العلوم ، فان كتابك هذا الذي نراه من أوضح الدلائل على جهلك وغباوتك •

فان كنت لاتدري فتلك مصيبة وان كنت تدري فالمصيبة أعظم

ويقال له أيضا : ان كان لك علم وفهم فلم لم تنصح نفسك وتردعها عن سلوك هذا المسلك الذي أنت متلوث به والنفس مقدمة على الغير ؟ وما أحسن ما قيل :

يا أيها الشيخ المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم

ويقال له أيضا : لم لم تنصح — ان كان لك فهم وذوق — عن مطالعة الكتب التي تصادم الشريعة الفراء وتناقضها ، ككتب الشيخ محي الدين ابن العربي وأضرابه من المتصوفة ، التي تقشعر من سماعها جلود المؤمنين ، قال الشيخ محي الدين عند الكلام على تفسير قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) الآية برواية أبي زرعة (ان الذين كفروا) سنن أبي حنيفة (سواء عليهم أن نذرتهم أم لم تنذرهم) استوى عندهم انذارك وعدم انذارك عندهم (لا يؤمنون) بك ولا يأخذون عنك ، انما يأخذون عنا • (لا يؤمنون) فلا يعقلون إلا عنه • (وعلى سمعهم) فلا يسمعون الا منه •

(وعلى أبصارهم غشاوة) فلا يبصرون إلا اليه ، ولا يلتفتون اليك والى ما عندك بما جعلناه عندهم وألقيناه اليهم (ولهم عذاب) من العذوبة (عظيم) انتهى ✓
ولكن النبهاني وأضرابه من الغلاة يذوبون عن مثل هذه الكتب ، ويخشون على مخالفتها ، ويلسزون كتب السنة الداعية الى توحيد الله ، وهكذا شأن علماء أهل الكتاب وأحبارهم •

فقد نقل الحافظ ابن القيم في كتابه (هداية الحيارى) عند رده على من طعن في علم الصحابة رضي الله تعالى عنهم مانصه — من كلام طويل — وما يديركم معاشر المثلة وعباد الصليب وأمة اللعنة والفضب بالفقه والعلم ، ومسمى هذا الاسم ، حيث تسلبونه أصحاب محمد الذين هم وتلاميذهم كأنياء بني اسرائيل ؟ وهل يميز بين العلماء والجهال ويعرف مقادير العلماء الا من هو من جملتهم ؟ ومعدود في زميرهم ؟ فاما طائفة شبه الله علمائها بالحمير التي تحمل الاسفار ، وطائفة علماءها يقولون في الله مالا يرضاه أمة من الامم فيمن تعظمه وتجله ، وتأخذ دينها عن كل كاذب ومفتري على الله وعلى أنبيائه ، فمثلها كمثل عريان يحارب شاكي السلاح ، ومن سقف بيته زجاج وهو يزاحم أصحاب القصور بالاحجار ، ولا يستكثر على من قال في الله ورسوله ما قال أن يقول في أعلم الخلق أنهم عوام •

(فليهن أمة الغضب) علم التلموز وما فيه من الكذب على الله وعلى كليمه موسى ، وما يحدثه لهم أحبارهم وعلماء السوء منهم كل وقت ، وليهنهم علوم دلتهم على أن الله ندم على خلق البشر حتى شق عليه ، ويكى على الطوفان حتى رمد ، وعادته الملائكة ، وغير ذلك ، وليهن أمة الضلال علومهم التي فارقوا بها جميع شرائع الانبياء ، وخالفوا بها المسيح خلافاً يتحققه علماءهم في كل أمره ، وعلومهم التي قالوا بها في رب العالمين ما قالوا ما كادت السموات تنشق منه والارض تنفطر ، والجبال تنهد ، لولا أن أمسكها الحكيم المصور ، وعلومهم التي دلتهم على التثليث وعبادة خشبة الصليب والصور المدهونة ، ودلتكم على قول عالمكم أن اليد التي جلبت طينة آدم هي التي علقت على الصلبوت ، وأن الشبر الذي ذرعت به السموات هو الذي سمر على الخشبة ، وقول عالمكم الآخر من لم يقل أن مريم والدة الله فهو خارج عن ولاية الله ، انتهى ما قصدنا نقله وبقي منه كلام طويل من أرادته فليرجع اليه •

(سمعت أيها النباني) ما قال اخوانك وما قيل لهم ، فوازن بين كلامهم وطعنهم على أهل الحق وعلومهم وبين كلامك وقدحك في كتب السنة والدين الخالص ، ووازن بين ما أجبوا به وما أجبته به ، ولقد تشابهت قلوبكم ، وتوافقت مثالبكم وعيوبكم ، كل ذلك أيها النباني من جهلك الذي أنت فيه ، وهو الذي أوقعك في مهواة البلاء وعجبك بنفسك ، وتكبرك الذي دعاك الى أن ضربت بسهم مع الافاضل وأرباب التقوى ، مع أنك كما قال القائل :

نزّلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت في البيداء أبعد منزل

(ثم نقول) ان مادعاة النباني - تقليدا لاسلافه - أن الاشاعرة والماتريدية هم أهل السنة وأن من كان على طريقة السلف - كشيخ الاسلام ابن تيمية - هم من المبتدعة كلام لاأظنه يصدر عن ذي فهم ولا معرفة ، فلا بد من الكلام على تحقيق هذه المسألة ويان المراد بالسنة والبدعة ، ليتبين الحق من الباطل ، ويعلم به أن الاحق باسم المبتدع هو هذا الخصم الالد ، ومن على منهجه من أسلافه الغلاة قبحهم الله تعالى وخذلهم .

(اعلم) أن أهل السنة والجماعة هم أهل الاسلام والتوحيد ، المتسكون بالسنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقائد والنحل والعبادات الباطنة والظاهرة ، الذين لم يشوبوها ببدع أهل الاهواء وأهل الكلام في أبواب العلم والاعتقادات ، ولم يخرجوا عنها في باب العمل والارادات ، كما عليه جهال أهل الطرائق والعبادات ، فان السنة في الاصل تقع على ماكان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما سنه أو أمر به من أصول الدين وفروعه ، حتى الهدى والسمت ، ثم خصت في بعض الاطلاقات بما كان عليه أهل السنة من اثبات الاسماء والصفات ، خلافا للجهمية المعطلة النفاة ، وخصت باثبات القدر ونفي الجبر خلافا للقدرية النفاة ، وللقدرية الجبرية العصاة ، وتطلق أيضا على ماكان عليه السلف الصالح في مسائل الامامة والتفضيل ، والكف عما شجر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا من اطلاق الاسم على بعض مسمياته ، لانهم يريدون بمثل هذا الاطلاق التنبيه على أن المسمى ركن أعظم وشرط أكبر ، كقوله : (الحج عرفة) أو لانه الوصف الفارق بينهم وبين غيرهم ، ولذلك سمي العلماء كتبهم في هذه الاصول كتب السنة ، ككتاب السنة لللكائي ، والسنة لأبي بكر الاثرم ، والسنة للخلال ، والسنة لابن

خزيمة ، والسنة لعبد الله بن أحمد ، ومنهاج السنة لشيخ الاسلام ابن تيمية ، وغيرهم •

فما قاله النبهاني ان في كتب ابن تيمية التي ذكرها حكما على أهل السنة والجماعة بالتكفير والاشراك : كذب ظاهر ، وبهت جلي ، ما قيل ولا صدر فضلا عن كونه عرف واشتهر ، وآحاد العامة فضلا عن الخاصة لا يخفى عليهم أن الشيخ وأصحابه كانوا من أكابر أهل السنة والجماعة ، وأنهم تصدوا للرد على المبتلين والمشركين ، من اليهود والنصارى ، والصابئة والفلاسفة ، وعباد القبور والمشائخ ، ولم يكفروا غير هذه الطوائف ومن ضاهاهم ، كغلاة الجهمية ، والقدرية ، والرافضة هذا يعرفه كثير من العوام •

فما قاله النبهاني من أن الشيخ ابن تيمية رد في كتابه منهاج السنة وكتاب العقل والنقل على أهل السنة لا أصل له ، بل انه رد على الغلاة من عبدة القبور ، وتسمية هؤلاء أهل سنة وجماعة جهل عظيم بحدود ما أنزل الله على رسوله ، وقلب للمسميات الشرعية وما يراد من الاسلام والايمان ، والشرك والكفر ، قال تعالى : (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) (١)

والنبهاني وأمثاله أجدر من أولئك بالجهل وعدم العلم بالحدود لغربة الاسلام وبعد العهد بآثار النبوة ، كما أفاده العلامة الشيخ عبد اللطيف في منهاجه • وظن النبهاني أن دعاء غير الله والعمل بغير الشريعة الاحمدية والقول بالحلول والاتحاد لا يخرج عن جادة الحق مع الاتيان بالشهادتين ، مع أنه لا يشترط في ذلك أن يكفر المكلف بجميع ماجاء به الرسول ، بل يكفي في الكفر والردة - والعياذبالله تعالى - أن يأتي بما يوجب ذلك ولو في بعض الاصول ، وهذا ذكره الفقهاء من كل مذهب ، وهو من عجيب جهل النبهاني وأمثاله من الغلاة ، لانه يعرفه المبتدئون في الفقه والعلم ، ومن أراد الوقوف على جزئيات وفروع في الكفر والردة فعليه بما صنّف في ذلك ، كالاعلام لابن حجر ، وما عقده الفقهاء من أهل كل مذهب في باب حكم المرتد •

(قال شيخ الاسلام ابن تيمية في الرسالة السنية) لما ذكر حديث الخوارج ومروقتهم من الدين وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم قال : فاذا كان عهد النبي

صلى الله عليه وسلم وخلفائه ممن انتسب الى الاسلام من مرق منه مع عباداته العظيمة حتى أمر صلى الله عليه وسلم بقتاله : فيعلم أن المنتسب الى الاسلام وانسنة في هذه الازمان قد يمرق أيضا من الاسلام ، وذلك بأسباب : منها الغلو الذي ذمه الله في كتابه ، حيث قال : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)^(١) الآية ، وعلى رضى الله عنه حرق الغالية من الرافضة ، فأمر بأخايد خدت لهم عند باب كندة فقتلوا فيها ، واتفق الصحابة على قتلهم ، لكن ابن عباس كان مذهبه أن يقتلوا بالسيف بلا تحريق ، وهو قول أكثر الصحابة ، وقصتهم معروفة عند العلماء . وكذلك الغلو في بعض المشايخ ، بل الغلو في علي ابن أبي طالب ، بل الغلو في المسيح ونحوه ، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعا من الالهية - مثل أن يقول ياسيدي فلان انصرتني أو أغثني أو ارزقني أو أجرني أو أنا في حسيك ونحو هذه الاقوال - فكل هذا شرك وضلال ، يستتاب صاحبه فإن تاب والاقتل ، فإن الله تعالى انما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده لا يجعل معه لها آخر ، والذين يدعون مع الله آلهة أخرى - مثل المسيح والملائكة والاصنام - لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق ، وتنزل المطر ، وتنبت النبات ، انما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم أو صورهم ، ويقولون : مانعدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فبعث الله رسوله ينهى أن يدعي أحد من دونه لادعاء عبادة ولا دعاء استغاثة ، قال تعالى : (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ)^(٢) .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح وعزيراء والملائكة فأنزل الله هذه الآية ، ثم ذكر آيات في المعنى انتهى .

وقال شيخ الاسلام أيضا في الفرقان بين الحق والباطل : وأهل الضلال الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا : هم كما قال مجاهد أهل البدع والشبهات يتسككون بما هو بدعة في الشرع ومشتبه في العقل ، وكما قال فيهم الامام أحمد ، قال : هم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب ، يحتجون

(١) النساء : ١٧١ (٢) الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

بالمتشابه من الكلام ، ويضلون الناس بما يشبهون عليهم ، والموافقة من أهل الضلال تجعل لها دينا وأصول دين قد ابتدعوه برأيهم ، ثم يعرضون على ذلك القرآن والحديث فإن وافقه احتجوا به اعتقادا^(١) لا اعتمادا ، وإن خالفه فسره بحرفون الكلام عن مواضعه ويتأولونه على غير تأويله ، وهذا فعل أئمتهم ، وتارة يعرضون عنه ويقولون نفوض معناه الى الله ، وهذا فعل عامتهم ، وعمدة الطائفتين في الباطن غير ماجاء به الرسول ، يجعلون أقوالهم البدعية حجة يجب اتباعها واعتقاد موجهها ، والمخالف اما كافر واما جاهل لا يعرف هذا الباب ، وليس له علم بالمعقول ولا بالاصول ، ويجعلون كلام الله ورسوله الذي يخالفها من التشابه الذي لا يعرف معناه الا الله ، أو لا يعرف معناه الا الراسخون في العلم ، والراسخون عندهم من كان موافقا لهم على ذلك القول ، وهؤلاء أضل ممن تمسك بما تشابه عليه من آيات الكتاب وترك المحكم ، كالنصارى والخوارج وغيرهم ، اذ كان هؤلاء أخذوا بالتشابه من كلام الله وجعلوه محكما وجعلوا المحكم متشابها ، وأما أولئك - كنفاة الصفات من الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم وكالفلاسفة - فيجعلون ما ابتدعوه هم برأيهم هو المحكم الذي يجب اتباعه ، وان لم يكن معهم من الانبياء والكتاب والسنة ما يوافقهم ، ويجعلون ماجاءت به الانبياء وان كان صريحا قد يعلم معناه بالضرورة ويجعلونه من التشابه ، ولهذا كان هؤلاء أعظم مخالفة للانبياء من جميع أهل البدع ، حتى قال يوسف بن اسباط ، وعبد الله بن المبارك ، وغيرهما كطائفة من أصحاب أحمد : ان الجهمية نفاة الصفات خارجون عن الثنتين والسبعين فرقة .

قالوا وأصولها أربعة : الشيعة ، والخوارج ، والمرجئة ، والقدرية ، وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن قوله تعالى : (مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرٌ مُتَشَابِهَاتٌ)^(٢) في المتشابهات قولان : أحدهما أنها آيات بعينها تشابه على كل الناس ، والثاني وهو الصحيح أن التشابه أمر نسبي فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره ، ولكن ثم آيات محكمات لا تشابه فيها على أحد ، وتلك المتشابهات اذا عرف معناها صارت غير متشابهة ، بل القول كله محكم ، كما قال : (أُنْحِكِمَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَضَّلَتْ) وهذا كقوله (الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك أمور لا يعلمهن كثير

(١) كذا في الاصل ، ولعلها اعتقادا لانه المناسب للسياق . (٢) آل عمران : ٦

من الناس) وكذلك قولهم : (إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا).

(وقد صنف) أحمد كتابا في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من تشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله ، وفسر تلك الآيات كلها ، وذمهم على أنهم تأولوا ذلك المتشابه على غير تأويله ، وغامتها آيات معروفة قد تكلم العلماء في تفسيرها ، مثل الآيات التي سأل عنها نافع ابن الأزرق لابن عباس ، قال الحسن البصري : ما أنزل الله آية الا وهو يجب أن يعلم فيم أنزلت وماذا عنى بها ، ومن قال من السلف ان المتشابه لا يعلم تأويله الا الله فقد أصاب أيضا ، ومراده بالتأويل ما استأثر الله بعلمه ، مثل وقت الساعة ، ومجيء اشراطها ، ومثل كيفية نفسه ، وما أعده في الجنة لاوليائه ، وكان من أسباب نزول الآية احتجاج النصارى بما تشابه عليهم ، كقوله : (انا) و (نحن) وهذا يعرف العلماء أن المراد به الواحد المعظم الذي له أعوان ، لم يرد به أن الالهة ثلاثة ، فتأويل هذا - الذي هو تفسيره - يعلمه الراسخون ، ويفرقون بين ما قيل فيه (أنا) وما قيل فيه (إنا) بدخول الملائكة فيما يرسلهم فيه اذ كانوا رسله ، وأما كونه هو المعبود الأله فهو له وحده ، ولهذا لا يقول فايانا فاعبدوا ولا ايانا فارهبوا بل متى جاء الامر بالعبادة والتقوى والخشية والتوكل ذكر نفسه وحده باسمه الخاص ، واذا ذكر الافعال التي يرسل فيها الملائكة قال : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا) ^(١) (فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) ^(٢) (تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ) ^(٣) ونحو ذلك مع أن تأويل هذا وهو حقيقة ما دل عليه من الملائكة وصفاتهم وكيفية ارسال الرب لهم لا يعلمه الا الله ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

(والمقصود هنا) أن الواجب أن يجعل ماقاله الله ورسوله هو الاصل ، ويتدبر معناه ، ويعقل ويعرف برهانه ودليله ، إما العقلي واما الخبري السمعي ، ويعرف دلالة القرآن على هذا وهذا ، ويجعل أقوال الناس التي قد توافقه وتخالفه متشابهة مجملة .

(فيقال) لأصحاب هذه الالفاظ : يحتمل كذا وكذا ويحتمل كذا وكذا ، فان أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل وان أرادوا بها ما يخالفه رد ، وهذا مثل لفظ

(١) الفتح : ١ (٢) القيامة : ١٨ (٣) القصص : ٢

المركب والجسم والتميز والجوهر والجهة والعرض ونحو ذلك ، ولفظ الحيز ونحو ذلك ، فان هذه الالفاظ لاتوجد في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريده أهل هذا الاصطلاح ، بل ولا في اللغة أيضا ، بل هم يختصمون بالتعبير بها على معان لم يعبر غيرهم عن تلك المعاني بهذه الالفاظ ، فيفسر تلك المعاني بعبارات أخرى ، ويبطل مدلل عليه القرآن من الادلة العقلية والسمعية ، واذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل ، وعرف وجه الكلام على أدلتهم فانها ملفقة من مقدمات مشتركة يأخذون اللفظ المشترك في احدي المقدمتين بمعنى ، وفي المقدمة الاخرى بمعنى آخر، فهو في صورة اللفظ دليل وفي المعنى ليس بدليل ، كمن يقول سهيل بعيد من الثريا لايجوز أن يقترن بها ولا يتزوجها ، والذي قال :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

أراد امرأة أسماها الثريا ورجلا اسمه سهيل ، ثم قال : عمرك الله الخ

هي شامية اذا ما استقلت وسهيل اذا استقل يمانى

وهذا لفظ مشترك ، فجعل تعجبه وانكاره من الظاهر من جهة اللفظ المشترك ، وقد بسط الكلام على أدلتهم المفصلة في غير موضع •

(والاصل) الذي بنى عليه ثقات الصفات وعطلوا ما عطلوا حتى صار منتهاهم الى قول فرعون الذي جحد الخالق وكذب رسوله موسى في أن الله كلمه : هو استدلالهم على حدوث العالم بأن الاجسام محدثة ، واستدلالهم على ذلك بأنها لاتخلوا من الحوادث ولم تسبقها ، وما لم يخل من الحوادث ولم يسبقها فهو محدث ، وهذا أصل قول الجهمية الذين أطبق السلف والأئمة على ذمهم ، وأصل قول المتكلمين الذين أطبقوا على ذمهم •

وقد صنف الناس مصنفات متعددة فيها أقوال السلف والأئمة في ذم الجهمية وفي ذم هؤلاء المتكلمين ، والسلف لم يذموا جنس الكلام فان كل آدمي يتكلم ، ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به رسوله ، والاستدلال بما بينه الله ورسوله ، بل ولا ذموا كلاما هو حق بل ذموا الكلام الباطل وهو المخالف للكتاب والسنة ، وهو المخالف للعقل أيضا ، وهو الباطل •

(فالكلام) الذي ذمه السلف هو الكلام الباطل ، وهو المخالف للشرع والعقل ،

ولكن كثيرا من الناس خفي عليه بطلان هذا الكلام ، فمنهم من اعتقده موافقا للشرع والعقل حتى اعتقد أن ابراهيم الخليل استدل به ، ومن هؤلاء من يجعله أصل الدين ولا يحصل الايمان أولا يتم الا به ، ولكن من عرف ماجاء به الرسول وما كان عليه الصحابة علم بالاضطرار أن الرسول والصحابة لم يكونوا يسلكون هذا المسلك ، فصار من عرف ذلك يعرف أن هذا بدعة ، وكثير منهم لا يعرف أنه فاسد ، بل يظن مع ذلك أنه صحيح من جهة العقل لكنه طويل أو بعيد المعرفة أو هو طريق مخيفة مخطر يخاف على سالكه ، فصاروا يعيونه كما يعاب الطريق الطويل والطريق المخيف ، مع اعتقادهم أنه يوصل الى المعرفة وأنه صحيح في نفسه ، وأما الحذاق العارفون بتحقيقه فعلموا أنه باطل عقلا وشرعا ، وأنه ليس بطريق موصل الى المعرفة ، بل انما يوصل لمن اعتقد صحته الى الجهل والضلال ، ومن تبين له تناقضه أوصله الى الحيرة والشك ولهذا صار حذاق سالكيه ينتهون الى الحيرة والشك ، اذ كان حقيقته أن كل موجود فهو حادث مسبق بالعدم ، وليس في الوجود قديم ، وهذا مكابرة ، فان الوجود مشهود ، وهو اما حادث واما قديم ، والحادث لا يد له من قديم ، فثبت وجود القديم على التقديرين •

وكذلك ما ابتدعه في هذه الطريق ابن سينا وأتباعه من الاستدلال بالممكن على الواجب أبطل من ذلك ، كما قد بسط ذلك في غير هذا الموضوع •
 وحقيقته : أن كل موجود فهو ممكن ، ليس في الوجود موجود بنفسه ، مع أنهم جعلوا هذا طريقا لاثبات الواجب بنفسه ، كما يجعل أولئك هذا طريقا لاثبات القديم ، وكلاهما يناقض ثبوت القديم والواجب ، فليس في واحد منهما اثبات قديم ولا واجب بنفسه ، مع أن ثبوت موجود قديم وواجب بنفسه معلوم بالضرورة ، ولهذا صار حذاق هؤلاء الى أن الموجود الواجب والقديم هو العالم بنفسه ، وقالوا هو الله ، وأنكروا أن لا يكون للعالم رب مباين للعالم ، اذ كان ثبوت القديم الواجب بنفسه لا بد منه على كل قول ، وفرعون ونحوه ممن انكر الصانع ما كان ينكر هذا الوجود المشهود •

فلما كان حقيقة قول أولئك يستلزم أنه ليس موجود قديم ولا واجب لكنهم لا يعرفون أن هذا يلزمهم ، بل يظنون أنهم أقاموا الدليل على اثبات القديم الواجب بنفسه ، ولكن وصفوه بصفات المتمتع ، فقالوا لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو صفة ولا موصوف ، ولا يشار اليه ونحو ذلك من الصفات السلبية التي تستلزم

عدمه ، وكان هذا مما تنفر عنه العقول والفطر ، ويعرف أن هذا صفة المعدوم المتمتع
لاصفة الموجود ، فدليلهم في نفس الامر يستلزم أنه ماثم قديم ولا واجب ، ولكن
ظنوا أنهم أثبتوا القديم والواجب ، وهذا الذي أثبتوه متمتع فما أثبتوا قديما ولا
واجبا •

فجاء آخرون من جهتهم فرأوا هذا مكابرة ، وأنه لا بد من اثبات القديم
والواجب ، فقالوا هو هذا العالم ، فكان قدما الجهمية يقولون انه بذاته في كل
مكان ، وهؤلاء قالوا هو غير الموجودات ، والموجود القديم الواجب هو نفس
الوجود المحدث الممكن ، والحلول هو الذي أظهرته الجهمية للناس حتى عرفه
السلف والأئمة وردوه •

وأما حقيقة قولهم فهو النفي : أن لا داخل العالم ولا خارجه ، ولكن هذا
لم يسمعه الأئمة ولم يعرفوا أنه قولهم الا من باطنهم ، ولهذا كان الأئمة يحكون عن
الجهمية أنه في كل مكان ، ويحكون عنهم وصفه بالصفات السلبية ، وشاع عند
الناس أن الجهمية يصفونه بالسلب حتى قال أبو تمام :

جهمية الاوصاف الا أنها قد حليت بمحاسن الاشياء

وهم لم يقصدوا نفي القديم والواجب فان هذا لا يقصده أحد من العقلاء
لا مسلم ولا كافر ، اذ كان خلاف ما يعلمه كل واحد بيديه عقله ، فانه اذا قدر أن
جميع الموجودات حادثة عن عدم لزم أن كل الموجودات حدثت بأنفسها ، ومن
المعلوم ببداهة العقول أن الحادث لا يحدث بنفسه ، ولهذا قال تعالى : (أَمْ خُلِقُوا
مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)^(١) وقد قيل خلقوا من غير شيء من غير رب خلقهم
وقيل من غير مادة ، وقيل من غير عاقبة وجزاء ، والاول مراد قطعا ، فان كل ما خلق
من مادة أو لغاية فلا بد له من خالق •

(ثم ذكر الشيخ) رحمه الله معرفة الفطر ، ثم ذكر قول الاشعرية ، والهشامية ،
والكرامية ، وغيرهم ، ثم أبطله بأوضح بيان وأجلى برهان •

(والمقصود) أن شيخ الاسلام لم يرد الا على من خالف الشريعة وصادمها
بقواعده ، ولم يرد على أهل السنة وهم الذين كانوا على الصراط المستقيم ولم

يخالفوا ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ، بل ذب عنهم وانتصر لاقوالهم ، غير أن النبهاني ظن أن ماهو عليه من الزينغ والاحاد هو مذهب أهل السنة ، وقد سبق فيما نقلناه من مجالس الشيخ الثلاثة ماينفع في المقام ، بل كتبه طافحة بتفصيل ماقررناه فراجع أي كتاب شئت منها •

وبما قررناه علم أيضا أن ما نقله الزبيدي من كلام السبكي عند كلامه على آيات ابن زفيل ساقط عن درجة الاعتبار ، لانه من خصوم شيخ الاسلام وحسدته ، عداما كان عليه من الغلو والجهل والافتراء على أهل الحق ، والظاهر أنه ليس له من الكلام على قصيدة العلامة ابن زفيل سوى ما نقله الزبيدي ان صح نقله ، وإلا لذكره ولده التاج فيما عد من مؤلفاته في الطبقات ولم يذكره مع أنه أتى بجميع عجره وبجره •

(وأما مانسب النبهاني الى الشيخ) من القول بالجهة فهو من افتراءات السبكي وابن حجر المكي وغيرهما من أعدائه وخصومه ، والنبهاني قلدهم في هذا القول تقليد أعمى كما هو ديدنه وعادته ، وكتب الشيخ طافحة من تنزيه الله تعالى عن الجهة والجسمية ، ومدار كلامه على مائت بالكتاب والسنة وأقوال السلف ، وأنشد في كتاب الفرقان :

أيها المقتدي لتطلب علما كل علم عبد لعلم الرسول
تطلب الفرع كي تصحح حكما ثم أغفلت أصل أصل الاصول

ثم قال : والله يهدينا وسائر اخواننا المؤمنين الى صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، قال : وهذه الاصول ينسب عليها ما في القلوب ويتفرع عليها ، وقد ضرب الله مثل الكلمة الطيبة التي في قلوب المؤمنين ، ومثل الكلمة الخبيثة التي في قلوب الكافرين ، ثم انه أطنب الكلام في شرح الكلمتين ، وأتى بما تقر به من المؤمن العين ، كما هي عادته رحمة الله عليه ، وستكلم ان شاء الله على العلو والاستواء عند ابطال أقوال النبهاني التي هذى بها في هذا الباب ، ويتميز بحوله تعالى القشر من اللباب •

(وأما ماتكلم به النبهاني من الهذيان) في شأن (جلاء العينين) ومصنفه ، وتحذير المسلمين من مطالعته ، واخراج مصنفه عن حنفيته بل سنيته بسبب الذب عن ابن تيمية وانتصاره له : فهو كلام من لا ينبغي أن يخاطب ولا يوجه اليه مقال : فان

الله تعالى قال : (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) (١) وقال عز من قائل :
(وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٢) ومصنف جلاء العينين لم يذكر فيه الا أقوال الفريقين
وبسط فيه دلائل الطرفين ، ودعا الى الله وتوحيده ، وبرهن على وجوب أفراده
سبحانه بالعبادة ، وذب عن خلص عباد الله ، وحكى ما كان وأظهر مازوره الخصم
من البهتان ، ومثل (جلاء العينين) ينبغي لكل مسلم أن يطالعه ويستفيد منه حقيقة
دينه ، ثم يدعو لمؤلفه بالمغفرة والرحمة والرضوان ، وأن يعجزه عن خلص عباده خير
الجزء .

ثم انا قد ذكرنا حقيقة السنة والبدعة ، وما ذكر فيهما أهل العلم من البيان
الشافي والكلام الوافي ، فأى مسألة ذكرت في جلاء العينين تخالف ماورد عن النبي
صلى الله عليه وسلم وتستوجب التبديع ، نعم ذكر فيه ضلالات أهل الالحاد القائلين
بالحلول والاتحاد ، وهي ليست بخفية على أحد من الناس ، وكتب العلم طافحة
بذكر ذلك الهذيان ورد هذا الوسواس ، فقد ألف السعد التفتازاني كتابا رد فيه على
الفصوص ، وكذا العلامة الملا علي القاري الحنفي ، والفهامة الشيخ محمد البخاري
الحنفي وغيرهم .

وذكر أيضا بدع القبورين وأعمالهم الشركية ، وأظهر افتراء ابن حجر وخيافته
في النقل واتباعه لهواه وخصومته للحق ، وما كان من السبكي من العدوان والقول
على الله بغير علم ، وأي مذهب من مذاهب المسلمين يسوغ ماكان ابن حجر والسبكي
ونحوهما من التجاوز والقدح في علماء السنة النبوية وحفاظ الحديث بغير حق .
أيرضى الامام الشافعي وأكابر أصحابه والمنصفون من أتباعه بما كان من هؤلاء
الغلاة ؟ أم هل يسوغ الامام أبو حنيفة أن يتلاعب أحد بالدين ويعرض عما ورد في
الكتاب والسنة ويسلم لابن حجر وأضرابه كل ماهدى به ؟ أم هل يبيح امام دار
الهجرة أن تباح أعراض ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم وحفاظ حديثه أن يمزقها
ابن حجر بأظفاره وأنيابه ؟ ! وهكذا جميع أئمة الدين ، وأكابر المجتهدين ، وقد
أوصى كل منهم باتباع الحق والاعراض عن الهوى ومجانبة التعصب ، رضوان الله
تعالى عليهم أجمعين .

ثم يقال للنبهاني : الخروج عن المذهب متى يكون ؟ والتقليد بماذا كان ؟ هل

(١) الرمز : ١٠ (٢) آل عمران : ١٠٤

في الفروع والاصول معا أم في الفرع لافي الاصول أم بالعكس ؟ ولا شك أن
النبهاني جاهل بكل ذلك لايفرق بين الاصول والتروع ، بل لايميز بين الكسوع
والكرسوع •

وأهل العلم ذكروا أن التقليد هو أخذ قول الغير من غير معرفة دليله من حيث
افادته الحكم ان لم يتمكن من استمراغ الوسع لتحصيل ظن الحكم ، والا فيحرم
عليه كما يحرم التقليد في العقائد ، وقد رأيت كلاما مفيدا لبعض أكابر الشافعية في
بحث التقليد نذكره تسميا للفائدة ، قال : ثم اني لم أزل متشبها بأذيال هذا الامام ،
متسككا بعري أفعال ذيك الهمام ، مستغرقا النهار والليل في استكشاف دقيق كلامه ،
مستنهضا الرجل والخيل لارتشاف رحيق مدامه ، لم أعرج على غير حماه ، ولم
أعرج لسوى سناه •

أبعد سايحى مطلب ومرام وغير هواها لوعة وغرام

وكذا شأنني مع أحسباه الكرام ، وحالي مع أتباعه الفخام ، لا ألوي عناني الا
على اطالهم ، ولا أسترشد بغير أقوالهم •

وما أنا إلا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية أرشد

لا أميل الى تقليد أحد من الأئمة ، مع علمي بأن اختلافهم في الفروع رحمة ، بل
ديدني رفاقهم انجدوا أم اتهموا ، وديني وفاقهم أيمنوا أم أشأموا ، الى أن خاصمني
مخاصم الانصاف فخصمني ، وعارضني معارض الاعتساف فأفخصني ، وتبين لي
بمخالطة الانام ، أن كثيرا من العقود لا تصح على مذهب الامام ، وأن تصحيحها
كالمحال ، وأن ليس للشافعي في ذلك مجال ، فلم أر بدا في هذا الزمان من تقليد امام
الأئمة أبي حنيفة النعمان ، فقلدته في جميع معاملاتي ، ولو لا ما في قلبي للشافعي
لا تبعته في سائر دياناتي •

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب الا للحبيب الاول

كم منزل في الارض يألفه الفتى وحينه أبدا لاول منزل

(ثم قال) فيها أنا ذاك شافعي في عباداتي ، حنفي في سائر معاملاتي ، وهكذا
سائر علماء الزمان في المعاملات على مذهب النعمان ، قد طووا سنن الشافعي ، ورفعوا

أذكار النووي والرافعي ، فلا نرى جاهلا يستفتي ، ولا عالما في هاتيك المسائل يفنى •

ما في الصحاب أخو وجد نظارحه حديث نجد ولا خلا نجاريه

(ويقال للنبهاني) اذا كان الرجل من أتباع الامام الشافعي قد قلده غيره في كثير من المسائل لا يخرج ذلك عن تقليد امامه فكيف حكم على من لم يتحقق اليه مخالفة امامه ولا في مسألة واحدة بالخروج عن تقليده ، بل كم رأينا من أصحاب الأئمة من خالفه في مسائل كثيرة ولم يقل أحد بخروجهم في ذلك عن التقليد أفيقال ان الامام أبا يوسف بسبب مخالفته لامامه في مسائل كثيرة خرج عن كونه حنфия ، وكذلك محمد ، وكذلك زفر ، وهكذا أصحاب كل امام ، فكيف يحكم النبھاني بهذا الحكم الفاسد ، ويقول هذا القول الكاسد !؟

(وللشيخ أحمد الطيبي) منظومة فيما يحتاج الشافعي فيه الى تقليد الامام أبي حنيفة ، وهي هذه بعد البسمة :

الحمد لله الذي ماجعلا
لهذه الامة فضلا وكـرم
ثم صلاة وسلام سـرمدي
نيننا الذي به نلنا الهدى
وبعد فاعلم أن من قد قلدا
فجائز له بأن يقلدا
بأن من قلده في الاول
فاذ عرفت الشرط واحتجت الى
كان تقلد الامام الاعظما
في البيع والشرا بلا ايجاب
بل بالمعاطاة اذا ماكثرا
وفي النجاسات التي ابليسه
من ذلك الفراء في الاثواب
وهو الفراء المعمول من غير السك
كذا الفراء من نحو قط ونسر
كذا الرماد من نجاسة حصل

من حرج في الدين لكن سهلا
سييل رشدھا واسبع النعم
منه على خير الانام أحمد
وآله وكل من به اهتدى
من الانام عالما مجتهدا
آخرا الا أن يكون اعتقدا
أعلم من ثانيه فالمنع جلي
تقليد غير الشافعي فافعلا
أبا حنيفة الزكي المقدما
ولا قبول منك في الخطاب
أو قل ما به المبيع والشرا
عمت بها مالهم تكن كلييه
وفي القباقب وفي النشاب
أما الذي منه فليس فيه شك
وكل مأكول ولم يكن نحر
في مائع أو ماقليل أو محل

أو شربة مع طينها قد عجننا
والغصو عن نجاسة قد كتفت
كذلك عن رقيقة وبلغت
كذلك في نقل زكاة الواجد
يدفعها ولو صيبا ان قبض
ودفعنا من ذهب عن فضة
يكفي كذلك كلما ينتفع
وقل زكاة الفطر مثل المال
فتدفع القيمة عنها ان تشا
كذلك في الاتشى اذا ما زوجت
كذلك في التأجيل للصدقات
وان ما يؤخذ من أموال
والقول في تعلق الحرام
لا يتعدى لسواها أصلا
نعم اذا غير من قد عصبنا
لكنه يحرم الاتفعا به
ونية الصلاة حيث وجدت
بلفظة التكبير للاحرام
فمن يقلده به لا يعمل
وسعينا بين الصفا والمنروة
ماعده فرضا ولكن واجبا
الانفدية ونسكه يصح
ولم يقل شرط انظواف الطهر
أو حائض وهجمت وطافت
فان يكن حجا فدت بيدنه
وان تطلق ذات حيض وانقطع
فلتربصن بسن اليأس
بأشهر ثلاثة تعتد
كذا أبو حنيفة وقالوا

أو طين أرض أو جدار أو بنا
ووزنها الدرهم حين وزنت
مقدار بسط الكف لما بسطت
للمستحق ولشخص واحد
ان بلغ التمييز ذلك المفترض
وعكسه عند أبي حنيفة
به الفقير كيثاب تدفع
فقس به في سائر الاحوال
أين أردت أو سواها كنشا
لنفسها أو غيرها اذ وكلت
الى الممات أو الى الطلاق
يقصد تزيير من الحلال
بذمة الجاني من الانعام
قد رد حيث لم يلاق جهلا
مغصوبه يملكه وان أبى
حتى يؤدى للضمان فاتبه
ولم تكن من المصلى اقترنت
فهى صحيحة لدى الامام
الا بتطهير ليدنه يقبل
في حننا وهكذا في العمرة
فمن به أخيل لن يطالبنا
وتلك شاة فادر فهو متضح
فان يضق بنفساء الامر
فهو صحيح وفدت وتابت
أو اعتمادا فبشاة بينه
الدم عنها لا لعة تقع
مالهم تحض ثم بلا التباس
كذلك قال الشافعي الفرد
في ذلك مالسك وأحمد لا

وانما سيلها اذا مضت
تعتد بالثلاثة الاشهر من
بانه اثنان وستون سنة
عند الامام الاعظم النعمان
وقس بما حوته ذي الصحيفة
فان تكن قلدت في الكليسة
ففي الوضوء امسح جميع الرأس
والحمد لله الذي ماعرا

تسع شهور بعد ما قد طلبت
بعد وسن اليأس عندنا ابن
على الصحيح وحكى من بينه
خمس وخمسون احتفظ بياني
مقلدا غير أبي حنيفة
مالكا افعل ما مضى في النية
لكسي تتمه بلا التباس
على عباده ولكن يسرا

والكلام في هذا الباب طويل ، وكم أفردته بالتأليف فاضل جليل ، وليس هذا
مقام التفصيل •

(ثم نعود الى النبهاني) ونقول له : ان كثيرا من المعتزلة قلدوا الامام أبا حنيفة
وهم - مع اعتقادهم الفاسد - لم يقل أحد بخروجهم عن مذهب أبي حنيفة ، وهكذا
في اتباع الشافعي وغيره من كان على عقيدة الاعتزال ، حتى أن عد السبكي في طبقاته
جماعة وأتهم الماوردي أيضا بذلك ، وكثير من الكرامية والمرجئة كانوا أتباع الامام
أبي حنيفة ، وكثير من المجسمة كانوا أتباع الشافعي ، وقد سبق ذكر شيء من ذلك
في المجالس التي انعقدت لمناظرة شيخ الاسلام ، كل هؤلاء على سوء اعتقادهم لم
يخرجوا عن مذهب من قلدوه ، فكيف ساغ للنبهاني أن يخرج عن الحنفية والسنية
مصنف (جلاء العينين) وذكر العلة في ذلك وقال بسبب اتصاره لابن تيمية والذب
عنه وتبريته عما نسب اليه •

(فلي نظر المنصفون) الى حال هذا الرجل وغلوه وجهله وضلاله واتباعه لهواه
وعجبه بنفسه ، فكيف يسوغ أن يولى الحكم على بشر ويكون بيده زمام بعض
الامور •

ما أنت بالحكم الترضى حكومته ولا الاصيل ولا ذي الرأي والجدل

اللهم انا نشكو اليك ما أصبح اليوم عليه العالم الاسلامي من البلاء المبين ،
وتوسيد الامور الى غير أهلها واستفتاء من غوى وضل عن سبيلك ، وحيث أن هذا
المبطل قد أفرد فصلا من كتابه في الكلام على (جلاء العينين) ومصنفه أخرنا تمام
البحث الى أن نتكلم على ذلك الفصل ان شاء الله تعالى •

(قال النبهاني) بعد كلام له على الجهة وتكفير القائل بها : ولما كانت كتبه يعني ابن تيمية قد طبعت ونشرت وكان فيها مسائل في العقائد مخالفة لعقائد أهل السنة والجماعة من الاشعرية والماتريدية كان من اللازم على أكابر العلماء في هذا العصر أن يتصدوا لبيان تلك المسائل التي وقع فيها مخالفة أهل السنة والتنبية عليها ليحذرها الناس خوفا عليهم من تشويش عقائدهم ، ولما كان من أهم تلك المسائل القول باعتقاد الجهة وهو كما ترى - وأن تستر بعض الحنابلة بنفيه عنه وعدم اعتقاده اياه فهو - مصرح باعتقاده ، ثم قال : فقد رأيت أن أجمع رسالة أنقل فيها أقوال أكابر علماء المذاهب في استحالة الجهة على الله ، قال : فجمعتها على هذا الوجه وسميتها (رفع الاشتباه في استحالة الجهة على الله) ثم ذكر الرسالة بحذافيرها وركبة عبارتها ، وزعم أن ما فيها اعتقاد جمهور علماء الامة وأوليائها وانباع المذاهب الاربعة وجسيع الصوفية ، وهم صفوة الصفوة من هذه الامة ، وخلاصة الخلاصة من أهل الملة ، وخاصة الخاصة من المنبعين للكتاب والسنة ، قال : فقد اتفق جمهورهم على اختلاف مذاهبهم ومتاربهم في جميع الاعصار والاقطار ، وفي كل القرى والبوادي والامصار : على أن الله تعالى منزه عن الجهات ، ونقل بزعمه ما يؤيد كلامه عن الغزالي والسيد مرتضى الزبيدي والفخر الرازي وشمس الدين محمد بن اللبان الشافعي والياضي وابن حجر المكي وأمثال هؤلاء ، ثم ختم رسالته بقصيدة زعم أنه قارض بها القصيدتين في الرد على أبيات السبكي ، هذا حاصل ما تكلم به في هذا الباب وأتى بما قدر عليه •

(أقول في الجواب عن كلام النبهاني هذا ومنه سبحانه التوفيق) ان مسألة العلو والاستواء والنزول من غوامض المسائل ، والنزاع فيها قديما وحديثا من المشهور بين العلماء ، وقد ألف فيها كتب مفصلة وفرغ أهل العلم منها نفايا واثباتا ، ومن المعلوم لدى كل منصف أن النبهاني ليس من رجال هذا الميدان ، ولا ممن يعد في زمرة ذوي العرفان ، ولا ممن له نصيب في فن من الفنون ، ولا ممن يلتفت اليه في باب الجرح والتعديل ولا تنظر اليه العيون ، بل هو الحري بقول القائل :

أقول لمحرز لما التقينا تنكب لا يقترك الزحام

وقد رأيت في طبقات ابن السبكي رسالة أخرى أشبه شيء بهذيان النبهاني ، نسبها ابن السبكي للشيخ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن اسمعيل الكلابي الحلبي ،

وحيث كانت في الرد على ابن تيمية أدرجها ابن السبكي في ترجمة مؤلفها بتسامها
ظنا منه أنها تروي غليله وتشفي عليه ، وما دراها أنها سراب يحسبه الظمان أعذب
شراب ، وهي نحو اثنين وثلاثين صحيفة قد اشتملت على كل سخيفة .

وبناء على تعرض هؤلاء الغلاة لهذه المسألة وجب التصدي لرد أفكهم ورفع
شركهم ببيان ما يعارضهم من النصوص ، وما يناقضهم من البناء المرصوص ، فنقول:
ان النصوص القرآنية والاحاديث النبوية الواردة في هذا الباب مما لا يحصيها أولو
الالباب ، منها قوله تعالى : (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)^(١)
وفي تفسير روح المعاني بعد أن ذكر كلام المؤولين أن الداعي الى التزام ذلك كله
أن ظاهر الآية يقتضي القول بالجهة ، والله تعالى منزه عنها ، لأنها محدثة بأحداث
العالم واخراجه من العدم الى الوجود ، ويلزم أيضا من كونه سبحانه وتعالى في جهة
مفاسد لانخفي ، وأنت تعلم أن مذهب السلف اثبات الفوقية لله تعالى كما نص عليه
الامام الطحاوي وغيره ، واستدلوا لذلك بنحو ألف دليل ، وقد روى الامام أحمد
في حديث الاوعال عن العباس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : (والعرش فوق ذلك والله تعالى فوق ذلك كله) وروى أبو داود عن
جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قوله صلى الله عليه وسلم للرجل
الذي استشفع بالله تعالى عليه (ويحك أتدري ما الله ؟ ان الله فوق عرشه وعرشه فوق
سمواته - وقال بأصابعه مثل القبة - وانه ليئط به أطيظ الرجل البديد بالراكب)
ومن حديث صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسعد يوم حكم في بني قريظة :
(لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات) وفي حديث آخر قال : (بينا أهل
الجنة في نعيمهم اذ سطع لهم نور فرفعوا اليه رؤسهم فاذا الجبار جل جلاله قد أشرف
عليهم من فوقهم ، وقال : يا أهل الجنة سلام عليكم ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه
وسلم قوله تعالى : (سلام قولا من رب رحيم) فينظر اليهم وينظرون اليه فلا يلتفتون
الى شيء من النعيم ماداموا ينظرون اليه) وأنشد عبد الله بن رواحة بين يدي رسول
الله صلى الله عليه وسلم آياته التي عرض بها عن القراءة لامرأته حين اتهمته
بجاريته :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مشوى الكافرينا

وَأَنْ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافَ وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَ
وَتَحْمَلُهُ مَلَائِكَةُ شِدَادٍ مَلَائِكَةُ الْإِلَهِ مُسَوِّمِينَ

فأقره عليه الصلاة والسلام على ما قال وضحك منه •

وكذا أنشد حسان بن ثابت رضي الله عنه قوله :

شهدت بإذن الله أن محمدا رسول الذي فوق السموات من عل
وأن أبا يحيى ويحيى كلاهما له عمل من ربه متقبل
وأن الذي عادى اليهود بن مريم رسول أتى من عند ذي العرش مرسل
وان أخا الاحقاف اذ قام فيهم يقوم بذات الله فيهم ويعدل

فقال النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أشهد •

وعن ابن عباس في قوله تعالى - حكاية عن ابلis - : (ثُمَّ لَا تَنبَهُمْ مِنْ بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)^(١) انه قال لم يستطع أن يقول
ومن فوقهم لانه قد علم أن الله تعالى من فوقهم ، والآيات والاحبار التي فيها التصريح
بما يدل على الفوقية - كقوله تعالى : (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)^(٢)
(وَإِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ)^(٣) وقوله : (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ)^(٤) و (تَعْوَجُ
الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ)^(٥) وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم
(وأنت الظاهر فليس فوقك شيء - كثيرة جدا ، وكذا كلام السلف في ذلك ، فمنه
ماروى شيخ الاسلام أبو اسماعيل الانصاري في كتابه (الفاروق) يسنده الى أبي
مطيع البلخي ، أنه سأل أبا حنيفة رضي الله عنه عن قال لا أعرف ربي سبحانه في السماء
أم في الارض فقال : قد كفر ، لأن الله تعالى يقول : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)
وعرشه فوق سبع سموات ، فقال : قلت فان قال انه على العرش ولكن لا أدري
العرش في السماء أم في الارض فقال رضي الله عنه : هو كافر ، لأنه أنكر آية في
السماء ومن أنكر آية في السماء فقد كفر ، وزاد غيره لأن الله تعالى في أعلى عليين
فهو يدعى من أعلى لا من أسفل ، انتهى •

(١) الاعراف : ١٧ (٢) الزمر : ١ (٣) فاطر : ١٠ (٤) النساء : ١٥٨ (٥) المعارج : ٤

(وايد القول بالفوقية أيضا) بأن الله لما خلق الخلق لم يخلقهم في ذاته المقدسة تعالى عن ذلك ، فانه الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، فتعين أنه خلقهم خارجا عن ذاته ، ولو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم لكان متصفا بضد ذلك ، لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده وضد الفوقية السفول وهو مذموم على الاطلاق ، والقول باننا لانسلم أنه قابل للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها مدفوع بأنه سبحانه لو لم يكن قابلا للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها ، فمتى سلم بأنه جل جلاله ذات قائم بنفسه غير مخالط للعالم وأنه موجود في الخارج ليس وجوده ذهنيا فقط بل وجوده خارج الاذهان قطعا : فقد علم كل العقلاء بالضرورة أن ما كان وجوده كذلك فهو اما داخل العالم واما خارج عنه ، وانكار ذلك انكار ماهو أجلى البديهيات ، فلا يستدل بدليل على ذلك الا كان العلم بالمبينة أظهر منه وأوضح ، واذا كان صفة الفوقية صفة كمال لانقص فيها ولا يوجب القول بها مخالفة كتاب ولا سنة ولا اجماع كان نفيها عين الباطل ، لاسيما والطباع مفسورة على قصد جهة العلو عند التضرع الى الله تعالى •

وذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس امام الحرمين وهو يتكلم في نفي صفة العلو ويقول كان الله تعالى ولا عرش وهو الآن على ما كان ، فقال الشيخ أبو جعفر : أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا فانه ما قال عارف قط يا الله الا وجد في قلبه ضرورة بطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة فكيف تدفع هذه الضرورة عن أنفسنا؟! قال : فلطم الامام على رأسه ونزل وأظنه قال وبكى - وقال : حيرني الهمداني •

وبعضهم تكلف الجواب عن هذا بأن هذا التوجه الى فوق انما هو لكون السماء قبلة الدعاء كما أن الكعبة قبلة الصلاة ، ثم هو أيضا منقوض بوضع الجهة على الارض مع أنه سبحانه ليس في جهة الارض ، ولا يخفى أن هذا باطل ، أما أولا فلأن كون السماء قبلة للدعاء لم يقله أحد من سلف الامة ولا أنزل الله تعالى به من سلطان ، والذي صح أن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة ، فمقد صرحوا بأنه يستحب للداعي أن يستقبل القبلة ، وقد استقبل النبي صلى الله عليه وسلم الكعبة في دعائه في مواطن كثيرة ، فمن قال أن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة فقد ابتدع في الدين وخالف جماعة المسلمين ، وأما ثانيا فلأن القبلة ما يستقبله الداعي بوجهه كما تستقبل الكعبة في الصلاة ، وما حاذاه الانسان برأسه أو يديه مثلا لا يسمى قبلة أصلا ، فلو كانت

السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها ، ولم يثبت ذلك في
شرع أصلاً •

وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض ، فإن واضح الجبهة انما قصده
الخضوع لمن فوقه بالذلل لا أن يميل اليه اذ هو تحته ، بل هذا لا يخطر في قلب ساجد ،
نعم سمع عن بشر المريسي أنه يقول : سبحان ربي الاسفل ، تعالى الله عما يقول
الجاحدون والظالمون علوا كبيرا •

وتأول بعضهم كل نص فيه نسبة الفوقية اليه تعالى بأن فوق فيه بمعنى خير
وأفضل ، كما يقال الامير فوق الوزير والدينار فوق الدرهم ، وأنت تعلم أن هذا
منا تنفر منه العقول السليمة وتشمئز منه القلوب الصحيحة ، فإن قول القائل ابتداء :
الله تعالى خير من عباده أو خير من عرشه من جنس قوله الثلج بارد ، والنار حارة ،
والشمس أضوء من السراج ، والسماء أعلى من سقف الدار ونحو ذلك ، وليس في
ذلك أيضا تمجيد ولا تعظيم لله تعالى ، بل هو من أرذل الكلام ، فكيف يليق حمل
الكلام المجيد عليه ، وهو الذي لو اجتمع الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون
بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، على أن في ذلك تنقيصا لله تعالى شأنه ، ففي
المثل المائر :

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف خير من العصا

نعم اذا كان المقام يقتضي ذلك بأن كان احتجاجا على مبطل كما في قول يوسف
الصديق عليه السلام : (أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)^(١)
وقوله تعالى : (آلهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ)^(٢) وقوله تعالى : (واللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)^(٣)
فهو أمر لا اعتراض عليه ، ولا توجه سهام الطعن اليه •

والفوقية بمعنى الفوقية في الفضل مما يثبتها السلف لله تعالى أيضا ، وهي
متحققة في ضمن الفوقية المطلقة ، وكذا يثبتون فوقية القهر والغلبة كما يثبتون فوقية
الذات ، ويؤمنون بجميع ذلك على الوجه اللائق بجلال ذاته وكمال صفاته سبحانه
وتعالى ، منزهين له سبحانه عما يلزم ذلك مما يستحيل عليه جل شأنه ، ولا يؤمنون
ببعض ويكفرون ببعض ، ولا يعدلون عن الالفاظ الشرعية تфия ولا اثباتا ، لئلا

(١) يوسف : ٢٩ (٢) النمل : ٥٩ (٣) طه : ٧٣

يشتوا معنى فاسداً أو ينفوا معنى صحيحاً ، فهم يشتون الفوقية كما أثبتها الله تعالى لنفسه .

(وأما لفظ الجهة) فقد يراد به ما هو موجود ، وقد يراد به ما هو معدوم ، ومن المعلوم أنه لا موجود الا الخالق والمخلوق ، فاذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقاً ، والله تعالى لا يحصره شيء ، ولا يحيط به شيء من المخلوقات تعالى عن ذلك . وان أريد بالجهة أمر عديم وهو مافوق العالم فليس هناك الا الله تعالى وحده ، فاذا قيل إنه تعالى في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح عندهم ، ومعنى ذلك أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات ، ونفاة لفظ الجهة الذين يريدون بذلك نفي العلو يذكرون من أدلتهم أن الجهات كلها مخلوقة ، وانه سبحانه كان قبل الجهات ، وانه من قال أنه تعالى في جهة يلزمه القول بقدم شيء من العالم ، وانه جل شأنه كان مستغنياً عن الجهة ثم صار فيها ، وهذه الالفاظ ونحوها تنزل على أنه عز اسمه ليس في شيء من المخلوقات سواء سمي جهة أم لم يسم وهو كلام حق ، ولكن الجهمة ليست أمراً وجودياً بل هي أمر اعتباري ولا محذور في ذلك .

(وبالجملة) يجب تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين ، وتفويض علم ماجاء به من التشابهات اليه عز شأنه ، والايان بها على الوجه الذي جاءت عليه ، والتأويل القريب الى الذهن الشائع نظيره في كلام العرب مما لا بأس به عندي ، على أن بعض الآيات مما أجمع على تأويلها السلف والخلف ، والله أعلم بمراده ، انتهى ما ذكر في روح المعاني ، وهو مما يزهق روح النبهاني ، ويرد التأويل الذي تعلق به الشيخ أحمد الحلبي الكلابي .

(وتفصيل الكلام في هذا المقام) يطلب من كتب شيخ الاسلام وتلامذته ، فانهم أحسن من صنف في هذه المسائل ، وفيها يجد المنشد ضالته ، وقد ألف الشيخ الحافظ أبو بكر الشهير بابن القيم كتابه (غزو الجيوش الاسلامية ، في الرد على الجهمية) وكتابه (الصواعق المرسله على الدهرية والمعطلة) في هذه المطالب العانية ، وبسط كلامه فيها كل البسط كما هو شأن كرمهم وجودهم في سخاء نفوسهم ببذل كنوز العلم طيب الله تعالى ثراهم .

وقد تكلم ابن القيم في غزو الجيوش الاسلامية على مسألة العلو ، فذكر أولاً ماورد من النصوص في الكتاب والسنة وبين معانيها على أتم وجه ، ثم ذكر فصلاً

فيما حفظ عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين والأئمة الاربعة وغيرهم ، ولا يمكن هنا استيفاء ماذكروه كله بل نقتصر على ذكر أقوال الأئمة الاربعة رحمهم الله تعالى :

(قول الامام أبي حنيفة قدس الله روحه) قال البيهقي : حدثنا أبو بكر ابن الحارث الفقيه ، قال حدثنا أبو حيان : أن أحمد بن جعفر بن نصر قال حدثنا يحيى بن يعلى ، سمعت نعيم بن حماد يقول : سمعت نوح ابن أبي مريم أبا عصمة يقول : كنا عند أبي حنيفة أول ماظهر اذ جاءته امرأة من ترمذ كانت تجالس جهما فدخلت الكوفة ، فقيل لها ان ههنا رجلا قد نظر في المعقول يقال له أبو حنيفة فأتيه ، فأته فقالت أذت الذي تعلم الناس المسائل وقد تركت دينك ؟ أين الهك الذي تعبه ؟ فسكت عنها ، ثم مكث سبعة أيام لايجيبها ، ثم خرج الينا وقد وضع كتابا : أن الله سبحانه وتعالى في السماء دون الارض ، فقال له رجل : أرأيت قول الله تعالى (وهو معكم) قال هو كما تكتب للرجل اني معك وأنت غائب ، قال البيهقي : لقد أصاب أبو حنيفة رحمه الله تعالى فيما نفى عن الله تعالى وتقدس من الكون في الارض وفيما ذكر من تأويل الآية ، وتبع مطلق السمع في قوله الله عز وجل (في السماء) *

قال شيخ الاسلام : وفي كتاب الفقه الاكبر المشهور عند أصحاب أبي حنيفة الذي رواه - بإسناد عن أبي مطيع البلخي - الحكم بن عبد الله ، قال سألت أبا حنيفة عن الفقه الاكبر قال : لا تكفر أحدا بذنب ، ولا تنفي أحدا من الايمان ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتعلم أن ماأصابتك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولا تبرأ من أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا توأل أحدا دون أحد ، وان ترد أمر عثمان وعلي رضي الله تعالى عنهما الى الله تعالى .

قال أبو حنيفة : الفقه الاكبر في الدين خير من الفقه في العلم ، ولأن يتفقه الرجل كيف يعبدربه عز وجل خير من أن يجمع العلم الكثير ، قال أبو مطيع قلت فأخبرني عن أفضل الفقه ، قال يتعلم الرجل الايمان والشرائع والسنن والحدود واختلاف الأئمة ، وذكر مسائل في الايمان ، ثم ذكر مسائل في القدر ، ثم قال : فقلت فما تقول فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيتبعه على ذلك ناس فيخرج عن الجماعة هل ترى ذلك ؟ قال : لا ، قلت ولم وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالامر

بالمعروف والنهي عن المنكر وهو فريضة واجبة؟ فقال : كذلك لكن ما يفسدون أكثر مما يصلحون من سفك الدماء واستحلال الحرام ، وذكر الكلام في قتال الخوارج والبغاة الى أن قال : قال أبو حنيفة ومن قال لأعرف ربي في السماء أم في الارض فقد كفر ، لأن الله تعالى يقول : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) ^(١) وعرشه فوق سبع سموات ، قلت فان قال انه على العرش ولكنه يقول لأدري العرش في السماء أم في الارض ، قال : هو كافر ، لأنه أنكر أن يكون في السماء لأنه تعالى في أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل .

وفي لفظ سألت أبا حنيفة عن يقول لأعرف ربي في السماء أو في الارض ، قال كفر لأن الله تعالى يقول : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) وعرشه فوق سبع سموات ، قال فانه يقول على العرش استوى ، ولكنه لا يدري العرش في الارض أو في السماء ، قال : اذا أنكر أنه في السماء فقد كفر . روى هذا عن شيخ الاسلام أبي اسمعيل الانصاري في كتابه (الفاروق) باسناده .

قال شيخ الاسلام أبو العباس رحمه الله تعالى : ففي هذا الكلام المشهور عن أبي حنيفة رحمه الله عند أصحابه أنه كفر الواقف الذي يقول لأعرف ربي في السماء أو في الارض فكيف يكون الجاحد النافي الذي يقول ليس في السماء ولا في الارض ، واحتج على كفره بقوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) قال وعرشه فوق سبع سموات ، وبين بهذا أن قوله الرحمن على العرش استوى بين في أن الله عز وجل فوق السموات فوق العرش ، وأن الاستواء على العرش دل على أن الله فوق العرش ، ثم أردف ذلك بكفر من توقف في كون العرش في السماء أو في الارض قال لأنه أنكر أن يكون في السماء وأن الله في أعلى عليين ، وأن الله يدعى من أعلى لا من أسفل ، واحتج بأن الله في أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل ، وكل من هاتين الحجتين فطرية عقلية ، فان القلوب مفضورة على الاقرار بأن الله عز وجل في العلو ، وعلى أنه يدعى من أعلى لا من أسفل .

وكذلك أصحابه من بعده كأبي يوسف وهشام بن عبد الله الرازي ، كما روى ابن أبي حاتم وشيخ الاسلام بأسانيدهما أن هشام بن عبيد الله الرازي صاحب محمد

(١) طه : ٥

بن الحسن قاضي الري حبس رجلا في التجهم فتاب ، فجيء به الى هشام ليمتحنه فقال الحمد لله على التوبة ، فامتحنه هشام فقال : (إشهد أن الله على عرشه بائن من خلقه ، فقال أشهد أن الله على عرشه ولا أدري ما بائن من خلقه ، قال : ردوه الى الحبس فانه لم يتب ، وسيأتي قول الطحاوي عند أقوال أهل الحديث •

(قول امام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى) ذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب (التمهيد) بسنده ، قال : قال مالك بن أنس الله في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو منه مكان ، قال : وقيل لمالك الرحمن على العرش استوى كيف استوى ؟ فقال رحمه الله تعالى : استواؤه معقول ، وكيفيته مجهولة ، وسؤالك عن هذا بدعة ، وأراك رجل سوء •

(وكذلك أئمة أصحاب مالك من بعده) قال يحيى بن ابراهيم الطليطلي في كتاب (سير الفقهاء) - وهو كتاب جليل غزير العلم - بسنده كانوا يكرهون قول الرجل يا خيبة الدهر ، وكانوا يقولون الله هو الدهر ، وكانوا يكرهون قول الرجل رغم أنفي لله وانما يرغم أنف الكافر ، وكانوا يكرهون قول الرجل والله حيث كان أو ان الله بكل مكان ، قال أصبغ وهو مستو على عرشه وبكل مكان علمه واحاطته ، وأصبغ من أجل أصحاب مالك وأفقهم •

(ذكر قول أبي عمر الظمُّكي) قال في كتابه في الاصول : أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته ، وقال في هذا الكتاب أيضا : أجمع أهل السنة على أن الله استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز ، ثم ساق بسنده عن مالك قوله الله في السماء وعلمه في كل مكان ، ثم قال في هذا الكتاب : وأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى : (وهو مَعَكُمْ أَيَّنًا كُنْتُمْ)^(١) ونحو ذلك من القرآن بأن ذلك علمه ، وأن الله فوق السموات بذاته مستقر على عرشه كيف شاء ، وهذه القصة في كتابه •

(قول الامام الحافظ أبي عمر بن عبد البر) امام السنة في زمانه رحمه الله تعالى ، قال في كتاب (التمهيد) في شرح الحديث الثامن لابن شهاب عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له ؟ من

(١) الحديد : ٤

يسألني فأعطيه؟ من يستغفري فأغفر له) هذا حديث ثابت من جهة النقل صحيح الاسناد ، لا يختلف أهل الحديث في صحته ، وفيه دليل على أن الله عز وجل في السماء على العرش من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة ، وهو حجتهم على المعتزلة والجهمية في قولهم إن الله في كل مكان وليس على العرش ، والدليل على صحة ما قال أهل الحق في ذلك قوله : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) وقوله تعالى (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)^(١) وقوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ)^(٢) وقوله تعالى : (إِذَا لَابَتَّغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا)^(٣) وقوله تبارك اسمه (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)^(٤) وقوله تعالى : (فَأَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكَاةً وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعْقًا)^(٥) وقوله تعالى : (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضِ)^(٦) وقوله تعالى : (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) وهذا من الملو ، وكذلك قوله تعالى : (الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)^(٧) و(الكبير المتعال)^(٨) و(رفيع الدرجات ذو العرش)^(٩) و(يخافون ربهم من فوقهم)^(١٠) والجهمي يقول انه أسفل ، وقوله تعالى : (يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلی)^(١١) وقوله تعالى : (بل رفعه الله إليه) وقوله تعالى : (والذين عند ربك يُسبحون له)^(١٢) وقال تعالى : (يُدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه)^(١٣) وقال تعالى : (ليس له دافع من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه)^(١٤) والعروج هو الصعود . وأما قوله (أأمنتم من في السماء) فمعناه من على السماء ، يعني على العرش ، وقد تكون في بمعنى على ، ألا ترى الى قوله : (فسيحوا في

(١) السجدة : ٤ (٢) فصلت : ١١ (٣) الاسراء : ٤٢ (٤) فاطر : ١٠ (٥) الاعراف : ١٤٣ (٦) الملك : ١٦
(٧) البقرة : ٢٥٥ (٨) الرعد : ٩ (٩) طه : ١٥ (١٠) النحل : ٥٠ (١١) آل عمران : ٥٥ (١٢) فصلت : ٢٨
(١٣) السجدة : ٥ (١٤) المعارج : ٢ - ٤

الارض) ^(١) أي على الارض وكذلك قوله تعالى : (ولاصليبتكم في جذوع النخل) ^(٢) وهذا كله يعضده قوله تعالى : (تعرج الملائكة والروح إليه) وما كان مثله مما تلونا من الآيات في هذا ، وهذه الآيات كلها واضحات في ابطال قول المعتزلة .

وأما ادعائهم المجاز في الاستواء وقواهم في تأويل (استوى) استولى فلا معنى له لانه غير ظاهر في اللغة ، ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة ، والله تعالى لا يغالبه أحد ، وهو الواحد الصمد ، ومن حق الكلام أن يحصل على حقيقته ، حتى تتفق الامة أنه أريد به المجاز ، اذ لا سبيل الى اتباع ما أنزل الينا من ربنا تعالى الا على ذلك ، وانما يوجه كلام الله على الاشهر والاطهر من وجوهه ما لم يسع من ذلك ما يجب التسليم له ، ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مبتدع مائت شيء من العبادات ، وجل الله أن يخاطب الا بما تفهمه العرب من معبود مخاطباتها ما يصح معناه عند السامعين .

والاستواء معلوم وفي اللغة منهوم ، وهم العلو والارتفاع على الشيء ، والاستقرار والتمكن فيه ، قال أبو عبيدة في قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) قال علا ، قال : وتقول العرب استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت . وقال غيره : استوى أي استقر ، واحتج بقوله تعالى : (ولما بلغ أشده واستوى) ^(٣) انتهى شبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد ، قال ابن عبد البر رحمه الله تعالى : الاستواء الاستقرار في العلو ، وبهذا خاطبنا الله تعالى في كتابه ، فقال : (لستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمته ربكم إذا استويتم عليه) ^(٤) وقال تعالى : (واستوت على الجودي) ^(٥) وقال تعالى : (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك) ^(٦)

قال الشاعر :

فاوردتهم ماء بفيفاء قفرة وقد حلق النجم اليماني فاستوى

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد استولى لأن النجم لا يستولى ، وقد ذكر النضر ابن شميل - وكان ثقة مأمونا جليلا في علم الديانة واللغة - قال : حدثني

(١) التوبة : ٢ (٢) طه : ٧١ (٣) القصص : ١٤ (٤) الزخرف : ١٣ (٥) هود : ٤٤ (٦) المؤمنون : ٢٨

الخليل - وحسبك بالخليل - قال أتيت أبا ربيعة الاعرابي - وكان من أعلم ما رأيت -
 فإذا هو على سطح ، فسلمنا نرد علينا السلام وقال استوتوا فبقينا متحيرين ولم
 ندر ما قال ، فقال أعرابي الى جانبه أنه أمركم أن ترتفعوا ، فقال الخليل هو من قول
 الله عز وجل : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ) فصعدنا اليه ، قال
 وأما من نزع منهم . بحديث يرويه عبد الله بن داود الواسطي عن ابراهيم بن عبد
 الصمد عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهم في قوله
 تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) قال استولى على جميع برئته فلا يخلو منه
 مكان : فالجواب : أن هذا حديث منكسر على ابن عباس رضي الله عنهما ، ونقلته
 مجهولون وضعفاء ، فأما عبد الله بن داود الواسطي وعبد الوهاب بن مجاهد
 فضعيفان ، و ابراهيم بن عبد الصمد مجهول لا يعرف وهم لا يقبلون أخبار
 الآحاد العدول فكيف يسوغ لهم الاحتجاج بشئ هذا الحديث لو عقلوا وأنصفوا ،
 أما سمعوا الله سبحانه يقول : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ
 الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى آلِهَةِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا)^(١)
 وقال الشاعر :

فسبحان من لا يتصدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد
 ملك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنوا الوجوه وتسجد
 وهذا الشعر لأمية بن أبي الصلت وفيه يقول في وصف الملائكة :
 وساجدهم لا يرفع الدهر رأسه يعظم ربا فوقه ويمجد

قال فان احتجوا بقوله تعالى : (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله)^(٢)
 وبقوله تعالى : (وهو الله في السموات وفي الأرض)^(٣) وبقوله تعالى : (ما
 يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم)^(٤)
 وزعوا أن الله سبحانه وتعالى في كل مكان بنفسه وذاته - تبارك وتعالى جده -
 قيل : لاختلاف بيننا وبين سائر الأمة انه ليس في الارض دون السماء بذاته ، فوجب
 حمل هذه الآيات على المنى الصحيح المجمع عليه ، وذلك أنه في السماء اله معبود

(١) غافر : ٢٦ ، ٢٧ (٢) الزخرف : ٨٤ (٣) الانعام : ٣ (٤) المجادلة : ٧

لأهل السماء ، وفي الأرض اله معبود لأهل الأرض ، وكذا قال أهل العلم بالتفسير ، وظاهر هذا التنزيل يشهد أنه على العرش ، فالاختلاف في ذلك ساقط ، وأسعد الناس به من ساعده الظاهر . وأما قوله في الآية الأخرى (وفي الأرض اله) فالاجماع والاتفاق قد بين أن المراد بأنه معبود أهل الأرض وأهل السماء ، فتدبر هذا فإنه قاطع .

ومن الحجة أيضا في أنه عز وجل على العرش فوق السموات السبع أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم اذا كرههم أمر ونزلت بهم شدة رفعوا وجوههم الى السماء ، ونصبوا أيديهم رافعين مشيرين بها الى السماء يستغيثون الله ربهم تبارك وتعالى ، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاجوا فيه الى أكثر من حكايته ، لانه اضطراري لم يوقفهم عليه أحد ، ولا أنكره عليهم مسلم .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للامة التي أراد مولاها عتقها ان كانت مؤمنة فاختبرها النبي صلى الله عليه وسلم بأن قال لها : (أين الله ، فأشارت الى السماء ، ثم قال لها : من أنا ، قالت : أنت رسول الله ، قال : اعتقها فانها مؤمنة) فاكتمى رسول الله صلى الله عليه وسلم منها برفع رأسها الى السماء ، واستغنى بذلك عما سواه .

قال : وأما احتجاجهم بقوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابِعُهُم) فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية ، لان علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل في القرآن قالوا في تأويل هذه الآية : هو على العرش وعلمه في كل مكان ، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله ، وذكر سنيد عن مقاتل بن حيان عن الضحاک بن مزاحم في قوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابِعُهُم) قال هو على عرشه وعلمه معهم أينما كانوا ، قال : وبلغني عن سفیان الثوري مثله ، قال سنيد بسنده الى ابن مسعود ، قال : الله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، ثم ساق من طريق يزيد بن هارون عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ما بين السماء الى الأرض مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل سماء الى الأخرى خمسمائة عام ، وما بين السماء السابعة الى الكرسي مسيرة خمسمائة عام ، وما بين الكرسي الى الماء مسيرة خمسمائة عام ، والعرش على الماء ، والله على العرش ويعلم أعمالكم ، وذكر هذا الكلام أو قريبا منه في كتاب الاستذكار .

(ذكر قول الامام مالك الصغير) أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني ، قال في خطبته برسائته المشهورة : باب ماتنطق به الالسنة وتعتقده الافئدة من واجب أمور الديانات : من ذلك الايمان بالقلب والنطق باللسان : أن الله اله واحد ، لا اله غيره ، ولا شبيه له ، ولا نظير له ، ولا ولد له ، ولا والد له ، ولا صاحبه له ، ولا شريك له ، ليس لاوليته ابتداء ، ولا لآخريته انقضاء ، ولا يبلغ كنه صفته الواصفون ، ولا يحيط بأمره المتفكرون ، يعتبر المتفكرون بآياته ولا يتفكرون في ماهية ذاته : (ولا يُحيطونَ بشيءٍ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم) وهو العليم الخبير ، المدبر القدير ، السميع البصير ، العلي الكبير ، وانه فوق عرشه المجيد بذاته ، وهو بكل مكان بعلمه .
وكذلك ذكر مثل هذا في نوادره وغيرها من كتبه .

وذكر في كتابه المفرد في السنة تقرير العلو واستواء الرب تعالى على عرشه بذاته أتم تقرير ، فقل : مااجتمعت عليه الامة من أمور الديانة من السنن التي خلفها بدعة وضلالة أن الله سبحانه وتعالى له الاسماء الحسنى ، والصفات العلى ، لم يزل بجميع صفاته ، وهو سبحانه موصوف بأن له علما وقدرة ومشية ، أحاط علما بجميع ماابدا قبل كونه ، وفطر الاثياء بارادته وقوله : (إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وأن كلامه صفة من صفاته ليس بمخلوق فيسيد ، ولا صفة لمخلوق فينفد ، وأن الله عز وجل كلم موسى عليه الصلاة والسلام بذاته ، وأسمعه كلامه لا كلاما قام في غيره ، وأنه يسمع ويرى ، ويقبض ويبسط ، وأن يديه مبسوطتان ، والارض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، وأن يديه غير نعمته في ذلك ، وفي قوله سبحانه : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) وأنه يجيء يوم القيامة بعد أن لم يكن جائيا والملك صفا صفا لعرض الامم وحسابها وعقابها وثوابها ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وأنه يرضى ، ويجب التواين ، ويسخط على من كفر به ، ويفضب ولا يقوم شيء لفضبه ، وأنه فوق سماواته على عرشه دون أرضه ، وأنه في كل مكان بعلمه ، وأن لله سبحانه كرسيه ، كماقال عز وجل : (وسع كرسيه السموات والأرض) كما جاءت به الاحاديث : أن الله سبحانه يضع كرسيه يوم

القيامة لفصل القضاء ، وقال مجاهد : كانوا يقولون ما السموات والارض في الكرسي الا كحلقة ملقاة في فلاة من الارض ، وأن الله سبحانه يراه أولياؤه في المعاد بأبصارهم لا يضامون في رؤيته ، كما قال عز وجل في كتابه وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وجوه يومئذٍ ناضرةً الى ربها ناظرةً) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل : (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) هو النظر الى وجهه الكريم

وأنه يكلم عباده يوم القيامة ليس بينه وبينهم واسطة ولا ترجمان ، وأن الجنة والنار داران قد خلقتا أعدت الجنة للمؤمنين المتقين والنار للكافرين الجاحدين ولا يفنيان ، والايان بالقدر خيره وشره ، وكل ذلك قد قدره ربنا سبحانه وتعالى وأحصاه وعلمه ، وأن مقادير الامور بيده ومصدرها عن قضائه ، تفضل على من أطاع فوفقه وحبب الايمان اليه وزينه في قلبه فيسره ، وشرح له صدره ونور قلبه فهده ، ومن يهدي الله فما له من مضل ، وخذل من عصاه وكفر به فأسلمه ويسره فحجبه وأضله ، ومن يضل الله فلن تجد له وليا مرشدا ، وكل ينتهي الى سابق علمه لا تخصيص لأحدعنه ، وأن الايمان قول باللسان واخلاص بالقلب وعمل بالجوارح ، يزيد ذلك بالطاعة وينقص بالمعصية تقصا عن حقائق الكمال لا محبط للايمان ، ولا قول الا بعمل ، ولا عمل ولا قول الا بنية ، ولا قول ولا عمل ولا نية الا بموافقة السنة ، وأنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب وان كان كبيرا ، ولا يحبط الايمان غير الشرك بالله تعالى ،

كما قال سبحانه : (لئن أشركت ليحبطن عملك) وقال تعالى : (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم كما قال تعالى : (وان عليكم لحافظين . كراما كاتبين) وقال تعالى : (ما يلفظ

(من قول الا لديه رقيب عتيد) وأن ملك الموت يقبض الارواح كلها باذن الله نعالى متى شاء ، كما قال تعالى : (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم)

أن الخلق ميتون بأجلهم ، فأرواح أهل السعادة باقية منعمة الى يوم القيامة ، وارواح أهل الشقاء في سجين معذبة الى يوم القيامة ، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، وأن عذاب القبر حق ، وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم

ويضغطون ويسألون ، ويثبت الله منطق من أحب تبيته ، وأنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، كما بدأهم يهودون ، حفاة عراة غرلا ، وأن الاجساد التي أطاعت أو عصت هي التي تبعث يوم القيامة لتجازى ، والجلود التي كانت في الدنيا والانسنة والايدي والارجل هي التي تشهد عليهم يوم القيامة على من تشهد عليه منهم ، وينصب الموازين لوزن أعمال العباد ، فأفلق من ثقلت موازينه ، وخاب وخسر من خفت موازينه ، ويؤتون صحائفهم ، فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، ومن أوتي كتابه بشماله فسوف يدعو تبورا ويصلى سعيرا ، وأن الصراط جسر مورود يجوزه العباد بقدر أعمالهم ، فجاجون متفارتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم ، وقوم أبقتهم أعمالهم فيها يتساقطون ، وأنه يخرج من النار من في قلبه شيء من الايمان ، وأن الشفاعة لاهل الكبائر من المؤمنين ، ويخرج بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من النار من أمته بعد أن صاروا ذنبا ، يفرحون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ، والايمان بحوض رسل الله صلى الله عليه وسلم ترده أمته لا يظأ من شرب منه - ويذاد عنه من غير وبدل ، والايمان بما جاء من خبر الاسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم الى السموات على ما صحت به الروايات ، وأنه صلى الله عليه وسلم رأى من آيات ربه الكبرى ، وبما ثبت من خروج الدجال ، ونزول عيسى عليه السلام حكما عدلا وقتله الدجال ، وبالآيات التي بين يدي الساعة من طلوع الشمس من المغرب وخروج الدابة وغير ذلك مما صحت به الروايات ، ونصدق بما جاءنا عن الله في كتابه وثبت عن رسوله صلى الله عليه وسلم وأخباره ، فوجب العمل بمحكمه ، ونؤمن بمشكله ومتشابهه ، ونكل ما غاب عنا من حقيقة تفسيره الى الله تعالى ، والله يعلم تأويل المتشابه من كتابه ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، وبكل ما غاب عنا من حقيقة تفسيره ، كل من عند ربنا . وقال بعض الناس : الراسخون في العلم يعلمون مشكله ، ولكن الاول قول أهل المدينة وعليه يدل الكتاب ، وأن أفضل القرون قرن الصحابة رضي الله عنهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن أفضل الأمة بعد نبيها أبو بكر ، ثم عمر ، ثم علي . وقيل ثم عثمان وعلي ، ويكف عن التفضيل بينهما ، روى ذلك عن مالك ، وقال : ما أركت أحدا أفتدي به يفضل أحدهما على صاحبه ، فرأى الكف عنهما ، وروى عنه القول الاول وهو قول أهل الحديث ، ثم بقية العشرة ، ثم أهل بدر من المهاجرين ومن الانصار ومن جميع

الصحابة على قدر الهجرة والسابقة والفضيلة ، وكل من صحبه ولو ساعة أو رآه ولو مرة فهو بذلك افضل من التابعين ، والكف عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بخير ما يدرون به ، وهم أحق أن نشر ذكرهم محسنهم ، ونلتبس لهم أفضل مخارجهم ، ونظن بهم أحسن المداهب ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تؤذوني في أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق احدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) وقال صلى الله عليه وسلم : (اذا ذكر أصحابي فأمسكوا) قال أهل العلم لا يدرون الا بأحسن ذكر ، والسع والطاعة لأئمة المسلمين ، وكل من ولي أمر المسلمين عن رضى أو عن غلبه أو شدة ، وطاعته من بر أو فاجر فلا يخرج عليه جار أو عدل ، ونغزو معه العدو ، ونحج معه البيت ، ودفع الصدقات اليهم مجزية اذا طلبوها ، ونصلي خلفهم الجمعة والعيدين - قاله غير واحد من العلماء - وقال مالك : لانصلي خلف المتدع منهم الا أن نطافه فنصلي خلفه - واختلف في الاعادة - ولا بأس بقتال من دافعك من الخوارج واللصوص من أهل المسلمين وأهل الذمة عن نفسك ومالك ، والتسليم للمسلمين لانعارض برأى ولا تدافع بقياس ، وما تأوله منها السلف الصالح تأولناه ، وما عملوا به عملناه ، وما تركوه تركناه ، ويسعنا أن نمسك عما أمسكوا عنه ، وتتبعهم فيما بينوا ، ونقتدي بهم فيما استتبطوا ورأوه في الحوادث ، ولا نخرج من جماعاتهم فيما اختلفوا فيه وفي تأويله ، وكل ما قدمنا ذكره فهو قول أهل السنة وأئمة الناس في الفقه والحديث على ما بيناه ، وكله قول مالك ، فمنه منصوص من قوله ومنه من مذهبه ، قال مالك : قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاية الامور سننا الاخذ بها تصديق لكتاب الله تعالى ، واستكمال لطاعته ، وقوة على دين الله تعالى ، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا النظر فيما خالفها ، من اهتدى بها هدى ، ومن استنصر بها نصر ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ماتولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً . قال مالك : أعجبنى عزم عمر رضي الله عنه في ذلك ، ما أصلبه في السنة وأقومه بها !؟ •

(قول الامام أبي بكر محمد بن وهب المالكي شارح رسالة ابن أبي زيد ومن المشهورين بالفقه والسنة رحمه الله تعالى) قال في شرحه للرسالة ومعنى فوق وعلى واحد بين جميع العرب في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، تصديق ذلك قوله تعالى : (هم استوى على العرش الرحمن) وقال تعالى : (الرحمن على العرش استوى) وقال تعالى في وصف الملائكة : (يخافون ربهم من فوقهم

ويفعلون ما يؤمرون) وقال تعالى : (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ونحو ذلك كثير : وقال الرسول صلى الله عليه وسلم للاعجمية : (أين الله فأشارت الى السماء) ووصف النبي صلى الله عليه وسلم أنه عرج به من الارض الى السماء ثم من سماء الى سماء الى سدرة المنتهى ، ثم الى ما فوقها ، حتى لقد قال : سمعت صريف الاقلام ، ولما فرضت الصلاة جعل كلما هبط من مكانه تلقاه موسى عليه السلام في بعض السماوات وأمره بسؤال التخفيف عن أمته ، فرجع ضاعدا مرتفعا الى الله سبحانه وتعالى يسأله حتى انتهت الى خمس صلوات ، وسنذكره ان شاء الله تعالى عن قريب .

(قول الامام أبي القاسم عبد الله بن خلف المقرئ الاندلسي رحمه الله تعالى) قال في الجزء الاول من كتاب (الاهتداء لأهل الحق والافتداء) من تصنيفه من شرح الملخص للشيخ أبي الحسن القاسبي رحمه الله تعالى عن مالك بن شهاب عن أبي عبد الله الاغر وعن أبي سلمة ابن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ينزل ربنا كل ليلة الى السماء الدنيا - حين يبقى ثلث الليل الآخر - فيقول : من يدعوني فاستجب له ، ومن يسألني فأعطيه ، ومن يستغفر فأغفر له ؟)

في هذا الحديث دليل على أنه تعالى في السماء على العرش فوق سبع سموات من غير مياسة ولا تكييف كما قال أهل العلم ، ودليل قولهم أيضا من القرآن قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) وقوله تعالى : (ثم استوي على العرش مالك من دونه من ولي ولا شفيع) وقوله تعالى : (اذا لا بتغوا الى ذي العرش بيلا) وقوله : (يدبر الأمر من السماء الى الأرض) وقوله تعالى : (تعرج الملائكة والروح اليه) . وقوله لعيسى عليه السلام : (اني متوفيك ورافعك الي) وقوله : (ليس له دافع من الله ذي المعارج) . (تعرج الملائكة والروح اليه) والعروج هو الصعود ، قال مالك ابن أنس رحمه الله تعالى : الله عز وجل في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو من علمه مكان ، يريد والله أعلم بقوله : (في السماء) على السماء ، كما قال تعالى : (ولأصلبكم في جذوع النخل) وكما قال تعالى : (أأمنتم من في السماء ان يخسف بكم الارض) أي من على السماء يعني على العرش ، وكما قال تعالى :

(فسيحوا في الأرض) أي على الأرض ، وقيل لملك (الرحمن على العرش استوى)
 كيف استوى ؟ قال مالك رحمه الله لقائله : استواؤه معقول ، وكيفيته مجهولة ،
 وسؤالك عن هذا بدعة ، وأراك رجل سوء •

قال أبو حنيفة في قوله تعالى (الرحمنُ على العرشِ استوي) أي علا • قال :

ويقول العرب استويت فوق الدابة أو فوق البيت ، وكل ما قدمت دليل واضح
 في ابطال قول من قال بالمجاز في الاستواء ، وان استوى بمعنى استولى ، لأن
 الاستيلاء في اللغة المغالبة وأنه لا يغالبه أحد ، وأن من حق الكلام أن يحمل على
 حقيقته حتى تنفق الامة أنه أريد به المجاز ، اذ لا سبيل الى اتباع ما أنزل الينا من ربنا
 سبحانه وتعالى الا على ذلك ، وانما يوجه كلام الله تعالى الى الأشهر والاظهر من
 وجوهه ما لم يمنع ذلك ما يوجب له التسليم ، ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع
 ما ثبت شيء من العبادات ، وجل الله تعالى أن يخاطب الا بما تفهمه العرب من معهود
 مخاطبتها مما يصح معناه عند السامعين ، والاستواء معلوم في اللغة وهو العلو
 والارتفاع والتمكن •

(ومن الحجّة أيضا) في أن الله سبحانه وتعالى على العرش فوق السموات
 السبع : أن الموحدين أجمعين اذا كرمهم أمر رفعوا وجوههم الى السماء يستغيثون
 الله ربهم ، وقوله صلى الله عليه وسلم للامة التي أراد مولاها أن يعتقها : (أين الله
 فأشارت الى السماء ، ثم قال لها : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ، قال أعنتها فانها
 مؤمنة) فاكتفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم منها برفع رأسها الى السماء دل
 على ما قدمناه أنه على العرش ، والعرش فوق السموات السبع ، ودليل قولنا أيضا
 قول أمية ابن أبي الصلت في وصف الملائكة عليهم السلام :

وساجدهم لا يرفع الدهر رأسه يعظم ربنا فوقه ويمجد

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

ملك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وقوله تعالى : (وقال فرعونُ يا هامانُ ابنِ لي صرْحاً لعلِّي أَبْلُغَ الأسبابَ

أسبابِ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ الى اللَّهِ مُوسَى) فدل على أن موسى عليه السلام كان

يقول الهي في السماء وفرعون يظنه كاذبا •

(فان احتج) أحد علينا فيما قدمناه وقال لو كان كذلك لاشبهه المخلوقات لأن ما أحاطت به الامكنة واحتوته فهو مخلوق : فشيء لا يلزم ولا معنى له ، لأنه تعالى ليس كشيء من خلقه ، ولا يقاس بشيء من برئته ، ولا يدرك بقياس ، ولا يقاس بالناس ، كان قبل الامكنة ، ثم يكون بعدها ، لا اله الا هو خالق كل شيء لاشريك له ، وقد اتفق المسلمون وكل ذي لب أنه لا يعقل كائن الا في مكان ما وما ليس في مكان فهو عدم ، وقد صح في العقول وثبت بالدلائل أنه كان في الازل لا في مكان وليس بمعدوم فكيف يقاس على شيء من خلقه أو يجري بينهم وبينه تمثيل أو تشبيه ، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا •

(فان قال قائل) اذا وصفنا ربنا تعالى أنه كان في الازل لا في مكان ثم خلق الاماكن فصار في مكان ففي ذلك اقرار منافيه بالتغيير والاتقال اذا زالت عن صفته في الازل وصار في مكان دون مكان •

(قيل له) وكذلك زعمت أنت أنه كان لا في مكان ثم صار في كل مكان فنقل صفته من الكون لا في مكان الى صفة هي الكون في كل مكان فقد تغير عندك معبودك وانتقل من لامكان الى كل مكان •

(فان قال) أنه كان في الازل في كل مكان وكما هو الآن : فقد وجب الأماكن والاشياء معه في أزليته وهذا فاسد •

(فان قال) فهل يجوز عندك أن ينتقل من مكان في الازل الى مكان ؟

(قيل له) أما الانتقال وتغير الحال فلا سبيل الى اطلاق ذلك عليه ، لأن كونه في الازل لا يوجب مكانا ، وكذلك نقلته توجب مكانا وليس في ذلك كالخلق ، لأن كونه يوجب مكانا من الخلق ونقلته لا توجب مكانا ويصير منتقلا من مكان الى مكان ، والله تعالى ليس كذلك ، ولكن نقول استوى من لامكان الى مكان ، ولا نقول انتقل وان كان المعنى في ذلك واحدا ، كما نقول له عرش ولا نقول له سرير ، ونقول هو الحكيم ولا نقول هو العاقل ، ونقول خليل ابراهيم ولا نقول صديق ابراهيم عليه السلام وان كان المعنى في ذلك واحدا ، لأننا لانسميه ولا نصفه ولا نطلق عليه الا ماسمى به نفسه على ما تقدم ، ولا ندفع ما وصف به نفسه لأنه دفع للقرآن ،

وقد قال الله تعالى: (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) وليس مجيئه حركة ولا زوالا ولا ابتداء ، لأن ذلك انما يكون اذا كان الجائي جسما أو جوهرًا ، فلما ثبت أنه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض لم يجب أن يكون مجيئه حركة ولا انتقالا ، ولو اعتبرت ذلك بقولهم جاءت فلانا قيامته وجاءه الموت وجاءه المرض وشبه ذلك مما هو وجود نازل به لا مجيء لبان ذلك وبالله العصمة والتوفيق .

(فان قال انه لا يكون) مستويا على مكان الا مقرونا بالكيف .

(قيل له) قد يكون الاستواء واجبا والتكليف مرتفعا ، وليس رفع التكليف يوجب رفع الاستواء ، ولو لزم هذا لزم التكليف في الازل ولا يكون كائنا في الامكان ولا مقرونا بالتكليف .

(فان قال) انه كان ولا مكان وهو غير مقرون بالتكليف ، وقد عقلنا وأدركنا بحواسنا أن لنا ارواحا في أبداننا ولا نعلم كيفية ذلك وليس جهلنا بكيفية الارواح يوجب أن ليس لنا ارواح ^(١) وكذلك ليس جهلنا بكيفيته على عرشه يوجب أن ليس على عرشه ، وقد روى عن أبي رزين العقيلي قال قلت يارسول الله : (أين كن ربنا تبارك وتعالى قبل أن يخلق السماء والارض ؟ قال : كان في عماء ، ما فوقه هواء وما تحته هواء) قال أبو القاسم : العماء ممدود وهو السحاب ، والعمى مقصور وهو الظلمة ، وقد روى الحديث بالمد والقصر ، فمن رواه بالمد فهو عنده كان في عماء سحاب ماتحته هواء وما فوقه هواء والهواء راجعة الى العماء ، ومن رواه بالقصر فمعناه عنده كان في عمى عن خلقه لأنه من عمى عن الشيء فقد أظلم عنه ، وعن مجاهد قال : ان بين العرش وبين الملائكة لسبعين حجابا من نور وحجابا من ظلمة ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ما بين السماء الى الارض مسيرة خمسمائة عام ، وما بين السابعة الى الكرسي مسيرة خمسمائة عام ، والعرش على الماء ، والله تعالى على العرش ، ويعلم أعمالكم . وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أيضا : انه فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، قال أبو القاسم : يريد فوق العرش ، لأن العرش آخر المخلوقات ليس فوقه مخلوق ، والله تعالى أعلى المخلوقات دون تكليف ولا ماسة ، ولا أعلم في هذا الباب حديثا مرفوعا الا حديث عبد الله بن عميرة عن الاحنف عن العباس ابن عبد المطلب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه

(١) كلما في الاصل لم يذكر مبدا جواب فلان لال .. الخ فليحذر .

وسلم نظر الى سحابة فقال : (ماتسمون هذه ؟ قالوا السحاب ، قال : والمزن ؟ قالوا والمزن ، قال : والعنان ؟ قالوا : والعنان ، قال : كم ترون بينكم وبين السماء ؟ قالوا لاندري ، قال : بينكم وبينها اما واحد أو اثنان أو ثلاث وسبعون سنة ، والسماء فوقها كذلك بينهما مثل ذلك حتى عد سبع سموات ، ثم فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين سماء الى سماء ، ثم فوق ذلك نمانية أو عال بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء الى سماء ، ثم الله فوق ذلك) هذا حديث صحيح أخرجه أبو داود .

(قول الامام أبي عبد الله محمد ابن أبي نعيم المالكي المشهور رحمه الله تعالى) قال في كتابه الذي صنفه في أصول السنة : (باب الايمان بالعرش) ومن قول أهل السنة أن الله عز وجل خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق ، ثم استوى عليه كيف شاء كما أخبر عن نفسه في قوله عز وجل : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) وفي قوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) وذكر حديث أبي رزين العقيلي (قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والارض ، قال كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء ، ثم خلق عرشه على الماء) ثم ذكر الاثار في ذلك الى أن قال : (باب الايمان بالحجب) . قال : ومن قول أهل السنة أن الله تعالى بائن من خلقه محتجب عنهم بالحجب الى أن قال : (باب الايمان بالنزول) قال : ومن قول أهل السنة أن الله ينزل الى سماء الدنيا ، وذكر حديث النزول ، ثم قال : وهذا الحديث يبين أن الله تعالى على عرشه في السماء دون الارض ، وهو أيضا بين في كتاب الله تعالى وتقدس وفي غير ما حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله : (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ) وساق الآيات في العلو ، وذكر من طريق مالك قول النبي صلى الله عليه وسلم (أين الله ؟) ثم قال : والحديث في مثل هذا كثير .

(قول القاضي عبد الوهاب امام المالكية بالعراق ومن كبار أهل السنة رحمه الله تعالى) صرح بأن الله استوى على عرشه بذاته ، نقله شيخ الاسلام - رحمه

الله تعالى وقدس روحه - في غير موضع من كتبه ، ونقله عنه القرطبي في شرح الاسماء الحسنى •

(ذكر قول الامام محمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه وقدس روحه)

قال الامام ابن الامام عبد الرحمن ابن ابي حاتم الرازي : حدثنا ابو شعيب وابو ثور عن ابي عبد الله محمد ابن ادريس الشافعي رحمه الله تعالى ، قال : القبول في السنة التي انا عليها ورأيت اصحابنا عليها اهل الحديث الذين رأيتهم وأخذت عنهم - مثل سفيان ومالك وغيرهما - الاقرار بشهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، وأن الله على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء ، وأن الله تعالى ينزل الى سماء الدنيا كيف شاء ، قال عبد الرحمن : وحدثنا يونس بن عبد الاعلى ، قال : سمعت ابا عبد الله محمد ابن ادريس الشافعي يقول - وقد سئل عن صفات الله وما يؤمن به فقال - : لله أسماء وصفات جاء بها كتابه ، وأخبر بها نبيه أمته ، لايسع أحدا من خلق الله قامت عليه الحجة ردها ، لأن القرآن نزل بها وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم القول بها فيما روى عنه العدل ، فان خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر ، أما قبل ثبوت الحجة فمعدور بالجهل ، لان علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بروية الفكر ، ولا يكفر بالجهل بها أحد الا بعد انتهاء الخبر اليه بها ، وثبتت هذه الصفات وتنفى عنها التشبيه كما نفى التشبيه عن نفسه فقال : (ليس كمثل شي ء وهو السميع البصير) وصح عن الشافعي أنه قال : خلافة ابي بكر الصديق رضي الله عنه حق قضاها الله في سمائه ، وجسع عليها قلوب عباده ، ومعلوم ان المقضي في الارض والقضاء فعله سبحانه وتعالى المتضمن لمشيئته وقدرته •

(وقال في خطبة رسالته) : الحمد لله الذي هو كما وصف به نفسه ، وفوق ما يصفه به خلقه ، فجعل صفاته سبحانه انما تتلقى بالسمع • وقال يونس بن عبد الاعلى : قال لي محمد ابن ادريس الشافعي رضي الله عنه : الاصل قرآن وسنة فان لم يكن فقياس عليهما ، واذا اتصل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصح الاسناد منه فهو سنة ، والاجماع أكبر من الخبر الفرد ، والحديث على ظاهره ، واذا احتتمل المعاني فما أشبه منها ظاهره فهو اولاها به •

(ثم ذكر قول صاحبه) امام الشافعية في وقته ، ابي ابراهيم اسمعيل

ابن يحيى المزني في رسالته في السنة التي رواها ابو طاهر السلفي عنه باسناده
وساقها كلها .

(وقول امام) الشافعية في وقته ، أبي العباس بن شريح رحمه الله تعالى ،
وساق كلامه أيضا .

(وقول الامام) حجة الاسلام أحمد بن الحسين الشافعي المعروف بابن
الحداد ، ثم ساق كلامه .

(وقول الامام) اسمعيل بن محمد بن الفضل التيمي صاحب كتاب اترهيب
والترغيب ، وكتاب الحجّة في بيان الحجّة ، ومذهب أهل السنة ، وكان امام الشافعية
في وقته رحمه الله تعالى ، ونقل فصلا من كتاب الحجّة في بيان استواء الله تعالى
على عرشه وساقه كله .

(ثم ذكر قول الامام) أبي عمر ، وعثمان بن أبي الحسن بن الحسين السهروردي
الفقيه المحدث من أئمة أصحاب الشافعي من أقران البيهقي ، وأبي عثمان الصابوني
وطبقتهما ، له كتاب في أصول الدين ، وساق كلامه وفيه : ومن صفاته تبارك وتعالى
فوقيته واستواؤه على عرشه بذاته كما وصف نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله
صلى الله عليه وسلم بلا كيف الخ .

(ثم ذكر قول امام) الشافعية في وقته ، الامام أبي بكر محمد بن محمود بن
سورة التيمي فقيه نيسابور رحمه الله تعالى ، ثم ساق كلامه ، ومنه : ان أردت أن
تكون لك درجة الائمة في الدنيا والآخرة فعليك بمذهب السلف الصالح ، وإياك
ان تدهن في ثلاث مسائل : مسألة القرآن ، ومسألة النبوة ، ومسألة استواء الرحمن
على العرش باستدلال النص من القرآن والسنة المأثورة عن النبي صلى الله عليه
وسلم ، حكاه الحافظ أبو منصور في كتاب العلولة الخ .

(ثم ذكر قول أبي الحسن) العمراني صاحب البيان فقيه الشافعية ببلاد اليمن
رحمه الله تعالى ، وساق كلامه في كتابه الذي ألفه في السنة على مذهب أهل
الحديث .

(ثم ذكر أقوال جماعة من اتباع الائمة الاربعة ممن يقتدى بأقوالهم سوى
ما تقدم) منهم أبو بكر محمد بن وهب المالكي شارح رسالة ابن أبي زيد عليهما
الرحمة ، وساق كلامه الذي في شرحه بنصه .

(ومنهم) امام الشافعية في وقته بل هو الشافعي الثاني أبو حامد الاسفرائيني رحمه الله ، وكان من كبار أئمة السنة المثبتين للصفات ، فقد قال : مذهبي ومذهب الشافعي وجميع علماء الامصار أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر الى آخر كلامه ، وفيه اثبات صفة العلو لله •

(ومنهم) امام الشافعية في وقته سعد بن علي الزنجاني صرح بالفوقية بالذات ، فقال : هو فوق عرشه بوجود ذاته هذا لفظه ، وهو امام في السنة له قصيدة فيها معروفة ، أولها :

تمسك بحبل الله واتبع الاثرا • وقد شرحها •

(ومنهم) الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الامام في الفقه والتفسير والحديث والتاريخ واللغة والنحو والقرآن ، ثم ساق عبارته في كتابه صريح السنة ، وفيه اثبات العلو لله تعالى ، وعبارته من تفسيره عند الكلام على قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) علا وارْتَفَع • وساق جميع عباراته التي ذكرها في هذا الباب •

(ومنهم) الامام أبو القاسم الطبري اللالكائي أحد أئمة أصحاب الشافعي

رحمه الله تعالى ، وساق كلامه في كتاب السنة وهو مشتمل على مثل ما سبق •

(ومنهم) الامام محي السنة الحسين بن مسعود البغوي ، وساق كلامه الذي هو شجى في طوق الجهمية والمعطلة في سورة الاعراف في قوله تعالى : (ثم استوى على العرش) •

(ثم ذكر أقوال الامام أحمد بن حنبل) وجماعة من أصحابه ، وكلها مصرحة باثبات صفة العلو والفوقية لله تعالى ، ومثلهم أئمة الحديث المشهورون •

(ثم ذكر أقوال أئمة التفسير) •

(ثم ذكر أقوال أئمة اللغة والعربية) الذين يحتج بقولهم فيها ، كأبي عبيدة معمر ابن المثنى ، ويحيى بن زياد الفراء امام أهل الكوفة ، وأبي العباس ثعلب وغيرهم مما يطول ذكرهم •

(ثم ذكر أقوال الزهاد) أهل الاتباع وسلفهم ، مثل ثابت البناني ، وسليمان

التمي ، وشريح بن عبيد ، وعبيد بن عمير ، والفضيل بن عياض ، وعطاء السلمي ، وأبو عبيدة الخواص ، وبشر الحافي ، وذو النون المصري ، والحارث بن أسد المحاسبي ، والامام العارف أبي عبد الله محمد بن عثمان المكي امام الصوفية في وقته ، وأبي جعفر الهمداني الصوفي ، والامام العارف معمر بن أحمد الاصبهاني شيخ الصوفية في أواخر المائة الرابعة ، والشيخ عبد القادر الجيلي ، وأبي عبد الله ابن خفيف الشيرازي امام الصوفية في وقته ، وشيخ الاسلام أبي اسمعيل الانصاري صاحب كتاب منازل السائرین والفاروق وذم الكلام وغيره ، وشيخ الصوفية والمحدثين أبي نعيم صاحب كتاب حلية الاولياء ، والامام يحيى بن عمار السجزي شيخ أبي اسمعيل الانصاري امام الصوفية .

(وكل من) هؤلاء الابرار ، والزهاد الاخيار ، صرح باثبات العلو والفوقية لله تعالى . وذكر الشيخ ابن القيم نص عبارتهم في كتابه غزو الجيوش الاسلامية ، ولولا خوف طول الكلام وملل السامعين لنقلناها ، والكتاب متداول بين الناس .

(ثم ذكر أقوال الشارحين لاسماء الله الحسنی) كالتقربي في شرحه ، قال : وقد كان الصدر الاول لا ينتون الجهة ، بل نطقوا هم والكافة باثباتها لله تعالى ، كما نطق كتابه واخبر رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على العرش حقيقة ، وخص بذلك دون غيره لانه أعظم مخلوقات الله ، وانما جهلوا كيفية الاستواء فانه لا تعلم حقيقته ، كما قال مالك الاستواء معلوم . والكيف مجهول ، والسؤال عن الكيف بدعة ، الى آخر ما قال .

(ثم ذكر أقوال أهل الكلام من أهل الاثبات) المخالفين للجهمية والمعتزلة والمعطلة ، فذكر قول الامام أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب امام الطائفة الكلابية ، وقال : كان من أعظم أهل الاثبات للصفات والفوقية وعلو الله تعالى على عرشه ، وذكر له كلاما طويلا في هذا الباب من أحب الوقوف عليه فليرجع الى كتابه غزو الجيوش .

(ثم ذكر) قول أبي الحسن علي بن اسمعيل الاشعري امام الطائفة الاشعرية ، قال : ان كلامه فيما وقفنا عليه من كتبه ، كالموجز ، والابانة ، والمقالات ، وما نقله أعظم الناس انتصارا له ، وهو الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في الكتاب الذي سماه : تبين كذب المفتري فيما نسب الى أبي الحسن الاشعري - هو مثل كلام

السلف ، ثم نقل ما قاله ابن عساكر ، وما قاله الأشعري في الابانة •

(ثم ذكر) قول الحسين بن أحمد الأشعري المتكلم من متكلمي أهل الحديث صاحب الجامع الكبير والصغير في أصول الدين ، ونقل كلامه في جامعه الصفيير المصرح بصفة التوقية لله والعلو على العرش حثيقة •

(ثم ذكر) قول الامام فخر الدين الرازي في آخر كتبه - وهو كتساب أقسام اللذات - وبين أنها ثلاثة : الحسية كالأكل والشرب والنكاح واللباس ، واللذة الخيالية الوهمية كلذة الرياسة والامر والنهي والترفع ونحوها ، واللذة العقلية كلذة العلوم والمعارف ، وتكلم على كل واحد من هذه الاقسام الى أن قال : وأما اللذة العقلية فلا سبيل الى الوصول اليها والتعلق بها ، فلهذا السبب نمول : ياليتنا بقينا على العدم الاول ، ياليتنا ماشهدنا هذا العالم ، وليت النفس لم تتعلق بهذا البدن وفي المعنى قلت :

نهاية اقدام العقول عقال	واكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسوننا	وحاصل دينا اذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيسل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة	فبادوا جميعا سرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها	رجال فزالوا والجبال جبال

واعلم أنه بعد التوغل في هذه المضائق ، والتعمق في الاستكشاف عن اسرار هذه الحقائق : رأيت الاصوب الاصلح في هذا الباب طريقة القرآن العظيم ، والفرقان الكريم ، وهو ترك التعمق والاستدلال بأقسام أجسام السموات والارضين على وجوب وجود رب العالمين ، ثم المبالغة في التعظيم من غير خوض في التفاصيل ، فاقرأ في التنزيه قوله تعالى : (والله الغنيُّ وأنتم الفقراء)^(١) وقوله تعالى : (ليس كمثلِه شيء)^(٢) وقوله تعالى : (قل هو الله أحد)^(٣) وقرأ في الايات : (الرِّحْمَنُ عَلِي الْعَرْشِ اسْتَوِي)^(٤) وقوله تعالى : (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ)^(٥) وقوله تعالى : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ)^(٦) وقوله تعالى : (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)^(٧) وفي تنزيهه عما

(١) محمد : ٢٨ (٢) الشورى : ١١ (٣) طه : ٥ (٤) النحل : ٥٠ (٥) فاطر : ١٠ (٦) النساء : ٧٨

لا ينبغي قوله تعالى : (ما أصابك من حسنةٍ فمن الله وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك)^(١) وعلى هذا القانون فقس وختم الكتاب .

(ثم ذكر) قول متكلم السنة امام الصوفية أبي العباس أحمد بن محمد المظفري المختار الرازي صاحب كتاب قرع الصفات في تقرير نفاة الصفات ، وهو على صغر حجمه كتاب جليل غزير العلم ، قال فيه بعد حكاية مذاهب الناس : وقالت الحنابلة وأصحاب الظواهر والسلف من أهل الحديث أن الله على العرش ، ثم قال : أما حجة المثبتين فمن حيث الكتاب والسنة واجماع الصحابة والمعقول ، ثم ذكر حجج القرآن والسنة ، ثم حكى كلام الصحابة ، الى أن قال : ثم ان الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في النبي صلى الله عليه وسلم هل رأى ربه ليلة المعراج أم لا ، واختلفهم في الرؤية تلك الليلة اختلف منهم على ان الله على العرش ، لان المخالفين لا يفرقون بين الارض والسماء بالنسبة الى ذاته ، وهم فرقوا حيث اختلفوا فسي أحدهما دون الآخر ، قلت : مراده اننا اختلفوا في رؤيته لربه ليلة الاسراء به الى عنده فجاوز السبع الطبايق ، ولولا أنه على العرش لكان لافرق في الرؤية نقيصا واثباتا من تلك الليلة وغيرها .

ثم قال : واما المعقول فمنه وجوه : أحدها اطلاق الناس كافة واجماع الخلق عامة من الماضين والغابرين والمؤمنين والكافرين على رفع الايدي عند السؤال والدعاء ، بخلاف السجود فانه تواضع متعارف ، وبخلاف التوجه الى الكعبة فانه تعبد غير معقول ، أما رفع الايدي بالسؤال نحو المسؤول فأمر معقول متعارف قال : ومن نظر في قصص الانبياء وأخبار الاوائل القديماء وأنباء الامم الماضية والقرون الخالية : اتضحت له هذه المعاني ، واستحكمت له هذه المباني ، ثم قرر العلو وساق شبه النفاة ونقضها نفض من يقلع عروشها كل القلع رحمه الله تعالى .

(ثم ذكر قول شعراء الاسلام) منهم حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أنشد النبي صلى الله عليه وسلم قوله :

شهدت بأذن الله ابن محمدا	رسول الذي فوق السموات من عل
وان أبا يحيى ويحيى كلاهما	له عمل من ربه متقبل
وان أخا الاحقاف اذ قام فيهم	يقوم بذات الله فيهم ويمعدل

فقال النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أشهد •
وقال حسان أيضا في قصيدته الدالية :

ألم تر ان الله أرسل عبده يبرهانه والله أعلى وأمجّد
وضم الاله اسم النبي الى اسمه اذا قال في الخمس المؤذن اشهد
وشق له من اسمه ليجلسه فذو العرش محمود وهذا محمد
اغر عليه للنبوّة خاتم من الله يمون يلسوح ويشهد

(ومنهم) عبد الله بن رواحة ، فانه أنشد شعرا في قصة له مع امرأته ، وهو قوله :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مشوى الكافرينا
وان العرش فوق المساء طاف وفوق العرش رب العالمينا
وتحملة ملائكة شداد ملائكة الاله مسومينا

(ومنهم) العباس بن مرداس السلمى ، قال عوانة بن الحكم : لما استخلف عمر ابن عبد العزيز وفد اليه الشعراء فقاموا بياحه أياما لا يأذن لهم ، فبينما هم كذلك مر بهم على بن ارقطة ، فدخل على عمر فقال : الشعراء بياحك يا أمير المؤمنين ، فقال : ويحك مالي وللشعراء ؟ قال : فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح فاعطى ، مدحه العباس بن مرداس السلمى فأعطاه حلة ، قال أو تروي من شعره شيئا؟ قال: نعم فأنشدته على بن ارقطة قوله للنبي صلى الله عليه وسلم :

رأيتك ياخير البرية كلها نشرت كتابا جاء بالحق معلما
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا عن الحق لما أصبح الحق مظلما
تعالى علوا فوق سبع الهنا وكان مكان الله أعلى واعظما

(ومنهم) لييد بن ربيعة بن عامر بن مالك العامري أحد شعراء الجاهلية والاسلام ، أسلم وصحب النبي صلى الله عليه وسلم ومن شعره :

لله نافلة الاجل الافضل وله العلى واثيل كل مؤثّل
لايستطيع الناس محو كتابه أنسى وليس قضاؤه بمبدل
سوى فاعلى دون عالي عرشه سبعا طباقا دون قرع المنفل
والارض تحتهم مهادا راسيا ثبتت جوانبها بصم الجنذن

(ذكر ما أنشد للنبي صلى الله عليه وسلم من شعر أمية بن ابي الصلت)

مجدوا الله فهو للمجد اهل
ربنا في السماء امسى كبيرا
بالبناء الاعلى الذي سبق الخلق
وسوى فوق السماء سريرا
شرجعا ما يناله بصر العين
تسرى دونه الملائك صورا

ومن شعره قوله في دالته المشهورة :

لك الحمد والنعماء والملك ربنا
فلا شيء اعلى منه جدا وأمجد
ملك على عرش السماء مهيمن
لعزته تمنوا الوجوه وتسجد
عليه حجاب النور والنور حوله
وانهار نور حوله تتوقد
فلا بشر يسمو اليه بطرفه
ودون حجاب النور خلق مؤيد
وفيها وصف الملائكة فقال:

وسأحدهم لا يرفع الدهر رأسه
يعظم ربا فوقه ويمجد

(ذكر القصيدة) التي أنشدها اسماعيل بن الترمذي للامام أحمد في حبسه ،
قال ابراهيم بن اسحق العبلي : أخذت هذه القصيدة من أبي بكر المروزي ، وذكر
ان اسماعيل بن خلان الترمذي قالها وأنشدها أحمد بن حنبل في السجن :

تبارك من لا يعلم الغيب غيره
ومن لم يزل يثني عليه ويذكر
علا في السموات العلى فوق عرشه
الى خلقه في البر والبحر ينظر
سميع بصير لانثك مدبر
ومن دونه عبد ذليل مدبر
يدا ربنا مبسوطان كلاهما
تسحان والايدي من الخلق تقتر

وساق القصيدة وهي أحسن القصائد ، ولم ينكرها أحد من أهل الحديث بل
أنثوا عليها •

وقال يحيى بن يوسف بن يحيى بن يوسف الصرصري الانصاري اللغوي الفقيه:

تواضع لرب العرش علك برفع
فقد فاز عبد المهيم يخضع
فداوي بذكر الله قلبك اسه
لا على دواء لنفلوب وانقع
وخذ من تقى الرحمن امنا وعدة
ليوم به غير التقى مسروع

الى أن قال :

سميع بصير ماله في صفاته شبيه يرى من فوق سبع وسبع
قضى خلقه ثم استوى فوق عرشه ومن علمه لم يخل في الارض موضع

(وقال في لاميته):

ويوم ينادي العالمين فيسمع الـ أنا الملك الديان والنقل ثابت
وينظره أهل البصائر في غد كما ينظرون الشمس ما حال دونها
توحده نحو العرش والخلق دونه

(وقال أيضا):

أسير وقلبي في هواك أسير واستجلب السلوى وفي القلب حسرة
وما ذلك الا ان فيك لناظري إذا ما تجلى سافرا فجمما له
إذا ما اجتمعنا وانتفى الشمل فالتقى يؤكده عقد الود بيني وبينه اء
كلانا محب للامام ابن حنبل تقر بان الله جل ثناؤه
ويطوى السموات العلى يمينه وخاطب موسى بالكلام مكلما
وخط له التوراة فيها مواعظ وان قلوب الخلق بين أصابع الـ
وثبت في الاخرى لرؤية ربنا وأي نعيم في الجنان لاهلها
ونؤمن ان العرش من فوق سبعة قضى خلقه ثم استوى فوق عرشه
هو الله ربي في السماء محجب

فهل لي من جور الفراق مجير فيرتد عنك الطرف وهو حسير
مدى غصن غض بالنبات نضير الى القلب من جيش الغرام سفير
رقيب علينا والعقاب غفور تقاد عليه للهداية نور
لاسيافنا في ثانيه هبير سميع لاقوال العباد بصير
وذلك في وصف القوي يسير فخر صريعا اذ تقطع طور
فلاحت على الالواح منه زبور اله فمنها ثابت ونفور
حديثا رواه في الصحيح جريسر واني لهم لو لم يروه سرور
تطوف به أملاكه وتدور تقدر كرسى له وسريسر
وليس كمخلوق حوته قصور

وينزل منه بالقضاء أمور
باصبعها نحو السماء تشير

اليه تعالى طيب القول صاعد
لقد صح اسلام الجويرية التي

وقال رحمه الله تعالى في قصيدته المنامية التي يقول فيها :

فقبلت فاه مثل تقييل مشتاق
لقبلت ممشاه الكريم بآماقي
بها جبر كسري يوم فقري واماقي
فلانت لبشراه شراسة اخلاقي
مقر لبشراه باثبت مصداقي
مقيم وان قام العدالي على ساق
يقدر آجالا ويقضي بارزاق
قديم الصفات الواحد الاحد الباقي
أتابع فيها كل ازهر سباق
ولا فائل تأويل اشدق مهاق
وقال رحمه الله تعالى في قصيدته اللامية التي نظم فيها اعتقاد الشافعي رضي

رأيت رسول الله في النوم مرة
ولو أنني أوتيت رشدي قائما
فبشرني منه بأزكى نهادة
لموت سعيد في كتاب وسنة
فها أنا ذا والحمد لله وحده
باني على حسن اعتقاد بن حبل
أقر بان الله من فوق عرشه
سميع بصير ليس شيء كثلسه
امر أحاديث الصفات كما أت
ولست الى التشبيه يوما يجانح
وقال رحمه الله تعالى في قصيدته

الله عنه ، أولها :

باني حرب للعدا غير أفكل
لدين الهدى غارات أشرس مقتل
أشد عليهم من سنان ومنصل
مقاتل تصم، منهم كل مقتل
مهالك من تحريفهم والتأول
براءة موسى من يهود محول

أشعر حرب الجهم ذاك المضلل
أشن عليهم غيرتي وحميتي
لوقع قريض في صميم قلوبهم
أفوق منه حين أنظر نحوهم
هم انحرفوا عن منهج الحق سالكي
لقد بريء الجبر ابن ادريس منهم

(وقال فيها) :

غدا حالفا بالمصحف المتقبل
عقادا بمخلوق لخلق مؤئل
وكالسلف الابرار أهل التفضل
ولا تقل استولى فمن قال أبطل
لذي خطل راو لغث واعطل

ويعقد عند الشافعي يمين من
فهذا دليل منه اذ كان لا يرى أن
ومذهبه في الاستواء كمالك
وقل مستو بالذات من فوق عرشه
فذلك زنديق لقائل قسوة

وقد بان منه خلقه وهو بائن
واقرب من جبل الوريد مفر
علا في سماء الله فوق عباده
واثبات ايسان الجويرية اتخذ
من الخلق محض للخفي والجلسى
وما كان في معناه بالعلم فاعقل
دليلك في القرآن غير منقلل
دليلا عليه مسندا غير مرسل

وقال رحمه الله تعالى يهجو ابن خنفر الجهمي الخبيث أولها :

اطع الهدى لا ما يقول العذل
واتبع اسلمى ما استطعت مسلما
بيضاء دون مرامها لمحجها
تخفي فيعرفها الوشاة بعرفها
تضحى الدماء لهجرها هدرا وهل
كيف البقاء لعاشق أودى به
فالجب ذوامر يجور ويعادل
فالحسن ينصرها وصبرك يخذل
بيض الصوارم والرماح الذبل
وتضيء والاضلام ستر مرسل
يخفى قصاص القتل طرف أكحل
سهم للحاظ وقد أصيب المقتل

(ومنها) :

نبذ الكتاب وراء ظهر واغتدى
وعقيدة الملعون ان المصحف ال
ما قالت الكفار مثل مقاله
آل الجحود به الى وادى لظى
وزعمت ان الحنبلي مجسم
بل يورد الاخبار اذ كانت تصح
ان المهيمن ليس تمضي ليلة
قد قالها خير الورى في سادة
وتقبلوها مع غزارة علمهم

(وقال رحمه الله تعالى) :

واها لفرط حرارة لا تبرد
في كل يوم سنة مدروسه
صدق النبي ولم يزل متربلا
اذ قال يفترق الضلال ثلاثة
ولواعج بين الحشى تنردد
بين الانام وبدعة تتجدد
بالصدق اذ يعد الجميل ويوعد
زيدت على السبعين قولاً يسند

تسمى بسنته اليه وتحفد
فقبل مقالة ناصح يتقلد
تهدي الي نار الجحيم وتورد
فهي المحجة والطريق الاقصد
نبدوا الهدى فتنصروا وتهودوا
وبسب أصحاب النبي تفسردوا
سلام ثم تزندقوا وتوردوا
نوحوا على الدين الحنيف وعدادوا
وتألفوا في دحضه وتحشدوا
وتغلغلوا في المعضلات وشددوا
هم أهله لا من رموه وأفسدوا
في الفخر من فاق السماء وأمجد
يغنون وهي من التناول أبعد
ولقد زكى من قبل منه المحتد
فبناؤه في المكرمات مسدد
آي الحديد مناقب لاتنفد
والليل يثبت فضله ويؤكد
يهوى رفيع علاه الا ملحد
اخلاص طارف ماله والمتلد
وحوى شمائله صفيح ملحد
وارتد منهم حائر متردد
ابليس اطماع كوامن رصد
وثبات ايمان ورأي يحمده
شمس الهدى وتقوم المتأود
للدين تلك فضيلة لاتجحد
ملك يصوب قوله ويسدد
وبفضله نطق المشفع أحمد
خبرا صحيحا في الرواية مسند
وفتوحه في كل قطر يوجد.

وقضى بأسباب النجاة لفرقة
فان ابتغيت الي النجاة وسيلة
ايالك والبدع المضللة انها
وعليك بالسنن المنيرة فاقفها
فالاثرون بمبدعات عقولهم
منهم اناس في الضلال تجمعوا
قد فارقوا جمع الهدى وجماعة ال
بالله يا أنصار دين محمد
لعبت بدينكم الروافض جهرة
نصبوا جبايلهم بكل بليسة
ورموا خيار الخلق بالكذب الذي
نقضوا مراتب هن أشرف منصب
لمراتب الصديق جف لسانهم
أو ماهو السباق في غزو العدا
ولقد أشاد بذكره رب العلى
نطق الكتاب بمجده الاعلى ففي
لايتوي منكم وفيها مقع
وبراءة تثنى بصحته وهـل
أو ماهو الاتقى الذي استولى على ال
لما مضى لسيله خير الورى
منع الاغارب الزكاة لفقده
وتوقدت نار الضلال وخانطت
هذا أبو بكر بصدق عزيمة
فتزقت عصب الضلال وأشرقت
أم رتبة الفاروق في اظهاره
وهو الموفق للصواب كانسنا
بوفاه آي الكتاب تنزلت
لو كان من بعدي نبيا كتته
وبعدله الامثال تضرب في الورى

وتمايم فضليما جوار المصطفى
 وتعيقوا في سب عقال الذي
 وليعه الرضوان مد شاله
 وجباه في بدر بسهم مجاهد
 من هذه من بعض غر صفاته
 نم ادعوا حب الامام المرتضى
 انى وقد جحدوا الذين بنصنتهم
 ما في علاه مقاله لمخالف
 ولنحن اولى بالامام وجبه
 وولاؤه لا يدتقيم ببعضهم
 مثل الذي جحد بن مريم وادعى
 وبغدف عائشه الطهور تجشموا
 تنزيها في سبع عشرة آية
 لو أن أمر المسلمين اليهم
 ولو استطاعوا لسعت بمرامهم
 لم يبق للاسلام ما بين النورى
 علقوا بجبل الكفر واعتصوا به
 وأشدهم كفرا جهول يدعى
 فهما وان وهنا أشد مضرة
 واذا سألت فقيههم عن مذهب
 كالحائض الرضاء أقلقه لظي
 ان المقال بالاعتزال لخطبة
 هجموا على سبل الهدى بعقولهم
 صم اذا ذكر الحديث لديهم
 واضرب لهم مثل الحمير اذا رأت
 والجاحد الجهمي أسوأ منهما
 أمسى لرب العرش قال منزها
 ونفى القران برأيه والمصحف الـ
 واذا ذكرت له على العرش استوى

في تربية فيها الملائك تحشد
 ألقاه كانوا لابنتيه محمد
 عوض اليمين وهي منه أوكد
 اذ فاته بالعدر ذلك المشهد
 ما ضره ما قال فيه الحسد
 هيهات مطلبه عليه يعبد
 أتى أبو الحسن الامام السيد
 فسائل الاجماع فيه تعقد
 عقد ندين به الاله مؤكد
 واضرب لهم مثلا يعيظ ويكمد
 حب الكليم وتلك دعوى تقصد
 أمرا تظبل له الفرائض ترعد
 والرافضي بصد ذلك يشهد
 لم يبق في هذي البسيطة مسجد
 قدم ولا امتدت بكفهم يد
 علم يثير ولا لسواء يعقد
 والعالقون بحبله لم يسعدوا
 علم الاصول وفاسق مترهد
 في الدين من فار السفين وأفسد
 فالى اعتزال في الشريعة يلحد
 منها ففر الى جحيم يوقصد
 عمياء حل بها الغواة المررد
 ليلا فعاثوا في الديار وأفسدوا
 نفروا كان لهم يسمعوه وغردوا
 أسد العرين فهن منه شرد
 حالا وأخبث في القياس وأفسد
 من أن يكون عليه رب يعبد
 اعلى المطهر عنده يتوسد
 فالى هو استولى يحيد ويخلد

وبأى شيء في الدجى يتهجد
 وإليه أعمال البرية تصعد
 ولاي معجزة الخصوم تلبد
 ان كان فوق العرش ضد أيد
 وتقديست عما يقول الملحد
 ضلوا وفاتهم الطريق الارشد
 وجه لربك ذي الجلال ولا يد
 فراه للاصنام سرا يسجد
 ورسوله وغدا المناق يجحد
 جهم او الرحمن قولوا وارشدوا
 فهم الى التأويل ام هو ارشد
 في نفي أوصاف الاله موحد
 هيات ليس مشها من يسند
 من غير تأويل ولا يتأود
 فمقيدة المهدي أحمد أحمد
 بحالها لا يلهينك مفسد
 ومخالفوه لزيغهم لم يهتدوا
 ويروم أسباب النجاة ويجهد
 ما فوقها لآخي التقاء مصعد
 في فتنة نيرانها تتوقد
 عزماته ماضي الغرار مهند
 لكن محبة مخلص يتوود
 وابي حنيفة ليس فيه تردد

فالى من الايدي تمد تضرعا
 ومن الذي هو للقضاء منزل
 وبما تنزل جبرئيل مصدقا
 ومن الذي استولى عليه بقهره
 جلت صفات الحق عن تأويلهم
 لما بغوا تنزيهه بقياسهم
 ويقول لاسمع ولا بصرو ولا
 من كان هذا وصفه لاله
 الحق أثبتها بنص كتابه
 فمن الذي أولى باخذ كلامه
 والصح لم يتأولوا لسامعها
 هو مشرك ويظن جهلا أنه
 يدعو من اتبع الحديث مشها
 لكنه يروى الحديث كما أتى
 واذا العقائد بالضلال تخالفت
 هي حجة الله المنيرة فاعتصم
 ان ابن حنبل اهتدى لما اقتدى
 مازال أحمد يقتفى أثر الهدى
 حتى ارتقى في الدين اشرف ذروة
 نصر الهدى اذ لم يقل ما لم يقل
 ماصده ضرب الشياطين ولا تنى
 لهواه جبا ليس فيه تعصب
 وودادنا للشافعي ومالك

أقول : سيأتي في الكلام على ما استدل به النبهاني في (باب الاستغاثة) من
 شعر الصرصري أن مثله لا يجوز أن يكون مستندا في العقائد الدينية فكيف يورد
 كلامه للاستدلال به في هذا المقام .

فالجواب أن يقال : قد علم ان كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وسائر
 أنبيائه وأصحابهم والتابعين لهم بإحسان هو الحجة والبرهان ، فذكر أقوال أهل

العلم وشعر بعض الشعراء لا للاحتجاج بها بل لبيان ان جميع العقلاء على ما ذكرنا ،
 وليعلم الخصم أن أهل الأثبات أولى بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم والصحابة
 والتابعين وأهل الإسلام وطبقات أهل العلم والدين من الجهمية والمعتلة ، وليعرف
 جنود الإسلام والسنة وأمرؤها وحزب البدع والتجهم ليتحيز المقاتل الى الطائفتين
 على بصيرة من أمره ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ، ولهذا قال
 الحافظ بن القيم - بعد ما أورد ما ذكرناه - وهذا باب واسع جدا لا يتسع لذكره
 مجلد كبير ، ويكفي أن شعراء الجاهلية مقرة به على فطرتهم الأولى ، كما قال
 عترة في قصيدته :

يا عبيل ابن من المنية مهرب ان كان ربي في السماء قضاها

(ثم ذكر قول) الفلاسفة المتقدمين والحكماء الأولين ، فانهم كانوا مثبتين
 لمسألة العلو والنوقية مخالفين لارسطو وشيعته ، وأتى بنصهم لاجل ما ذكرنا
 للاستدلال ، ثم ان من المعلوم انه لا يلزم من مدح شخص وحمده من جهة
 ان يكون ممدوحا محمودا من كل جهة ، بل لا يلزم من الحكم عليه بالإسلام أو
 الايمان ان لا يحكم عليه بما يوجب نقص ايمانه وخلل اسلامه ، ويقضي تأييده
 ببعض السيئات وعقابه عليها •

(والمقصود) أن ما ذكره النبهاني واضرابه من الجهلة ، وما هذى به الشيخ
 شهاب الدين الحلبي : مخالف للكتاب والسنة ، وأقوال الصحابة ، والتابعين ، وتابعي
 التابعين ، والمجتهدين ، وأئمة المسلمين ، ومشاهير اتباعهم ، والعقلاء ، واتباع من سبق
 من الانبياء ، والشعراء ، وأئمة اللغة ، والفلاسفة الأولى ، وجاهلية العرب ، ويكفي
 ذلك بطلانا لقولهم وافكهم وخزيا لهم بين أهل العقول •

ولو أخذنا تتكلم على ما اشتمل عليه كلامهم من المفاصد لطال الكلام جدا ،
 وما ذكرناه كاف لمن أخذت العناية بيديه ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ،
 نسأله تعالى أن يبصرنا في أمورنا انه ذو الفضل العميم ، والمن الجسيم ، وهو
 المعطي قبل السؤال ، والعالم بالاحوال •

(قال النبهاني) ولنرجع الى الكلام على كتب ابن تيمية ، قال : فمنها الكتب
 الاربعة المذكورة سابقا ، وهي (الجواب الصحيح في الرد على من بدل دين المسيح)
 ومنها كتاب (منهاج السنة) • ومنها كتاب (العقل والنقل) وقد رد به على أهل

السنة والجماعة من المسلمين الاشاعرة والماتريدية وغيرهم من الفرق الاخرى ،
ومنها كتاب (الفرقان بين اولياء الرحمن وأولياء الشيطان) وقد رد به على
خلاصة المسلمين من الاولياء والعارفين •

اذا علمت ذلك تعلم أنه مثل ابن حزم لم يسلم من قلمه أحد ، وقد رد عليه
الامام السبكي فيما رد به على كتبه بايات مدح فيها كتابه (منهاج السنة) واعترض
عليه ببعض بدعه ، فتصدى للتشيع على السبكي بذلك والرد عليه بعض الحشوية
من هو على عقيدة ابن تيمية ، أحدهما حنبلي والآخر فيما زعم شافعي ، الى أن
قال : نظم كل منهما في ذلك قصيدة طويلة في أكثر من مائة بيت ، فيها العجر والبحر ،
والتحامل على الامام السبكي بما لا ينبغي أن يصدر من مسلم فضلا عن عالم ، وقد
رأيت أن أتصف منهما وأقابلهما بعملهما ، جاعلا محط نظري اثبات الحق ودحض
الباطل ، وبيان المذهب الصحيح من المذهب العاطل ، فنظمت هذه القصيدة من البحر
والقافية ، وقد أثبت فيها استحالة الجهة على الله تعالى بدلائل ظاهرة باهرة ،
وتعرضت لجواز الاستغاثة والشد للرحل لزيارته صلى الله عليه وسلم بما لا ياباه
عقل ولا يمنعه نقل ، رادا على من يخالف ذلك ، ثم ذكر القصيدة وهي نحو مائة
وثلاثة وخمسين بيتا ، قال في أولها :

الحمد لله حمدا استعد به نصرة الحق كسي احظى بمطلبه
بك استعنت الهي عاجزا فاعن ابغى رضاك فاسعفني باطبيه
وانتي عالم ضعفي ولا عمل عندي يفيد ولا علم أصول به

وكلها على هذا المنوال من الشعر الركيك ، ولولا الحرص على نقيس العمر أن
يذهب سدى لنقلناها في هذا المقام ، ولكننا نزهنا القلم من نقلها وصنا وجه القرطاس
عن تلك الاوهام ، وقد ذكر هو ما اشتملت عليه قصيدته •

(يقال للنبهاني أولا) : قد تكلمنا سابقا على ما يتعلق بكتب الشيخ كلاما
يكتفي به اللبيب والذكي الاديب ، وقوله عن كتاب (العقل والنقل) انه رد به
على أهل السنة الخ كلام لا معنى له ، فانه لم يرد على أهل السنة بل رد عنهم كما
هو شأنه في كل كتاب من كتبه ، انما رد على من استدل على حدوث العالم بحدوث
الاجسام ، واثبت حدوث الاجسام بدليل الاعراض والحركة والسكون ، والاجسام
مستلزمة لذلك لاتنفك عنه ، ومالا يسبق الحوادث فهو حادث ، وبنى ذلك على

حوادث لا أول لها ، ولم يكن في الصحابة والتابعين من استدل بهذا الدليل ، بل أول ما ظهر هذا الكلام في الاسلام بعد المائة الاولى من جهة الجعد بن درهم بن صفوان ، ثم صار الى عمرو بن عبيد كابي الهذيل العلاف (١) وأمثاله .
وعمر بن عبيد وواصل بن عطاء انما كانا يظهران الكلام في انفاذ الوعيد ، وأن النار لا يخرج منها من دخلها ، وفي التكذيب بالقدر ، وهؤلاء ومن وافقهم على اعتقادهم رد عليهم شيخ الاسلام .

وأما الاشعري فلا ريب عنه أنه كان تلميذا لابي علي الجبائي ، لكنه فارقه ورجع عن جمل مذهبه وان كان قد بقي عليه شيء من أصول مذهبه لكنه خالفه في نفي الصفات ، وسلك فيها طريقه ابن كلاب ، وخالفهم في القدر ومسائل الايمان والاسماء والاحكام ، وناقضهم في ذلك أكثر من مناقضة حسين التجار وضرار بن عمرو ونحوهما ممن هو متوسط في هذا الباب ، كجمهور الفقهاء ، وجمهور اهل الحديث ، حتى مال في ذلك الى قول جهم ، وخالفهم في الوعيد : وقال بمذهب الجماعة ، وانتسب الى مذهب أهل الحديث والسنة كاحمد بن حنبل وأمثاله ، وبهذا اشتهر عند الناس ، فالقدر الذي يحمده من مذهبه هو ماوافق فيه أهل السنة والحديث كالجمال الجامعة ، وأما القدر الذي يذمه من مذهبه فهو ماوافق فيه بعض المخالفين للسنة والحديث من المعتزلة والمرجئة والجهمية والقدرية ونحو ذلك ، وأخذ مذهب أهل الحديث عن زكريا بن يحيى الساجي بالبصرة ، وعن طائفة ببغداد من أصحاب احمد وغيرهم ، وذكر في المقالات ما اعتقد أنه مذهب أهل السنة والحديث ، وقال : بكل ما ذكرنا من قولهم نقول واليه نذهب ، وهذا المذهب هو من أبعد المذاهب عن مذهب الجبرية والقدرية ، وآخر ما صنف من الكتب كتاب (الابانة) وقد ذكر فيه انه على مذهب أهل الحديث واعتقادهم ، وقد خالفه كثير من الاشعرية في كثير من المسائل .

(والمقصود) أن الشيخ انما رد في كتاب (العقل والنقل) بل وفي سائر كتبه على من خالف أهل السنة الذين تمسكوا بالكتاب وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وموضوع كتاب (العقل والنقل) أن الشريعة الفراء كاملة مكملة لاحاجة لها الى ما استحدثوه من القواعد المناقضة للشريعة ، وأن نصوص الشريعة تفيد اليقين ، وأنها مقدمة على تلك القواعد ، وأن النصوص لا تؤول لتلك القواعد اذا

(١) كذا عبارة الاصل وكان فيه سقط .

خالفتها ، واستدل على ذلك بنحو تسعة عشر دليلا .
والنبهاني ليس ممن يحسن قراءة عبارتها فضلا عن فهم معانيها ، وادراك مافيهما
فلذلك اعترض بما اعترض .

(ويقال ثانيا) ان النبهاني ذكر عن كتاب الفرقان أنه قد رد به على خلاصة
المسلمين من الاولياء والصالحين ، وهو كلام من لم يعرف الولاية ولادري معنى
الايمان والاسلام ، والشيخ قدس الله روحه قد فرق في هذا الكتاب بين أولياء
الرحمن وأولياء الشيطان فرقا واضحا يعرفه من له أدنى المام بالعلم ، ومداره على
الاتباع والابتداع فمن اتبع في أقواله وأفعاله ما جاءت به الشريعة فذاك من أولياء
الرحمن ، ومن خالف في ذلك فهو من أولياء الشيطان ، وان طار في الهواء أو مشى
على وجه الماء .

وأما ابن عربي صاحب (فصوص الحكم) و (الفتوحات المكية) فقد سلك
مسلك القرامطة والباطنية الذين زاغوا عن الشريعة ، ولهذا ادعى أنه يأخذ من المعدن
الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به الى الانبياء ، والنبي عنده يأخذ من الملك الذي
يوحي به الى الرسل ، لأن النبي عنده يأخذ من الخيالات التي تمثلت في نفسه لما
صورت له المعاني العقلية في الصورة الخيالية ، وتلك الصورة عنده هي الملائكة ،
وهي بزعمه تأخذ عن عقله المجرد قبل أن تصير خيالا ، ولهذا يفضل الولاية على
النبوة ويقول :

مقام النبوة في برزخ فويشق الرسول ودون الولي
والولي على أصله الفاسد يأخذ عن الله بلا واسطة ، لانه يأخذ عن عقله
وهذا عندهم هو الآخذ عن الله بلا واسطة ، اذ ليس عندهم ملائكة منفصلة تنزل
الوحي ، والرب عندهم ليس هو موجودا مبينا للمخلوقات ، بل وجود مطلق
أو مشروط بنفي الامور الثبوتية عن الله ، أو نفي الامور الثبوتية والسلبية ، وقد
يقولون هو وجود المخلوقات أو حال فيها أولا هذا ولا هذا ، فهذا عندهم غابة
كل رسول . ومبني النبوة عندهم الآخذ عن القوة المتخيلة التي صورت المعاني
العقلية في المثل الخيالية ، ويسمونها القوة القدسية ، ولهذا جعلوا الولاية فوق
النبوة ، وهؤلاء من جنس القرامطة الباطنية الملاحدة ، لكن هؤلاء ظهوروا في قالب
التصوف والتنسك ودعوى التحقيق وأمثال ذلك ، وأولئك ظهوروا في قالب التشيع
والموالاتة ، فأولئك يعظمون شيوخهم حتى يجعلوهم أفضل من الانبياء ، وقد
يعظمون الولاية حتى يجعلوها أفضل من النبوة ، وهؤلاء يعظمون أمر الامامة حتى

قد يجعلون الائمة اعظم من الانبياء ، والامام اعظم من النبي كما يقوله الاسماعلية ، وكلاهما يباطنان الفلاسفة الذين يجعلون النبي فيلسوفا ، ويقولون انه يختص بقوة قدسية ، ثم منهم من يفضل النبي على الفيلسوف ، ومنهم من يفضل الفيلسوف على النبي ، ويزعمون أن النبوة مكتسبة ، ويقولون : ان النبوة عبارة عن ثلاث صفات من حصلت له فهو نبي : أن يكون له قوة قدسية حدسية ينال بها العلم بلا تعلم ، وأن تكون نفسه قوية لها تأثير في هوى العالم ، وأن يكون له قوة يتخيل بهما يعقله ومزينا في نفسه ومسموعا في نفسه ، هذا كلام ابن سينا وأمثاله في النبوة ، وعنه أخذ ذلك الغزالي في كتبه المضمون بها على غير أهلها ، وهذا القدر الذي ذكره يحصل لخلق كثير من آحاد الناس ومن المؤمنين ، وليس هو من أفضل عموم المؤمنين فضلا عن كونه نبيا ، وهؤلاء قالوا هذا لما احتاجوا في الكلام في النبوة على أصول سلفهم الدهرية القائلين بأن الافلاك قديمة أزلية لامفعولة لفاعل بقدرته واختياره وأنكروا علمه بالجزئيات ونحو ذلك من أصولهم الفاسدة فتكلم هؤلاء في النبوة على أصول أولئك .

وأما القدماء أرسطو وأمثاله فليس لهم في النبوة كلام محصل ، فالواحد من هؤلاء يطلب أن يصير نبيا كما كان السهر وردي المقتول يطلب أن يصير نبيا ، وكان قد جمع بين النظر والتأله ، وسلك نحوا من مسلك الباطنية ، وجمع بين فلسفة الفرس واليونان ، وعظم أمر الانوار ، وقرب دين المجوس الاول ، وهي نسخة الباطنية الاسماعيلية ، وكان له يد في السحر والسيما ، فقتله المسلمون على الزندقة بحلب في زمان صلاح الدين .

وكذلك ابن سبعين الذي جاء من المغرب الى مكة وكان يطلب ان يصير نبيا ، وجدد غار حراء الذي نزل فيه الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم ابتداء ، وحكى عنه أنه كان يقول : لقد رددت ابن آمنة حيث قال لاني بعدي ، وكان بارعا في الفلسفة وفي تصوف المتفلسفة وما يتعلق بذلك ، وهو وابن عربي وأمثالهما كالصدر القنوني وابن الفارض والتلمساني منتهى أمرهم القول بوحدة الوجود ، الواجب القديم الخالق هو الوجود الممكن المحدث المخلوق ماثم لاغير ولا سوى ، لكن لما رأوا تعدد المخلوقات صاروا تارة يقولون مظاهر ومجالي ، فاذا قيل لهم فان كانت المظاهر أمرا وجوديا تعدد الوجود والا لم يكن لها حينئذ حقيقة وما هو نحو هذا الكلام الذي يبين أن الوجود نوعان خالق ومخلوق : قالوا نحن ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل ، ومن أراد أن يكون محققا مثلنا فلا بد أن يلتزم الجمع بين

النقيضين ، وأن الجسم الواحد يكون في وقت واحد في موضعين ، وهؤلاء الاصناف قد بسط الكلام عليهم شيخ الاسلام في غير موضع ، فان هؤلاء يكثرون في الدول الجاهلة ، وعامتهم تميل الى التشيع — كما عليه ابن عربي وابن سبعين وأمثالهما — فاحتاج الناس الى كشف حقائق هؤلاء وبيان أمورهم على الوجه الذي يعرف به الحق من الباطل ، فان هؤلاء يدعون في أنفسهم أنهم أفضل أهل الارض ، وأن الناس لا يفهمون حقيقة اشاراتهم •

قال شيخ الاسلام رحمه الله : فلما يسر الله اني بينت لهم حقائقهم وكتبت في ذلك من المصنفات ما علموا به ان هذا هو تحقيق قولهم وتبين لهم بطلانه بالعقل الصريح والنقل الصحيح والكشف المطابق : رجع عن ذلك من علمائهم وفضلائهم من رجع ، وأخذ هؤلاء يشنون للناس تناقضهم وبراءتهم من الحق ، وكان من أصول ضلالهم ظن ان الوجود المطلق يوجد في الخارج ، فان الذي يوجد في الخارج مقيدا معينا هو مطلق في الذهن مقيد في الخارج ، وأما من زعم أن في الذهن شيئا مطلقا وهو مطلق حال تحققه في الخارج فهو غلط غلطا ضل فيه كثير من أهل المنطق والفلسفة ، وأما المطلق بشرط الاطلاق فهو الوجود المقيد بسلب جميع الامور الثبوتية والسلبية ، كما يوجد الانسان مجردا عن كل قيد ، فاذا قلت موجود أو معدوم أو واحد أو كثير أو في الذهن أو في الخارج كان ذلك قيذا زائدا على الحقيقة المطلقة بشرط الاطلاق ، وهكذا الوجود تأخذه مجردا عن كل قيد ثبوتي وسلبى ، فلا تصفه لا بالصفات الثبوتية ولا السلبية ، وهكذا واجب الوجود عند أئمة الباطنية كابي يعقوب السجستاني صاحب الاقايد الملكتوية وغيره ، لكن من هؤلاء من لا يعرف برفع النقيضين فيقول لا موجود ولا معدوم ، ومنهم من يقول بل امسك عن اثبات أحد النقيضين فلا أقول موجود ولا معدوم كابي يعقوب ، وهو منتهى تجريد هؤلاء القائلين بوحدة الوجود •

وابن سينا وأتباعه يقولون الوجود الواجب هو الوجود المقيد بسلب الامور الثبوتية دون السلبية ، وهذا أبعد عن الوجود في الخارج من المقيد بسلب الوجود والعدم وان كان ذلك ممتعا في الموجود والمعدوم • قال : فقلت لاولئك المدعين للتحقيق أتم بنيتم أمركم على القوانين المنطقية وهذا الوجود المطلق بشرط الاطلاق المقيد بسلب النقيضين عنه لا يوجد في الخارج باتفاق العقلاء ، وانما يقدر في الذهن تقديرا ، والا فإذا قدرنا انسانا مطلقا واشترطنا فيه ان لا يكون موجودا ولا معدوما

ولا واحدا ولا كثيرا لم يوجد في الخارج ، بل نفرض في الذهن كما نفرض الجمع بين النقيضين ، ففرض رفع النقيضين كفرض الجمع بين النقيضين ، ولهذا كان هؤلاء تارة يصفونه بالجمع بين النقيضين او الامساك عنهما كما يفعل ابن عربي وغيره كثيرا ، وتارة يجمعون بين هذا وهذا كما يوجد أيضا في كلام أصحاب البطاقة وغيرهم ، فاذا قالوا مع ذلك انه مبدع العالم وشرطوا فيه ان لا يوصف بثبوت ولا انتفاء كان تناقضا ، فان كونه مبدعا لا يخرج عن هذا وهذا ، وكذلك اذا قالوا موجود واجب وشرطوا فيه التجريد عن النقيضين كان تناقضا ، وحقيقة قولهم موجود لا موجود ، وواجب لا واجب ، وهذا منتهى أمرهم ، وهو الجمع بين النقيضين أو رفع النقيضين ، ولهذا يصيرون الى الحيرة ويعظمونها ، وهي عندهم منتهى معرفة الانبياء والاولياء والائمة والفلاسفة .

(ومن أصول ضلالهم) ظنهم أن هذا تنزيه عن التشبيه وانهم متى وصفوا بصفة اثبات أو نفي كان فيه تشبيه بذلك، ولم يعلموا أن التشبيه المنفي عن الله هو ما كان وصفه بشيء من خصائص المخلوقين ، أو أن يجعل شيء من صفاته مثل صفات المخلوقين بحيث يجوز عليه ما يجوز عليهم ، أو يجب له ما يجب لهم ، أو يمتنع عليه ما يمتنع عليهم مطلقا ، فان هذا هو التمثيل الممتنع المنفي بالعقل مع الشرع ، فيمتنع وصفه بشيء من النقائص ، ويمتنع مماثلة غيره له في شيء من صفات الكمال ، فهذان جماع لما ينزهه الرب تعالى عنه ، وعلى هذا وهذا دل قوله تعالى :
(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

(فأما الموافقة) في الاسم كحي وحي وموجود وموجود وعليم وعليم فهذا لا بد منه ، ويلزم من هذا التعطيل المحض ، فان كل موجودين قائمين بانفسهما ، فحينئذ لا بد أن يجمعهما اسم عام ، لكن المعنى القائم لا يوجد عاما الا في الذهن لا في الخارج ، فاذا قيل هذا الموجود وهذا الموجود مشتركان في مسمى الوجود كان ما اشتركا فيه لا يوجد مشتركا الا في الذهن لا في الخارج ، وكل موجود فهو يختص بنفسه ، وصفات نفسه لا يشركه غيره في شيء من ذلك في الخارج ، وانما الاشتراك هو نوع من التشابه والاتفاق ، والمشارك فيه الكلي لا يوجد كذلك الا في الذهن ، فاذا وجد في الخارج لم يوجد الا متميزا عن نظيره لا يكون هو اياه ولا هما في الخارج مشتركان في شيء في الخارج ، فاسم الخالق اذا وافق اسم المخلوق كالموجود والحي - وقيل أن هذا الاسم عام كلي وهو من الاسماء المتواطئة أو المشككة - لم

يلزم من ذلك أن يكون ما ينصف به الرب من مسى هذا الاسم قد شاركه فيه المخلوق . بل ولا يكون ما ينصف به أحد المخلوقين من مسى هذا الاسم قد شاركه فيه مخلوق آخر ، بل وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه ، لكن ما ينصف به المخلوق قد يسائل ما ينصف به المخلوق ويجوز على أحد المثليين ما يجوز على الآخر .

وأما الرب سبحانه وتعالى فلا يسائله شيء من الأشياء في شيء من صفاته ، بل التباين الذي بينه وبين كل واحد من خلقه في صفاته أعظم من التباين الذي بين أعظم المخلوقات وأحقرها .

وأما المعنى الكلي العام المشترك فيه فذاك كما ذكرنا لا يوجد كليا الا في الذهن . وإذا كان المتصفان به بينهما نوع موافقة ومشاركة ومشابهة من هذا الوجه فذاك لا محذور فيه ، فان ما يلزم ذلك القدر المشترك من وجوب وجواز وامتناع فان الله متمصف به ، فالموجود من حيث هو موجود أو العليم أو الحي مهما قيل أنه يلزمه من وجوب وامتناع وجواز فالله موصوف به ، بخلاف وجود المخلوق وحياته وعلمه فان الله لا يوصف بما يختص به المخلوق من وجوب وجواز واستحالة ، كما أن المخلوق لا يوصف بما يختص به الرب من وجوب وجواز واستحالة ، فمن فهم هذا انحلت عنه اشكالات كثيرة يعثر فيها كثير من الاذكياء الناظرين في العلوم الكلية ، والمعارف الالهية .

(ثم ذكر) القول الثاني من أقوالهم في الوجود الواجب وهو قول ابن سينا وأتباعه ، وهو انه الوجود المقيّد بأن لا يعرض له شيء من الماهيات ، وأطال الكلام في بيانه وما يرد وليس لنا غرض بذكره .

والمقصود : هو القول الاول الذي ذكرناه ، وهو المطلق بشرط الاطلاق عن النفي والاثبات ، وهو أكملها في التعطيل والالحاد ، وهو الذي قال به محيي الدين واضرابه ، وذكره في فصوصه مع أقوال أخر غاية في البشاعة ، وهل يجوز لتشرع أن يجعل من قال بقول القرامطة من الاولياء ويعترض على من اعترض عليه ويبدعه ؟
وقد نظم العلامة قاضي اليمن شرف الدين الشيخ اسمعيل بن ابي بكر المعروف بابن المقرئ الشافعي قصيدة غراء في أحوال من قال بوحدة الوجود وكتبهم فقال :

الا يارسول الله غارة تأسر	غور على حرماته والشعائر
يحاط بها الاسلام ممن يكيده	ويرميه من تليسه بالبواتر
فقد حدثت في المسلمين حوادث	كبار المعاصي عندها كالصغائر

حوتهن كتب حارب الله ربها
تجاسر فيها ابن العرابي واجترا
فقال بان الرب والعبد واحد

(الى أن قال) :

كما ضل في التهليل جهرا بنفسه
وقال الذي ينفية عين الذي أتى
فافسد معنى ما به الناس أسلموا
فسبحان رب العرش عما يقوله
فقال عذاب الله عذب وربنا
وقال بأن الله لم يعص في السورى
وقال مراد الله وفق لأمره
وكل امرئ عند المهيم يرتضى
وقال يموت الكافرون جميعهم
وما خص بالايمان فرعون وحده
فكذبه ياهذا تكن خير مؤمن
واثنى على من لم يجب نوحا اد دعا
وسمى جهولا من يطاوع أمره
ولم ير بالطوفان أغراق قومه
وقال بلى قد أغرقوا في معارف
كما قال فازت عاد بالقرب واللقا
وقد اخبر الباري بلغته لهم
وصدق فرعون وصح فوله
واثنى على فرعون بالعلم والذكا
وقال خليل الله في الذبح واهم
يعظم أهل الكفر والانياء لا
ويثني على الاصنام خيرا ولا يرى
وكم من جرات على الله قالها
ولم يبق كفر لم يلبسه عامدا

وغربها من غريبن الحواضر
على الله فيما قال كل التجاسر
فربسى مربوب بغير تغاير

واثباته مستهجلا للمغاير
به مثبتا لاغير عند التجاور
والغاه الغا بينات التهاجر
أعاذبه من مثل هذي الكبائر
ينعم في نيرانه كل فاجر
فما ثم محتاج لعاف وغافر
فما كافر الا مطيع الاوامر
سعيد فما عاص لديه بخاسر
وقد آمنوا غير المفاجي المبادر
لدى ميثه بل عم كل الكوافر
والافصقه تكن شر كافر
الى ترك واد أو سواع وناسر
على تركها قول الكفور المجاهر
ورد على من قال رد المناكر
من العلم والبارى لهم خير ناصر
من الله في الدنيا وفي اليو الآخر
وابعدهم فاعجب له من مكابر
اذا الرب الاعلى وارتضى كل سامري
وقال بموسى عجلة المتبادر
ورؤيا ابنه يحتاج تعبير عابـر
يعاملهم الا بحط المقـادر
لها عابدا ممن عصى امر آمر
وتحريف آيات بسوء تـفاسر
ولم يتورط فيه غير محاذر

من الاولياء للاولياء الاكابر
له دونه فاعجب لهذا التنافر
عن الله وحيا بتوسط آخر
من التابعين للامور الظواهر
لمقداره الاعلى وليس بحاقر
يرى منه أعلى من وجوه افاجر
لاحد حتى جا بهذي المعاذر
على ما يرى من فتح هذي المخابر
بمشكاة هذا تستضي في الدياتر
بأنك أنت الختم رب المفاخر
بانفاذه في العالمين أوامري
وكن كل شهر طول عمرك زائري
لدينا فهل أبصرت يا ابن الاحافر
واجرا على غشيان هذي الفواطر
وقد ختمت فليأخذوا بالاقادر
له بعض تمييز بقلب وناظر
فلا فرق فينا بين بر وفاجر
من الله جاءت فهي وفق المقادر
وانزل قرآن بهذي الزواجر
بقول غريق في الضلالة جائر
لاقوال هذا الفيلسوف المعاذر
وما في فتوحات الشرور الدوائر
مساءر نار قبحت من مساعر
يمنيكم بعض الشيوخ المدابر
به الجلد ان ينضج يبدل بأخر
اذا لم تتوبوا اليوم علم مباشر
بأن عذاب الله ليس بضائر
ومن سن علم الباطل المنتهاتر
فاهلك اغمارا به كالاباقر

وقال سيأتينا من الصين خاتم
له رتبة فوق النبي ورتبة
فرتبته العليا يقول لاخذه
ورتبته الدنيا يقول لانه
وقال اتباع المصطفى ليس واضعا
فان يد من منه لا اتباع فانه
يرى حال نقصان له في اتباعه
فلا قدس الرحمن شخصا يحبه
وقال بان الانبياء جميعهم
وقال فقال الله لي بعد مدة
اتني ابتداء بيض اسطر ربنا
وقال ولا تشغلك عني ولاية
فرفدك اجزلنا وقصدك لم يخب
باكذب من هذا واكفر في السورى
فلا يدعى من صدقوه ولاية
فيا العباد الله ما ثم ذو حجي
اذا كان ذو كفر مطيعا كمؤمن
كما قال هذا ان كل أوامر
فلم تتبعث رسل وسنت شرائع
أيخلع منكم ربقة الدين عاقل
ويترك ماجاءت به رسل الهدى
فيا محسني ظن بما في فصوصه
عليكم بدين الله لاتصجوا غدا
فليس عذاب الله عذبا كمثل ما
ولكن اليم مثل ما قال ربنا
غدا تعلمون الصادق القون منهما
ويبدو لكم غير الذي يعدونكم
ويحكم رب العرش بين محمد
ومن جا بدين مفترى غير دينه

وما للنبي المصطفى من مآثر
فليس كنور الصبح ظلم اندياجر
فما آمن في دينه بمخاطر
يقومون في بحر من الكفر ظاهر
على هذه راحوا بصفقة خاسر
باسلامه المقبول عند انتحاور
خواتم سوء غيرها في الخناصر
وقوم مضوا مثل النجوم الزواهر
ولا لطلول الحق ذكر لذاكر
لقوم ولكن بلغة للمسافر
بها خوف رب العرش صوم البواكر
عبوس المحيا قمطيرير الظواهر
قيام لياليهم وصوم الهواجر
وعد عن دواعي الابتداع الكوافر

فلا يخذعن المسلمين عن الهدى
ولا يؤثروا غير النبي على النبي
دعوا كل ذي قول لقول محدد
واما رجالات الفصوص فانهم
اذا راح بالربح المتابع أحسدا
سيحكي لهم فرعون في دار خلده
ويا أيها الصوفي خف من فصوصه
وخذ نهج سهل والجنيذ وصالح
على الشرع كانوا ليس فيهم لوحدة
رجال رأوا ما الدار دار اقامة
فأحيوا لياليهم صلاة ويينوا
مخافة يوم مستطير بشره
فقد نحتل أجسادهم واذابها
أولئك أهل الله فالزم طريقهم

وكثير من أهل العلم ردوا على الشيخ محيي الدين ، ويينوا خطأه فيما قال
في الفصوص والفتوحات وسائر كتبه من المسائل المناقضة للشريعة ، وسيأتي بعض
ذلك ان شاء الله عندما يكرر النبهاني كلامه كما هي عادته ، والله ينتقم منه ، فهو
الذي تسبب الى الخوض في هذه المباحث المفروغ عنها ، وأسأله تعالى أن يفسر
لنا ولكافة المسلمين .

وتشبيه النبهاني لشيخ الاسلام بابن حزم يفهم منه انه لم يرتض ابن حزم وهو
الشيخ الجليل الشأن ، أوحد عصره في العلم والزهد ، صاحب التصانيف المفيدة ،
وما كان ذنبه سوى بيان مفاسد الاشاعرة واضرابهم ، وكلامه على من خالف السنة ،
وربما صدر منه بعض الخطأ اجتهدا .

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معائبه

ولا ينبغي من مثل النبهاني من الجهلة أن يتجاسر على من يبارى امامه في
العلم والزهد ، ولكنه قد اتخذ الوقاحة ديدنا قاتله الله ما أجهله وما أحمقه .

(ويقال للنبهاني ثالثا) اذ تصدى لمعارضة القصيدتين الفريدتين (احدهما)

للشيخ الامام العالم العلامة الحافظ ذي القنون البديعة والمصنفات النافعة أبو المظفر يوسف بن محمد بن مسعود بن محمد بن علي بن ابراهيم العبادي ثم العقيلي السرمري نزيل دمشق الحنبلي ، وقد عارض بها الايات التي كتبها السبكي التي أنشدها لما وقع نظره على كتاب (منهاج السنة) واستعرت في قلبه نيران الحسد .

(والآخرى) للشيخ الامام العلامة أبي عبد الله محمد بن جمال الدين يوسف الشافعي اليمني . رد فيها على السبكي فيما قاله في ابياته تلك من الرد على شيخ الاسلام ابن تيمية ، وكلا القصيدتين قد اشتمتا من الفصاحة والبلاغة على منتهاهما مع مافيهما من الرد الوافي على السبكي ، فلو رأهما لبقى مدة عمره يبكي ، والقصيدتان طبعتا مع كتاب (منهاج السنة) فلا حاجة لنا في ذكرهما مع كون كثير من طلبة العلم يحفظونهما .

مادخولك أيها النبهاني بين الفرسان ؟ وأنت لاتقاوم لمزيد جهلك الصبيان ؟
قد عارضت بزعمك القصيدتين ، وأتيت بما لم يتكلم به ابن يومين ، ابن السمك من السماك ؟ وابن الحصى من درر الاسلاك ؟ وابن نار الجباب من بدور الافلاك ؟
قد مثلت ولكن كما مثل النجوم الماء ، وكما انعكس في الغدير لون السماء ، لقد حكيت ولكن فأتك الشنب ، وفي الخمر معنى ليس يدرك من العنب .
(واعلم أيها الناظر) ان الشعراء على أربع طبقات جمعها بعض أهل الادب من العلماء في قوله :

الشعراء فاعلمن اربعه فشاعر لاترجى لمنفعه
وشاعر ينشد وسط المجمعه وشاعر يقال حمر في دعه
وشاعر آخر لايجرى معه

وقد قيل لايزال المرء مستورا وفي مندوحة مالم يصنع شعرا أو يؤلف كتابا ، لان شعره ترجمان علمه ، وتأليفه عنوان عقله ، وقال حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه :

وان أشعر بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا
وانما الشعر لب المرء يعرضه على المجالس ان كيسا وان حمقا

وقال محمد بن منذر وكان اماما في الفضل والادب :

لاتقل شعرا ولا تهتم به فاذا ماقلت شعرا فاجسد

وقال دعبل الخزاعي :

ساقضي بيت يحمد الناس أمره ويكثر من أهل الرواية حامله
يموت ردىء الشعر من قبل أهله وجيده يقى وان مات قائله

وقالوا أيضا الشعراء اربعة : فشاعر خنذيد وهو الذي يجمع الى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره ، وشاعر مفلق وهو الذي لارواية له الا انه موجود كالخنذيد في شعره ، وشاعر فقط وهو فوق الرديء بدرجة ، وشعرور وهو لاشيء • وقيل : بل هم شاعر مفلق ، وشاعر مطلق ، وشويعر ، وشعرور • والمفلق هو الذي يأتي في شعره بالفلق وهو العجب ، وقيل الفلق الداهية ، قال الاصمعي فالشويعر مثل محبو بن حمران بن أبي حمران سناه بذلك امرؤ القيس ، وقال بعضهم شاعر وشويعر وشعرور ، وقال العبدى في شاعر يدعى الشويعر من بني ضبة ثم من بني حميس :

الا انتهى سراة بنى حميس شويعر هـ فولية الافاعي

فسناه شويعرا وفالية الافاعي دوية فوق الخنفساء فصغرها أيضا تحقيرا له ، وزعم الحاتمي ان النابغة سئل من أشعر الناس فقال من استجيد جیده واضحك رديه ، وهذا كلام يستحيل مثله عن النابغة لأنه اذا أضحك رديه كان من سفلة الشعراء الا أن يكون في الهجاء خاصة •

وقال الحطيئة يصف صعوبة الشعر :

الشعر صعب وطويل سلمه اذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه يريد ان يربيه فيعجسه

وانما سمي الشاعر شاعرا لانه يشعر بما لا يشعر له غيره ، واذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ولا استطراف لفظ وابتداعه ولا زياده فيما أجهف به غيره من المعاني أو نقص مما أطاله سواه من الالفاظ أو صرف معنى الى وجه عن وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ، ولم يكن له الا فضل الوزن ، وليس هو بفضل مع التقصير •

ولقي رجل آخر فقال له ان الشعراء ثلاثة : شاعر ، وشويعر ، وماص بظرامة ، فأيهم أنت ؟ قال : أنا أنا فشويعر ، واختصم أنت وامرؤ القيس في الباقي ، وقال

بعضهم الشعر شعرا ن جيد محكك وردى مضحك ولا شىء اثقل من الشعر الوسط والغناء الوسط ، ويقال : ان الشعر كالبحر أهون ما يكون على الجاهل ، أهول ما يكون على العالم ، وأتعب أصحابه قلبا من عرفه حق معرفته ، وأهل صناعة الشعر ابصر بها من العلماء بألته من نحو وغريب ، ومثل وخبر ، وما أشبه ذلك ، ولو كانوا دونهم بدرجات فكيف أن قاربوهم أو كانوا منهم بسبب ، وقيل للمفضل الضبي لم لاتقول الشعر وأنت أعلم الناس به ؟ قال : علمى هو الذى يمنعى من قوله وأنشد :

وقد يعرض الشعر البكى لسانه وتعى القوافى المرء وهو لىب

والشعر مزلة العقول ، وذلك أن أحدا ما صنعه فكتمه ولو كان رديا ، وانما ذلك أسروره به واكباره اياه ، وهذه زيادة فى فضل الشعر وتبىه على قدرة وحسن موقعه من كل نفس ، ومن نظر لشعر النباني ممن له ذوق وسليقة علم أن الرجل لىس بشاعر ولا شوىعر ولا ولا ، لانه مفلس من كل فضيلة ، وتبين له من نظمه انه لا يعلمه ، وانه قد زلت به الى الحضيض قدمه ، من ذلك قوله فى أول قصيدته وهو أحد المواضع التى يجب التأثق فيها والاعتناء بشأها :

فان تعن ثعلبا يسطو على أسد أو تخذل الليث لا يقوى لثعلبه

فانظر الى قوله فان تعن ثعلبا ما أقبح وقعه فى هذا المقام ، وقد خاطب المنك العلام ، وقد رضى أن ينزل هو بمنزلة الثعلب وهو كلب من الكلاب ، ويكفيه ذلك سخافة لعقله وفضيحة بين أولى الالباب ، ولو أخذنا تناقشه بمثل هذه الكلمات لطال الكلام فى هذا المقام وضاع المقصود وفات ، وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم والصناعات : منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الاذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما تثقفه اللسان ، من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره ، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ، ولا طراءة ولا دنس ، ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائفها ، وستوقها ومفرغها ومنه البصر بأنواع المتاع وضروبه وصنوفه مع تشابه لونه ومنه وذرعه واختلاف بلاده ، حتى يرد كل صنف منها الى بلده الذى خرج منه ، وكذلك بصر الرقيق ، فتوصف الجارية فيقال ناصعة اللون ، جيدة الشطب ، نقيه الثغر ، حسنة العين والانف ، لطيفة النهدين ، ظريفة اللان ، واردة الشعر ، فتكون بهذه الصفة بمائة دينار ، أو بمائتي دينار ، وتكون أخرى بألف دينار ، أو بألفى دينار ،

ولكن لا يجد واصفها مزيدا على هذه الصفة ، وتوصف الدابة فيقال : خفيف العنان ، لين الظهر ، شديد الحافر ، فتي السن ، نقي من العيوب ، فيكون بخسين ديناراً أو نحوها ، وتكون أخرى بمائتي دينار أو أكثر ، وتكون هذه صفتها أيضا ، ويقال للرجل والمرأة في القراءة والغناء انه لندى الحلق ، طويل الصوت ، طويل النفس ، مصيب اللحن ، ويوصف الآخر أو الاخرى بهذه الصفة وبينهما بون بعيد ، يعرف ذلك أهل العلم به عند المعاينة والاستماع بلا صفة ينتهي اليها ، ولا علم يوقف عليه ، وان كثرة المدارس لتعين على العلم به ، وكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به .

وقال بعض الحنّاق : ليس للجودة في الشعر صفة ، انما هي شيء يقع في النفس عند المميز ، كالفرند في السيف ، والملاحة في الوجه .

والمقصود أن قصيدة النبهاني التي زعم أنه عارض بها القصيدتين ليست من الشعر في شيء ، انما هي ألفاظ خالية من المعاني ، وقد ذكرنا لك بيت قصيده وهو قوله : فان تعن ثعلبا البيت . وهو كلام ليس عليه طلاوة ، ولا يدرك له حلاوة ، ومعناه معنى مغسول ، بل كله حشو وفضول ، فقبجه الله وقبح شعره .

وما تضمنته قصيدته من انكار صفة العلو لله تعالى وادعاء جواز الاستغائة بغير الله تعالى سبق البحث عنه والكلام فيه بما لا مزيد عليه ، وسيأتي أيضا تنمة للكلام عن الاستغائة ان شاء الله تعالى .

(قال النبهاني) ومن كتب الامام ابن تيمية (كتاب العرش) قال في (كشف الظنون) ذكر فيه ان الله سبحانه وتعالى يجلس على العرش ، وقد اخلى مكانا يقعد معه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ذكر ذلك أبو حيان في النهر عند الكلام على قوله تعالى : (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) وقال : قرأت في كتاب العرش لأحمد بن تيمية ماصورته بخطه ، انتهت عبارة كشف الظنون ، ثم نقل عن الزبيدي أنه قال في شرح الاحياء - عند قول الامام الغزالي في عقيدته قواعد العقائد - الاصل الثامن : العلم بأن الله تعالى مستو على العرش ، قال : قال تقي الدين السبكي و (كتاب العرش) من أفصح كتب ابن تيمية الخ . ثم نقل نص (جلاء العينين) في تبرية الحنابلة عن القول بالجسمية ، وما نقله العلامة الكوراني في ذلك ، ثم اعترض النبهاني على ذلك بما كشف به عن حقيقة جهله ، وانه لم يعرف من العلم شيئا ، ثم هذى هديانا في هذا الباب كره عدة مرات .

(والجواب أن يقال للنبهاني) هذا المطلب من المطالب العالية ، وقد أشبعنا الكلام عليه سابقا عند الكلام على رسالته التي زعم أنه رد بها على من يقول بصفة العلو ، وإن النهباني ليس من رجال هذا الميدان ، وإنه ظالم ولا يدرك الظالم شأوا الضليع ، وفي (جلاء العينين) كلام أيضا مفصل في هذا الباب يكتب بثله انظن اللبيب ، وفيه نبذة من كلام شيخ الاسلام في (كتاب العرش) وهو الكتاب الذي لم يؤلف مثله في هذا الموضوع وفي ذلك ما يكذب ما نقله النهباني عن الزبيدي وغيره . والسبكي حاله في النقل معلوم ، وهذه كتب شيخ الاسلام في كل فن بين الايادي والحمد لله ، ففي أي كتاب قال ان الله يجلس على العرش وإنه قد أخلى مكانا يقعد معه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وفي أي كتاب رآه أبو حيان من كتب الشيخ .

والحاصل : أن مثل هذا النقل يجب على الناقل تصحيحه كما هو مقتضى قوانين المناظرة ، وبعد التصحيح تتكلم عليه ، وكيف يمكن تصحيحه وكتب الشيخ مصرحة بخلافه كما لا يخفى على من تتبع كتبه وأقواله .

قال شيخ الاسلام - قدس الله روحه - ما أخبر به الرسول عن ربه فإنه يجب الايمان به ، سواء عرفنا معناه او لم نعرف ، لانه الصادق المصدوق ، فما جاء في الكتاب والسنة وجب على كل مؤمن الايمان به وإن لم يفهم معناه ، وكذلك ما ثبت باتفاق سلف الامة وأئمتها ، مع أن هذا الباب يوجد عامته منصوصا في الكتاب والسنة ، متفقا عليه بين سلف الامة ، وما تنازع فيه المتأخرون نفيًا وإثباتا فليس على أحد ، بل ولا له أن يوافق أحدا على اثبات لفظ او نفيه حتى يعرف مراده ، فإن أراد حقا قبل ، وإن أراد باطلا رد ، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقا ولم يرد جميع معناه ، بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى ، قال : كما تنازع الناس في الجهة ، فلفظ الجهة قد يراد به شيء موجود غير الله فيكون مخلوقا كما اريد بالجهة نفس العرش او نفس السموات ، وقد يراد به ما ليس بموجود غير الله تعالى كما اذا اريد بالجهة ما فوق العالم ، ومعلوم أنه ليس في النص اثبات لفظ الجهة ولا نفيه ، كما فيه اثبات العلو والاستواء والفوقية والعروج اليه ونحو ذلك ، وقد علم أنه ما ثم موجود الا الخالق والمخلوق ، والخالق مبين المخلوق سبحانه وتعالى ، نيس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، فيقال لمن نفى الجهة : أتريد بالجهة انها شيء موجود مخلوق فالله ليس داخلًا في المخلوقات ، أم تريد بالجهة ما وراء

العالم فلا ريب أن الله فوق العالم بائن من المخلوقات ، وكذلك يقال لمن قال الله في جهة ، أتريد بذلك أن الله فوق العالم أو تريد أن الله داخل في شيء من المخلوقات فان أردت الاول فهو حق ، وان أردت الثاني فهو باطل ، وكذلك لفظ المتحيز ان أراد به أن الله تحوزه المخلوقات فالله أعظم وأكبر ، قد وسع كرسيه السموات والارض ، وقد قال تعالى : (وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) ^(١) وقد ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يقبض الله الارض ويطوي السموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الارض) وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه (ما السموات السبع والارضون السبع وما فيهن في يد الرحمن الا كخردلة في يد أحدكم) وفي حديث آخر : (وانه ليدحوها كما يدحو الصبيان بالكرة) قال : وان أراد به أنه منحاز عن المخلوقات أي مباين لها ومنفصل عنها ليس حالا فيها فهو سبحانه - كما قال أئمة السنة - فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، كما ذكره في التدمرية •

وقال شيخ الاسلام في (التدمرية) أيضا : أما علوه تعالى ومباينته للمخلوقات فيعلم بالعقل ، وأما الاستواء على العرش فطريق العلم به هو السمع ، وليس في الكتاب والسنة وصف له بأنه لادخل العالم ولا خارجه ، ولا مباينه ولا مداخله ، فيظن المتوهم أنه اذا وصف بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الانسان على ظهور الفلك والانعام ، كقوله : (وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ) ^(٢) فيتخيل أنه اذا كان مستويا على العرش كان محتاجا اليه كحاجة المستوى على الفلك والانعام ، فتعالى الله وتقدس ، فهذا خطأ في مفهوم استوائه تعالى على العرش حيث ظن أنه مثل استواء الانسان ، فانه ليس في اللفظ ما يدل على ذلك ، لأنه تعالى أضاف الاستواء الى نفسه الكريمة كما أضاف اليه سائر أفعاله وصفاته ، فذكر أنه خلق ثم استوى كما ذكر أنه قدر فهدى ، فلم يذكر استواء مطلقا يصلح للمخلوق ولا عاما يتناول المخلوق ، كما لم يذكر مثل ذلك في سائر صفاته •

وقد علم أنه تعالى الغني عن الخلق ، وأنه الخالق للعرش ولغيره ، وأن كل

(١) الزمر : ٦٧ (٢) الزخرف : ١٢ ، ١٣

ما سواه مفتقر اليه ، وهو الغني عن كل ماسواه ، فكيف يجوز أن يتوهم أنه تعالى إذا كان مستويا على العرش كان محتاجا اليه ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، هل هذا الاجهل محض وضلال ممن فهم ذلك وتوهمه أو ظنه ظاهر اللفظ أو جوزه على رب العالمين الغني عن الخلق المجيد المتعال ؟ انتهى •

وقد ذكر في تفسير آية الكرسي - وهو مجلد كبير - مثل ذلك ، وهكذا في كثير من كتبه ، ولم نر في شيء من كتبه ما نقله النبهاني الأفاك انه قال ان الله يجلس على العرش وانه قد اخلى مكانا يقعد معه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل ولا ذكره أحد ممن ينتمي اليه من تلامذته وأصحابه ، كالحافظ ابن القيم وكتبه هاهي بين الايدي ، وكالحافظ الذهبي وكتبه في البلاد والاقطار منتشرة ، وكالحافظ الامام ابن قدامة ، وكالحافظ ابن كثير ، وغيرهم ممن لا يحصون كثرة ، والعجب ممن لا يلتفت الى صريح كلامه ونص عبارته ، ويعتبر ما يسمعه من أفواه خصومسه وأعدائه ، كابن حجر المكي والسبكي والزيدي ونحوهم من الغلاة ، وترى هؤلاء يدافعون عن بعض المنصوفة وقد تكلموا بكلمات الكفر ، فيجهدون كل الجهد في تأويلها ، ويتعسفون في تصحيحها ، ويحتجون على ذلك بأنهم تكلموا أحيانا بما يوافق الحق ، حتى اني تكلمت يوما مع بعض الغلاة فيما قاله صاحب الفصوص والفتوحات من الكلمات المصرفة بالحلول والاتحاد ، وذكرت له مقاله فيها العلامة السعد التفتازاني ، والشيخ علي القاري ، والشيخ محمد البخاري وغيرهم • فقال : ان هؤلاء لم ينصفوا ، فان صاحب الفصوص قد صرح بعقيدة الاسلام في كثير من كتبه ، فمن الواجب أن نصرف ما نسمع من كلامه المخالف للحق الى ما يوافق ، ونحمله على محمل حسن ، كما اولوا قوله سبحانه من أظهر الاشياء وهو عينها أي عين وجودها الماسك لها ، ونحو ذلك صيانة لهؤلاء الكمل من الوقعة فيهم • فقلت : فما قولك في مسلم يصلي ويصوم ويزكي ويحج البيت وقد تكلم بالكفر هل تؤل كلامه وتصرف عنه موجب الكفر ؟ أم تقول بما قاله الفقهاء في كتاب الردة ؟ ثم انكسب لم تدبوا عن ابن تيمية وتعذروا عنه بمثل ما اعتذرتم عن شيخكم ، وقد ملأ الكتب من الايمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وتشبهون بالقدح فيه بما زوره عليه أنستكم مما لا وجود له في كتبه ولا كتب أصحابه ، فكان من الواجب عليكم أنه اذا ثبت عنه شيء مذكور في كتبه أن تجتهدوا في حمله على محمل حسن ، ولم تشتوه كما شتمه أنستكم واسلافكم ، فلم يجب بشيء واعرضت عن مكالمته •

ثم ان الذي نقلناه عنه مما هو مذكور في كتاب العرش ، وتفسير آية الكرسي ،
والدمرية ، وغير ذلك من كتبه قد قال به السلف ، وصرح به كثير من المتأخرين
أيضا .

قال الامام أبو العباس عماد الدين أحمد الواسطي الصوفي المحقق العارف
تلميذ شيخ الاسلام ابن تيمية - قدس الله سرهما ، وهو الذي قال فيه شيخ
الاسلام انه جنيد زمانه - في رسالته نصيحة الاخوان ما حاصله : ان الله عز وجل
كان ولا مكان ، ولا عرش ولا ماء ، ولا فضاء ولا هواء ، ولا خلاء ولا ملاء ، وانه
كان منفردا في قدمه وأزليته ، متوحدا في فردانيته ، لا يوصف بأنه فوق كذا اذ لا شيء
غيره ، وهو تعالى سابق التحت والفوق اللذين هما جهتا العالم ، وهو لازمان له
تعالى ، وهو تعالى في تلك الفردانية منزه عن لوازم الحدث وصفاته ، فلما اقتضت
الارادة المقدسة خلق الاكوان المحدثة المخلوقة المحدودة ذات الجهات اقتضت الارادة
أن يكون الكون له جهات من العلو والسفل ، وهو سبحانه منزه عن صفات الحدث ،
فكون الاكوان ، وجعل جهتي العلو والسفل ، واقتضت الحكمة الالهية أن يكون
الكون في جهة التحت لكونه مربوبا مخلوقا ، واقتضت العظمة الربانية أن يكون
هو تعالى فوق الكون باعتبار الكون لا باعتبار فردانيته ، اذ لا فوق فيها
ولا تحت .

والرب سبحانه وتعالى كما كان في قدمه وازليته وفردانيته لم يحدث له في ذاته
ولا في صفاته مالم يكن في قدمه وأزليته ، فهو الآن كما كان لما أحدث الربوب
المخلوق ، ذا الجهات والحدود والخلا والملا ، ذا الفوقية والتحتية : كان مقتضى
حكم العظمة والربوبية ان يكون فوق ملكه ، وان تكون المملكة تحته باعتبار
الحدوث من الكون لا باعتبار القدم من المكون ، فاذا أشير اليه بشيء يستحيل
ان يشار اليه من جهة التحتية أو من جهة اليمين أو من جهة اليسرة ، بل لا يليق أن
يشار اليه الا من جهة العلو والفوقية ، ثم الاشارة هي بحسب الكون وحدوثه
وأسفله ، فالاشارة تقع على أعلى جزء من الكون حقيقة ، وتقع على عظمة الله
تعالى كما يليق به ، لا كما يقع على الحقيقة المحسوسة عندنا في أعلى جزء من الكون
فانها اشارة الى جسم ، وتلك اشارة الى اثبات ، اذا علم ذلك فالاستواء صفة
كانت له سبحانه وتعالى في قدمه ، لكن لم يظهر حكمها الا بعد خلق العرش ، كما
أن الحساب صفة قديمة لا يظهر حكمها الا في الآخرة ، وكذلك التجلي في الآخرة
لا يظهر حكمه الا في محله .

قال : فاذا علم ذلك فالامر الذي تهرب المتأولة منه - حيث اولوا الفوقية بفوقية
المرتبة والاستواء بالاستيلاء - فنحن أشد الناس هربا من ذلك ، وتنزيها للباري
تعالى عن الحد الذي لا يحصره ، فلا يحد بحد يحصره ، بل بحد تتميز به عظمة ذاته
عن مخلوقاته ، والاشارة الى الجهة انما هي بحسب الكون وأسفله ، اذ لا يمكن
الاشارة اليه الا هكذا ، وهو في قدسه سبحانه منزه عن صفات الحدث ، وليس في
القدم فوقية ولا تحتية ، وانما من هو محصور في التحت لا يمكنه معرفة بارئيه
الا من فوقه ، فتقع الاشارة الى العرش حقيقة اشارة معقولة ، وتنتهي الجهات
عند العرش ، ويبقى ماوراءه لا يدركه العقل ولا يكفيه الوهم ، فتقع الاشارة عليه
كما يليق به مجملا مثبتا لا مكيفا ممثلا .

قال : فاذا علمنا ذلك واعتقدناه تخلصنا من شبهة التأويل ، وعماية التعطيل ،
وحماقة التشبيه والتمثيل ، وأثبتنا علو ربنا وفوقيته ، واستواءه على عرشه كما يليق
بجلاله وعظمته ، والحق واضح في ذلك ، والصدر ينشرح له ، فان التحريف تأباه
العقول الصحيحة ، مثل تحريف الاستواء بالاستيلاء وغيره ، والوقوف في ذلك
جهل وغبي ، مع كون الرب وصف نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها ، فوقوفنا عن اثباتها
ونفيها عدول عن المقصود منه في تعريفنا اياها ، فما وصف لنا نفسه بها الا لنثبت ما
وصف به نفسه لنا ولا نقف في ذلك .

قال : وكذلك التشبيه والتمثيل حماقة وجهالة فمن وفقه الله للاثبات فلا
تحريف ولا تكييف ولا وقوف ، فقد وقع على الامر المطلوب منه ان شاء الله تعالى ،
والله أعلم . انتهى .

وذكر شيخ الاسلام في كتابه في العرش كلاما مفيدا أحيينا نقله في هذا المقام
اكمالا للفائدة ما حاصله : اختلف في العرش هل هو كروي كالافلاك فيكون محيطا
بها ، واما أن يكون فوقها وليس هو كريا ، فان كان الاول فن المعلوم باتفاق من
يعلم ان الافلاك مستديرة كرية الشكل ان الجهة العليا هي جهة المحيط وهو المحدد ،
وأن الجهة السفلى هي المركز ، وليس للافلاك الا جتان العلو والسفل فقط ، وأما
الجهات الست فهي للحيوان وليس لها في نفسها صفة لازمة ، بل هي بحسب الاضافة
فيكون يمين هذا ما يكون يسار هذا ، ويكون أمام هذا ما يكون خلف هذا ، ويكون
فوق هذا ما يكون تحت هذا ، لكن جهة العلو والسفل للافلاك لا تتغير ، فالمحيط

هو العلو والمركز هو السفلى ، مع أن وجه الأرض التي وضعها الله للانام وارساها بالجبال هو الذي عليه الناس ، والبهايم ، والشجر ، والنبات ، والجبال ، والانهار الجارية . فاما الناحية الاخرى من الارض فالبحر محيط بها ، وليس هناك شيء من الادميين وما يتبعهم ، ولو قدر أن هناك أحد لكان على ظهر الارض ولم يكن من في هذه الجهة تحت من في هذه الجهة ، ولا من في هذه تحت من في هذه ، كما أن الافلاك محيطة بالمركز ، وليس أحد جانبي الفلك تحت الآخر ، ولا القطب الشمالي تحت القطب الجنوبي ولا بالعكس .

وان كان الشمالي هو الظاهر لنا فوق الارض وارتفاعه بحسب بعد الناس عن خط الاستواء ، فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلا كان ارتفاع القطب عنده ثلاثين درجة ، وهو الذي يسمى عرض البلد .

فاذا قدر أن العرش مستدير محيط بالمخلوقات كان هو أعلاها وسقفها ، وهو فوقها مطلقا ، فلا يتوجه الانسان اليه والى ما فوقه الا من العلو من جهاته الباقية ، ومن توجه الى الفلك التاسع او الثامن أو غيره من غير جهة العلو كان جاهلا باتفاق العقلاء ، فكيف بالتوجه الى العرش أو الى ما فوقه ، وغاية ما يقدر أن يكون كرى الشكل ، والله تعالى محيط بالمخلوقات كلها احاطة تليق بجلاله ، فان السموات السبع والارض في يده أصغر من الحصاة في يد أحدنا .

قال ابن عباس رضي الله عنهما (ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن الا كخردلة في يد أحدكم) . وهذا الاثر وامثاله معروف في كتب الحديث . قال شيخ الاسلام : ومن المعلوم ان الواحد منا - ولله المثل الاعلى - اذا كان عنده خردلة ان شاء قبضها فأحاطت بها قبضته ، وان شاء لم يقبضها بل جعلها تحته ، فهو في الحالين مباين لها ، والعرش - سواء كان هذا الفلك التاسع الذي هو الفلك الاطلس عند الفلاسفة ويسمونه الفلك الاعظم وفلك الافلاك أو كان جسما محيطا بالفلك التاسع او كان فوقه من جهة وجه الارض - غير محيط به .

فيجب على كل حال أن يعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة الى الخالق في غاية الصغر ، كما قال تعالى : (وَمَا تُدْرِكُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

وفي ذلك من الاحاديث ما سيأتي ذكر بعضها ، وسواء قدر أن العرش محيط
بالمخلوقات كاحاطة الكرة بما فيها ، أو قيل انه فوقها وليس محيطا بها كوجه الارض
الذي نحن عليه بالنسبة الى جوفها وكالقبّة بالنسبة الى ماتحتها ، أو غير ذلك ، فعلى
التقديرين يكون العرش فوق المخلوقات والخالق سبحانه وتعالى فوقه ، والعبد في
توجهه الى الله يقصد العلو دون التحت .

ثم قال شيخ الاسلام في آخر (كتاب العرش) قد تبين أنه سبحانه وتعالى أعظم
وأكبر من أن تكون المخلوقات عنده بمنزلة داخل الفلك في الفلك ، وأنها أصغر عنده
من الحمصة أو الفللفة ونحو ذلك في يد أحدنا ، فاذا كانت الحمصة أو الفللفة بل
الدرهم والدينار والكرة التي يلعب بها الصبيان ونحو ذلك في يد انسان أو تحته
أو نحو ذلك هل يتصور عاقل - اذا استشعر علو الانسان على ذلك واحاطته به -
ان يكون الانسان كالفلك ، فالله تعالى - وله المثل الاعلى - أعظم من أن يظن
ذلك به ، وانما يظنه الذين لم يقدروا الله حق قدره ، والارض جميعا قبضته يوم
القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، انتهى .

وقد تبين من هذه النقول أن البحث دقيق ، فلهذا لم يفهمه كثير من أهل العلم
فضلا عن النبهاني ، فكلامه الذي اقتضى اعادة القول ، فاللوم عليه لا علينا ،
والله موفق .

هذا آخر الجزء الاول من كتاب (غاية الاماني ، في الرد على النبهاني) ونسأله
تعالى التوفيق لاكتماله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله .
(وكان الفراغ منه على يد مؤلفه في رمضان سنة ١٣٢٥)

(تم المجلد الاول ويليه المجلد الثاني)

(وأوله : الرد على ما انتقده الخصم على كتاب اغائة اللفان الخ)

الطبعة الثانية عام ١٣٩١ هـ



1917

...

...

...

...

...

...

...

الفهرس

الموضوع	الصحيفة
المقدمة .	٥ - ٣
ترجمة المؤلف .	١٢ - ٦
خطبة الكتاب .	١٥ - ١٣
الامور التي يجب التنبيه عليها .. الخ	٥٨ - ١٥
الامر الاول : أن الكتب المصنفة في حقائق الدين .. لا تحصى كثرة ، ومع ذلك لم تؤثر في القلوب القاسية .	١٦ - ١٥
بعض الاسباب المانعة من قبول الحق ، شيئا من الادلة في ذلك ، وتفسير حديث (مثل ما بعثني الله به) .	١٩ - ١٦
الامر الثاني من الامور التي يجب التنبيه عليها : أن في أمة محمد من يتبع سنن الامم السابقة من جاهلية الكنايين وغيرهم ، وأن في الغلاة ومبتدعة أهل القبور من خصالهم ما يصدق به عليهم اتباع سننهم .	٢٧ - ١٩
شرح هذا الامر ، وذكر العديد من الخصال التي حصل فيها الاتباع ، وايضاح ذلك بالادلة والامثلة .	٢٧ - ١٩
الامر الثالث من الامور التي يجب التنبيه عليها : أن من مكائد الغلاة التشنيع على أهل الحق لتنفير القلوب عنهم ، ايضاح هذا الامر بأدلة ونقول من كلام بن تيمية ، وايضاح أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ .	٣٧ - ٢٧
ايراد المؤلف لما ذكره شيخ الاسلام في الرسالة الماردينية مما تتعلق بالمقصود .	٣٦ - ٣٢
الامر الرابع من الامور التي يجب التنبيه عليها : أن من مكائد الغلاة للعوام أنهم يقولون ان الاستغاثة بالاموات ، من علامات محبتهم .. الخ ، رد هذا وابطاله .	٣٨ - ٣٧

- الامر الخامس : أن كثيرا ممن يظهر عقيدة الغلاة وينتصر لهم زنادقة ، ايضاح هذا الامر ببعض الادلة والامثلة .
- الامر السادس : أن من مكائد الغلاة وعبدة القبور للجهال والعوام أنهم يقولون لهم ان المخالفين لهم لم تزل تصيبيهم النكبات والمصائب ، ويمثلون بابن تيمية وأشباهه بخلاف من سلك مسلكهم فانهم منعمون ممتعون .
- رد المؤلف لهذا الكلام ، ويبان أن كثيرا من الائمة والعلماء حصل لهم نكبات ولم يحط ذلك من قدرهم .
- بيان أن ما أصاب ابن تيمية وأصحابه هو مما يزيد ذوي الالباب بصيرة على علو قدره .
- الامر السابع : أن من علم حال النبهاني لم يلتفت لما ذكره لجبله وغباوته ، ايضاح هذا الامر ، وذكر شيء من أحوال النبهاني .
- الامر الثامن : لابد للمتناظرين من مرجع يكون بينهما يرجعان اليه عند التنازع ، وهو الكتاب والسنة ، شرح هذا الموضوع بالادلة ، وذكر كلام بعض العلماء .
- ايراد ما ذكره شمس الدين في هدايته : من أن جميع النبوات متفقة على أصول ، ذكر ثمانية عشر أصلا .
- بدء المؤلف في ايراد كلام النبهاني حول انكاره للاجتهاد المطلق والتشنيع عليه .
- رد المؤلف لهذا الكلام من وجوه ، الوجه الاول : رد دعوى نسبة الاجتهاد للوهابية .
- الوجه الثاني أن الكلام على الاجتهاد مفروغ منه ، وما اشترطه الاصوليون ممكن ، ولم يقولوا بسد باب الاجتهاد .
- الوجه الثالث : أن القول بسد باب الاجتهاد قول باطل ،

- ومخالف للشرع ، لكونه يقضي باخلاء الارض من القائمين
 لله بحججه ، ايراد كلام ابن القيم في ذلك •
- الوجه الرابع : أن مالمس عليه اثاره من علم ليس بمقبول ،
 فالاجتهاد لم يرد دليل على ختمه بأحد ، بخلاف النبوة ،
 شرح هذا الوجه ببعض الادلة •
- الوجه الخامس : أن ما ذكره النبهاني من أن الاجتهاد لا يدعيه
 اليوم الا مختل العقل والدين • الخ قول لامعنى له •
- الوجه السادس : أن ما استدل به النبهاني على ذلك من أن
 الجلال السيوطي لما ادعى الاجتهاد كتبوا له سؤالاً فرد السؤال
 من غير كتابة • الخ لا يثبت عن السيوطي ولو ثبت لم يصح
 أن يكون دليلاً •
- الوجه السابع : أن ما استدل به النبهاني على ذلك مما نقله
 عن ابن حجر المكي كلام ساقط ، ايضاح ذلك •
- الوجه الثامن : أن كل واحد من الأئمة صرح بأنه اذا صح
 الحديث فيجب اتباعه •
- الوجه التاسع : أن ما ذهب اليه النبهاني يقتضي أن يقدم
 كلام من يقلد اليوم على ما صح من الاحاديث • الخ ، شرح
 هذا الوجه ، و ايراد كلام لشيخ الاسلام في ذلك •
- الوجه العاشر : أنه يفهم من كلام النبهاني وجوب تقليد أحد
 الأئمة الاربعة ، ومن أخذ دينه من الكتاب والسنة خرج عن
 جادة الصواب ، وذلك مردود ، شرح هذا الوجه بايراد
 كلام للحافظ ابن القيم •
- ايراد المؤلف لجملة من كلام النبهاني وما ذكره من أن القرآن
 قد فرغ من تفسيره ، ومعه أن يفسر على مقتضى الاذواق
 العصرية ، وتعرضه لبعض الأئمة بالذم •
- حاصل ما دل عليه كلام النبهاني من المقاصد •

الموضوع	الصحيفة
الكلام على كتب التفسير ، والاحتياج الى تفسير موافق لافكار أهل العصر •	٧٨ - ٨٦
الكلام على قول النبهاني ان الذي يتصدى لطلب تفسير مشتتل على العلوم العصرية ملحد ، شرح هذا الموضوع مع ذكر بعض الادلة ، والاستشهاد على ذلك بكلام جيد لشيخ الاسلام ابن تيمية •	٨٦ - ٩٢
الكلام على قول النبهاني أن الوهاية مبتدعة غير أن ضررهم دون من قبلهم •	٩٢ - ١٢٠
الاستشهاد على بطلان قول النبهاني بكلام للشيخ عبد اللطيف بن حسن بين فيه تمسك الشيخ محمد بن عبد الوهاب بمذهب السلف وزيف خصومه وضلالهم •	٩٢ - ١٠٨
ايراد بعض القوائد الدالة على أن النبهاني وأضرا به هم المبتدعة وأهل الشرك والضلال •	١٠٩ - ١٢٠
تغليط النبهاني في قوله انه لم يطبع من كتب الشيخين الا عشرة كتب •	١٢٠
التنبيهات التي اشتمل عليها القسم الثاني من مقدمة كتاب النبهاني وهي اثنا عشر تنبيها •	١٢١ ، ١٢٢
رد المؤلف لبعض ماجاء في تلك التنبيهات •	١٢٢ - ١٢٤
الكلام على الباب الذي عقده النبهاني في اثبات مشروعية السفر لزيارة قبره صلى الله عليه وسلم •	١٢٤
بدء المؤلف في رد ماجاء في هذا الباب ، والاشارة الى أن النبهاني يستدل بأشياء مردودة •	١٢٤ - ١٣٠
ايراد كلام لابن القيم يناسب هذا المقام وقد ذكر فيه عشرة أسباب من شأنها منع قبول الحق مع العلم به •	١٢٤ - ١٣٠
ايراد المؤلف لما قاله ابن تيمية في الزيارة للاستدلال به على بطلان مانسبه الخصوم لابن تيمية وزوروه عليه •	١٣١ - ٢١٣

الموضوع	الصحيفة
مأورده من ذلك عن كتاب (الجواب الباهر) وهو يشتمل على منع شد الرحل لزيارة القبور ، والرد على من قال بمشروعية ذلك .	١٦٠ - ١٣١
وجوب التفريق بين الزيارة الشرعية والزيارة البدعية .	١٣٩ - ١٣٣
حكم السفر الى القبور وبيان ما عليه السلف الصالح في ذلك .	١٤٢ - ١٣٩
ايضاح أن الصحابة لم يطمع الشيطان فيهم كما طمع في غيرهم .	١٤٥ - ١٤٢
بيان أن القول بأن هذا الفعل مستحب أو منهي عنه أو مباح لا يثبت الا بدليل شرعي .	١٥٤ - ١٤٦
الزيارة المتضمنة لتترك مأمور أو فعل محظور ليست مشروعة، شرح هذا الموضوع وبيان اختلاف حكم الزيارة باختلاف المقاصد .	١٥٨ - ١٥٥
زيارة الشرعية ، والزيارة المنهي عنها ، وأنواع الزيارة الثلاثة .	١٦٠ - ١٥٨
مأورده المؤلف من كلام شيخ الاسلام في رده على المعترض المالكي فيما ذهب اليه من مشروعية السفر الى القبور .	٢١٣ - ١٦٠
تسعة وجوه في الرد على أدلة المعترض المالكي وما ذهب اليه .	١٩٤ - ١٦٠
رد ماقاله المعترض المالكي من تضافر النصوص عن الصحابة والتابعين والمجتهدين وابطال وجه استدلاله بذلك على ما ذهب اليه ، شرح المقام ببيان المشروع من الزيارة والصلاة والسلام على النبي (ص) والمنوع من ذلك .	٢٠٤ - ١٩٤
رد ما استدل به المعترض المالكي في زيارة قبر النبي (ص) بالقياس على زيارة الحي ، شرح هذا المقام ببيان الجائز والمنوع من ذلك .	٢١٣ - ٢٠٤
بيان وجه الاستدلال بالنقول المتقدمة على بطلان كلام	٢١٤ ، ٢١٣

- النهائي
- رد الامام ابن قدامة على القول بأن الزيارة تعظيم ، وتعظيم النبي (ص) واجب ، فتكون الزيارة مشروعة ، شرح هذا المقام باثني عشر وجها • : ٢٢١ - ٢٢١
- تكذيب وابطال الخرافة المنسوبة لأحمد الرفاعي من مديده الى النبي (ص) ورؤيته له ، شرح هذا المقام ، وبيان بطلان دعوى رؤية النبي (ص) يقظة بعد موته • : ٢٣١ - ٢٣١
- فضل المدينة ورجحان مذهب أهلها • : ٢٤٩ - ٢٣١
- جملة من كلام ابن تيمية في هذا الموضوع • : ٢٤٩ - ٢٣٢
- التحقيق في مسألة اجماع أهل المدينة أنه على أربع مراتب ، ذكر هذه المراتب • : ٢٣٨ - ٢٣٤
- جملة من التعليقات لكون قول أهل المدينة أصح الاقوال رواية ورأيا • : ٢٤٩ - ٢٣٨
- الجواب عما ذكره النهائي من مشروعية الاستغائة بالنبي صلى الله عليه وسلم • : ٢٥٥ - ٢٥٥
- الكلام على حديث (أسألك بحق السائلين عليك وبحق مشاي هذا) الحديث • : ٢٥٥
- بيان أن الاستغائة بمخلوق فيما لا يقدر عليه الا الله لا تجوز. تعريف العبادة لغة واصطلاحاً ، وبيان أنها تجمع أصليين ، وأن لها مرتبتان • : ٢٥٦ ، ٢٥٧
- توحيد الله بالتعظيم على ثلاثة أقسام ، شرح هذه الاقسام ، وايراد كلام لابن القيم يتعلق بالمقام • : ٢٦١ - ٢٥٨
- رد ما استدل به النهائي من كلام بعض العلماء لاثبات الاستغائة بغير الله ، وما تعلق به من الشبهة في ذلك • : ٢٦٢ ، ٢٦١
- كلام للشيخ عبد اللطيف من (مناصح التأسيس) أورده المؤلف للاستشهاد به على رد الشبهة التي تعلق بها النهائي : ٢٨٨ ، ٢٦٢

- وأمثاله •
- ٢٨٩ : ذكر شبه أخرى للمجوزين للاستغاثة بغير الله وإبطالها •
- ٢٨٩ - ٣٠٠ : ايراد المؤلف لجملة من كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب في (كشف الشبهات) للاستشهاد به على بطلان تلك الشبه
- وردھا •
- ٣٠٠ - ٣٠٢ : رد بعض الشبه حول زيارة قبور الصالحين والانتفاع بزيارتها •
- ٣٠٣ - ٣٠٥ : رد ما انتقده النبهاني وأضراجه على الشيخ محمد بن عبد الوهاب •
- ٣٠٦ - ٣٠٩ : الجواب عما قيل من أن بعض الناس اعتوا بالرد على الشيخ محمد بن عبد الوهاب •
- ٣٠٧ - ٣٠٩ : ايراد جملة من كلام الشيخ عبد اللطيف (في المنهاج) للرد به على الخصوم •
- ٣٠٩ ، ٣١٠ : الجواب عن مازعمه النبهاني من أن علماء المذاهب الاربعة ردوا على ابن تيمية •
- ٣١٠ - ٣٢٧ : ذكر المجالس التي انعقدت لمناظرة الشيخ بن تيمية في عقيدته الواسطية •
- ٣٢٧ - ٣٢٩ : الجواب عن ما ذكره النبهاني من أن بعض الائمة تكلم في حق ابن تيمية •
- ٣٢٩ - ٣٣٢ : ايراد قصيدتين للرد بهما على أبيات السبكي التي قالها في حق ابن تيمية •
- ٣٣٢ - ٣٣٦ : ذم بن قدامة لكتاب (شفاء السقام) للسبكي •
- ٣٣٦ - ٣٤٧ : رد ما أورده النبهاني من كلام السبكي في حق ابن تيمية وكتابه (العقل والنقل)
- ٣٤٦ : الجواب عما استشكل من كون الباري جل وعلا سمع العبد وبصره الوارد في حديث (كنت سمعه الذي يسمع به وبصره

الموضوع	الصحيفة
• الذي يبصر به)	
رد ماأورده النبهاني من أن ابن حجر العسقلاني تكلم في حق ابن تيمية •	٣٥١ - ٣٤٨
رد باقاله النبهاني من أن صفي الدين الحنفي وابن كثير من جملة من رد على ابن تيمية •	٣٥٣ - ٣٥١
الجواب عما قاله النبهاني من أن الشيخ مصطفى الشطي ألف رسالة في الرد على الوهاية ، وأن ابن تيمية قد خرج من مذهب الحنبلي •	٣٥٤ ، ٣٥٣
الجواب عما أورده النبهاني من كلام ابن حجر المكي في ذم شيخ الاسلام ابن تيمية ، ويبان أن ابن حجر المكي من أكبر خصوم شيخ الاسلام •	٣٥٧ - ٣٥٤
جواب المؤلف عن ما نقله النبهاني عن ابن حجر بجوابين : مجبل ، ومفصل •	٣٦٠ - ٣٥٧
رد مادعاہ النبهاني من ولاية ابن حجر المكي • الخ	٣٦٥ - ٣٦٠
كلام في تعريف البدعة ، شرح الموضوع بإيراد بعض ماحدث من البدع المنكرة •	٣٧٢ - ٣٦٥
رد مادعاہ النبهاني من اتفاق علماء المذاهب الاربعه على رد بدعة ابن تيمية وأن منهم من طعن عليه ، وإيراد جملة من ثناء الأئمة على ابن تيمية ورفعته مقامه •	٣٧٦ - ٣٧٢
الجواب عما تعرض به النبهاني لبعض كتب شيخ الاسلام بن تيمية •	٣٧٧
إيراد المؤلف لآيات من نونية ابن القيم ذكر فيها مؤلفات ابن تيمية ، وحث على مطالعتها •	٣٧٧ - ٣٧٩
شرح تلك الآيات •	٣٧٩ - ٣٨٣
بعض مؤلفات ابن تيمية : في أصول الفقه ، وفي الفقه ، وفي أنواع شتى من العلوم •	٣٨٣ - ٣٨٥

الموضوع	الصحيفة
رد انتقاد النبهاني لكتاب (الجواب الصحيح) الذي ألفه شيخ الاسلام بن تيمية .	٣٨٦
رسالة قصيرة من عبد الله بن حامد في فضل بن تيمية ، ومحبة أهل العلم له .	٣٨٧ — ٣٨٩
رد مازعه النبهاني من أن ابن تيمية قد تعرض لأولياء الله بالسوء .	٣٨٩ — ٤٠٦
نبذة من كلام ابن تيمية توضح الفرق بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن ، وتوضح ما عليه أهل الحلول والاتحاد وأنهم ليسوا أولياء لله .	٣٩٠ — ٤٠٦
رد مازعه النبهاني من أن الله قد قلل النفع بكتب ابن تيمية .	٤٠٦
رد ماعارض به النبهاني على كتاب (منهاج السنة) وكتاب (العقل والنقل) لابن تيمية .	٤٠٧ — ٤٣٦
الوجه الاول من وجوه الرد .	٤٠٧
الوجه الثاني من وجوه الرد .	٤٠٨
الوجه الثالث من وجوه الرد .	٤٠٩
الوجه الرابع من وجوه الرد .	٤١٠
الوجه الخامس والسادس من وجوه الرد ، الاستشهاد بكلام ابن تيمية في ذلك ، وقد تناول فيه النزاع في وجود الخضر ووفاته .	٤١١ — ٤١٧
الوجه السابع من وجوه الرد ، وهو في بيان حجج المنكرين لحياة الخضر ، الاستشهاد بكلام ابن تيمية في ذلك .	٤١٧ — ٤٢٠
تسعة من وجوه من المعقول على عدم حياة الخضر .	٤١٨ ، ٤١٩
الذاهبون الى حياة الخضر ، ايراد مستنداتهم والرد عليها .	٤٢٠ — ٤٢٢
الوجه الثامن من وجوه الرد ، وانكار مايجري على السنة بعض الناس من الاسماء : مثل الفوئ ، والواتاد ، والاقطاب	٤٢٢ — ٤٢٤

- والاببدال .. الخ •
- ٤٢٤ - ٤٣٦ : الكلام على ماجاء من تحذير النبهاني عن مطالعة (منهاج السنة) و (العقل والنقل) لابن تيمية ، وكتاب (جلاء العينين) •
- ٤٢٨ - ٤٣٥ : المراد بالسنة وأهلها ، و البدعة وأهلها ، ايراد كلام لابن تيمية في ذلك •
- ٤٣٥ ، ٤٣٦ : ايضاح أن شيخ الاسلام لم يرد الا على من خالف الشريعة •
- ٤٣٦ : رد مانسبه النبهاني لشيخ الاسلام من القول بالجهة •
- ٤٣٦ - ٤٤١ : رد ما تكلم به النبهاني في شأن (جلاء العينين) ومصنفه •
- ٤٤٢ - ٤٧٨ : نزاع العلماء في مسألة العلو ، والاستواء ، والنزول ، وانكار القول بالجهة •
- ٤٤٢ : مازعمه النبهاني من نسبة القول بالجهة لشيخ الاسلام •
- ٤٤٢ - ٤٤٦ : بدء الجواب عن ذلك ، وبيان أن مسألة العلو ، والاستواء والنزول : من غوامض المسائل ، شرح ذلك ببعض الادلة والنقول •
- ٤٤٧ : شرح لفظ الجهة ، يجب تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين •
- ٤٤٧ : كلام ابن القيم على مسألة العلو وايراده لكلام الأئمة •
- ٤٤٨ : كلام الامام أبي حنيفة في ذلك •
- ٤٥٠ : قول الامام مالك وأئمة أصحابه ، وقول أبي عمر الظلمكي في ذلك •
- ٤٥٠ - ٤٥٤ : قول ابن عبد البر في ذلك •
- ٤٥٥ - ٤٥٨ : قول الامام القيرواني في ذلك •
- ٤٥٨ ، ٤٥٩ : قول الامام محمد بن وهب المالكي في ذلك •
- ٤٥٩ - ٤٦٣ : قول الامام أبي القاسم المقرئ في ذلك •
- ٤٦٣ : قول الامام محمد بن أبي نعيم المالكي في ذلك •
- ٤٦٣ : قول القاضي عبد الوهاب امام المالكية في العراق في ذلك •

الموضوع	الصحيفة
• قول الامام الشافعي وكبار أئمة الشافعية في ذلك •	٤٦٤ - ٤٦٦
• قول الامام بن جرير الطبري ، والامام أحمد بن حنبل وجماعة من أصحابه في ذلك •	٤٦٦
• الاشارة لأقوال أئمة التفسير ، واللغة ، والزهاد ، وأهل الكلام ، والاشعري ، في ذلك •	٤٦٦ - ٤٦٨
• قول الرازي ، وقول أبي العباس المظفري في ذلك •	٤٦٨ ، ٤٦٩
• الاستدلال بالمعقول في ذلك •	٤٦٩
• أقوال الشعراء الاسلاميين والجاهليين في ذلك •	٤٦٩ - ٤٧٨
• رجوع النبهاني الى الكلام على كتب شيخ الاسلام ، ومعارضته للقصيدتين اللتين قيلت في السبكي بقصيدة ذكر المؤلف مقدمتها •	٤٧٨ ، ٤٧٩
• رد ما تكلم به النبهاني في ذلك •	٤٧٩ - ٤٩٩
• ذكر بعض الكلام عن الامام الاشعري •	٤٨٠
• شرح حان ابن عربي صاحب الفصوص ، والكلام على الولاية ، وبيان ما كان عليه أرسطو وابن سيعين ونحوهما •	٤٨١ ، ٤٨٢
• نبذة من كلام ابن تيمية في بيان مذهب أولئك ، وما يقوله ابن سينا وأتباعه من أهل وحدة الوجود ، الرد عليهم •	٤٨٣ - ٤٨٥
• قصيدة لابن المقرئ في أحوال من قال بوحدة الوجود •	٤٨٥ - ٤٨٨
• الرد على النبهاني في تصديه للقصيدتين اللتين جرى الرد فيهما على السبكي بسبب تحامله على شيخ الاسلام ، وبيان أن النبهاني ليس كفوا لمعارضة هاتين القصيدتين •	٤٨٨ - ٤٩٢
• ذم النبهاني لكتاب (العرش) لشيخ الاسلام •	٤٩٢
• الرد على النبهاني فيما قاله وبيان أن نقله عن كتاب (العرش) غير صحيح •	٤٩٣
• جملة من كلام ابن تيمية وأحد الواسطي في الاستواء والعرش •	٤٩٣ - ٤٩٩

اتتهى

(تصويب الخطأ)

- ١ - وقع السطر الخامس من التعليق رقم (١) الموجود في صحيفة (٣٥) والذي أوله : لا يقدر - وقع بين انسطر لبعادس والسابع اللذين هما التعليق رقم (٢) فليعدل .
- ٢ - جدول تصحيح الاخطاء الاخرى : -

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
تذكرون	تذكرن	١٣	٩٦
(١) المطففين : ١٥	_____	٢٧	١٠٢
وكذا خيرا لي في ديني	وكذا لي في ديني	١٣	٣٤٣
الحاد هؤلاء	الحاء هؤلاء	٢١	٣٩٧
وقال	ه قال	٦	٣٩٨
ثم أنزل الله سكينته	ثم أنزل سكينته	١٣	٣٩٨
اذ تقول	اذ يقول	١٥	٣٩٨
وان الشياطين	ان الشياطين	٨	٣٩٩
مخالفة أمر الله	مالفة أمر الله	١٠	٤٠٢
المستعان على ماتصفون	المستعان ماتصفون	٥ ، ٤	٤١١
أن نعززه	أن نعززه	٩	٤١٦
دكا	دكاء	١٠	٤٥١
وأن الخلق	أن الخلق	٢٢	٤٥٦
أخلى مكانا يقعد	أخلى ككا; يقعد	٧	٤٩٥
ولا يكفيه	ولا يكفيه	٨	٤٩٧

